

ركائز القدوة فى تفسير الدعوة

تأليف

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق
جامعة الأزهر

(۲)

(٣)

(١٠)
ركائز القدوة
في تفسير الدعوة

(٤)

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

﴿حقوق الطبع محفوظة للمؤلف﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾

(٦)



المجلد العاشر
يشمل هذا المجلد تفسير

- سورة "المؤمنون".
- سورة "النور".
- سورة "الفرقان".
- سورة "الشعراء".
- سورة "النمل".
- سورة "القصص".
- سورة "العنكبوت".



(^)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ،،

فقد تم بحمد الله تعالى ، وبعبونه تفسير المجلد التاسع من :

"ركائز القدوة في تفسير الدعوة"

وقد انتهى المجلد التاسع بتفسير سورة "الحج" ، وهذا فضل كبير من الله تعالى علي ، وأسأله سبحانه وتعالى أن ينعم علي بالمزيد ، وأن يوفقني لتحقيق الأمل لأنتهى من تفسير القرآن الكريم كله وفق المنهج الذي وضعته ورجوت فيه ربي لأتمكن من الانتهاء من التفسير وفق المنهج الذي حددته وهو :

(١) بيان المعنى المراد من الآيات في صورة تحليلية مفصلة .

(٢) إظهار المعنى اللغوي للألفاظ ، وللنظم من خلال التفسير ليظهر المعنى

الكلّي للآيات على أساس المفهوم اللغوي للآيات والجمل القرآنية .

(٣) أن يقدم للدعاة أهم الركائز التي تفيدها الآيات ، والتي بتطبيقها يكون

الدعاة قادة ، ومصلحين وسط الناس ليحققوا الريادة الدينية .

(٤) إبراز الركائز المستفادة من الآيات لتوضيح مفهوم دعوى يرتبط بركن أو

أكثر من أركان الدعوة ، وقد ترتبط الركائز بالآيات ارتباطاً مباشراً أو

بعيداً لأنني أقصد أن يستفيد الدعاة بالآيات ، ويتخذوها موضوعاً لكلامهم

، وعملهم ، ويجمعوا مع الركائز ما يناسبها من آيات الله تعالى ومن

السنة النبوية .

(١٠)

(٥) عرضت القصص القرآني مجزءا ، وقسمت القصة الواحدة الطويلة الآيات في السورة الواحدة إلى مواقف ، أو مشاهد ، أو مقاطع في صور متتابعة حتى تكتمل القصة ، لأن ذلك يوضح القصة كلها ، ويمكن الدعاة من عرض القصة الواحدة مجزأة ليحيط كل جزء بالعبر والدروس والعظات المستفادة منه ، وهذا إثراء لكلمات القرآن الكريم ، واستفادة بالقصص ، وترسيخ للعبرة في الفؤاد والضمير .

(٦) حرصت على إبراد الأحاديث الصحيحة ، الموافقة للآيات لتكون زادا للدعاة ، وهم يدعون الناس بالقرآن الكريم .

(٧) حاولت بقدر الإمكان البعد عن الخلافات المذهبية والكلامية منعاً للتشتت الفكري الذي يحقق الجدل والمراء ، واكتفيت بعرض مذهب أهل السنة المتهدى بهدى القرآن الكريم ، وبأسلوبه في الدعوة والخطاب .

(٨) حاولت إحاطة الآيات بأمر ترتبط بها مثل صلتها بما قبلها ، وبيان موضوعها الرئيسي ، وتلخيص معناها العام ، لتوضيح المعنى بأكثر من طريق .

هذا ما أملتة في منهجى ، وأرجو أن يوفقنى الله فيه ، وينفع به ، والله من وراء القصد ، وهو حسبى ، ونعم الوكيل .

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

٠٧ رمضان ١٤٣٣ هـ
م. نصر فى
٢٦ يوليو ٢٠١٢ م

التعريف
بِسُورَةِ "الْمُؤْمِنُونَ"

(۱۲)

التعريف بسورة "المؤمنون"

يحتاج التعريف بسورة "المؤمنون" إلى دراسة المباحث التالية :

- أولا -

تنزيلات السورة

سورة "المؤمنون" هي أول الجزء الثامن عشر ، وهي سورة مكية بالإجماع ، وقد ذهب البعض إلى أن بعض آياتها مدنية لتناولها بعض الفرائض التي شرعت في المدينة ، ولذلك قالوا : إن قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾^(١) آية مدنية ، لأنها تكلمت عن الزكاة التي لم تفرض إلا بعد الهجرة في المدينة المنورة .

وقد رد العلماء عليهم بأن الزكاة المذكورة في الآية هي الصدقة ، وليست هي الزكاة المفروضة ، والمشهور في القرآن الكريم إن الزكاة كانت معروفة في الأديان السابقة ، وفق شريعتها . يقول الله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾^(٢) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾^(٣) . ويقول الله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾^(٤) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾^(٥) وعلى هذا يكون ذكر الزكاة في القرآن المكي جائزا بما ساد من مفهوم الزكاة عند أهل مكة قبل الهجرة .

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٤ .

(٢) سورة مريم ، الآية ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) سورة فصلت ، الآية ٦ ، ٧ .

(١٤)

وعلى ذلك فالسورة مكية بالإجماع كما قطع بذلك أبو حيان في البحر المحيط^(١) .

وعدد آيات السورة مائة وسبع عشرة آية عند الجمهور ، وعددها أهل الكوفة مائة وثمان عشرة آية .

وقد نزلت السورة بعد سورة "الطور" .

- ثانيا -

مسميات السورة

سميت السورة بأربعة أسماء هي :

(١) سميت السورة باسم "سورة المؤمنين" لأنها بدأت بالحديث عن فلاح المؤمنين .

يروى النسائي بسنده عن عبد الله بن السائب رضي الله عنه قال : حضرت رسول الله ﷺ يوم الفتح صلى قبل الكعبة فخلع نعليه ، فوضعهما عن يساره ، فافتتح بـ "سورة المؤمنين" ، فلما جاء ذكر موسى أو عيسى أخذته سعة فركع^(٢) .

(٢) تسمى السورة بـ "المؤمنين" لورود لفظ المؤمنين في أولها فجعلها رسول الله ﷺ اسما للسورة .

(٣) وتسمى السورة بسورة "قد أفلح" ، يقول أبو القاسم أخرج لنا مالك مصحفا لجدّه فتحدثنا أنه كتبه على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ... فوجدنا في سورة "قد أفلح" الثلاث كلها لله^(٣) .

(١) تفسير الألوسي ج ١٨ ص ٢ .

(٢) سنن النسائي . كتاب الافتتاح . باب قراءة بعض السور ج ٧ ص ٤١٠ .

(٣) المقصود بالثلاث هنا الأسئلة الثلاثة وأجوبتها الواردة في السورة وهي : ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ ﴾

(١٥)

(٤) وتسمى السورة بسورة "الفلاح" لذكر الفلاح في أولها ، وقد مدح النبي ﷺ الآيات العشر في أولها .

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : "كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي نسمع عند وجهه دويًا كدوي النحل ، فأنزل عليه يوما ، فمكثنا ساعة فسرى عنه ، فاستقبل القبلة فرفع يديه فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ، ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وارضنا ثم قال : "لقد أنزلت علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة" . ثم قرأ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١) حتى ختم العشر ^(٢) .

- ثالثا -

صلة سورة "المؤمنون" بسورة "الحج"

بين سورة "المؤمنين" وسورة "الحج" صلات عديدة من عدة أوجه ... أهمها :
الوجه الأول :

في آخر سورة "الحج" جاء الأمر للمؤمنين بالعبادة والمحافظة على الصلاة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(٣) ، وجاءت الآيات الأولى

وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴿٨٧﴾ سورة المؤمنون ، الآيات [٨٤ . ٨٩] .

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١ والحديث في تفسير الألوسي ج ١٨ ص ٢ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٨ ص ٢ .

(٣) سورة الحج ، الآية ٧٧ .

(١٦)

من سورة "المؤمنين" تتحدث عن صفات المؤمنين وتحدد سبب فلاحهم . ومنها الخشوع والمحافظة على الصلاة .

الوجه الثانى :

جاءت سورة "المؤمنين" تفصل ما أجمل فى سورة "الحج" . ففى سورة "الحج" قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾^(١) حيث تبين أن الله سبحانه وتعالى اختار رسلا من الناس ، وأرسلهم إلى أمهم ، وجاءت سورة "المؤمنون" تفصل فى قصص "نوح" عليه السلام وموسى وهارون عليهما السلام مع الإشارة إلى تتابع رسل الله فى الناس .

الوجه الثالث :

السورتان مكيّتان وكلتاها آيات بينات دالة على وحدانية الله تعالى وعلى اتصافه بكل كمال يليق بذاته سبحانه وتعالى .

الوجه الرابع :

أن السورتان تكلمتا عن خلق الإنسان وتطوره فى نشأته الأولى ، وجعلتا هذه النشأة دليلا على البعث والنشور .

- رابعا -

موضوعات سورة "الإسراء"

سورة "المؤمنين" سورة مكية ، ولذلك نجدها تتميز بما تميزت به السور المكية . حيث تبدأ بذكر المؤمنين الذين يتصفون بطاعتهم لله تعالى ، ويستحقون الفردوس الأعلى فى الآخرة التى يرثونها لصدق إيمانهم ، وحسن استقامتهم فى طاعة الله ، وبذلك تثبت الدار الآخرة وما فيها من جنة ونعيم .

(١) سورة الحج ، الآية ٧٥ .

وتأخذ الآيات فى ذكر الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته ،
واتصافه بكل كمال يليق به سبحانه وتعالى من خلال الآيات المعجزة فى خلق
الإنسان من تراب ، وتطوره فى الخلق والإيجاد إلى أن يضعه الله فى أحسن
الخلق ، ثم يميته ، ويبعثه فى الآخرة للحساب والجزاء .

وبذلك تدل الآيات على قدرة الله بالآيات الكونية العديدة .

وتأخذ الآيات فى إيراد قصص الرسل فتطيل فى قصص نوح وموسى
وهارون عليهم السلام ، وتكمل فى قصص آخر ، وتشير إلى سائر القصص
مع التركيز على نعم الله على الرسل ، وعلى انتصارهم ، واهلاك أعدائهم .
وتبين السورة أن المشركين يؤمنون بأن الله هو الخالق ، ومع ذلك يعبدون
غيره .

وهكذا تدور السورة مع أركان العقيدة .

فمع توحيد الله وصفاته نقراً قوله تعالى :

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ^(١) .

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ ^(٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ ^(٣) وَالَّذِينَ هُمْ بِعَائِتِ رَبِّهِمْ

يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٤) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ ^(٥) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا

وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ ^(٦) .

﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٧) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ

قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ^(٨) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١٤ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية ٥٢ .

(٣) سورة المؤمنون ، الآيات ٥٧ . ٦٠ .

الْعَظِيمِ ﴿٨١﴾ سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٢﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ
مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٣﴾
سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ ۚ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٤﴾ (١) .

- ﴿ فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿٨٥﴾
وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ
رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٦﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ
الرَّاحِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (٢) .

والآيات واضحة الدلالة في أن الله واحد أحد ، أحسن كل شيء خلقه ،
وأفاض على خلقه بنعمه وفضله ، فهو الملك الحق ، وهو رب العرش العظيم
وهو الغفور الرحيم ... والمشركون يؤمنون بكل ما لله من صفات إلا أنهم
يعبدون غيره ، وهذا هو الكفر .
وعن إرسال الرسل نقرأ قوله تعالى :

- ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ
غَيْرِهِ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٣) .

- ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا ۚ كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَاتَّبَعَنَا بَعْضُهُمْ
بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) .

(١) سورة المؤمنون ، الآيات ٨٤ . ٨٩ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآيات ١١٦ . ١١٨ .

(٣) سورة المؤمنون ، الآية ٢٣ .

(٤) سورة المؤمنون ، الآية ٤٤ .

والآيات واضحة الدلالة في أن الله أرسل رسلا للناس ، واختار من كل قوم واحدا منهم ، يعرف لسانهم ، ويعيش حياتهم يأكل ، ويشرب ، ويمشي في الأسواق ومع ذلك ينكر الكافرون رسولهم ، ويدعون عدم معرفتهم به .
وقد تتابع الرسل في الأمم كلها ، وحدث لجميعهم ما حدث لكل واحد منهم .

وعن اليوم الآخر يقول الله تعالى :

- ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (١) .

- ﴿ هِيَآتْ هِيَآتْ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (٢) .

- ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٥﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٦﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٧﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٩﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (٣) .

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١٠ ، ١١ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) سورة المؤمنون ، الآيات ٩٩ ، ١٠٤ .

(٢٠)

ومن دلالة الآيات ندرك أن يوم القيامة حق ، وإن البعث حق ، وندرك أن الكافرين ينكرون البعث ، ويستبعدون وقوعه ، ولا قيمة لإنكارهم ، وسوف يندمون على شركهم وكفرهم ، ويتمنون العودة إلى الدنيا ليستدركوا ما فاتهم ، ولن يجاب لهم ما طلبوا ، وسيحاسبون على كل عملهم فمن ثقلت موازينه يفوز ، ويسعد ... ومن خفت موازينه فهو الذى خسر آخرته ، واستحق العذاب الأليم. والإيمان بهذه القضايا يؤكد الإيمان بسائر أركان الإيمان لأن الملائكة هى الواسطة بين الله ورسله ، فمنهم حملة الوحي ، ومنهم الذين يقبضون الأرواح ، وبذلك يثبت الإيمان بالملائكة ، وبالكتب المنزلة من الله على رسله بواسطة الملائكة الذين يحملون الوحي إلى الرسل ، والآيات شاهدة على قدرة الله تعالى ، وإلى خضوع الكون له سبحانه وتعالى ...

سورة "المؤمنون"

التفسير

(٢٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٣)

فلاح المؤمنين

يقول الله تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآية ثبوت فلاح المؤمنين في الدنيا والآخرة بسبب صدقهم في الإيمان والتقوى .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ "قد" تدخل على الفعل الماضي فتؤكد وقوعه

وتثبته ، وتبين قرب وقوعه .

والفلاح هو الظفر بالمراد ، ونيل الغاية المرجوة ، ويعم الجوانب المادية والمعنوية ، ويصل بصاحبه إلى الرضى .

ونسبة الفلاح إلى المؤمنين لبيان أن السبب الذي حقق فلاحهم هو الإيمان الذي التزموا به حتى صار مسمى لهم ، واشتمل على كيانهم كله .

والإيمان وصف جامع للدين كله ، واتصاف إنسان به يعنى صحة عقيدته واستقامة عمله ، وكرم خلقه ، وتمسكه بهدى الله في كل أحواله وحالاته ... ولسان حاله يؤكد قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي

لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١) .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٦٢ .

وعدم ذكر متعلق فلاح المؤمنين يفيد عموم فلاحهم في الدنيا والآخرة فهم في الدنيا يعملون الصالحات كما توضحه الآيات التالية ، وهم في الآخرة ينالون الفوز الأكبر ، والنعيم المقيم .

إن المؤمنين يسارعون إلى الطاعة ، والاستسلام لأمر الله تعالى ، فلما قال الله لهم : ﴿ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(١) أسرعوا إلى الطاعة وتوقعوا حصول الفلاح والفوز إلا أنهم لم يعرفوا اقترابه ، وخافوا من فتنة تقصيدهم عن مرادهم فطمأنهم الله بقوله لهم : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فعلموا تحقق فلاحهم ، وقرب وصولهم إليه ، وتيقنوا من نوال الخير الذي تشوقوا إليه ... وذلك أن ﴿ قَدْ ﴾ إذا دخلت على الفعل الماضى تفيد تحقيق الأمر المتوقع فى وقت قريب ، وبصورة متكاثرة حسنة .

وقوله تعالى : ﴿ أَفْلَحَ ﴾ أى بدأ ظهور الفلاح للمؤمنين لأنهم بإيمانهم يرون الخير فى كل قدر الله تعالى ، وتتنزل عليهم السكينة ، ويزيدهم الله هدى وتحف بهم نسمات رحمة الله ، ويعيشون فى الدنيا آمنين ، خاشعين صالحين .

- ٣ -

معنى الآية

تبين الآية ثبوت فلاح المؤمنين ، وتحقيق ما يأملون ويرغبون بسبب إيمانهم بالله تعالى واستقامتهم على منهجه سبحانه وتعالى ، والتزامهم التام بطاعة الله تعالى ، فيفعلون ما يأمرهم به ، وما يبيحه لهم ، وينتھون عما نهاهم عنه .

(١) سورة الحج ، الآية ٧٧ .

(٢٥)

- ٤ -

ركائز الدعوة فى الآيه

تتضمن الآيه ركيزة هامة ... هى :

حسن البدايات

ضرورة لنجاح الدعوة

يلتقى الإنسان بأخيه ، والأستاذ بتلميذه ، والداعية بالمدعويين ، ولل كلمات الأولى فى هذا اللقاء أثر نفسى كبير ، وفهم لما يقال ويذاع ، وقد سمي علماء البلاغة البداية الحسنة بـ "براعة الاستهلال" وفى خطبة الجمعة اشترط الفقهاء أن تبدأ بهذا البيان الحسن .

ولذلك احتاج الدعوة أن يحسنوا بدايات أفعالهم ، وأقوالهم لأن ذلك هو المدخل الصحيح للقلوب والعقول .

وإذا استمع العقل والقلب سرت المعانى فى كيان الإنسان كله ، وتمكن بها وإذا تمكنت الدلالات الحسنة من روحه صار عبدا ربانيا مستقيما .

وفى الآيه إشارة صريحة وبيان واضح لحسن البداية . فهى أول آية فى السورة نزلت لدعوة الناس إلى الله تعالى ، ولذلك بدأت بذكر الفلاح المطلوب ومن هذا الآيه يستفيد الدعاة ما يلى :

(١) تأخذ الآيه الإنسان إليها ، وهى تحقق له ما يتمنى ، فكل إنسان يسعى إلى الفلاح ، ولذلك تبين الآيه أن هذا الفلاح يتحقق بالإيمان .

(٢) بدأت السورة بالتبشير ، ولم تشر إلى التهيب والتخويف فى شئ لأن الإنسان يحب الخير لنفسه ، ويحب السبل التى تحقق الخير له .

(٣) ربطت الآيه بين العمل والأمل ، وبين الأسباب ومسبباتها ، وجعلت حكمها متصفا بالعدل والحكمة ... إن همة المؤمنين ترجو أن تنال الفوز ، فيعملون له قدر استطاعتهم ، وهم لا يعلمون ما وراء ذلك لأن الأمر

بيد الله تعالى . فجاءت الآية تخبرهم أن ما عملوا له قد تحقق ، وأن الله قبل عملهم واخلصهم .

(٤) الآية تقدم منهاجا واضحا أمام الدعاة ليعلموا منهج الفلاح ويعملوا به ويرون طريق السعادة فيسارعون إليه ، وهم يرجون أن يكونوا من السعداء .

وعلى الدعاة :

أن يأخذوا من الآية منهاجا فى دعوة الناس ، وذلك يتم بمعرفة آمال الناس ، وأعمالهم ، وتحقيق الطريق الصحيح الموصل للأمال ... وعليهم أن يعرفوا المدعويين أن طرق الحركة فى الحياة الدنيا عديدة ، والموصل إلى الخير منها طريق واحد مستقيم ، وهو دين الله تعالى حتى يحذروا طرق الضلال ، ويتمسكوا بالطريق الموصل إلى الله تعالى . يقول الله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ^ط وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ^(١) .

وعلى الدعاة :

أن يأخذوا من الآية حسن الخطاب ليجذبوا الناس إليهم ويبشروهم بالخير ، ويدعوهم إلى العمل الصالح المؤدى إلى تحقيق الأمل والرجاء . وأمام الدعاة أساليب بيانية يختارون منها ما يناسب المدعويين وفق تنوعهم الثقافى والفكرى ، والاجتماعى ... الخ . إن الإيمان هو حلية المؤمن فى الدنيا ، وتاجه يوم القيامة ، وقد خلق الله الإنسان ليكون مؤمنا ، يعبد الله وحده .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٥٣ .

صفات المؤمنين

يقول الله تعالى :

﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ
 ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٨﴾ إِلَّا عَلَى
 أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٩﴾ فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ
 فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَسَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
 عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ سُحَافُظُونَ ﴿١٢﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن الفلاح يتحقق للمؤمنين جاءت هذه الآيات لبيان
 أن المراد الإيمان الحقيقي المقيد بهذه الأعمال .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات عددا من أعمال المؤمنين التي تدل على صدق إيمانهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تتحدث الآيات عن أهم خصال المؤمنين ، وأكبر أعمالهم في الدنيا التي
 يستحقون بها الفوز والفلاح ... وهي :

قيامهم بالصلاة خاشعين

يقول الله تعالى : ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ أى هم الذين يصلون
 لله خاشعين ، مخبتين بصورة كلية تشمل أفعال القلوب ، وأفعال الجوارح ،
 وبذلك يتميزون ، ويعلمون ، لأن الخاشع فى صلاته لابد أن يتحكم فى ظاهره
 وباطنه ، ويخشع بكافة عناصره لله رب العالمين .
 أما خشوع الظاهر فإنه يكون بتتكيس الرأس أثناء القيام ، وابعاد العين عن
 الالتفات ، وتذليل الأذن فى الاستماع ، وخضوع اللسان حين القراءة ، وتحويل
 الجوارح إلى ذلة ظاهرة لله العظيم ، فى قيام بلا حركة ، وفى استواء فى الركوع
 ، وخشوع فى السجود .
 وأما خشوع الباطن فإنه يشمل خشوع النفس بسكونها عن الخواطر
 والهواجس .
 وأما خشوع القلب فيكون بملازمة الذكر ، ودوام الحب .
 وخشوع السر بمراقبة الإله المعبود .
 وأما خشوع الروح فهو استغراقها فى بحر المحبة ، وفنائها فى رحاب
 الجلال ، والجمال ، والكمال .
 وقد حفلت السنة بتوجيهات تحقق الخشوع التام فى الصلاة .
 ومن الخشوع عدم الالتفات فى الصلاة والتركيز فى أفعالها وذكرها ،
 وقراءة القرآن فيها بتدبر وانتقان :
 - عن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات فى
 الصلاة فقال : " هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد " (١) .

(١) صحيح البخارى . كتاب الآذان . باب الالتفات فى الصلاة ج ١ ص ١٥٠ .

- وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : "لا يزال الله مقبلا على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت فإذا التفت انصرف الله عنه"^(١) .
ومن الخشوع أن لا يرفع بصره إلى السماء منعا لتشتت الحواس في المشاهد المتنوعة .

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : "ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم فاشتد قوله في ذلك حتى قال : لينتهين عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم"^(٢) .

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فلما نزل : ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ طأطأ رأسه إلى موضع السجود^(٣) .

ومن الخشوع أن لا يعبث بشئ من جسده في الصلاة حتى لا تتصرف الجوارح عن الاستغراق في خواطر الروح ، وهى تسبح في الجلال والكمال .

- روى أن النبي ﷺ أبصر رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال : "لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه"^(٤) .

- وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : "إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يمسح الحصى فإن الرحمة تواجهه"^(٥) .

(١) السنن الكبرى للنسائي . كتاب المساجد . باب التشديد في الالتفات ج ٢ ص ٣٧ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب الآذان . باب رفع البصر إلى السماء ج ١ ص ١٥٠ .

(٣) السنن الكبرى للبيهقي . كتاب الصلاة . باب . لا . يجاوز . بصره موضع سجوده ج ٢ ص ٤٠٢ .

(٤) شرح السنة للبخارى . كتاب الصلاة باب الخشوع في الصلاة ج ٣ ص ٢٦١ .

(٥) المرجع السابق .

(٣٠)

إن الخشوع فى الصلاة يعنى استغراقا كليا فى المعبود ، وتوجهها تاما نحو رب العالمين ، ولا تتم المناجاة إلا إذا كانت الجوارح معبرة عما فى القلب من الصفاء ، وصارت الروح هائمة فى صفاء القلب وقناعاته .

والخشوع خوف يوجب تعظيم المخوف منه ، ويحقق للمؤمن تقوى الله تعالى لأنه خوف مشوب بحب .

فإن قيل : المؤمن مكلف بالخشوع لله فى كل أحواله وحالاته ، فلم خص الخشوع فى هذه الآية بالصلاة ؟

أقول : خصت هذه الآية الصلاة بالخشوع لبيان أن المؤمنين يجمعون بين الخشوع بصورة عامة ، والخضوع فى الصلاة التى هى أولى أعمال الإنسان بالخشوع لأن فيها يناجى العبد ربه ، حين يقف بين يديه ، ويحب أن ينال أقصى درجات الخشوع أدبا من الله تعالى .

إن الصلاة قرآن ، وذكر ، وحمد ، وثناء ، وتضرع ، وهى بذلك خطاب لله تعالى ، فإذا كان القلب غافلا محجوبا عن جلال الله وكبريائه ، وكان اللسان يتحرك بحكم العادة فى القيام ، والركوع ، والسجود ، فإن الإنسان بعيد عن الخشوع ، ولا ثواب على صلاة خلت من الخشوع ، وإن قبلها الفقهاء .
إن من يخشع فى صلاته يعرف ربه ، وينال الثواب فى سائر أعماله وأقواله . يقول الله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ^(١) .

ويقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ ^(٢) .

ويقول النبى ﷺ : "من لم تنتهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها عن الله إلا بعدا" ^(٣) .

(١) سورة طه ، الآية ١٤ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥ .

(٣) مسند الشهاب القضاعى . باب من لم تنتهه صلاته عن الفحشاء ج ١ ص ٣٠٥ .

- ب -

الإعراض عن اللغو

يقول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أى أن هؤلاء المؤمنين معرضون عن كل ما لا فائدة فيه من الحديث ، وعن كل كلام سئ مثل الكذب ، والهزل ، والسب ، والشتم ، إذ لهؤلاء ما يشغلهم من الأعمال الجادة المفيدة ، فهم فى صلاتهم يعيشون مع ربهم ، يناجونه ، ويذكرونه ، ويدعونهم ، وفى خارج الصلاة يعرضون عن كل ما لا فائدة فيه مثل الكذب والمراء ، والسفاهة : ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(١) .

وقد ذهب البعض إلى أن المراد باللغو هو ما حرمه الله تعالى مثل الغيبة والكذب ، والإفساد بين الناس إلى أن الأولى أن يبقى اللغو عاما شاملا لكل ما لا فائدة فيه ، ولو كان مباحا ليعيش المؤمن مجانبا لكل ما لا فائدة فيه مطلقا ، ويستمر فى كل ما له فيه منفعة ، يقول الله تعالى عنهم : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢) .

- ج -

الحرص على فعل الزكاة

يقول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ أى أنهم كما بلغوا الغاية فى الطاعات البدنية فى الصلاة بلغوا الغاية فى الطاعات المالية ، وهم يبذلون المال مخلصين فى بذله واعطائه لمستحقه .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦٣ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٩١ .

والزكاة تعنى أحد أمرين :

أولاهما : يشمل كل فعل أو قول محمود مرضى . يقول الله تعالى :
﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾^(١) ، والزكاة بهذا المعنى تشمل كل معروف يقوم به
الإنسان ، ومنه ما يخرج الإنسان من حق المال تطهيراً من الذنوب ، ونماء
فى الخير والصواب .

وثانيهما : القدر الذى يخرج الغنى من ماله لمستحقه فرضاً أو نقلاً
وهذا المعنى هو الاستفادة من الزكاة حين الاطلاق .

يقول الزمخشري : الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى ، فالعين هى القدر
الذى يخرج المزكى من ماله لمستحقه ... والمعنى فعل المزكى وهو التزكية
، وهو المراد من الآية لأن الله جعل المؤمنين فاعلين للزكاة وهى التزكية ...
وما من مصدر إلا ويعبر عن معناه بالفعل ، ويقال لمحدثه فاعل ... فالقائل
هو فاعل القتل ، والضارب فاعل الضرب^(٢) .

وهذا يجوز أن يراد بالزكاة الأمرين ، فيراد بها الفعل وهو أداء الزكاة
ويراد بها أثر الأداء وهو التزكية .

والمؤمنون يتصفون بهذه الصفة وتلك فيؤدون من أموالهم قدر ما وجب
عليهم ، وبذلك فهم فاعلون للزكاة وترتقى أرواحهم وتنمو .

فإن قيل : جاءت الزكاة فى القرآن الكريم قرينة الصلاة ، فلم فصل هنا
بينهما بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ ؟

أقول : فصل هنا بين الصلاة والزكاة بالإعراض عن اللغو ، لأن هذا
الإعراض جزء من تمام الصلاة فكان أن قرنهما الله به .

(١) سورة الأعلى ، الآية ١٤ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٧٦ .

(٣٣)

== د ==

تميز المؤمنين بالعفة والطهارة

يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ أى المؤمنون هم الذين يحفظون فروجهم من الوقوع فى الحرام فى كافة الأحوال ، وفى جميع الحالات .

والمراد بالحفظ الصون ، وترك الابتذال ، وصيانة الفروج من كل فعل محرم مثل الوطء ، أو ما يؤدى إليه من نظر محرم ، أو فعل فاحش .

﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ هذا استثناء يفيد حل الزواج والإماء . فقد أحل الله للزوج الوطء ، ودواعيه ، فهذا حقه ، ولذلك كان زوجا ينكح زوجات أربع ، أو ما ملك من الإماء ، ولا لوم عليه فى شرع الله تعالى .

واللوم يعنى الإنكار على الغير ما صدر عنه من فعل ، أو قول لا يليق صدوره منه ، وهو مرادف للعدل ، وأضعف من التعنيف .

﴿ فَمَنْ أَتْبَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ أى فمن أراد لفرجه غير زوجته وامائه فهو معتد ظالم بلغ حدا واضحا فى الظلم والعدوان .

== ه ==

المحافظة على العهد والأمانة

يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَسَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ أى يتميز المؤمنون بأنهم يراعون الأمانة والعهد .

ورعاية الأمانة تعنى المحافظة عليها ، وأدائها كاملة لصاحبها ، والأمانة تكون غالبا فى النفائس التى يخشى عليها صاحبها من التلف فيضعها عند من يظن فيه حفظها ، وغالبا يكون ذلك على انفراد بين الأمين والمؤتمن .

والأمانة خلق كريم فى الإنسان ينشر الحب والثقة بين الناس ، ومن يعرف بين الناس بالأمانة يضع الناس عنده ودائعهم ، ويعدونه رائدا فيهم ... ومن يعرف بالخيانة يبغضه الناس ، ويأبون إبداع شئ لديه .

عن حذيفة بن اليمان قال : حدثنا رسول الله ﷺ أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ، ثم علموا من القرآن ، ثم علموا من السنة ينال الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت ، ثم ينال النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل ، كجمر دحرجته على رجلك فنط ، فتراه منتبرا وليس فيه شئ فيصبح الناس يتبايعون ، فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة ، فيقال : إن فى بنى فلان رجلا أمينا ، ويقال للرجل : ما أعقله ! ... وما أظرفه ! ... وما أجلاه ! ... وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان" (١) .

وجاءت الأمانات جمعا لتشمل كل أنواعها ، وتشمل كل القائمين عليها . ورعاية العهد : يعنى المحافظة على الاتفاق الذى اتفق عليه الطرفان ، لأن العهد يعنى الالتزام بين عدة أطراف تتعهد بعهد الله ، الرقيب عليهم .

والوفاء بالعهد من أعظم الخلق الكريم لدلالته على شرف النفس ، وقوة العزيمة ، فإن الرجلين قد يلتزم كل منهما للآخر عملا عظيما ، فيصادف أن يتوجه الوفاء بذلك الالتزام على أحدهما ، فيصعب عليه أن يتجشم عملا لنفع غيره بدون مقابل ينتفع به هو ، فتسول له نفسه الخنز بالعهد ، شحا ، أو خورا فى العزيمة ، فلذلك كان الوفاء بالعهد علامة على عظم النفس قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۚ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۝ ﴾ (٢) .

(١) صحيح البخارى . كتاب الرقاق . باب رفع الأمانة ج ٨ ص ١٠٤ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٣٤ .

(٣٥)

وجمعت الآية بين رعاية الأمانة والعهد لما بينهما من ترابط ، وليبيان أن كلا منهما يحتاج للآخر . فمن عاهدك قد ائتمنك ، ومن ائتمنك فقد وثق في محافظتك على ما وضعه عندك .

وذكرتهما الآية في سياق صفات المؤمنين لقيام سائر الصفات على الوفاء بما يلزم الإنسان لله ، وللناس .

- و -

المحافظة على الصلاة

يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أى أن من أسباب فلاح المؤمنين محافظتهم على الصلاة ، وقد جاءت هذه الخاصية خاتمة المزايا التي اتصف بها المؤمنون .

ونلاحظ أن صفة المؤمنين الأولى هي الخشوع في الصلاة ، والصفة السادسة هي المحافظة على الصلاة ، ومن المعلوم أن الخشوع والمحافظة متغايران غير متلازمين ولا متناقضين لجواز اجتماعهما ، وافتراقهما .

والمؤمنون يحافظون على الصلاة فيتعهدون شروطها من وقت ، وطهارة ، وصحة ، وأركان ، والخضوع فيها لله رب العالمين ، وقد ختمت الصفات بالمحافظة على الصلاة لتبقى هذه الصفة مستقرة في النفوس لأنها أول ما سمعت ، وآخر ما استقرت عليه الآيات ، وإذا ما رد العجز على الصدر ، فإن هذه الغاية تتضح من تكرار الصلاة .

وروى أنه عليه السلام قال : "إذا أحسن العبد الوضوء ، وصلى الصلاة لوقتها وحافظ على ركوعها ، وسجودها ، ومواقيتها ، قالت : حفظك الله كما

(٣٦)

حافظت علي ، وشفعت لصاحبها . وإذا أضاعها قالت : أضاعك الله كما ضيعتني ، وتلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها" (١) .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات الخصائص والمزايا التي كانت سببا لفلاح المؤمنين وهي المحافظة على الصلاة ، والخشوع فيها ، وترك اللغو ، وإيتاء الزكاة ، والعفة والطهارة ، والوفاء بالعهد والأمانة .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان أصول التقوى الشرعية

الكيس العاقل من يعيش الدنيا كما شرع الله ، ويعمل للآخرة فهي المأوى والمستقر ، وهي الحياة الدائمة الخالدة .

وتتم سعادة الآخرة بتحقيق خلوص النفس من حب الدنيا ، ولجوئها لله رب العالمين ، ولن يتحقق للإنسان ذلك إلا بأمور عدة مشروعة تضمها التقوى ، ويسيطر عليها الخشوع ، والتذلل لله رب العالمين .

وقد تضمنت الآيات الأصول الشرعية للتقوى لأنها أتت على الأعمال التي تنظف القلب والجوارح ، وتنظم الصلة بين الله والناس ، وبين الناس والناس.

(١) شعب الإيمان . كتاب الصلاة . باب تحسين الصلاة ج ٤ ص ٥٠١ .

إنها تنظم علاقة الإنسان بالله وتقيمها على الإيمان ، والتصديق ، واليقين بكل ما يجب لله من كمال ... الأمر الذى يملأ القلب بالحب والخشية ، ويدفع الجوارح إلى الطاعة ، والرضى ، ويحول الأخلاق إلى استقامة على مكارم الأخلاق .

ولذلك تبدو الصلاة مظهرا إيمانيا خاشعا لله ، يتجلى فى حركاتها وأعمالها ... ويسارع المؤمن على المحافظة عليها لأنها حق الله عليه ... وهو فى نفس الوقت أحوج الناس إلى الاتصال بالمنعم العظيم .

وتبين الآيات ما يجب أن يتصف به المؤمن مع الناس ، فهو يتجنب سفاهة القول ، ويترك اللغو ، ويهجر ما لا يفيد ، ويعطيهم من ماله حقوقهم ، ولا يعتدى على عرض غيره ، ويحافظ على الأمانات والعهود .

وبكل هذه الخصائص يتميز المؤمن بعلاقة خالصة صافية مع الله وعلاقة طيبة مع الناس ، وبذلك ينال الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة . وأنت إذا تأملت هذه الخصال وجدتها ترجع إلى حفظ ما من شأن النفوس إهماله مثل الصلاة والخشوع ، وترك اللغو ، وحفظ الفرج ، وحفظ العهد ، والى بذل ما من شأن النفوس إمساكه مثل الصدقة ، وأداء الأمانة . فكان فى مجموع ذلك أعمال ملكتى الفعل ، والترك فى المهمات ، وهما منبع الأخلاق الفاضلة لمن تتبعها .

روى النسائى : أن عائشة قيل لها : كيف كان خلق رسول الله ؟

قالت : كان خلقه القرآن^(١) . ثم قرأت : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ حتى

انتهت إلى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ تَحَافِظُونَ ﴾ .

(١) السنن الكبرى للنسائى . كتاب التفسير . باب سورة "المؤمنون" ج ١٠ ص ١٩٣ .

الركيزة الثانية

أهمية التوازن فى الحياة الإيمانية

حين نتأمل فى الآيات نرى أنها تقيم حياة المؤمنين متوازنة مستقيمة لتقديمها المنهج العملى لعناصر الإنسان الرئيسية لأنها تقدم الخشوع لله ، والإخلاص له ، والتعبد الصادق القائم على الخوف والتعلق ، وعلى الخضوع والحب لتصنع الروح المحبة ، والعاطفة المتصلة بحب عظمة الله وجلاله ، والقلب المقتنع بوجود الله واتصافه بكل كمال يليق به ، فهو مالك الملك ، رحيم الدنيا والآخرة ، واليه المصير .

ولم تكتف الآيات ببناء الجانب الباطنى ، وانما اهتمت ببناء الجانب الظاهرى فى الإنسان ، وذلك بإبعاده عن اللغو وفيما لا يفيد ، وتدعوه إلى الوفاء بالأمانات والعهود ، وترسم له الطريق ليعيش عفيفا طاهرا ، محافظا على عرضه ، وأعراض الآخرين وبذلك يتم بناء ظاهر الإنسان .

والآيات تحدد مظهر الإنسان ، وعمله الدال على ظاهره وباطنه فى صلوات دائمة ، محددة الأركان والشروط ، يحافظ عليها ، ويخشع فيها لله رب العالمين .

إن الإسلام يصنع الإنسان صناعة متكاملة ، بإشباع كافة عناصره بكيفيات واضحة ، ومنهج مستقيم ، لأن الله هو الخالق ، ومن يخلق يعلم ما تحتاج إليه صنعته : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ^(١) .

(١) سورة الملك ، الآية ١٤ .

(٣٩)

ثواب المؤمنين فى الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة صفات المؤمنين وأعمالهم التى فازوا بسببها جاءت هاتان الآيتان لبيان ما أعد الله للمؤمنين فى الآخرة .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن الله أعد للمؤمنين فى الآخرة ميراثا حسنا ، وهو خلودهم فى الفردوس الأعلى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ أى هؤلاء المؤمنون المتصفون بالصفات المذكورة هم الذين يدخلون الجنة ، لأنهم الأحق بوراثتها ، وتملكها بأعمالهم التى أدوها فى الدنيا .

وبدأت الآية باسم الإشارة المفيد للبعد لبيان علوهم ، وسبقهم فى الآخرة ولإظهار أن الصفات المذكورة هى التى حققت لهم وراثته الجنة .

وتوسط ضمير الفصل "هو" لتقوية خبر وراثتهم كأنهم الذين اختصوا بذلك ، واستحقوها وحدهم .

(٤٠)

﴿الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أى أن هؤلاء

المؤمنين يستحقون جنة الفردوس فى الآخرة .

والفردوس اسم من أسماء الجنة فى القرآن الكريم ، وهو أوسط الجنات وأعلاها درجة ومنزلة .

وفى الحديث أن أم سراقه بن مالك رضي الله عنه جاءت لرسول الله ﷺ لما استشهد ابنها يوم "بدر" ، وقالت له : إن كان ابنى فى الجنة أصبر واحتسب !!
فقال لها ﷺ : سلوا الله الفردوس ، فإنها سرّة الجنان ، وإن أهل الفردوس يسمعون أطيّط العرش^(١) .

ويقول ﷺ : "ما منكم من أحد إلا وله منزلان ، منزل فى الجنة ، ومنزل فى النار فمن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله" ، وذلك قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾^(٢) وقيل معنى الورثة هو أن يؤول أمرهم إلى الجنة وتكون لهم كما يؤول الميراث إلى الوارث .

﴿الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ والفردوس هو أعلى الجنة . عن عبادة

بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "إن فى الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ، ومن فوقها يكون العرش ، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس"^(٣) .

(١) صفة الجنة لأبى نعيم الأصبهاني ج ٢ ص ٢٧٦ .

(٢) سنن ابن ماجه . كتاب الزهد . باب صفة الجنة ج ٢ ص ١٤٥٣ .

(٣) السنن الكبرى للبيهقي . كتاب السير . باب الرخصة فى الإقامة بدار الشرك ج ٩ ص ٢٧ .

(٤١)

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن المؤمنين بأعمالهم واستقامتهم يستحقون جنة الفردوس في الآخرة جزاء لهم على ما قدموا في الدنيا .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان نعيم المؤمنين في الآخرة

من سنن الحياة إن لكل عمل قيمة ومردودا ، والناس جميعا يعملون لتحقيق غايات يتمنونها ، ويخططون للحصول عليها .
والعاقل يقدم في يومه ما يحصده في غده ، ويجتهد في العمل والأداء لينال مستقبلا أحسن ، وأرقى مما هو فيه .
وهذه فطرة يوقظها في همم الناس ليعملوا لمستقبلهم الكبير في الدنيا ، وعند الله تعالى .

إن العاقل هو من ينسق بين أهدافه العاجلة والآجلة ، ويضع جميع أمانيه في خط واحد ، توصل كل مرحلة إلى ما بعدها ، وتسير حركة المراحل كلها نحو غاية كبرى وهي إرضاء رب العالمين .

إن ذلك هو الحق ، والعاقل يراه في منهج الإسلام بصورة دقيقة ، لأن دعوة الإسلام تحث على التحلى في الدنيا بحسن العقيدة ، وشرف العمل ، وكرم الخلق ، وهذه تؤدي إلى نجاح المؤمن في الدنيا ، وعليه أن يستمر في النجاح حتى يرتقى في سلم العروج إلى الله ، وهو صالح في عمله وقوله محبوب من الناس ، محافظ على ما عليه من حقوق .

(٤٢)

وإذا التقى المؤمن بالله باستقامته فى الدنيا نال الفردوس ، وورث النعيم فهو نصيبه المستحق عند الله تعالى . يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوفِّهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾^(١) .

إن العاقل هو من يستقيم على دين الله فى الدنيا ، وهو خير كله لينال استقامة نصيبه فى الآخرة .

ولذلك كان من حكمة المؤمن أن يعيش صادقاً مخلصاً فى الدنيا لينال جنة حسنة فى الآخرة . يقول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّاهِ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾^(٢) .

الركيزة الثانية

منهجية الترغيب فى الآلية

تتضمن الآلية ترغيباً فى الإيمان ، ودعوة إلى طاعة الله تعالى ، لأن الله أعد للطائعين فوزاً كبيراً فى الآخرة فقد جعل لهم أعلى الجنة ، وهو الفردوس الأعلى ، يكون لهم إرثاً يتمتعون به ، حقاً لهم كما يرث الإنسان أموال أصوله ومجد أبيه .

وهذا لون من ألوان الترغيب فى الدعوة إلى الله تعالى يوضحه الله فى الدنيا ليستفيد به أصحاب العقول الفاهمة ، ويسارعوا إلى المحافظة على الأسباب المؤدية إلى هذا الفوز الكبير .

وعندما تكف الحياة ، ويكثر الظلم ، وينتشر الطغيان يجد المؤمنون فى روضات الجنات الأمل المرتجى ، فيعملون له فى رغبة ، وحب ، ورجاء .

(١) سورة النور ، الآية ٢٥ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٣٢ .

(٤٣)

آيات الله فى الخلق

لما بينت الآيات صفات المؤمنين التى استحقوا بها الفردوس الأعلى أخذت السورة فى ذكر آيات الله فى خلقه ، فذكرت آيات الله فى خلق الإنسان واماتته ، وبعثه ... ووضحت آياته سبحانه فى خلق السموات والأرض ، وخلق الأنعام ، ونزول المطر ، وخلق الزرع والنبات ، وخلق وسائل السفر فى البر والبحر والجو .

وسأورد هذه الآيات كما هى فى آيات القرآن الكريم مستفيدا بدلالاتها اللغوية ، وسأقدم آيات كل نعمة خلقها الله للناس ، مع ذكر الركائز المستفادة منها ... وذلك فيما يلى :

آيات خلق الإنسان وبعثه

يقول الله تعالى :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴿٣﴾ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿٦﴾﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة صفات المؤمنين من خلال قيامهم بعبادة الله تعالى والخشوع له ، قلبا وقالبا ، جاءت هذه الآيات لبيان دلائل وجوده سبحانه وتعالى ، واتصافه بصفات الجلال والوحدانية التى يستحق بها أن يعبد وحده ، وبدأت بدليل خلق الإنسان وتطوره ، وبعثه .

(٤٤)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات النوع الأول من الآيات الدالة على وجود الله ووحدانيته ،
واتصافه سبحانه وتعالى بصفات الجلال والكمال .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ أى ولقد خلقنا وأوجدنا
أصل النوع الإنسانى من طين صاف وتراب لا كدر فيه ، ثم طورناه إلى مولود
يتناسل من ذكر وأنثى .

والألف واللام في الإنسان للعهد ، ويراد به آدم عليه السلام فقد خلقه الله من
الطين ، وصورته الملائكة في صورة حسنة أرادها الله له ، ونفخ الله فيه من
روحه فصار إنسانا .

وقيل : إن الألف واللام للجنس ، ويراد به ذرية آدم عليه السلام لأن النطفة في
كل من الذكر والأنثى وليدة عملية التغذية التى يتغذى بها الجسم ، وهذه التغذية
تنشأ من التراب ، ولذلك يتكون الإنسان من عناصر معينة هى عناصر الطين .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ أى جعلنا ذرية آدم نطفة في
أصلاب الآباء ، تقذف في أرحام الأمهات ، وتستقر في حرز حصين إلى وقت
الولادة .

والرحم هو المكان الحصين لتخليق الذرية ، وقد أثبت تشريح الرحم
حصانته القوية ، فهو مكون من جدار غليظ سميك ، مركب من أربطة عرضية
، وأخرى مستديرة تربطه بالمثانة ، والمستقيم ، لحفظ توازنه ، وصيانته من

(٤٥)

السقوط ، ويحيطه عظام الحوض القوى^(١) لحمايته ، وصيانته من أى تأثير خارجى .

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ أى جعلنا هذه النطفة السائلة شيئا آخر ،
وحولناها إلى دم جامد يتعلق بجدار الرحم كما يدل عليه مسماها .
﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ أى جعلنا الدم الجامد المعلق بجدار الرحم
قطعة لحم بمقدار ما يمضغ .

﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا ﴾ أى صيرنا قطعة اللحم عظما جامدا على
صوره هيكلا تام .

﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ﴾ أى جعلنا جزءا من المضغة عظما ، والجزء
الباقى جعلناه لحما يكسو العظم .

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ أى جعلناه خلقا جديدا مباينا للخلق السابق
وذلك بنفخ الروح فيه ، واخراجه من بطن أمه في وقت لا يعلمه إلا الله ...
فصار حيوانا ناطقا ، سميعا ، بصيرا ، عاقلا ، وذلك من خلال تصريف أحواله
بعد الولادة من الاستهلال ، إلى الرضاع ، إلى القعود ، إلى المشى ، إلى
الطعام ، إلى أن يأكل ويشرب ، إلى أن يبلغ الحلم ، ويتقلب في البلاد ، إلى ما
بعدها حتى يصير شيخا هرما .

يقول حذيفة بن أسيد الغفارى رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "إذا مر
بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله لها ملكا ، فصورها ، وخلق سمعها ،
وبصرها ، وجلدها ، ولحمها . ثم قال : يارب اذكر أم أنثى ؟
فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك .

(١) من مجلة الدكتور . انظر تفسير المراعى ج ١٨ ص ١١ .

ثم يقول : يارب أجله ؟

فيقول : ربك ما شاء ويكتب الملك .

فتقول : يارب رزقه فيقضى ربك بما شاء فيكتب الملك ، ثم يخرج بالصحيفة في يده ، فلا يزيد على هذا ، ولا ينقص^(١) .

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ أى قد استحق الله التعظيم ، والثناء ،

والتنزيه لما خلق وبراً وصور فهو أحسن من خلق .

فإن قيل : الله وحده هو الخالق فلم أشارت الآية إلى غيره ، وجعلته أحسنهم .

أقول : أقول المراد بالخلق في الآية التقدير ، والله أحسن المقدرين وليس المراد به الابداع والإبداع لأن ذلك خاص بالله تعالى فهو الموجد لكل شئ ، وهو مبدع الخلق كله .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال عمر : " وافقت ربي في أربع ، قلت : يا رسول الله لو صلينا خلف المقام فأنزل الله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ وقلت : يا رسول الله لو اتخذت على نسائك حجابا ، فإنه يدخل عليك البر والفاجر فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ وقلت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لتنتهين أو ليبدلن الله أزواجا خيرا منكن فنزلت : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُٓ إِن طَلَّقَكُنَّ ۖ الْأَيَّةُ وَنَزَلَتْ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ ۖ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ أُنشَأْتُهُ خَلْقًا ۖ آخَرَ ۖ ﴾ ، فقلت : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ فقال صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت يا عمر^(٢) .

(١) صحيح مسلم . كتاب القدر . باب كيفية خلق آدمي ج ٤ ص ٢٠٣٧ .

(٢) الشريعة للأجري . كتاب فضائل عمر . باب ذكر موافقة عمر ج ٤ ص ١٨٩٦ .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ أى أنكم بعد الولادة تعيشون في الدنيا إلى الأجل الذى حدده الله لكل نفس ، وتقبض الأرواح عند أجلها ، يقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴾^(١) وبعد موتكم تصيرون فى قبوركم إلى يوم القيامة .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ أى أن الله سيبعثكم يوم القيامة بنفخة الصور الثانية ، ويحشركم للحساب والجزاء .
وبذلك تبدأ حياة الإنسان فى الجنة أو فى النار .
واعلم أن هذه الآية دالة على كثير من المسائل :

إحداها : أنها دالة على وجود الصانع ، لأن انقلاب هذه الأجسام من صفة إلى صفة أخرى تضاد الأولى مع إمكان بقائها على تلك الصفة يدل على أنه لا بد من محول ومغير .

وثانيتهما : أنها تدل على فساد القول بالطبيعة ، لأن شيئا من تلك الصفات لو حصل بالطبيعة لوجب بقاؤها وعدم تغيرها ، ولو قلت إنما تغيرت تلك الصفات لتغير تلك الطبيعة افتقرت تلك الطبيعة إلى خالق وموجد غيرها ، وبدلها .

وثالثتها : تدل على أن المدبر قادر عالم لأن العاجز ، والجاهل لا تصدر عنه هذه الأفعال العجيبة .

ورابعتها : تدل على أنه عالم بكل المعلومات قادر على كل الممكنات .
وخامستها : تدل على جواز الحشر والنشر نظرا إلى صريح الآية ونظرا إلى أن الفاعل لما كان قادرا على كل الممكنات وعالما بكل المعلومات وجب أن يكون قادرا على إعادة التركيب إلى تلك الأجزاء كما كانت .

(١) سورة الأعراف ، الآية ٣٤ .

(٤٨)

وسادستها : أن معرفة الله تعالى يجب أن تكون استدلالية لا تقليدية والا
لكان ذكر هذه الدلائل عبثاً^(١) .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عدداً من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

تذكير الإنسان بفضل الله عليه

أحاطت العناية الإلهية الإنسان في كافة مراحلها ، وفي جميع حاجاته ،
وفي جعله المخلوق العاقل .

وعلى الإنسان أن يتذكر أفضال الله ونعمه ، وعليه أن ينظر إلى كل نعمه
ويتدبر ما فيها .

فليُنظر الإنسان مم خلق . فقد خلقه الله من طين جامد ، ووضع في هذا
الطين عقلاً يعي ، ونظراً يتدبر ويتأمل ، ... ليحاول معرفة الأسرار المعجزة في
كافة عناصره فقد مكن الله العين من النظر ، والأذن من السمع ، والرجل للمشي
، والمفاصل للتثني والحركة .

ليشكر الإنسان الله أن جعل له وجهاً منسقاً منمقاً يواجه به الناس ، ورزقه
المشي على رجلين ، ولم يجعل مشيه على أربع ، أو زحفاً على البطن .
ولينظر الإنسان إلى نفسه ليرى عمل القلب والرئة ، والمعدة والأمعاء ...
وكلها أجهزة تعمل بصورة تلقائية بلا تدخل خارجي ، وبشكل دائم بأمر الله إلى
أن تنتهي عن العمل بأمر خالقها سبحانه وتعالى ، وليسأل الإنسان نفسه عن

(١) تفسير الرازي ج ٢٣ ص ٨٨ .

(٤٩)

الفرق بين الحى والميت ، وسيسارع إلى القول بأنها الروح التى تميز الحى من الميت .

ولكن :

... ما هى الروح ؟

إن صاحبها لن يعرف عنها شيئاً ، ولن يعرف من أين أتت ؟ ... وكيف ومتى أتت ؟ ... وكيف تكبر مع الإنسان ؟ ... وكيف تخرج عند = الموت ؟ ... وأين تستقر فى موطنها الجديد ؟

ولينظر الإنسان إلى طعامه ... فقد جعل الله طعامه من الحيوان ، والنبات ، والطير ، والسمك ليتمتع بكافة العناصر التى يحتاجها بدنه وجسده .
إن تذكر هذه النعم ، والتأمل فيها يحول الإنسان إلى عبودية خاشعة قانتة .
وعلى الدعاة :

وضع هذه النعم أمام الإنسان بصورة كلية أو جزئية فهى طريقهم إلى الله تعالى .

الركيزة الثانية

الموت حق لا ريب فيه

يطول العمر أو يقصر إلى أنه ينتهى بصاحبه إلى الموت والفناء لتنتهى الدنيا ، ويرجع الميت إلى الله تعالى .

هذه الحقيقة لا ينكرها عاقل لأنهم يرون حضارات أبيدت ، وعالما من الناس ذهب ، ولكنهم ينكرون ما بعد الموت .

والعاقل هو من يعتدل في فكره وسلوكه ليموت يوم يموت بلا عدوان قام به ، أو قصور وقع فيه ، أو ظلم يحاسبه الله عليه .

وقد أكدت الآيات حتمية الموت ليستعد العاقل لما بعده من حساب وجزاء .

(٥٠)

الركيزة الثالثة ثبوت وقوع البعث

وكما يقع الموت سيقع البعث حيث يحيى الله الناس من قبورهم ،
ويجمعهم في أرض الحشر ، وتتم إقامة الميزان ، ويقع الحساب ، فمن يعمل
مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

آيات الله في السماء

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة آيات الله في خلق الإنسان جاءت هذه الآيات
ليبين آيات الله في خلق السموات ، وبيان ما فيها من منافع للإنسان .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الله خلق السموات السبع متباعدة كل واحدة منها تمثل طبقة
لها خصائصها ، وفيها سكانها ، وجعل الله فيها واليها طرقا ومسالك .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ أى خلقنا السماء فوقكم ، وجعلناها

سبعا بعضها فوق بعض ، وكل طبقة متساوية لغيرها كاملة بسكانها ووظيفتها

(٥١)

وهى المراد بقول الله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ﴾^(١) .

وجعل فيها مدارات الأفلاك ، وحركة الكواكب والنجوم فى مسيرها ، وجعل فيها نشاط الملائكة فى النزول ، والعروج ، والطاعة .
هذه السموات جعلها الله مقر الملائكة ، وموضع المثوبة ، وموطن إرسال الرسل ، ونزول الوحي .

﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ أى ولم يحدث سهو أو غفلة عن حفظ الله لخلقه المتنوع فى كونه الكبير فحفظنا كل مخلوق ، وهديناه لما خلق له ، وعلمنا كل ما يحدث ، ويقع فى خلقنا ماضيا وحاضرا ومستقبلا .
وقد دلت هذه الآية على وجود الله تعالى فهو صانع كل ذلك ، وهو المقدر لكل شئ المتصرف فى كل مخلوق .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله خلق السماوات السبع ، وجعل فيها طرقا للملائكة وأنزل منها الوحي ، وأسكن الرسل ، ونظم الأفلاك ، والكواكب ، والنجوم ، وحفظها بدقة وحكمة ، ولم يغفل عن صيانتها وقيامها بدورها التى خلقت له .

(١) سورة الملك ، الآية ٣ .

(٥٢)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

عجائب خلق السماء

من آيات الله تعالى خلق السموات ، ورفعها بلا عمد ، ووضعها في موضع ثابت حتى تقوم الساعة ، وتبدل السموات بغيرها .
إن آيات الله في السموات واضحة .
فقد جعلها الله سبع سماوات ، وجعل لكل سماء أمرها ، وشأنها .
وحفظها الله من أن تسقط على الأرض فتدمرها ، وتهلك من فيها .
وجعلها مع علوها الكبير مصدر عطاء للإنسان ، وهو في الأرض حيث يستفيد الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، والطير ، والهوام بضوئها ، ونورها ،
وتتحدد الأيام والشهور .
ويتأمل السماء يعرف الإنسان قدرة الله تعالى ، فقد زينها للناظرين ،
وحفظها من كل شيطان رجيم ، وأسكن فيها الملائكة ، وجعلها مأوى الرسل ،
ومصدر الوحي والإلهام .
والعلماء المعاصرون يكتشفون كل يوم عجائب الكون من كواكب ونجوم
ومدى ارتباط كل منها بحركة الحياة على الأرض ، واستمراريتها في القيام بما
هداها الله له بلا غياب ، أو تنقص أو اضطراب .

آيات الله في المطر والنبات

يقول الله تعالى :

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ
بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ خَيْلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاحٍ
كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ
لِّلْأَكْلِينَ ﴿٢٠﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآية السابقة آيات الله في السماء جاءت هذه الآيات لبيان منافع
الإنسان في الأرض بعد نزول المطر من السحاب ، وظهور البساتين ، والزروع
في الأرض .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المطر ينزل من السحاب إلى الأرض فيؤدي إلى ظهور
البساتين ، والزروع ، والثمار ، والزيتون الذي ينبت في سيناء ، وذلك بتقدير
الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّهُ فِي الْأَرْضِ ۖ ﴾ أى أنزل الله
بقدرته من السحاب مطرا ، وجعله ينزل حيث يشاء بقدر الحاجة ، ويقدر
للأرض أن تحمله وفق طاقتها التي جعلها الله لها ... فليس الماء بالقليل ولا
بالكثير حتى الأرض التي لا تحمل تريثها المطر إذا نزل عليها فإن المطر ينزل

على أرض تتحمله ، ويسير في مسلك معين حتى يصل إلى الأرض التي تحتاجه والتي أرادها الله لها كما في بلاد كثيرة .

وبعض هذا الماء يسكن الأرض ، ويروى الزرع ، ويسقى الإنسان والحيوان ... وبعضه يستقر في باطن الأرض ، حتى تتبع منه العيون والآبار .

﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِم لَقَادِرُونَ ﴾ أى وانا على ذهابه وإزالته لو

شئنا لقادرون ، كما قدرنا على إنزاله قادرون على المحافظة عليه .

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِم جَنَّاتٍ مِّنْ خُثَيْلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ أى فأخرجنا لكم بما

أنزلنا من المطر على الأرض بساتين فيها نخيل وأعناب .

﴿ لَّكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ أى أخرجنا لكم أيها الناس من البساتين فواكه

كثيرة متنوعة .

﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أى وتأكلون من الزروع والثمار التي رزقكم الله إياها .

﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدَّهْنِ وَصَبْغٍ لِللَّاكِلِينَ ﴾

أى وأنشأنا لكم شجرة الزيتون التي تنبت في جبل سيناء لتأخذوا منها زيتونا ، وزيتا يستخدمونه إداما للأكليين .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل من السماء ماء على الأرض فسكن في باطنها وأخرج الله بالمطر بساتين في الأرض مكونه من النخيل ، والأعناب والفواكه وأخرج من طور سيناء شجرة الزيتون نأكل ثمرها ، ونستخرج منه الزيت المستخدم في الطعام .

(٥٥)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

رحمة الله

في إنزال الماء وإخراج الطعام

لو تصور الإنسان انعدام الماء من الأرض لتصور عدم وجود حياة عليها
فقد جعل الله الماء سببا لوجود الحياة . يقول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ
كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾^(١) .

ورحم الله الإنسان فخلق له الماء ، وسخره في مجاريه ، وفي باطن
الأرض ليأتي للإنسان أينما وجد ، وعلى كفيات شتى .
يأتي الماء في أعالي الجبال ، وفي أدنى السهول ... وينزل مطرا هاطلا
ويجري من نهر طويل ، وينبع من بئر عميق ، وهو واحد في عناصره وواحد
في مصدره ، ينزل من السماء مطرا على المرتفعات يستفيد به أهلها ، ويجري
من المرتفعات إلى السهول وتتكون البحيرات ، والمجاري ، والأنهار ، لينبت
النبات والزرع ، وتعلو الأشجار والنخيل ، وتخرج الحبوب والثمر ، وتبدو
الأعناق ، والفواكه ، وتكثر خيرات الأرض فيأكل الإنسان والأنعام والبهائم
والهوام ، ويعيش السمك والحيتان ، ويمتلئ الكون كله بالحيوية والحياة .
وقدر الله العظيم أن تبتلع الأرض جزءا من ماء المطر ليسكن تحتها
ويجري في مسالك خاصة لا يراها البشر لتكون ، العيون ، والآبار ، والينابيع

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٣٠ .

وتجرى أنهار مستورة إلى حيث يشاء الله رب العالمين ... وفاعل كل ذلك هو الله المنعم المتفضل .

ومن عجائب خلق الماء أن قمم الجبال العالية تتبع فيها عيون مياه نافذة لإيجاد حياة فوق الجبال المرتفعة ، والهضاب العالية .

لقد تمكن الإنسان من تحليل عناصر الماء ، وتمكن من تحضير هذه العناصر في المعامل ، ومراكز البحث ... إلا أنه لا يستطيع أن يصنع شيئاً منه ليقف على عجزه ، ويعرف حدود طاقته ، ويتأمل مدى عناية الله به الذى أتقن كل شئ .

إن الماء آية من آيات الله تعالى يلمسه كل مخلوق ، لأنه يحتاج إليه ، ولا يستطيع الاستغناء عنه .

إن الإنسان مسئول عن دين الله تعالى الذى دعاه الله إليه بواسطة رسول الله ﷺ الذى بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وبين له الآيات الدالة على صدق ما دعاهم إليه .

إن الآيات دعوة للإنسان ليعبد ربه ، ويسلم أمره إليه . يقول الله تعالى :

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ ﴿١٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿١٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿١٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿١٧﴾ وَعَيْنًا وَقَضْبًا ﴿١٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿١٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٢٠﴾ وَفَيْكِهِةً وَأُبًّا ﴿٢١﴾ مَتَّعْنَا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِ كُمْ ۚ ﴿٢٢﴾ ۝ (١) .

ويا ليت قومى يعلمون .

(٥٧)

آية الله فى خلق الأنعام

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنفَعٌ
كَثِيرٌ ۖ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة نعمة خلق الماء ، وانبات النبات جاءت هاتان
الآيتان لبيان نعمة الله فى خلق الأنعام ليستفيد بها الناس .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان آيات الله فى خلق الأنعام ليأكل الناس لحومها ، ويشربوا
لبثها ، ويستفيدوا بجلودها ، وأوبارها ، وينقلوا عليها أحمالهم ، ويركبوها إلى
مسافات بعيدة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ ﴾ أى جعل الله لكم أيها الناس فى خلق
الأنعام عظة وعبرة تعرفكم بالله تعالى ، وتبين لكم ما خلقه لكم .
﴿ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ أى أنكم تشربون ألبان الأنعام ، وتتخذون
منه ألوانا من الطعام الطيب مثل السمن والجبن ... وهذه نعمة عظيمة جعلها
الله للناس .

ووجه العبرة فى لبن الأنعام أن الدم المتولد من الأغذية يتحول فى الضرع
إلى شراب طيب، لذيق الطعام ، صالح للتغذية ، مع أنه خرج من بين فرث ودم.

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ ﴾ أى وجعل الله لكم فى الأنعام منافع كثيرة

فمع شرب لبنها تتخذون من أصوافها ، وأشعارها ، وأوبارها ، ملابس ، وفرشا للدفع ، وبيوتا فى الصحارى ، وعلى شواطئ البحار ، ومواطن التنزه والسياحة.

﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أى تستفيدون من الأنعام بأكل لحمها بعد ذبحها .

فكما انتفعتم بها وهى حية تنتفعون بها وهى مذبوحة .

﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ أى ولكم فى الأنعام فائدة أخرى وهى

أنكم تركبونها ، وتنتقلون بواسطتها ، وتنتقلون عليها أحمالكم وأثقالكم ، وتقوم لكم فى البر بما تقوم به السفن فى البحر .

ومن إعجاز القرآن الكريم أن إخباره عن دور الأنعام فى الركوب والانتقال بواسطتها إلى أماكن بعيدة باق ، وله أهميته المستمرة ، مع تطور وسائل المواصلات فى البر والبحر والجو ، وذلك أن الحركة فى الأماكن الوعرة ، وعند الحدود ، وفوق الجبال تحتاج إلى الأنعام خاصة ، ويعتمد الجنود الذين يحرسون الشواطئ والحدود على هذه الأنعام ليصلوا بها إلى المهربين ، وتجار المواد المحرمة التى يبتعدون عن الطرق العادية لتحقيق ما يعملون له .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الله خلق الأنعام ، وسخرها للناس ليعتبروا بها ، ويؤمنوا بالله الذى خلقها لهم ليشربوا لبنها الذى يأتيهم من بين فرث ودم ، ويستفيدوا بلحمها ، وأوبارها ، وأشعارها ، وجلدها ، ويأكلون لحومها بعد ذبحها .

وتبين الآيات كذلك أن الأنعام يستفاد بها فى التنقل وحمل الأثقال والسفر إلى أماكن لا يمكن الوصول إليها إلا بشق الأنفس .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هى :

بيان دور الأنعام فى حياة الإنسان

خلق الله الإنسان ، وأكرمه ، وفضله ، وسخر له الكون كله ، وعرفه بذلك ليعتبر ، ويتأمل ، ويؤمن بالله الذى أحاطه بالنعم التى لا تعد ولا تحصى يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾^(١) .

ومن بين ما أنعم الله به على الإنسان خلق الأنعام ليشرب لبنها ، ويأكل لحمها ، ويستفيد بأوبارها ، وأشعارها ، وأظلافها ، وجلودها ، ويستخدمها فى الركوب ، ونقل الأثقال إلى أماكن بعيدة ، فهى على البر تشبه السفن فى البحر . إن الله خلق الإنسان مدنى بطبعه ، وخلق له الوسائط التى تمكنه من هذه المدنية لا بديل عن الأنعام فى تحقيق فوائدها للإنسان ، وذلك أمر يحتاج إلى تدبره ، والنظر فيه لشكر الله على هذه النعمة الحسنة التى يستفيد بها كل إنسان مخلوق ، يقول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ نِعَمَ خَلْقِهَا لَكُمْ فِيهَا دِفءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾^(٢) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْتَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾^(٣) .



(١) سورة إبراهيم ، الآية ٣٤ .

(٢) سورة النحل ، الآيات ٧٠ . ٥ .

(٦٠)

مع قصص الرسل فى سورة "المؤمنين"

بعد أن بينت الآيات السابقة آيات الله فى خلق الإنسان ، واحاطته بآيات السماء وطرقها ، وبالمطر ونزوله ، وانبات الزرع ، والشجر ، ويخلق الأنعام وفوائدها جاءت الآيات من الآية رقم (٢٣) إلى الآية رقم (٥٨) لعرض قصص الأمم السابقة مع رسلهم ، وبيان أن الرسل دعوا قومهم إلى توحيد الله تعالى ، وعبادته سبحانه وتعالى وحده ، وأنهم ناقشوا المشركين فى عبادة الأصنام ، وحاوروهم وذكروهم بآيات الله تعالى .

وتبين الآيات أن المشركين كذبوا الرسل واستهزأوا بهم واتهموهم بالسحر وادعاء النبوة ... ولم يؤمنوا بالله ، وأنكروا النعم التى خلقها الله لهم .

ونلاحظ فى القصص فى سورة "المؤمنين" أنه يركز على بيان جرائم الأقوام ، ويبرز مواقفهم الضالة من الرسل ، وانكارهم دين الله تعالى ، وتنتهى الآيات ببيان المصير المهلك الذى ألحقه الله بهؤلاء الضالين ، والمآل الحسن الذى نجي الله به رسله والمؤمنين .

وسأعرض هذا القصص فى إطار دلالة الآيات فى سورة "المؤمنين" على أن استتبط الركائز المستفادة من القصص كله بعد الانتهاء من تفسير آياته .

قصة "نوح" عليه السلام مع قومه

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُمِرِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦١﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٦٢﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرْتَبِصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٦٣﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَکَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ مِّنْ أَنْثَىٰ وَأَهْلَکَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٦٥﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَّعَكَ عَلَى الْفُلِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغُورِ الطُّغْلَمِينَ ﴿٦٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنْزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَنْ لَّمْ يَعْزِلْ ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة نعم الله على الناس جاءت هذه الآيات لبيان الأمم التي كفرت بالله ولم تأخذ عبرة من النعم .

(٦٢)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات قصة "نوح" ﷺ مع قومه من زاوية كفرهم برسالته ، واستهزائهم به ، وتصوراتهم الباطلة مع بيان كيف أهلكهم الله تعالى ، ونصر نوحا ﷺ ومن معه بعد أن نجاهم من الغرق .

- ٣ -

تفاصيل قصة "نوح" ﷺ من خلال دلالة الآيات

اختار الله نوحا ﷺ واصطفاه للرسالة ، وأرسله لقومه . يقول الله تعالى :
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ أى اخترنا نوحا للرسالة واصطفيناه من قومه ، وبعثناه إليهم مبشرا ونذيرا ليخرجهم من ظلمات الشرك ، ويدخلهم فى نور الإيمان والتوحيد ، وصدرت الآية بالقسم ، وقد لتأكيد إرسال نوح إلى قومه بأمر الله تعالى الذى اختاره وأرسله .

﴿ فَقَالَ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾ أى قام نوح ﷺ بمهام الرسالة فوز اختياره بدلالة الفاء فى قوله : ﴿ فَقَالَ ﴾ . وقد بدأ نوح ﷺ دعوته بمناداة قومه بما يقربهم منه ، ويحببهم فيه ، فقال لهم : ﴿ يَنْقُومِ ﴾ أى أنا واحد منكم احرص عليكم ، وأنتم أحق من يثق فى قولى ويتبعنى ... وطلب منهم أن يخلصوا الله وحده بالعبادة ، فهو الله الواحد ، وليس هناك إله سواه ، ومن لوازم الألوهية العبادة فمن آمن بالله وجب عليه أن يعبده وحده .
وأكد لهم عدم وجود إله غير الله ، وأن الأصنام والأوثان التى يدعون ألوهيتها وهم وافتراء لا حقيقة له .

﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى ينكر فيه نوح عليه السلام على قومه عبادتهم للأصنام ، وعدم إيمانهم بالله تعالى ، وعدم خشيتهم منه سبحانه وتعالى .

والفاء فى قوله ﴿ أَفَلَا ﴾ عطفت ما بعدها على محذوف قبلها تقديره أتجهلون فلا تتقون الله ، وتخشونه ، وتستسلمون لأمره ، فهو الخالق القادر ، لا راد لقضائه ، ولا مانع لحكمه ، وهو السميع البصير .

أنكر قوم نوح دعوته ، وردوا عليه : ﴿ فَقَالَ أَلَمَلُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ أسرع القوم إلى إنكار الدعوة وأخذوا فى تكذيب نوح ، ولم يردوا عليه وتكلم بعضهم مع بعض فى شأنه ، وتعالوا على نوح ودعوته .

نعم . أنكر قوم نوح عليه السلام دعوته بسبب أن الكبار منهم خافوا على وضعهم فى قومهم ، فهم المملأ أشراف الناس ، وأغناهم ، الذين يملأون المجالس نشاطا وحركة ، وأنهم قادة الكفر بين الناس فرغبوا أن يكون القوم على دينهم وأصنامهم ، وقد بنوا ردهم على شبه واهية ... هى :

(١) ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ أى أن نوحا عليه السلام لا يصح أن يكون رسولا

لأنهم يرون أن الرسول لا يكون بشرا ... وإن كان بشرا لابد له أن يتميز عنهم بمزايا ترفعه عنهم ولا يكون مثلهم وقد عميت عقولهم فلم يروا مزايا نوح عليه السلام فى خلقه ، وروحه وصدقه .

(٢) ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ أى قالوا : إن نوحا عليه السلام يبغي السيادة

والسلطان والملك ، وادعاؤه الرسالة افتراء يقصد به الملك والتسلط .

(٣) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أى ولو أراد الله أن يرسل رسولا يعرف

الناس به ، ويدعوهم إلى الدخول فى دينه ، لاختار رسولا من الملائكة ، وبعثه إليهم يبلغهم دين الله تعالى .

(٤) ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ أى ما سمعنا وما علمنا أن رسولا

من البشر جاء للأمم السابقة ، يدعوهم إل ترك عبادة الأصنام ، وعبادة الله وحده ، ولذلك لن نسمع لنوح ، فنحن مقلدون لما كان عليه آبائنا .

(٥) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أى أن نوحا عليه السلام رجل به خبل أصابته

جنة جعلته لا يزن قوله ، ويقول كلاما لا فائدة فيه ، فلا تلتفتوا إليه .

﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أى فاثبتوا على ما أنتم عليه ، وانتظروا

مدة عسى أن يحل بنوح سوء يبعده عن دعوته ، وتجعله يعود إلى دينكم ، ويعبد معنا الأصنام .

واعلم أنه سبحانه ما ذكر الجواب عن شبههم لركاكتها ، ووضوح فسادها ، وذلك لأن كل عاقل يعلم أن الرسول لا يكون رسولا لأنه من الملائكة ، وانما يصير كذلك بأن يتميز عن غيره بالمعجزات ، فسواء كان من جنس الملك أو من جنس البشر فعند ظهور المعجزة عليه يجب أن يكون رسولا ، وقد جعل الله الرسول من جملة البشر لما مر بيانه فى السور المتقدمة ، لأن الاتحاد فى الجنسية مظنة الألفة والمؤانسة .

وأما قولهم : ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أى أن نوحا يريد أن يتميز

عنكم ، ويعلو على سبيل التجبر ، والتكبر ، والاستعلاء ، فالأنبياء منزهون عن ذلك ، وقد غفلوا عن دوره ، الواجب مع رسالته ، فهو عليه السلام يتميز عليهم بالوحي ، والنبوة ، وقد دعاهم لطاعته ، والإيمان به ، وهذا هو حقه .

وأما قولهم : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا ﴾ فهو استدلال بعدم التقليد على عدم وجود الشئ ، وهو فى غاية السقوط ، لأن وجود التقليد لا يدل على وجود صدق الشئ ، أو عدم وجوده .

وأما قولهم : ﴿ بِهِ جَنَّةٌ ﴾ ، فقد كذبوا لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة كمال عقله ، وحسن خطابه ، ودقة براهينه .

وأما قولهم : ﴿ فَكَرْضُوا بِهِ ﴾ فضعيف لأنه إن ظهرت الأدلة على نبوته وهى المعجزة وجب عليهم قبول قوله فى الحال ، ولا يجوز توقيف ذلك إلى ظهور دولته ونجاح رسالته لأن عدم ظهور الدولة لا تدل على عدم الحقيقة ، وإن لم تظهر المعجزة لم يجز قبول قوله سواء ظهرت الدولة أو لم تظهر ، ولما كانت هذه الأجوبة فى نهاية الظهور لا جرم تركها الله سبحانه .

فلما تبين نوح ﷺ إصرار قومه على الكفر اتجه إلى الله تعالى و ﴿ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ أى انصرنى ربى بما وعدتني ، وحقق عونك لى عليهم ، فقد أصروا على الكفر : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْصِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ (١) .

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا ﴾ أى أرسلنا إليه جبريل ﷺ وأمرناه أن يصنع سفينة بحفظنا ورعايتنا ، وتعليمنا كيفية صنعها .

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ أى إذا جاء ميعاد وقت قضائنا فيهم وفارت الأرض بالماء ، وأنزلت السماء السيل والمطر ، وامتألت الأرض كلها بفيوضات الماء .

(١) سورة نوح ، الآية ٧ .

﴿ فَاسْأَلْكَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾ أى احمل على

سفينةك من كل الحيوانات ذكرا وأنثى ، واحمل عليها أتباعك الذين آمنوا بدعوتك ، ودخلوا فى دينك .

﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ أى لا تحمل من قرابتك من سبق

القضاء بإهلاكه بسبب إصراره على الكفر وعبادة الأصنام .

﴿ وَلَا تَحْطَبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ أى لا تسألنى نجاة

الذين كفروا وظلموا ولا تستغفر لهم فقد قضى الله بإهلاكهم بالغرق ، وكان نوح

عليه السلام يتمنى أن يؤمن ابنه ، وسأل ربه أن يهديه فقال الله له : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ

أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ

تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ^(١) .

﴿ فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى إذا استقرت السفينة فوق (الجودى) ،

واطمأننت أنت ومن معك عليها ، وتيقنت من النجاة من الغرق فاحمد الله تعالى

، واشكره على أن نجاك ومن معك من عدوان الكافرين ، واستهزائهم .

﴿ وَقُلْ رَبِّ أُنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ أى وإذا

خرجت من السفينة فاسأل الله أن ينزلك فى الأرض منزلا مبارك الله لك فيه فى

الولد ، والزرع ، والخير ، فهو سبحانه أحسن ما ينزلك خير المنازل ، ويقدر لك

خير العطاء .

(١) سورة هود ، الآية ٤٦ .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ أى فى قصة نوح عليه السلام مع

قومه آيات وعبر كثيرة لمن يعقل ويتدبر ، وقد ابتلى الله بها الناس ، ومنهم قوم نوح عليه السلام ليظهر منهم من صدق ، ومن كذب وينال كل ما يستحق من جزاء ، وهى آية باقية فى العالمين .

- ٤ -

ملخص قصة "نوح" عليه السلام فى معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أرسل نوحا عليه السلام إلى قومه ، فدعاهم إلى توحيد الله تعالى ، وأمرهم بقصر العبادة على الله وحده . فاستهزأ قومه به ، وأخذوا يتكلمون فيما بينهم ، ويقولون إنه بشر مثنا ، يريد أن يتسلط علينا ، ولو أراد الله دعوتنا لأرسل لنا ملائكة لأن الله لم يرسل للناس بشرا فى الأمم السابقة .

وتبين الآيات أن نوحا دعا ربه لنصره ، فأمره الله أن يصنع السفينة ويحمل فيها من كل من زوجين اثنين ، ومن آمن به لينجيهم ، ويهلك الآخرين بالغرق ، وقد حدث ونجى الله نوحا عليه السلام ومن آمن به وأغرق الكافرين وعلى نوح عليه السلام أن يحمد الله حين تستقر السفينة ويغيض الماء ، ويسأل ربه البركة فى النسل والأرض .

إن فى قصة نوح عليه السلام آيات عديدة يبتلى الله بها عباده ليجازيهم بما عملوا .

قصة "هود" ﷺ مع قومه عاد

يقول الله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخِرِينَ ۖ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ؕ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۚ ۝ قَالَ أَلَمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ
يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۚ ۝ وَلَٰئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ
إِذَا لَخَسِرُونَ ۚ ۝ أَيْعِدُكُمْ أَنُكُم إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنَّكُمْ تُخْرَجُونَ ۚ ۝
هِيَآتْ هِيَآتْ لِمَا تُوْعَدُونَ ۚ ۝ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا
وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۚ ۝ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ
بِمُؤْمِنِينَ ۚ ۝ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ۚ ۝ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِّيُصْبِحَنَّ
نَادِمِينَ ۚ ۝ فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ۚ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة قصة نوح ﷺ مع قومه جاءت هذه الآيات
لبيان قصة هود ﷺ مع قومه عاد .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات قصة هود ﷺ مع قومه عاد .

(٦٩)

- ٣ -

تفصيل قصة هود عليه السلام مع قومه عاد من خلال دلالة الآيات

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ القرن هو الأمة وفى الآية إخبار من الله تعالى بأنه أنشأ أمة أخرى بعد هلاك قوم نوح بعد أن كثر أبناء نوح ، وعمرؤا الأرض ، وانتشروا فى جنباتها .

﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى أرسلنا هودا عليه السلام فى قومه يدعوهم إلى الإيمان ، ويأمرهم أن يخلصوا الله وحده بالعبادة فلا إله غيره ، ولا عبادة لسواه ، ولا يصح أن نجعل ونعبد غيره ، ولا ننقى الله تعالى ، ولا نؤمن به .

وفعل قوم هود عليه السلام معه عليه السلام ما فعله قوم نوح عليه السلام مع نوح ، وساروا مسارهم على النحو التالى :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أى تصدى له الأغنياء ، وأولوا الرأى فيهم وهم الذين يملأون المجالس بصوتهم وظهورهم ، وحركتهم ، وقد كفر الملاء من قوم هود ، وتصدوا له واتخذوا فى نشر أكاذيبهم النابعة من صفاتهم وهى :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَآتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى أن قوم هود عليه السلام كفروا بالله تعالى ، ولم يؤمنوا بدعوة رسول الله فيهم ، وكذبوا باليوم الآخرة ، وأنكروا البعث ، وقد أغواهم الله بالنعم ، وكاد لهم بالعطاء ليزدادوا إثما ، وفسقا بترفهم فى حياتهم .

(٧٠)

وقالوا : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أى قال عاد : إن هودا عليه السلام

بشر مثلنا ، ولا يصح أن يكون الرسول بشرا ، وقد حددوا فكرهم بأدوات الحصر
ظنا منهم أن ما قالوه هو الحق الذى لا خلاف عليه .

﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ أى أن هودا عليه السلام

بشر مثلنا يأكل طعامنا ، ويشرب شرابنا ، وهذا شأن لا يؤهله ليكون رسولا .

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ أى إنكم أن أطعتم

هودا فى دعوته ، وهو بشر مثلكم تكونون قد أتبعتم من كذب عليكم ، وأوقعكم
فى البوار والخسران .

ثم أخذ قوم هود يبينون سبب عدم إيمانهم بهود ، وعدم قبول دعوته ...
فقالوا :

﴿ أَيَعِدُّكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَمًا أَنْتُمْ تُخْرِجُونَ ﴾ أى

قال قوم هود لأتباعهم : إن مما يدل على كذب هود عليكم دعواه أنكم ستقومون
فى قبوركم ، وتعود إليكم أرواحكم ، وتخرجون من قبوركم كما كنتم فى الدنيا ،
وتحشرون بأجسادكم وأرواحكم ، وهذا أمر يتصورون استحالة لظنهم أن تحول
الجسد إلى تراب وهباء يحيل إحياءه مرة أخرى ، وأرادوا بذكره التشنيع على هود
عليه السلام .

﴿ هَيَّاتْ هَيَّاتْ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ "هيئات" اسم فعل ماضى بمعنى بعد

وقد أكد الملاء هذا البعد بتأكيد لفظه لأنهم يرون أن وعد هود لهم بالبعث
والحشر والحساب والجزاء أمر مستحيل . فقد بليت الأجسام ، وتحولت إلى تراب
، وتداخلت فى بعضها ، وصار بعضها زرا أكله الآخرون ... !!

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أى

علل الملائكة سبب كفرهم بدعوة هود ، وعدم تصديقهم بالبعث والحشر والحساب أنهم لا يرون حياة أخرى بعد الحياة الدنيا . فما هم والحياة الدنيا إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، ولا بعث ، ولا آخرة ، ولذلك نفوا هذا البعث بقولهم : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ .

لما ينس هود عليه السلام من إيمان قومه ، ورأى منهم جحودا ونكرانا واصرارا على الكفر ﴿قَالَ﴾ داعيا ربه ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أى طلب هود عليه السلام من ربه النصر عليهم ، والانتقام منهم فلقد بذل معهم كل سعى .

فأجابه الله تعالى ، و ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أى سيندم المشركون بعد وقت قليل حين ينزل بهم العذاب الذى خوفهم الله منه .
﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أى سلط الله عليهم نعمته عقب طلب هود عليه السلام بصيحة صكت أذانهم ، وزلزلت أماكنهم ، فماتوا وهم جائثون ، وتحولت أجسادهم إلى رمم بالية تفتتت وذهبت كما يذهب الزبد التى يجرى به الماء .

وذكر هلاكهم بالصيحة دليل على أن المراد بهم عاد قوم هود .
﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى هلاكا لهؤلاء القوم ولأمثالهم فقد ظلموا أنفسهم وكفروا بالله رب العالمين .

(٧٢)

- ٤ -

ملخص قصة "هود" عليه السلام مع قومه عاد في معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أرسل هودا عليه السلام إلى قومه عاد ، فدعاهم إلى التوحيد وعبادة الله وحده إلا أنهم كفروا بدعوته ، وتصدى له الملائكة ، واستبعدوا أن يكون الرسول بشرا يأكل كما يأكل الناس ، ويشرب كما يشربون وعدوا طاعته خسارة كبرى ، وذهبوا في ضلالهم إلى تصور أن تخويفهم من البعث والجزاء تخويف بأمر مستبعد ، لأنهم ينكرون البعث والحساب والجزاء ، ويرون أنه لا حياة أخرى بعد الدنيا .

(٧٣)

قصص الرسل مع أقوامهم

بعد "هود" عليه السلام

يقول الله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخِرِينَ ﴿٥١﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴿٥٢﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا ۖ كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رُسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۖ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۖ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٣﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة قصة هود عليه السلام مع قومه جاءت هذه الآيات بطرف من قصص الأمم بعد عاد .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات طرفا من قصص الأمم التي جاءت بعد عاد ، وأرسل الله إليهم رسله ، فكفروا بهم ، وكذبوهم ، وجمعتهم جميعا صفات مشتركة هي الجحود والإنكار ، وكأنهم تواصلوا عليها إذ كذب كل قوم رسولهم ، ونزل الهلاك بهم ، وصاروا عبرة لمن بعدهم .

- ٣ -

ملخص القصص بعد "هود" عليه السلام من خلال الدلالات اللغوية

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخِرِينَ ﴾ أى أنشأنا أمما عديدة بعد هلاك قوم نوح عليه السلام ، وبعثنا لكل أمة رسولا منها مثل صالح ولوط وشعيب

وغيرهم عليهم السلام ، وبدء الآية بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ بيان للزمن الطويل بين كل أمة ، وبين ما قبلها وما بعدها .

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴾ أى أن هذه الأمم كفرت فأهلكها الله فى الوقت الذى قدره لها ، ولم تتقدم عنه ، ولم تتأخر .
 ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا ﴾ أى أرسلنا لكا أمة رسولا ، فنتابع الرسل واحدا بعد الآخر فى فترات متلاحقة .

﴿ كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ أى هذه الأمم سارت على نمط واحد فى الكفر والضلال إذا كذبت كل أمة رسولها ، واستحق الجميع الهلاك .
 ﴿ فَاتَّبَعَنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا ﴾ أى فدمرنا بعضهم فى إثر بعض .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ أى تركنا منهم عبرة وعظة يتحدث عنها الناس ويعيشون أحداثها . فى "سدوم" بقيت آثارهم ، وفى "ثمود" عاشت بقاياهم ، وامتألت أرض الشام وبلاد العرب بآثار المهلكين لتبقى عبرة وعظة إلى يوم الدين .

﴿ فَبَعْدًا لِّقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى فهلاكا لقوم لا يؤمنون بالله ، ولا يصدقون رسوله ، ويعبدون أصناما وأوثانا من دون الله تعالى مع سائر الرسل ، وفى جميع الأزمان من اتباع هؤلاء الرسل ، ومن سائر الناس أقوامهم .
 - ٤ -

إشارة إلى القصص بعد "هود" عليه السلام من خلال معنى الآيات

تبين الآيات أن الله اختار رسلا من البشر ، وأرسلهم إلى أقوامهم يدعونهم

إلى الإيمان ، ويحضونهم على عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأصنام والأوثان ، ولم تخل أمة ، ولم يخل زمان من رسول ، وقد تتابع الرسل فى الأمم للدعوة إلى الله ، فلما كفروا بالله ، وأصروا على الجحود نزل بهم العذاب الذى أهلكهم ، وقضى عليهم فى موعد قدره الله لكل أمة .

إن هذا التتابع المتواصل فى الأمم ومصائرهم بيان للناس ليأخذوا درسا وعبرة ، ويعلموا مصير الكفر والعصيان ، ويتأكدوا من حكم الله فى الضالين ... إن العاقل إذا وجه عقله إلى أى من جوانب التاريخ سيجد الدرس أمامه ظاهرا فى أثر ثابت على الأرض ، لقد رحم الله الأمم التى بقى كتابها من عذاب الاستئصال لتعيش الحقيقة ، وتعلم المصير ، وتتيقن من عقوبة الله لكل مشرك أنثيم فى الأمم الذين كذبوا ، وأصروا على الكفر فأهلكهم الله تعالى بسبب ظلمهم ، وكفرهم ، وجعلهم الله عبرة للأمم بعدهم ليأخذوا حذرهم حتى لا ينالوا مصيرهم .

(٧٦)

قصة موسى وهارون ”عليهما السلام“ مع فرعون وملته

يقول الله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة قصص صالح وشعيب ولوط عليهم السلام ، ومصير أقوامهم بعد كفرهم جاءت هذه الآيات للحديث عن قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون وقومه .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن الله أرسل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وملئه بالآيات البينات ، والمعجزات الكثيرة فأبوا واستكبروا ، واستمروا على كفرهم بالله تعالى فعاقبهم الله في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم .

ملخص قصة موسى وهارون "عليهما السلام"
مع فرعون وقومه من خلال دلالة الآيات

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أى

أرسلنا موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وقومه فى مصر بالآيات والحجج والبراهين ، فأبوا اتباعهما ، وأصروا على الكفر والضلال .

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ أى إن

فرعون وملاه تكبروا على موسى وهارون عليهما السلام ، واستهزأوا بهما ، واتهموهم بأنهما يريدان التسلط على المصريين ، وتكبروا على موسى وهارون عليهما السلام ، ولم يلتفتوا إلى دعوتهما .

﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ ؟ ... ﴾

الاستفهام للإنكار قاله فرعون وملاه ، متعجبين من الإيمان برجلين يماثلانهم فى البشرية وخصائصها ، وينتسبان إلى قبيلة ذليلة خاضعة للمصريين ، وجبروتهم ، وهم بنو إسرائيل الذين أذاقهم فرعون سوء الحساب .

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾ أى كذب فرعون وملاه

موسى وهارون عليهما السلام فأهلكهم الله بالغرق .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى ولقد أنزلنا على

موسى ﷺ التوراة وفيها الأحكام من الأوامر والنواهي بعد أن أهلكنا فرعون وملاه ، وأخذناهم أخذ عزيز مقتدر رجاء أن يهتدى بها قومه إلى دين الله تعالى ، ويعملوا بما فيها من الشرائع .

(٧٨)

- ٤ -

ملخص قصة موسى وهارون عليهما السلام من خلال معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أرسل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وملائه بالمعجزات العديدة ، والبراهين والحجج الواضحة ، فاستكبر فرعون وملائه ، وأبوا أن يؤمنوا بالله تعالى ، ولم يقبلوا أن يكون الرسول بشرا ، أو من قوم عاشوا ضعافا في الأرض ، فلما تمادوا في كفرهم أهلكهم الله بالغرق وأبقى في بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه السلام ليهتدى به الإسرائيليون ، عسى أن يوفقوا للخير والصواب .

(٧٩)

قصة "عيسى" ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رَتَوْقِ ذَاتِ قَرَارٍ
وَمَعِينٍ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما ذكرت الآيات السابقة قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون
وملأه ، ومع بنى إسرائيل جاءت هذه الآية لبيان قصة عيسى ﷺ وأمه مريم
عليها السلام بإجمال .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية قصة عيسى ﷺ وأمه بإجمال . فقد جعل الله منهما آية دالة
على قدرته ، وحكمته ، وقد جعل الله لهما مكانا عاليا فى الدنيا يقيمون فيه
حيث الماء ، والثمر ، والاستقرار .

- ٣ -

ملخص قصة "عيسى" ﷺ

من دلائل الآيات

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ وجعلنا من ولادة عيسى ﷺ من

مريم بلا زوج آية وحجة دالة على قدرة الله تعالى .

(٨٠)

﴿وَأَوَيَّنَهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ أى وجعلنا منزلهما فى مرتفع عال ، به ثمر كثير ، وماء حار ، وهو بيت المقدس بكثرة الثمر به وحسن الإقامة فيه .

- ٤ -

ملخص قصة عيسى وأمه "عليهما السلام" كما تدل عليه الآية

تبين الآية أن الله أودع فى رحم مريم ولدها عيسى بروح منه سبحانه وتعالى ، وجعل ذلك آية وحجة على بيان قدرة الله تعالى ، ووحدانيته ، وقد تجلى الله عليهما ، فجعل منزلهما فى بيت المقدس حيث ارتفاع المكان ، وكثرة الثمر والماء ، وكثرة الخير والبركة .



ركائز الدعوة

فى قصص الرسل

توضح الآيات التى تناولت قصص رسل الله فى سورة "المؤمنون" عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

هيكلية القصة فى القرآن الكريم

حينما نتأمل ونتدبر فى قصص القرآن الكريم نجدها تظهر جميعا فى هيكل واحد تقدم خلالها عناصرها ، وهذا الهيكل يتضمن العناصر التالية :

العنصر الأول : إرسال الله للرسل :

فى قصص القرآن الكريم الذى تناول الرسل وأقوامهم يتضح ابتداء أن الله هو الذى يختار الرسول ، ويربىه ، ويصنعه صناعة خاصة ، ويكلفه بالرسالة ، ويأمره بدعوة الناس إذا بلغ أربعين سنة ، ما عدا يحيى وعيسى عليهما السلام . فقد أتمتهما الرسالة فى المهد وأثناء الصبا .

العنصر الثانى : مؤيدات الرسول :

بعد اختيار الله لرسوله يبعثه لقومه ، ومعه أدلة صدقه ، وأساسها صفاته الذاتية التى أودعها الله فيه ، ومعرفة قومه له بها ، وأساسها الصدق ، والأمانة ، والفتانة ، والتبليغ ، ومع الخصائص الذاتية يؤيده الله بمعجزات عدة تؤكد صدقه ، وتبين أنه رسول الله ، ولولا ذلك ما خرق الله له العادة ، لأن لسان المعجزة يقول : صدق عبدى فيما يبلغ عنى .

العنصر الثالث : عرض موضوع الدعوة :

يقوم كل رسول بعرض دعوته على الناس ، مبتدئاً بدعوتهم إلى توحيد الله تعالى ، وقصر العبادة له ، فلا إله غيره ، ولا يستحق العبادة سواه ... وفى هذا الإطار يبين الرسول لهم فساد اتخاذهم الأصنام والأوثان آلهة ، وفساد عبادتها ، والخضوع لها فى جدل مفيد ، بعيد عن الإنكار والالتهام ، طاعة لله تعالى فى قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

ويهتم الرسول بتوجيه قومه إلى النظام الدينى الذى يريده الله لهم ، ويعرفهم بالشرعية والأخلاق .

العنصر الرابع : المواجهة بين الرسول وقومه :

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٦ .

يعارض الأغنياء وأولو الرأي فى المجتمع ، ويجادلون الرسول فيما يدعوههم ، ومن خلال الجدل يظهر الأشخاص ، وتظهر الأحداث ، وتظهر الأساليب التى استخدمها الرسل ، ومعارضوهم .

العنصر الخامس : تحديد نهاية الدعوة :

تنتهى القصة القرآنية بالمصير الأخير لكافة أطراف القصة حيث ينزل الهلاك بالكافرين ، وينصر الله المؤمنين الصادقين .

ولكن :

- لم يكرر القرآن الكريم قصص الرسل مع أقوامهم ؟
 - وهل تكون القصة فى كل مرة صورة واحدة لا تتغير ؟
- إن القصص لا يتكرر ، وإنما يختلف كلياً عن بعضه ، لأن كل رسول يواجه قومه المختلفين عن غيرهم فى عقيدتهم ، وسلوكهم ، وتختلف مواقف الأمة الواحدة كثيراً ، ولذلك يواجه الرسول كل موقف على حدة .
- إن اختلاف الأمم يؤدى إلى اختلاف المواجهة ، وهذا يجعل القصص غير مكرر .

وأيضاً فإن القصص القرآنى مع محافظته على الهيكلية العامة لا يقدم كل القصة فى سورة واحدة ، وإنما يختار من أحداثها ما يناسب موضوع السورة ، ويقدمه إصلاحاً لمسار الدعوة إلى الله .

وأيضاً فإن اتباع الرسل كانوا أشتاتاً وأنواعاً فأدى ذلك إلى مخاطبة كل صنف فى موقف ، وبأسلوب خاص بهم .

وأيضاً فإن محمداً ﷺ والدعاة معه يواجهون الأمم العديدة ، والعداوات الكثيرة ، وهم فى حاجة إلى تنوع الأسلوب ، ومعالجة كل موقف على حدة ، ولذلك جاء القصص مجزءاً ليفيد فى كل جزء ما يناسبه ، ويقدم الأسلوب الأمثل لمواجهة المواقف المختلفة . يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ

عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٣﴾
وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٤﴾^(١) .

إن القصة الفنية فى أدب البشر تقدم العناصر التى تقوم عليها ، إلا أنها تبرز عنصرا منها حين تقصد التأثير به ، وليس ببعيد أن نفهم مراد الله فى القصة من خلال فهمنا لفطرة الناس .

إن استفادة الدعاة من القصص القرآنى ضرورة أساسية حيث يمكنهم أخذ جزء من أى قصة قرآنية ، وعرض ما فيها من أحداث ، والاستفادة بما فيها من أساليب فى كافة جوانب الدعوة .

إن القصص القرآنى يحدد ملامح وطباع الناس من خلال تصويره للأمم السابقة ، وهذا يساعد الدعاة ليقفوا على طبائع المدعوين ، ويختاروا من الأساليب ما يقنعهم ، ويؤثر فيهم .

لقد قدم الرسل مناهج عديدة وهم يدعون الناس ، ومن الأولى الاستفادة منهم .

الركيزة الثانية

قضايا الكفر واحدة

حينما نعود لقصص الرسل مع أقوامهم نجد التشابه الكبير بين الكافرين من أتباع الرسل .

فكلهم كانوا يعبدون الأصنام التى صنعوها بأيديهم من حجر ، أو خشب واتخذوها آلهة من دون الله تعالى .

وكلهم أنكروا أن يكون الرسول بشرا ، ورأوا أن يكون واحدا من الملائكة ، أو بشرا تصاحبه ملائكة .

وكلهم اتهموا رسولهم بأنه كاذب ، وساحر ، وشاعر .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٣٢ ، ٣٣ .

وكلهم لم يتأثروا بالإنذار الذى خوفهم منه الرسول ، واستمروا فى التكذيب حتى نزل بهم عذاب الله المهلك .
 إن الكفر ملة واحدة ، وسلوك الكافرين واحد ، وعنادهم وتعتنتهم أمام الحق أمر ظاهر ، وعلى الدعاة أن يعدوا لكل شأن عدته ، ويحذروا حتى لا يؤخذوا على غرة ... وهذا حال يبسر عمل الدعاة ، ويمكنهم من معرفة الأمراض وعلاجها .

الركيزة الثالثة ضرورة الاعتبار بالأمم السابقة

العاقل من اتعظ بغيره ، وتيقن من إمكانية تكرار العقوبة عند وجود سببها ، والقصاص القرآنى يقدم المجال الواسع للاعتبار والعظة .
 وسبب الاعتبار أنه قصص واقعى يصور حقيقة الإنسان كما خلقه الله تعالى ، وهى الحقيقة الموجودة مع الإنسان فى كل زمان .
 والقصة القرآنية تختار من الأحداث ما يفيد ، وتقدمه للاعتبار به ، وهناك فى القصة العديد من المواقف التى لا يرد لها ذكر ، لأنها لا تفيد فى الدعوة إلى الله تعالى ، ولذلك كانت القصة القرآنية وسيلة دعوية لأنها تصور قالبا يقدم من خلال تصوير عناصره المعنى المقصود بألفاظه الدالة عليه . يقول الله تعالى :

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) .

(١) سورة هود ، الآية ١٢٠ .

- ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١) .

الركيزة الرابعة

القصة القرآنية فى إطار الترغيب والترهيب

تقدم القصة القرآنية صورة واضحة للترغيب والترهيب فهى ترغب فى الإيمان بالله ، وطاعة رسوله من خلال بيان مصير من آمن بدعوة الرسل فلقد نجاهم الله المهالك ، وبشرهم بجنات النعيم ، وأما المشركون الذين عصوا الرسل فإن القصص يوضح ما لحق بهم من عذاب مؤلم فى الدنيا ، ونار يعيشون فيها فى الآخرة ... وذلك منهج مكرر فى قصص الأمم كلها ... ولذلك قدم للدعاة خطة كاملة للترغيب والترهيب .

(١) سورة يوسف ، الآية ١١١ .

أمر الله لرسله "عليهم السلام"

يقول الله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ
 وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٢١﴾ فَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ
 بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٢٢﴾ فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ
 ﴿٢٣﴾ أَتُحْسَبُونَ أَنَّكُمْ تُنَادُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَلْ
 لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٤﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما ذكرت الآيات السابقة قصص بعض الرسل جاءت هذه الآيات توضح
 الوصايا التي أوصى الله بها الرسل جميعا ، وتبين النعم التي أنعم بها عليهم ،
 وتؤكد للناس انه مطلع على جميع أعمال خلقه ، وسيحاسبهم على أفعالهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أمر رسله كما أمر سائر الناس بأكل الطيبات ،
 والعمل الصالح فهو عليم بكل أفعالهم ، كما تبين أن الأنبياء يدعون إلى دين
 واحد ، وأن الأمم قد اختلفت حول الحق ، وعلى رسول الله ﷺ أن لا يلتفت إلى
 افتراء المشركين ، ويدعهم لحساب الله ، ويكفيه أنه بلغهم ما أمر به ، وعرفهم
 أن النعيم الذي قدره الله لهم ابتلاء واختبار يحتاج إلى العقل والتدبير ولذلك لن
 يستفيدوا بالغرور والغفلة .

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ هذا نداء من الله

تعالى لجميع رسله وأنبيائه يأمرهم فيه بأمرين هما :

(١) الأكل من الحلال الذى تستطيعه نفوسهم مع ذكر الله المنعم .

(٢) والعمل الصالح الذى أحله الله تعالى وشرعه لهم وعرفهم الرسول به .

وفى تصدير الأمر بنداء المخاطبين بيان لأهمية الأمور به .

وهذا الأمر وان كان موجها للرسل فإنه موجه لأممهم جميعا ، وانما خصته الآية بالرسل لبيان ضرورته ، وأنه أساس النصر والفلاح ، وأنه مراد الله من عباده الصالحين جريا على عادة الناس بتوجيه الأمر الهام للقادة لينفذه الجنود تحت إشرافهم وقيادتهم .

وقد قدمت الآية أكل الطيب على العمل الصالح لتأكيد أن العمل لا يعد صالحا إلا إذا التزم صاحبه بأكل الحلال المشروع ، وأن قوام المشروعية يبدأ بالتكوين الذاتى .

— عن أم عبد الله أخت شداد ابن أوس رضى الله عنها أنها بعثت إلى النبي

ﷺ بقدر لبن حين فطره ، وهو صائم ، فرد الرسول إليها رسولها .

وقال ﷺ : من أين لك هذا ؟

فقالت : من شاة لى .

ثم رده وقال : من أين هذه الشاة ؟

فقالت : اشتريتها بمالى ... فأخذه ﷺ .

فلما كان من الغد أتته ، وقالت : يا رسول الله لم رددت اللبن ؟

فقال ﷺ : أمرت الرسل ألا يأكلوا إلا طيبا ، ولا يعملوا إلا صالحا^(١) .

(١) حلية الأولياء ، وطبقات الأصفياء ج ٦ ص ١٠٥ .

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : "أيها الناس ! إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾" ، وقال : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾" ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، يمد يديه إلى السماء ، وينادى يارب ... يارب ... فأنى يستجاب له" (١) ؟

وصح أيضا عنه صلى الله عليه وسلم : "أنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت ، النار أولى به" (٢) .

﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ أى إن الله عليم بأعمالكم جميعا لا يخفى عليه شئ منها ، فخذوا حذركم ، وقدموا من الأعمال ما يرفع مقامكم عند الله تعالى .

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى أن دينكم أيها الرسل جميعا واحد لأنكم دعوتكم إلى العقيدة ، وهى واحدة فى كل الدعوات الإلهية ، وما كان الاختلاف بين الرسل إلا فى الجوانب العملية التشريعية المتصلة بأفعال المكلفين لأنها ترتبط بأعمال الناس ، وهى تتغير بتغيير الزمان والمكان ... ومع اختلاف الجوانب التشريعية فقد ربطها الله بالعقيدة الواحدة التى دعا إليها الرسل جميعا بوضع المبادئ الكلية الضابطة لها .

﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ أى وأنا أيها الناس ربكم الواحد ، فاعبدونى وحدى ، ولا تشركوا معى غيرى ، واتبعوا ما أمركم به من عمل وخلق .

(١) صحيح مسلم . كتاب الكسوف . باب قبول الصدق من الكسب الطيب ج ٢ ص ٧٠٣ .

(٢) المستدرک على الصحيحين للحاكم . كتاب الأطعمة ج ٤ ص ١٤١ .

﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أى

أن اتباع الرسل تفرقوا وانقسموا حول دعوة رسولهم ، وصاروا شيعة ، وأحزابا ، وصار كل فريق معجبا بنفسه ، فرحا بما هو فيه ، معتقدا أنه على الحق دون غيره .

هذا التفرق خبال وضلال فى دين الله تعالى ، فالرسول رسول الله الواحد ، جاء بدين واحد ، ونادى بعقيدة واحدة ، وشرع أحكاما تتنوع صورها ، وتتحد مبادئها ، وليس فى دين الله اختلاف وتعارض .

فيا أتباع الأنبياء . أين عقولكم ؟ إن الله أرسل إليكم رسلا فجعلتموهم محل الشقاق ومثار النزاع .

لم هذا ؟

هل اختلاف الشرائع مع اتحاد الأصول والعقائد ينافى المودة والمحبة ؟

وأين أنتم يا أتباع محمد ؟

ما لكم كيف تفرقتم أحزابا ؟

هل اختلاف المذاهب الفقهية يفرق العقيدة ؟

وهل تعدد الوسائل يؤدى إلى التفرقة ؟

وهل تغير القرآن ؟

وهل تغيرت القبلة ؟

وهل خفيت تعاليم الإسلام ؟

كلا كلا ، فإذا كان العيب قد لحق الأمم المختلفة على تناوبها ، فما أجدركم

يا أتباع محمد أن يلحقكم الذم على تناوبكم وأنتم أهل دين واحد .

ولا علة لهذا ، سوى أنكم فرطتم فى كتاب ربكم ، وظننتم أن أسس الدين

هى بعض المظاهر والحركات ، وتركتم الأخلاق وراءكم ظهريا ، وتركتم آيات

التوحيد ، والنظر فى الأكوان ، ولو أنكم نظرتم إلى شئ من هذا لعلمتم أن كل ذلك من دينكم ، وأنتم عنه غافلون .

﴿ فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ هذا خطاب لمحمد ﷺ يأمره الله فيه

بترك الغاوين يغمرهم الضلال كما يغمر الماء اليابسة ، ويغطيها ... أى دعهم فى ضلالهم فقد غطى الشرك قلوبهم ، وأعمى أبصارهم إلى حين يأتيهم عذاب الله .

﴿ اٰلْحَسْبُوْنَ اَنَّمَا اُنْمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ۙ اَيْدِيهِمْ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي

الْخَيْرَاتِ ۚ بَلْ لَا يَشْعُرُوْنَ ۚ ﴾ ؟ ... وهذا الاستفهام إنكارى يسأل الله

الغافلين عن سبب غفلتهم ، ويبين الحق لهم ... والمعنى أيطن هؤلاء الغافلون أن النعم التى هم فيها من كثرة المال ، والولد أنتهم من عندنا بسبب منهم ، أو إجلالا لأقدارهم عندنا ، وأنهم يستحقون ذلك ... فليس الأمر كذلك لأن الله يختبرهم ، ويبتليهم بالنعم ، إلا أنهم لا يدركون ذلك ، ولا يشعرون به ، ولذلك فهم كالبهائم لا يفهمون .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : "إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما

قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى

الدين إلا من أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذي نفس محمد بيده لا

يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه .

قالوا : وما بوائقه يا رسول الله ؟

قال : غشه وظلمه" (١) .

(١) شرح السنة للبغوى . كتاب الحج . باب الكسب وطلب الحلال ج ٨ ص ١٠ .

(٩١)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أمر رسله جميعا بأكل الحلال المشروع ، والقيام بالعمل الصالح ، فهو سبحانه عليم بكل عمل ، وسيحاسب صاحبه عليه .
وتبين الآيات أن العقيدة الدينية واحدة ، واختلاف الأحكام الشرعية أمر مقرر لاختلاف الزمان والمكان .

ومع أن الدين واحد فقد تفرقت الأمم ، وتشيع الناس ، وفرح كل بنفسه مستعينا بما ذهب إليه .

وتأمر الآيات رسول الله أن يدع الضالين في ضلالهم حتى يأتيتهم عذاب الله تعالى ، ويسألهم سبحانه وتعالى منكرًا عليهم عن سبب كثرة الأموال والأولاد فيهم ، وهل أعطاهم الله هذا بسبب صلاحهم ، أو بسبب مقامهم ؟!
إن الله أعطاهم ما أعطاهم اختبارًا لهم ، وهم لا يشعرون .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

توضح الآيات عددًا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان حد الاستقامة في الدنيا

الدنيا مقدمة الآخرة ، وهى طريق الفوز بالجنة لمن عمل ، وسار على هدى الله تعالى ، أو هى سبب الانغماس فى نار جهنم ، وقد بينت الآيات أن سعادة الإنسان فى الدنيا تعتمد على دعامتين رئيسيتين هما :

الدعامة الأولى : أكل الحلال الطيب .

الدعامة الثانية : العمل الصالح .

وهاتان الدعامتان تؤكدان الإيمان الخالص بالله تعالى ، ذلك أن الإيمان بالله هو أساس الدين ، وبعده تأتي بقية الأركان ... وبعد الإيمان يجد المؤمن نفسه ملتزماً بأمر الله تعالى فعلاً أو تركاً حتى لا يتناقض عمله مع عقيدته .
إن المؤمن الصادق يلتزم بالدين كله ، لأن الحلال هو ما أحله الله تعالى والطيب هو ما شرعه الله تعالى ، والعمل لا يكون صالحاً إلا باستقامته على منهج الله تعالى .

والعاقل يرى نعم الله فيه ومعه ، ويلتزم بشكرها وعبادة الله وحده .
والعاقل هو من ينظر في آيات ليعلم قدرة الله واستحقاقه للعبادة وحده .
والدعاة مسئولون عن إيصال هذه الحقيقة للناس ، وربط النعم بالمنعم ، والتعريف بأن ما يحدث في الدنيا اختبار وابتلاء ليعملوا على الفوز فيه .

الركيزة الثانية

اغترار الكافرين بالدنيا

يشقى المشركون والنعيم في أيديهم ، لأنهم يكفرون بالله تعالى ، ويتصورون أن ما في أيديهم حق شخصي أتاهم بقدراتهم ، وعلو شأنهم .
وقد أعمى الشيطان أبصارهم ، وأبعدهم عن إدراك الصواب لأنهم لو نظروا إلى النعم التي عاشوا بها وسألوا أنفسهم عن نشأتها ، وتنوعها وقدرها ، ومجيئها ، وزوالها لعلموا أنها من قدرة الله العليم الخبير .
لو نظر الإنسان إلى اختلاف الألوان ، والألسنة ، والفهم ، والجهد ، والتوجه لعلم أنه من الله الواحد الأحد .

إن الله يمهّل ولا يمهّل ، وسيحاسب كلا على ما قدمت يداه ، وسيتمتع المؤمنون بجنات النعيم ، ويلقى الكافرون في نار جهنم ، وبئس المصير .

من صفات المؤمنين

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِ رَبِّهِمْ
يُؤْمِنُونَ ﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا
وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ هَلَّا
سَبِقُونَ ﴾ وَلَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۗ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ۗ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴾ ﴿ ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الله أمر الرسل كما أمر المؤمنين بالعمل
الصالح والأكل الطيب ، وأن الكافرين اغتروا بالدنيا جاءت هذه الآيات لبيان
صفات الذين يسارعون في الخيرات ، ويتمسكون بمنهج الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات صفات المؤمنين فهم يوحدون الله ، ويخشونه وحده ،
ويطبقون شرعه آملين أن يتقبل الله عملهم ، وسوف يجازيهم الله جزاء حسنا
ويحقق الجزاء العادل لسائر الناس .

(٩٤)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تبين الآيات عددا من صفات المؤمنين ... وهى :

(١) الخشية الدائمة لله تعالى :

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ أى أن الذين يسارعون فى الخيرات هم المؤمنون لأنهم حريصون على طاعة الله تعالى ، جادون فى مرضاته ، وهم فى خوف دائم من عذابه ، وحب دائم له ، ولذلك فهم يحبونه ويخشون عذابه ، ويستمرون فى طاعته أملا فى رضوانه .

(٢) الإيمان المطلق بالله :

يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى ومن صفات المؤمنين أنهم يصدقون بآيات الله التنزيلية ، والتكوينية ، فى أنفسهم ، وفى الكون المحيط بهم ، والكون البعيد عنهم .

(٣) التوحيد التام لله تعالى :

يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ أى أنهم يعبدون الله وحده ، ولا يتخذون معه آلهة من الأصنام والأوثان .

(٤) العطاء الصادق كما أمر الله :

يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ ﴾ أى أنهم يؤتون كل ما أمروا به سواء كان من حقوق الله كالزكاة والكفارة وغيرها أو كان من حقوق العباد كالودائع ، والديون ، والعدل بين الناس ، والتعاون على البر والتقوى ، إن عباد الله تعالى يلتزمون بالطاعة ، ويؤدون كل ما أمروا به ومع ذلك يخافون أن لا يقبل الله منهم ، لفرط حبهم لله ، وتعلقهم بالفوز ... وذلك كخوف المتفوق أن يسبقه غيره .

سألت عائشة رضى الله عنها رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ

مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ ﴾ أهو الذي يزنى ويشرب الخمر ، ويسرق وهو على

ذلك يخاف الله تعالى ؟

فقال ﷺ : لا يا ابنة الصديق ، ولكن هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق

ويخاف ألا يقبل ذلك منه^(١) .

(٥) العمل الدائم للآخرة :

يقول الله تعالى : ﴿ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ أى أنهم جميعا راجعون

إلى الله تعالى لينالوا جزاء ما قدمت أيديهم ، ولذلك فهم يحافظون على حقوقه

ويتقونه ، ويتمنون قبوله : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ

بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿^(٢) .

(٦) المسارعة إلى كل خير :

يقول الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَيٰرَةِ وَهُمْ هَٰذَا سَابِقُونَ ﴾

أى أنهم يرغبون فى طاعة الله تعالى ، ويبادرون إلى العمل الصالح ، ويخافون

أن يفوتهم شئ منه ، وهم بحرصهم ، وعملهم يسبقون ، ويتقدمون إلى جنات

النعيم .

وبعد أن بينت الآيات صفات المؤمنين بينت عدة أمور لها صلة بالتكليف

الذى يقوم عليه الحساب والجزاء ... وهى :

(١) شعب الإيمان . كتاب الخوف من الله تعالى ج ٢ ص ٢١٣ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٨٨ ، ٨٩ .

(أ) بيان أن التكليف بالوسع :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أى أن الله تعالى جعل دينه فى حدود طاقة الإنسان البشرية فلم يكلف أحدا بما فوق الطاقة ، وما فعله المؤمنون كان ممكنا لغيرهم لو صدقت نواياهم .

(ب) ثبوت أدلة المحاسبة :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ﴾ أى أن أعمال سائر الناس مدونة فى كتاب يشهد صادقا بما قام به المكلف ، وهذا الكتاب هو ما كتبه الملائكة الموكلون بكتابة أعمال الإنسان خيرها وشرها .
وقيل : هو اللوح المحفوظ . ففيه كل ما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون .

(ج) عدم الظلم فى الحساب والجزاء :

يقول الله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أى إن هؤلاء المؤمنين لن يظلموا أبدا ، وسوف يعطيهم الله أجرهم وافيا تاما بالحق والعدل .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أهم صفات المؤمنين ، وهى إيمانهم بالله تعالى ، وخشيتهم الدائمة ، والالتزام بما أمر الله به ، وحبهم للخير والعمل الصالح ، وقد بين الله تعالى أن التكليف على قدر الطاقة ، ولن يظلم الله أحدا فى الحساب الجزاء وسيرى كل إنسان ما قدمت يداه .

(٩٧)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان تكامل شخصية المؤمن

المؤمن عبد لله تعالى ، آمن به ، واستقام على شريعته ، وتمسك بالخلق الإسلامى الكريم ، يعيش الدنيا ، وهو يعمل للآخرة ، ويرضى ربه الكريم .
والآيات تقدم صورة الإنسان المسلم المأمول أن يكون عليه كل الناس .
إنه إنسان متوازن ظاهرا وباطنا ، فهو فى باطنه يصدق بالحق ، ويقر بالاستقامة ، ويرضى بما يراه صوابا ... وفى نفس الوقت يلتزم ظاهره قولاً وعملاً ، وخلقاً بما آمن به باطنه ، ولذلك فأى موقف منه ، أو أى قول له ، أو أى عمل يصدر منه تعبير عن شخصيته .
إن المؤمن شخص أدى ما عليه الله تعالى ، وحق له أن يطمئن على جزائه الحسن الذى أعده الله له وفى الآخرة .

الركيزة الثانية

أهمية تواصل المؤمن بالله تعالى

لا يصح للإنسان أن يغفل حقيقته ، وينسى سبب خلقه ، وعلة وجوده ...
فقد خلقه الله لغاية كبرى ، وهى عبادة الله تعالى وحده ، وتسليم الأمور كلها لله سبحانه وتعالى .

والمؤمنون المخلصون الصادقون لا يبعدون عن ربهم أبداً ، فهم يخشون غضبه وعذابه ، ويرجون رحمته ومعونته ، ويهجرون حولهم وقوتهم مكتفين بحول الله وقوته ، ويعيشون بصورة رسول الله ﷺ حين قال الله له : ﴿ قُلْ إِنْ

صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٦﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ^ط وَبِذَلِكَ
أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٧٧﴾ (١) .

وعلى هذا فالمسلم فى كل حالاته عبد لله تعالى .

وعبادة الله شاملة لأعمال القلوب ، واللسان ، والجوارح ، فالعبادات
المحددة المشروعة تشمل طهارة القلب ، وتنقيه اللسان ، والتسامى بالأعمال .
أما بقية الأعمال فإنها تتحول إلى عبادات ، لأن النية الصادقة تحول
العادات إلى عبادات .

ومن هنا ...

نقول للمسلم أقصد الله بقلبك ولسانك ، وجوارحك تكن عبدا شكورا .
لا يصح أن نعيش الإسلام فكرة ثقافة ، نضعها فى عقولنا ، ونهملها فى
أعمالنا وسلوكنا .

يجب أن تنعكس القدرة فى المقدور ، وأن يسعد المملوك فى كنف مالكه
وأن تنهض الحياة بوجود مسلم صحيح .

لا يصح أن تتساوى صورة المسلم مع صورة غيره من أتباع المذاهب
الضالة ، والنحل المحرقة ، لأن هذا التساوى يعنى هبوط المسلم عن مستوى
إسلامه الرفيع ، وتبين عدم الالتزام بتعاليم الله تعالى .

إن الإسلام يعلو بصاحبه ، ويرتقى بسلوكه وخلقه ، يقول الله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) سورة المنافقون ، الآية ٨ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٣٥ .

صفات الكافرين

يقول الله تعالى :

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ
 ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ﴿٣٨﴾ لَا تَجْعُرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ
 مِنَّا لَا تَنْصَرُونَ ﴿٣٩﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰ أَعْقَبِكُمْ تَنْكِصُونَ
 ﴿٤٠﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٤١﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ
 يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٤٣﴾ أَمْ
 يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كِرْهُونَ ﴿٤٤﴾ وَلَوْ أَتَبَعَ
 الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ؕ بَلْ أَتَيْنَهُم
 بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٥﴾ أَمْ نَسِئُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجَ رَبِّكَ
 خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٧﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة صفات المؤمنين جاءت هذه الآيات لبيان
 غفلة الكافرين عن الحق وتوضيح أعمالهم السيئة ، وبيان أحوالهم التي
 يستحقون عليها العذاب .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات بعض صفات الكافرين ، وأهمها غفلتهم عن الحق ،
 واستهزاؤهم برسول الله ، وطعنهم في القرآن الكريم ، والإعراض عنه .

(١٠٠)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تتحدث الآيات عن الكافرين ، وأحوالهم ، وصفاتهم ، ومصيرهم ، وتوضح سوء فعالهم ، وتركهم ما فيه مصلحتهم وذلك فى مسارات متتابعة ، كما يلى :

- أولا -

بيان جرائمهم

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ اسم الإشارة للقرآن الكريم أى أن قلوب الكافرين فى غفلة عن هدى القرآن الكريم ، والاسترشاد بما جاء فيه . مع أنه يدعوهم للتى هى أقوم ، ويدعو إلى تحقيق سعادة الدنيا والآخرة ...

وغفلة المشركين عن القرآن الكريم جريمة منكرة لأن الإعراض عن القرآن الكريم ، واتهامه بما ليس فيه سبيل الكفر والضلال والفساد .

﴿ وَهُمْ أَعْمَلُ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴾ أى وللکافرين أعمال أخرى سيئة أسوأ من انصرافهم عن القرآن الكريم ، فقد أغرقوا فى الشرك والمعاصى ، وعبدوا الأصنام ، ولم يكتفوا بالإعراض عن القرآن الكريم بل أخذوا يستهزئون به ، ويلعبون بمعانيه وهم عند الحرم ، ويقولون هو سحر ، وهو شعر ، وهو من أساطير الأولين ... ويتهمون رسول الله بالكذب ، ويزعمون أنه ليس برسول ، ولم يصدقوا به حتى بعدما رأوا الآيات .

إنهم يستمرون فى ضلالهم وافكهم ، وتلك هى حياتهم ، ودينهم .

- ثانيا -**تألمهم من عذاب الله تعالى**

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ﴾ أى إذا

حل بهم عذاب الله يوم القيامة ، وبخاصة قادتهم ، فهم المترفون ، وهم الأكثر إيلا من سواهم ، وإذا وقع هذا العذاب يصيحون ، ويصرخون ، ويقولون : واغوثاه !! وبالسوء منقلباه !! لأن عذاب القادة سيكون لهم . فقد فعلوا مثلهم .

﴿ لَا تَجْعَرُوا أَلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ ﴾ أى لا تصرخوا اليوم ، ولا

تستغيثوا ، فقد فات وقته ، واليوم هو يوم الجزاء ، ولن ينتفع أحد باستغاثته اليوم ، ولن ينتصر من هزيمة .

وقيل : إن هذه الاستغاثة كانت يوم " بدر " ، ولم تكن لها أثر ، ولم تعقبها إلا الهزيمة .

﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰٓ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾

أى لا ينفع هذا اليوم صراخ واستغاثة ، فقد كنتم فى الدنيا ، وكانت آيات القرآن الكريم تتلى عليكم ، وكنتم تعرضون عنها ، ولم تستمعوا لها ، ولم تعملوا بها ، ولم تصدقوا ما جاء فيها ، بل كنتم تردون هدى القرآن الكريم ، وتبتعدون عنها .

﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ أى إنكم أيها المشركون كنتم

تستكبرون عن الإيمان ، وترغمون أنكم أهل حرم الله ، وتتعالون به عن الدخول فى الإسلام ، وتسمرون ، وتلعبون حول الكعبة ، وأنتم تهجرون القرآن وتقولون هو سحر ، وهو شعر ... الخ .

(١٠٢)

- ثالثا -

بطلان دوافعهم للكفر

وتتساءل الآيات عن دوافع المشركين للكفر ، وتتكرها عليهم لإظهار بطلانها كلها .

يقول الله عن الدافع الأول :

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ ؟ ... أى هل قالوا ذلك لأنهم لم يتدبروا القرآن

الكريم ، ويفهموا معانيه ، ولم يعقلوا آياته ودلالاته ، ولم يتأملوا ما فيه من فصاحة وبلاغة ، ولم يطلعوا على منهجه لتقديم منهج يصلح الحياة ، والآخرة فى إطار أسلوب مؤثر من خلال إيراد القصص ، وضرب الأمثال ، وعرض الأدلة ، ومناقشة معارضى الدين ، واثبات الحق بحججه وأدلته ؟

إن هذا الاحتمال غير مسلم لأن محمدا ﷺ كان يقرأ عليهم القرآن الكريم ميسرا لفظه ، مفهوما معناه بلسانهم ، ولغتهم ، وكان يدعوهم إلى النظر والتأمل ، ولكنهم أصموا أذانهم ، وأعموا أبصارهم .

وكان لديهم فسحة من الوقت ، تمكنهم من التدبر فيه ، ومعرفة أنه الحق من ربهم والوقوف على ما فيه من حجج دامغة ، وبراهين ساطعة ، والاستفادة بما فيه من فضائل الآداب ، وسامى الأخلاق ، وتطبيق ما فيه من تشريع ونظم ، لو اتبعوه لصاروا سادة البشر .

ويقول سبحانه عن الدافع الثانى :

﴿ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ؟ ... أى هل تدعون أن

ما جاء به محمد ﷺ حين بلغهم دين الله تعالى ، وعرفهم أنه رسول كالرسل السابقين ، ودعاهم إلى ما دعوا به ، أنه لم يحدث أن جاء مثله لآبائهم السابقين وسلفهم الأولين ... ؟

(١٠٣)

وهذا الاستفهام لأنكار هذا التصور إن زعموه ، لأن معرفة أهل مكة بالرسول السابقين أمر ثابت ، فهم يعايشون أهل الكتاب فى الجزيرة ، ويشاهدون آثار الرسول حين ذهابهم إلى الشام واليمن ، وخلال رحلة الشتاء والصيف .
ويقول الله عن الدافع الثالث :

﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ ؟ ... أى أم أنهم لم يعرفوا محمدا ﷺ معرفة حقيقية ، ولم يعرفوا نسبه ، وخلقه ، وصفاته قبل أن يبعث إليهم وبذلك يكون لهم عذر فى أن لا يؤمنوا به ؟
وهذا احتمال مردود أيضا لأن محمدا ﷺ معروف لأهل مكة بنسبه وخلقه ، وصفاته ، فعمه أبو طالب شيخ مكة ، ومحمد بينهم هو الصادق الأمين أحبه من تعامل معه ، فلما بعث ناداهم برفق ، وخاطبهم بالآيات البينات ، وأنكر عليهم كل ما ليس له سبب ، وعرفهم أن ردهم لدعوته حقد عليه ، وكراهية للحق .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ ؟ ... أى هل يتهمون محمدا بما ليس فيه ، ويزعمون جنونه الذى يجعله لا يدرى بما يقول ، ولا يستمر على ما يقول ؟
وهذا تصور باطل لأن محمدا ﷺ اشتهر فيهم بالفتنة والذكاء ، وقد طلبوا أن يكون ملكا عليهم ، رعى غنمهم ، وتاجر لأغنيائهم ، وتعامل مع طوائفهم كلها ، ولم يظهر عليه عته أو جنون .
وبعد أن بينت الآيات فساد الدوافع المحتملة لشركهم ، وكفرهم أخذت تبين الحق فى سبب عدم إيمانهم فقال تعالى .

﴿ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ ﴾ أى إن محمدا ﷺ جاءهم بالحق كله ، فالإسلام الذى دعاهم إليه هو دين الله الحق : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ ﴾

مِنْهُ ﴿١﴾ . والقرآن الكريم كلام الله هو الحق ، ومحمد ﷺ هو رسول الله بحق والحق باد فى دعوته كلها .

والحق : هو الأمر الثابت فى الواقع ونفس الأمر ، ويكون فى الذوات وأوصافها . وفى الأجناس ، وفى المعانى ، وفى الأخبار . فهو ضد الكذب ، وضد السحر وضد الشعر ، فما جاءهم به النبى ﷺ من الأخبار ، والأوامر ، والنواهى ملابس للحق ، فبطل بهذا ما قالوه فى القرآن الكريم ، وفى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وثبت أنهم لم يتدبروا القرآن ، وأنهم لم يراعوا إلا موافقة ما كان عليه آبائهم الأولون ، ومن لم يعرفوا حال رسولهم الذى هو من أنفسهم ، ومقالة من يرمى بالبهتان فنسبوا الصادق إلى التلبيس والتغليط .

فالحق الذى جاءهم به النبى أوله إثبات الوجدانية لله تعالى ، وإثبات البعث وما يتبع ذلك من الشرائع النازلة بمكة ، كالأمر بالصلاة ، والزكاة ، وصلة الرحم ، والاعتراف للفاضل بفضله . وزجر الخبيث عن خبثه ، وأخوة المسلمين ، بعضهم لبعض ، والمساواة بينهم فى الحق . ومنع الفواحش من الزنى ، وقتل الأنفس ، وواد البنات ، والاعتداء ، وأكل الأموال بالباطل واهانة اليتيم والمسكين . ونحو ذلك من إبطال ما كان عليه أمر الجاهلية من العدوان والأخلاق التى نشأوا عليها من عهد قديم . فكل ما جاء به الرسول يومئذ هو الموافق لمقتضى نظام العمران الذى خلق الله عليه العالم فهو الحق كما قال تعالى : ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ^(٢) . ولما كان قول الكاذب ، وقول المجنون المختص بهذا الذى لا يشاركهما فيه العقلاء ، والصادقون غير جاريين على هذا الحق كان إثبات أن ما جاء به الرسول حق نقضا لإنكارهم صدقه ^(٣) .

(١) سورة آل عمران ، الآية ٨٥ .

(٢) سورة الدخان ، الآية ٣٩ .

(٣) التحرير والتنوير ج ١٨ ص ٩٠ .

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ أى أن أكثر المشركين جبلوا على الزيف والانحراف فى أقوالهم وأفعالهم فهم أعداء الحق ، ومبغضوه ، لا يرون فيه إلا سوءا ، ولا يلمسون معه إلا الضيق والنكد ... وسبب هذه الكراهية طبعهم السيئ الذى عطل مداركهم ، وطمس عقولهم ، وسود قلوبهم ، فبعدوا عن الهدى والإيمان .

وانما أسندت الآية كراهية الحق إلى أكثرهم دون جميعهم ، إنصافا لمن كان منهم من أهل الأحلام الراجحة الذين علموا بطلان الشرك ، وكانوا يجنحون إلى الحق ، ولكنهم يشايعون طغاة قومهم مصانعة لهم واستبقاء على حرمة أنفسهم بعلمهم أنهم إن صدعوا بالحق لقوا من طغاتهم الأذى والانتقاص .

﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أى ولو سلك القرآن طريقهم ، وأيد شركهم ، وداهنهم ، واتخذ مع الله آلهة أخرى لأختل نظام العالم كما قال تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِاهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(١) .

ولو خلا القرآن الكريم من النظم الشرعية ، واتبع ما عليه المشركون لصاعت المقاصد الضرورية ، ولغابت الحقوق ، وانتشر البغى والفساد .
ولو أباح القرآن الكريم فساد المشركين لانتشر الربا ، وعم المنكر حياة الناس ومعاملاتهم .
ولو أباح القرآن الكريم الفواحش لصاعت الأنساب ، وساد الهرج والمرج حياة الناس .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٢٢ .

(١٠٦)

إلا أن الله تعالى لم يرض ذلك للناس ، فأنزل قرآنه ، ودعا لدينه لينتشر العدل بين الناس ، ويحسن إليهم ، ويكرمهم بدينه القويم ، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى .

﴿ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ أى لم نتبع

أهواءهم ، بل جنناهم بالقرآن الكريم بلغتهم إعلاء لقدرهم ، وفخرا لهم بين الأمم ، وهداية لهم إلى دين الله تعالى ، ومع ذلك فهم معرضون عنه ، ومنصرفون عن الاستماع إليه ، والإيمان به .

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ؟ ...

الاستفهام إنكارى ينكر الله فيه على من يزعم أن محمدا ﷺ يطلب منهم أجرا على دعوته ، والمقصود بالاستفهام الخبر ، أى أنك لا تطلب منهم أجرا فأجرك عند الله وهو . سبحانه . خير من يرزق ، ويعطى .

﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أى أنك يا محمد تدعو

هؤلاء القوم إلى دين الله الحق ، وإلى منهج الله القويم .

يقول الزمخشري : قد ألزمهم الله الحجة فى هذه الآيات ، وقطع معاذيرهم وعلمهم ببيان أن الذى أرسل إليهم رجل معروف أمره ، وحاله ، مخبور سره وعلنه ، خليف بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرائهم ، وأنه لم يعرض له حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ، ولم يجعل ذلك سلما إلى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم ، ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذى هو الصراط المستقيم ، مع إبراز المكنون من أدوائهم ، وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل ، واستهتارهم بدين الآباء الضلال من غير برهان ، وتعللهم بأنه مجنون بعد

(١٠٧)

ظهور الحق ، وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة ، وكراحتهم للحق ، واعراضهم عما فيه حظهم من الذكر^(١) .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات جرائم المشركين ، وتبطل الدوافع المحتملة لكفرهم ، وتوضح فساد ما هم فيه لأن الرسول جاءهم بالحق ليرفع ذكرهم ، ولينقذهم من الضلال والفساد ، ولم يأخذ منهم أجرا ، واستمر يدعوهم إلى صراط الله المستقيم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

أهمية المسارعة إلى الخير

الحياة مليئة بالأسباب الداعية إلى الاستقامة ، والإنسان مفطور على الخير ... والشيطان داع إلى السوء في دأب لا ينقطع ، ونشاط لا يعرف الكسل ... ولذلك كان من الحكمة أن يسارع الإنسان إلى الخيرات ليبقى حبا في قلبه قويا راسخا ... لأن الخير يأتي بمثله ، والعمل الصالح سيل تتابع جزئياته ، وإذا عاشه إنسان أحبه وألفه ، وتمسك به ، وهجر ما عداه ... ولم يسكن حب الهوى قلوب المشركين إلا لأنهم غفلوا عن الصواب ، وتعودوا على أعمال السوء فاسودت قلوبهم ، وعميت أبصارهم فلا يرون إلا سوءا ، ولا يهتدون بهدى .

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٩٧ .

إن المؤمن يجد حلاوة الإيمان في قلبه ولسانه وعمله ، حيث يمتلئ قلبه بالحب ، والمودة ، والرحمة ، والأمل ، والمعرفة ... وحيث ينطلق لسانه بالذكر ، والصدق ، والنصيحة ، والقوة ... وحيث الصالحات تملأ نشاطه مع نفسه وأهله ، والناس أجمعين .

إن المؤمن لا يغيب عن ربه الذى آمن به ، فهو فى يقظته يذكره بقوله وعمله ، وعند نومه يسلم أمره إليه ، وعند يقظته يحمده ويشكره ، فينتقل طوال عمره من ذكر إلى عمل ، ومن شكر إلى حمد ، ومن حب إلى عشق إلى هيام وتعلق ، ومن سعادة الدنيا إلى سعادة الآخرة .

يقول النبى ﷺ : "من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه" (١) .

ويقول الله فى الحديث القدسى : "ما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، وبه التى يبطش بها ورجله التى يمشى عليها ، وإن سألتنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيننه" (٢) .

ويقول سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى : "من عمل حسنة فجزاؤه عشر أمثالها وأزيد ، ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغفر ، ومن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ، ومن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة ، ومن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملا خير من ملاه" (٣) .

(١) صحيح البخارى . كتاب الرقاق . باب من أحب لقاء الله ج ٨ ص ١٠٦ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب الرقاق . باب التواضع ج ٨ ص ١٠٥ .

(٣) شعب الإيمان . كتاب الرجاء فى الله تعالى ج ٢ ص ٣٣٦ .

لقد ضيع المشركون أنفسهم باستغراقهم فى الشهوات ، وغفلتهم القلبية عن آيات الله ، وتمسكهم بسوء القول والعمل ، وعدم وقوفهم مع الحق إلا عند نزول العذاب بمترفيهم حيث لا تنفع توبة ، ولا يقبل عمل .
 إن هذه الحقيقة هى مصباح الدعاة لإنارة الطريق أمام الناس ليسارعوا إلى الخير ، ويعملوا بمنهج الله تعالى ، ولهم عبرة من الغافلين .

الركيزة الثانية

أسباب تعلق الكافرين بالكفر

تبين الآيات أسباب تعلق الكافرين بالكفر والضلال رغم دعوات الرسل فيهم ، وأهم هذه الأسباب ما يلى :

(١) **غفلة القلب عن الحق** : إن المشركين يعيشون بعقل غافل ساه ، ولذلك نراهم يعملون ما تنكره العقول السليمة ، وهم راضون .
 منهم من يعبد بقرة أو شجرة .
 ومنهم من يتخذ إلهه هواه .

ومنهم من أشرك فى العبودية مع سبقه فى السياسة ، والعلوم التجريبية ...
 ويتعجب العاقل من هذا التناقض العجيب فلا يرى إلا انقطاع نور الهداية عن القلوب حتى خوت من الخير ، وامتألت بالفحشاء والمنكر .

(٢) **الانهماك فى المعاصى** : بين الهداية والضلال خيط رفيع فمن أكرمه الله بالهداية التى تحول الخيط إلى سد منيع يبعد عنه الضلال بعدا تاما ...
 ومن وقع فى الضلال وقع فى الحرام ، وأصبح جزءا من أباطيل الشيطان ويستمر فى ذلك حتى يكون شيطانا من الإنس يرضى بكل فسق محرم ، ويبتعد عن كل حلال مشروع .

ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن الوقوع فى الشبهات مخافة الوقوع فى الحرام، ولتبقى الفطرة ناصعة طيبة ... يقول النبى ﷺ: "الحلال بين والحرام بين،

وبينهما أمور مشتبّهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كراع يرمى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ... ألا وان لكل ملك حمى ألا وان حمى الله محارمه^(١) .

(٣) **تقليد المترفين** : تشير الآيات إلى أن المشركين يقدون قادتهم ، ولا يدركون الحق إلا إذا نزل العذاب بقادتهم هؤلاء ، وأهلكهم الله تعالى بقدرته ، وحينئذ يستغيثون بلا مغيث ، فقد انتهى زمن التكليف ، وجاء وقت الحساب والجزاء .

(٤) **تعطيل أدوات الإدراك** : خلق الله فى الإنسان أدوات الإدراك التى تساعد على الفهم ، والحكم ، والتصديق ، فالحواس تدرك المحسوسات ، والعقل يفهم المعقولات ، والروح ترتبط بالقوى والقدرة التى لا تدركها الحواس ولا تتصورها العقول ... ويتعاون قوى الإدراك يصل الإنسان لله ... والغافلون يهملون ادوات الإدراك ، ويرضون بما رضيت به البهائم : ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى فِيهَا ^(٢) ﴾ ، وينسون الحقائق الموجودة فيهم ، ومن حولهم ، ويتكبرون على من يذكرهم بها .

إن المؤمن العاقل هو من يعرف ذاته وربّه ، ويستفيد بآيات الله الموجودة فى كل خلقه سبحانه وتعالى .

وعلى الدعاة :

أن يوقظوا فى المدعوين عوامل الإيمان ، ويذكروهم بفضل الله ، ويبعدوهم عن المترفين والسفهاء .

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب البيوع . باب ما جاء فى ترك الشبهات ج ٣ ص ٥٠٣ .

(٢) سورة محمد ، الآية ١٢ .

الركيزة الثالثة

دور الاستفهام فى الدعوة إلى الله تعالى

تقوم منهجية الدعوة إلى الله على عناصر كثيرة أهمها : الوسيلة التى تحمل الألفاظ بمعانيها إلى الناس ، والأسلوب الذى يقرع المسامع والقلوب بما يبلغه الدعاة .

والاستفهام فى منهج الدعوة يكون وسيلة وطريقا فى كل مسائل الدعوة وقضاياها .

ويكون أسلوبا مكونا من ألفاظ معينة فى كل موقف على حدة .
وفى الآيات نرى أسلوب الاستفهام يناقش المشركين ، وهو ينكر عليهم ويسألهم عن سبب كفرهم ليعودوا إلى رشدهم ، ويكتشفوا بالسؤال خطأهم ، ولذلك جاء الاستفهام الإنكارى عن أمور معلومة للمخاطبين لبيان سوء ما فعلوا لأن كل الأسباب المسئول عنها بيئة الدلالة ، ظاهرة واضحة .

- ألم يفهموا القرآن لصعوبة مبناه ، وغرابة كلماته ؟ ... كلا !!
 - أم جاءهم رسول لم يأت من قبل مثله ؟ ... كلا !!
 - أجهلون شخصية الرسول وأحواله ؟ ... كلا ...
 - أيتهمونه بما ليس فيه متعبدين ؟ ... نعم ...
- إن الإجابة معلومة لهم ، والاستفهام تنكير لهم ليناقدشوا أنفسهم مرة ومرة ليختاروا ما يريدون ، ويتخلصوا من أخطائهم ، وضلالهم .
- وقد أبقى الله هذه الاستفهامات فى القرآن الكريم لتكون أمام الدعاة وسيلة يستفيدون بها فى دعوة الناس ، ويهتدون بهديها ...
- إن هذه الاستفهامات تتصل بأمور يعيش الناس فيها ، ويدركون حقيقتها ولا يمكنهم إنكارها .

وأيضاً فهي تسأل عن الموقف من هذه الحقائق لبيان أن مواقف المشركين ليست صواباً ... وأيضاً فهي توضح للمشركين الحق حتى لا يتوهوا في البحث عنه ، ويجدوا أنفسهم أمام الحق ، وعليهم أن يتخذوا موقفاً معه ... ويمكن للدعاة أن يستفيدوا بهذه الأساليب لتكون هي كلماتهم مع الناس . وقد اشتمل القرآن الكريم على الاستفهام ليتدبره المؤمنون ، ويدركوا فضل الله عليهم ، فيعيشوا الحق وهم به راضون .

تعنت المشركين وإنكارهم للبعث

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ ﴾ ٧٦ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ٧٧ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ٧٨ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ٧٩ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة صفات الكافرين جاءت هذه الآيات لبيان تعنتهم في عدم الإيمان باليوم الآخر ، وفي عدم الاعتبار بالآيات على تنوعها وكثرتها .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات تعنت المشركين في كافة القضايا التي دعاهم رسول الله إليها فهم ينكرون البعث ، ولن يستفيدوا برحمة الله تعالى ، وسيستمررون في العنت

والكفر ، ولن يتأثروا بالعذاب ينزل عليهم ، ولن يفيقوا من غيهم إلا بمجئ الساعة .

إنهم يكفرون بالله الذى خلقهم ، ورزقهم ، وأحياهم ، وأماتهم ، ويستمرون فى اتباع وتقليد آبائهم فى الكفر والضلال ، وفى رد الحق والصواب .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبُّونَ ﴾ أى

إن هؤلاء المشركين لا يصدقون بالآخرة ، وينكرون قيام الساعة وهذا أبعدهم عن الحق بعدا كبيرا ، وأضلهم عن الطريق الصحيح ، فعدلوا عنه إلى غيره ومالوا عن دين الله تعالى فتنكبوا واضطربوا وهم لا يشعرون ، ومن أين لهم الوصول للحق ؟ وقد كفروا بالله ، وأنكروا دينه ، ولم يعملوا الجنة ، أو يخافوا من نار ، ولذلك سيطر عليهم الهوى ، واستغرقتهم الشهوات وطغى كبيرهم ، وهان صغيرهم بسبب تنكبهم عن صراط الله المستقيم .

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُودِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

أى أن هؤلاء المكذبين للبعث قد بلغوا من العنت حدا يصعب معه رجوعهم للحق ، فلن يرجى منهم صلاح بعده ... فلو أنهم ردوا من الآخرة إلى الدنيا بعدما رأوا العذاب فى الآخرة لعادوا لما نهوا عنه ، ولاستمروا فى اللجاجة والخصومة ، وعادوا إلى أشد الكبر ، والخوض فى الضلال .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَاثُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾

أى ومما يدل على تعنتهم ، وعدم استفادتهم بما حل بهم أنا قد قتلنا سراتهم يوم "بدر" وأريناهم خلال المعركة آياتنا فما خضعوا لربهم ، ولا انقادوا لأمره ونهيه ، ولم يؤمنوا به صاغرين أذلاء .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾

أى أنهم سيستمرون على ضلالهم وعنتهم حتى تقوم القيامة ، وتأتيهم الساعة ، ويرون الحساب وعندها يجازيهم الله بالعذاب الشديد ، وينفتح أمامهم باب العذاب الأليم . فى هذا الوقت ينتابهم اليأس ، وينقطع الأمل ، وتراهم سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الذين ينكرون البعث بعدوا عن دين الله تعالى ، وضلوا ضلالا كبيرا ، وأنهم لعنتهم لا يستفيدون فلو ردوا من الآخرة إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه ، ولقد أريناهم العذاب يوم "بدر" ، ولم يتعظوا به ، وفى يوم القيامة حين يأتيهم العذاب يصيبهم اليأس ، ويسيطر عليهم القنوط .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

ضلال المشركين

وهرمانهم من الخير

الكافر عدو لنفسه ، عدو لدين الله تعالى ، مستمر فى طغيانه وضلاله ، متصف بما يلى :

(١) إنكار الآخرة : المشرك كافر بخالقه ، ولذلك فهو كافر ببلقائه ، والرجوع إليه ، لا يتصور حسابا ، ولا جزاء ، ولذلك يعيش الدنيا ساعيا للذة والمتعة ، لا يعرف حلالا ولا حراما ، ولا يهتدى بهدى الله المستقيم .

(٢) إهمال منهج الله تعالى : أنزل الله على لسان رسوله منهجه الذى يعيش به المؤمنون ، وهو منهج يحقق السعادة ، ويحافظ على الحقوق ، ويحدد الواجبات ... إلا أن المشركين لما كفروا بالله بعدوا عن منهجه ، وارتضوا بالفسق ، والتترف ، واتخذوا الظلم طريقا لهم .

(٣) تمسكهم الشديد بالهوى : أدى الكفر بالله وبالأخرة إلى أن صار الكافر نصيرا للشيطان ، بعدما زين له الهوى ، وأغواه بالشهوات ، وخوفه من الطاعة والاستقامة .

ويتعمق الكافرون فى ضلالهم حتى يصعب عليهم أن يعودوا إلى الإيمان ، ويستحيل عليهم أن يعودوا إلى دين الله تعالى ... فلو رحمهم الله تعالى ، ورفع الضر عنهم لفسروا ذلك بعملهم وجهدهم ، واستمروا فى طغيانهم ... ولو نزل بهم عذاب فى الدنيا لا يرجعون إلى الله ، ولا يعرفون أن ذلك نذير لهم .
إنهم لن ينتهبوا إلى الحقيقة إلا عند الحساب حين يرون أبواب جهنم وقد انفتحت وحينئذ يصيبهم اليأس والحسرة والندامة ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين .

إن هذه الحالة البيئة للكافرين جاءت من تعنتهم وتمسكهم بضلالات الآباء ، وسفاهة الضالين .

إن الله خلق كل إنسان نسيج وحده ، وميز كل فرد بمزايا شخصية ، ودعا الرسل الناس أفرادا وجماعات ، ووضع لهم أن المسئولية فردية ، وأن الحساب لكل شخص على حدة .

فلم إهمال العقل واللجوء إلى التقليد ؟ ...

ولم ذوبان الذاتية الإنسانية فى قادة الكفر والضلال ؟ ...

ولم لا يتذكر الإنسان يوم القيامة ؟ ... يقول الله تعالى :

- ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^(١) .
- ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾^(٢) .
- ﴿وَكُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبِيرَهُ فِي غَنَقِهِ^ط وَخَرَجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾^(٣) أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾^(٤) .

آيات الله في الإنشاء والإعادة وبيان سبب كفر المشركين

يقول الله تعالى :

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ^ع قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ
 ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ
 وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ^ع أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ
 الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا^ع أَيْنَا لِمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ
 وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن المشركين أعرضوا عن الإيمان ، ولم يسمعوا
 للأدلة جاءت هذه الآيات لبيان أن الله خلق الخلق ، ورزق الناس وأعطاهم

(١) سورة الدخان ، الآية ٤١ .

(٢) سورة مريم ، الآية ٩٣ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية ١٣ ، ١٤ .

(١١٧)

السمع والأبصار ، ونشرهم لتعمير الأرض ، وعرفهم بأنه يحيى ويميت ، ويسخر الليل والنهار عساهم يؤمنوا ويعتبروا .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله خلق للإنسان السمع والبصر والفؤاد ليشكروا الله على نعمه ، وفضله ... وقد ذرأهم ، ونشرهم فى الأرض .
وسيحشرهم إليه فهو المحيى والميت ، وهو الذى هدى كل شئ لما خلق له . عسى أن يعقل الخلق ، ويؤمنوا بالله تعالى ، ويتركوا تقليد الآباء الذين أنكروا البعث ، ولم يؤمنوا بالرسول .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تبين الآيات بعض آيات الله فى الإنسان ... وهى :

(١) آية الخلق والايجاد :

يقول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾

أى اعرفوا ربكم وآمنوا به ، ولا تكونوا من المشركين . فقد أوجد لكم وفيكم السمع لتسمعوا الأصوات ، وأوجد العيون لتروا بها ، وأوجد العقول لتتميزوا بها عن سائر المخلوقات وتفهموا بها ، وتختاروا بفهمكم ما يحقق مصالحكم ، ويسعدكم فى الدنيا وفى الآخرة ، وقد خصكم الله بهذه النعم بصورة تامة ودائمة من بين سائر خلقه .

وقد اختارت الآية النعم الثلاثة المذكورة لأنها أدوات الإدراك الحسى والعقلى الواجب على الإنسان أن يستفيد بها لتحقيق الغايات الكبرى التى خلق لها ... ورببتها الآية ترتيبا واقعيا وفق ظهورها فى الإنسان بعد ولادته فقد أثبت

علماء الطب أن الطفل بعد ولادته يسمع فى الأيام الثلاثة الأولى ، ثم يبدأ الرؤية بعد ذلك ، ويتأخر العقل بعد البصر والسمع كثيرا .

﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أى إنكم أيها المشركون لا تشكرون الله على هذه النعم التى تعيشون بها ، وتتبعون بوظائفها فى أعمالكم وحياتكم ، وتصاريف مختلف شئونكم .

(٢) تعمير الأرض ، والانتشار فيها :

يقول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى وهو الله الذى خلقكم فى الأرض ، وبتكم فيها على اختلاف أجناسكم ولغاتكم لتعمروها ، وتنشروا دين الله الذى سيأتيكم به الرسل ، وتقيموا أمما وحضارات فى جنات الأرض .

(٣) إعادة الخلق يوم القيامة :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى أن الله تعالى سيعيدكم لحياة أخرى ، ويبعثكم فى قبوركم ، ثم يحشركم للحساب والجزاء ، وهذه نعمة عظيمة لأن الإيمان بذلك يؤدى إلى العمل الصالح فى الدنيا .

(٤) الإحياء والإماتة :

يقول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي تَحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أى والله هو الذى أحيا الخلق بأن نفخ فيهم من روحه ، ثم يميتهم عند انقضاء أجلهم ثم يحييهم مرة أخرى للحساب والجزاء فى يوم القيامة .

(٥) خلق الكون وتسخيرها للإنسان :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَهُ أَخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى خلق الليل والنهار كائنين مختلفين فى النور والظلمة والطول والقصر والأثر

والفائدة ... وجعلهما سبحانه متعاقبين فى توال دائم ، ومستقيم لا يبغى إحداهما على الآخر . يقول الله تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي هَآ أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ كُلُّ فِي فَلَكَ يَسْبَحُونَ ﴾^(١) .

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؟ ... الاستفهام للإنكار ينكر الله على المشركين

ما هم فيه من عدم تدبر الآيات ، وعدم الإيمان بمن خلقها ، وهو الله تعالى .
ثم أخذت الآيات توضح سبب ضلال المشركين ، فقال تعالى :

﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴾ أى لم يستفد المشركون بآيات الله

تعالى ، ولم يتدبروا فيها ، وساروا مسار آبائهم ، وكفروا مثل كفر السابقين .

﴿ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أى أنكروا

البعث ، ولم يصدقوا باليوم الآخر ، واستبعدوا أن تعود الأجساد مرة أخرى بعدما رمت ، وبليت ، وتفتت ، وتداخلت .

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى أن الرسل عليهم

السلام قد عرفوهم وأبأهم باليوم الآخر ، وخوفوهم من العذاب فيه فلم ينتبهوا واستمروا على كفرهم ، وقالوا :

﴿ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى أن المشركين لم يؤمنوا باليوم

الآخر ، وكذبوا الرسل ، وذكروا أن ما يسمعون عن حياة أخرى مليئة بأخبار كاذبة لا وجود لها فى الحقيقة .

(١) سورة يس ، الآية ٤٠ .

(١٢٠)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات الأدلة على وحدانية الله وقدرته فى النفس البشرية ، وفى الكون المحيط بالإنسان ، فالله سبحانه وتعالى قد خلق للإنسان بصرا يرى به وأذنا يسمع بها ، وقلبا يفهم ، ويعقل به ، ومع ذلك يكفر الناس ... وهو سبحانه الذى بث الناس فى الأرض مع اختلاف ألسنتهم وألوانهم ليعمروها ، وليعيشوا فيها ، وسيموتون عند أجلهم ، وسيحشرون يوم القيامة للحساب والجزاء ... وهو سبحانه يحيى الخلق ، ويميتهم ، ويبعثهم .

وتبين الآيات أن المشركين يقلدون أباءهم فى إنكار البعث ويستبعدون إحياء الأجساد بعدما رمت ، وبليت ، وصارت ترابا ، ويرون أن القول بذلك من أساطير الأولين .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان آيات الله للإنسان

يحب الله لعباده أن يؤمنوا به ، ويعبدوه وحده ، وهو سبحانه وتعالى رحيم بهم ، ولذلك يخاطبهم بما يفهمون ، وبما يعقلون ، ولم يبعدهم عن الصواب بتركهم فى متاهات الفلاسفة ، أو دعوتهم إلى الآيات البعيدة عنهم ، التى يصعب عليهم الوصول إليها .

إن القرآن الكريم يعيد الإنسان إلى ذاته ليتأمل فيها ، وفى الكون القريب منه .

ففى ذاته خلق الله له السمع ، والبصر ، والفؤاد لكل إنسان مع اختلافها قوة ، وضعفا ، واستمراريتها مع أصحابها ... والنظر فى هذه الحواس يؤدى إلى الإيمان بالله تعالى ، فهذه الآله الصغيرة من أذن ، وعين ، وقلب تقوم بوظيفتها بصورة تلقائية تشهد لمن خلقها وأنشأها ، وليسأل الإنسان نفسه :

(١) كيف تسمع الأذن ، وتترجم ما سمعت ، وتوصله للعقل ليتخذ قرارا يجيب به على صاحب الكلام ؟ من هداها لذلك فى سرعة خاطفة وفى زمن لا يمكن الإحاطة به ؟

(٢) من مكن البصر من التصور ، وحفظ الصورة فى لحظات ؟

(٣) ومن مكن الفؤاد من الفهم ، والإدراك ، والتذكر ، وجمع المعلومات الكثيرة والخطيرة ، والاستنتاج العلمى ، والفكرى إلى مدى بعيد ؟

والآيات فى الإنسان عديدة ، والتأمل فيها يؤدى إلى الإيمان بالله تعالى . والكون القريب من الإنسان أكثر عجبا ، وأقوى إعجازا فقد بسط الله الأرض ، وأجرى فيها الماء والهوى ، ونشر الخير فى ربوعها ، وذرا البشر فيها ، وكلفهم بالعمل ، وخلق الموت والحياة ليستقيم الناس على الصراط المستقيم . إن إبراز آيات الله ضرورة ليفهم الناس ويؤمنوا بالله رب العالمين .

ويمكن للدعاة أن يستفيدوا بآيات الله فى دعوة الناس كما يلى :

أولا : الاستفادة بالآيات اللصيقة بالإنسان فالسمع ، والبصر ، والقلوب عناصر فى كل إنسان ، ولذلك كان التركيز عليها دليل لكل إنسان .

ثانيا : الاستفادة بالآيات الأكثر نفعا ، ولذلك كان إظهار آيات العقل والبصر والسمع له أهميته لأنها أساس قوام الإنسان وسبب تميزه عن غيره .

ثالثا : بيان ربط الدليل بالمدلول ، ولذلك كانت الإشارة إلى انتشار الناس فى الأرض ، ووجود الكائنات واختلافها ، وهذا دليل للقدرة والبعث والحساب .

وعلى الدعاة :

أن يهتموا بأدلة القرآن الكريم ، والاستفادة بمنهجه سبحانه وتعالى ، وفي آيات القرآن الكريم دروس وعبر ، ودليل ومنهج .

الركيزة الثانية

تقليد الكافرين سبب ضلالهم

تشير الآيات إلى سبب رئيسى لضلال الكافرين وشركهم . فقد أبطلوا عقولهم ، ولم يتدبروا فى الآيات التى أتتهم ، وكفروا بالله تعالى ، وقالوا مثل قول الكافرين قبلهم ... وأنكروا البعث ، واستبعدوه لظنهم استحالة إعادة الإنسان بجسده وروحه ، بعدما تفتت عظمه ، ورم بدنه ، وصار ترابا امتزج بتراب غيره فتداخلت الأجسام ... إلا أن الحق هو الإيمان بالبعث لأن الله صانع الكون العجيب ، وهو قادر على إعادته ، لأن الإعادة أيسر من الایجاد ، وتداخل الأجزاء لا يعنى صعوبة تمايزها عن بعضها ، لأن قدرة الله غالبية .

وقد سأل إبراهيم عليه السلام ربه عن كيفية البعث بعد تداخل الأجسام فأجابه ربه بما يوضح له الأمر بطريقة عملية ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أُولَٰئِمَّا تُوْمِنُ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠١﴾ (١) .

وبذلك أظهر الله لإبراهيم عليه السلام بطريقة عملية أن البعث ممكن عقلا ، والإيمان به واجب شرعا .

(١٢٣)

وفى هذا رد على المشركين وآبائهم وذرائعهم فى كل ما يزعمون ، ويثبت الحق الذى يجب الإيمان به .

الركيزة الثالثة تكريم الله للإنسان

يجب أن يعود الإنسان لنفسه ، ويتأمل فى الطاقات والملكات التى أودعها الله فى نشأته ، فتميز بها عن سائر المخلوقات .
إن الإنسان يأكل ويشرب ، وينمو كسائر الحيوانات إلا أنه تميز بالحواس المدركة ، والعقل الفاهم والواعى ، والدوافع التى تبقيه سيدا مالكا مسيطرا .
لقد سخر الله الكون لخدمة الناس ، ولم يسخر الناس لخدمة الكائنات الأخرى .

لقد وزع الله الناس على جنبات الأرض ، فاختلقت ألسنتهم وألوانهم ومكنهم من التواصل ، والتعاون ، والتعارف دون سائر الخلق ... يقول الله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝ (١) .

ألا يدفع ذلك الإنسان إلى الإيمان بالله تعالى ، والاستسلام له والعمل ليوم القيامة !!؟

إن العقل الواعى طريق الوصول لله ، لأنه يغوص فى الآيات ، ويرى إعجاز الله فى كل مخلوقاته ، ولذلك يسارع إلى الإيمان بالله تعالى .

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

جمع المشركين بين الإيمان والكفر

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ
 قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ
 ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ مِنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ
 شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ
 فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن المشركين ينكرون البعث ، ولا يؤمنون بالله
 الواحد الأحد جاءت هذه الآيات بالآيات التي تبين أن الله خالق كل شيء ، وبيده
 ملكوت كل شيء ، وتوضح أن المشركين يصدقون بذلك ، ويقرون به ، ومع ذلك
 لا يؤمنون بالله ، ولا يخصونه بالعبادة وحده ، وينفون قدرته على البعث
 والحساب والجزاء .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله تعالى يملك كل خلقه من أرض وسماء ، وبيده ملكوت
 كل شيء ، وهو المعين لغيره ، ولا يحتاج لغيره ، والمشركون يقرون بذلك ، ومن
 الأولى بهم أن يتذكروا ويعلموا أن الله قادر على بعث خلقه من قبورهم ،
 ليحشرهم ويحاسبهم ، ويجازيهم بما يستحقون .

(١٢٥)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

أمر الله رسوله أن يقيم الحجة على المشركين ، ويثبت لهم أن البعث حق وذلك بسؤالهم ، ومعرفة أجوبتهم في أمور ثلاثة ، لأن أجابتهم في كل مرة تحتم إيمانهم بالبعث ، وتثبت قدرة الله تعالى في البعث والحساب والجزاء .

السؤال الأول

من يملك الأرض ، ومن فيها ؟

﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ﴾ ؟ ... والسؤال للتقرير ليردوا عليه ويبينوا إيمانهم بملكيته سبحانه للأرض ومن فيها ، وقد أمر الله رسوله ﷺ ليسألهم هذا السؤال لأهميته ودلالته .

﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى أجيبونى بعلمكم الثابت لديكم عن المالك الحقيقي للأرض ، ومن فيها ، وما عليها ، وما تحتها ، لأن الإجابة تحدد المستحق للعبادة . فمن خلق قادر على الإعادة .

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ أى أنهم سيقولون : إن مالك الأرض هو الله ، وقد بادرت الآية بذكر الإجابة ، لأنها من بدايات العقل ، وأنهم مقرون بذلك .

﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ؟ ... أى قل لهم يا محمد إن كنتم تقررون بأن الله خالق الأرض ومن فيها فلماذا لا تؤمنون بقدرته على البعث ؟ ... وقدرته وإعادة الميت للحياة مرة أخرى ، لأن الإعادة أيسر من الإيجاد من عدم .

والسؤال الأول : يتصل بالإنسان المخاطب اتصالا مباشرا ، فهو يعيش على الأرض ، ويدور في جنباتها ، ويتعاش مع عطاء الله فيها ... ودلالاتها واضحة لأن ما فيها من آيات لا ينكرها جاحد ، وكل إنسان يحيط بجزء من آيات خلق الأرض وما فيها .

السؤال الثانى

من رب السموات السبع

ورب العرش العظيم ؟

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ ؟ ... أى

قل لهم يا محمد واسألهم عن من خلق السموات السبع فى طبقات متباعدة ؟ ...
ومن أودع فى كل منها ما شاء من مخلوقات ... ومن يتصرف فيها ، ويوجهها
لما يريد ؟ ... واسألهم عن من خلق العرش بعظمته واحاطته للسموات والأرض
؟

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى أنهم سيقرون بأن الله

هو خالق السموات ، وخالق العرش ، وهو مدبرهما ... وحينئذ قل لهم منكرا ،
وموبخا : أتعلمون ذلك ، ولا تخافون عقاب الله ينزل بكم ، وأنتم لا تؤمنون به
ولا تصدقون بالبعث الذى أخبركم بحتمية وقوعه ؟ ...

والسؤال يدور حول الكون البعيد لبيان أن الله خالق كل شئ ، له ما فى
السموات وما فى الأرض ، ولا يؤوده حفظهما ، وهو العلى العظيم .

السؤال الثالث

من بيده ملكوت كل شئ ؟

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ

كُنْتُمْ تَعْمُونَ ﴾ ؟ ... أى قل لهم يا محمد واسألهم ليقروا لك عن من يملك كل

شئ ، ويدبر كل شئ ، وفى قبضته وتحت تصرفه كل شئ ... وهو يغيب
ويعين من يشاء ، ويضعه فى حرز لا يقدر عليه أحد ، وهو مستغن عن غيره
لا يقدر مخلوق أن يخرج من قبضته سبحانه وتعالى .

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ أى أنهم سيقرون بالحق

الذى يؤمنون به ، وهو أن بيد الله ملكوت كل شئ ، وهو سبحانه يعين غيره ويصونه ، ولا يحتاج لغيره . فقل لهم حينئذ : كيف تخدعون ، وتتصرفون عن عبادة الله وتعبدون أصناما جامدة ، وكأن عقولكم قد سحرت ، وغابت عن رشدها ، وأصبحت بالذهول والحيرة ؟

وفى هذا إشارة إلى دور زعماء السوء فى نشر الضلال ، وذلك إنهم يفترون الكذب ، ويكررونه حتى يظن من يسمعهم أنهم على الحق فيفقد عقله ويتبعهم .

﴿ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى ليس الأمر كما يزعم

هؤلاء المشركون ، فلقد أتاهم القول الحق مؤيدا بالآيات والحجج ، وهم كاذبون بعد ذلك فى إنكارهم له .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات الأسئلة المثبتة لوحداية الله ، وقدرته على البعث ، وتقيم الحجة على منكرى البعث ، وتثبت أن الله مالك السموات والأرض ، وكل شئ بيده ، وذلك برهان واضح على قدرته على البعث والحساب ، والجزاء لأن من قدر على إيجاد شئ من عدم قادر على الإعادة فهى أيسر .

(١٢٨)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

توضح الآيات ركيزة هامة ... هى :

حسن عرض قضايا الإيمان للناس

تقدم الآيات منهجا عمليا حسنا فى الدعوة إلى الله تعالى ، وهو سؤال الناس عن فاعل الفضائل التى هم فيها .

إن عرض الإسلام يتخذ طرقا عدة ... فمنه عرض الإسلام بطريقة مجردة ، وذلك يعنى بيان الإسلام ، واطهار الأدلة الثابتة ، واطهار مزاياه .
ومن الدعوة إلى الإسلام مقارنته بغيره لىتميز الخبيث من الطيب .

ومن الدعوة سؤال المدعويين عن أمور يقرون بها مع ربطها بأسبابها التى يغفلها المشركون ... وميزة هذا الأسلوب فى الدعوة أنه يبين الحق الذى يؤمن به الداعى ، ويقر به المدعوون ، إلا أن ربطه بسببه وعلته بعيد عن أفهام المدعويين ، وهنا يسهل الاستفادة بالمعترف به فى إثبات المسكوت عنه ...
وذلك كتذكير آكل الطعام بمن أحضره وأعدده .

ومن مزايا هذا الأسلوب عدم مصادمته لعواطف المدعويين ، وانما يأخذهم أخذا رقيقا لينا نحو الصواب .

ومن مزاياه أنه يدفع المدعو إلى محاولة فهم ما يصدقه ، ويقرره ، الأمر الذى يؤدى إلى ما وراءه ، ويحقق الإيمان بالله تعالى .

إن الآيات تسأل عن مالك الأرض ، والسماء ، وما فيهما ، والمصرف لها والمتحكم فى شئون الخلق كله ، يغيث ولا يغيث ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَارُ وَهُوَ ﴾

(١٢٩)

يُذَرِّكُ الْأَبْصَرَ ﴿١﴾ ، وحين يقرون بأن مالك الملك هو الله يمكن دعوتهم إلى الإيمان بمن فعل ذلك ، وهو الله رب العالمين .
إن طاعة الخالق واجبه ، وعبادة الله هي مهمة المخلوقات ، وتقواه وحشيته هي حياة المؤمنين .

إنكار المشركين للحق البين

يقول الله تعالى :

﴿ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٢﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن المشركين يؤمنون بأن الله هو المالك المتصرف ومع ذلك يكفرون به ، ويعبدون غيره سبحانه وتعالى جاءت هذه الآيات لبيان أن الله عرفهم بالحق ، ودلهم عليه إلا أن الجحود صرفهم عن الحجج ، والبراهين الدالة على الوحدانية ، وكافة صفات الكمال الواجبة لله تعالى ، والله سبحانه عليم بهم ، وبشركهم ، وأفكهم .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٠٣ .

(١٣٠)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أتاها بالدين الحق الذى كذبوه ، ودعاهم إلى التوحيد الذى أنكروه ، وقالوا : إن لله ولدا أو شريكا ، وهذا ضلال وكفر يردده الواقع لأن ذلك لو كان لفسدت الأرض ، ولضاع الكون والوجود ، فتعالى الله عن إفكهم ، وعظم عن وضعهم وشركهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى ليس الأمر كما يزعم المشركون عن القرآن الكريم ، وعن الدين الحنيف ، وعن محمد ﷺ فهم يقولون عن القرآن : إنه أساطير الأولين ، وعن الإسلام إنه ليس من عند الله وعن محمد ﷺ : إنه شاعر ، وكاذب ، وساحر ... وليس الأمر كذلك ، وانما جاءهم الرسول بالحق والصدق ، فالإسلام دين الله ، والقرآن الكريم كلام الله ومحمد رسول الله ، وانكارهم شيئا من هذا كذب وافتراء ، وهذا يضعهم في سلك الكاذبين .

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ﴾ أى لم يتخذ الله ولدا كما يدعى المشركون ، فهم يقولون : الملائكة بنات الله ... لأن اتخاذ الله للولد يعنى حاجته لغيره ، وقبوله للحدوث والتجزؤ ، وهذا لا يجوز مع ألوهية الواحد الأحد .

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ أى وليس معه ند ولا شريك ، لأن الله واحد أحد سبحانه وتعالى عما يشركون .

﴿ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أى لو كان معه آلهة أخرى لحدث تعارض يمنع وجود الخلق ، وذلك لسببين :

(١٣١)

أحدهما : استقلال كل إله بالذى يخلقه متصفا بخصائصه ، وبذلك تختلف المخلوقات صفة ، وقدرة ، وغاية بتعدد الآلهة ... وهذا يؤدي إلى عدم انتظام الكون ، إلا أن انتظامه في الواقع المشاهد يدل على أن الله الصانع إله واحد لا شريك له ، خلق الخلق منسقا متكاملا . يقول الله تعالى : ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ﴾^(١) .

ثانيهما : ﴿ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أى ولو كان لله شركاء لحاول كل إله أن يعلو على الآخر ، ويغلبه ، ويقهره ، ويحدث بينهم صراع يؤدي إلى فساد الدنيا ، وعدم وجودها ... إلا أنها وجدت وهذا يدل على أن الله إله واحد . ﴿ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ أى تنزه ، وتقديس ، وتعالى سبحانه وتعالى عن وصف المشركين واقتراءاتهم . ﴿ عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى عالم بما غاب وبما حضر ، وبما ظهر ، وبما خفى . ﴿ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى تنزه وتقديس ، وعظم عن شركهم واتخاذهم آلهة غير الله تعالى .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أثبت للناس وحدانيته ، وعرفهم صفاته ، بأدلة العقل والشرع إلا أن المشركين يكذبون ، ولا يفقهون ، فادعوا أن الله ولدا وشريكا ولم

(١) سورة الملك ، الآية ٣ .

(١٣٢)

يدركوا أن هذا الزعم يكذبه الواقع لأن العالم موجود ومنظم ، وزعمهم يؤدي إلى فساد العالم ، وعدم وجوده .
إن الله إله واحد خالق الخلق ، عالم الغيب ، تعالى الله عن إفك المشركين ، وضلالهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

الله إله واحد لا شريك له

بعث الله رسله ، وكلفهم بدعوة الناس إلى الإيمان به سبحانه وتعالى ، فعرضوا عليهم الصلاة والسلام على الناس الإيمان ، وبرهنوا عليه ، إلا أن الكافرين أغمضوا عيونهم ، وكذبوا برسل الله عليهم السلام ، وزعموا أن الله اتخذ ولدا ، واشرك معه آلهة من المخلوقات ، وقد رد الله عليهم بأدلة عقلية يؤيدها واقع الوجود .

لقد بينت الآيات أن تصور وجود آلهة أخرى مع الله يؤدي إلى إحدى صورتين مستحيلتين يكذبهما الواقع ، ويشهد بكذب تصورهما ، وكذب القول بهما ... وهما :

الصورة الأولى : أن يجمع كل إله من خلقهم ، ويتحيز بهم ليكون له بهم حزبا وقوة ، وهذا التصور يؤدي إلى فساد العالم ، وهذا لم يحدث .

الصورة الثانية : أن يحاول كل إله أن يغلب غيره ، ويعلو عليه ، وبهذا ينشأ صراع يؤدي إلى فساد العالم ، وهذا لم يحدث .

إن الله إله واحد لا شريك له ، وهو عالم الغيب والشهادة لا شريك له ، وهو سبحانه متعال عن إفك الضالين وشركهم .

(١٣٣)

الحاجة إلى معونة الله فى اتباع الصراط المستقيم

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿١٣٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿١٣٤﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُزِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿١٣٥﴾ أَذْفَعَ بِأَلَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ السِّيْفَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٣٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ
الشَّيَاطِينِ ﴿١٣٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٣٨﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ
قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٣٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ
قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٠﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة خطأ المشركين فى اتخاذهم شركاء لله جاءت هذه
الآيات تحدد طريق النجاة أمام المؤمنين كما أمر الله رسوله ﷺ به ، وبذلك
يتحقق للمسلم الخير ، والفوز فى الآخرة بعمل الدنيا .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أمر رسول الله ﷺ أن ينجيه من مصير المشركين وأن
لا يجعله منهم ، وأن يعيذه وذريته من وساوس الشيطان ، وأن يبصره بواجبه
فى الدنيا ليلقى الله وقد عمل للآخرة ، حيث لا عودة إلى الدنيا بعد الموت
، ولكل إنسان ما قدمت يده فى الدنيا .

(١٣٤)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿١٣٤﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ أى قل يا محمد ، وادع ربك أن لا يجعلك في القوم الظالمين ولا يهلكك بما أهلكهم به ... وسل الله وأنت ترى العذاب ينزل بهم أن لا يجعلك معهم ، وينجيك من العذاب الذى يلحق بهم ، فقد ظلموا أنفسهم بوضع الشئ فى غير موضعه .

﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيْكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِرُونَ ﴾ أى إن الله سبحانه

وتعالى قادر على أن يرى رسول الله العذاب الذى ينزله بالمشركين المكذبين فلا تحزن لتكذيبهم ، واعلم أن العذاب بهم نازل ضرورة فى موعد يقدره الله له ، ولن يستأصلهم الله بعذاب فى الدنيا ، أملا فى توبتهم ، وفى إيمان أبنائهم وذرائعهم .

﴿ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ۖ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ أى

اتبع يا محمد الحسن فى القول والفعل ، وإذا جاءتك سيئة من أعداء الله تعالى فادفعها بالحسنة ، وربنا سبحانه وتعالى أعلم بكل أقوالهم وأوصافهم التى يصفونه بها ، ويصفون بها رسول الله ﷺ .

عن أنس رضي الله عنه أنه قال فى الآية : يقول الرجل لأخيه ما ليس فيه .

فيقول له أخوه : إن كنت كاذبا ، فإننى أسأل الله أن يغفر لك ، وإن كنت صادقا فإننى أسأل الله أن يغفر لى ^(١) .

(١) الدعوات الكبير . باب ما جاء فى رقية المريض ج ٢ ص ٢٣٨ .

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ

أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١﴾ أَيْ وَقُلْ يَا مُحَمَّد : رَبِّ إِنِّي أَلْتَجِيْ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ يَصِلَ إِلَى الشَّيَاطِينِ بَوْسَاوَسِهِمْ ، أَوْ أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى أَعْدَائِكَ لِإِيْذَائِيْ ، وَهَكَذَا يَدْعُو الْمُؤْمِنُونَ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِأَحَدِ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ .
وَإِذَا انْقَطَعَ الْعَبْدُ إِلَى مَوْلَاهُ ، وَتَبَتَّلَ إِلَيْهِ ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَعِيْذَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ اسْتَيْقِظَ قَلْبُهُ ، وَتَذَكَّرَ رَبَّهُ فِيمَا يَأْتِي وَيَذَرُ ، وَبِتَمَسُّكَ بِالطَّاعَةِ ، وَبِزَجْرِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ .

وَقَدْ اسْتَعَاذَ ﷺ أَنْ تَحْضُرَهُ الشَّيَاطِينُ فِي عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِهِ ، وَلَا سِيَّمَا حِينَ الصَّلَاةِ ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، وَحُلُولِ الْأَجْلِ .

أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ بِسَنَدِهِ عَنْ عَمْرِو بْنِ شَعِيبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْلَمُنَا كَلِمَاتَ نَقُولُهَا عِنْدَ النَّوْمِ خَوْفَ الْفَزَعِ : بِسْمِ اللَّهِ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ، وَأَنْ يَحْضُرُونَ ، قَالَ فَكَانَ ابْنُ عَمْرٍو يَعْلَمُهَا مِنْ بَلْغٍ مِنْ أَوْلَادِهِ أَنْ يَقُولَهَا عِنْدَ نَوْمِهِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ صَغِيرًا لَا يَعْقِلُ أَنْ يَحْفَظَهَا كَتَبَهَا لَهُ فَعَلَّقَهَا فِي عُنُقِهِ" (١) .

وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِسَنَدِهِ عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ : "يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَجِدُ وَحْشَةً .

قَالَ ﷺ لَهُ : إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ فَقُلْ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ ، وَشَرِّ عِبَادِهِ ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ، وَأَنْ يَحْضُرُونَ ، فَإِنَّهُ لَا يَحْضُرُكَ وَلَا يَضُرُّكَ" (٢) فَقَالَهَا فَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ .

(١) الإبانة الكبرى . الكتاب الثالث . باب ما جاء جاءت به السنة ج ٥ ص ٢٥٨ .

(٢) السنن الكبرى للنسائي . كتاب عمل اليوم والليلة . باب ما يقال عند النوم ج ٩ ص ٢٨١ .

(١٣٦)

وروى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول : "اللهم إني أعوذ بك من الهرم ، وأعوذ بك من الهدم ، ومن الغرق ، وأعوذ بك أن تتخبطنى الشياطين عند الموت" (١) .

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ أى أن المشركين يستمرون في عمل السوء ، ولا يأتون ما يدعون إليه حتى يأتهم الموت ، ويعاينونه ، وحينئذ يندمون على ما فاتهم ويتأسفون على ما فرطوا فيه ، ويسألون الله أن يرجعهم إلى الدنيا ليعملوا صالحا .

﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ أى أن هذا كلام كاذب لا يلتفت إليه فإنهم كاذبون في قولهم : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٢) .
﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى ومن وراء المشركين بعد إيمانهم وأقبارهم حاجز يحول بينهم وبين رجوعهم إلى الدنيا .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات الطريق الذى ينجو به المؤمن ، وهو الطلب من الله ، ودعاؤه أن لا يجعله مع الظالمين وقد رأى مصيرهم ، وقد أمره الله أن يدفع السيئة بالحسنة ، وأن يستعيز بالله من وساوس الشيطان ، ومن حضوره في أعماله وأقواله .

(١) سنن النسائي . كتاب الاستعاذة . باب الاستعاذة من التردى ج ٨ ص ٢٨٣ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٢٨ .

(١٣٧)

وتبين الآيات أن المشركين يستمرون في المعاصي إلى أن يأتيهم الموت وعندئذ يتمنون أن يرجعوا إلى الدنيا ليعملوا صالحا فيخبرهم الله أنهم لن يعودوا مرة أخرى إلى الدنيا فبينهم وبينها برزخ يمنعهم من العودة إليها .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ضرورة اللجوء إلى الله تعالى

الإنسان مخلوق ضعيف ، وهو في حاجة شديدة إلى من يعينه ويساعده وليس ذلك إلا الله سبحانه وتعالى ، ولذلك دعا الرسول ﷺ ربه لينقذه من سوء المصير ، ولا يجعله مع القوم الظالمين ، ولقد نجى الله رسوله وهداه للصراف المستقيم ، ودعاه إلى الحسن في القول والعمل وعدم التأثير بأقوال الضالين ، وأكاذيبهم .

إن الله سبحانه قوى قادر ، واللجوء إليه لجوء إلى قوته المطلقة وكل شيء بيده ، ولا عاصم من السوء إلا هو سبحانه وتعالى .

لقد نجى نوحا عليه السلام ومن معه ، وأمر النار أن تكون بردا وسلاما على إبراهيم عليه السلام ونصر محمدا ﷺ وجنده ، وليس بعجيب أن ينال المؤمنون نصره.

الركيزة الثانية

الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم

الشيطان للإنسان عدو مبين يحاول إغواءه ، والنيل من استقامته ، وإيقاعه في الضلال الكبير .

إن الشيطان يوسوس ، ويخوف ، ويبسر الفحشاء والمنكر ، ومن المستحسن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم حتى لا يحضر في مواطن العمل الصالح ، إن الشيطان قريب من الإنسان يجرى في عروقه ، ويعلم أحاسيسه ومشاعره ، ويتلمس أى ثغرة في الإنسان يمكنه الولوج منها ، وسد الثغرات أمر مشروع وذلك يكون بذكر الله تعالى عند النوم ، وعند اليقظة ، وعند الطعام ، وعند كل عمل ليقهره إذا حضر ، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة فقد علمه الله أهمية الاستعاذة ، وفائدتها في قهر الشيطان .

الركيزة الثالثة الموت حق

لكل أجل كتاب يقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴾ ^(١) .

ومن أراد التوبة عليه أن يسارع إليها قبل فوات زمنها .

إن المشركين بعد الموت يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا ، وهذا أمر لا يجوز فإنه لا رجوع إلى الدنيا بعد زوالها ، وسيبقى الإنسان فى قبره إلى قيام الساعة ليبيعث ، ويحاسب ، ويحشر ، ويجازى ، والفائز من فاز بالجنة ، وسعد برضوان الله تعالى .

وقد أخفى الله الأجل ، ولم يجعله واحدا للناس وحث الجميع أن يستعدوا له فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ^(٢) .

والعاقل من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، ولجأ إلى ربه فى كل عمره وسائر عمله .

(١) سورة الأعراف ، الآية ٣٤ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٠٢ .

أحوال الناس يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾^(١)
 فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ
 فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾^(٣) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ
 وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾^(٤) أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَكَنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ
 ﴾^(٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾^(٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا
 مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾^(٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴾^(٨) إِنَّهُمْ
 كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ
 الرَّاحِمِينَ ﴾^(٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخَرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ
 تَضَحَّكُونَ ﴾^(١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآيِزُونَ ﴾^(١١) .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة الطريق الذي ينجو به المؤمن ، وهو الاستقامة
 على الحق ، وطلب الخير من الله ، والاستعاذة من الشيطان الرجيم ، والعمل
 الصالح في الدنيا ، وبهذا يتحقق الفوز في الآخرة ، لما بينت الآيات السابقة
 ذلك جاءت هذه الآيات تصور حال الناس بعد البعث ، والحشر ، والحساب .

(١٤٠)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الناس بعد نفخة الصور الثانية يبعثون ، ويحشرون ويحاسبون فمن ثقلت موازينه فهو في عيشه راضية ، ومن خفت موازينه فهو من الخاسرين يحيطهم عذاب أليم في الآخرة حيث تلفح وجوههم النار التي يخلدون فيها ، بسبب أنهم كفروا بآيات الله التي أنتمهم ، وكذبوا برسول الله ﷺ وغلبت عليهم شقوتهم وضلالهم ، ولم يعد لهم أمل في الدنيا ، فلقد ملأوا حياتهم ضلالا ، وعادوا المؤمنين الذين يدعونهم إلى الإيمان بالله ، وسخروا منهم ، وضحكوا عليهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى إذا جاءت نفخة الصور الثانية قاموا جميعا من قبورهم للحساب والجزاء ، وانقطعت بينهم الوشائج ، والمودة ، والتعاطف ، والقربة ... لأن لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه ، وبعد الجزاء يلتقى المؤمنون في الجنة ، ويسعدون برضوان الله ، ويوضع المشركون في النار ، ويخلدون فيها .

﴿ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أى لا يسأل قريب قريبه عن شئ ، ولا يكلمه في أمر من الأمور وهو في المحشر ، وبعد دخول الجنة يقبل الفائز على إخوانه ، ويتحدث معهم وهم في النعيم يقول الله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾^(١) .

(١) سورة الصافات ، الآية ٢٧ .

إنهم يتساءلون فى الجنة عن فضل الله ، ونعمه ، وعن الفوز الكبير الذى هم فيه .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : "يؤخذ بيد العبد والأمة يوم القيامة فينصب على رؤوس الأولين والآخرين ، ثم ينادي مناد هذا فلان ابن فلان ، فمن كان له قبله حق فليأت إلى حقه ، فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده ، أو ولده ، أو زوجته ، أو أخيه فيأخذ منه^(١) .

وهكذا يهتم كل امرئ بمصيره فلا يعرف قريب قريبه ، ولا يسأله عن شئ يعاونه فيه .

﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى أن من

ثقلت موازينه بالأعمال الصالحة فهو الفائز الفالح المنتصر .

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي

جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ أى ومن خفت موازينه وثقلت سيئاته فأولئك الذين خابوا

وخسروا فى آخرتهم وضيعوا أنفسهم ، لأنهم سيمكثون فى جهنم بسبب كفرهم .

﴿ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ أى أن المشركين

يعيشون فى جهنم فتحترق وجوههم ، وتتقص شفاههم ، وتبرز أسنانهم ، ومع أن النار تحيط بكل بدن المشركين إلا أن الآية خصت الوجه بالذكر لأنه أشرف أعضاء الإنسان ، وبه يظهر الألم الذى يصيب الإنسان .

﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ؟ ...

الاستفهام للإنكار ، وفيه ينكر الله على المشركين موقفهم فى الدنيا ، فلقد كانوا يسمعون كلام الله ، وكانوا يكذبون بتلك الآيات .

(١) الزهد والرفائق لابن المبارك . باب فضل ذكر الله عز وجل ج ١ ص ٤٩٧ .

﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ أى قال المشركون : يا ربنا قامت علينا الحجة ، ولم نتبع الحق لتغلب الشهوة علينا ، ووقعنا في المعاصي ، والآثام .

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ أى ويطلب المشركون أن يخرجهم الله من النار ويعيدهم إلى الدنيا بعدما يعترفون بعدوانهم ، ويقرون بظلمهم ليعملوا صالحا .

﴿ قَالَ ﴾ الله لهم : ﴿ أَحْسَعُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ ﴾ أى امكثوا في جهنم أذلاء صاغرين واسكتوا ، ولا تعودوا لمثل هذا الطلب فإنه لا رجعه لكم إلى الدنيا .

وسبب ذلك ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ أى إن فريقا من عبادى ممن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فى الدنيا يقولون : ربنا آمانا بك ، وبرسلك ، وبما جاءوا به من لدنك ، فاستر زلاتنا ، وآمن روعاتنا ، ولا تخزنا يوم العرض ، ولا تعذبنا بعذابك ، فإنك أرحم من رحم ... فماذا فعلتم بهم ؟

﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ أى فتشاغلتم بسببهم ، والسخرية منهم ، ودأبتم على هذا ، حتى نسيتم ذكرى ، ولم تخافوا عقابى ، وكنتم تضحكون منهم استهزاء بهم .
والخلاصة : إنكم أضفتم إلى سيئاتكم الاستهزاء بمن يفعلون الحسنات ، ويتقربون إلى رب الأرض والسماوات ، روى أنها نزلت فى كفار قريش وقد كانوا يستهزئون بالفقراء من أصحاب رسول الله ﷺ كبلال وعمار وصهيب رضى الله عنهم .

(١٤٣)

ثم ذكر ما جازى به أولئك المستضعفين فقال : ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴾ أى إني جزيتهم بصبرهم على الأذى والسخرية بهم الفوز بالنعيم المقيم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الناس بعد نفخ الصور تتقطع الصلوات بينهم ، ولا يسأل بعضهم بعضا لاهتمام كل بحاله ، فمن ثقلت موازينه بالأعمال الصالحة فقد فاز ، وأفلح ، ونجا ... ومن خفت موازينه وثقلت سيئاته فقد خسر وضاع وأحاطت به النار ، وأحرقت وجهه ، وأفسدت شفاة وأسنانه ، وذلك بسبب أنهم كذبوا بآيات الله التى أتتهم ، وأبوا الدخول في الإسلام ، وطاعة رسول الله ﷺ .
وتبين الآيات أن المشركين يعترفون بذنوبهم ، وضلالهم ، ويطلبون عودتهم إلى الدنيا ليعملوا صالحا ، فيأمرهم الله بالسكوت ، والانقطاع عن السؤال ، لأنهم كانوا يستهزئون بالمؤمنين ، ويسخرون منهم ، ويضحكون عليهم ، وهؤلاء اليوم في عليين . فقد فازوا بالجنة بسبب صبرهم وإيمانهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

خزي الكافرين في الآخرة

تصور الآيات اليوم الآخرة وتبين ما يدور فيه من أحوال الناس فمن كثرت حسناته ، وثقلت موازينه فقد فاز وأفلح ... ومن خفت موازينه فقد خاب وخسر ، وأحيط بالنار تلفح أبدانهم ووجوههم ، في هذا الوقت يبيكتهم الله تعالى ، ويبين لهم سوء ما فعلوا فقد كذبوا بالحق ، واستغرقتهم الشهوات ، ولذلك يسخر الله

منهم ، وبأمرهم بالسكوت ، فقد كانوا في الدنيا يستهزئون بالمؤمنين ، ويسخرون منهم ، وسينال كل منهم ما يستحقه بعمله ، وسيجازى المؤمنون بجنات النعيم .

إقامة الحجة على الكافرين في الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٦﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١٧﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١٨﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٩﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أحوال الناس في الآخرة وجزاء المشركين فيها جاءت هذه الآيات لتقرع المشركين ، وهم يعذبون ، واطهار ما كانوا فيه من ضلال وكفر ، وجهل وسفه .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله تعالى يبيكت المشركين ، وهم في جهنم ، حيث يعرفهم أنهم ضيعوا دنياهم التي لا قيمة لها بجانب الآخرة . فقد غفلوا دعوة الله ، وتصوروا أنهم خلقوا للعبث ، وتعالى الله عن ضلالهم وافكهم ، فهو الله الواحد ، وسوف يحاسب المشركين الذين يتخذون آلهة بلا برهان ولا دليل .

(١٤٥)

وتأمر الآيات رسول الله ﷺ أن يسأل الله الرحمة والمغفرة فهو الغفور الرحيم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ ؟ ... سؤال للتقرير أى

قال الملك المأمور بسؤالهم لهم : كم لبئتم فى الأرض أحياء ؟

﴿ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ نسى هؤلاء الأشقياء مدة لبئهم فى

الدنيا ، لعظيم ما هم فيه من البلاء والعذاب ، وقصر عندهم الأمد الذي مكثوه فيها ما حل بهم من نقمة الله ، حتى حسبوا أنهم لم يمكثوا إلا يوما أو بعض يوم ، ولعل بعضهم يكون قد أقام بها الزمان الطويل والسنين الكثيرة .

﴿ فَسَعَلَ الْعَادِينَ ﴾ أى فاسأل الحفظة العارفين لأعمال العباد وأعمارهم .

﴿ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى قال لهم

الملك مخبرا لهم ما حدث لهم : ما لبئتم إلا زمنا يسيرا، ولو كنتم تعلمون شيئا من العلم لعملتكم على مقتضى ذلك ، ولما صدر منكم ما أوجب خلودكم فى النار ، ولما قلنا لكم : ﴿ أَحْسَعُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونَ ﴾ .

يقول النبى ﷺ : "إن الله تعالى إذا أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار

النار قال : يا أهل الجنة كم لبئتم فى الأرض عدد سنين ؟

قالوا : لبئنا يوما أو بعض يوم .

قال : لنعم ما أنجزتم فى يوم أو بعض يوم ، رحمتى ، ورضوانى ، وجنتى ، امكثوا فيها خالدين مخلدين .

ثم يقول يا أهل النار . كم لبئتم فى الأرض عدد سنين ؟

قالوا : لبئنا يوما أو بعض يوم .

فيقول : بئسما أنجزتم في يوم أو بعض يوم ، ناري ، وسخطي ، امكثوا فيها خالدين مخلدين^(١) .

ثم قال الله لهم : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا

تُرجعون ﴾ أى أظننتم أيها الأشقياء أنا إنما خلقناكم إذ خلقناكم لعبا وباطلا ؟

كلا . بل خلقناكم لنهذبكم ونعلمكم لترتقوا إلى عالم أرقى مما أنتم فيه ، لا كما ظننتم أنكم لا ترجعون إلينا للحساب والجزاء .

﴿ فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾

أى تنزه ربنا ، وتقديس وتعالى عن كل نقص ... فهو الإله الواحد ، وهو رب العرش الكبير ، وهو مالك الملك .

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ

عِنْدَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ أى أن من يتخذ مع الله إلها آخر

ويعبده فلا برهان له على فعله ، ولا حجة معه ، فهو كافر ضال ، ولن يرى نصرا ، ولا فوزا ، ولا فلاحا .

﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ أى وقل أيها الرسول

داعيا ربك : رب استر ذنوبى ، واغفر عيوبى ، وأقبل توبتى ، وارحمنى فأنت خير من رحم ، وغفر ، وأنت رب العالمين .

(١) حلية الأولياء ، وطبقات الأصفياء ج ٥ ص ١٣٢ .

(١٤٧)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله يبكت المشركين بعد دخولهم النار ، ويسألهم عن مدة مكثهم في جهنم ، فيجيبونه أنهم لبثوا وقتا قصيرا لا يقدرّون على حصره ، فيعرفهم الله أنهم لبثوا وقتا قليلا ، وأنهم تصوروا وجودهم عبثا حيث لا حساب ولا آخرة ، وهذا منهم ضلال وكفر ، فإله هو مالك الملك ، وهو رب العرش وهو رب العالمين ، واليه المرجع والمآب ، وتأمّر الآيات رسول الله أن يدعو ربه بالمغفرة والرحمة ليتعلم المسلمون ذلك .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ضالة الدنيا بجوار الآخرة

يخطئ الإنسان حين يتصور الدنيا هي دار المتعة والسعادة ، وينسى الآخرة وما فيها من نعيم مقيم .

إن الدنيا عمرها قصير ، ومتاعها قليل ، وخيرها ملئ بالنكد والمتاعب .
ولذلك يتصور المسلم وهو في الآخرة أنه مكث في الدنيا يوما من أيام الدنيا أو بعض يوم متأثرا بما يرى في الآخرة من متاع وزخرف ، وهذا الإدراك الواقعي يدفع المؤمن إلى الاستفادة من الدنيا للآخرة ، وأن يستقيم على العمل الصالح ليعد في الدنيا سعادته في الآخرة .

الركيزة الثانية إدراك الإنسان للمسئولية

خلق الله خلقه لغايات محددة ، وأهداف محددة ، وهو سبحانه ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ ^(١) ومن المهم فى هذا أن يعرف الإنسان المسئولية التى أوجده الله لها ، وعليه أن يعلم أن الله لم يخلق المخلوقات للعبث واللعب ، وانما كلفهم بدينه ، وعرفهم بالرجوع إليه للحساب والجزاء حيث الجنة والنار .

الركيزة الثالثة الإيمان بالله تعالى طريق السعادة والفلاح

من أول مهمة الناس أن يعرفوا ربهم الذى خلقهم ، ورزقهم فهو سبحانه وتعالى إله واحد لا شريك له ، مالك الملك ، وهو رب العرش العظيم وكل ما فى الكون يشهد له بالوحدانية ، والقدرة والكمال ، واليه يرجع الخلق للحساب والجزاء .

والمؤمن متعلق بربه ، يذكره ، ويشكره ، ويدعوه ، ويسأله الرحمة ، والمغفرة ، والهداية ، والتوفيق .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "المؤمنون" بتوفيق الله تعالى .

(١) سورة الأعلى ، الآية ٢ ، ٣ .

التعريف بـسورة "النور"

(۱۵۰)

التعريف بسورة "النور"

يحتاج التعريف بسورة "النور" إلى بحث المسائل الآتية :

- أولا -

تنزيلات السورة

سورة "النور" سورة مدنية بالإجماع ، ولم يخالف في مدنيّتها إلا ما جاء في تفسير حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي حيث جاء أن قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذَّكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّفُوتٍ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝﴾^(١) آية مكية ، وتبعهم القرطبي في ذلك ، مع أنه ذكر في سبب نزول الآية أنها آية مدنية^(٢) .

يؤكد مدنية السورة كلها ما يلي :

- (١) قول القرطبي في أول السورة : إنها سورة مدنية بالإجماع^(٣) .
- (٢) تناولت السورة حادثة الإفك التي وقعت عند عودة النبي ﷺ بجنده من غزوة بني المصطلق التي وقعت في السنة الرابعة بعد الهجرة قبل غزوة "الخنق" .

(١) سورة النور ، الآية ٥٨ .

(٢) التحرير والتنوير ج ١٧ ص ١٣٩ .

(٣) المرجع السابق .

(٣) بينت السورة حكم رمى الزوج لزوجته بالزنى ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا
أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾^(١) وهذا الحكم

شرعه الله في شهر شعبان سنة تسع من الهجرة .

(٤) نزل قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ^ط

وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ^ط

وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) في قضية مرتد الغنوى مع

عناق التي وقعت في السنوات الأولى للهجرة لأن مرتدا ﷺ استشهد في

غزوة "الرجيع" عام ثلاثة من الهجرة .

وبهذا تكون السورة مدنية وقد نزلت على فترات متباعدة .

وللسورة اسم واحد هو اسم "النور" ، وقد سميت السورة بهذا الاسم لما

ورد فيها أن ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

وعدد آياتها اثنتان وستون آية عند أهل مكة والمدينة ، وأربع وستون آية

عند غيرهم .

وقد نزلت السورة عقب سورة النصر .

وقد تضمنت سورة "النور" نظام تأسيس الأسرة ، ومنهج الاستئذان ، وسبل

نشر العفة والطهارة في المجتمع ، ولذلك يقول ﷺ : "علموا رجالكم سورة المائدة

(١) سورة النور ، الآية ٥٨ .

(٢) سورة النور ، الآية ٦ .

(١٥٣)

وعلموا نساءكم سورة النور" (١) . وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور (٢) .

- ثانيا -

الصلة بين سورتي "النور" و "المؤمنون"

تتصل سورة "النور" بسورة "المؤمنون" بوجه عدة أهمها :
الوجه الأول :

بينت سورة "المؤمنين" أن من صفات المؤمنين حفظهم لفروجهم . يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ (٣) وجاءت سورة "النور" لتوضيح الوسائل العملية المؤدية إلى حفظ الفروج مثل الاستئذان ، والآداب العامة ، وتحديد عقوبة الزنى والإفك ، والحث على الزواج ، والعفاف .
الوجه الثاني :

لما ذكر الله في سورة "المؤمنون" قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (٤) جاءت سورة "النور" بالكثير من الأوامر والنواحي المنظمة لحياة الناس ، والمحددة لمسئولياتهم التي سيحاسبهم الله عليها ، وبيان بعد تعاليم الله عن العبث واللعب .
الوجه الثالث :

لما أمر الله رسوله في سورة "المؤمنون" بالاستعاذة من الشيطان الرجيم وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ (٥) وَأَعُوذُ

(١) شعب الإيمان . كتاب تعظيم القرآن . باب ذكر السع الطوال ج ٤ ص ٧٧ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٨ ص ٧٤ .

(٣) سورة المؤمنون ، الآية ٥ .

(٤) سورة المؤمنون ، الآية ١١٥ .

بِكَ رَبِّ أَنْ تَحْضُرُونَ ﴿٥٨﴾^(١) جاءت الآيات فى سورة "النور" تأمر المسلمين بعدم طاعة الشيطان ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾^(٢) .

- ثالثا -

موضوعات السورة

زاجت سورة آيات النور بين أركان العقيدة ، وجوانب الشريعة ، فعرفت بالله وبرسوله ، وبأساسيات الإسلام التى يحيا بها عباد الله المؤمنون ... ومع ذلك تناولت أحكام الزنى ، واللعان ، وعلمت المسلمين أهم دروس حادثة "الإفك" ، وأمرت بغض البصر ، وحفظ الفروج ، وصيانة المجتمع من الفحشاء والمنكر ، واعلاء شأن المساجد فهى بيوت الله ، وفيها الهداية والنور .

ووضحت السورة عددا من الآداب التى تحقق الخلق الكريم وتشيعه بين الناس ففصلت فى أدب الاستئذان ، ودخول البيوت ، ونظمت طرق التعامل بين ذوى القربى ، ونادت بالتماسك الأسرى .

وختمت السورة بضرورة التأدب مع رسول الله واستئذانه فى الخروج كما هو الاستئذان فى الدخول .

وهكذا السور المدنية فى إيرادها لأحكام الشريعة ، وتوضيحها لآداب الإسلام .

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) سورة النور ، الآية ٢١ .

سورة "النور"

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٧)

أهمية سورة "النور"

يقول الله تعالى :

﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الله أنزل سورة "النور" مشتملة على أحكام هامة ، فرضها الله ، وأوجبها ، وأنزل فيها آيات بينات أملا في تذكركم ، وإيمانكم .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ سُورَةٌ ﴾ اسم مرفوع على الابتداء أو الخبرية ، وخبرها أو مبتدأها محذوف ، والجملة جئ بها لإظهار معناها ، ومدح السورة بها ، وبيان علو أحكامها المعلومة لمن يقرأها أو يسمعها ، وليس المقصود من الجملة الخبرية إفادة الخبر أو لازمه .

والسورة اسم لمجموعة من آيات القرآن الكريم لها ابتداء وانتهاء ، محددة توقيفا ، وهي مشتقة من السور لأنها جزء من القرآن الكريم ، أو من السور العالی المحيط بالمدينة لحفظها ، وصيانتها .

ونكرت "سورة" وجاءت منونة لبيان قدرها العالی ، والإشارة إلى زيادة فوائدها ، ولم تصدر سورة قرآنية بمثل ما بدأت به سورة "النور" لبيان أنها سورة مشتملة على أحكام مفروضة وهامة .

﴿أُنزِلْنَاهَا﴾ أى أنزلنا هذه السورة من عندنا ، مشتملة على كثير من الأحكام الشرعية ، وكثير من آيات العقيدة ، واسناد الانزال لضمير العظمة تنويه بهذا الانزال ، وإشارة إلى ضرورة الاهتمام به ، والعمل بما جاء فيه .
ومعنى ﴿أُنزِلْنَاهَا﴾ قدرنا إنزالها لأن المتوقع نزوله كالذى نزل فعلا .
﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أى أوجبنا كثيرا من أحكامها ، وألزمنا العباد بها لينالوا سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

﴿وَأُنزِلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أى جعلنا في هذه السورة براهين منزلة ، وحججا ساطعة الدلالة على صدق العقيدة ، وضرورة الإيمان بالله رب العالمين .
ومن الآيات البينات التى أنزلت فيها إطلاع الله رسوله على دخائل المنافقين ، وما كتموه فى نفوسهم .
وقد حصل التنويه بمجموع السورة أولا ، والتنويه بكل جزء منها ثانيا في سائر أحكامها سواء كان حكما تكليفيا ، أو عقيدة إيمانية .
والآيات جمع آية وهى جملة من الكلام القرآنى دالة على معنى مستقل لها بدء وانتهاء متلقى من رسول الله ﷺ (١) .

فإن قيل : كل القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى ، وفيه الأحكام المفروضة ، وفيه الآيات والبراهين على ضرورة الإيمان . فلم خص سورة "النور" بذكر ما هو في القرآن الكريم كله ؟

أقول : خص الله سورة "النور" بوصف ما هو في القرآن الكريم لبیان أهمية الأحكام التى جاءت فيها لأن أغلب ما جاء في السورة جاء متصلا بحفظ

(١) التحرير والتنوير ج ١٨ ص ١٤٣ .

(١٥٩)

الفروج ، وتشريع ما يحقق هذا الحفظ ، ليبقى المجتمع المسلم طاهرا في سلوكه نظيفا في معاملاته ، مترابطا في صلاته ، راقيا في سلوكه ونشاطه .
إن سورة "النور" تقدم الأحكام المفروضة ، والآيات الدالة الشاهدة على كمال الله ، وجلاله ، وقديسيته .

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى أنزلنا سورة "النور" بكل مزاياها عسى أن تتذكروا فوائدها ، وتعرفوا فضلها فتعملوا بما جاء فيها .

- ٣ -

معنى الآية

يبين الله تعالى أنه أنزل سورة "النور" في إطار نزول القرآن الكريم ، وقد فرض الله أحكامها لتبقى في المسلمين ، يذكرونها ، ويطبقون أحكامها ، ويسعدون بعملهم المستمد منها في الدنيا ، وفي الآخرة .

- ٤ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

دور القرآن الكريم في تحقيق السعادة

الناس نوعان شقى وسعيد ، والشقى يعيش الدنيا في ضنك وهوان ، ويعيش الآخرة في عذاب وجحيم والسعيد يعيش في الدنيا بمنهج الله ، ويعيش في الآخرة في رضوان الله .

ولم يترك الله الناس يتلاعب بهم الشيطان الرجيم ، وإنما أراد لهم الخير فأرسل لهم رسلا يدعونهم إليه ، ويعرفونهم بالصراط المستقيم .

(١٦٠)

وكان خاتم الأنبياء رسول الله ﷺ فبلغ للناس دين الله تعالى ، ودعاهم إلى الاستقامة على منهج الله المستقيم ، وعلمهم ما نزل عليه من كلام الله تعالى .

وكان القرآن الكريم كلام الله تعالى يتلى على الناس ، ويسمعونه على طول حياتهم ليتذكروا ما فيه من خير ، ويسعدوا بالاستقامة على تعاليمه .
لقد عاش القرآن الكريم واقع الناس ، فدل على العقيدة الصحيحة وحدد لهم نظام الشريعة ، ووضح أمامهم مكارم الأخلاق .

وقد بقى القرآن الكريم مع الناس في صور تيسر للناس قراءته ، وحفظه ، والاهتمام به . فبقى معهم مقسما إلى سور وآيات ، وإلى أحزاب وأجزاء ، وبقي كذلك مع الناس ليتذكروا ، ويفهموا ، ويعملوا .

إن القرآن الكريم يحدد مسار المؤمنين ، فيعرفهم بالعقيدة ، ويبرهن على صدقها وضرورتها ، ويوضح البناء الصحيح الذى يبدأ بتأسيس أسرة مؤمنة تلتزم بحدود الله ، وتقيم شريعته ، وتلتزم بأخلاقه ، ويستمر منهج القرآن الكريم في توجيهاته للمحافظة على سلامة البناء الإنسانى ، واصلاح المجتمعات البشرية ، والمحافظة على الآداب العامة ، وصيانه السلوك القويم .

إن سورة "النور" صورة واضحة معبرة عن منهج القرآن الكريم في بناء الفرد ، واصلاح الجماعة ، وبناء الأمة على العفة ، والطهارة ، والخلق الكريم ، وأكدت ما نزل القرآن له وهو هداية الناس إلى صراط الله الحميد .

ونلاحظ في توجهات سورة "النور" التصوير الحركى للواقع وهى تحدد طرق مقاومة الافتراءات والأكاذيب ، ونراها وهى تبين طريقة الاستئناس والاستئذان ، ونلمسه وهى توضح طرق التواصل الاجتماعى بين الأقارب .

عقوبة الزنى

يقول الله تعالى :

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة ما في سورة "النور" من أحكام وحكم جاءت هذه الآية لبيان أحكام الزنى ، وما يستحقه الزناة في الدنيا والآخرة .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أحكام الزناة غير المحصنين في الدنيا ، وتشير إلى عقوبتهم في الآخرة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ﴾ هذان هما مسمى من يقع في هذه الفعلة القبيحة ، والزنى هو الجماع الذى يحدث بين رجل وامرأة لا يحل لأحدهما أن يجامع الآخر .

والألف واللام في ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ﴾ لاستغراق الجنس الذى يشمل كل من يقع في هذا الفعل القبيح ، وشريعة الله تؤكد هذا الاستغراق لعموم الحكم ، وشموله لكل من يقع في الزنى بلا تفرقة بين شريف ووضيع . وأطلقت الآية الوصف على الاسم لتحقق الوصف في فاعله ، وثبوته عنده .

واعلم أن الزنا حرام ، وهو من الكبائر يدل على ذلك أمور :

أحدها : أن الله تعالى قرنه بالشرك وقتل النفس في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ ﴾^(١) ، وقال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۖ ﴾^(٢) .

وثانيها : أنه تعالى أوجب المائة جلدة فيه بكمالها بخلاف حد القذف وشرب الخمر ، وشرع فيه الرجم ، ونهى المؤمنين عن الرأفة ، وأمر بشهود الطائفة للتشهير ، وأوجب أن تكون تلك الطائفة من المؤمنين^(٣) .

وقدمت الآية الزانية على الزانى للاهتمام بالحكم ، ولأن المرأة هي الباعث على زنى الرجل ، وبرضاها يقع الزنى ، فلو منعت المرأة نفسها ما تمكن الرجل من الزنى .

يثبت الزنى على الرجل والمرأة بأحد أمور ثلاثة هي :

(١) الإقرار ، وهو الطريق الذى ثبت به الزنا في الإسلام في عهد رسول الله ﷺ .

(٢) حمل المرأة من غير زواج معلوم معروف .

(٣) شهادة أربعة من الشهود يقرون بأنهم شاهدوا الزناة يفعلون الزنا بصورة عملية .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦٨ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٣٢ .

(٣) تفسير الرازى ج ٢٣ ص ١٣٢ .

والزناة قد يكونا محصنين ، أو غير محصنين ، أو يكون أحدهما محصنا والآخر غير محصن ... ويراد بالإحصان الزواج بعقد صحيح ، ومباشرة النكاح المشروع .

وقد اتفقت الأمة على أن الزنا من أكبر الآثام ، وأنه من الذنوب التي شدد الدين على تركها ، وأغلظ في العقوبة على فعلها ، وجاء فيه من النصوص ما لم يأت في غيره مما حرم الله ، فقد قرن الله الزنا بالشرك في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ ﴾^(١) .

وروى عن حذيفة أن النبي ﷺ قال : "يا معشر الناس اتقوا الزنا فإن فيه ست خصال : ثلاث في الدنيا ، وثلاث في الآخرة .
أما التي في الدنيا فيذهب البهاء ، ويورث الفقر ، وينقص العمر .
وأما التي في الآخرة فسخط الله سبحانه وتعالى ، وسوء الحساب ، وعذاب النار"^(٢) .

وعن عبد الله بن مسعود قال :
"قلت : يا رسول الله ، أى الذنب أعظم عند الله ؟
قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك .
قلت : ثم أى ؟
قال : وأن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦٨ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب تفسير القرآن . باب قوله : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ﴾

ج ٦ ص ١٠٩ .

قلت : ثم أى ؟

قال : وأن تزنى بحليلة جارك ، فأنزل الله تصديقها في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾^(١) .

﴿ فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ أى اجلدوا الزانى والزانية الذين ثبت زناهما بطريق شرعى مائة جلدة عقوبة لكل منهما على ما أتيا من معصية ، وتلك عقوبة غير المحصنين .

أما إن كانا أو احدهما محصنا ، قد تزوج بنكاح صحيح ، وجب رجمه بالحجارة حتى يموت ، وذلك في تجمع من المسلمين ليعتبروا ، ويعلموا مدى حرص الإسلام على طهارة العرض ، وسلامة النسل ، وتوحيد الناس .

وقد ثبت رجم الزانى المحصن بالسنة المتواترة . فقد ثبت أن ما عزا والغامدية أقرا بالزنا ، وكانا محصنين فرجمهما النبى ﷺ كما ثبت أن امرأتين من بنى لحم ، وبنى غامد أقرتا بالزنا فرجما على رأى من الناس^(٢) .

والجلد ضرب بسير من الجلد ، وسمى به لأنه يقع على جلد الإنسان وفى هذا إشارة إلى أن الجلد لا يصح له أن يتجاوز ألمه إلى اللحم .

واتفق الفقهاء على أن ضرب الجلد يكون بسوط لين ، وأن لا يرفع يده بالسوط عند الضرب ، ولا يضرب به الوجه والفرج .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦٨ .

(٢) انظر كتب السنة أبواب حد الزنا .

﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ ﴾ أى لا تأخذكم رقة ورحمة في تطبيق شرع

الله تعالى بأن تتركوا الجلد المحدد ، أو تخففوه ، أو تجلدوا دون المائة .

﴿ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ أى لا تأخذكم رحمة في تطبيق شرع الله ، وتنفيذ حدوده

حددها الله تعالى ففيها حياتكم ، وطهارتكم .

والخطاب بالأمر بالجلد موجه إلى المسلمين جميعا ، ولا يقوم به إلا من يتولى أمور المسلمين من الأمراء ، ومن يقوم مقامهم من الولاة والقضاة ... ولا يقوم به الأولياء منعا للفوضى ، وصيانة لتطبيق شرع الله تعالى .

﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ هذه جملة شرطية تقدم جوابها

. والمعنى إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فلا تأخذكم بهما رأفة ، والآية تهيبج وحث على إقامة حد الزنا ، والمحافظة على شريعة الله تعالى .

عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى أن رجلين اختصما إلى رسول

الله ﷺ فقال أحدهما : يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله .

وقال الآخر وهو أفقهما : أجل يا رسول الله فاقض بيننا بكتاب الله وائذن

لى أن أتكلم .

فقال : تكلم .

قال : إن ابنى كان عسيفا "أجيرا" على هذا فزنى بامرأته ، فأخبرونى أن على

ابنى الرجم ، فافتديت منه بمائة شاة ، وبجارية لى .

ثم إنى سألت أهل العلم فأخبرونى أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام ،

وأخبرونى إنما الرجم على امرأته .

فقال رسول الله ﷺ : أما والذي نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله ، أما غنمك وجارينك فرد عليك . وجلد ابنه مائة وغربه عاما ، وأمر أنيسا الأسلمي أن يأتى امرأة الآخر فإن اعترفت رجمها فاعترفت فرجمها^(١) .

ولا يصح الزيادة على الحد ، كما لا يجوز التقليل فيه لقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾^(٢) .

إن الله تعالى قدر لكل أمر قدره ، وأحاط جريمة الزنا بالضوابط والشواهد حتى لا يشيع الاتهام بها بين الناس ، وجعل العقوبة مكافئة للجريمة فلا ينبغي القول بوقوع الجريمة إلا بشروطها ، ولا يصح زيادة العقوبة ، أو تقليلها باجتهاد عقلى مجرد ، والواجب على المؤمنين الالتزام الدقيق بحكم الله تعالى لما فيه من عدل وحكمة يعلمها سبحانه وتعالى .

﴿ وَلَيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى من الواجب أن يرى إقامة الحد جماعة من المؤمنين ليتأكدوا من تحقيق إقامة الحد على وجهه بلا تساهل أو إفراط ، وهذا نوع من الرقابة الشعبية على الولاة وهم يقيمون شرع الله تعالى .

وأیضا فإن حضور جماعة عند إقامة الحد ، فيه ردع لهم ، وزجر للناس لأنهم سيعلمون به ، ويخشون الوقوع فيه .

والطائفة الجماعة من الناس ، وقد اختلف العلماء في عددهم إلا أن الجميع يرى أن يكونوا عددا يحصل بهم استفاضة الخبر ، وإذاعته ، وذلك أمر يختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة ، وحضور من تتم بهم الاستفاضة كاف في أداء الواجب .

(١) صحيح البخارى . كتاب الحدود . باب إذا رمى امرأته أو امرأة غيره ج ٨ ص ١٧٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٢٩ .

وقد دل على وجوب حضور الطائفة قوله تعالى : ﴿ وَلْيَشْهَدْ ﴾ فقد صدر الفعل المضارع بلام الأمر ، وهذا يدل على الوجوب المستمر .
وقد أحاطت الآية إقامة حد الزنى بالإيمان ، فجعلت الإيمان سببا ضروريا لإقامة الحد بلا رافه ، ولا عدوان ، وأمر الله بإشهاد ورؤية طائفة من المؤمنين عند إقامة الحد لتكون إقامة الحد جزءا من الإيمان ومساهمة في بناء المجتمع الإيماني السليم .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية عقوبة الزانى ، والزانية غير المحصنين وهو جلدهما مائة جلدة ، وقد أثبتت السنة عقوبة الزانى المحصن .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

توضح الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

أهمية الإيمان في الإصلاح الاجتماعي

يتحرك الإنسان في الدنيا بدوافع قلبية ونفسية وعقلية ، وغريزية ، ولذلك كانت الأعمال بالنيات ، وصار كل عمل مرتبطا بنية صاحبه ، فلو سار رجلان في طريق واحد أحدهما يقصد المسجد للصلاة ، والآخر يقصد عملا محرما ، فلكل امرئ ما نوى ، وكل عمل مرتبط بمقصد صاحبه .

وجاء خطاب الله للمؤمنين لينبع الإيمان من تمسك قلوبهم ، واقتناع عقولهم ، وسمو أرواحهم ، ومشروعية الإشباع فيهم .

وقد اهتم الإسلام بزرع الإيمان في القلوب لينطلق كل امرئ بإيمانه للإصلاح العام والخاص ، وفي الآية ركيزة واضحة داعية لهذا الإيمان ، فهي

خطاب للمؤمنين تعرفهم بضرورة التزام المؤمنين بتطبيق شرع الله تعالى ، وتطبيق حدوده ، وتبين أن المؤمن المخلص يطبق تعاليم الله كما جاء بها رسول الله ﷺ بلا غلو ولا قصور ، وتوضح مسئولية المؤمنين الاجتماعية لأن عليهم مشاهدة تطبيق حدود الله ، واحاطة الناس به ليرتدعوا عن فعل السوء والمنكر . وتجعل الآية المؤمنين عماد الدين لأنهم عباد الله تعالى ، الملتزمون بشرعه ، الصادقون في أقوالهم وأفعالهم .

الركيزة الثانية **أهمية العقوبة في الإصلاح**

أنزل الله تعالى دينه ، ووضح لعباده المسئولية في الأقوال والأفعال ، وحدد حدودا يعاقب بها من يقع في سببها ، وهذا منهج قويم لتحقيق الإصلاح بين الناس ، لأن خلو أى نظام من العقوبة ، يؤدي إلى الفوضى ، ولذلك اشتملت الشريعة على العقوبات من قصاص ، وحدود ، وتعازير ، وجعل الله الحياة الطيبة نتيجة العدل في المسئولية والجزاء .

إن المجتمع الإسلامى مجتمع طاهر نظيف ، تصان فيه الحرمات ، وتحقق فيه الكرامة ، ويختفى التمايز الطبقي بين أفراد وطوائفه ، فلو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها .

وتدعو الآية إلى عزل المنكر وأصحابه ، وإبراز الفحشاء فى صورة كئيبة تنفر الناس منها سواء جاء بها الرجل أو المرأة .

ويجب أن تسمى الأسماء بأسمائها الصريحة ، ليعرف المجرم بجرمه بعد ثبوته عليه ، وذلك منهج يؤدي إلى نشر الإصلاح بين الناس .

الركيزة الثالثة

أهمية الفرد فى إصلاح الجماعة

الفرد هو اللبنة الأولى فى إصلاح الجماعة ، ولذلك اهتم الإسلام ببنائه ذاتيا ، وحمله المسؤولية وحده فى إطار الجماعة حتى لا يدعى انه تابع لغيره ولا شأن له فى البناء الاجتماعى العام .

إن الفرد مسئول عن غيره ، وما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط والجماعة مسئولة عن أفرادها حتى لا يأكل الذئب من الغنم القاصية ، والأمة مسئولة عن كل عناصرها أفرادا وجماعات لتصنع منهم خير أمة للناس ، يقول الله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ ﴾^(١) .

والآية تبين دور المسلم فى الإصلاح وهى تأمره بالتعاون ، والتماسك كما تأمره بقوله تعالى : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) لأن معنى ذلك أن يشاهد إقامة الحد جماعة مؤمنة ، لتشهد إقامته على وجه مشروع ، وتنتشر وقوعه بين الناس ليحذروا الوقوع فى سببه ، ويستقيموا على أمر الله تعالى .

إن آيات القرآن الكريم واضحة الدلالة فى إصلاح المجتمع ، والمحافظة على طهارته وعفته ، واعطاء كل ذى حق حقه ، والعدل فى القضاء والتنفيذ ودور المسلم فى هذا الإصلاح المنشود فى إطار جماعته وأمته .

(١) سورة المائدة ، الآية ٢ .

(٢) سورة النور ، الآية ٢ .

علاقة الزانى بالزانية

يقول الله تعالى :

﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

وردت أسباب عدة لنزول هذه الآية ... أهمها كما في تفسير الخازن :

(١) حين قدم المهاجرون المدينة كان فيهم فقراء لا مال لهم ، ولا عشائر ، وفى المدينة نساء بغايا ، هن أخصب أهل المدينة ، فرغب ناس من فقراء المسلمين في نكاحهن لينفقن عليهم ، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في ذلك فنزلت هذه الآية تحرم على المؤمنين أن يتزوجوا من هؤلاء البغايا لأنهن كن مشركات زانيات .

(٢) وقال عكرمة : نزلت في نساء كن بمكة والمدينة لهن رايات يعرفن بها منهن "أم مهزول" جارية السائب بن أبي السائب المخزومي . وكان في الجاهلية ينكح الزانية ، ويتخذها مأكله ، فأراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الصفة ، فاستأذن رجل رسول الله ﷺ في نكاح "أم مهزول" ، واشترطت له أن تتفق عليه فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

(٣) وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : "كان رجل يقال له مرثد بن مرثد الغنوي وكان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة ، وكانت بمكة بغي يقال لها "عناق" وكانت صديقة له في الجاهلية فلما أتى مكة دعتة عناق إلى نفسها .

فقال مرثد : إن الله حرم الزنا .

قالت : فانكحني .

فقال : حتى أسأل رسول الله ﷺ .

يقول مرتد فأتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله أنكح عناقاً ؟

فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد على شيئاً ، فنزلت الآية ... فدعاني رسول

الله ﷺ فقرأها علي وقال : لا تتكحها" (١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة عقوبة الزانى والزانية جاءت هذه الآية لبيان ما

بين الزانى والزانية من صلوات ومودة ، وعشق وذكرىات يتبرأ منها المؤمنون .

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الزانية لا يقدم على زواجها غالباً إلا زان أو مشرك ، وقد

حرم الله ذلك على المؤمنين .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ

أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ أى إن الفاجر الخبيث لا يرغب في نكاح الصالحة من النساء ،

وانما يرغب في نكاح فاجرة خبيثة مثله أو مشركة ... كما أن الفاجرة الخبيثة لا

ترغب في نكاح الرجل الصالح ، وانما ترغب في نكاح رجل خبيث فاجر مثله

أو مشرك .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٤٨ .

(١٧٢)

وهذا أمر مشاهد في حياة الناس فمن رعب عن دين الله ، واستمرراً الفسق والهوى يرغب في امرأة تماثله ، وتتأبى نفسه عن الصالحة العفيفة ، والمرأة كذلك حيث ترى انصراف الفاجرات عن أهل التقى .

إن المؤمن الصالح لا يتزوج المرأة الزانية لأن إلف أمر ما يوجد خلقاً يناسبه ، ولذلك جمع الفسق والفجور أصحابه رجالاً ونساء حوله ، ويسر لهم التلاقى والتعاون على الفحشاء والمنكر ... وهذا هو الأعم الأغلب .

وهذا التآلف بين العصاة ، والمنافقين وأهل الفجور لا ينحصر في النكاح وإنما يعم سائر أخلاقهم ، وأعمالهم ، وأمانيتهم .

﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ اسم الإشارة يعود إلى نكاح الزناة ،

وهذا حرام بين لا يفعله المؤمنون ، وقد حمل البعض هذا الكلام على الخبر لبيان أن ذلك شأن المؤمنين ، ولا حرمة على من يتزوج بزانية بعد توبتها .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أمراً شائعاً بين الناس وهو ميل كل إنسان لإلفه ، ومن يشابهه فالزاني والزانية يرغبان فيمن يماثلهما بخلاف المؤمنين فإنهم لا يرغبون الزواج من الزانيات والمشركات .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

وقوع الطيور على إشكالها

ينظر الإنسان إلى الأفق ، ويرى المخلوقات بأنواعها حيث يعيش كل نوع مع نوعه ويتآلف معه ولا يمكنه أن يعيش بعيداً عنه ... وهكذا المخلوقات كلها

(١٧٣)

، فلا تعيش النحلة مع الدبور ، ولا يجتمع البلبل مع الغراب ، وهكذا الناس لا يلتقى الإنسان إلا مع شبيهه ، ولا يتألف إلا مع من يماثله في الخلق والسلوك .
يتجمع اللصوص في أوكارهم ، ولا يرضون أن يعيش شريف بينهم ، وكذلك يفعل أهل الفحش والفجور في قولهم وفعلهم ، فلا تميل نفس الفاجر إلا لفاجرة ، ولا يتمنى إلا ما يحبه ويرضى به .
يقول النبي ﷺ : الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف^(١) ؟

وعلى ذلك يجب أن يتلاقى المؤمنون ، وينصر بعضهم بعضا لينصروا دينهم ، ويقووا إيمانهم ، ويخزوا الشيطان الرجيم .

قذف المحصنات من النساء

يقول الله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(١) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما بينت الآية السابقة حكم نكاح الزناة جاءت هاتان الآيتان بحكم قذف المرأة المسلمة بلا بينة يثبت بها الزنا .

(١) صحيح البخارى . كتاب أحاديث الأنبياء . باب الأرواح جنود مجندة ج ٤ ص ١٣٣ .

(١٧٤)

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان حد القذف ، وعقوبته ، وحكم التوبة فيه .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ أى والذين يتهمون النساء العفيفات من حرائر المسلمين بالزنا ، والمحصنات جمع محصنة ، ويراد بها المرأة العفيفة الجرة إذا اتهمها غيرها بالزنا بلا بينة ، ويراد منها المتزوجة إذا أقيم حد الرجم عليها .

﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ أى لم يثبتوا تهمة الزنا على من يرمونها به فعليهم يقام حد القذف ... وهو مكون من :

(١) الجلد :

يقول الله تعالى : ﴿ فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ أى من اتهم امرأة مسلمة عفيفة بالزنى بصريح اللفظ بأن يقول لها : يا زانية ، ولم يأت بأربعة شهود على ذلك فاجدلوهم ثمانين جلدة .
وشروط إحسان هذه المرأة خمس هى الإسلام ، والعقل ، والبلوغ ، والحرية ، والعفة من الزنا مطلقا .

وانما يقام حد القذف على القاذف لكذبه ، واتهامه لمسلمة بلا دليل فإذا أحضر أربعة شهود ، أو أثبت زنى المرأة مرة واحدة لا يكون قاذفا ، ولا يقام عليه حد اكتفاء بإقامة الحد على المرأة محصنة أو غير محصنة .
والكنايات والتعريض لا تثبت القذف إلا إذا صرح القاذف أن مراده من قوله هو القذف بالزنا .

(٢) إبطال شهادة القاذف :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴾ أى لا تقبل شهادة القاذف بعد ذلك ، لأنه لما ثبت كذبه في هذه الكبيرة فقد أهليته ، وضاعت الثقة فيه ، وهذا مسقط لشهادته .

(٤) ثبوت الفسق :

يقول الله تعالى : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى وأولئك هم البعيدون عن الخير ، الخارجون عن طاعة الله تعالى ، المرتكبون للكبائر ، المحبون لشيوع الفاحشة بين المؤمنين ... وثبوت فسقهم يعنى عزلتهم ، والبعد عنهم ، وعدم تصديقهم في أى أمر .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى إن الذين قذفوا المحصنات ، وأقيم حد القذف عليهم إن تابوا بعد إقامة الحد وصلاح عملهم ، وندموا على ما فعلوا فإن الله يغفر ذنوبهم ويرحمهم ، ويجازيهم جزاء حسنا .

وبلاحظ أن جوانب حد القذف متنوعة لأن الجلد عقوبة بدنية تنفذ ، وتنتهى بوقوعها .

وابطال الشهادة أمر مستمر لثبوت كذب القاذف .

وثبوت الفسق لارتكابه كبيرة ، ولذلك كانت توبته خاصة بالفسق وحده والتوبة تقبل فيه ... وأما عدم قبول شهادته فقد ذهب بعض الفقهاء إلى أنه لا توبة فيها ، وأن شهادته لا تقبل أبدا ... فقد ذهب بعض الفقهاء إلى ذلك ، ورأوا أن الاستثناء يعود إلى الجملة الأخيرة فترفع التوبة الفسق فحسب ، ويبقى

القاذف مردود الشهادة دائما وان تاب ؟ والى هذا ذهب من السلف القاضى شريح ، وسعيد بن جبير ، وأبو حنيفة .

وذهب سعيد بن المسيب ، وجماعة من السلف ، وهو رأى مالك والشافعي وأحمد إلى أن الاستثناء يعود إلى الفسق وعدم الشهادة معا ، وعليه فتقبل شهادته ، ويرفع عنه حكم الفسق^(١) .

وحكم القذف يشمل الرجل والمرأة فقد سوى الإسلام بين الرجل والمرأة في المسؤولية والعقوبة والجزاء .

وانما تحدثت الآية عن رمى المحصنة دون رمى المحصن لأن رمى المحصنة أكثر شناعة وجرا لأنه اتهام يشمل المرأة وولدها ، وأما رمى الرجل فهو يدور معه في فعله ، وذاته .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن من يرمى المرأة العفيفة بالزنى ولم يأت بأربعة شهداء يكون قاذفا يقام عليه حد القذف ، وهو الجلد ثمانون جلدة ، وعدم قبول شهادته وجعله من الفاسقين ، وتبين أن من يتوب لا يكون فاسقا ، والله غفور رحيم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

صيانة حرمة المرأة المؤمنة

يضع الإسلام المرأة في موضع كريم ، ويحافظ لها على صورتها الطاهرة العفيفة ، ولذلك حذر من اتهامها بلا بينة ، وجعل لمن يتهمها بلا بينة عقوبة رادعة .

(١) تفسير المراغى ج ١٨ ص ٧٣ .

(١٧٧)

إن من يتهم امرأة بالزنا فعليه أن يأتي بأربعة شهود يقرّون أنهم رأوا الرجل في حالة تلبس كامل مع المرأة ، وإن لا وجب جلده ثمانين جلدة ، ورد شهادته ، والحكم عليه بالفسق ، وتلك عقوبة تلائم الجرم الذي وقع فيه .
وبهذا تتطهر المحصنات من إشاعات السوء ، وينجو المجتمع من الإفك والعدوان .

الركيزة الثانية

قبول توبة من يتوب

إن الله رحيم بعباده ، يعلم ضعفهم ، ولذلك فتح لهم باب التوبة يعد إقامة الحد عليهم ، فإن ندموا على ما فعلوا ، وعزموا على عدم الرجوع إلى ما كان منهم يقبل الله توبتهم ، ويبعدهم عن الفسق الذي كانوا فيه ، ويقبل منهم الشهادة عند رأى كثير من الفقهاء ، وبذلك يبقى للمجتمع رونقه ، ويحافظ المسلم على عفة وطهارة المسلمات العفيفات .

مشروعية اللعان

يقول الله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا
أَحَدِهِمْ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٨﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتَ
اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٩﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابُ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ
بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧٠﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿٧١﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿٧٢﴾ .

- ١ -

أسباب النزول

وردت عدة أسباب لنزول الآية ... أهمها :

(١) ما روى عن سهل بن الساعدي أن عويمر العجلاني جاء إلى عاصم بن
عدي فقال لعاصم : رأيت لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقنتله
فتقتلونه ، أم كيف يفعل ؟ ... سل لي عن ذلك رسول الله ﷺ فسأل
عاصم رسول الله ﷺ عن ذلك ، فكره رسول الله ﷺ المسألة ، وعابها
حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله ﷺ .

فلما رجع عاصم إلى أهله جاءه عويمر فقال : يا عاصم ماذا قال لك
رسول الله ﷺ ؟

فقال عاصم لعويمر : لم تأتني بخير ، قد كره رسول الله ﷺ المسألة التي
سألت عنها .

فقال عويمر : والله لا أنتهي حتى أسأله عنها .

فجاء عويمر ورسول الله ﷺ وسط الناس فقال : يا رسول الله أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقنته فتقتلونه ، أم كيف يفعل ؟
فقال رسول الله ﷺ : قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآنا ، فاذهب فأت بها .

قال سهل : فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله ﷺ ، فلما فرغا من تلاعهما قال عويمر : كذبت عليها يا رسول الله إن أمسكتها ، ... فطلقها ثلاثا قبل أن يأمره رسول الله ﷺ .

قال ابن شهاب : فكانت تلك سنة المتلاعنين .

(٢) وعن ابن عباس : "أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ

بشريك بن سحماء فقال النبي ﷺ : البينة أو حد في ظهرك .

فقال : يا رسول الله إذا رأى أحد على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة .

فجعل النبي ﷺ يقول : البينة والحد في ظهرك .

فقال هلال بن أمية : والذي بعثك بالحق إني لصادق ، ولينزلن الله ما

يبرئ ظهري من الحد فنزل جبريل ﷺ وأنزل عليه : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ

أَزْوَاجَهُمْ ﴾ . فقرأ حتى بلغ إن كان من الصادقين .

فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليهما .

فقام هلال بن أمية فشهدوا النبي ﷺ يقول : الله يعلم إن أحدكما كاذب ،

فهل منكما تائب ؟

ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة ، أوقفها وقال : إنها موجبة .

قال ابن عباس : فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت : لا

أفضح قومي سائر اليوم فمضت .

(١٨٠)

فقال النبي ﷺ : انظروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدج الساقين فهو لشريك بن سحماء .
فجاءت به كذلك فقال النبي ﷺ : لولا ما مضى من كتاب الله لكان لى ولها شأن^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة عقوبة القاذف إن لم يأت بأربعة شهداء جاءت هذه الآيات بحكم من رمى زوجته بالزنا .

- ٣ -

موضوع الآيات

الآيات تبين كيفية الملاعة بين الزوجين إذا رمى الرجل زوجته بالزنا .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أى إن أى زوج يرمى زوجته بالزنا ، ولا يستطيع الإتيان بأربعة شهداء ، فلا يقام عليه حد القذف ، وإنما يقام بينة وبين زوجته اللعان ، حيث يشهد الرجل الزوج أربع مرات أنه صادق فيما رمى به زوجته ، وفى المرة الخامسة يشهد ويقر أنه يستحق لعنة الله إن كان كاذبا ... وتأتى الزوجة وتشهد أربع مرات أن زوجها كاذب ، وفى المرة الخامسة تشهد وتقر أن غضب الله عليها إن كان صادقا . وبذلك يتم اللعان ، وتترتب عليه أحكامه .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٥٠ .

واذا أقام الرجل البينة على زوجته بالزنا يقام عليها الحد ، ولا يقع بينهما لعن ... وذلك معنى الآيات : ﴿ وَالْخَمْسَةُ أَنْ لَعَنْتَ اللَّهَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنْ الْكَاذِبِينَ ﴾ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنْ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ روى ابن عباس : "أن عويمرا لما لاعن زوجته خولة أمر رسول الله ﷺ حتى نودي الصلاة جامعة فصلى العصر ثم قال لعويمر : قم فقام فقال له : أشهد بالله إن خولة لزانية واني لمن الصادقين .

ثم قال في الثانية : أشهد بالله إنني رأيت شريكا على بطنها واني لمن الصادقين .

ثم قال في الثالثة : أشهد بالله إنها لحبلى من غيري واني لمن الصادقين .

ثم قال في الرابعة : أشهد بالله إنني ما قربتها منذ أربعة أشهر واني لمن الصادقين .

ثم قال في الخامسة : لعنة الله على عويمر يعني نفسه إن كان من الكاذبين فيما قال ثم أمره بالعودة ففعد .

ثم قال لخولة قومي فقامت فقالت : أشهد بالله ما أنا بزانية وإن عويمرا لمن الكاذبين .

ثم قالت في الثانية : أشهد بالله إنه ما رأى شريكا على بطني وأنه لمن الكاذبين .

ثم قالت في الثالثة : أشهد بالله إنني حبلى منه وأنه لمن الكاذبين .

ثم قالت في الرابعة : أشهد بالله إنه ما رآني قط على فاحشة وأنه لمن الكاذبين .

ثم قالت في الخامسة : إن غضب الله على خولة تعنى نفسها إن كان من الصادقين .

ففرق رسول الله ﷺ بينهما وقال : لولا هذه الأيمان لكان لى فى أمرهما رأى^(١) .

وحكم اللعان التفريق البات بينهما ، ونفى الولد ، وسقوط الحد عن كليهما بشهاداته الخمس .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ هذا

تذليل لحكم اللعان يبين الله فيه فضله على عباده ، ورحمته بهم في تشريع اللعان إذ لولا هذا التشريع لوقع الأزواج في جرم شديد ، ولا تنتشر في المجتمع الكره والبغضاء ، ولسادت الفوضى والتخبط .

إن تشريع اللعان يؤدي إلى الفرقة بين الزوجين بأسلوب مقبول ، وفي ستر تام لا يضيع حقا دنيويا ، ولا يهمل واجبا ، وإن الله يقبل توبة عباده ، وهو حكيم فيما يشرع لهم ، عليم بما وقع منهم ، وفي يوم القيامة تتجلى الحقائق ، ويفصل الله بين عباده بعد إقامة الحجة عليهم ببيان لا يمكن رده . يقول الله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۚ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝ ﴾^(٢) .

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات مشروعية اللعان بين الزوجين فمن رمى زوجته بالزنا فعليه أن يستبدل بالشهداء الأربع شهادات اللعان ، وتدفع المرأة عن نفسها بمثل

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٥٢ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ١٣ .

(١٨٣)

شهادات الزوج ، ويترتب على اللعان أحكامه الدنيوية ، وحساب الآخرة باق إلى يوم الدين .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

حماية الأسرة بشريعة الله تعالى

إقامة الأسرة في الإسلام إقامة للمجتمع كله ، ولذلك دعا الله عناصرها إلى المودة والرحمة ، والحب والألفة لتستمر في مسارها الذي قدره الله لها .
إن الله حدد حقوق كل من الزوج والزوجة ، وحثهما على طاعة الله ورسوله ، وطلب منهما احترام ما بينهما من ميثاق يشهد الله ورسوله عليه .
وقد يحدث في الأسرة خطأ ما ، ويصل الحال فيه إلى اتهام الرجل زوجته بالزنا ، وحينئذ تضيع الثقة بينهما ، ولذلك لا يعامل الإسلام الزوج معاملة الرجل الغريب ، ويقيم عليه حد القذف ، ولكن يقيم بينهما اللعان بكيفيته المفصلة في الآيات .
وبذلك يترك الدين كل طرف لطريقه في ستر عن الناس ، ليقدر الله لهما ما يشاء ، والله عليم حكيم .

حادثة "الإفك"

وما ترتب عليها من أحداث وأحكام

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهِتَنَ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۝

(١٨٥)

- ١ -

سبب نزول الآيات

تروى السيدة عائشة رضى الله عنها سبب نزول الآيات فتقول : كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه ، فأيهن خرج سهمها ، خرج بها رسول الله ﷺ معه ، فأقرع بيننا ، فى غزوة غزاها ، فخرج فيها سهمى ، فخرجت مع رسول الله ﷺ ، بعدما أنزل الحجاب ، فكنت أحمل فى هودجى ، وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك ، وقفل ، فلما دنونا من المدينة قافلين ، آذن ليلة بالرحيل ، فقامت حتى آذنوا بالرحيل فمشيت ، حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى فلمست صدرى ، فإذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدى ، فحبسنى ابتغاؤه.

وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونى ، فاحتملوا هودجى ، فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب عليه ، وهم يحسبون أنى فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافا ، لم يهبلن الطعام ، ولم يغشهن اللحم ، إنما كن يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه ، وحملوه ، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل فساروا ، ووجدت عقدى ، بعدما استمر الجيش ، فجئت منازلهم ، وليس بها داع ، ولا مجيب ، فتييمت منزلى الذى كنت به ، وظننت أنهم سيفتقدونى فيرجعون إلى ، فبينما أنا جالسة فى منزلى ، غلبتنى عينى ، فنامت .

وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى من وراء الجيش ، فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم ، فعرفنى حين رآنى ، وكان رآنى قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فخمرت وجهى بجلبابى والله ما تكلمنا بكلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها ، فقامت إليها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش ،

موغرين فى نحر الظهيرة ، وهم نزول ، فهلك من هلك ، وكان الذى تولى كبير الإفك عبد الله بن أبى ابن سلول .

فقدمنا المدينة فاشتكت حين قدمت شهرا والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك ، لا أشعر بشئ من ذلك .

وكان يريبنى فى وجعى ، أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين اشتكى ، إنما يدخل على رسول الله ﷺ ، فيسلم ، ثم يقول : كيف تيكم ، ثم ينصرف ، فذلك يريبنى ، ولا أشعر بشئ .

ثم خرجت ، حين نقهت ، فخرجت مع أم مسطح فلما فرغنا من شأننا عدنا إلى بيتى ، وعنده عثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : تعس مسطح .

فقلت لها : بئس ما قلت ، أتسبين رجلا شهد بدرا ؟

فقالت : أى هنتاه ، أولم تسمعى ما قال ؟

قلت : و ما قال ؟

فأخبرتني ، بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرضى ، فلما رجعت

إلى بيتى دخل على رسول الله ﷺ فسلم ثم قال : كيف تيكم ؟

فقلت له : أتأذن لى أن أتى أبوى ؟ وأريد أن أستيقن الخبر من قبلهما فأذن لى

رسول الله ﷺ فقلت لأمى : يا أمتاه ماذا يتحدث الناس ؟

قالت : يا بنية هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل

يحبها لها ضرائر إلا كثرن عليها .

فقلت : سبحان الله ! أو قد تحدث الناس بهذا ؟

فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرفأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم

أصبحت أبكى .

ودعا رسول الله ﷺ ، علي بن أبى طالب ، وأسامة بن زيد حين استلبث

الوحى يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله .

فأما أسامة ، فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله ،
وبالذى يعلم لهم فى نفسه ، وقال : أهلك ولا نعلم إلا خيرا .
وأما على فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير
وسل الجارية تصدقك .

فدعا رسول الله ﷺ بريرة وقال لها : أى بريرة هل رأيت من شئ يريبك ؟
قالت له بريرة : والذى بعثك بالحق ، ما رأيت عليها أمرا قط ، أغمصه
غير أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن ، فتأكله .
فقام رسول الله ﷺ من يومه ، فاستعذر من عبد الله بن أبى ، وهو على
المنبر ، فقال : يا معشر المسلمين ، من يعذرني من رجل ، قد بلغنى عنه ،
أذاه فى أهلى ؟ والله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما
علمت عليه إلا خيرا ، وما يدخل على أهلى إلا معى .

فبكيت يومى ذلك كله ، لا يرفأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، وأصبح أبواى
عندى ، وقد بكيت ليلتين ويوما ، لا يرفأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، حتى إنى
لأظن أن البكاء فالق كبدى ، فبينما أبواى جالسان عندى ، وأنا أبكى استأذنت
على امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكى معى .

فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم ثم جلس ، ولم يجلس
عندى منذ ما قيل قبلها ، وقد لبث شهرا ، لا يوحى إليه فى شأنى بشئ .

فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال : أما بعد يا عائشة ، إنه بلغنى
عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى
الله ، وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف ، ثم تاب تاب الله عليه .

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى ، حتى ما أحس منه قطرة
فقلت لأبى : أجب رسول الله ﷺ عنى فيما قال .
فقال أبى : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ .

(١٨٨)

فقلت لأمى : أجيبى رسول الله ﷺ ، فيما قال .

قالت أمى : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ .

فقلت وأنا جارية حديثة السن ، لا أقرأ من القرآن كثيرا : إني والله ، لقد علمت ، لقد سمعتم هذا الحديث ، حتى استقر في أنفسكم ، وصدقتم به ، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقني فوالله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾

وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١﴾ ثم تحولت ، واضطجعت على فراشى ، والله يعلم أنى حينئذ بريئة ، وأعلم أن الله مبرئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحيا يتلى ، لشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فى بأمر ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها ، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ، ولا خرج أحد من أهل البيت ، حتى أنزل الله عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه من العرق مثل الجمان وهو فى يوم شات ، من ثقل القول الذى أنزل عليه . فسرى عن رسول الله ﷺ ، وهو يضحك .

فكانت أول كلمه تكلم بها أن قال : يا عائشة أما الله فقد برأك .

فقالت لى أمى : قومى إليه .

فقلت : والله لا أقوم إليه فإنى لا أحمد إلا الله عز وجل (٢) .

(١) سورة يوسف ، الآية ١٨ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب حديث الإفك ج ٦ ص ٣٤٠ . ٣٤٨ ط . الأوقاف .

(١٨٩)

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات صورة اللعان وحكمه جاءت هذه الآيات تبين حادثة الإفك وما لحق بها من أحداث ، وما يستفاد منها من دروس وعبر .

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآيات حادثة الإفك بتفاصيلها ، وفوائدها ، ودروسها .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ "الإفك" أسوأ الكذب لأنه

يصرف عن الحق ، ويبتعد عن الصواب ، ويغوض في الباطل فقد رموا السيدة عائشة رضى الله عنها بالزنا بدل أن يشهدوا لها بالطهر ، ويقرون بمقامها ، ورفعته .

والذين جاءوا بالإفك جماعة من المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبى ابن سلول وهذه الجماعة كانت مع المؤمنين في المدينة تعصبت لأرائها ، وناققت .

﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۡ ۖ بَلَّ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمۡ ﴾ الخطاب لرسول الله ،

ولعائشة ، ولأبويها ، وصفوان ليعلموا ما في هذا الإفك من خير لهم فقد أظهر الله براءتهم ، وأجرهم ، وذم المنافقين ، وأظهرهم ، وأعلى مقام عائشة رضى الله عنها بقرآن يؤكد براءتها ، يتلى إلى يوم القيامة .

﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُم مَّا اَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ﴾ أى لكل واحد من العصبة

جزاء ما اكتسب من الإثم جزاء مناسباً لنيته ، وقصده ، وعمله .

﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أى والذي قام بمعظم الإفك هو عبد الله بن أبى الذى أعد الله له عذابا أليما في الآخرة ، عظم ضرره ، واشتد أذاه .

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ أى هلا ظننتم حين سماع هذا الإفك خيرا ، وسألتم أنفسكم هل تفعلون ذلك ؟

وحين ترون استحالة ذلك على أنفسكم تحيلونه على عائشة رضى الله عنها وتقولون إنه كذب واضح بين .

﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أى هلا جاءوا على افترائهم بأربعة شهداء كما هو الأمر في كل رمى ليؤكدوا صدقهم ، ولما لم يأتوا بأربعة شهداء صاروا كاذبين عند الله وعند الناس .

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أى لولا أنى تفضلت عليكم في الدنيا بضروب النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة ، وأترحم عليكم في الآخرة بالعفو والمغفرة ... لولا ذلك لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم به من حديث الإفك ، والخطاب للقفزة ، وهذا الفضل هو تأخير العذاب وقبول التوبة ممن تاب .

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أى يلقى بعضكم لبعض هذا الافتراء من غير تفكير وتدبر ، وذلك أن الرجل منهم كان يلقى الرجل ، فيقول : بلغنى كذا وكذا

فيتلقف ما يسمعه وينقله لغيره وتتحول الإشاعة الكاذبة إلى حديث ينتشر بين الناس ، بلا بحث عن حقيقته ، ومصدره ، وغاياته .

﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا ﴾ أى وتظنون أن نشر الإشاعة ، والخوض فيها أمر سهل لا إثم فيه وتكررون القول بها من غير تفكير ، ولا بحث ، ولا علم .

﴿ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ أى استهانتم بحديث الإفك ونشره بعيدا عن تحقق صدقه أمر غير جائز ، لأنه وزر عظيم ، وذنب كبير .

﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ ﴾ أى هلا قلتم حين سمعتم هذا الإفك : لا يصح لنا أن نتكلم بهذا الإفك ، وعلينا أن نسبح الله ، ونقدسه ، ونقول : ﴿ هَذَا بَهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ أى هذا كذب عظيم يبهت ، ويحير من يسمعه . روى أن أم أيوب الأنصارى رضى الله عنها قالت لأبى أيوب الأنصارى رضي الله عنه : ما بلغك ما يقول الناس فى عائشة ؟

فقال : سبحانك هذا بهتان عظيم ، فنزلت الآية على وفق قوله .

﴿ يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ ﴾ أى ينصحكم الله ، ويرشدكم إلى الخير فى مثل هذا الأمر وبينهاكم ﴿ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ٧٧ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ﴾ أى ينصحكم الله حتى لا تكررُوا هذا الإفك مرة أخرى إن كنتم مؤمنين ، ويبين الله لكم آياته أمرا أو نهيا .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أى بأمر عائشة وصفوان رضى الله عنهما وأمركم جميعا

﴿ حَكِيمٌ ﴾ أى حكيم بإظهار براءتهما في وقت مناسب ، بطريقة تعادل الجرم ، وترد الجريمة ، وحكيم في تقدير هذه الحادثة لتستفيدوا بدروسها .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أى إن الذين جاءوا بالإفك يحبون ذبوع الفاحشة والمنكرات بين المؤمنين ، والآية وإن كانت خاصة بعائشة رضى الله عنها وصفوان رضي الله عنه فإنها عامة لسائر المؤمنين والمؤمنات في كل زمان ومكان .

﴿ هُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أى يدخلهم الله في عنت ، ومشقة ، وعذاب أليم شاق يجدونه في الدنيا والآخرة .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى والله يعلم كذبهم ، وبراءة عائشة رضى الله عنها ، وما خاضوا فيه من إفك وأضاليل ، ويعلم مقاصدهم ونواياهم ، وكيدهم أكثر من علمكم أيها المؤمنون لأن علم الله لا يحده حال ، أو يمنعه زمان أو مكان .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ أى ولولا أن الله تفضل عليكم أيها المسلمون لعاجل من خاض مع الأفاكين بالعقوبة إلا أنه سبحانه وتعالى رءوف بعباده ، رحيم بهم ، ولذلك أمهلهم ، وغفر لهم ، وقبل توبتهم .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتِ الشَّيْطَانِ ﴾ ينادى الله المؤمنين بصفتهم التى تميزوا بها ، وهى الإيمان بالله وبرسوله وبالدين كله ، وبينهاهم عن اتباع مسالك الشيطان ، واقتفاء

أثره ، والتمثل به في إشاعة الفحشاء في الذين آمنوا ، ونشر الأكاذيب عنهم كما حدث مع عائشة رضى الله عنها في يوم "الإفك" .

﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ أى

ومن يتبع سبل الشيطان ، والأعيبه يقع في الفحشاء والمنكر قولاً وفعلاً ، وبذلك يغضب الله تعالى ، فإن الشيطان لا يأمر إلا بهما ، ولا يدل إلا عليهما ومن يفعل ذلك يعصى الله ورسوله ، والآية عامة في كل من يفعل ذلك .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾

أى ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم ما وفقكم للتوبة ، وما قبلها منكم ، وما عرفكم بمواطن الزلل ، ولبقيتكم في ذنوبكم وآثامكم حتى تلاقونه سبحانه وتعالى بما كنتم فيه من ضلال ، وتنالون ما تستحقون من عقاب .

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ أى ولكن الله جلت قدرته ، وعظمت

نعمته يطهر عباده بقبول توبتهم ، وغفران ذنوبهم ، ورحمتهم كما فعل مع المسلمين يوم "الإفك" .

﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى وهو سبحانه وتعالى سميع لكل قول ، عليم

بكل فعل وحال .

- ٥ -

معنى الآيات

بينت الآيات حادثة الإفك ، وعرفت المسلمين أن الحادثة كانت خيراً لهم فقد أظهر الله براءة السيدة عائشة رضى الله عنها في قرآن يتلى إلى يوم القيامة ، وكشف النفاق والمنافقين ، وأفسد خططهم وكيدهم ، وسوف يحاسب الله كل امرئ منهم بما وقع منه . ثم أخذت الآيات توجه المسلمين إلى ما يجب

(١٩٤)

عليهم أن يفعلوه مع الأخبار الكاذبة ، والاشاعات المضللة ، وتبين فضل الله عليهم .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان فضل الله على المؤمنين

تظهر حادثة "الإفك" فضل الله على المؤمنين الذين كانوا مع رسول الله ﷺ في المدينة ، وذلك من عدة أوجه :

الوجه الأول : إبطال مؤامرة أعداء الله تعالى :

خطط المنافقون والأحزاب لزعزعة الثقة في المجتمع الإسلامي ، وتصوير بيت النبي ﷺ بصورة سيئة تبعد المسلمين عن رسول الله ... فلقد وقعت حادثة "الإفك" قبيل غزوة "الأحزاب" وكان أمل القائلين بها أن ينتشر الضعف بين المسلمين من داخلهم ، ومن الخارج عنهم لتكون ضربة الأحزاب قاصمة لأن العرب كانوا شديدي الاهتمام بصيانة العرض والشرف ... ومن هنا كان نزول القرآن الكريم ببراءة عائشة رضي الله عنها إبطالا للمؤامرة ، وهتكا لأستارها وزيوفا .

الوجه الثاني : تحديد أشخاص المؤامرة :

تشير القصة إلى خوض كثير من المسلمين في الإفك مع اختلاف نواياهم فعرف الله رسوله والمسلمين يتنوع الخائضين ، فمنهم من دخل فيه بلا نية سيئة وهؤلاء عليهم أن يستغفروا ، وأن يتوبوا ، ولا يعودوا لمثله أبدا ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم .

(١٩٥)

الوجه الثالث : بيان علم الله وعدله :

وضحت الآيات أن الله عليم بعباده ، محيط بأخبارهم ، ولذلك أنزل عقوبته على الناس على قدر مشاركتهم في الإفك .

الوجه الرابع : بروز خلق رسول الله ﷺ :

رغم ما كان فيه رسول الله ﷺ من عناء يزلزل الجبال في أيام حادثة الإفك كان يسأل عن عائشة رضى الله عنها ، ويطمئن عليها ، ويقول لها : كيف تيكم ؟

وستر عنها حديث الناس حتى لا يؤذيها ، ولم يرض بإثارتها ، ومناقشتها ، وكان يذكرها بالتوبة ، والاستغفار إن كان وقع منها شيء ، ويستمر الرسول ﷺ هكذا شهرا كاملا حتى تنزل عليه آيات البراءة ، فيخبر عائشة رضى الله عنها عقب نزول الوحي عليه مباشرة ، وهو ﷺ أسعد منها بهذه البراءة .

ويتحول جو الصمت ، والحزن ، في بيت النبوة إلى سرور ، وفرح ، وتنقلب المدينة كلها حديثا عن طهارة أم المؤمنين عائشة ، وبراعتها مما أثير حولها ، وتبقى براءتها ثابتة في القرآن الكريم على طول الزمن .

تقول أم رومان لعائشة بعد نزول الآيات : قومي أشكرى رسول الله .

فترد عائشة رضى الله عنها : إنما أشكر الله الذى برأنى من فوق سبع سماوات وتستمر البراءة قرآنا يحفظ فى الصدور، ويتلى على الألسنة ، شاهدا على طهارة هذا البيت العظيم .

الركيزة الثانية

أهمية صيانة المجتمع المسلم

فى إطار الآيات التى تتحدث عن الإفك جاءت توجيهات القرآن الكريم تحدد أهمية تعاون المجتمع فى رد البهتان والزيف ، حتى لا يروجه البعض وهو لا يدرى .

فلا يصح فى المجتمع المسلم أن ينتشر الإفك فيه ، وبخاصة ما يتعلق بالعرض والشرف ، والواجب على كل من يسمع إفكا أن لا يكرره ، وعليه أن يستعيز بالله منه ، ولا يشيعه ، تطبيقاً لقول الله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ ^(١) .

ولا يجوز فى المجتمع المسلم أن يسمع أحد أفرادهِ عن إخوانهِ أمراً ، ويصدقهِ بلا برهان يثبتهِ ، أو دليل يؤكده .

ولا يصح لمسلم أن يضع نفسه فوق إخوانهِ ، أو يتميز عنهم ، وواجب على المسلم أن يقيس الأمر على نفسه وعلى أهله ، وأن يضع نفسه مكان من دار الإفك حوله ، فإن استبعد على نفسه ما يسمعه فمن الأولى أن يستبعده على غيره ، وبخاصة من هم أفضل منه فى الكرم ، والخلق .

يروى المؤرخون أن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب أما تسمع ما يقوله الناس فى عائشة ؟

قال : بلى وذلك الكذب ، أكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك ؟

قالت : لا والله ما كنت لأفعله .

قال : فعائشة والله خير منك ^(٢) .

(١) سورة الحجرات ، الآية ٦ .

(٢) سيرة النبى لابن هشام ج ٢ ص ٣٠٢ .

(١٩٧)

إن كرامة المجتمع المسلم يجب أن تصان من دعايات سوء ، ولذلك نزلت الآيات لعظة المسلمين حتى لا يقعوا في مثل هذا الأمر مرة أخرى ، ولا يكونوا فريسة توجيهات الشيطان من الإنس أو الجن التي تحاول جر المجتمع الإسلامي إلى الهاوية ، وعلى المسلمين في مثل هذه المواقف أن لا يتعجلوا في الحكم ، وأن لا يتحدثوا إلا بعد معرفة الحقيقة الصادقة ، حتى لا يؤذوا أنفسهم ، وغيرهم بجهالة ، ويصبحوا نادمين .

إن من تسرع في الإفك ، وخاض فيه بلا بينه أخطأ كثيرا وبكفى لظهور خطأ هؤلاء أن نعلم أن صفوان بن المعطل كان حصورا لا يأتي النساء^(١) ومع ذلك قيل ما قيل فيه !!

الركيزة الثالثة

ضرورة العلم والبرهان

قامت حادثة "الإفك" على الاشاعات الكاذبة ، وذلك أمر يجب أن يبتعد عنه المسلمون ، وأن يقيموا حياتهم على الصدق والوضوح .

وكان عتاب الله على المؤمنين شديدا لأنهم خاضوا في الإفك مع انه اتهام وقذف لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، ومسطح بن أثال رضي الله عنه وكان عليهم أن لا يتكلموا فيه إلا بأربعة شهداء حتى لا يكونوا من الكاذبين ... وأيضا فإنهم تلقوا الخبر كلاما ولم يدققوا فيه ، وكان عليهم أن ينتبثوا منه ، ولا يتكلموا فيه قبل التأكد منه .

وأیضا فإن إشاعة الإفك هدم للمجتمع كله ، وكان عليهم أن يتوقفوا عن ذلك ما لم يتيقنوا .

(١) سيرة لابن هشام ج ٢ ص ٢٢٤ .

إن اتهام أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق محاولة فاجرة لإشاعة الفاحشة في المجتمع الإسلامي كله ، وكان على المؤمنين أن ينتبهوا لذلك .
 إن القضاء على كل هذه المثالب يحتاج إلى أمرين :
الأمر الأول : العلم التام بالموضوع ليظهر ما فيه من صدق أو كذب ، وليسهل الحكم على الشيء بعد تصويره .
الأمر الثاني : ضرورة وجود البرهان القاطع ، وظهور الحجة التي تؤكد أو تنفي ، وبذلك نصدق الحكم بدليله .
 لقد عاتب الله المؤمنين عتاباً رقيقاً ، ودلهم على الطريق المستقيم .

الركيزة الرابعة

منهج الإسلام في القضاء على الإشاعة

الإشاعة قول كاذب ينشر الضعف والوهن في المجتمع ، وتتناوله الألسنة وهي لا تعرف مصدره ، ولا يفطن العامة لغاياته .
 ولقد حاول أعداء الإسلام نشر الأكاذيب بين المسلمين قبيل غزوة "الأحزاب" فأظهر الله الحق ، وأبطل كيد الكائدين .
 وعرف المسلمون بالمنهج الصحيح لمقاومة الإشاعة وذلك يكون بعدة طرق :
الطريق الأول : التوقف عن الإشاعة ، وقياس إمكانية حدوث الإشاعة على من يسمعها ، فإن تصور السامع في نفسه جواز أن يقوم بها جاز أن يقوم بها غيره ، وإن أحال حدوثها على نفسه امتنع حدوثها من غيره .
 وهذه طريقة عامة تفيد في كل إشاعة ، وقد قامت بذلك أم أيوب رضي الله عنها حين قالت لزوجها : أتفعل ذلك لو كنت مكان مسطح ؟
 فقال لها : لا . وأنه الكذب .
 ثم سألتها : أكنت تفعلينه لو كنت مكان عائشة .
 فقال : والله ما كنت لأفعله ، وعائشة خير مني .

إن قياس الإشاعة على الذات يؤكد زيفها لأن ما لا يمكن تصوره على شخص ما لا يصح تصديقه على شخص آخر إلا ببرهان .

الطريق الثانى : المطالبة بالدليل ، البين ، المثبت لموضوع الإشاعة وبخاصة أن الإشاعات تدور غالبا حول أمور هامة وخطيرة ، ولذلك يحتاج الرمى بالزنا إلى أربعة شهود يقررون بالرؤيا المؤكدة ، وأن يعاقب بحد القذف من يرمى مؤمنة بزنا ، وأن يحد من يبغى الفساد في الأرض بحد "الحاربة" .

الطريق الثالث : رد الكلام المجرد من الدليل ، وذلك أن الإشاعة تنتشر كالنار في الحطب ، ولا يعرف مصدرها ، ولذا لزم رد الكلام المجرد الذى لا دليل عليه ، ولا يعرف مصدره .

الطريق الرابع : عدم الخوض في أعراض الناس ، لأن إشاعة الإفك لا يقف عند شخص من دارت الإشاعة حوله ، وإنما يمتد إلى أهله ، وعشيرته ، وإلى المجتمع كله ، ولا يقوم بالإشاعة إلا الذين يحبون أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين .

إن المجتمع الإسلامى له أعداؤه الذين لا يقصرون في الكيد الكاذب ، والاتهامات الباطلة ضد المخلصين الذين يعملون لنهضته ... ولذلك وجب الحذر ، ورد الأكاذيب .

إن تعاليم الإسلام هى الصراط المستقيم الموصل إلى الله تعالى ، ودون هذا الطريق طرق عدة تبعد المسلمين عن دين الله تعالى . يقول الله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ^ط وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ^(١)﴾ ، وأعداء الخير يلجأون إلى نشر الإشاعات الكاذبة الواهية

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٥٣ .

(٢٠٠)

مستفيدين من بعض الأحداث ، ويوجهونها وفق هواهم ، وبينون عليها تلالا من الإفك والأراجيف .
إن حماية المجتمع من الأكاذيب ضرورة لتبقى له قوته وتسقط الأعياب
خصومه وأعدائه .

أهمية التواصل الاجتماعي

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۚ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ
لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها لما نزلت براءتى من الله أقسم أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح ، وكان ينفق عليه لفقره ، وقربته . فأنزل الله :
﴿ وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۚ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ
لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فقال أبو بكر : بلى والله ، إني لأحب أن يغفر الله لي
فأرجع إلى مسطح ما كان يجريه عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبدا^(١) .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٥٩ .

(٢٠١)

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة حادثة "الإفك" جاءت هذه الآية لبيان موقف أبي بكر رضي الله عنه من ابن خالته مسطح الذي اشترك في نشر حادثة "الإفك" .

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآية ما فعله أبو بكر رضي الله عنه مع ابن خالته مسطح ، وتحثه على مواصلة الإنفاق عليه ، فأطاع أبو بكر رضي الله عنه أمر ربه ، وكفر عن اليمين الذي أقسم فيه أن لا ينفق على مسطح .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ أى لا يصح من أهل الدين والخلق والغنى أن يحلفوا على أمر ما من أمور الخير كما فعل أبو بكر رضي الله عنه .

﴿أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾
أى لا يصح من أهل الدين والخلق والغنى أن يحلفوا على عدم إعطاء ذوى القربى والمساكين والمهاجرين الفقراء ، ويجمع هذه الصفات مسطح ، فلقد كان مسكينا ، مهاجرا ، بدريا ، وهو ابن خالة أبى بكر رضي الله عنه فلما تكلم في الإفك أقسم أبو بكر رضي الله عنه أن لا يعطيه ما كان يعطيه ، فبين الله أن ذلك لا يجوز .

وقال سبحانه : ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ؟ ... الاستفهام

للتعجب . ومعناه ألا تحبون أن يستر الله عيوبكم ، ويغفر ذنوبكم ، ويجزيكم خير الجزاء ... وعلى من يحب أمرا أن يفعله لغيره .

(٢٠٢)

فلما سمع أبو بكر رضي الله عنه ذلك قال : والله أحب أن يغفر الله لي ، ثم أعاد إلى مسطح ما منعه عنه ، وقال : والله لا أُمْنَعُ عنه شيئا .

﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى والله غفور لذنوب من أطاعه ، واتبع أمره

رحيم به لا يعذبه على ما وقع منه ، وبقبل توبته .

وفى الآية دليل على أن من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير ، ويكفر عن يمينه . يقول النبى ﷺ : "من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأتها ، وليكفر عن يمينه"^(١) .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حلف على أن لا يعطى ابنه خالته مسطحا ما كان يعطيه له لاشتراكه في إشاعة الإفك حول عائشة رضى الله عنها فحثه الله على الرجوع في الحلف ، والاستمرار في العطاء ليغفر الله له ... وقد عاد أبو بكر رضي الله عنه إلى عطائه ، وعزم أن لا يعود لهذا لمنع مرة أخرى لأنه يحب أن يغفر الله له .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

بيان فضل أبى بكر رضي الله عنه

أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول من آمن برسول الله ﷺ من الرجال ، وخير من صحبه وصدقته ، وهاجر معه ، وسعد بزواج رسول الله ﷺ من ابنته عائشة

(١) صحيح مسلم . كتاب الأيمان . باب ندب من حلف يمينا فرأى غيرها ج ٣ ص ١٢٧١ .

(٢٠٣)

رضى الله عنها ... ولذلك كان همه بالإفك كبيرا . فنزلت الآيات تبرئ الله عائشة رضى الله عنها ، وجاء ذكره في الآيات تشهد بصدقه أمام الجميع فهو أمة وحده ، وقد ذكرته الآية جمعا ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ ﴾ .

ومن مزاياه ﷺ أنه احتمل الأذى من ذوي القربى ، ورجع عما أقسم عليه وأخضع هواه لما أمر الله به ، وأعاد لـ "مسطح" ما كان ينفقه عليه ، وهذا من أشد الجهاد لأنه جهاد النفس .

ومن مزايا أبي بكر ﷺ أن أمره الله بما أمر به رسوله فقال الله في حق رسول الله ﷺ : ﴿ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۗ ﴾ ، وقال في حق أبي بكر : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ ﴾ فدل ذلك على أن أبا بكر كان ثاني اثنين لرسول الله ﷺ في جميع الأخلاق .

عقوبة الذين يرمون المحصنات

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن أبا بكر رضي الله عنه واصل عطاءه لـ "مسطح" بعد أن حلف على عدم إعطائه بسبب اشتراكه في إشاعة الإفك جاءت هذه الآيات لبيان حكم من يرمى المحصنات المؤمنات الغافلات ، وعقوبته في الدنيا وفي الآخرة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الذين يرمون المؤمنات المحصنات الغافلات ملعونون في الدنيا ، ولهم عذاب أليم في الآخرة يوم تشهد عليهم جوارحهم بما عملوا ، ويوم ينالون جزاء عملهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أى أن الذين يرمون العفيفات ، الطيبات ، الطاهرات ، المؤمنات ، الصالحات ، وهذه هى صفات المرأة التقية ، فإن شأنها أن تكون في غفلة عن لهُو الناس ، ولعبهم

(٢٠٥)

، لا تعرف الرذيلة ، ولا ترتكبها ، فهي ساذجة ، مستقيمة ، تعيش على الفطرة ، والاستقامة ، وتخلص في الإيمان بالله رب العالمين .
وقذف من هذه صفتها أعظم جرما ، وأدل على الميل إلى الاستهتار ، وأذى الناس .

﴿ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أى إن هؤلاء الذين يرمون العفيفات الغافلات المؤمنات طردوا من رحمة الله في الدنيا فليس لهم فيها ذكر ولا كرامة ، ولعنوا في الآخرة ، لأنهم ارتكبوا كبيرة ، وأشاعوا قالة السوء ، ونشروا الفاحشة بين المؤمنات ، ولذلك لعنهم الله في الدنيا ، وأعد لهم عذابا أليما في الآخرة .

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى أن الله أعد لهم عذابه الأليم ، ويقيم الحجة عليهم في الآخرة حين يجحدون ما عملوا في الدنيا ، وتشهد عليهم أيديهم ، وأرجلهم بما كانوا عليه في الدنيا من قول ، أو عمل إذ ينطقها الله بقدرته ، فتخبر كل جارحة بما صدر منها من أفاعيل .

عن أبي سعيد الخدرى أن النبي ﷺ قال : "إذا كان يوم القيامة عرف الله الكافر بعمله ، فيجحد ويخاصم .

فيقال له : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك .

فيقول : كذبوا .

فيقال : أهلك وعشيرتك .

فيقول : كذبوا .

(٢٠٦)

فيقال : احلفوا فيحلفون ، ثم يصمهم الله فتشهد عليهم ألسنتهم ، وأيديهم ، وأرجلهم ، ثم يدخلهم النار^(١) .

ويرى فريق من المفسرين أن هذه الشهادة ليست نطقاً باللسان ، ولكنها شهادة بالصورة والمثال ، إذ كل ما يعمل به الإنسان في الدنيا من قول أو فعل تنطبق له صورة على العضو الذي فعله ، فالكلمة التي يقولها تنطبق لها صورة على اللسان الذي ينطق ، واليد التي تمتد لفعل شيء ، والرجل التي تخطو إلى عمل ، كل ذلك تبقى صورته في نفس الجارحة التي فعلته .

﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾

في يوم القيامة يوفيههم الله جزاءهم على أعمالهم ، ويعرفهم أن ما كانوا يوعدون به في حياتهم الدنيا من العذاب هو الحق الذي لا شك فيه .

يقول الزمخشري : ولو قلبت القرآن كله وفتشت عما أوعده به العصاة لم تر أن الله قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها ، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد ، والعقاب البليغ ، والزجر العنيف ، واستعظام ما ركب من ذلك ، واستفضاع ما أقدم عليه ، على طرق مختلفة ، وأساليب متنوعة ، كل واحد منها كاف في بابه ، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً ، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة ، وجعل ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا ، وأنه يوفيههم جزاءهم الحق الذي هم أهل له^(٢) .

(١) مسند أبي يعلى الموصلى ج ٢ ص ٥٢٧ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٧ .

(٢٠٧)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الذين يرمون المؤمنين المحصنات الغافلات ملعونون في الدنيا والآخرة ، ولهم عذاب عظيم ، يوم القيامة ، يوم تشهد عليهم جوارحهم ، في هذا اليوم يوفيه الله جزاءهم الذي وعدهم الله به ، ويعرفهم أن وعد الله حق لا ريب فيه .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

صيانة أعراض المؤمنين

من مقاصد الشريعة الإسلامية المحافظة على الأعراض وصيانة الطهر والعفاف ، وبذلك تسلم الأنساب ، وتستقيم الحياة ، ويتعاون الناس على الحب والطهر ، والعفاف .

ومن وسائل المحافظة على العرض إلحاق اللعن بمن يتهم المحصنات الغافلات ، ويرميهن بالفحش والزنا .

إن الله أعد لمن يتهم المحصنات الغافلات لعنة في الدنيا حيث لا ذكر ولا كرامة لهم ، ولعنة في الآخرة بأن طردهم من رحمته ، وحرّمهم من النظر إليه ، وأعد لهم عذابا عظيما .

وقد أحاطت الشريعة الإسلامية مجتمع المسلمين بما يحقق الطهارة والعفة فشرعت الحجاب ، وعدم الاختلاط ، وحاربت الفحشاء ومقدماته ودعت إلى الفضيلة والعفاف .

(٢٠٨)

الركيزة الثانية **الجزاء العادل للضالين الملعونين**

تبين الآيات العقوبة التي أعدها الله للذين يرمون المحصنات الغافلات ...

وهي :

(١) إلحاق لعنة الله بهم في الدنيا لارتكابهم كبيرة ، واصرارهم على نشرها
واذا عنتها .

(٢) لعنة الله تلحق بهم في الآخرة فهم مطرودون من رحمة الله ولهم عذاب
أليم .

(٣) وقوعهم في الخزي في الآخرة حيث تشهد جوارحهم عليهم ، وتقرر خطأهم
وضلالهم حيث يحل بهم العذاب الذي وعدهم الله به .

براءة السيدة عائشة "رضى الله عنها"

يقول الله تعالى :

﴿ اَلْحَيْثُ ثُ لِلْحَيْثِيْنَ وَالْحَيْثُ ثُ لِلْحَيْثِيْنَ وَالْحَيْثُ ثُ لِلْحَيْثِيْنَ وَالْحَيْثُ ثُ لِلْحَيْثِيْنَ
وَالْحَيْثُ ثُ لِلْحَيْثِيْنَ اُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ﴿٦٠﴾ ۝

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الذين يرمون المحصنات ملعونون في الدنيا
والآخرة جاءت هذه الآية لبيان براءة السيدة عائشة رضي الله عنها فهي زوجة
رسول الله ﷺ تزوجها بأمر الله تعالى وهي تماثله في الطيبة والخلق الكريم .

(٢٠٩)

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الخبيثات للخبيثين ، والخبيثين للخبيثات ، والطيبين للطيبات والطيبات للطيبين ، وفى هذا دلالة على براءة السيدة عائشة رضى الله عنها لأنها زوجة رسول الله ﷺ وأم المؤمنين أجمعين ، ولا يتصور عقلا وشرعا أن ينكح رسول الله ﷺ إلا امرأة طيبة ، وقد برأ الله عائشة رضى الله عنها وصفوان رضى الله عنه من الفاحشة التى قالها المنافقون .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ الْحَبِيثَةُ لِلْحَبِيثِ وَالْحَبِيثُونَ لِلْحَبِيثَاتِ ﴾ الخبيثات جمع

خبيثة وهى من اتصفت بالخبث من النساء ، والخبيثون جمع خبيث ، وهو من اتصف به من الرجال ، والمراد بالخبث فساد في النفوس يؤدى إلى ارتكاب الكبائر مثل السرقة والزنا وشرب الخمر .

والمعنى أن المرأة الخبيثة تتزوج الرجل الخبيث ، وترغبه ، ويكون الرجل كذلك فهو لخبثه يتزوج خبيثة مثله ، ويميل إليها ويكون بينهما ألفه ، ومودة وعشرة دائمة .

﴿ وَالطَّيِّبَةُ لِلطَّيِّبِ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ الطيبات جمع طيب ،

وهى المرأة سليمة النية ، حسنة السلوك . ومعنى كون الطيبات للطيبين أن الطيبات من النساء لا يقبلن إلا زواج الطيبين من الرجال ، لأن المرأة الطيبة لا تقبل أن تكون فراشا إلا للطيب ذى الخلق الكريم ، والطبع السليم .

وتعريف طرفى الجمل الأربع يفيد القصر الذى يجعل هذه لذاك وهذا لتلك ، وإذا كان رسول الله ﷺ من أطيب الأطيبين ، وخيرة الأولين والآخرين ،

(٢١٠)

استبان أن الصديقة رضى الله عنها من أطيب الطبيات ، واستبان بطلان ما أشاعه المرجفون من أهل الإفك .

﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أى أولئك الطيبون والطيبات ،

ومنهم صفوان وعائشة رضى الله عنهم مبرعون مما يقول الخبيثون من الرجال والخبيثات من النساء .

﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أى لهم مغفرة عن ذنوبهم التى اقترفوها

من قبل ، ورزق كريم عند ربهم فى جنات النعيم .

روى أن عائشة كانت تقتخر بأشياء أعطيتها لم تعطيها امرأة غيرها .

منها أن جبريل عليه السلام أتى بصورتها فى سفرة حرير ، وقال لرسول الله ﷺ : هذه زوجتك .

ومنها أن النبي ﷺ لم يتزوج بكرا غيرها ، وقبض رسول الله ﷺ فى حجرها وفى يومها ودفن فى بيتها .

وكان ينزل الوحي على رسول الله ﷺ وهي معه فى اللحاف .
ونزلت براءتها من السماء .

وأنها ابنة الصديق ، خليفة رسول الله ﷺ .

وخلقت طيبة ، ووعدت مغفرة ورزقا كريما .

وكان مسروق إذا حدث عن عائشة رضى الله عنها يقول : حدثتني الصديقة بنت الصديق ، حبيبة رسول الله ﷺ المبرأة من السماء^(١) .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٦٥ .

(٢١١)

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن كلا من الرجل والمرأة يميل لمن يوافقه في طبعه ، وخلقه وسلوكه ، فلا تتزوج الخبيثة إلا خبيثا ، ولا يتزوج الخبيث إلا خبيثة ، والطيب لا يتزوج إلا طيبة ، والطيبة لا تتزوج إلا طيبا ، وعلى ذلك فطهارة عائشة رضى الله عنها وبراعتها من الإفك أمر مقرر فهي زوجة رسول الله ، وهى أم المؤمنين ، والمؤمنون الصالحون مبرأون من أقوال الأفاكين فقد غفر الله لهم ورحمهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

توحد الأرواح يوحد الأبدان

الإنسان يتكون من ظاهر وباطن ، وجسد وروح ، وقد اهتم الإسلام بطهارة القلب ، وزرع العقيدة الصحيحة لأن استقامة القلوب على أمر واحد يوحد العمل والسلوك ، وينشر الألفة والتعاون ، ولذلك عاش المسلمون في مكة قبل الهجرة مع قلتهم إخوة متحابين بعضهم أولياء بعض ، فلما هاجروا إلى المدينة وجدوا من إخوانهم الأنصار حبا خالصا وحد عملهم ، وأزال عوامل التفرق ، والغربة ، وجمع أبدانهم وأعمالهم في بوتقة واحدة وفى صورة لا يأتى الزمان بمثلها ... يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ

أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾ .

ولذلك لم يكن عجباً أن يلتقى الخبيثون مع الخبيثات ، والطيبون مع
الطيبات وتستقر حياة المتشابهين فى الحياة العامة والخاصة .
ومن شواهد الواقع نرى وقوع الطير على مثله ، وتجاذب الأرواح
المتشابهة حين الالتقاء ، ويحب الرجل المؤمن كل مؤمن ، ولو كان بعيداً عنه
زماناً ومكاناً .

لقد فرح المسلمون بغلبة الروم وهزيمة الفرس وهم بعيدون عنهم لأنهم على
دين ، ويدعو المسلم بالخير لكل مسلم سبقه أو لحقه ... يقول الله تعالى : ﴿
وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا
بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .
ومن هنا ...

أرى من واجب الدعاة التركيز على البناء الإيمانى فى الإنسان ، وإحياء
روحه بحب الله تعالى ، وحب رسوله وحب المؤمنين .
يقول النبى ﷺ : "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله
ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن
يقذف فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار" (٢) .

(١) سورة الحشر ، الآية ٩ .

(٢) سورة الحشر ، الآية ١٠ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب الإيمان . باب حلاوة الإيمان ج ٩ ص ٢٠ .

(٢١٣)

إن المجتمع الإسلامى يعيش بقلوب نابضة بالحب ، ونفوس ذاكرة لله تعالى ، واستقامة تامة على شرع الله تعالى .
وعلى الدعاة :

أن يكونوا فيما بينهم ، ومع الناس على صفاء تام ، وأخوة صادقة تجمع ولا تفرق ، تصون ولا تبدد ، تشد أزر الصديق ، ترد كيد المعتدى .
إن أمة التوحيد يجب أن تستمر واحدة فى روحها ، وعملها ، وتوجهها لله رب العالمين .

أدب الإسلام فى دخول البيوت

يقول الله تعالى :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۚ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٦﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيات

روى عدى بن ثابت رضي الله عنه عن رجل من الأنصار : أن امرأة قالت : يا رسول الله : إني أكون فى بيتي على الحال التي لا أحب أن يرانى عليها أحد لا والد ولا ولد ، فيأتينى آت فيدخل على فكيف أصنع ؟

(٢١٤)

فنزلت : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ... الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة خطورة نشر الفاحشة بين المؤمنين جاءت هذه الآيات لوضع ضوابط تحقيق طهارة المجتمع ، وسلامته فبدأت بتوضيح آداب الإسلام في دخول البيوت حتى لا يطلع أحد على عورات غيره من الناس .

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآيات آداب الإسلام في الاستئذان والسلام عند دخول البيوت من أجل المحافظة على عورات ، وأسرار الناس .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ

تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ ينادى الله المؤمنين ، وهو معهم ، يحبهم ويحبونه ، ويبين الآداب النافعة التي يلتزمون بها عند قصدهم دخول بيوت غيرهم ، وقد سميت البيوت بيوتاً لأنها أعدت للمبيت ... وأهم هذه الآداب ما يلي :

أولاً : الاستئناس :

يقول الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا ﴾ الاستئناس طلب الأئس ، ومحاولة معرفة أن البيت فيه صاحبه ، ليستأذنه في الدخول بعد ذلك ، وذلك

(١) تفسير المراغى ج ١٨ ص ٩٤ .

يكون بإظهار صوت كتسييح ، وتحميد ، أو طرق الباب ، فإن علم بوجود أصحاب الدار استأذنهم في الدخول ، وسلم عليهم .
وقد شرع الإسلام الاستئذان لثلاثة أسباب ... هي :

- (١) أن يكون صاحب الدار على حال يصلح لاستقبال الداخل .
- (٢) وأن يشعر صاحب الدار أن له ملكية محترمة في بيته .
- (٣) وأن يأنس بمن سيدخل عليه قبل دخوله .

ثانيا : التسليم :

يقول الله تعالى : ﴿ وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ أى تقولوا لهم : السلام عليكم ويكون السلام مقترنا بالاستئذان مثل قوله : "السلام عليكم أدخل" أو "أدخلكم السلام عليكم" والأولى تقديم السلام لأنه إعلان بالأمان .

عن ربيع بن خراش رضي الله عنه قال : "جاء رجل من بني عامر فاستأذن على رسول الله ﷺ وهو في البيت فقال : أألج ؟

فقال رسول الله ﷺ لخادمه : أخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقل له : إنه السلام عليكم أدخل ، فسمع الرجل ذلك من رسول الله ﷺ فقال : السلام عليكم أدخل ، فأذن له رسول الله ﷺ"^(١) .

ويستأذن الداخل ثلاث مرات فإن أذن له صاحب الدار دخل ، وإن لا رجع .
وكان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب بوجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول السلام عليكم (ثلاثا)^(٢) .

ويستأذن الرجل والمرأة على محارمهما ، يدل على ذلك ما روى عن عطاء بن يسار رضي الله عنه أن رجلا سأل رسول الله ﷺ فقال : أأستأذن على أُمى ؟
قال : نعم .

(١) السنن الكبرى للنسائي . كتاب عمل اليوم والليلة . باب كيفية الاستئذان ج ٩ ص ١٢٦ .

(٢) سنن أبي داود . كتاب الأدب . باب كم مرة يستأذن الرجل ج ٤ ص ٢٤٨ .

فقال الرجل : إني معها في البيت .

فقال رسول الله ﷺ : استأذن عليها .

فقال الرجل : إني خادمها .

فقال رسول الله ﷺ : استأذن عليها أتحب أن تراها عريانة ؟!

قال : لا .

قال ﷺ : فاستأذن عليها^(١) .

﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أى اتباع آداب الإسلام في

الاستئذان ، والتسليم ، والانتظار حتى يؤذن لكم خير لكم من الدخول فجأة على عادة العرب قبل الإسلام ، عسى أن تتذكروا الخير لكم ، وتلتزموا به .

فإن قيل : قد يحدث في البيت حريق ، أو طلب غوث فهل يحتاج ذلك

إلى الاستئذان ؟

أقول : لا يحتاج ذلك إلى الاستئذان لأن الحادث يعد طلباً للنجدة ، ونداء

للمعاونة ولو توقف الدخول على الاستئذان لفات المقصود من الدخول ، فلربما

كان صاحب البيت بعيداً عنه .

﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ

قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ أى وإن قال لكم أهل البيت الذين

تستأذنونهم : ارجعوا فارجعوا ، فذلك خير لكم وأطهر ، فلربما كان أهل الدار في

حال يستوحشون أن يراهم أحد عليها ، ولذلك لا يصح اللاحاق في طلب الدخول

، والوقوف طويلاً عند الباب ، ودخلت الفاء على قوله : ﴿ فَارْجِعُوا ﴾ لتدل

(١) موطأ مالك . كتاب الاستئذان . باب الاستئذان ج ٥ ص ١٤٠٢ .

على سرعة الرجوع ، وعدم الوقوف على الباب إن طلب صاحب الدار الرجوع.

عن أبي سعيد وأبي ابن كعب عن أبي موسى قال أبو سعيد : "كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور فقال : استأذنت على عمر ثلاثا فلم يؤذن لي فرجعت .

قلت : ما منعك ؟

قال : استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي فرجعت ، وقد قال رسول الله ﷺ : إذا استأذن أحدكم ثلاثا ، فلم يؤذن له فليرجع .

قلت : والله لتقيمن عليه بيعة ، أمنكم أحد سمعه من النبي ﷺ ؟

قال أبي بن كعب رضي الله عنه : فو الله لا يقوم معك إلا أصغر القوم ، فكنت أصغر القوم فقممت معه فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك^(١) .

وعلى من يستأذن أن لا ينظر إلى داخل البيت ، وعليه أن يبعد نظره عن ذلك فقد جاءت الأحاديث تنهى عنه .

عن سهل بن سعد رضى الله عنهما قال : "اطلع رجل من جحر في باب النبي ﷺ ومع رسول الله ﷺ مدرى يرجل به شعره .

فقال رسول الله ﷺ : لو علمت أنك تنظر لطعنت به في عينك ، إنما جعل الإذن من أجل البصر"^(٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ "من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفتأوا عينه"^(٣) .

(١) صحيح البخارى . كتاب الاستئذان . باب التسليم والاستئذان ج ٨ ص ٥٤ .

(٢) السنن الكبرى للبيهقى . كتاب الأشربة . باب التعدى والاطلاع ج ٨ ص ٥٨٦ .

(٣) الأسماء والصفات للبيهقى . باب ما جاء في التردد ج ٢ ص ٤٤٩ .

وفي رواية النسائي قال : "لو أن أمراً أطلع عليك بغير إذن فحذفته ففقت عينه ما كان عليك حرج" (١) .

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أى والله عليم بكل أعمالكم وأقوالكم عند الاستئذان ، وفى كافة الأحوال ، ولذلك شرع الله لكم الآداب ، وسوف يحاسبكم على ذلك .

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ﴾ وهذا حكم دخول البيوت الخالية أو التى لم تعد داراً لقوم معينين كالفنادق ، والحوانيت والحمامات ، والنوادر وغير ذلك ، ومثله الحانات والبيوت التى أقامها العرب بين مكة والمدينة ليستريح فيها الحجاج والمارة ، يتقون بها من الحر ، فمن دخلها لا إثم عليه .

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أى والله عليم بما تظهرون وما تضمرون فى كافة أحوالكم ، وسوف يجازيكم بما أنتم فيه .

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات أدب الإسلام فى دخول البيوت ، فأوجب على من يريد الدخول أن يستأذن ، ويسلم على أهل البيت فإذا أذنوا له دخل ، وإن لا عاد من حيث أتى ، وإن قال له صاحب الدار إرجع فليرجع فذلك خير للجميع .
وأما البيوت التى لم تعد للسكن كالحوانيت والنوادر وأماكن الاستراحة فلا جناح فى دخولها بلا إذن وتلك الآداب هى الخير والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

(١) السنن الكبرى للبيهقى . كتاب الأشربة . باب التعدى والاطلاع ج ٨ ص ٥٨٧ .

(٢١٩)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ترسيخ الإسلام للأداب بين الناس

نرى في الآية أدبا إسلاميا ساميا يحبه الإنسان بفطرته ، ويتمناه بفكره وعقله ، وقد توصلت الحضارات الحديثة إلى كثير من هذا الأدب وهو ضرورة الاستئناس والاستئذان حين دخول البيوت .

إن الإنسان في بيته يعيش مع نفسه ، وزوجه ، وأبنائه ، ويكون بينهم من البساطة ، والأحوال ما لا يحبون أن يراه غيرهم ... وقد يفاجئهم قادم وهم في عمل لا يمكنهم أن يستغنوا عنه .

ولهذا شرع الله هذا الأدب ليبدأ القادم بالاستئناس بإظهار صوت فيه إرادة الأمان والخير بقوله السلام عليكم ... وبعد ذلك يطلب الإذن بالدخول فإن أذن له بالدخول دخل وإن لا فلا .

إن الحضارات الحديثة سهلت هذا الأمر ، ونادت بضرورة اتخاذ موعد مسبق يحدده الطرفان ، يأتي فيه القادم ، ويستعد فيه صاحب البيت لمن يقدم عليه وهناك الوسائل المختلفة للاتصال ، وهذا يحقق الإنس والاستئذان .

إن الإسلام بهذا الأدب يحقق رقى الحس الإنساني ، ويصون لكل مسلم حرمة بيته وعرضه ، ويؤكد حرمة بيته في مملكته التي يستريح فيها .

ومن محاسن الإسلام تعاليمه في تنظيم الاستئذان للمحافظة على الأعراض والحرمات ، ومن ذلك :

(١) أن لا يقف المستأذن في الدخول قبالة الباب حتى لا يكشف ما بداخل البيت إذا لم يكن باب ، أو عند فتحه إن وجد .

(٢٢٠)

- (٢) أن يخفض صوته ، وان يذكر اسمه ، ولا يقول : أنا . أنا ...
- (٣) أن ينتظر الإذن بعد طلبه ثلاث مرات ، فإن لم يرد عليه فليرجع ، وان قيل له ارجع فليرجع بروح طيبة ، وليتمس لأخيه سببا .
- إن الإسلام ينظم كافة شئون الحياة ، وهذه الآداب واحدة منها ، وترى فيها الخلق الحسن ، والتعاون الجاد بين المسلمين .

الركيزة الثانية

حماية الملكية الخاصة

الإسلام يحافظ للإنسان على ما يملكه بنفسه كما يحافظ على الملكية العامة ... فالبيت الذى يسكن فيه المسلم ، ولو كان مؤجرا هو ملكه ومملكته ولا يصح اقتحامه ، والدخول فيه عنوة لما في هذا من عدوان على ملكية الناس .

إن الإسلام يضمن للمسلم ما يملكه ، ويسمح له بالاستفادة منه بما لا يضر أحدا ، ولا يشركه فيه غيره ، وهذا أقرب الحقوق التى يصونها الإسلام .

الركيزة الثالثة

أهمية إقامة المنشآت العامة

تهتم المدنية الحديثة بإقامة المنشآت التى تيسر على الناس أمور الحياة مثل إقامة الاستراحات العامة ، وإنشاء محطات الخدمة على الطرقات الطويلة وتأسيس بيوت الشباب فى الأماكن البعيدة ، وهذه أعمال ضرورية يحتاج إليها الناس ، لأنها تيسر الحياة للمسافر ، ولكل من بعد عن بيته .

(٢٢١)

وقد سبق الإسلام إلى هذا فأباح للناس أن يدخلوا إلى الأماكن العامة التي لا بد لهم منها مثل المساجد ، والاستراحات التي كان يقيمها الناس بين مكة والمدينة لراحة الحجيج ، واقامة اللواتم والمطاعم للفقراء والمساكين .

إن الإسلام جعل ملكية المنشآت العامة التي يحتاجها الناس حقا لهم ، يدخلونها بلا إذن ، ويحافظون على حقوق منشئها فيها .

وقد حث الإسلام على إنشاء الأعمال الخيرية مثل إنشاء المدارس ، وتأسيس المساجد ، وبناء دور الرعاية والإيواء ، واقامة السبل والإيوانات السكنية ، وقد ساهم المسلمون بأموالهم في هذه الخدمات فكثر أموال الأوقاف ، وعظمت المؤسسات المامة لخدمة الناس أجمعين .

إن الإسلام سباق لكل خير ، وعلى الدعاة إظهار ما في دينهم من خير وفلاح .

غض البصر وحفظ الفرج

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٢٤) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۚ وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرَهُنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۚ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَاءِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّبِيعِينَ غَيْرُ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلَ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۚ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ ۚ مِنْ زِينَتِهِنَّ ۚ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٥﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة إحدى طرق حفظ الأعراض ، وتحقيق طهارة المجتمع جاءت هاتان الآيتان بطريقة أخرى لحفظ الأعراض ، وتحقيق العفة وهي ضرورة غض البصر ، وحفظ الفرج .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تأمر الآيتان المؤمنين والمؤمنات بغض البصر ، وحفظ الفرج ، وتوضح الوسائل المشروعة لذلك .

(٢٢٣)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ أى قل أيها الرسول للمؤمنين كفوا أبصاركم عما حرم الله عليكم ، ولا تنظروا إلا إلى ما يباح لكم النظر إليه ، فإن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرفوا أبصارهم عنه سريعا ، وبغضوه عن النظر إلى ما وقعت أنظارهم إليه .
والغض عدم التمعن فى النظر ، واغماض للعين حتى لا يرى إلا ما قرب منه .
عن عبد الله البجلي قال : "سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجاءة فأمرنى أن أصرف بصرى" (١) .
وروى أبو داود بسنده أن النبي ﷺ قال لعلى : "يا على لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة" (٢) .
وعن أبى سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "إياكم والجلوس على الطرقات .
قالوا : يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها .
فقال ﷺ : إن أبيتُم فأعطوا الطريق حقه .
قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟
قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر" (٣) .
والحكمة فى ذلك : أن فى غض البصر سدا لباب الشر ، ومنعا لارتكاب المآثم والذنوب .

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب فى الأدب . باب ما جاء فى نظرة الفجاءة ج ٥ ص ١٠١ .

(٢) سنن أبى داود . كتاب النكاح . باب غض البصر ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب المظالم . باب أفنية الدور والجلوس فيه ج ٣ ص ١٣٢ .

﴿ وَحَفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ أى يصونوا فروجهم بمنعها من الوقوع في الفاحشة ، وحفظها من أن ينظر إليها أجنبى ، وقد جاء فى الحديث : "احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك" (١) .

﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ أى ما ذكر من غض البصر ، وحفظ الفرج أطهر من دنس الريبة ، وأنفع دينا ودنيا لأن النظر بريد الزنا ، ورائد الفجور .

﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ فلا يخفى عليه شئ مما يصدر منهم من الأفعال كإجالة النظر ، واستعمال سائر الحواس في الفواحش ، فلتكونوا على حذر منه تعالى فى كل ما تأتون وما تدرن .

وبعد أن أمر الله رسوله ﷺ والمؤمنين بغض أبصارهم أمره أن يأمر المؤمنين بذلك .

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ ﴾ فلا ينظرن إلى ما لا يحل لهن النظر إليه ، من عورات الرجال والنساء ، وإذا نظرن إلى ما عدا ذلك بشهوة فالنظر حرام ، وبدونها لا يحرم ، وغض البصر عن الأجانب ابتداء أولى بهن ، وأجمل لخلقهن لما روى عن أم سلمة "أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة إذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل علينا بعدما أمرنا بالحجاب . فقال رسول الله ﷺ احتجبا منه .

فقلت : يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟

فقال رسول الله ﷺ : أو عماوان أنتما ؟ أو لستما تبصرانه ؟

﴿ وَحَفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ أى يحفظن الفرج ، ويحمينه عما لا يحل لهن من الزنا وغيره ويسترنها حتى لا يراها أحد .

(١) سنن أبى داود . كتاب الحمام . باب ما جاء فى التعرى ج ٤ ص ٤٠ .

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ أى ولا يظهرن شيئا من

الزينة للأجانب إلا ما جرت العادة بظهوره ، كالخاتم ، والكحل ، والخضاب ، فلا يؤخذن إلا فى إبداء ما خفى منها كالسوار ، والخلخال ، والدملج ، والقلادة ، والإكليل ، والوشاح ، والقرط ، لأن هذه الزينة واقعة فى مواضع من الجسد (وهى الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن) التى لا يحل النظر إليها إلا لمن استثنى فى الآية بعد .

والنهى عن إداء الزينة نهى عن إظهار مواضعها فهو المقصود الأظهر من النهى .

ولما نهى الله عن إبداء الزينة أرشد إلى إخفاء بعض مواضعها فقال :

﴿ وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ أى وليلقين خمرهن على جيوبهن

ليسترن بذلك شعورهن ، وأعناقهن ، وصدورهن حتى لا يرى أحد منها شيئا وكان النساء يغطين رءوسهن بالخمير ، ويسدلونها من وراء الظهر فتبدو نحورهن وبعض صدورهن فنهين عن ذلك .

قالت عائشة رضى الله عنها : رحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل

الله ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شققن مروطهن فاخترن بها^(١) .

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ

بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَىٰ

إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَىٰ أَخَوَاتِهِنَّ ﴾ أى قل يا محمد للمؤمنات أيضا أن لا يظهرن

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٦٧ .

هذه الزينة الخفية إلا لأزواجهن ، فإنهم المقصودون بها ، وهن المأمورات بصنعها لهم .

وقد استثنى الله أصنافا من المحارم وأحل لهم مخالطة المرأة ... وهم :

الطائفة الأولى : بعولتهن ، فإن إبداء الزينة لهم من المستحسن من غير استهجان فإن الرغبة فى زوج تعفه ، وتبعده عن الرذيلة .

الطائفة الثانية : آباؤهن ، فإنها قطعة منه ، وهو رحم محرم منها ، وزينتها تسره ، ولا تضره ، ولا تغريه .

الطائفة الثالثة : آباء بعولتهن فإن أبا الزوج محرم لها ، ولا يغرى بامراة ابنه إلا لئيم ، ومن يخرج عن الفطرة السليمة .

الطائفة الرابعة : أبناؤهن فإنهم قطعة منها ، ولا يغرى بأمه إلا خبيث النفس .

الطائفة الخامسة : أبناء بعولتهن ، فإن ربيها كابنها .

الطائفة السادسة : إخوانهن ، وبنو إخوانهن .

الطائفة السابعة : اخواتهن ، وبنو أخواتهن .

الطائفة الثامنة : نساؤهن . أى نساء المؤمنات فإنه يجوز إبداء الزينة أمامهن .

الطائفة التاسعة : أو ما ملكت أيمانهن .

الطائفة العاشرة : ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرَةِ مِنَ الرِّجَالِ ﴾

وهم الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم ، ولا غرض لهم إلا الطعام ولا حاجة لهم إلى النساء ، إما لأنهم طعنوا فى السن ففويت شهواتهم ، واما لكونهم ممسوحين قطعت منهم أعضاء التناسل .

الطائفة الحادية عشرة : ﴿ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ

عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ أى إن الأطفال الذين لم يبلغوا سن الشهوة والقدرة على

ملامسة النساء لا يمنعون من مخالطة النساء .

ثم نهى عن إظهار صوت الحلي بعد النهى عن إبداء مواضعه فقال :

﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ أى ولا يضربن

بأرجلهن الأرض لتقعع خلاخلهن ، فإن ذلك مما يهيج الرجال ، ويورث ميلا إليهن ، وللنساء أفانين فى هذا ، فقد يجعلن الخرز ونحوه فى جوف الخلخال ، فإذا مشين ولو هونا كان له رنين وصوت خاص ، ومن الناس من تهيجه وسوسة الحلي أكثر مما تهيجه رؤيته ، ويشبه ضرب الأرجل لإبداء الزينة ما يفعلنه النسوة بأجسادهن من لباس ضيق ، وإظهار المحاسن والمشية المثيرة ، والألفاظ الخانعة البذيئة .

﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أى

ارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله فيما أمركم به ، ونهاكم عنه ، من غض البصر ، وحفظ الفرج ، وترك دخول بيوت غيركم بلا استئذان ولا تسليم ، تفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة .

عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : "أيها

الناس توبوا إلى الله ، فإنى أتوب إليه كل يوم مائة مرة" (١) .

ومن شروط التوبة : الإقلاع عن الذنب ، والندم على ما مضى ، والعزم

على ألا يعود إليه ، ورد الحقوق إلى أهلها ، والاستقامة على صراط الله المستقيم .

(١) صحيح مسلم . كتاب الذكر والدعاء . باب استحباب الاستغفار ج ٤ ص ٢٠٧٥ .

(٢٢٨)

- ٤ -

معنى الآيتين

تأمر الآيتان المؤمنين والمؤمنات بغض البصر ، والبعد عن الزنا ودواعيه ، والالتزام بما أحل الله ، وما حرم في هذا الأمر ، لتحقيق طهارة المجتمع ، وتحقيق العفة بين الناس .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الأمر بغض البصر

وعدم خضوع المرأة بالقول

أخطر ما يصيب المجتمع تفلت الأخلاق ، وبعدها عن الصواب ، وبخاصة بين الشباب .

إن الشباب أهم عناصر المجتمع ، فهم القوة بين الناس ، وهم قادة المستقبل ، وهم أصحاب الفكر الناثر ، والحركة المتوهجة .

ولذلك تهتم الأمم بشبابها ، وتربيتهم على الخلق الحسن ، والأدب السليم وتدفعهم إلى العمل الصالح ، وتبعدهم عن كل ما يسئ إلى خلقهم ، وسلوكهم ولما كان أخطر ما يصيب الشباب هو إشغاله بمسائل تضيع فكره ، وتدفعه إلى توافه الأمور ، وتصرفه عن المعالي .

إن صرف الشباب إلى الاهتمام ببعض الألعاب الرياضية ، وإلى إشباع حياته بالأغاني الهابطة ، والاختلاط المثير ، والتزين ، واللباس ، والاختلاط وتيسير الفحشاء ، والخمر ، والمخدرات كل هذا يؤدي إلى سقوط الشباب في هاوية لا ينفع فيها الشاب نفسه ، ولا أهله ، ولا أمته .

إن المخططات الصهيونية تعمل على إلهاء الشباب ، واشغالهم بالشهوات ، وصرفهم عن العمل الجاد لرفعه الإسلام ، ونهضة الأمة .

إن الأفلام الهابطة ، والأغاني الخليعة ، وصناعة الجمال ، ومسابقات الرقص والعري والخلاعة صناعة مأكرة ، دبرت لها البروتوكولات ، وأشاعها أعداء الإسلام في أمة الإسلام .

ولذلك كانت عظمة الإسلام وهو يأمر بغض النظر حتى لا ينظر الشاب إلى ما حرم الله عليه ، ويربط هذا الأمر بثلاثة أمور ... هي :

الأمر الأول : بيان أن غض البصر هو طريق النماء الخير ، وسبيل الصعود في مدارج الرقى ، فهو أزكى لكم ، وأطهر ، وأقوم ، وأفضل ، ويكفى أن نعلم الفرق بين شاب شغله ذكر الله ، وطاعته ، وشاب آخر أفتتن بالنساء يكلمهم ، ويجالسهم ، ويسمر معهم .

الأمر الثاني : الإخبار بأن الله مطلع على أعمال الناس ، وهو عليم بما يصنعون مهما تستروا ، وتخفوا .

الأمر الثالث : عدم إبداء الزينة أمام الآخرين ، وعدم الاختلاط بين الرجال والنساء تجنباً للوقوع في المعاصي .

وعلى الدعاة :

الاهتمام بهذا الجانب الحيوى ، والعمل على نشر الفضائل الأخلاقية بين الناس .

الركيزة الثانية

تنظيم العلاقات الاجتماعية

داخل الأسرة

يشرع الإسلام للواقع بما يحسنه ، ويحافظ على صلاحه واستقامته ، ولذلك لما أمر بغض البصر ، وعدم إبداء الزينة أمام الأجانب لاحظ العلاقة

(٢٣٠)

بين أفراد الأسرة الواحدة فأباح لهم الاختلاط ، وعدم التحرج من التعامل فيما بينهم لأن كلا منهم يحافظ على الآخرين ، ويصون أعراضهم فهو عرضه وشرفه .

وتأمر الآية المؤمنين بأن يتوبوا عن أى خطأ وقعوا فيه لينالوا الفوز والفلاح .

الدعوة إلى النكاح

يقول الله تعالى :

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٣٠﴾ وَلَيْسَتَعَفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۗ وَءَاتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَىٰ الْبِغَاءِ ۚ إِنْ أَرَدْتُمْ تَحْصُنَا لَنَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَنْ يُكْرِهْنَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٣٢﴾ ۝ ١ ٠

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيتان السابقتان إحدى طرق العفة وصيانة الأعراض جاءت هذه الآيات بطريقة أخرى وهى الزواج .

(٢٣١)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أهمية الزواج وفوائده النفسية والاجتماعية ، وتوضح ان الله أنزل آيات بينات تنظم لكم جميع ما تحتاجون إليه .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾

أى زوجوا من لا زوج له من الرجال والنساء ، والخطاب للرجال فهم الأولياء ، والأمر بالنكاح يكون بتسهيله ، وتيسيره أمام كل بالغ وبالغة .
والأياى جمع أيم ، ويراد به كل ما لا زوج له من رجل أو امرأة ، والأمر في الآية يفيد الاستحباب والندب لإجماع السلف على ذلك ، فيستحب لمن تأقت نفسه إلى النكاح ، ووجد أهفته أن يتزوج ، وان لم يجد أهفته يكسر شهوته بالصوم .

عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء" (١) .

والباءة هى النكاح ، ويكنى به عن الجماع أيضا ، والوجاء بكسر الواو رض الأنثيين ، وهو نوع من الخشاء شبه الصوم في قطعه شهوة النكاح بالوجاء الذي يقطع النسل .

وعن معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ : "تزوجوا الودود الولود فإنني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة" (٢) .

(١) صحيح مسلم . كتاب الحج . باب استحباب النكاح لمن تأقت نفسه ج ٢ ص ١٠١٨ .

(٢) السنن الصغرى للبيهقى . كتاب النكاح . باب الترغيب في النكاح ج ٣ ص ١٠ .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : "الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة"^(١) .

وتحث الآية على تيسير الزواج لمن لا زوج له ، وللصالحين من الأحرار والعبيد ليستقر حالهم ، ويكونوا المجتمع الصالح .

والتيسير يكون بتقليل المهور ، وإيجاد السكن ، واختيار الجهاز البسيط يقول النبي ﷺ : "إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة"^(٢) .

﴿ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى لا يصح أن يكون الفقر مانعا من الزواج ، لأن الزواج سبب للغنى ، والله يعطى عباده من فضله .
﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى والله واسع في عطائه ، عليم بكافة أحوال عباده ، فيمدهم ويرزقهم بما يناسبهم .

﴿ وَلَيْسَتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾
اللام لام الأمر دخلت على الفعل المضارع لتفيد استمرار وجوب العفة على الذين لا يجدون مؤنة النكاح من مهر ونفقة ومسكن حتى يكفيهم الله مؤونه النكاح ، ويرزقهم من فضله ونعمه .

وأسباب الاستعفاف عديدة منها ، ضبط النفس ، والصيام ، والاشتغال بالذكر والعبادة وتلاوة القرآن الكريم .

﴿ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ أى والذين يرغبون من إيمانكم في مكاتبتهم على مال

(١) المعجم الكبير للطبراني ج ١٣ ص ٢٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد ج ٤١ ص ٢٣٦ .

يلتزمون به لينالوا حريتهم ، ويتمكنوا من النكاح فكانتوبهم ، وتعاقدوا معهم إن ظهرت لكم نواياهم ، وعلمتم مقاصدهم من الكتابة .

﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَكُمْ﴾ أى أعطوهم من أموالكم التى أعطاكم الله لتعينوهم . فالمال مال الله ، وقد خلفكم عليه فأطيعوه فيما أمركم به ... وقد جعل الله إعطاء المال للإماء مصرفا من مصارف الزكاة ، وهم المكاتبون . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْنَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ط فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾^(١) .

﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ المراد بالفتيات هنا الإماء ، وكان السادة يتخذون البغى لمال ينالونه من ورائهم ، فنهى الله عن إكراههن على ذلك .

﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ مبالغة فى النهى والتأني فإن النهى شامل للفتيات إن أردن التحصين أو لم يردنه .

﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى لا تكرهوا الفتيات على البغى لتريحا أموالا ، فهو حرام لا يجوز .

﴿وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى ومن يكره الفتيات من السادة فإن العقوبة على السادة ويغفر الله للفتيات المكروهات .

(١) سورة التوبة ، الآية ٦٠ .

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أى أنزلنا لكم فيما نأمركم به ، ونحثكم عليه ثلاثة براهين :

الأول : تنزيل الآيات البينات ، وفيها دلالة على ما شرعة الله تعالى لصيانة الأعراض ، ونشر العفة ، والبعد عن الفاحشة ، وعدم إكراه الإمام عليها .

الثانى : إظهار أمثلة واعية من الأمم السابقة لناخذ منها العظة والعبرة ونستفيد بها فى حياتنا الاجتماعية .

الثالث : إظهار المواعظ الطيبة التى يستفيد بها المؤمنون المتقون ، وبهذه البراهين الثلاثة يعرف المؤمنون مشروعية الزواج ، والإقبال عليه لمن يستطيعه .

- ٤ -

معنى الآيات

تأمر الآيات الأيامى والصالحين من الأحرار والإماء بالنكاح ، وتأمر السادة والقادة بتيسيره لهم ، وتؤكد عدم خوف الفقر لأن هو الرزاق ، يعطى من يشاء ، ويوسع لمن يشاء ، وتأمر الذين لا يجدون ما لا إن يستعفوا حتى يغنيهم الله تعالى من فضله وعطائه ، ومن يرغب من الإمام فى المكاتب فكاتبوهم إن علمتم فيهم رغبة فى نكاح مشروع ، وأتوهم من مال الزكاة فهو حقهم ، ويجب أن ينتهى المسلمون عن عادات الجاهلية فى إكراه الفتيات على البغاء .

(٢٣٥)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

تيسير أمر الزواج

شرع الله الزواج ، ودعا إليه ، لصيانة الأعراض ، واكثار المجتمع ،
وتأسيس أمة صالحة عن طريق تأسيس الأسرة ، اللبنة الأولى للمجتمع .

وقد وجهت الآيات إلى تيسير الزواج ، وذلك بما يلي :

(١) تشجيع من لا زوج له ليتزوج ولا يخاف الفقر ، لأن الله جعل الزواج سببا
للغنى ، وأن الله بفضله يغنى من يتزوج ويتعفف .

(٢) مساعدة العبيد ليتحرروا ويتزوجوا ، وذلك يكون بمكاتبتهم ، واعطائهم من
أموال الزكاة معونة لهم على الزواج ما كانوا صالحين .

(٣) عدم إكراه النساء على البغاء للحصول على أموال يحصلونها من البغاء
لأن الإثم على من يكره ، ولا إثم على من بكره .

(٤) ضرورة الاعتبار بالأمم السابقة ، ومعرفة عوامل التقدم أو التخلف
ليستفيدوا بها .

إن تيسير الزواج أمر مشروع يصون طهارة المجتمع ، ويحقق للشباب ما
يرغبون ، ويجعله طريقا إلى الجنة .

(٢٣٦)

نور الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ مِثْلُ نُورِهِ ۖ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۚ
الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۚ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ
زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۖ نُورٌ عَلَى نُورٍ ۚ
يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ۝﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما ينت الآية السابقة أن الله أنزل آيات بينات جاءت هذه الآية لبيان أن
الله مدبر السموات والأرض ، وقد نور الوجود بالآيات التي بثها فيه الهادية إلى
الحق ، والدالة على وحدانيته سبحانه وتعالى وصفاته المقدسة .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الله هادي أهل السموات والأرض لما خلقوا له ، وهو مدبر
شئون الكون ، وكل خلقه شاهد على وجوده ، ورحمته .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ﴾ النور ضد الظلام ، وهو الذي
يوضح السبيل للأبصار فترى الأشياء ، وتميز بينها ، ويطلق النور مجازا على
كل أمر يميز الحق ، ويدعو إليه ، ويكشف الباطل وينفر الناس منه ، ومن

ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾^(١) ... وقوله سبحانه :
﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾^(٢) كما يطلق النور مجازا
على التدبير المحكم ، والتوجيه الدقيق .

والنور يكون حسيا ومعنويا ، ويسمى به الضوء المزيل للظلام ، كما
يسمى به الأحكام الدقيق ، والتدبير المتقن ، والرعاية المنظمة للخلق كله .

وعلى ذلك فمعنى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أن
الله مدبر الوجود ، ومنشئه ، وخالقه على نظام معين ، وابداع عظيم يجعل
سائر المخلوقات مترابطة فى منظومة متكاملة ، تتحرك فى إطار تعمير الكون
والحفاظة على حيوية الوجود ، وتنظيم الحياة لكل موجود ، وربط كل موجود
بسائر الموجودات التى تمثل الحياة الدنيا فى نور وبيان .

فالنجوم والكواكب والشمس والقمر فى علياء السماء ترسل نورها ،
وضوءها لتفيد كل ما فى الأرض من إنسان ، وحيوان ، ونبات ، وجماد ،
وتسير المخلوقات فى مسار متوازن فالماء العذب ، والهواء العليل ، والنبات
النامى والشجر الظليل ، والحب والثمر ، والحيوان والطير ، والحشرات والهوام
... وكل الوجود يجد ما يحتاجه بلا تعب ولا عناء ، ويعطى ما لديه بتلقائية
واستمرار .

إن دقة التدبير تظهر فى كل مخلوق دق أو عظم ، وتجعله يقوم بدوره
الذى هداه الله له بقدرته ، ونوره بلا تقصير أو اضطراب .

(١) سورة النساء ، الآية ١٧٤ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ١٥ .

﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۚ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۚ

الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ هذا مثل ضربه الله لنوره وهدايته ، و "المشكاة" هي الكوة في البيت وهي نافذة صغيرة في جدار البيت مفتوحة من خارج البيت ، ومن داخله .

والمصباح هو القنديل الموضوع في زجاجة صافية صفاء واضحا ومثلثا تظهر ما بداخلها فتبدو الزجاجة كأنه ﴿ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ متألق بنور ، يوقد بزيت شجرة مباركة هي شجرة الزيتون التي باركها الله تعالى .

﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أى أن هذه الشجرة هي شجرة الزيتون ، وقد استمر نور زيتها بلا انقطاع ، لأنها موضوعة في مكان وسط بين الشرق والغرب ، فتأخذ نورها منهما معا بلا انقطاع .

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ أى أن زيتها صاف لا كدرة فيه ، ولا عكارة ، وبذلك يتجمع نور الشمس شرقا أو غربا مع نور القنديل الموقد المتوهج بزيت الزيتون الصافي الموضوع في المشكاة .

﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ أى ينتشر النور في البيت لأن له مصدرين ، نور الشمس الذي يأتي من الخارج ، ونور المصباح المتلألئ الوهاج ، وبذلك يستمر النور ليلا ونهارا .

﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ أى يهدي الله لنوره من يشاء ويوفقه للصواب والخير ، ويعرفه مسالك الخير ، وسبل السلام .

أى يوفق الله من يشاء من عباده لإصابة الحق بالنظر ، والتدبير ، وتوجيه الفكر لسلوك طريق الجادة ، ومن لم يتدبر فهو كالأعمى الذى لا يرى النور الساطع ، ويستوى أمامه جناح الليل الدامس ، وضحوه النهار الشامس .

عن علي عليه السلام : "الله نور السماوات والأرض ، نشر فيهما الحق وبثه ، فأضاءه بنوره" (١) .

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ أى ويسوق الله الأمثال للناس فى

تضاعيف هدايتهم بحسب ما تدعو إليه حالهم ، لما فيها من الفوائد فى النصيح والإرشاد ، إذ بهذه الأمثال تتفتق الأذهان للوصول إلى الحق ، وبها تأنس النفس بتصويرها المعاني بصور المحسوسات التي تألفها وتدين بها ، ولأمر ما كثر فى القرآن الكريم ضرب الأمثال ، فقلما ساق القرآن الكريم حجاجا ، أو أقام دليلا إلا أرفده بالمثل ، ليكون أدعى إلى الإقناع ، وأرجى للاقتناع .

﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى يعلم الله كل شئ عن عباده ، ويوفق كل

إنسان لما يحبه له ، ويرضاه منه .

إن هذا التمثيل قابل لتفريق عناصر التشبيه في جميع أجزاء ركني التمثيل بأن يكون كل جزء من أجزاء الهيئة المشبهة مشابها لجزء من الهيئة المشبه بها ، وذلك أعلى التمثيل .

فالمشكاة يشبهها ما فى الإرشاد الإلهي من انضباط اليقين ، واحاطة الدلالة بالمدلولات دون تردد ولا انثلام . وحفظ المصباح من الانطفاء يشبهه ما يحيط بالقرآن فقد حفظه الله بقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ حَافِظُونَ ﴾ (٢) ... وهداية الإسلام تشبه المصباح فى التبصير والإيضاح ، وتبين الحقائق من ذلك الإرشاد ... وسلامة الإسلام من أن يطرقه الشك واللبس يشبه الزجاجاة فى

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٧٧ .

(٢) سور الحجر ، الآية ٩ .

تجلية حال ما تحتوي عليه كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ﴾^(١) .

والوحي الذي أبلغ الله به حقائق الديانة من القرآن والسنة يشبه الشجرة المباركة التي تعطي ثمرة يستخرج منها دلائل الإرشاد ... وسماحة الإسلام وانتقاء الحرج عنه يشبه توسط الشجرة بين طرفي الأفق فهو وسط بين الشدة المحرجة وبين اللين المفرط ... ودوام ذلك الإرشاد وتجده يشبه الإيقاد ... وتعليم النبي ﷺ أمته ببيان القرآن وتشريع الأحكام يشبه الزيت الصافي الذي حصلت به البصيرة ، وهو مع ذلك بين قريب التناول يكاد لا يحتاج إلى بيان وتفسير ... وانتصاب النبي عليه الصلاة والسلام للتعليم يشبه مس النار للسراج وهذا يومئ إلى استمرار هذا الإرشاد ... كما أن قوله تعالى : ﴿ مِنْ شَجَرَةٍ ﴾ يومئ إلى الحاجة إلى اجتهاد علماء الدين في استخراج إرشاده على مرور الأزمنة لأن استخراج الزيت من ثمر الشجرة يتوقف على اعتصار الثمرة وهو الاستنباط^(٢) .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله هادى الخلق ، ومدبر شئونهم ، ورازقهم ، ومصرف الكون كله لخدمة الناس ، ومثل تدبير الله المحكم كمثل مصباح زجاجي امتلأ زيتا صافيا ، من شجرة مباركة ، وأن هذا المصباح ينير دائما . والمشكاة تتوسط الشرق والغرب لا ينقطع الضوء منها ، ولذلك يتكاثف بقدرة الله تعالى

(١) سور النور ، الآية ٣٤ .

(٢) التحرير والتتوير ج ١٨ ص ٢٤٣ .

حيث نور المشكاة ، ونور المصباح ، ونور الزيت ، وبذلك تظهر هداية الله العليم الخبير .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

دور المساجد في الهداية

الله خالق كل مخلوق ، وهو هادية إلى ما خلق له ، وهو معلم الخير في كل جوانب الحياة .

وقد بينت الآية تعدد جوانب الهداية حيث تراها كثيرة متكاثرة ، نراها في الحركة والسكون ، ونجدها في الموت والحياة ، ونلمسها في كل شئ .
إن إعجاز الخلق في الكون شاهد على قدرة الله ووحدانيته ، ومن تأمل أى جانب في المخلوقات يؤمن بالله تعالى .

يقول الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۖ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأُنْبِئْنَا فِيهَا كُلَّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۖ تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۖ ۝﴾^(١) .

إن الواجب على العاقل أن يؤمن بالخلق وصانعه ، ويستفيد بالنظر إلى خلقه المعجز ، وكونه العظيم .

(١) سورة ق ، الآيات ٨ . ٦ .

(٢٤٢)

الركيزة الثانية

ضرب الأمثال فى الدعوة

نور الله هدايته ، ودينه ، وقد ضرب الله له مثلاً بمصباح زجاجى مملوء زيتاً صافياً ، ووضع فى كوة ، بجدار البيت بين المشرق والمغرب ، وبذلك يتكاثر الفوز حيث نور الضوء من المشكاة ، ونور المصباح الموقد ، ونور الزيت الصافى المتلئى .

وضرب الأمثال أسلوب بيانى بليغ يبسط المعنى ، ويقرب البعيد ، ويشرح الغامض أمام الناس ، ولذلك عد من أحسن أساليب الدعوة إلى الله تعالى .
إن نور الله هو هديه ، وتصريفه للحياة ، وتسييرها وفق علم وحكمة ، وتدبير ، وقد غاب فهم ذلك على بعض الناس فجاء المثل وقدم ما يمكن به العقل من الفهم .

فنور الله يماثل المصباح المنير ، الذى يوضح للناس الطريق الذى يسيرون فيه ، ولذلك يكثر النور ، ويتضاعف ليصنع فى الحياة هداية واستقامة ، وصلاحاً .

إن المثل فن من فنون الدعوة يجب أن يتقنه الدعاة ، ويستفيدوا بما جاء عنه فى القرآن الكريم .

عمار بيوت الله

يقول الله تعالى :

﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۚ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۚ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما ينت الآية السابقة نور الله لعبادته وهدايته لهم جاءت هذه الآيات لبيان حال من حصلت لهم الهداية ونور الله عليهم وهم في مساجد الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله قدر الرفعة لبيوته في الأرض ، وحبب ذكر الله ، وتسبيحه فيها ، حيث يوجد فيها رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكره سبحانه وتعالى ، وعبادته ، والخوف من الحساب ، والعمل ليوم الجزاء .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ أى يوجد هدى الله ، ونوره في المساجد ، فهى بيوت الله في الأرض ، يقول ابن عباس رضى الله عنهما : المساجد بيوت الله في الأرض ، تضئ لأهل السماء كما تضئ النجوم لأهل الأرض^(١) .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٧٩ .

ويقول عمرو بن ميمون رضي الله عنه : أدركت أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم يقولون :
المساجد بيوت الله ، وحق على الله أن يكرم من زاره فيها^(١) .

﴿ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ ﴾ أى قضى الله بأن تبنى هذه البيوت ، وتعظم
ويقدرها الناس لأنها بيوت الله .

﴿ وَيُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُهُ ﴾ أى يقرأ فيها القرآن الكريم ، ويذكر الله ويحمد
، ويشكر .

﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ أى ينزه المؤمنون ربهم ،
ويسبحونه بالغدو والأصال ، ويحافظون على الصلاة المفروضة حتى تؤدي
صلاة الفجر في الغداة ، وصلاة الظهر ، والعصر ، والعشاءين في الآصال .

﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى يسبح الله في
مساجده رجال مخلصون لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن عبادة الله ، وذكره ولا
يتأثرون بالمؤثرات المادية التي تشعل النار .

﴿ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ لا يمنعهم أمر مادي ، ولا يشغلهم
شئ ما عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

﴿ سَخَّافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ أى أن هؤلاء الرجال
يعبدون الله حق العبادة ، ويطيعون الله في كل ما أمر به ، أو نهى عنه خوفا
من شدة يوم القيامة ، ومن العقاب المعد فيه ، حيث تقلب القلوب والأبصار بين
الهول والفرح والخوف .

(١) شعب الإيمان . كتاب الصلاة . باب فضل المشى إلى المساجد ج ٤ ص ٣٧٨ .

(٢٤٥)

﴿ لِيَجْزِيَهمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ أى هؤلاء الرجال يأملون من طاعتهم الله تعالى أن يجزيهم يوم القيامة أحسن ما عملوا ، ويرفع سائر أعمالهم الطيبة إلى مستوى أحسن الأعمال .

﴿ وَيَزِيدهم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أى ويجازيهم الله على أعمالهم الحسنة ، ويضاعف لهم الحسنات ، ويزيدهم عليها حسنات أخرى .

﴿ وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى أنه سبحانه يعطى عباده ما يشاء بلا حساب ، فهو الله رب العالمين .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المساجد هي بيوت الله ، وقد قضى الله بأن ترفع هذه المساجد ، وأن يذكر الله فيها ، ويعبد ، ففيها رجال مؤمنون لا تشغلهم الدنيا عن عبادة الله تعالى ، لأنهم يخافون ما في يوم القيامة من هول وفرع ، وسوف يجازيهم أحسن الجزاء ، ويرفع أعمالهم الطيبة إلى جزاء أحسن أعمالهم ، ويزيدهم ، والله يرزق من يشاء بغير حساب .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

توضح الآيات ركيزة هامة ... هي :

أهم صفات المؤمنين

بيوت الله في الأرض هي المساجد ، ففيها العبادة ، والطهارة ، والاستقامة يأوى إليها المؤمنون المخلصون .
وتبين الآيات صفات المؤمنين ... وهي :

(١) **التعلق بالمساجد** : المسجد هو مأوى الصالحين ، يأتون إليه خاشعين خاضعين لا يعبدون فيه غير الله تعالى ، ويعيش المؤمنون وهم مقيمون وعاكفون فيه في رعاية الله ورضوانه .

(٢) **مواصلة ذكر الله تعالى** : لا يتوقف المؤمن عن ذكر الله تعالى فهو يذكره في عمله وسكونه ، وفي نومه ويقظته ، وفي عمله وخلقه وأقواله يقول الله تعالى عنهم : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾^(١) .

(٣) **الزهد في الدنيا** : يزهد المؤمنون في أعراض الحياة الدنيا ، فلا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله تعالى بل يذكرون الله في تجارتهم ، وبيعهم وعملهم ، وحركتهم ، وسكوتهم ، لأنهم ينوون بها طاعة الله تعالى ، ويتيقنون من كيانهم كله بين يدي الله تعالى يصرفه كيف يشاء .

(٤) **الخوف من عذاب الله تعالى** : وهو خوف مشوب بحب ، فهم يحبون الله الذي خلقهم ، ويخشون المعاصي حتى لا يردوا بها موارد التهلكة .

(٥) **المحافظة على طاعة الله تعالى** : يحافظ المؤمنون على أداء العبادة التي شرعها الله تعالى من صلاة ، وزكاة ، وحج ، وصوم ويؤدونها فرضاً ونفلاً . يقول الله في الحديث القدسي الذي رواه رسول الله ﷺ : "وما تقرب إلى عبدي بشئ أحب إلي مما افترضت عليه ، وما زال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه"^(٢) .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩١ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب الرقاق . باب التواضع ج ٨ ص ١٠٥ .

تفاهة أعمال الكافرين

يقول الله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ مَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءٌ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ تَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابُهُ ۖ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٦٨﴾ أَوْ كَظُلُمَةٍ فِي بُحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۚ وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٦٩﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة أحوال المؤمنين في الدنيا ، وفوزهم بنعيم الآخرة جاءت هذه الآيات لبيان أحوال الكفار في الدنيا ، ومصيرهم في الآخرة .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن أعمال الكافرين لا قيمة لها في الدنيا ولا في الآخرة ، فهي في الآخرة سراب وظلمات ، وفي الدنيا ضلال ومنكرات .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ تتحدث الآيتان عن أحوال الكافرين في الدنيا ، وفي الآخرة وتضرب لحالتيهما مثلين .

أما مثلهم في الآخرة فهي أن ﴿ أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ تَحْسَبُهُ
الْظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ أى أن أعمالهم فى الدنيا
لا قيمة لها فى الآخرة ، فهي تشبه السراب فى الأرض المنخفضة الذى يراه من
اشتد به العطش فى هجير النهار فيحسبه ماء فيطلبه ، ويظن أنه قد حصل
على ما يبغي حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، وهكذا عمل الكافر فى الدنيا فهو
يحسب أن أعمالهم نافعة منجية لهم من عذاب الآخرة إلا أنها لن تنفعهم فى
الآخرة ، ولم تغنهم من عذاب الله تعالى .

﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ ﴾ أى أن الكافر فى الآخرة لا يجد
نفعاً فى عمله ، وإنما يجد الله يحاسبه على كفره وضلاله ، ويلقيه فى مصيره
ومثواه .

﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أى أن الله يحاسب الجميع فى الحشر لا يشغله
حساب عن حساب ، وهو على كل شئ قدير .
هذه هى حالتهم فى الآخرة حيث تضيع أعمالهم هباء .

أما مثلهم فى الدنيا ، يقول الله عنها : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ
يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ أى ومثل أعمالهم التى
عملت على غير هدى مثل ظلمات مترادفة ، فى بحر عميق ماؤه ، بعيد غوره
، يغطيه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحب ، فالظلمات هى أعمال
الكافرين ، والبحر اللجى قلوبهم التى غمرها الجهل ، وتغشيتها الحيرة والضلالة
، فلا تعقل ما فى السكون من آيات ، ولا تسمع عظة الناصحين ، ولا تبصر
حجج الله ، فتلك ظلمات بعضها فوق بعض .

قال الحسن : الكافر له ظلمات ثلاث : ظلمة الاعتقاد ، وظلمة القول ، وظلمة العمل ، وقال ابن عباس : هي ظلمة قلبه ، وبصره ، وسمعه .
والخلاصة : إن الكافر لشدة إصراره على كفره تراكمت عليه الضلالات ، حتى إن أظهر الدلالات إذا ذكرت عنده لا يفهمها ، فقلبه مظلم في صدر مظلم ، في جسد مظلم^(١) .

﴿ ظَلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ أى ما تقدم ذكره ظلمات متراكمة متلاصقة تزداد بمجموعها ظلاما ، فإن البحر يكون مظلم القعر جدا بسبب غور الماء ، فإذا ترادفت الأمواج ازدادت الظلمة ، فإذا كان فوق الماء سحاب يغطى النجوم ويحجب أنوارها بلغت الظلمة حدا عظيما .

﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرْنَهَا ﴾ أى إذا أخرج الناظر يده ، وهى أقرب ما يرى إليه ، لم يقرب أن يراها فضلا عن أن يراها بسبب الظلام المتراكم .

﴿ وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ أى ومن لم يرزقه الله إيمانا وهدى من الضلالة فما له هداية من أحد .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن أحوال الكفار فى الدنيا ضلال وخسران ، وفى الآخرة عذاب وجحيم لأنهم ساروا فى طريق الظالمين وعارضوا الرسول ، وكفروا بالله تعالى فنزلت عليهم لعنة الله والناس أجمعين .

(١) تفسير المراغى ج ١٨ ص ١١٣ .

(٢٥٠)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

لا قيمة لعمل الكافرين

تبين الآيات أن أساس العمل هو الإيمان ، ولذلك قبل الله العمل الصالح بإيمان صاحبه ... أما الكافرون فإن عملهم لا قيمة له لأنه عمل لا جذور له لا يخرج ثمرا ، ولا تدوم له حياة .

إن الله خلق الإنسان ، وأرسل الرسل إلى الناس ليدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وتوحيده وحده ، وتعريفهم أن العمل يقوم على الإيمان ، وأن الباطن دعامة الظاهر ، وأن من لم يجمع بينهما ، فقد ضيع عمله ، وأبعده عن الإخلاص ، ومراقبة الله تعالى ... ولم يبق مع صاحبه إلا حب الذات ، والعمل لمجد شخصي ، ودنيا زائلة ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ۖ ﴾^(١) .

وهذا أمر لا بد من التنبيه عليه ليحرص العقلاء على الجمع بين الإيمان والعمل الصالح ، والمؤمن الصادق يجمع بين الاعتقاد والعمل .

وتلك قضية محورية لأن انفصام حياة المسلمين عن عقيدتهم أمر خطير والوقوع فيه وقوع في النفاق ، وذلك أمر لا يجوز . يقول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿١٠٠﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا

(١) سورة الفرقان ، الآية ٢٣ .

مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥١﴾... والأمل فى الدعاة أن يبذلوا الجهد لزرع الإيمان فى القلوب ، وإيجاد التوافق بين الظاهر والباطن ، وتحقيق وحدة العقيدة والسلوك .

الركيزة الثانية روعة المثل فى الدلالة

تقدم الآيتان مثلين لتصوير أحوال الكفار فى الدنيا والآخرة ، حتى صارت حالتها واضحة بيّنة .

أما صورة حالتهم فى الدنيا فهم يعيشون فى ضلال فكرى ، وعملى ، كمن يعيش فى ماء تحيطه ظلمات متراكمة ، بعضها فوق بعض ، وبذلك يبعد عن الهداية بعدا تاما .

وتؤكد الآيات هذه الصورة بأن الظلمات كثيرة بعضها فوق بعض حتى أنه إذا نظر إلى يده لا يراها من شدة الظلام ، ولذلك لا يرى الكافر خيرا ، ولا يدرك صوابا .

أما حالة الكافر فى الآخرة فهو لا يرى أثرا لعمله ، وما تصوره خيرا لا وجود له ، ويكتشف أن كل عمله سراب ظنه ماء يشربه عند العطش ، وعند الحاجة لا يجد شيئا .

هذا هو الكافر فى الدنيا والآخرة ، وقد بين الله حاله وضرب له المثل ليتذكر أولوا الألباب .

إن على العقلاء أن يتأملوا هذين المثلين الواقعيين ، ويتدبروهما ليستفيدوا بهما فى الدنيا والآخرة .

(٢٥٢)

آيات الله في خلقه

بعد أن بينت الآيات السابقة الدالة على أحوال المؤمنين والكافرين في الدنيا وفي الآخرة جاءت هذه الآيات للدلالة على وجود الله ووحدانيته ، وتنبت كافة صفاته وكمالاته كما يدل عليه كل خلقه ، وقد عرضت الآيات من الآية رقم (٤١) إلى الآية رقم (٤٦) براهينها واحدة بعد الأخرى ، واني أوضحها فيما يلي :

- أولا -

آيات تسبيح المخلوقات لله

يقول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآية أن كل المخلوقات تسبح لله تعالى ، وكذا الطير في صفوفها المنتظمة ، وهي تطير تسبح بحمد الله تعالى .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ؟ ... الهمزة للاستفهام الإنكارى ، والإنكار يفيد النفي ، فلما دخلت اللام على "لم" النافية دلت على الإثبات لأن نفي النفي إثبات .

والمعنى قد رأيت يا محمد أن الله يسبح له من في السموات والأرض ،
تقدسه ، وتخضع له ، وتدل على ما سيقى له من حيث إثبات أن الله إله واحد
و ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١) وأن الثبات على الصور التى خلقت لها تأكيد
على خضوعها لله تعالى .

والكائنات المخلوقة لا عقل لكثير منها إلا أنها فى مسارها وحركتها ،
والتزامها بما خلقت له تشير إلى صيرورتها كأنها عاقلة ، ولذلك عبرت الآية
عن كافة المخلوقات فى السماء ، وفى الأرض بـ "من" .
وعبرت الآية باسم الموصول الخاص العقلاء ، وهو "من" للدلالة على أن
كل مخلوق قد هدى لما خلق له كأنه يعرفه ، ويعقله .

﴿وَالطَّيْرُ صَفَّتْ﴾ أى أن الطير وهى مصفوفة فى جو السماء أثناء
طيرانها ، ووقوفها فى فضاء فسيح تدل على قدرة الله تعالى فهو الذى خلقها ،
وهو الذى ألهمها ورزقها ، وجعل الطير فى الهواء خاصية لها .
﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أى كل المخلوقات قد علم الله
خضوعها لقدرته ، وتسليمها لمراده سبحانه وتعالى ، فهى كلها تصلى وتخضع
، وتسبح ، وتطيع .
وحين ينظر الإنسان إلى حركة سائر الكائنات يرى فيها القدرة المعجزة لله
رب العالمين .

من يتأمل سيرى النحلة ، وبيتها ، وطيرانها ، واخراجها العسل وغيره
ليكون شفاء للناس .

(١) سورة الشورى ، الآية ١١ .

(٢٥٤)

وسيرى العنكبوت وبيته العجيب .
وسيرى فى كل خلق الله آيات لأولى الألباب .
إن فى دقائق هذا الكون ، وعجائبه ، وتعدد صوره ، وأشكال المخلوقات
فيه أعظم دليل على قدرة الله العظيم .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ أى يعلم الله كل شئون خلقه ، وكل
عملهم منذ الأزل لا تخفى عليه خافية فى الأرض وفى السماء .

- ٣ -

ملخص الآية

تبين الآية أن كل من فى السموات ومن فى الأرض يسبح له ، ويسبح له
الطير السابحة فى الهواء ، وهو سبحانه عليم بكل خلقه وأعمالهم وخضوعهم
وتسليمهم له سبحانه وتعالى .

- ثانيا -

الله مالك كل المخلوقات

يقول الله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الله مالك كل شئ ملكية مطلقة ، والكل راجع إليه سبحانه
وتعالى .

(٢٥٥)

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى أن الملك المطلق لله تعالى ،
فله سبحانه السلطان على كل شئ ، يتصرف فيه كما يشاء ويريد ، لا راد لأمره
ولا معقب لحكمه . فهو الذى خلقه ، وسواه ، وهواه .
والآية تدل على اختصاص الله بالسلطان الكامل على عباده ، وذلك
بتقديم الجار والمجرور ، ويكون المعنى أن الله وحده السلطان الكامل في الأرض
وفى السماء ، وهو الله رب العالمين .
﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أى أن المآل والنهاية والرجوع إلى الله للحساب
والجزاء .

- ٣ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله مالك كل شئ ، وكل الخلق راجع إليه للحساب والجزاء .

(٢٥٦)

- ثالثا -

آية تكوين المطر وانزاله على الأرض

يقول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى
الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ
بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿١٢﴾ ۝

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآية أن تكوين السحاب ، وجمعه الماء ، وانزاله إلى الأرض ليستفيد
به أناس دون غيرهم دليل على وجود الله ، وعلى وحدانيه ، وسائر كمالاته
سبحانه وتعالى .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى دخل على

النفى لإثبات وتأکید أن الله يزجي سحابا أى يسوقه برفق وسهولة .
والرؤية هنا علمية بصيرية ، لأن العين لا ترى دقة حركة السحاب بما
فيه من بخار الماء الصاعد من الأرض ، إلا أن العلماء يدركون ذلك بأبحاثهم
، ومعاملهم ، وتجاربهم .

﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أى يسير السحاب بذرات الماء في لين ورفق حتى
تلتقى وتتكاثر ، وتتجمع .

﴿ ثُمَّ سَجَّعْنَاهُ رُكَّامًا ﴾ أى يتجمع الماء في السحاب حتى يصير كتلا متجمدة .

﴿ فَفَرَى الْوَدْقَ تَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ والودق هو المطر وحيات الماء المتجمد وهو ينزل إلى الأرض خارجا من الركام المكثف في طبقات الجو العليا .
﴿ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ أى وينزل المطر من السماء ، حيث جبال الماء الموجودة في السحاب ، ولذلك ينزل الماء قطعا تلجية صغيرة هى البرد .

و ﴿ مِنْ ﴾ الأولى لابتداء الغاية لأن نزول المطر يبدأ من السماء .

و ﴿ مِنْ ﴾ الثانية للتبغيض لأن المطر النازل جزء من جبل الماء في السحاب .

و ﴿ مِنْ ﴾ الثالثة للجنس لأن الجبال من جنس البرد وهو الماء المكثف .

﴿ فَيَصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى ينزل البرد على من يشاء من عباده في الأرض فيكون ضارا كالسيول ، والغيث المدمر ، وقد يكون خيرا فيروى الزرع ، ويطفىئ الظمأ ، ويملا الأرض بالخير ويعتدل المناخ والهواء .

﴿ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ويبعده عن من يشاء فيناله الخير بأن يأتيه

نهرا يجرى ، وغيونا تتبع ، أو يناله الضر ويكون الجفاف والقحط .

﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴾ أى أن المطر يأتى غالبا

مصاحبا للرعذ والبرق يكاد ضوء برقه ، ووهج نوره يقضى على البصر ، ويذهب به .

(٢٥٨)

- ٣ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله سبحانه وتعالى يسوق السحاب بقدرته ، ويجمع فيه البخار الصاعد إلى العلا ، ويكون منه جبالا متراكمة ، يخرج منها البرد ، فينزل المطر على من يشاء ، ويصرفه عن من يشاء ، ويجعله مصاحبا للبرق الذى يكاد أن يأخذ الأبصار .

- رابعا -

آية تقليب الليل والنهار

يقول الله تعالى :

﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآية آية الله تعالى في إيجاد الليل والنهار وتقليبهما .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ خلق الله الليل والنهار وسخرهما في فلكين

متتابعين حيث جعل الليل للراحة والسكون ، وجعل النهار للحركة والعمل ، ولم يضعهما في قالب واحد لا يتغير ، وانما قلبهما رحمة بالناس ، وتحقيقا لمصلحتهم .

ومظاهر تقليب الليل والنهار عديدة منها :

(١) أن الله يوالى بينهما في مسار واحد متتابع يتكرر كل يوم . يقول الله تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾^(١) .

وتتجلى قيمة هذه النعمة فى تصور لم يرده الله للناس حين سألهم فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَضِيءٌ^ط أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ ﴿٧٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ^ط أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿٧٤﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٧٥﴾^(٢) .

(٢) يقلب الله الليل والنهار طولاً وقصراً فيطول النهار فى الصيف ، ويقصر فى الشتاء .

(٣) تتقلب درجة الحرارة فى الليل والنهار بصورة منتظمة ، أو مفاجئة .
﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أى أن فى تقليب الليل والنهار عبرة وعظة لأصحاب العقول السليمة ، وأهل النظر المستقيم .

(١) سورة يس ، الآية ٤٠ .

(٢) سورة القصص ، الآيات ٧١ . ٧٣

(٢٦٠)

- ٣ -

معنى الآية

تبين الآية احدى آيات الله تعالى في الليل والنهار لما فيها من دلالة على وجود الله تعالى ، ووحدانيته ، وكمالاته .

- خامسا -

آية تنوع الخلق مع اتحاد المادة

يقول الله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآية قدرة الله في إيجاد الخلق وانشائه . فقد أوجدهم من عناصر واحدة ، ومع ذلك تنوعوا في الخلق صورة ، وفهما ، وعملا ، وغاية .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ ﴾ الدابة تشمل كل ما يدب على وجه الأرض من كائنات حية ، فقد خلقها الله جميعا من عناصر مشتركة هي التراب والماء ... وقد ذكرت الآية الماء دون غيره ، لأن الكائنات تحتاج إليه بعد إيجادها فلا يستغنى عنه إنسان ، أو حيوان ، أو طير ، أو زرع ، أو شجر .

ومع ذلك فقد تنوع الخلق في صورهم ، وهيئاتهم ، وطرق حركتهم ومعاملاتهم .

﴿ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ ﴾ كالحيات والسمك وغيرها من الزواحف ، وسمى حركتها مشيا مع كونها تزحف زحفا ، إشارة إلى كمال القدرة ، وأنها مع عدم وجود آلة المشى تمشى وتتحرك ، وتنزلق كأن لها أرجلا تمشى عليها .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ﴾ كالإنسان والطيور .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ﴾ كالأنعام والوحوش .

ولم يذكر سبحانه ما يمشى على أكثر من ذلك كالعناكب وغيرها من الحشرات ، لدخوله في قوله : ﴿ تَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر مع الاختلاف في الصور والأعضاء ، والحركات والطبائع ، والقوى والأفاعيل .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى إن الله على إحداث ذلك وخلقه وخلق ما يشاء من الأشياء . لذو قدرة فلا يتعذر عليه شئ أرادته .

وعلى الجملة فاختلاف هذه الحيوانات في الأعضاء والقوى ، ومقادير الأبدان والأعمال والأخلاق . لابد أن يكون بتدبير مدبر حكيم ، مطلع على أحوالها وأسرار خلقها ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء تعالى الله عما يقول الجاحدون علوا كبيرا .

(٢٦٢)

- ٣ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله خلق كل ما يتحرك على ظهر الأرض من عنصرى التراب والماء ، ومع وحدة الأصل غاير الله صورهم ، وعملهم ، وسيرهم ، وحجمهم ، وفهمهم وذلك مثبت لوحداية الله وقدرته وكمالاته .

الغاية من الآيات المذكورة

يقول الله تعالى :

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ۖ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الله خلق الآيات المذكورة ، وبينها للناس لتكون طريق إرشاد وهداية ، ودليلا على معرفة الله تعالى ، واستقامة على صراط الله المستقيم .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ أى أنزلنا إليك يا محمد في وحيانا إليك آيات واضحة ، وبراهين مقنعة ، وحججا ظاهرة فيما خلقنا وأوجدنا ، ومنها ما سبق قوله ، وقد جعلناها مكتوبة في القرآن الكريم تتلى إلى يوم القيامة لتبقى نورا لأولى الأبواب ، وطريقا مستقيما لأصحاب الفطرة السليمة ، تهديهم للحق ، وتبعدهم عن الضلال والمعاصي .

﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ والله رحيم بعباده يهدي

من يشاء إلى صراط الله المستقيم واتباع دينه الحنيف .

(٢٦٣)

- ٣ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله أنزل في القرآن الكريم آيات بينات ، وعرف أثناءها بآياته في الكون والحياة ، وجعلها سبيلا لهداية المؤمنين لدين الله تعالى .



ركائز الدعوة

في الآيات المذكورة

تناولت الآيات من رقم (٤١) إلى رقم (٤٦) عددا من آيات الله الكونية والإنسانية متضمنة عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان الآيات الكبرى في الحياة

رحم الله الإنسان ، وأكرمه ، وفضله على كثير من خلقه ، وسخر له الوجود كله ، وأرسل إليه الرسل لإرشاده إلى الصراط المستقيم .
وفى هذه الآيات بين الله بعض الآيات الكونية الدالة على وجود الله ، ووحدانيته ، ووجوب العبادة له وحده سبحانه وتعالى .
وهذه الآيات تدور حول الإنسان ، وتتصل به ، ويمكن إجمالها في الموضوعات التالية :

(١) بيان ملكية الله للوجود كله :

تبين الآيات أن الله مالك لكل ما في السموات والأرض ، وهذه قضية بدهية لأن الصانع يملك ما يصنعه ، والخالق يتحكم في كل ما يخلقه ، والله خالق كل شئ ، ولذلك شملت ملكيته الوجود كله .

(٢٦٤)

(٢) خضوع الكون لله تعالى :

الكون كله خاضع لله تعالى على كيفية عديدة ، والله يعلم خضوع كل الكائنات ، وتسبيحها ، وصلاتها ، وهو بكل شئ عليم .

(٣) خلق كل شئ من ماء :

هذا الكون المخلوق كله أوجده الله تعالى من ماء ، وطين ، ومع ذلك تنوع عملهم ، وسيرهم ، وفهمهم ، ودورهم في هذه الحياة .

(٤) إنزال الماء من السحاب :

أنزل الله من السماء مطرا على الأرض بعد أن كونه من بخار الماء الصاعد وأنزله على من يشاء من عباده .
ومع المطر يظهر البرق الذى يكاد أن يخطف ضوءه الأبصار .

(٥) حركة الليل والنهار :

يعيش الناس عمرهم في ليل ونهار لتحقيق الراحة والسكون ، والعمل والنوم .

كل هذه الآيات بثها الله في كونه ، وأبرزها في آيات القرآن الكريم لتكون نورا وهداية للمؤمنين .

الركيزة الثانية

أهمية البيان في الدعوة

بينت الآيات حججها وبراهينها مفصلة واضحة لإقناع العقول والأفهام ، وهدايتها إلى الصراط المستقيم .

وهذا يعرفنا بضرورة البيان في الدعوة ليكون الإيمان بعد ذلك عن بينة .

وعلى الدعاة :

أن يهتموا ببيان الدعوة للناس ، ومناقشة تساؤلاتهم والرد عليها بما يفيد .

بعض صفات المنافقين العملية

يقول الله تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [١] وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [٢] وَإِنْ يَكُنْ هُمْ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ [٣] أَفَى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ آرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْجِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ رَّ بُّ أُولَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ ﴾ [٤] .

- ١ -

صلة الآية ما قبلها

لما بينت الآيات السابقة بعض آيات الله الكونية الدالة على الإيمان والهداية جاءت هذه الآيات لبيان صفات المنافقين ، وتوضيح أنهم لم يستفيدوا بآيات الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أهم صفات المنافقين ، وكذبهم ، واعراضهم عن طاعة الله تعالى

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تتحدث الآيات عن صفات المنافقين العملية ... وهى :

(١) مخالفة باطنهم لقولهم :

يقول الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ

يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ أى هؤلاء المنافقين يعلنون ، ويقولون ، ويؤكدون أنهم

(٢٦٦)

يؤمنون بالله تعالى ، وأنهم يؤمنون برسول الله ﷺ ويصدقون بكل ما بلغهم به الرسول عن الله ، ويدعون طاعتهم لله ورسوله ، لأن الطاعة هي دليل صدقهم فيما قالوا ، ثم يخالفون ذلك في عملهم وسلوكهم فيبتلون عنه ، ولا يرضون بحكمه .

ومع أن الذين يعرضون عن الإيمان بعض المنافقين فقد عدهم الله جميعا في صنف واحد لرضاهم بما فعل هذا الفريق .

و ﴿ ثُمَّ ﴾ تفيد البعد الرتبى لبيان ما بين قولهم وطاعتهم من بعد .

﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ اسم الإشارة لقولهم أى أنهم خالفوا بعد أن قالوا .

﴿ وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى أن هؤلاء ليسوا مؤمنين ، لأن المؤمن

يطابق عمله قوله ، ويتساوى ظاهره العملى مع باطنه الاعتقادى .

والظاهر أن هذه المخالفة ظهرت من بعض المنافقين فحكم الله عليهم جميعا لعلمه سبحانه وتعالى أنهم جميعا صنف واحد كما سبق بيانه .

(٢) عدم الرضا بحكم الله تعالى :

يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا

فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرَضُونَ ﴾ أى وإذا دعوا إلى حكم الله ، يفصل بينهم بالحق

يعرضون عن ذلك ، ويرضون حكم الطاغوت .

وقد شملت الآية نفرا من المنافقين حلت بهم خصومة فأبوا حكم الله قبل

أن يحكم عليهم ، أو بعدما حكم عليهم ، ورغبوا في حكم غير الله .

وما أشبه المسلمين في هذا العصر بهذه الصفة فقد ارتضوا حكم غير الله في أوطانهم ، ورفضوا حكم الله تعالى ، وذلك أمر ظاهر في أغلب بلاد المسلمين .

(٣) الأنانية وحب الذات :

يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أى أن المنافقين إذا تأكدوا أن الحكم سيكون لصالحهم أتوا إليه ، ورضوا به جريا وراء مصلحتهم ، وهذا خلق المنافقين إذا أعطوا منها رضوا وإذا لم يعطوا إذا هم يسخطون .

ثم تبين الآيات سبب تعمق هذه الصفات فى المنافقين فيقول الله تعالى : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ آرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ تَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ عَ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ؟ ... الاستفهامات في الآية للإنكار من أجل توبيخ هؤلاء المنافقين ، وإنكار واقعهم ، وبيان أن أى سبب يتمسكون به جريمة وخطيئة .

﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ ؟ ... نعم في قلوبهم مرض النفاق وهو أشد من المرض الحسى لأنه يعمى القلوب والنفوس ، وهذا أخطر ما عند المنافقين لأن كل أقوالهم وأعمالهم تترتب على فساد قلوبهم ، ومرضها .

﴿ أَمْ آرْتَابُوا ﴾ ؟ ... نعم إنهم يشكون في حقائق الدين ، وأصل الإيمان فقد عطلوا حواسهم ، وسودوا قلوبهم ، وضلوا عقولهم فصاروا أضل من الحيوان الأعجم ، وأسوأ من الأنعام والبهائم .

﴿ أَمْ تَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ ؟ ... نعم فهم يظنون

أنفسهم فوق الناس ، وأنهم لا يخضعون للعدل الذى يسويهم بالضعفاء .

﴿ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى هم كل ذلك وأكثر فيضرب الله

عن هذه الدوافع ويبين السبب الأكبر ، وهو أنهم ظلموا أنفسهم ، وكفروا بالله واملأوا قلوبهم بعبادة الطاغوت ، وقد بين الله ضلالهم العقدى فأشار إليهم بـ ﴿ أُولَئِكَ ﴾ لبيان بعدهم عن الإيمان ، وجعل خبر اسم الإشارة جملة اسمية

﴿ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ لتوضيح استمرارهم على الظلم ، واختصاصهم به .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أهم صفات المنافقين العملية فهم يقولون آمنا بالله وبالرسول واطعنا وبعد قولهم لا يفعلون ، ويتولون عن الإيمان معرضين ، ولا يرضون حكم الله تعالى ، فهم أنانيون يجرون وراء ما يرغبون ولو كانوا معتدين ... وسبب ذلك مرض قلوبهم ، وعدم إيمانهم ، وتصورهم جور الله ورسوله بهم وكفرهم بالله ورسوله .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

توضح الآيات ركيزة هامة ... هي :

صفات المنافقين

تتحدث الآيات عن صفات المنافقين العملية ... وهي :

(١) ادعاء الإيمان :

يكثر المنافقون القول بالإيمان ، وقلوبهم خالية منه ... ويدعون أنهم يطيعون

(٢٦٩)

الله ورسوله إلا أنهم كاذبون ، ودليل ذلك أن طائفة منهم يعرضون عن الطاعة ولم يأخذ الآخرون على أيديهم ، وبذلك كانوا جميعا غير مؤمنين .
(٢) الأثانية :

يسارع المنافق إلى ما يراه صالحا له ، ويعلن عنده الاستقامة والطاعة زورا وكذبا .
(٣) الفساد الشامل :

المنافقون فسدت قلوبهم ، وعقولهم ، وتصوراتهم فاستحقوا ما هم فيه .
(٤) الكفر الخفى :

والحق أن المنافق مشرك بالله ظالم لنفسه .
ومن خطورة المنافقين أنهم يعيشون بين المؤمنين ، ويظهرون الإيمان ، وهم يحاولون هدم الدين ، ومحاربة المسلمين ، ويمتد خطر المنافقين حين ينتشرون في عمق الدولة ، وبصير لهم دور في صناعة القرارات الهامة .
والواجب على الدعاة العمل على كشف المنافقين في مواقعهم والحذر منهم .

(٢٧٠)

صفات المؤمنين العملية

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٧٠﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قلبيهما

لما بينت الآيات السابقة أهم صفات المنافقين العملية جاءت هاتان الآيتان بأهم صفات المؤمنين العملية .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أهم صفات المؤمنين العملية وهى المسارعة إلى الطاعة وتقوى الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ ﴾ "إنما" أداة حصر تفيد حصر معنى المسند في المسند إليه .

و ﴿كَانَ﴾ تدل على الاستمرار . والمعنى أن المؤمنين إذا دعوا إلى حكم الله ورسوله أسرعوا إليه ، وتمسكوا به ، وأطاعوه ، وأعلنوا طاعتهم بالقول والعمل .

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى وهؤلاء المؤمنون بهذه الصفة فازوا في الدنيا وفى الآخرة .

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾
هذا الآية تأكيد للآية الأولى ، وهى جملة شرطية يتكون الشرط فيها من ثلاثة أمور هى :

(١) طاعة الله ، ورسوله ، بامتلاء القلب بالطاعة . بحيث يخضع صاحبه له ظاهرا وباطنا ، ويخضع قلبه مع خضوع كل جوارحه ، وهذا هو الجزء الأول الذى يمثل الخط المستقيم الذى يبتدىء بالطاعة ، وامتلاء القلب بحب الله ، ثم ينتقل من الطاعة الخاضعة الخائفة إلى خشية الله تعالى ، إذ يعلم ذاته وصفاته ، ويمتلئ بهيبته وطاعته ، وذلك معنى قوله تعالى :
﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾

(٢) الخشية من الله تعالى ، وهى الخوف من الله والخوف من عذابه ، ولذا قال الله تعالى : ﴿وَخَشِيَ اللَّهَ﴾ .

(٣) تقوى الله تعالى ، والتقوى جعل وقاية بين الشخص وعذاب الله تعالى ، وهى عبارة عن طاعة الله تعالى حبا لذاته ، وطمعا فى جنته ، وخوفا من عذابه ، وذلك هو المراد من قوله تعالى : ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ .

(٢٧٢)

هذه أجزاء فعل الشرط ، أما الجزء ، فهو قوله تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ وقد دخلت الفاء على الجزء لأنه جملة اسمية ، والإشارة إلى المتصفين بهذه الصفات الجليلة المبينة هي سبب الفوز .
والآيات تفيد قصر الفوز عليهم ، وذلك بتعريف الطرفين والفصل بينهما بـ ﴿ هُمُ ﴾ لبيان حصر الفوز فيهم ، وقد أكد سبحانه وتعالى فوزهم بالجملة الاسمية ، وعرفهم باسم الإشارة "أولئك" الدال على علو منزلتهم ، ورفعة مقامهم ... ولم تحدد الآية مواطن الفوز ، وجوانبه ، ووقته ليذهب العقل فيه كل مذهب ، ويرى عموم هذا الفوز ووجوده في أحوال الدنيا ، ونعيم الآخرة .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن المؤمنين هم عباد الله المخلصون ، وهم الذين يسارعون إلى طاعة الله ورسوله ، وخشيته ، وتقواه ، وهم أصحاب المقام العالى ، الفائزون بالخيرات فى الدنيا وفى الآخرة .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هي :

المؤمن عبد مطيع لله تعالى

المؤمن عبد مخلص ، يؤمن بالله ، ويطيعه ، ويسارع إلى الاستقامة ، واتباع منهج الله القويم ، وتتلاقى أقوالهم مع عقيدتهم ، وعملهم فكانوا من الفائزين المفلحين .

من صفات المنافقين القولية

يقول الله تعالى :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ أُمِرَ بِهِمْ لَيَخْرُجُنَّ ۚ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَّعْرُوفَةً ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٧﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ۚ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٨﴾﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قلبيهما

لما بينت الآيات السابقة صفات المنافقين العملية جاءت هذه الآيات لبيان صفاتهم القولية .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن المنافقين يقسمون ويؤكدون على طاعة رسول الله والخروج معه للجهاد ، وهم فى قسمهم كاذبون لأن الله عليم بهم ، وقد بين لهم أن عليهم أن يطيعوا الله ورسوله إصلاحاً لأنفسهم ، ولأن طاعتهم أو إعراضهم لن يضر رسول الله فى شئ ، وقد أدى الرسول ما وجب عليه ، وهو البلاغ المبين ، وأن تطيعوه تهتدوا .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ أُمِرَ بِهِمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ أى أن المنافقين أتوا رسول الله ، وبذلوا أقصى الجهد ، وأقسموا له بالله أنهم سيطيعون أمر رسول الله إذا أمرهم بالخروج للجهاد ... وهذه المبالغة فى القسم على الطاعة إشارة

إلى عدم صدقهم ، وكانت مبالغتهم لستر ضلالهم ، وبخاصة أنهم كانوا فى مرحلة الكلام ، والخداع به يسير عندهم .

﴿ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَّعْرُوفَةً ﴾ أى قل لهم يا محمد لا تقسموا لأن

الله يعلم مدى طاعتكم فأيمانكم فاجرة ، وطاعتكم غير صادقة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى أن الله عليم بأحوالكم وأعمالكم

ماضيا ، وحاضرا ، ومستقلا ، وسيحاسبكم عليها فاتركوا الحلف فإنه لا يفيدكم شيئا وعلم الله شامل لحقيقة أقوالكم وأعمالكم .

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أى قل لهم يا محمد الحق

وعرفهم دعوة الله ، ومرهم بطاعة الله ورسوله قولاً وعملاً .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾ أى فإن

اعرضوا عن الدعوة فليعلموا أن الرسول مسئول عن الأمانة التى حملها وهى تبليغ الناس الدعوة على وجهها ، وعليكم أيها المنافقون ما تحملتهم مسئوليته وهو الطاعة فإن اعرضتم فعليكم الإثم .

﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ أى وإن تطيعوا رسول الله يهتدكم الله إلى

صراط الله المستقيم ، وينجيكم من العذاب الأليم .

﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ الْمُبِينِ ﴾ أى وليس على الرسول إلا

تبليغ الإسلام ، وإيصاله للناس واضحا ، بينا ، صافيا .

(٢٧٥)

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن المنافقين أقسموا لرسول الله جهدهم أنهم سيخرجون معه للجهاد ، فأمرهم الله بعدم القسم لأن علمه لا يقف عند قولهم فهو سبحانه خبير بكل شأن ، ويأمر الله رسوله بتبليغ الإسلام ، وحث الناس على الطاعة ، وكل إنسان مسئول عن عمله بعد البلاغ المبين .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هي :

عدم الاغترار بظاهر المنافقين

توضح الآيات أن ظاهر المنافقين ، وظاهر أقوالهم يتضمن وعودا كثيرة وعلى المسلمين أن لا يغتروا بها ، لأن الإيمان قول وعمل ، وباطن وظاهر ، والله خبير بكل شيء .

والدعاة مسئولون عن دعوتهم إلى الله ، وتبليغهم دين الله تعالى ، وتعريفهم أن كل إنسان مسئول عن نفسه ، وأن الفوز الحق هو في الهداية وطاعة الله ورسوله .

وما على الرسول إلا البلاغ المبين .

تمكين المؤمنين فى الأرض

يقول الله تعالى :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٥٦﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٥٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٢٥٨﴾ ۝ ﴾

- ١ -

سبب النزول

مكث النبى ﷺ بمكة بعد الوحي عشر سنين مع أصحابه ، وقد أمرهم بالصبر على أذى الكفار فكانوا يصبحون ، ويمسون ، خائفين ، ثم أمروا بالهجرة إلى المدينة ، وأمروا بالقتال ، وهم على خوفهم ، لا يفارق أحد منهم سلاحه ، فقال رجل منهم : أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ، ونضع السلاح فأنزل الله هذه الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن من أطاع الله فقد اهتدى ، ومن اهتدى فقد هدى إلى صراط مستقيم جاءت هذه الآيات تبشر المؤمنين بالتمكين فى الأرض ، وتأمرهم بالاستمرار فى طاعة الله تعالى .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٨٥ .

(٢٧٧)

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله تعالى سيخلف المؤمنين في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وسيمكن لهم دينهم ، ويحقق لهم الأمن بعد الخوف ، وتأمير الآيات المؤمنين باستمرار طاعة الله تعالى لنيل رحمته ، والثقة في أن الكافرين لن تكون لهم الغلبة ، ومأواهم جهنم وبئس المصير .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى وعد الله تعالى عباده الصادقين الذين آمنوا بالله تعالى ، وعملوا الصالحات في الأقوال والأعمال ، وعدهم أن يورثهم أرض الكافرين والمشركين ، وليمكن لهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم .

وقد وفى سبحانه بوعده ، فإنه لم يمت عليه الصلاة والسلام حتى فتح الله عليه مكة ، وخيبر ، والبحرين ، وسائر جزيرة العرب وبعض أطراف الشام ، وصالح مجوس هجر ، وهاداه هرقل ملك الروم ، والمقوقس في مصر ، والنجاشي ملك الحبشة .

ولما قبض ﷺ إلى الرفيق الأعلى قام بالأمر من بعده الخلفاء الراشدون فنهجوا منهجه ، وافتتحو كثيرا من المشرق والمغرب ، ومزقوا ملك الأكاسرة والقيصرية ، وصدق قول رسوله : "إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيلغ ملك أمتى ما زوى لى منها" .

والاستخلاف فى كلام الله تعالى يعنى أن يؤمن أهل البلاد المفتوحة بعد أن يسقط المجاهدون الطواغيت الظالمة ، وبذلك يتحول أهل البلاد المفتوحة إلى دين الله تعالى ، ويستخلف دين الله تعالى ضلالات المشركين والكافرين كما حصل مع أقباط مصر فإنهم دخلوا فى الإسلام ، وصارت مصر إسلامية .

﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ أى وليجعلن دين الإسلام

راسخا قويا ، ثابت القدم ، ويعلو على سائر المذاهب فى أرض الله تعالى .

﴿ وَلَيَبْدِلَنَّهُمْ مِّنْ بَعْدِ حَوَافِهِمْ أَمْنًا ﴾ أى وليغيرن حالهم من الخوف

إلى الأمن .

ونلاحظ أن الله أقسم وأكد على تمكين دين الله فى الأرض واستبدال الأمن بالخوف حتى تصير كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، والله عزيز حكيم .

قال الربيع بن أنس رضى الله عنهما : "كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحو من عشر سنين يدعون إلى الله وحده ، وإلى عبادته وحده لا شريك له وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموها ، فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين ، يمسون فى السلاح ، ويصبحون فى السلاح ، فصبروا على ذلك ما شاء الله .

ثم إن رجلا من الصحابة قال يا رسول الله : أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟

فقال رسول الله ﷺ : لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى المأ العظيم محتبيا ليس فيه حديدة^(١) .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٨٥ .

﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ أى أن هؤلاء المؤمنين يستحقون

كل ما وعدهم الله به ، لأنهم يعبدون الله وحده ، ولا يتخذون معه آلهة أخرى .

ويحث الله المؤمنين أن يستمروا على أسباب التمكين فى الأرض وهى .

﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى ومن كفر بالله

بعد هذا التمكين فهو خارج عن الدين ، مبالغ فى المعصية .

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

أى استمروا فى أداء الصلاة كاملة تامة ، وأعطوا الزكاة لمستحقيها ، وأطيعوا رسول الله ﷺ عسى أن يرحمكم ربكم ، ويغفر لكم .

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى ولا تحسب يا

محمد الكافرين الذين لم يؤمنوا بالله تعالى ناجين من عذاب الله فى الآخرة بالغلب ، أو الافلات .

﴿وَمَا لَهُمْ آلَاءُ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ أى أن الكافرين لن يفلتوا من

العقوبة ، ومصيرهم عذاب الله ، وليس مصيرهم هذا .

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله وعد المؤمنين ليستخلفنهم فى الأرض ، ويمكن لدينهم

ويستبدل خوفهم أمنا ، لأنهم يعبدون الله تعالى وحده ، ولا يشركون معه آلهة

أخرى ، ويقومون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله .

وتبين الآيات لرسول الله ﷺ أن الكافرين لن يغلّبوا الله تعالى ، وسوف

يعاقبهم سبحانه تعالى فمأواهم النار ، وليس المصير مصيرهم .

(٢٨٠)

- ٦ -

ركائز الدعوة فى الآيات

توضح الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

نصر الله للمؤمنين

ينقسم الناس إلى فريقين رئيسيين هما :

فريق المؤمنين وهم الذين آمنوا بالله تعالى ، وصدقوا بكل ما جاء به رسول الله ﷺ فهم عبيد الله حقا ، الذين يحملون أمانة الدين فى الأرض ، ويعملون على نشرها فى العالم كله ... وهؤلاء هم حزب الله تعالى .

وفريق آخر وهم الذين كفروا بالله تعالى ، وأبوا طاعة رسول الله ﷺ وعملوا على إطفاء نور الله فى الأرض .

هذان الفريقان يختلفان فى العمل ، والأمل ، والنشاط ، والسلوك وتجلت رحمة الله بالمؤمنين فأيدهم بنصره ، وأعانهم بتوقيه ، ومكن لدينهم فى أرض الله تعالى .

وحين ننظر فى الآيات ندرك أن النصر الإلهى يتحقق إذا التزم المسلمون بأمرين :

أحدهما : الإيمان التام بالله تعالى إيماننا يسكن القلب ، ويحوله إلى بونقة وهاجه تحرك الجوارح ، وترسم الأخلاق ، وتوجه العبد بكليته إلى الله تعالى .

ثانيهما : العمل الصالح ، وهو الالتزام بما أمر الله به ، وهو كل عمل يحقق المصلحة والخير لصاحبه ولغيره من الناس .

(٢٨١)

وحين يتحقق هذان الأمران فى الحياة الإسلامية تتحول الجماعة المسلمة إلى أمة خيرة تعمل لخير الإنسانية كلها ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتصون الحقوق ، وتحمى البلاد والعباد .

إن الأمة الإسلامية بصلاحها ، وتقواها ، وطاعتها لله تعالى تستحق معونة الله ونصره ، وقد وعدهم الله بهذا النصر المتمثل فى تحقيق ما يلى :

أولاً : الاستخلاف فى الأرض ض ، وذلك بأن يسقط الله حكم الطواغيت عنهم ويهدم الشرك والمشركين ، ويقيم فى الأرض حكم الله تعالى ، يقوم به رجال مؤمنون من أهل البلاد الذين أسلموا ، وصاروا مؤمنين ... وذلك أمر حدث فى السابق فقد نصر الله أتباع الرسل ، وجعلهم خلفاء الأرض .

ثانياً : التمكين لدين الله الذى رضىه للناس ، وذلك بعلو شأنه ، ورسوخ دعائمه ، وتطبيق تعاليمه ... وقد حدث ذلك فى كل بلد فتحه المسلمون .

ثالثاً : تحقيق الأمن للناس ، فقد وعد الله المؤمنين باستبدال الأمن بالخوف وتحول المؤمنون إلى أمة يخافها الأعداء .

إن هذه القضايا عاشها المسلمون يوم أن كانوا على إيمان صادق ، وعمل صالح مستقيم .

ومن هنا ...

ننادى الدعاة لتبليغ هذه الحقائق للناس ، وتعريفهم أن الوصول للنصر والتمكين يكون بالطاعة والاستقامة .

إن وعد الله حق ، وعلى المؤمنين أن يستعدوا لظهوره فيهم .

(٢٨٢)

الركيزة الثانية

طاعة الله طريق السعادة

عرف الله المؤمنين أن طاعة الله تعالى ، وأداء ما فرضه على عباده يؤدي إلى تحقيق رحمة الله تعالى .

وقد حددت الآيات أن قمة الطاعة تتحقق بإقامة الصلاة ، وأدائها على شروطها ، وأركانها ، وخشوعها في القيام والركوع والجلوس ، ويكون ذلك بالقيام بسائر العبادات من زكاة ، صوم ، وحج .

إن العبادة طاعة الله ، وهي طريق الفلاح حين العودة إلى الله تعالى .

الركيزة الثالثة

بيان مصير الكافرين

تبين الآيات أن الكافرين هم أعداء الله في الأرض ، ولذلك سوف يحاسبهم الله ويعاقبهم على سوء أعمالهم .

وعلى الكافرين أن يعلموا سوء مصيرهم ، وأن لا يتوقعوا الإفلات من عذاب الله هرباً أو غلبة ... وأنهم سيعذبون في الآخرة بعذاب أليم ... وبئس المصير .

إن إبراز خيبة الكافرين تفيد الدعوة من ناحيتين :

الناحية الأولى : إرهاب وتخويف لمن يسلك مسلكهم وينجو نحوهم .

الناحية الثانية : دعوة المؤمنين إلى التمسك بما هم عليه .

آداب الاستئذان داخل البيوت

يقول الله تعالى :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذِّنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوَرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفُوتٍ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِذِّنُوا كَمَا اسْتَعِذَّنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَغْفِرْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما نهت الآيات السابقة عن دخول البيوت بغير إذن جاءت هذه الآيات لتنظيم آداب دخول الأقارب والخدم واستئذانهم داخل البيوت .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أهمية استئذان الأطفال المميزين ، والعبيد في أوقات الراحة والاسترخاء المذكورة دون غيرها لأن طبيعة الحياة داخل الأسرة يقضى بهذا

وإذا بلغ الطفل صار أجنبيا يستأذن فى كل حال ، وكبيرة السن لا جناح عليها
إن تخفت من ثيابها وهى فى بيتها .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ هذا

نداء آخر للمؤمنين لأنهم الأسرع إلى تنفيذ حكم الله ، ولذلك خصهم الله بالنداء
مع أن الحكم عام لسائر المسلمين .

وتدل الآية على وجوب حكم ما دعت إليه ، وهو ضرورة أن يستأذن أهل
البيت الواحد من بعضهم حين الدخول عليهم ، وحددت الآيات الطوائف التى
يجب عليهم أن يستأذنوا ، وبينت الأوقات التى يجب الاستئذان فيها ، والطوائف
هى :

(١) ﴿ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ وهم العبيد من الرجال والنساء ، ويلحق بهم

الخدم ، والذين يعملون داخل البيت كالطهارة ، والمربين ، ومن له عمل
داخل البيت .

(٢) ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ﴾ وهم الأطفال المميزون الذين

يمكنهم وصف المرأة ، ويعرفون شيئا عن المثيرات فيها ... وإذا كان هذا
شأن من لم يبلغ الحلم ، فبالأولى لابد من استئذان البالغين .

وأما وقت الاستئذان فهو ﴿ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾ أى يكون الاستئذان فى ثلاثة

أوقات تحبون فيها أن تستتروا ، لأن العورات خلال هذه الأوقات تكون
مكتشوفة عادة ، ولذا لا يصح الدخول على أصحابها فى هذه الأوقات إلا

بعد الاستئذان منهم ، وسمى الوقت باسم ما يحدث فيه لبيان المقصود الأهم وهو ستر العورة ، وهذه الأوقات هي :

(أ) ﴿ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ﴾ لأن هذا الوقت امتداد الليل ، ومظنة ذلك أن يتجرد الإنسان من ثيابه .

(ب) ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ ﴾ أى حين تخلعون ثيابكم لتستريحوا وقت الظهيرة ، وهى القيلولة التى تكون بعد الظهر حين تشتد الحرارة .

(ج) ﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ أى وحين تتجددون من أعمال الدنيا ، وتخلدون للنوم .

﴿ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ ﴾ أى أن هذه الأوقات الثلاث يجب الاستئذان خلالها داخل البيت لأنها مظنة أوقات كشف العورة .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ أى ليس عليكم أيها المؤمنون من ترك الاستئذان فى غير هذه الأوقات الثلاثة ، وسبب ذلك أن العبيد والأطفال ﴿ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أى كل منكم يطوف على غيره بصورة دائمة اقتضتها الخدمة والبنوة .

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى يبين الله فى آيات القرآن الكريم أحكامه التى تصون الطهارة والعفة ، والتعاون ، والسماحة .
عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلين سألاه عن الاستئذان فى العورات الثلاث التى أمر الله بها فى القرآن فقال : إن الله ستر يحب الستر^(١) .

(١) السنن الكبرى للبيهقى . كتاب النكاح . باب الاستئذان ج ٧ ص ١٥٧ .

فإن قيل : دعت الآيات السابقة إلى الاستئناس والاستئذان ، ودعت هذا الآية إلى الاستئذان فقط . فلم ذلك ؟

أقول : لا حاجة لأهل البيت والأقرباء إلى الاستئناس لأنهم يقيمون فى بيت واحد ، وبينهم أنس ، ومودة ... ولذا كان أمرهم بالاستئذان فقط .

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى على من يصل لمرحلة البلوغ ، ويصير رجلاً أن يستأذن على من يدخل عليهم من أقربائه ، وأهله ، فهو بعد البلوغ صار رجلاً اجنبياً ، وعليه أن يستأذن فى جميع الأوقات .

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى

يفصل الله تعالى الحكيم آياته ، وهو عليم بما يصلح عباده ، حكيم فى كل ما يشرع لهم .

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أى وهذا حكم

القواعد من النساء .

والقواعد جمع قاعد بغير تاء وهى المرأة التى انقطع حيضها ، ولا تقدر على العمل لكبرها ، فهى فى أغلب أوقاتها قاعدة ، ومتعبة ، ولا رغبة لها فى النكاح ، ولا رغبة للرجال فيها ، ولهذه المرأة أن تغير ثيابها فى بيتها ، ولا تتبرج ، ولا تتزين ، وللرجال صغاراً وكبيراً من أهلها أن يدخلوا عليها فى وقت الحاجة ، بلا ارتباط بالأوقات الثلاثة المذكورة ... إلا أن العفة والستر خير لهن .

(٢٨٧)

﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعُوا ثِيَابَهُمْ غَيْرَ مُتَبَرِّجِينَ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفُوا خَيْرٌ لَهُمْ ﴾ أى للمرأة القعيدة أن تخفف ثيابها بلا تبرج فى بيتها بلا لوم عليها .

﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى سميع للأقوال عليم بالأعمال والأحوال فاستقيموا على أمره ، واتبعوا هداه .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات الأحوال التى يستأذن فيها العبيد والأطفال المميزون حين الدخول على أهلهم ، وأصحابهم خلال ثلاثة أوقات يستريح فيها الناس ويخلدون للنوم ، وفى ذلك مظنه كشف العورات .
وتبين الآيات أنه لا جناح فى عدم الاستئذان فى غير هذه الأوقات الثلاثة ، وإذا بلغ الأطفال صاروا رجالا ، وعليهم أن يستأذنوا فى سائر الأحوال والأوقات ... والمرأة كبيرة السن ، القعيدة فى ينها لا لوم عليها .
إن خلقت ثيابها كالخمار ونحوه حيث لا إرب للرجال فيها إلا أن العفة خير لهن ، والله اعلم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

تنظيم العلاقات داخل الأسرة

نظم الإسلام العلاقات الاجتماعية بين الناس ، وحدد أدب الاستئناس والاستئذان لمن أراد أن يدخل بيتا من بيوت المسلمين . أما من أراد أن يدخل

بيتا من بيوت ذوى القربى فإن الله يضع لهؤلاء نظاما فى الاستئذان يناسب ما بينهم من علاقة وقربى .

إن العبيد والخدم والصغار الذين يعيشون مع آبائهم وأهلهم ، ويطوف بعضهم على بعض بصورة مستمرة ، لهم منهج خاص بهم ، وهو تحديد ثلاثة أوقات فى اليوم يستأذنون فيها على الآباء وأصحاب الدار ، هذه الأوقات هى الثلاثة المذكورة فى الآية ، وما عدا ذلك لا حاجة إلى الاستئذان لأنهم يدخلون ويخرجون فى أشغالهم ، وأعمالهم .

أما إذا بلغ الأطفال فقد صاروا رجالا ، وعليهم أن يستأذنوا كما يستأذن غيرهم من الرجال الأجانب .

ويلحظ أن المطلوب هو الاستئذان دون الاستئناس لأن الأنس موجود بين أفراد الأسرة فلا حاجة إلى الأمر به .

إن الإسلام يضع أسس الترابط الأسرى الكامل ، ويجعل أفراد الأسرة كأنهم فرد واحد ، لا جناح على أحدهم أن يدخل على قريبه فى غير الأوقات الثلاثة .

وعلى نفس هذه الصورة ننادى بتوحد المجتمع الإسلامى كله على قيم الدين ومناهجه .

وهكذا يتعامل الإسلام مع الواقع ، وينميه ، ويسمو به .

ضرورة التعاون الأسرى

يقول الله تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ أَيْمَانُهُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾ ۝

- ١ -

سبب نزول الآية

يقول ابن عباس : لما أنزل الله قوله : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ بَاءَمْنُوا لَا تَأْكُلُوا

أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ تخرج المسلمون عن مؤكلة المرضى ، والزمنى ، والعمى ، والعرج ، وقالوا : الطعام أفضل الأموال ، وقد نهانا الله عز وجل عن أكل الأموال بالباطل ، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والأعرج لا يتمكن من الجلوس ، ولا يستطيع المزاحمة على الطعام ، والمريض يضعف عن التناول فلا يستوفي من الطعام حقه ، فأنزل الله هذه الآية^(١) لبيان أن لأصحاب الأعذار أن يأكلوا من بيوت أقربائهم بلا لوم ولا حرج .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٨٩ .

(٢٩٠)

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات الساقية آداب دخول البيوت ، واستئذان الأقرباء على ذويهم جاءت هذه الآية لبيان أنه لا حرج على أصحاب الأعذار في ترك الجهاد ولا حرج في التعاون الأسرى ، وأن يأكل القريب من بيت قريبه على نحو ما ذكرت الآية .

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآية أهمية التعاون بين أفراد الأسرة فينبههم شركة معنوية تؤكد المودة والتعاون ، والترابط بين أفرادها .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ ﴾ أى ليس على أصحاب هذه الأصناف الثلاثة إثم في ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم .
﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ أى ولا حرج عليكم أن تأكلوا من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم ، ويشمل ذلك بيوت الأولاد ، لأن بيت الولد بيت لأبيه .

يقول ﷺ : "أنت ومالك لأبيك ، وإن أولادكم من أطيب كسبكم" ^(١) .

ويقول ﷺ : "إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه ، وإن ولده من كسبه" ^(١) .

(١) السنن الكبرى للبيهقي . كتاب النفقات . باب نفقة الأبوين ج ٧ ص ٧٨٩ .

والمراد بالنفس الأقرباء من ذوو القربى مثل الأولاد والزوجة .

وفائدة ذكر قوله : ﴿ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ الإشارة إلى أن الأكل المذكور مع أنه لا حرج فيه لا يخل بقدر من له شأن فهو يأكل من مال من هو كنفسه .
وذكرت الآية هذا الحكم وهو معلوم ، ليعطف عليه غيره فى اللفظ ،
وليساويه ما بعده فى الحكم .

﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ
بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَخَوَلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ ﴾ لما علم بالعادة أن هؤلاء تطيب نفوسهم
بأكل من يدخل عليهم من الأقارب ، لأنه فطرة فى النفوس ينشأ الصغار عليه
ويستمر مع الناس طوال عمرهم .
ويلحظ أن الآية لم تذكر بيوت الأبناء لأنها تعتبر ملكا للأباء يأكلون منه
ويأخذون منه ما يشاءون .

﴿ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ ما ملكتم مفاتحه هو وكيل الرجل ، وقيمه
فى ضيعته وماشيته ، فلا حرج عليه أن يأكل من ثمر الضيعة ، ويشرب من
لبن الماشية ، ولكن لا يحمل ولا يدخر ، وهذا إذا لم يجعل له أجرا على ذلك ،
فإن جعل له أجرا فلا يحل له أكل شئ منها .

﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ أى لا حرج فى الأكل من بيوت أصدقائكم الذين
يصدقونكم بالمودة وتصدقونهم ، هذا إذا علم رضاهم بذلك بالإذن ، أو بشاهد
الحال ، ولا فرق بينهم وبين غيرهم إذا وجد الإذن .

والأكل من بيوت هؤلاء وان لم يحضروا جائز إذا علم رضاهم به بصريح اللفظ أو بالقرينة وان كانت ضعيفة .
وانما خص هؤلاء بالذكر ، لأنهم اعتادوا التبسط فيما بينهم ، والرضا فيهم محقق غالبا .

عن جعفر الصادق عليه السلام من عظم حرمة الصديق أن جعله الله تعالى من الأنس والثقة والانبساط ورفع الحشمة بمنزلة النفس والأب والأخ^(١) .
وقيل لأفلاطون : من أحب إليك : أخوك أم صديقك ؟
فقال : لا أحب أخى إلا إذا كان صديقى ، ولكن أنى هو ؟
وأثر عن هشام بن عبد الملك أنه قال : نلت مانلت حتى الخلافة ، وأعوزنى صديق لا أحتشم منه^(٢) .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ أى لا حرج عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين .
ثم شرع سبحانه ما ينبغى رعايته حين دخول البيوت بعد أن ذكر الرخصة فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى فإذا دخلتم بيتا من هذه البيوت فليسلم بعضكم على بعض .
وفى التعبير عن أهل تلك البيوتات (بأنفسكم) إيماء إلى السبب الذى اقتضى إباحة الأكل من تلك البيوت ، وأنه إنما كان لأن الداخل فيها كأنه داخل بيته ، لما بينهما من قرابة أو نحوها .

(١) الأدب المفرد . باب فضل من دخل بيته بسلام ج ١ ص ٣٧٥ .

(٢) مسند البزار ج ١٤ ص ١٢ .

﴿ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ أى حيوا أهل البيت تحية ثابتة بأمر الله تعالى ، مشروعة من لدنه ، يرجى بها زيادة الخير والثواب ، ويطيب بها قلب المستمع .
عن عطاء رضي الله عنه قال : "إذا دخلت على أهلك فقل : السلام عليكم تحية من عند الله مباركة طيبة" (١) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : أوصانى النبي ﷺ بخمس خصال قال :

"يا أنس أسبغ الوضوء يزد فى عمرك .

وسلم على من لقيك من أمتى تكثر حسناتك .

وإذا دخلت (يعنى بيتك) فسلم على أهل بيتك يكثر خير بيتك .

وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك .

يا أنس ، ارحم الصغير ، ووقر الكبير ، تكن من رفقاء يوم القيامة" (٢) .

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى

هكذا يفصل الله لكم معالم دينكم ، كما فصل لكم فى هذه الآية ما أحل لكم فيها وعرفكم سبيل الدخول على من تدخلون عليه ، لكى تفقهوا أمره ونهيه وأدبه ، وبذا تفوزون بسعادة الدارين ، ويكون لكم المقام المحمود عند ربكم .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية قبول عذر أصحاب الأعذار حين قعودهم عن الجهاد ، وتوضح أنه لا حرج فى التماسك الأسرى ورفع الكلفة بين الأقارب ، وضرورة

(١) مصنف ابن أبى شيبة . كتاب الأدب . باب فى الرجل يدخل منزله ج ٥ ص ٢٥٤ .

(٢) مسند البزار . مسند أبى حمزة أنس بن مالك ج ١٤ ص ١٢ .

(٢٩٤)

المودة والمرحمة بينهم ، وتوضح الآية جواز أن يأكل الرجل من بيت قريبه بلا إذنه إن علم رضاه .

- ٦ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

الوحدة العملية لأفراد الأسرة

تنادى الآية بتوحيد أفراد الأسرة ، وتعينهم على المودة ، والتعاون ، والتراحم ... وتبيح لهم أن يأكل كل منهم من طعام إخوانه كأنه طعامه ، وبيته . وبذلك لا يقف ترابط السرة الواحدة على السلام والاستئذان ، وإنما يتخطى ذلك إلى التعاون المادى ، وحاجات الإنسان الضرورية . ونلاحظ تفاوت القربى من خلال بدء الآية بالآباء والأمهات ثم الإخوة والأخوات ، ثم بالأعمام والعَمات ، ثم بالخالة والحالات ثم بمن يقوم بشئون البيت ثم بالأصدقاء ... وبهذا يكون هناك ترتيب فى استعمال هذا الأدب . إن العلاقة بين الأقارب قائمة على المرحمة ، ولذلك وجب تنمية العلاقات بين الأقرباء لإرضاء الله تعالى .

الإيمان الحق

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة آداب الاستئذان والدخول فيما بينهم جاءت هذه الآيات لبيان آداب الخروج من مجلس رسول الله ﷺ ، وبخاصة إذا كان اجتماعهم لأمر هام مثل التشاور في مكان المواجهة يوم "أحد" أو وقت صلاة الجمعة ... أو غير ذلك ، وتأمّر الآيات الرسول أن يأذن لمن له حاجة .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآيات عدم خروج المؤمنين من مجلس رسول الله ﷺ إلا بإذن منه ، وتدعو رسول الله ﷺ إلى الإذن لمن له حاجة ، وتحذر المسلمين من الخروج بلا إذن ، لأن الله عليم بكل شيء ، وسيحاسب الناس بما عملوا .

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ

عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ أى المؤمنون حق الإيمان هم

الذين صدقوا بالله ، وأطاعوا رسولهم ، واتبعوه ... وإذا كانوا مع رسول الله في لقاء يتشاورون في أمر هام ، يجمع بينهم لا ينصرفون عن رسول الله حتى يستأذِنوه ﷺ .

يقول ﷺ : "إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم ، فإذا أراد أن يقوم ، فليسلم فليست الأولى أحق من الآخرة" (١) .

وكان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة ، وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر ، لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول ﷺ ، بحيث يراه ، فيعرف أنه إنما قام ليستأذن فيأذن لمن شاء منهم .

وقال أهل العلم : وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ، ولا يرجعون عنه إلا بإذن منه وإذا استأذن الإمام إن شاء أذن له وإن شاء لم يأذن فإن حدث سبب يمنعه من المقام في المسجد كحيض ، ونقض وضوء فله أن يخرج بلا استئذان (٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

أى إن الذين يستأذنونك يا محمد حين الخروج من مجلسك هم المؤمنون الصادقون .

(١) سنن أبى داود . كتاب الأدب . باب السلام إذا قام من المجلس ج ٤ ص ٣٥٣ .

(٢) تفسير المراغى ج ١٧ ص ١٣٥ .

﴿ فَإِذَا اسْتَعْدَدْتُكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِّنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ أى إذا استأذنتك يا محمد بعض الحاضرين معك لبعض أمورهم وحاجاتهم فأذن لهم إن علمت حاجتهم للخروج .

﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ واسأل الله أن يغفر لهم فهو سبحانه الغفور الرحيم .

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ أى لا تجعلوا دعاء الرسول لكم أو عليكم كدعوة بعضكم لبعض ، فلا تتساهلوا في الاستئذان منه ، ولا تتأذونه باسمه مجردا كما ينادى بعضكم بعضا .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ أى لا تخرجوا من مجلس رسول الله متسللين فرادى بلا استئذان فالله عليم بكم ، وبكل أعمالكم .
﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى فليتنق الله الذين يخالفون أمر الله ، وأمر رسوله أن يصيبهم بلاء عظيم في الدنيا ، ويلحق بهم عذاب شديد في الآخرة .

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى أن الله مالك الوجود كله ، وهو المنصرف بكل خلقه في السموات أو في الأرض ، وهو العليم يقينا بكل شئ ، وبما أنتم فيه .

﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى وسيرجع الجميع إليه سبحانه وتعالى ، وسوف يحاسبهم على جميع أعمالهم ، وسينبئهم بما تصوره بعيدا غائبا ، وسيجازيهم الله عليه .

(٢٩٨)

﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى والله عليم بكل خلقه ، وسوف يحاسبهم بعدله ، ويجازى كل نفس بما كسبت .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن من صفات المؤمنين أنهم يطيعون رسول الله ﷺ وإذا كانوا معه في اجتماع لا يخرجون منه إلا إذا استأذنوا منه ، والله عليم بمن يتسلل ، ويخرج بلا إذن ، وعلى المؤمنين أن يحذروا أى مخالفة حتى لا يصيبهم بلاء في الدنيا ، وعذاب أليم في الآخرة ، فهو سبحانه مالك الملك وسترجع الخلائق إليه ، وسوف يحاسبهم ويجازيهم والله بكل شئ عليم ، وتحت الآية رسول الله ليأذن لأصحاب الحاجات بالخروج .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ضرورة تقدير رسول الله ﷺ

تأمر الآية بضرورة توقير رسول الله ﷺ ، والإيمان به بشرا أوحى الله إليه ليطاع بإذن الله ، وتبين أن المؤمنين لا يخرجون من مجلس رسول الله ﷺ إلا بعد استئذانه ، وتأمر الرسول أن يأذن لمن استأذنه ، ويستغفر الله لهم . وهكذا يكون الأدب مع رسول الله ، ومع الأئمة من بعده ، يوقرهم من يكون معهم ، ولا يلقي الناس منهم إلا الخير .

الركيزة الثانية

التحذير من مخالفة رسول الله ﷺ

طاعة الرسول من طاعة الله تعالى ، ولذلك وجب على المسلمين أن يوقروه عند ندائه فلا يقولون : يا محمد . يا عبد الله ، ولكن يقولون : يا رسول الله . يا نبي الله في لين وتواضع ... وعليهم أن يحذروا دعوة الرسول عليهم فدعاؤه ﷺ مستجاب ، وليس كدعائهم .

إن توقير رسول الله علامة على حب دين الله ، والاستقامة على هديه ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١) .

إن مخالفة رسول الله ، والهرب من مجلسه يؤدي إلى البلاء في الدنيا ، والعذاب الأليم في الآخرة .

الركيزة الثالثة

دقة الحساب في الآخرة

يعود الناس جميعا إلى الله ليحاسبهم على أعمالهم ، ويجازيهم بما يستحقون ، والعقلاء هم الذين يحذرون ذلك ، فهو سبحانه مالك الملك ، عليم بكل خلقه ، وأعمالهم ، وأقوالهم ، وسيخبرهم بما عملوا وهو يحاسبهم ، ويقر كل بما ينال ، فمن دخل الجنة فقد فاز ، ومن دخل النار فقد خسر وضل ، والعقلاء من يعلمون ذلك ويعدون له عدته .



إلى هنا ينتهي تفسير سورة "النور" بتوفيق الله تعالى .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٥٦ .

(३००)

التعريف
بسورة "الفرقان"

(३.२)

(٣٠٣)

التعريف بسورة "الفرقان"

يحتاج التعريف بسورة "الفرقان" إلى معرفة المباحث التالية :

- أولا -

تنزيلات السورة

سورة "الفرقان" سورة مكية عند الجمهور ، والذي صح عن ابن عباس رضى الله عنهما أن السورة مكية . ففي صحيح البخارى أن القاسم بن أبى بزة رضي الله عنه سأل سعيد بن جبير رضي الله عنه : هل لمن قتل مؤمنا متعمدا من توبة ؟

فقرأت عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ^(١) .

فقال سعيد : قرأتها على ابن عباس كما قرأتها علي .

فقال ابن عباس رضى الله عنهما : هذه آية مكية نسختها آية مدنية نزلت في سورة "النساء" وهى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ ^(٢) وهذا رد على من ذكر أن ابن عباس رضي الله عنه قال : إن آية سورة "الفرقان" مدنية ^(٣) .

وللسورة اسم واحد هو "الفرقان" .. فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة "الفرقان" فى حياة رسول الله ﷺ ^(٤) .

وقد نزلت السورة بعد سورة "يس" ، وعدد آياتها سبع وسبعون آية بلا خلاف .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦٨ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٩٣ .

(٣) التحرير والتنوير ج ١٨ ص ٣١١ .

(٤) صحيح البخارى . كتاب فضائل القرآن . باب أنزل القرآن على سبعة أحرف ج ٦ ص ١٨٤ .

(٣٠٤)

- ثانيا -

صلة سورة "الفرقان" بسورة "النور"

وسورة "الفرقان" متصلة بسورة "النور" من عدة أوجه :

الوجه الأول :

جاء فى آخر سورة "النور" قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ؕ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللّٰهُ ۚ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ (١) ، وفى هذا وجوب متابعة للرسول ﷺ ومدح المتابعين ، وتحذير المخالفين ، وافتتحت سورة "الفرقان" بقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ (٢) ، وفى هذه الآية بيان لتعالیه سبحانه وتعالى عما سواه فى ذاته ، وصفاته وأفعاله ، وكثرة خيره ودوامه ، وأنه أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، اطمأنا فى خيره ، وتحذيرا من عقابه حل وعلا .

الوجه الثانى :

فى السورتين مدح لرسول الله ﷺ . ففى سورة "النور" جاء قوله تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللّٰهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنِ

(١) سورة النور ، ٦٢ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية ١ .

تُصِيبُهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١) ، وفى سورة الفرقان جاء قوله تعالى :
﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ تَبَارَكَ
الَّذِى إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ
لَكَ فُصُورًا ﴿٢﴾ .

الوجه الثالث :

فى سورة "النور" جاء التحذير من عذاب يوم القيامة لقول الله تعالى :
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(٣) ... ويقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ
تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمْ
اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾^(٤) ، ومثل هذا
المعنى جاء فى سورة "الفرقان" . يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا
بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ وَقَدْ مَتَّأ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ
عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ
مَقِيلًا ﴾^(٥) .

(١) سورة النور ، الآية ٦٣ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٩ ، ١٠ .

(٣) سورة النور ، الآية ١٩ .

(٤) سورة النور ، الآية ٢٤ ، ٢٥ .

(٥) سورة الفرقان ، الآيات ٢٢ . ٢٤ .

الوجه الرابع :

بينت سورة "النور" كثيرا من صفات المؤمنين وهى تعرفهم بأداب اللقاء والاستئذان ، وطاعة رسول الله ﷺ ، وحددت سورة "الفرقان" صفات عباد الرحمن ، وهى الصفات التى وضعت أسسها سورة "النور" .

الوجه الخامس :

اختتم الله سبحانه سورة "النور" بكونه مالكا لما فى السموات والأرض مصرفا له ، على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، مع النظام البديع ، والوضع الأنيق ، وأنه سيحاسب عباده يوم القيامة على ما قدموا من العمل خيرا كان أو شرا ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾^(١) ، وافتتح سورة "الفرقان" بما يدل على تعاليه فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وأنه لا شريك له ، ولم يتخذ ولدا . فقال تعالى : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ۝ ﴾^(٢) .

الوجه السادس :

فى كل من السورتين وصف السحاب وانزال الأمطار وإحياء الأرض الجرز فقال تعالى فى سورة "النور" : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ ۗ يَكَادُ سَنَا

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦٤ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٢ .

(٣٠٧)

بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿١﴾ وقال فى سورة "الفرقان" : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ
الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ (٢) .
الوجه السابع :

ذكر الله فى السورتين وصف أعمال الكافرين يوم القيامة وأنها لا تجزيهم
فتيلا ولا قطميرا فقال تعالى فى سورة "النور" : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ
كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ تَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ
عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٣) ، وقال فى سورة "الفرقان" :
﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ (٤) .

الوجه الثامن :

وصفت السورتان النشأة الأولى للإنسان فقال الله فى سورة "النور" :
﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي
عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥) ، وقال سبحانه فى سورة "الفرقان" : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنْ
الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ (٦) .

(١) سورة النور ، الآية ٤٣ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٤٨ .

(٣) سورة النور ، الآية ٣٩ .

(٤) سورة الفرقان ، الآية ٢٣ .

(٥) سورة النور ، الآية ٤٥ .

(٦) سورة الفرقان ، الآية ٥٤ .

(٣٠٨)

- ثالثا -

موضوعات سورة "الفرقان"

تتناول سورة "الفرقان" موضوعات السور المكية . فتعرف الناس بأصول العقيدة ، وتبين للناس ضرورة العبودية ، وطاعة الرسول ، وتعظيم القرآن الكريم ، وفى هذا الإطار تعرض السورة بعض قصص السابقين ، ومكارم الأخلاق فى أسلوب سهل بين .

وللسورة منهج واضح فى عرض قضاياها ، فهى تذكر القضية كما يراها المشركون ، وتورد أدلتهم من أقوالهم . ثم تسقط القضية كلها بإبطال القضية ، ورد الأدلة كلها .

وبعد ذلك تثبت الحق ، والبرهنة عليه من خلال مناقشة الموضوع فى إطاره ، وإيراد القصص القرآنى المثبت للحق ... وبعرض الآيات الإنسانية ، والكونية والقرآنية التى تؤكد الحق والصواب .

وتختتم السورة موضوعاتها ببيان صفات عباد الرحمن التى يعيشون بها سواء كانوا قبل الهجرة أو بعدها .

وهكذا تقدم السورة موضوعاتها مستوفية ، مترابطة .

سورة "الفرقان"

التفسير

(٣١٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عظمة الله تعالى وفضله على عباده

يقول الله تعالى :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآية عظمة الله ، وتعالیه ، وفضله على الناس فقد أرسل محمدا ﷺ نذيرا إلى جميع الإنس والجن .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ بدأت السورة بالفعل

الماضي ﴿ تَبَارَكَ ﴾ على غير عادة العرب في ابتداء كلامهم ، فإنهم لم يبدأوا كلامهم بالفعل الماضي إلا نادرا ، وفي هذه براعة في الاستهلال ، لأن الندرة من العزة ، والعزة في الكلام من محاسن الألفاظ لخلوها من الابتذال ، ولـ ﴿ تَبَارَكَ ﴾ عدة معان تتحقق كلها في نعم الله تعالى ، وتتطق بجلال الله ، وكمال قدرته ، وصفاته ... ومن معانيها :

- ﴿ تَبَارَكَ ﴾ معناها تكاثر خيره سبحانه وتعالى ، فنعمة كثيرة على كل خلقه

يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ ^(١) والعجز عن

إحصاء نعم الله متعلق بأجناس النعم ، وأفرادها ، ولذلك احتاج هذا المعنى إلى تقدير مضاف لفاعله مثل تبارك خير الذي فعل وقدر .

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٣٤ .

- ﴿تَبَارَكَ﴾ أى تزايدت عظمة الله في أسمائه وصفاته عن كل ما عداه .

يقول الله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١) أى أن أسماء الله وصفاته

تزيد عن كل ما عداه . فقد يسمى غيره بهذه المسميات ، ويتصف بهذه الصفات إلا أن شيئاً منها لا يماثل شيئاً من أسماء الله وصفاته .

- ﴿تَبَارَكَ﴾ أى عظم ، وتمجد ، وتعالى في ذاته ، وفى آثار قدرته فهو

سبحانه تجلى بذاته ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾^(٢) وعظم فى فعله ﴿هَذَا

خَلَقَ اللَّهُ فَأَرْوَنِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾^(٣) .

- ﴿تَبَارَكَ﴾ أى دام واستمر منذ الأزل إلى الأبد ، والمعنى أنه سبحانه باق

في ذاته أزلاً وأبداً ، ممتنع عن التغير ، عال في صفاته ، يمتنع عليه التبدل ، والتغيير ، والانقطاع ، وهذا المعنى يشير إلى دوام بركة الله في كل نعمه ، وأفضاله .

وهذا المعانى مترابطة لأنها جميعاً تتصل بذات الله تعالى .

﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ أى تبارك الله الذى نزل الفرقان

على عبده ، والمراد بالفرقان القرآن الكريم لأنه فرق بين الحق والباطل ، وهو الكتاب الذى أنزله الله على عبده محمد ﷺ . ففى هذا القرآن الكريم كل ما تدل عليه كلمة الفرقان من معان .

والفرقان مصدر فرق الشئ عن الشئ إذا فصل بينهما سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر ، أو بفصل تدركه البصيرة .

(١) سورة الشورى ، الآية ١١ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٠٣ .

(٣) سورة لقمان ، الآية ١١ .

(٣١٣)

والتفريق بمعنى الفرقان إلا أنه يدل على التكثير دونه .

وقيل : إن الفرقان يكون في المعاني ، والتفريق يكون في الأجسام .

والمراد بالفرقان القرآن ، وإطلاقه عليه لفصله بين الحق والباطل بما فيه من البيان ، أو بين المحق والمبطل لما فيه من الإعجاز ، أو لكونه مفصولا بعضه عن بعض في نفسه ، أو في الإنزال حيث لم ينزل من السماء دفعة كسائر الكتب .

فإن قيل : لم سمى الرسول في مجال بيان عظمة الله وتعالیه "عبدا" دون أن يسمى بـ "رسول" ؟

أقول : سمى الله محمدا في هذا الموقف الملى بالجلال والكمال عبدا لبيان أن رفعة رسول الله كائنة في عبوديته لله تعالى ، وإظهارا لقربه من سيده ، وتوضيحا لتواصل كلام الله معه ، وبيان أنه من البشر ، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق كما هو شأن الرسل جميعا .

وجملة الصلة في قوله تعالى : ﴿ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾

تعريف لله بأوضح نعمه ، وأعظم فضائله ، فاختيار رسول الله ، وإرساله للناس ، وإنزال الوحي عليه بالقرآن الكريم قمة الفضل الإلهي على الناس ، لأن القرآن الكريم يبين لهم الصراط المستقيم ، ويفرق لهم الحق من الباطل ، ويهدي للتي هي أقوم ، وتؤدي طاعته إلى سعادة الدنيا والآخرة ... وهذا أعظم الفضل .

فإن قيل : جملة الصلة والموصول تكون معلومة للمستمع أو للقارئ ، لأنها تعرفه بما لا يعرفه ، والقرآن لم يكن معلوما ومعروفا حين نزلت الآية في مكة . فكيف ذلك ؟

(٣١٤)

أقول : إنه لما ثبت كون القرآن الكريم من عند الله تعالى ، وثبت إعجازه ، وشهد له العرب ببلوغه أقصى درجات البلاغة والفصاحة أنزله الله منزلة المعلوم للقوم بناء على قوة دليله ، وظهور حججه .

﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ أى أنزل الله القرآن الكريم على عبده محمد ﷺ ليكون نذيرا لعالمى الإنس والجن جميعا ، واكتفت الآية بالإنذار دون التبشير لمراعاة أحوال من نزلت فيهم ، وللإشارة إلى أن سورة "الفرقان" تشتمل على ذكر المعاندين ، الذى يعارضون الوحدانية ، ويكذبون رسول الله ويرون القرآن من أساطير الأولين ، وهذا من براعة الاستهلال ، وتضمنين المقدمة لمضمون الموضوع .

- ٣ -

معنى الآية

تبين الآية عظمة الله ، وكثرة خيرة ، واستمرار فضله على عباده بما أنزل على محمد ﷺ من قرآن يتلى ، ليهدى الجن والإنس إلى صراط الله المستقيم

- ٤ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

بيان عظمة الله تعالى

خلق الله الخلق ، وأكرمهم ، وأنعم عليهم بنعم لا تعد ولا تحصى ، وهى نعم قد تكاثرت خيرها ، وبرز فضلها ، وعلا شأنها ، واستمر عطاؤها بلا توقف ولا انقطاع .

ومن أعظم فضل الله للناس ، وأكبر الخير فيهم إنزال القرآن الكريم على محمد ﷺ ، وحفظه بين العالمين يتلى إلى يوم القيامة ، يعرفهم بالله تعالى

ويؤكد لهم عظمتهم وعلوه ، وكثرة خيره ونعمه ، وتعددتها ، واستمرارها ، ويناديهم ليؤمنوا بالله ربهم ، ويقدم لهم البراهين والحجج على ضرورة الإيمان بالله .
ويقدم القرآن الكريم الإسلام كله ، عقيدة وشريعة وخلقا ، ويبين منهج الإصلاح الفردي والجماعي بأسلوب بين مقبول .

إن القرآن الكريم يعيش مع واقع الإنسان ، ويقدم له من خلال هذا الواقع ما يقنعه ويرضيه ، ويرى العقلاء في القرآن الكريم عظمة الله ، وهو يقدم لهم ما يعجزون عن معرفته وحدهم ، فيعرفهم بالأمم الخوالي ، ويركز على العناصر المفيدة ، ويوضح ملامح النفس الإنسانية على تنوعها ، ويبين طريقة خطاب كل فئة على حدة .

وكما يعيش القرآن الكريم مع الماضي تجده يعيش مع الحاضر ، فيصعد بالعقل إلى السموات العلا وما فيها ، ويتحول في جنبات الأرض وما عليها ، ويعدد الخلائق وعملها ، وكيف ألهمها ما قدر لها .
ويأخذ القرآن الكريم الإنسان إلى المستقبل القريب والبعيد ، وينتقل من الحياة إلى الموت ، ومن الدنيا إلى الآخرة .
وهكذا ...

يشمل القرآن الكريم الإنسان كله فيخاطب عقله ، وعواطفه ، ويشده إلى الخير ، ويدعوه إلى الإيمان ، ويناديه ليحفظ ويحافظ على القرآن الكريم .
وعلى الدعاة :

أن يعلموا أن قضيتهم الأولى بيان عظمة الله في خلقه ، وقدرته الشاملة ، وعلمه المحيط ، لأن المعرفة أساس الإيمان ، ومن آمن بالله أطاعه ، واستقام على هديه العظيم ، ولا يليق بأمة الإسلام أن يجهل أبناؤها دينهم ، وينسوا أنه علم وعمل ، وفهم وتطبيق ، وأن القرآن أساس الدين ، ومنهج العمل .
فتبارك الله رب العالمين .

(٣١٦)

وحدانية الله المطلقة

يقول الله تعالى :

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية عظمة الله المنزل للقرآن الكريم جاءت هذه الآية ببعض الأدلة على وجود الله ، ووحدانيته الموجودة في كونه وخلقه .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الله يملك السموات والأرض ، وأنه واحد لا شريك له ، وأنه لم يتخذ ولدا ، وهو الخالق لكل ما عداه .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تبين الآية أهم الصفات التي يتميز بها الله تعالى ، والتي تبين ألوهيته الواحدة ، واستحقاقه للعبادة وحده ... وهذه الصفات هي :

(١) ملكيته التامة لكل المخلوقات :

يقول الله تعالى : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى هو الذى يملك كل ما في السموات وما في الأرض ملكية حقيقية له وحده سبحانه وتعالى ، وهذه صفة بدهية ، لأن من أوجد الشئ يملكه ، ومن يتمكن من التصرف والتحكم في شئ له أن يتصرف كما يريد .

(٢) إنه سبحانه لا ولد له :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى واحد لا شريك له ، لم يتخذ ولدا أبدا ، وكذب من قال : إن الملائكة بنات الله ، أو قال : عزيز ابن الله ، أو قال : المسيح ابن الله ، لأن اتخاذ الإله للولد يعنى احتياجه لغيره ، وهذا ليس من صفات الله ، كما يجعل الإله قابلا للتحييز والتجزؤ والانقسام ، وهذه أمور مستحيلة على الله تعالى لا يقبلها شرع أو عقل .

(٣) نفى الشريك عن الله :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ أى ليس لله شريك في الألوهية ، فلا إله غيره ، ولا شريك له في ملكه وسلطانه ، ولا يستحق غيره أن يعبد ، وكذب من اتخذوا الأوثان والأصنام آلهة وعبدوها ، وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾^(١) .

(٤) الله هو الخالق :

يقول الله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أى وخلق الله الخلق كله ، دق أو عظم ، صغر أو كبير ، وفق علمه ، واراادته ، وقد خلق الله سائر الخلق على غير مثال سابق ، وجعل لكل نوع صورة وغاية ، وحدد لكل مخلوق مكان حياته ، وعمله ، وأجله .

(٥) التقدير المحكم للمخلوقات :

يقول الله تعالى : ﴿ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ أى أن الله خلق المخلوق كلها بأنواعها ، وأجناسها ، وقدر لكل مخلوق غاية خلقه ، وهياًه للقيام بما خلق له

(١) سورة الزمر ، الآية ٣ .

(٣١٨)

لأن الصانع إذا لم يقدر لمصنوعه غايته ، ويحدد له صورته ، وهيأته ، وعمله قبل صنعه لحدث اضطراب في المصنوع بعد إيجاده .

ومعنى "قدره" هيأه لما يصلح له من الفوائد المترتبة على وجوده ، وعلى هذا فالتقدير غير الخلق ، لأن الخلق هو الإيجاد والإحداث ، والتقدير هو هداية المخلوق لما خلق له ، وتحديد مدة بقائه ، ومصيره بعد موته .

وبالخلق والتقدير معا يوجد المخلوق لغايات معلومة لا تتعارض ، ولا تتفاوت ، ولا تتعدى ما قدر لها .

وقد أحكم الله خلقه ، وهده لغاياته بإتقان محكم ، وتقدير عظيم .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله سبحانه وتعالى إله واحد لا شريك له لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وليس له شريك في سلطانه ، وهو مالك الملك ، وهو الخالق لكل موجود ، وهو الذى قدر لكل مخلوق عمله ، وعمره ، وغايته بصورة دقيقة محكمة .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

المعرفة هي دعامة الإيمان الصحيح

يمتلئ الكون بآيات خالقه ، ومن يتأمل في هذه الآيات ، ويعرفها يعرف الله تعالى ، ويلتزم بما توجبه هذه المعرفة .

إن المعرفة تبدأ بالإنسان نفسه ليعرف العناصر التى تكونه ، وما فيها من دقة واحكام وغاية، وهى عجائب لا يمكن للإنس والجن أن يأتوا بمثل واحد منها

، ولو اجتمعوا له .

لم يتمكن العلماء . وقد حاولوا . أن يوجدوا خلية حية من عدم ميت وكل ما فعلوه هو تكثير عدد من الخلايا من خلية حية موجودة .

ويتحدى الواقع سائر الخلق أن يخلقوا نملة ، أو نحلة ، أو ذبابة ... أو غير ذلك ، وقد تحدى الله عبدة الأصنام أن يخلقوا ذبابة ، أو أن ينفذوا أنفسهم من صنع ذبابة بهم . يقول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْعًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ (١) .

وتستمر الآيات فى أخذ الإنسان إلى سائر المخلوقات لتزيه الله فى آيات الكون القريب والبعيد .

إن سلطان الله مطلق فى ملكه ، والقول بولد أو شريك زعم باطل مردود لا حقيقة فيه .

وانتظام الملك الواسع فى دوائر متوازية ، ومتكاملة تؤدى إلى حياة مستقرة ، ومسار جميل .

وذلك كله من تقدير الله تعالى وحكمته البالغة .

وماذا على الإنسان ؟

على الإنسان أن يفكر بعقله فى المخلوقات ليعرف الخالق ، وينظر فى الوجود ليصل إلى الموجد ، ويتأمل فى نفسه ليؤمن بالله رب العالمين .

(١) سورة الحج ، الآية ٧٣ ، ٧٤ .

وعلى الدعاة :

أن يهتموا بقضية الإيمان بالله تعالى ، ونشر منهجه بين الناس ... وتلك القضية هي أساس الدعوة وأساس عمل الدعاة .

بيان ضلال المشركين

يقول الله تعالى :

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن الله هو المالك الخالق المقدر جاءت هذه الآية لبيان ضلال الكفار وعبداء الأصنام .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن عبدة الأصنام يتخذون مع الله آلهة مصنوعة بأيديهم فهي حادثة بعد عدم ، ولا يمكنها أن تخلق شيئاً ، أو تحقق نفعاً أو ضرراً ، أو أن تتحكم في شئ من أمور الدنيا أو أمور الآخرة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تبين الآية ضلال المشركين ، وتحدد الحقائق التي توضح أن الأصنام التي عبدوها ، واتخذوها آلهة مع الله لا تصلح أن تكون آلهة للأسباب التالية :

(١) ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ أى أن المشركين اتخذوا آلهة مع الله

تعالى بلا سلطان ولا دليل ، وجهلوا أن الله واحد لا شريك له ، وما عدا ذلك فهو زعم باطل مردود لأنه لو كان هناك آلهة غير الله لفسد الكون يقول الله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(١) .

(٢) ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أى أن هذه الأصنام التى

يعبدونها جماد لا يتحرك ، ولا يسمع ، ولا يعقل ، وهم الذين صنعوها وأوجدوها وهم يعلمون أنها لا تستطيع خلق شئ ما ، لأن المصنوع لا يكون صانعا .

(٣) ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أى أن هذه الأصنام عاجزة

عجزا تاما ، لا تستطيع دفع ضرر أو جلب نفع لنفسها ... وإن كان هذا العجز ظاهرا مع نفسها فهو مع غيرها أظهر .

(٤) ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ أى أن هذه الأصنام

التي عبدها المشركون لا تملك شيئا من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة فلا تستطيع التحكم في حياة ، أو موت ، أو بعث ، أو حشر ، أو حساب وجزاء .

وبهذا فإن المشركين قد ضلوا ضلالا بعيدا ، واتخذوا آلهة وعبدها ، مع أن العقل لا يجيز ألوهيتها ، فهي لا تخلق ، ولا تملك ، ولا تستطيع شيئا .

(٣٢٢)

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن المشركين اتخذوا مع الله آلهة أخرى ، وعبدونها مع أن كل البراهين تدل على فساد هذا الفعل ، وتوضح أن الأصنام لا يصح أن تكون آلهة فهي مخلوقة مصنوعة ، ولا يمكنها أن تخلق شيئاً ، ولو قليلاً ... ولا تدفع عن نفسها ضراً ، ولا تجلب نفعاً ولا تتحكم في أى شأن من شئون الدنيا والآخرة

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

لا قيمة للفساد وإن علا صوته

قضى الله تعالى بوجود الخير والشر في المجتمع . يقول الله تعالى :

- ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾^(١) .

- ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا^ط وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾^(٢) وتلك حقائق يؤكدتها الواقع ، ويعيشها الناس .

ومن الحقائق المبشرة أن الباطل لا يدوم ، وأن الفساد لا جذور له ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً^ط وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾^(٣) .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١١٢ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٢٣ .

(٣) سورة الرعد ، الآية ١٧ .

(٣٢٣)

وعلى الدعاة :

أن يجتهدوا في إظهار الخير ، وإثبات صدقه ، والتدليل على ضرورة
اتباعه ، والعمل على نشره بين الناس .
وعليهم أن يبينوا أن الجريمة لا تفيد ، وأن الفساد لن يدوم ، وأن الحق
أحق أن يتبع .
وعليهم أن يعلموا الناس مدى حاجة الفكر إلى تطبيق ، وضرورة العمل
وفق العقيدة واليقين .

رد مزاعم المشركين عن القرآن الكريم

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۖ ﴾ وَقَالُوا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآية السابقة ضلال المشركين في الاعتقاد جاءت هذه الآيات لبيان ضلالهم مع القرآن الكريم ، وترد عليهم إفكهم ، وكذبهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات مزاعم المشركين في القرآن الكريم فهم يقولون عنه : إنه من أساطير الأولين يكتبها محمد بعد سماعها من غيره بكرة وأصيلا ... وترد الآيات هذا الزعم ببيان أن الله هو الذى نزل القرآن الكريم للناس ليؤمنوا به ، وأنه سبحانه وتعالى لن يعاجل الكافرين بالعقوبة عسى أن يخرج الله من ذراريهم من يؤمن بالله ويصدق بالقرآن الكريم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى قال الذين كفروا هذه المقالة وعلى رأسهم النضر بن الحارث فهو الذى الذى تولى كبر هذا القول ، وتبعه المشركون فيه

... وهذا القول هو ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ آفَکْرُهُ﴾ أى هذا القرآن الذى يقرأه محمد كذب مختلق ألفه محمد من قبل نفسه ، وزعم أنه كلام الله تعالى ، وقد أكدوا اتهامهم بصيغة تدل على الحصر المتضمن للنفى ﴿إِنْ﴾ والاستثناء ﴿إِلَّا﴾ وقد رد الله زعم المشركين بالتحدى المعروف في آيات أخرى .

﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ أى ومن قول الكافرين أن من أعان محمدا على هذا الاختلاق الكاذب قوم آخرون ، ليسوا من العرب يريدون بهم اليهود ، ورجال من الموالى وهم جبر مولى عامر ، ويسار غلام ابن الحضرمي وعائش مولى حويطب بن عبد العزى ، وكان هؤلاء الثلاثة عبيدا بمكة ، وكانوا من أهل الكتاب ، فلما أسلموا كانوا يأتون للنبي يتعلمون منه ، ويستعينون بإرشاده ... فقال المشركون هذا القول ، وزعموا أن محمدا ﷺ يأخذ من هؤلاء الثلاثة الأساطير ثم يقول لنا : إنها كلام الله تعالى .

﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أى فقد وضعوا الأشياء فى غير مواضعها وكذبوا على ربهم ، إذ جعلوا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إفكا مفتريا من قبل البشر .

وكيف يتقولون ذلك على الرسول وقد تحداهم أن يأتوا بمثله ، وهم ذوو اللسن والفصاحة والغاية فى البلاغة ، فعجزوا أن يأتوا بمثله ، ولو كان ذلك فى مكنتهم ما ادخروا وسعا فى معارضته ، وقد ركبوا الصعب والذلول ليدحضوا حجته ، ويبطلوا دعوته ، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ولو كان محمد ﷺ قد استعان فى ذلك بغيره لأمكنهم أيضا أن يستعينوا هم بغيرهم ، وبنفس الأشخاص فهم مواليهم .

ولو كان القرآن من تأليف محمد لألفوا مثله فما مثل محمد فى اللغة إلا مثلهم ، فلما لم يفعلوا ثبت أن القرآن قد بلغ الغاية التى لا تجارى ، وانتهى إلى حد الإعجاز .

وقد اشتمل القرآن الكريم فوق البلاغة والفصاحة على الحكم والأحكام التى فيها سعادة البشر فى معاشهم ومعادهم ، كما اشتمل على أخبار من أمور الغيب التى لا تصل إليها مدارك البشر ، ولا عقولهم سواء كان ذلك فى الماضى المتصل بأخبار الأمم السابقة ، أو بالحاضر المرتبط بالمقاصد والنوايا وبحركة الأحياء فى الوجود كله ... أو بالمستقبل فى الدنيا ، أو فى الآخرة .

وقد زعم المشركون طريقة تلقى الرسول للقرآن الكريم ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أى أن القرآن الكريم مجموعة من الأساطير كانت موجودة فى كتب اليهود والفرس ، وأن محمدا طلب كتابتها ، ونسخها ، وقراءتها عليه ليحفظها ، ويدعى أنها القرآن الموحى به ، ولذلك فهى تقرأ عليه صباحا ومساء بعيدا عن الناس .

وقد أمر الله رسوله بالرد عليهم فقال :

﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى قل لهم

يا محمد ، ورد عليهم وعرفهم إن الذى أنزل القرآن الكريم هو الله تعالى ، وقد أودع فيه من الحكم والأسرار ، والأحكام والأخلاق ما لا وجود له فى الأساطير القديمة ، ومأله بالآيات ووجوه الإعجاز العديدة التى ترد الإفك المختلق والأكاذيب المزعومة .

(٣٢٧)

﴿ إِنَّهُمْ كَانَ عُفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى أنه سبحانه يغفر ذنوب عباده ، ويرحمهم ، ويهديهم ، ولن يعاجل بالعقوبة هؤلاء المشركين أملا في إيمانهم ، أو إيمان ذراريهم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المشركين يزعمون أن محمدا ﷺ يختلق القرآن من قبل نفسه ، وأن فريقا من غير العرب يعينه في هذا الاختلاق ، وهذه جرأة كاذبة عبر مقبولة .

وتبين الآيات كذلك دعوى أن القرآن الكريم من أساطير الأولين التى استكتبتها محمد وحفظها ، وقرأها على الناس ، فهى تملأ عليه صباح مساء من أفراد اليهود ، أو من العبيد في مكة .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

عداوة المشركين للقرآن الكريم

يعمل أعداء الإسلام بخبث ودهاء ، ويعملون على هدم الإسلام بهدم دعائمه الرئيسية ، وحين علموا أن القرآن الكريم هو دستور الإسلام ، وهو حقيقته الناطقة حاولوا هدمه لإسقاط كل ما دعا إليه . وحاولوا أن يبينوا صدقهم بأمور يرونها بعد أن يلبسوها غير لباسها ، ويضعوها في غير موضعها .

فمن عداوتهم يقولون : إن القرآن الكريم كذب ألفه محمد من قبل نفسه ،
وان محمدا يقابل أناسا من اليهود ، ومن العبيد يستكتبهم بعض أساطيرهم ،
ويحفظها . ثم يقرأها على الناس زاعما أنها القرآن الكريم .
ومن دهائهم ومكرهم أن العبيد لما أسلموا كانوا يأتون للنبي ﷺ يتعلمون
منه الإسلام والقرآن فزعموا أنه هو الذى يتعلم منهم فأخذوا الحدث ، وقلبوا
معالمه ، ونسوا أن الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين .
وزعموا أن القرآن الكريم مجموعة من الأساطير ، وجعلوا أنه كتاب معجز
في أخباره ، وآياته ، وهدايته .

لقد أعماهم الكفر ، فزعموا في القرآن ما ليس فيه ، ونسوا عجزهم عن
الإتيان بمثل أقصر سورة منه ... إنها العداوة للحق نراها في كل عصر
ومصر...

وفى زماننا يعتمد أعداء الحق على الإشاعات الكاذبة ، والمزاعم الباطلة
ويلبسون الخرافة ثوب الحقيقة ، ويتمسكون بها لنشر البلبلة ، وإشاعة القلاقل
بين الناس .

إن أنصار الباطل يأخذون مقالة واحد من الناس ويتهمون بها الجماعة ،
وبدل أن توضع الكلمة في مجالها مع صاحبها لتقدم الفكرة واضحة يضعونها
في مسار آخر ليفيد معنى يريدونه ، لم يقصده قائله .

إن حال هؤلاء المرجفين حال من يقول للناس : إن الله قال : ﴿ لَا تَقْرَبُوا
الْصَّلَاةَ ﴾ ... ويغفل عن تمام الآية التى يقول الله فيها : ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ
وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾^(١) .

(١) سورة النساء ، الآية ٤٣ .

(٣٢٩)

وعلى الدعاة والمصلحين أن ينتبهوا لمثل هذه الألاعيب فهي اليوم شديدة عاتية ، تسلحت بأدوات العصر ، وثقافته ، واستعانت بالمادة والقوة .
وعلى الناس أن يستفيدوا بمنهج القرآن الكريم فى مقاومة الأكاذيب والإشاعات ، وهو المنهج الذى وضحته آيات حادثة الإفك فى أول سورة "النور" .
ما أشبه الليلة بالبارحة حيث نعيش جوا من الأكاذيب يشيعها أهل الباطل للإساءة إلى الحق وأهله .

الركيزة الثانية

ثبوت القرآن الكريم

الرياح لا تحرك الجبال ، والأباطيل لا تؤثر فى تغيير الحق . فالقرآن الكريم كلام الله تعالى ، وثبوته على ذلك دائم ، وإن كثر الأعداء ... ولن يسمع الحق من به صمم ، ولن يرى النور من فى عينه رمد .
وقد ثبت أن القرآن الكريم كلام الله بأوجه متعددة ، منها :
- فهو كلام الله تعالى جاء به رسوله ﷺ ، والإيمان بذلك جزء رئيسى من الإيمان كله ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .
- وهو معجز بلفظه ومعناه ، ووجوه الإعجاز فيه عديدة .

رد مزاعم المشركين عن محمد ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا
أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿١﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ
جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٢﴾
أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٣﴾ تَبَارَكَ
الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَجَعَلَ
لَكَ قُصُورًا ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿٥﴾
إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا ﴿٦﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا
ضَيِّقًا مُّقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿٧﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا
ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿٨﴾ ۚ ۝

- ١ -

سبب نزول الآية

عن ابن عباس قال : إن عتبة بن ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب والنضر
بن الحرث ، وأبا البحتري ، والأسود بن المطلب ، وزمعة بن الأسود والوليد بن
المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أمية ، وأممية بن خلف والعاص بن
وائل ، ومنبه بن الحجاج اجتمعوا ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد
وكلموه وخاصموه حتى تعذروا منه ، فبعثوا إليه وقالوا له : إن أشرف قومك قد
اجتمعوا ليكلموك ، فجاءهم رسول الله ﷺ .

(٣٣١)

فقالوا : يا محمد إنا بعثنا إليك لنعذر منك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا ، وإن كنت تطلب به الشرف فنحن نسودك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك ؟

فقال رسول الله ﷺ ما بى مما تقولون ، ما جئكم بما جئكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن بعثني الله إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر حتى يحكم الله بينى وبينكم .

قالوا : يا محمد : فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فسل لربك ، وسل لنفسك أن يبعث معك ملكا يصدقك فيما تقول ويراجعنا عنك وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا من ذهب وفضة ، ويغنيك عما نراك تبتغى فإنك تقوم بالأسواق ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم .

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا ، فأُنزل الله فى ذلك هذه الآيات^(١) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة مزاعم المشركين عن القرآن وردتها جاءت هذه الآيات لبيان مزاعمهم عن محمد ﷺ ، وتردها كذلك .

(١) تفسير المراهى ج ١٨ ص ١٥٤ .

(٣٣٢)

- ٣ -

معنى الآيات

تبين الآيات قول المشركين عن رسول الله ﷺ ، وتردها .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

آخذ المشركون يعدون الصفات التي يتصف بها محمد ﷺ ، ويرونها مانعة له أن يكون رسولا ... وهى :

(١) ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ أى قال المشركون :

أى شئ يتميز به محمد حتى يختاره الله للرسالة ، إنه يأكل الطعام كسائر الناس ، وهذا لا يكون من رسول ، لأن حاجته إلى الأكل نقص لا يتصورونه في رسول من قبل الله تعالى .

(٢) ﴿ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ أى وهو يمشى في الأسواق يبيع ويشترى

ولا يصح في رأيهم أن يمشى الرسول في الأسواق كسائر البشر .

(٣) ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ أى هلا أنزل الله عليه

ملكا من السماء ، يشهد على صدقه ، ويرد عنه أعداءه ، وينذر معه .

(٤) ﴿ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كِتَابٌ ﴾ أى هلا أنزل الله عليه كنزا من الجواهر

والأموال يغنيه عن السعى والتعب ، والمشى في الأسواق .

(٥) ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أى هلا جعل الله له بستانا يانعا ،

يعيش من غلته كما يعيش أغنياء الناس .

يقول الزمخشري : إنهم طلبوا أن يكون الرسول ملكا ، ثم نزلوا عن ملكيته إلى صحبة ملك بعينه ، ثم نزلوا عن ذلك إلى كونه مرفودا بكنز ، ثم نزلوا فارتضوا أن يكون له بستان يأكل منه ، ويعيش به^(١) .

إن غايتهم هي إبطال الرسالة ، وانكار أن تكون الرسالة لمحمد ﷺ لأنهم لو كانوا صادقين فيما ذهبوا إليه ما تنزلوا في قولهم حالا بعد حال .

﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ أى

وقال الكافرون الظالمون : إن محمدا الذى يدعوكم لاتباعه رجل مسحور قد اختل عقله ، فهو لا يعى ما يقول ، ومثله لا يطاع .

ولما أثبتت الآية ضلال القوم في شأن محمد ﷺ التفت القرآن الكريم إلى رسول الله ﷺ ، وقال له :

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾

أى أنظر وتعجب يا محمد من فعل القوم ، وافكهم فقد تجرأوا عليك ، ووصفوك بهذه الأوصاف العجيبة ، الكاذبة ، البعيدة كل البعد عنك ، فتحيروا في شأنك ، ولم يعرفوا ما يريدون القول فيك ، وفى نبوتك .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴾ أى كثر خير الله ، وزاد فضله . فقد

جعل لك خيرا مما أملوا وطلبوا ، فلو شاء سبحانه وتعالى لوهب لك في الدنيا خيرا مما طلبوا ، وجعل لك في الدنيا مثل ما جعله لك في الآخرة ، من جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن قصور شامخة لا يدانيها قصر من قصور الدنيا ...

(١) تفسير الزمخشري ج ٣ ص ٢٦٥ .

(٣٣٤)

ولكنه سبحانه وتعالى رضى عنك وأعطاك النبوة والرسالة ، وخصك بالوحي ، وكلفك بالدعوة لتقوم بالتكليف صادقا آمينا ، ويرى الناس استقامتك في إخلاصك ، وتلقى ربك راضيا مستريحا ، وهذا يكفيك ويرضيك .

عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : "عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا قلت : لا يا رب ولكن أشبع يوما ، وأجوع يوما ، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك" (١) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : "لو شئت لصارت معي جبال مكة ذهبا ، جاءني ملك فقال : يا محمد إن ربك يقرئك السلام ، ويقول : إن شئت نبيا عبدا وإن شئت نبيا ملكا . فنظرت إلى جبريل فأشار إلي أن ضع نفسك .

فقلت : نبيا عبدا ، ... فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئا ، ويقول : أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد" (٢) .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ^ط وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾

أى إن هؤلاء المشركين قالوا ما قالوا ، وطلبوا ما طلبوا لأنهم كافرون بالدين كله ، ولم يصدقوا باليوم الآخر ، وقد أعدنا لهم ، ولمن يكذب بالساعة نارا مستعرة ، وعذابا أليما .

﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴾ أى أعدنا

للمشركين المكذبين باليوم الآخر نارا مشتعلة إذا اقتربوا منها سمعوا لها صوتا مملوءا بالغيط والكراهية ، وهو الزفير ، وباللهيب الشديد وهو التغيط ، وجعلت الآية للنار بصرا ليعلم المشركون أنها تراهم ، وتنتظرهم فقد أعدت لهم .

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب الزهد . باب ما جاء فى الكفاف والصبر عليه ج ٤ ص ١٥٣ .

(٢) مسند أبى يعلى الموصلى ج ٨ ص ٣١٨ .

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿٣٣٥﴾ لَا

تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿٣٣٦﴾﴾ أى إذا أُلْقُوا قريبا منها في مكان ضيق بعدما قيدت أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال والسلاسل استغاثوا ، وقالوا : يا هلاكاه ... يا ثبوره ... فيقال لهم : لا تتادوا هلاكاً واحداً ، وادعوا هلاكاً كثيراً ، لأن العذاب ألوان وأنواع ، ولكل منها ثبور لشدته وفضاعته.

ومعنى هذا أن الله قد أعد لمن كذب بالقيامة نارا مستعرة ، وإذا قربوا منها ، وصاروا بمرأى الناظر فى البعد سمعوا صوت غليانها ، وإذا طرحوا منها فى مكان ضيق وهم مقرنون فى السلاسل والأغلال تمنوا الهلاك ليسلموا من هولها الشديد ... فيقال لهم حينئذ : لا تدعوا الخلاص من هلاك واحد لأنه متعدد ، واطلبوا الخلاص الكثير من هذا الهلاك الكثير لتتخلصوا منه واحدا بعد الآخر والمقصد من ذلك تبيئيسهم مما علقوا به أطماعهم من الهلاك ، وتنبيه إلى أن عذابهم أبدى لا خلاص لهم منه .

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآية مزاعم المشركين في محمد ﷺ وأسباب عدم إيمانهم ، وتبين بطلان ما يزعمون ، وتوضح أن سبب موقفهم هو كفرهم بالله تعالى ، وعدم إيمانهم بيوم القيامة ، وما أقوالهم في محمد ﷺ إلا نبع من سواد قلوبهم وخبث نواياهم ، وسوف يحاسبهم الله على إفكهم ، ويحرقهم في نار تتغيظ حين تراههم ويلقون فيها مقيدون ليروا عذابا كثيرا متنوعا .

(٣٣٦)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

سقوط الدعوى بسقوط أدلتها

خلق الله الإنسان عاقلا ، وميزه بذلك عن سائر الخلق ، وبهذا العقل يفهم ويتصور ، ويحلل ، ويميز بين الحق والباطل .

ولذلك كانت البينة ضرورية لإثبات الدعوى .

ادعى النمرود أنه الإله ، وعارضه البرهان فتهافت دعواه ... يقول الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾^(١) .

وادعى فرعون الألوهية ، واستعبد الناس بدعواه ، وقال لموسى عليه السلام : ﴿ لَئِنْ آتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾^(٢) وادعى أن آيته في سحرته فلما تهاوى السحر سقط فرعون ، واغرقه الله تعالى .

وهؤلاء مشركو مكة يرفضون رسالة الرسول لأنه يأكل ويشرب كسائر البشر ، ويتعب ويعمل ويتاجر ليعيش ، ويتمنون أمورا لا صلة لها بجوهر الرسالة ، فأكدوا بذلك تهافت موقفهم ، وبطلان دعواهم ، وهذه الركيزة تؤكد للدعاة أمرين :

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٨ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٢٩ .

(٣٣٧)

الأمر الأول : ضرورة استحضار الأدلة الشرعية والعقلية على ما يذكرونه للناس ، لأن ذلك يدل على علو ثقافتهم ، ويؤكد الثقة في دعوتهم إن للعلم بصيرة وبصر ، وهو الطريق إلى القلوب والعقول ، وهو السبيل لهتك ستر الأكاذيب ، ولذلك كان الاهتمام بالعلم اهتمام بنجاح الدعوة .

الأمر الثانى : أهمية النظر فى أدلة كل قضية لتبين صحتها فليس كل ما يقال حقا ... وكثيرا ما يلجأ الأفاكون إلى الأقاويل الكثيرة ، ونشر الإشاعات العديدة لتسميم العقول ، واحاطتها بجو من اللا معقول والضبابية ، ولا ينقذ الإنسان العاقل من ذلك إلا الدليل الدقيق الصحيح .

الركيزة الثانية

بيان مصير الكافرين فى الآخرة

لن يفلت الكافرون من العقاب فقد ضلوا ضلالا بعيدا ، وكفروا بالله تعالى ، وكذبوا برسول الله ﷺ ، وزعموا أن القرآن من أساطير الأولين ، استكتبها محمد ، ونقلها إليهم ، وتلك كلها مزاعم باطلة سببها عدم إيمانهم بالخالق الذى أوجدهم ، ورزقهم ، وعدم تصديقهم باليوم الآخر حيث يتم سؤالهم وحسابهم .
إن هؤلاء المشركين يسعون لمصيرهم ، وسيجدون فى جهنم مأواهم ومثواهم ، إن جهنم قد أعدت لهم ، وهى فى انتظارهم ، وهى تشعر بهم ، وتراهم من بعيد ، وحين قدومهم تشتد لهيبا ، وتعلو صونا ، وتقسو غيظا وزفيرا .

وسيرى الكافرون فيها الويل والثبور حين يدخلونها مقيدىن بسلاسل تربط أيديهم بأعناقهم ، وحينئذ لا يجدون مفرا من الغوث ، فيقولون : واغوثاه ... يا هلاكاه ... فيقول لهم الداعى : ليس غوثا واحدا ، ولا هلاكاه واحدا ... بل كثير كثير .

إن ألم النار شديد ، وعذابها رهيب ، ومن أراد اتقاءها فليبادر إلى الإيمان والطاعة ، فإن كلا له عقابه : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾^(١) .

الركيزة الثالثة

أهمية تحصين ثغور الدعوة

الدعوة إلى الله تعالى نظام له أركانه ، وفروعه ، والدعاة يهتمون بالأصول والفروع معا ، وقد يهاجم أعداء الإسلام الدعوة من جوانب فرعية ، وذلك أمر يبين ضرورة الاهتمام بتحصين الأصول والفروع .

إن مشركى مكة تركوا الدين ، وأخذوا يعترضون على بشرية الرسول وعلى أنه يأكل ويشرب ، ويعمل ، وتركوا الجوهر والأصول ... وتلك خطة مأكرة يلجأ إليها المفسدون ليصرفوا الناس عن الجوهر ، ويشغلهم بقضايا لا تفيد ... وبعد ذلك يظللون الحق بهذه الغيوم والأراجيف .

إن الإسلام جاء نقيا ، وبين الله أصالة الدين ، وعظمة الرسول مع أنه واحد من الناس يأكل ويشرب ويتعب ... والقضية الكبرى هى الإيمان بدين الله تعالى .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٧٠ .

تبكيت المشركين

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ أَذِلَّكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَاصِرًا ﴿١﴾ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَتْ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿٢﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ۖ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ ۖ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿٣﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۚ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۚ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٦﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضلال المشركين في موقفهم من توحيد الله ، وعدم الإيمان بالقرآن الكريم ، ومزاعمهم حول رسول الله جاءت هذه الآيات لتبكي المشركين ، واطهار مدى الخسارة التي أوقعوا أنفسهم فيها .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات الندامة والحسرة التي تصيب المشركين حين يرون العذاب وحين تكذبهم الآلهة التي عبدوها من دون الله تعالى ، وحين يتضح لهم كذب ما ذهبوا إليه .

- ٣ -

(٣٤٠)

الدلالات اللغوية

تدور الآيات حول تبكيت المشركين ، وإظهار حسرتهم ، وبيان مصيرهم
السيئ على نحو ما يلي :
أولا : إظهار الحسرة والندامة :

﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ ﴾ ؟ ... السؤال للإنكار والتوبيخ يريد
الله به إظهار وقوع الحسرة والندامة على المشركين ، وهم فى النار يصلون
سعيها ، ويحترقون بلهبها ... فى هذا الوقت يسخر الله منهم ، ويسألهم عن ما
هم فيه من عذاب ويأمر رسوله أن يسألهم ، ويقول لهم : هل ما أنتم خير أم أن
الخير فى جنة الخلد ؟
والإجابة معلومة لأن الجنة بنعيمها ، وحسنها ، وجمالها ، وخلودها هى
الخير كله ، ولا خير فى نار السعير ، وغاية السؤال التبكيت ، وإظهار الحسرة
والندامة .

﴿ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴾ أى أن الجنة
بما فيها من خير قد وعد الله بها المؤمنين ، وجعلها لهم خاصة ، دون غيرهم .
﴿ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ أى أن الله يحقق للمؤمنين كل ما يريدون
وتقديم الجار والمجرور لبيان أن تحقيق المرادات لا يكون إلا فى الجنة ،
وللمؤمنين وحدهم .
﴿ خَالِدِينَ ﴾ أى إن المتقين يدومون فى نعيم الجنة بلا انقطاع ليدوم
سرورهم ، وتستمر سعادتهم .

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ أى أن هذا الوعد يطلبه المؤمنون بقولهم كما حكاه الله فى قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾^(١) ... وتطلبه الملائكة للمؤمنين كما يقول تعالى : ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾^(٢) .

وهكذا تتضاعف الحسرة والندامة بإظهار ما هم فيه من خزي ، وبيان ما فيه المتقون من نعيم .
فإن قيل : تتحدث الآية عن أن للمتقين فى الجنة كل ما يشاءون . فماذا يحدث لو تمنى أهل الجنة شيئا لا يكون فيها مثل الولد ؟
أقول : إن الله يزيل الخواطر التى لا تكون فى الجنة من المتقين فلا يطلبونها ، ويستمر اشتغالهم بالنعيم الدائم ، ومصاحبة الصالحين ولا تتمنى نفوسهم شيئا غير موجود فى الجنة .
ثانيا : تبرؤ الآلهة منهم :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى اذكر لهم يا محمد يوم حشرهم فإن الله سيحشرهم والأصنام والأشخاص التى عبدوها من دون الله للحساب والجزاء ، ولتحديد سبب الكفر والضلال .

﴿فَيَقُولُ﴾ الله سائلا الأصنام والأوثان ﴿ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أى هل أنتم سبب إضلال عبادى هؤلاء الموجودين أمامكم ؟ أم هم الذين أوقعوا أنفسهم فى الضلال ورضوا به ؟ ...

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩٤ .

(٢) سورة غافر ، الآية ٨ .

وايراد اسم الإشارة ﴿هَؤُلَاءِ﴾ لتحديد أن موطن السؤال مرتبط بالجريمة .

﴿ قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ

أَوْلِيَاءَ ﴾ أى قالت الالهة المعبودة : ننزهك يا الله ، ما كان يصح منا ، ولا ينبغي لنا أن نتخذ آلهة معك ، أو نعبد غيرك ، أو نتخذ وليا سواك فأنت الخالق ، القادر ، العليم ، الخبير .

﴿ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعِبَادَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾

أى تبرأ المعبودون ممن عبدوهم وبينوا سبب ضلال المشركين ، وهو أنهم تمتعوا بنعم الله تعالى الكثيرة ، ولكنهم بدل أن يشكروها استغرقوا فى الشهوات وانهمكوا فى اللذات ، وغفلوا عن الذكر والطاعة ، فكانوا قوما هالكين .

وهكذا تبرأ المعبودون ممن عبدوهم ، وبينوا سبب ضلال المشركين التى أودت بهم إلى البوار والهلاك .

ثالثا : ظهور كذبهم وخزيهم :

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أى ظهر كذب المشركين من

عدة طرق :

- فهم كذبة فى أنفسهم يقولون ما لا يعرفون ، ويزعمون ما لا دليل عليه .
- وهم كذبة حين يعبدون أصناما لا تضر ولا تنفع .
- وهم كاذبون بشهادة المعبودات التى عبدوها فهى تتبرأ منهم ، وترد زعمهم ، وتقر بأنها مخلوقة تقدر من خلقها وأوجدها .
- وهم كاذبون فى حياتهم فقد رزقهم الله ومنعهم ومع ذلك أنكروا فضله عليهم .
- وهم كاذبون حين قالوا عن القرآن : إنه أساطير الأولين ، وعن محمد إنه شاعر ، وساحر .

(٣٤٣)

﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ أى أن الآلهة التى عبدوها لا

تصرف عنهم ضرا ، ولا تمنعهم من عذاب ، ولا تحقق لهم نصرا أو فوزا .

﴿ وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ هذا أمر يعم سائر

البشر ليعلموا جميعا أن من يكفر بالله ، ويشرك به فقد بعد عن الحق فى الدنيا وسيعذبه الله عذابا أليما فى الآخرة على ضلاله وكفره .

رابعا : مخالفتهم للواقع المشاهد :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ

وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ أى هؤلاء المشركين طعنوا فى رسالة رسول الله ﷺ

لأنه بشر يأكل ويشرب ويتعب فعرفهم الله تعالى وهو يخاطب الرسول ﷺ بأن جميع الرسل الذين أرسلهم الله تعالى كانوا بشرا ، وكانوا يأكلون الطعام ، ويمشون فى الأسواق ، وكانوا يسعون فى معاشهم ، والمشركون يعلمون ذلك ويسمعون عنه ، ومع ذلك يخالفون ما يعلمون ، وينقضون ما يدركون ... ولم يستفيدوا بالواقع مع أنه خير دال على حقيقة ما يدل عليه ، وقد قال الرسول لهم : ﴿ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾^(١) .

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ أى وامتحنا أيها الناس بعضكم

ببعض ، فجعلنا هذا نبيا وخصصناه بالرسالة ، وهذا ملكا وخصصناه بالدنيا ، وهذا غنيا وأعطيناه المال ، وهذا فقيرا وحرمانه من لذات الحياة ونعيمها ، لنختبر الغنى بشكره على الغنى ، ولنختبر الفقر بصبره على ما حرم مما أعطاه الغنى ، والملك بصبره على ما أوتيته الرسول من الكرامة ، وكيف يكون

(١) سورة الأحقاف ، الآية ٩ .

(٣٤٤)

رضى كل منهم بما أعطى ، وقسم له ، وطاعته ربه على حرمانه مما أعطى
سواه ؟

ومن جراء هذا لم أعط محمدا الدنيا ، وجعلته بمشى فى الأسواق يطلب
المعاش ، لأبتليكم وأختبر طاعتكم واجابتكم إياه إلى ما دعاكم إليه ، وهو لم
يرج منكم عرضا من أعراض الدنيا ، ولو أعطيتها إياه لسارع كثير منكم إلى
اتباعه ، طمعا فى أن ينال شيئا من دنياه .

﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ ؟ أى فهل تصبرون على هذا الاختيار ، وتتجحون فيه
أم تفشلون وتستحقون العذاب الأليم . يقول النبى ﷺ : "أنظروا إلى من هو
أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله
عليكم" (١) .

﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ أى أن الله عليم بكل شئ ، خبير بما يقع من
الناس جميعا ، وسيحاسب عليه .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الآلهة التى عبدها المشركون تتبرأ منهم يوم القيامة ،
وتبين أن المشركين هم الذين ضلوا بلا طلب منهم ، فهم ينزهون الله ويقدسونه ،
وتوضح سبب ضلال المشركين وهو أنهم استغرقوا الشهوات ، ونسوا المنعم
المتفضل فهلكوا وباروا .

لقد ظهر ضلال المشركين فى كافة المواقف التى ساروا عليها ، وكانوا
يتصورون أنفسهم على صواب .

- ٥ -

(١) صحيح مسلم . كتاب الزهد والرقائق ج ٤ ص ٢٢٧٥ .

(٣٤٥)

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ظهور بهتان المشركين فى الآخرة

يستمر الضال فى ضلاله حتى يموت ، ويتصور أقرانه أنه تمتع بالدنيا وفاز بها ، ولا حساب عليه حيث لا بعث ، ولا حشر ... وتلك أحلام الكاذبين .
إن الذى يراه الضالون فى الآخرة عذاب أليم ، وحسرة بالغة ، وخزى أسيف لأن القبر معه حفرة من حفر النار تشويه ولا تنتهى ... وعند الحشر يجمعهم الله بالآلهة التى عبدوها ، ليكت المشركين بأجوبة الآلهة التى عبدوها حين يسألهم عن الله ، وعن دورهم فى ضلال أتباعهم ، ويقول لهم : أنتم أضللتم عبادى هؤلاء ؟ ... لقد أجابت الآلهة بأنهم ينزهون الله تعالى ، ولا يعبدون غيره ، ولا يتخذون سواه وليا .
وهكذا أخزى الله المشركين على رعوس الأشهاد ، وبين ضلالهم وفسادهم ، وأقام الحجة عليهم ، وأسكنهم فى جهنم ، وبئس المصير .

الركيزة الثانية

وجوب ذكر الله تعالى

يعيش الإنسان فى هذه الدنيا بفضل الله تعالى ، وتحيط به النعم من كل جانب . فقد خلقه الله يسمع ، ويبصر ، ويفهم ، ويتلذذ ، ويتمتع ، ويشعر بالسعادة والرضى ، أو بالشقاوة والملل ، وبهذا القوى والطاقات فى الإنسان يشعر بقيمة الحياة ، ويرضى غرائزه ، ويشبع أمنياته وآماله .
ومع هذه النعم الذاتية فى الإنسان أوجد الله من حوله نعماء عديدة ، فرزقه المال والولد ، وأعطاه العلم والمعرفة ، وأمدّه بالحسن والجمال ليتمتع به ،

(٣٤٦)

ويعيش فيه ، وقد خلق الله الكون كله وسخره ، لخدمة الإنسان بصورة تلقائية منتظمة لا تتخلف ، ولا تتوقف حتى تجئ الساعة .

يعيش الإنسان هذه النعم ، ويجب أن يذكر الله بها ، ويشكره عليها لتدوم وتزداد يقول الله تعالى : ﴿ فَادْكُرُونِيْ أَدْْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِيْ وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ لِيَنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ وَلِيَنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِيْ لَشَدِيدٌ ﴾^(٢) .

لقد بينت الآيات أن المشركين تمتعوا بنعم الله وجحدوها ، واستغرقوا في الشهوات ، وغرتهم الحياة الدنيا فضلوا عن الحق حتى جاءتهم وكانوا من الهالكين .

إن الواجب على المؤمن أن يشكر الله على نعمه ، ويحاول على شكر الله ذكرا وعملا وطاعة .

وعلى الدعاة :

أن يعرفوا المدعوين بنعم الله تعالى في أنفسهم ، وفي الحياة من حولهم فهي أقوى الدعائم التي تذكر بالله تعالى ، وتدعو إلى عبادته .

ويمكن للدعاة أن يقارنوا للناس بين رجلين ، أحدهما أنعم الله عليه بنعم معينة ، وآخر حرم فيها ليعلموا قيمة النعمة ودورهم معها .

ويمكن لهم المقارنة بين رجلين رجل آتاه الله نعمة فشكرها ، وآخر أوتيها فجحدها وأنكرها ليختاروا لأنفسهم .

وعلى الدعاة :

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٢ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٧ .

(٣٤٧)

أن يكونوا مثلاً في الذكر ، والشكر ، والدعاء ، والطاعة .

الركيزة الثالثة

بطل النعمة سبب الجحود

يرزق الله عباده نعماً عديدة ، فيرزقه صحة البدن ليقوى بها على عبادة الله وطاعته ... ورزقه المال يتقوى به على متاع الدنيا ، ويتمتع بكل ما أحله الله له من مركب طيب ، ومسكن واسع ، وزوجة صالحة ، ورزقة الولد يسعد برؤيته ، ويطيع الله في تربيته وصلاحه وتقواه ، ورزقه العلم ليميز الخبيث من الطيب ، ويسلك طريق الحق والصواب الذي يحقق له سعادة الدنيا ، وسعادة الآخرة .

هذا هو المأمول من الإنسان العاقل ، المدرك لقدره ، المؤمن بقدرة الله تعالى .

إلا أن الإنسان يظلم نفسه ، ويبتعد عن هذا الأمل كثيراً ، فقد أدى الجهل بكثير من الناس أن غرتهم الحياة الدنيا ، وأنساهم الشيطان ذكر الله فوضعوا النعمة في غير موضعها ، وصارت الصحة سبباً للعبث ، وأصبح المال طريق الفحشاء والمنكر ، وصار العلم سبيلاً للكبرياء والتعالى ... ونسى هؤلاء صاحب النعمة ، وإذا ذكروا لا يتذكرون ، ويتصورون أنفسهم على الحق ، فقد أعمى الجحود قلوبهم وأبصارهم ... ومن المخجل أنهم يتصورون أحكام الدين أمراً مباحاً يفتى فيه كل من لا علم له .

(٣٤٨)

هذه حال كثير من الناس اليوم ... وهى نفسها حالة مشركى مكة التى يقول الله عنها : ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾^(١) فقد أنستهم النعم ذكر الله ، وهلكوا بين النعم وآيات الله .

وعلى الدعاة :

بيان أن النعم عطاء من الله ، وشكر المعطى حق ثابت له ، وتوضيح تعدد النعم وتجدها ، وواجب الإنسان معها .
وعليهم أن يؤكدوا للناس أن الآخرة للحساب والجزاء ، والعاقل من آمن بها وسعى لها سعيها .
ليأخذ الإنسان من غيره درسا وعبرة ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .

(١) سورة الفرقان ، الآية ١٨ .

الجزء التاسع عشر

وأوله قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ... ﴾ .

سورة "الفرقان" آية [٢١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرد على منكرى البعث

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَيِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ۚ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَتَوَعَّتُوا عَذَابًا كَبِيرًا ﴿٣٥﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَيِكَةَ لَا

(٣٥١)

بُشِّرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٣٥١﴾ وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ
عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴿٣٥٢﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة الخزي والندامة التى يكون عليها المشركون يوم
القيامة جاءت هذه الآيات للرد على منكرى البعث ، وتفنيذ مزاعمهم ، وأباطيلهم
، وحالهم وأعمالهم يوم القيامة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن منكرى البعث يطلبون الملائكة لتشهد أمامهم برسالة
محمد ، ولجأوا إلى الكبر والتعالى ، وضلوا ضلالا بعيدا فعرفهم الله أن الملائكة
ستنزل عليهم في الآخرة بالويل والثبور ، وتمنعهم من الخير فى وقت لا يجدون
لهم عملا فقد جعله الله هباء منثورا .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ أى قال المشركون الذين لا يأملون
لقاء الله في الآخرة ، وسبب عدم رجائهم أنهم ينكرون حدوثه ، ومن ينكر
وقوعه لا يرجو منه شيئا ، ومن يؤمن به يأمل الخير فيه .

واسندت الآية اللقاء لله لأنه مفرج الكرب ، ومحاسب الناس ، والمجازى على الأعمال ، ومن يرجو لقاء الله فهو يرجو العزيز الحكيم ، والركن المتين .

﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ﴾ أى هلا أنزل الله علينا الملائكة لتخبرنا

بصدق محمد في رسالته التى أخبرنا بها ، أو لتقوم هى بالرسالة ، وتدعونا فإن محمد يأكل ويشرب ويمشى في الأسواق .

﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ أى أو نرى ربنا يحدثنا بصدق محمد ، لتأكد من أنه

هو الذى اختاره وأرسله إلينا ، أو لنسأله أن يرسل إلينا رسولا من الملائكة .

﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أى لقد طلبوا الكبر في أنفسهم ،

وتخطوا حدودهم ، وحسبوا بكبريائهم الكاذب أنهم فوق الناس فألفوا الظلم ، والبعد عن الصواب ، وأخذوا يقولون كلاما ، ويطلبون أمورا لا يطلبها عاقل فاهم لأنه لا يمكنهم الاتصال بالملائكة ، ولن يروا الله ، ويكفى في التصديق ما يروونه من المعجزات الخارقة للعادة ، وما يسمعون من القرآن الكريم إلا أنهم لكبريائهم يطلبون ما يطلبون علوا واستكبارا .

﴿وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا﴾ أى طغوا وبغوا ، والعتو هم أشد الكفر وأفحشه

وقد وقعوا فيه حين طلبوا رؤية الله تعالى ليأتيهم ليؤمنوا به ، كأنه واحد من الناس يرجوهم ، ويتودد إليهم ، وهم يرفضون .

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أى اذكر لهم

يا محمد أنهم سوف يرون الملائكة عندما تأتيهم لقبض أرواحهم ، أو حين البعث والحساب ، فسوف يرون الملائكة في هذين الوقتين حيث لا يحملون لهم بشرى . فعند الموت يريهم الله مقعدهم من النار ، وفى يوم القيامة سيساقون إلى الحساب وهم مثقلون بالآثام ، وعند الحساب فسوف يلقون هالكا ويرمون في

جهنم ، وذلك بسبب جرمهم وكفرهم ... وفى ذلك دلالة منطقية على تبشير المؤمنين بالجنة والنعيم .

﴿ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أى تقول الملائكة يوم القيامة للمجرمين لا بشرى لكم بالجنة ، فبينكم وبين الجنة حاجز يمنعكم من دخولها ، ويحرمكم من أن تتمتعوا بأى خير فيها .
ويمكن أن يقول المجرمون ذلك متحسرين وهم يرون الموانع التى تبعدهم عن دخول الجنة أبدا .

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾ أى إن كان للمجرمين عمل طيب فى الدنيا كقرى الضيف ، وبر الوالدين ، وخدمة الناس بعلم ، أو بإنشاء مؤسسة خدمية فإن الله يبطلها ، ولا يثيبهم على شئ منها ، ويجعله هباء منثورا ...

والهباء هو ما يرى فى ضوء الشمس الداخل من الكوة ، ولا يمكن مسه بالأيدى ، ولا يظهر فى الظل ، ويكون منثورا مفرقا سابحا .
وسبب ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل العمل الطيب إلا إذا كان متصلا بإيمان صاحبه بالله تعالى ، وأن يكون صاحبه خالصا فيه لله رب العالمين ، فإن خلا العمل من الإيمان والإخلاص لله تعالى فلا قيمة له .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المنكرين للبعث يطلبون مجئ الملائكة إليهم رسلا أو للتصديق محمد ﷺ ، ويطلبون كذلك رؤية الله ليشهد بصدق محمد ، أو ليطلبوا منه أن يرسل رسولا من الملائكة ، وهذا كبر ، واستعلاء ، وكفر بالله تعالى ، وسوف يرون الملائكة حين قبض أرواحهم ، وحين البعث ، وحين

الحساب ، إلا أنه لقاء لا بشرى فيه ، فهو لقاء ينذر بحرمانهم من الجنة بسبب إجرامهم وكفرهم حيث تعرفهم الملائكة خلاله أن الجنة محرمة عليهم ، فبينهم وبينها مانع يمنعهم من دخولها ، وهو مانع متين قوى ... وأى عمل طيب عملوه في الدنيا بلا إيمان بالله لا قيمة له فهو كالهباء يرى ولا يلمس ، ولا يفيد .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

الكفار بين الكبر والهوان

يعيش الكافر في الدنيا مغرورا مستبدا لا يردعه دين ، ولا يخاف من حساب ، ويتسلط بسلطانه وقوته على الناس لا يمنعه خلق ولا دين ، ويصل به حد الخبل إلى ادعاء ما ليس له ، أو نفى ما هو فيه ، فها هو فرعون كان يقول ما حكاه الله عنه في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴾^(١) ، وفى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۖ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَذِبًا ﴾^(٢) ، وفى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۗ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾^(٣) هذا هو منطق الكفر والضلال ، وهذا هو ما نراه ونسمعه من

(١) سورة القصص ، الآية ٣٨ .

(٢) سورة غافر ، الآية ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) سورة غافر ، الآية ٢٦ .

الكافرين والمنافقين عن الإسلام والمسلمين ، فهم يقولون كلاما بلا دليل ويشيعون الكذب متعمدين ... يقولون :

- بعدم صلاحية الإسلام للعصر الحديث .
 - بعدم وجود نظم إسلامية متكاملة .
 - الإسلام عبارة عن قيود تحرم الإنسان من الحرية والكرامة .
 - يجعلون خطأ إنسان مسلم نقصا في الإسلام نفسه .
 - يلقون تهما عديدة ، ومستمرة وهي كاذبة بلا خجل ولا حياء .
- إن هذه المزاعم الكاذبة شاهد على وقاحة أعداء الإسلام ، فلقد قلبوا الحقائق وكذبوا ، وكرروا الكذب حتى صدقوا أنفسهم ، وجعلوا الطهر جريمة وأصبحت الاستقامة سلوكا معيبا ... إنهم فقدوا الحياء كما فقدوا قوم لوط حين قالوا ما حكاه الله عنهم فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾ ^(١) .

وعلى الجملة فهذا هو موقف الكافرين والمجرمين فى الدنيا ، وهو موقف الكبر والاستعلاء والبطر .

أما حالتهم فى الآخرة فهو الخزى والهوان ، فلا يرون خيرا ، ولا يسمعون بشرى ، وسيجدون أنفسهم فى جحيم سحيق ، وخلفهم سد يمنعهم من دخول الجنة أبدا ، وسيجدون أن ما تصوره فى الدنيا عملا طيبا لا وجود له فقد صار كالهباء المنثور .

إن منافقى العصر ، وكفار الزمان عليهم بأن يتعظوا بالمجرمين الذين سبقوهم ، ويتركوا الكبر والاستعلاء ، ويعودوا إلى الرشد والصواب .

(١) سورة الأعراف ، الآية ٨٢ .

علو مقام أهل الجنة

يقول الله تعالى :

﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۖ وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ۖ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما تحدثت الآيات السابقة عن مصير الكافرين في الآخرة جاءت هذه الآيات لبيان فوز المتقين في الآخرة بالجنة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن أصحاب الجنة يتمتعون بنعيمها في نشاطهم وراحتهم في يوم تتشقق السماء وتنزل الملائكة ، والملك يومئذ كله الله حيث يسعد المؤمنون بعباد الله ، ويشقى الكافرون بما يرون من عسر ومشقة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۖ ﴾ أصحاب الجنة هم المتقون التي وعدهم الله بها في يوم القيامة ، يعيشون في مستقر طيب ، ومقيل حسن .

وأفعل التفضيل في الآية "خير" و "أحسن" على غير بابيه لأنه لا حسن ولا خير في غير الجنة ، وإنما المعنى أن أهل الجنة أتاها خير لا يقادر قدره ولا

علو لغيره عليه ... وان لهم استراحة في وقت القيلولة ليس هناك ما يماثلها في حسنها ، وراحتها .

والقيلولة وقت الراحة في نهار الدنيا أراد الله بذكرها مع الآخرة بيان أن الراحة في الآخرة حسنة لا تعادلها راحة أخرى .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَتُزَلُّ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴾ أى يسعد المؤمنون في يوم البعث في وقت يضطرب فيه الكون ، وتضطرب السماء ... ويمتلئ الجو بسحاب أبيض هو الغمام المنتشر ، وينزل الملائكة للحشر فوجا بعد موج للحساب وتقدير المصير .

﴿ أَلْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ أَلْحَقٌ لِلرَّحْمَنِ ﴾ الملك الحقيقى ، والسلطان الشامل الكامل يوم القيامة لله رب العالمين ، ومعنى الحق الثابت الدائم الذى لا يتخلف ولا ينقص وهو ثابت لله وحده ، وسمى نفسه الرحيم لمزيد رحمته بالمؤمنين في هذا اليوم .

﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ أى أن عذاب هذا اليوم شديد على الكافرين ، عسير عليهم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المتقين هم أصحاب الجنة الذين يرون السعادة في يوم الحساب ، ويعيشون راحة مستمرة ، وسعادة دائمة ، يوم يضطرب الكون وتزلزل الموجودات ، وتتشقق السماء ، وينتشر الغمام ، وتنزل الملائكة فوجا وراء فوج للحساب التى يتم بصورة متتابعة ، والملك كله والسلطان كله لله رب العالمين .

(٣٥٨)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

الفوز نتيجة الإيمان

الإيمان دعوة عملية لإيقاظ البصر ، وتقوية البصيرة ، وتحويل الإنسان بظاهره وباطنه عبدا لله ، رب العالمين ، يسعد في الدنيا باستقامته ، ويفوز في الآخرة برضوان الله تعالى .

إنه في الدنيا عبد صالح ، بار بوالديه ، محب للناس ، لا يكذب ، ولا يخون ، ولا يعتدى ، يحرم ما حرم الله ، ويحل ما أحله ، يعيش في خدمة الناس أكثر من خدمته لنفسه ، يقضى حوائج المحتاجين ، ويعين الفقراء والمساكين ، ولا يدخر وسعا في عمل صالح يفيد الناس .

إن الإنسان المؤمن كبائع المسك لا ترى منه إلا خيرا ، فرائحته طيبة ، ومنظره حسن ، وسلعته محبوبة مرغوبة .

إن عاملته أو شاركته وفي لك ، وحافظ على حقه وحقك ، لأنه يعلم أن رسول الله ﷺ قال : "الدين النصيحة ، لله ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم" (١) . ويقول ﷺ : "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة" (٢) .

(١) صحيح البخارى . كتاب الإيمان . باب الدين النصيحة ج ١ ص ٢١ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب المظالم . باب لا يظلم المسلم المسلم ج ٣ ص ١٢٨ .

ويقول ﷺ : "المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد علي من سواهم" (١) .

ويقول النبي ﷺ : "ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم ، وتعاطفهم ، كمثل الجسد ، إذا اشتكى فيه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى ، والسهر" (٢) .
والأحاديث كثيرة ، والصورة الكاملة للمسلم تتمثل في رسول الله ﷺ الأسوة الطيبة لكل مؤمن ومؤمنة ، يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٣) .

هذه هي صورة المؤمنين في الدنيا أما صورتهم في الآخرة فهم في جنات النعيم يشكر الله سعيهم ، ويثمن عملهم ، ويدخلهم في عليين ، يظلمهم بظلمه يوم لا ظل إلا ظله ، ولهم في الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ندامة الكافر يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا
﴿٧﴾ يَوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۚ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ ﴿٩﴾ .

- ١ -

(١) سنن أبي داود . كتاب الجهاد . باب في السرية ج ٣ ص ١٢٥ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب الأدب . باب رحمة الناس ج ٨ ص ١٠ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٢١ .

(٣٦٠)

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة حالة المتقين في الآخرة جاءت هذه الآيات لبيان حالة الحسرة والندامة التي يعيشها الكافرون في الآخرة أيضا .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات حالة الندم والحسرة التي يعيش فيها المشركون ، وهم يتهمون قادتهم بأنهم سبب ما هم فيه الآن .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ اليوم هو يوم القيامة ، والمشاهد فيه متعددة ، ففيه مشهد رؤية المجرمين للملائكة بلا بشرى ، وفيه مشهد استقرار المتقين أصحاب الجنة ، وفيه مشهد تشقق السماء بالغمام ، وفيه مشهد ظهور سلطان الله المطلق ، وفيه مشهد عض الظالم على يديه ... فالיום واحد ، والمشاهد متغايرة ، ولذلك جاز عطف يوم على ما قبله بالواو .
والظالم هو الكافر حيث يشعر يوم القيامة بالحسرة والندامة على ما قدمت يداه من إعراض عن الحق ، وتقريط في جنب الله ... وعض اليد كناية عن الندم والحسرة على عمل فات أوانه .

﴿ يَقُولُ يَلِيَّتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ أى يعبر الظالم عن ندمه بالقول ، ويتمنى أن لو كان أطاع رسول الله ، وسلك طريق النجاة الذى دعاه إليه ، وصار واحدا من المؤمنين معه .

﴿ يَوَيْلَ لِيَّتْنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴾ أى يا خبيتى فى دنياى ،

ويا هلاكى وعذابى أقبل وتعال إالى ، فإنى لا استحق غيرك ، ويا ليتنى لم اتخذ فلانا صديقاً مقرباً إالى عقلى وعملى ، لأنه هو الذى أضلنى ، وأوقعنى فى الكفر والمعاصى .

والخليل هو الصديق المقرب ذو الصلة الكبيرة بصاحبه .

والآية تشير إالى قضية تربوية هامة ، وهى شدة تأثير الخليل فى خليله لأن الإخلاء يتعاونون فى إخلاص وصدق ، وتنتشر فىهم آمال واحدة ، ولذلك حسن أن يختار الإنسان لنفسه خليلاً صالحاً من البداية ليستفيد بصلاحه ، وحسن أن يبتعد الإنسان عن رفقاء السوء قبل أن يتأثر بهم .

ومن العمل الحسن أن يتدخل الآباء والمربون والدعاة فى تهيئة البيئة الصالحة للشباب ، وتوجيههم إالى الخير ، وابعاد أى طرف ضار من الوسط الذى يعملون فيه ، وتطهير عقول الصغار من أى قراءة ضارة ، أو عمل به فساد وكم من إنسان نشأ صالحاً فأفسده غيره ؟! ...

وكم من عقل فاهم أفسدته قراءته ، وبيئته ؟! ...

والشياطين لا تبتعد عن هذا النشاط ، وهى تساعد اتباعها من الناس ، وترتبط بهم وتقيم بينهم مودة تجمعهم ، وتغر الأطهار على أن يكونوا مثلهم ، وتزين الشهوات والمعاصى ، ولا تترك الإنسان إلا بعد إغوائه واضلاله .

روى أن عقبة بن أبى معيط كان يكثر مجالسة النبى ﷺ ، فدعاه إالى ضيافته فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ، ففعل . وكان أبى صديقه فعاتبه ، وقال له : صبات .

فقال : لا والله ولكن أبى أن يأكل من طعامى ، وهو فى بيتى فاستحييت منه فشهدت له .

فقال : لا أرضى منك إلا أن تأتيه فتطأ قفاه ، وتبزق في وجهه ، فوجده ساجدا في دار الندوة ففعل ذلك .

فقال له النبي ﷺ : لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فأسر يوم "بدر" فأمر عليا فقتله ، وقتل أبي بن خلف بيده الشريفة يوم "أحد" ، طعنه بحربة فوقعت في ترقوته فلم يخرج منه دم كثير واحتقن الدم في جوفه فجعل يخور كما يخور الثور ، فأتى أصحابه حتى احتملوه وهو يخور ، فما لبث إلا يوما أو نحوه حتى ذهب إلى النار فأنزل الله الآية^(١) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "لا تصاحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقي"^(٢) .

وروى الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : "مثل المجلس الصالح والسوء كحامل المسك ، ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة"^(٣) .

ويبين الكافر في ندمه سبب ما هو فيه من عذاب فيقول :

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ أي لقد أضلني فلان عن

طاعة رسول الله حين دعاني ، وأبعدني عن القرآن الكريم بعد أن قرأه على رسول الله ﷺ .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٩٠ .

(٢) سنن الترمذي . كتاب أبواب الزهد . باب ما جاء في صحبة المؤمن ج ٤ ص ٦٠٠ .

(٣) صحيح البخاري . كتاب الذبائح والصيد . باب المسك ج ٧ ص ٩٦ .

(٣٦٣)

﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ أى وكان الشيطان في

الدنيا صارفا الإنسان عن الوصول إلى الحق ، وخاذلا عن الصراط المستقيم
ومانعا من الهداية والتوفيق .

وهذا هو دور الشيطان من الجن والإنس ، حيث يظهر دائما في المواطن
الجادة ، ويزين للإنسان الهوى ، ويغريه بالشهوات ، ويبعده برفق شيئا فشيئا عن
الصواب .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الكافرين والعصاة يعيشون الحسرة والندامة حين يرون
العذاب يوم القيامة ، ويعضون على أيديهم ، ويندمون لأنهم لم يتخذوا الطريق
الذى دعاهم إليه رسول الله ﷺ ، وأطاعوا فلانا فقد أوردتهم موارد التهلكة بعد أن
أضلهم عن الطاعة ، وصرفهم عن القرآن الكريم بعد أن جاءهم به رسول الله ﷺ ،
ويقرون باستحقاقهم العذاب الذى هم فيه ، ويؤكدون أن الشياطين من الإنس
والجن تصرف اتباعها عن الحق ، وتخذلهم عن الصواب .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

توضيح طريق الخسران والندامة

كل إنسان يولد على الفطرة ، وحين إدراكه تتأثر فطرته فإما أن تعلو ، وتترقى بالفهم ، والعقل ، واما أن تهبط ، وتتدلى بالظلم والمعاصي .

وسبب ذلك أن الفطرة الإنسانية تتأثر بالعوامل التي تحيط بالإنسان منذ صغره ... ويبدأ التأثير بالآباء الذي ينشأ الصغير تحت رعايتهم حيث يرى الوليد في أبائه الصورة المثالية أمامه ... ولذلك كان للأبوين قوة التأثير فيه ، وكانا له أول من يعلم ويوجه ، وكلما شب الغلام جدت عوامل أخرى لها تأثير على الفطرة مثل الرفاق ، والمدرسة ، وزملاء النادي ، واللعب ، وكافة الأنشطة الاجتماعية التي يقوم بها ... وقد وضحت الآيات طريق الخسران الذي جعل من يتبعه يندم ويتحسر ، وهذا الطريق يتضمن الجوانب التالية :

أولاً : إهمال مصادر الحق : فقد جاء الحق بينا واضحاً في رسول يبلغهم دعوة الله ، ويحثهم على الإيمان ، ويتلو عليهم القرآن الكريم ، إلا أن الخاسر أهمل النظر فيما سمع ورأى ، ولم يتأمل في دعوة رسول الله ، ولم يسلك الوسيلة الصحيحة لاتباعه ، لقد رضى بعدم طاعة رسول الله ، وهجر القرآن الكريم ، واكتفى باللهو مع العابثين .

ثانياً : الثقة في الضالين : رضى الظالم أن يعيش مع الكافر الضار ، فاتخذة أسوة له وضل مثله ، وجعله خليلاً يلزمه ، ويحبه ، ويتبعه ، ويرضى بكل ما يصدر عنه ... ولو فكر وتأمل بعقله في الدنيا لعاداه وتركه .

ثالثاً : إهمال النظر والتدبر : يجد الظالم نفسه في الدنيا أمام مصدرين للتوجيه :

أحدهما : دعوة الله يحملها رسول الله إليه ، **وثانيهما :** دعوة الكفر يسوقها خليله نحوها ، ويصرفه عن دين الله تعالى ، ويضله عن الاستقامة ...

(٣٦٥)

والعاقل من اختار لنفسه الصديق قبل الطريق ، والجار قبل الدار ،
والأمل قبل العمل لأن الإنسان يتأثر بمن يجالسه ، ويتحدث معه .
يقول النبي ﷺ : "الوحدة خير من جليس السوء ، والجليس الصالح خير
من الوحدة" (١) .

ومن الحكمة أن يختار الوالدان لابتهما ذكرا أو أنثى رفاقه وأصدقاءه قبل
أن يتصادقا ، ويتصاحبا لأن الصديق مرآة صديقه ، فلينظر أحدكم من
يصاحب .

في يوم القيامة تتضح أمام الإنسان الحقيقة فيندم من ضل وغوى ،
ويتحسر على ما فات منه في وقت لا ينفع الندم ... إن الشيطان للإنسان عدو
مبين ، والواجب الحذر منه ، والبعد عن وساوسه ، واغوائه .
وعلى الدعاة :

أن يعملوا على تقوية الفطرة والاستفادة بمناهج التربية الحديثة ، وتبصير
الإنسان بالصرط المستقيم ، وتوضيح حيل أعداء الله في الأرض ، والدعوة
الدائمة لدين الله تعالى .

موقف الضالين من القرآن الكريم

يقول الله تعالى :

(١) شعب الإيمان . كتاب حفظ اللسان . باب فضل السكوت ج ٧ ص ٥٨ .

(٣٦٦)

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٦٦﴾
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ۖ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣٦٧﴾
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۖ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ
فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٦٨﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ
تَفْسِيرًا ﴿٣٦٩﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا
وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٧٠﴾ ۝ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة حسرة الكافرين في الآخرة بسبب انصرافهم عن
ذكر الله تعالى جاءت هذه الآيات لبيان موقفهم من القرآن الكريم ، ومناقشتهم
فيما أثاروه معه من إعراض وهجر .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن رسول الله ﷺ شكاً لربه موقف قومه من القرآن الكريم ،
فعرفه الله تعالى بأن الله جعل شياطين الإنس والجن أعداء للنبي ودعوته ،
وتوضح مع ذلك حكمة نزول القرآن الكريم منجماً .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ أى

شكا الرسول ﷺ إلى ربه قومه الذين دعاهم إلى الإيمان ، وقرأ عليهم القرآن وبين أنهم تركوا هدى القرآن ، وهجروه بقلوبهم ، وبأعمالهم ، وبسلوكهم مع ما فيه من خير لهم .

وفى إبراز هذا القول من رسول الله بيان لسوء صنيع القوم ، وتوضيح أن هجر القرآن هجر للدين كله ، وأنهم لا يؤمنون بأن محمدا رسول الله .

وفى لجوء رسول الله إلى الله لجوء إلى القدرة بجلالها ، وعظمتها ، وعلمها ، وتوضيح للمنهج الذى يجب على الدعاة والمؤمنين اتباعه حين يرون صدا واعراضا ، وعداوة .

وقد رد الله على رسوله ، وعرفه بأن العداوة هى سبب ما هم فيه ، ومثله مع قومه كمثّل الرسل مع أقوامهم فقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ

عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى ومثّل ما تلقاه من قومك لقيه الرسل جميعا قبلك . فقد كان لهم أعداء مجرمون عارضوهم ، وقاوموهم ، واتهموهم بما ليس فيهم فلا تبتئس ، ولا تجزع ، واصبر كما صبروا ، وتأمل في أقوام الرسل لترى سفاهتهم وجرمهم .

﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًّا وَنَصِيرًا ﴾ ويكفيك يا محمد أن الله معك يهديك

للحق ، ويبعدك عن الضلال ، وينصر دينك في العالمين ، وينصرك على كل أعدائك ، فاصبر واستمر واعلم أن الغلبة والنصر في النهاية للمؤمنين الصادقين .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ أى وقال

الذين كفروا من أهل الكتاب ومن غيرهم : هلا نزل القرآن الكريم دفعة واحدة كما نزلت الكتب السابقة ... وهذا موقف منهم يحرضون عليه ، وينادون به ، غير متصورين أن نزول القرآن الكريم دفعة واحدة قد تحقق حين نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ... أما نزوله منجما على رسول الله في الأرض فهو ضرورة لتحقيق الفوائد المرجوة من نزوله ... وهى :

أولا : تثبيت قلب النبى ﷺ :

يقول الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أى أنزلنا القرآن

الكريم منجما ليثبت به قلبك ، وتحفظه ، وتبلغه للناس شيئا فشيئا ليحفظوه ، ويطبقوا ما فيه مراعى طاقاتهم ، وظروفهم ، وبذلك يثبت به قلبك ، ويثبت في قلوب المؤمنين ، ويثبت عملا وسلوكا في المجتمع والأمة ... وخلاصة فوائد هذا التثبيت ما يلى :

(١) إنه عليه الصلاة والسلام لما كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، فلو نزل عليه القرآن جملة واحدة كان من الصعب عليه أن يضبطه ، وجاز عليه السهو والغلط فأنزله الله منجما لتيسير ضبطه ، وتحقيق معانيه .

(٢) أنزل الله القرآن منجما ليكون حفظه أكمل ، ويكون أبعد عن المساهلة ، وقلة التحصيل .

(٣) إن القرآن الكريم لو أنزل جملة واحدة على الخلق لنزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة عليهم ، ولا يخفى ما فى ذلك من حرج عليهم بكثرة التكاليف مرة واحدة ، ولكن بإنزاله منجما جاء التشريع رويدا رويدا فكان احتمالهم له أيسر ومرانهم عليه أسهل وكلما جد حدث نزل حكمه .

(٤) إنه عليه الصلاة والسلام لما شاهد جبريل الفينة بعد الفينة قوى قلبه على أداء ما حمل به ، وعلى الصبر على أعباء النبوة ، وعلى احتمال أذى قومه ، وقدر على الجهاد الذى استمر عليه طوال حياته الشريفة .

(٥) إن الله أنزل القرآن الكريم هكذا بحسب الأسئلة والوقائع ، فكان فى ذلك زيادة بصر لهم فى دينهم .

(٦) إنه لما نزل هكذا ، وتحداهم بنجومه ، وبما ينزل منه ، وعجزوا عن معارضته كان عجزهم عن معارضته جملة أجدر وأحق فى نظر الرأى الحصيف .

(٧) إن بعض أحكام الشريعة جاء فى بدء التنزيل وفق حال القوم الذين أنزلت عليهم ، وبحسب العادات التى كانوا يألّفونها ، فلما أضاء الله بصائرهم بهدى رسوله تغيرت بعض أحوالهم ، واستعدت أنفسهم لتشريع يزيدهم طهرا على طهر ، ويذهب عنهم رجس الجاهلية الذى كانوا فيه ، فجاء ذلك التشريع الجديد الكامل المناسب لتلك الحال الجديدة ولو نزل القرآن جملة لم يتسن شئ من هذا .

ثانيا : الترتيل المتقن :

يقول الله تعالى : ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ أى تقرأه على الناس مجودا مقروءا

على نمط خاص ، وهذا يحتاج إلى التلقى التام ، لأن الترتيل يعنى قراءة القرآن على نسق لفظى ، وتصوير للمعانى ، وقد تلقاه جبريل ﷺ مرتلا من الله تعالى ، وتلقاه رسول الله ﷺ من جبريل ﷺ ، وتلقاه الصحابة مرتلا من رسول الله ، وينتقل القرآن هكذا من جيل إلى جيل ليبقى الإعجاز القرآنى فى اللفظ والمعنى معا ، ولا يتم ذلك إلا بالتلقى المتواتر عن رسول الله الذى تلقاه من جبريل من الله تعالى .

وهذا الترتيل بصورته الواجبة يحتاج لوقت من الناس لتعلمه ، وحفظه وفهمه ، والعمل به ، ولذلك استمر نزول القرآن منجما ثلاثا وعشرين سنة . يقول الله تعالى : ﴿ وَقُرْءَانَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ ^(١) أى أنزلناه مفرقا ليعلم به الناس فى مدة طويلة يحتاجون إليها ، لإجادة الترتيل كما نزل من عند الله تعالى .

ثالثا : رد باطل الكفار بالحق :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أى ولا يأتونك بحالة ، أو صفة ، أو أمر يحاولون به صرف الناس عنك ، وعن دعوتك ، وعن القرآن الكريم إلا جئناك بالرد الحق الذى يبطل الحالة التى ذكروها ، وبصورة يكون فيها الرد الحق مفصلا ، بينا ، حسنا . شاملا ، وقد جعل الله ما جاءوا به صفة أو حالة باطلة ، وجعل ما يجئ فى القرآن الكريم هو الحق . يقول الله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ آلُؤْلُؤٌ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ ^(٢) .

وختم الله الآيات ببيان عاقبة الكافرين الذين عارضوا الحق ، وعملوا على إحياء الباطل فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ أى أن هؤلاء القوم يعاقبهم الله تعالى بنوع جرمهم فقد حاولوا إظهار الباطل ، وإخفاء الحق ، ولذلك عاقبهم الله تعالى يحشرهم إلى جهنم سيرا على وجوههم وعلو أرجلهم .

(١) سورة الإسراء ، الآية ١٠٦ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ١٨ .

روى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : "يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف . صنفا مشاة ، وصنفا ركبانا ، وصنفا على وجوههم ، قيل : يا رسول الله ، وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم ، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حذب وشوك" (١) .

وحشر الكفار على وجوههم أمام الخلائق نهاية الدل ، والخزى ، والهوان بعد أن كانوا فى الدنيا يتيهون كبرا ، واستعلاء ، ويدعون النصر والغلب .

﴿ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أى هؤلاء الكافرون بلغوا من الشر أقصاه ، ووصلوا إلى مكانة سافلة أبعدتهم عن الصراط المستقيم الذى جاءهم به رسول الله ﷺ فاضلوا واستحقوا ما هم فيه فى الآخرة .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات شكوى رسول الله ﷺ من قومه الذين عارضوا الدعوة ، وكفروا بالله تعالى ، وهجروا القرآن الكريم ، وتركوه ، فعرفه الله بأن ذلك نشأ من عداوة المجرمين لدين الله تعالى ، وهذا شأن المجرمين مع الرسل جميعا ، ودعاه إلى الصبر والاكتفاء بنصر الله وهدايته .

وتبين الآيات أن الكافرين أخذوا يطلبون نزول القرآن الكريم دفعة واحدة ، فعرفهم الله أن الله أنزله منجما لتثبيت النبى ﷺ ، وللمحافظة على ترتيله كما نزل ، وللدرد على سفاهات المجرمين فى كل مواقفهم ، وهذا يحتم تنجيم القرآن الكريم ، فكلما ذكروا صفة أو حالة سيئة رد الله عليهم بالحق الذى يبطلها .

(١) سنن الترمذى . كتاب ابواب تفسير القرآن . باب ومن سورة بنى إسرائيل ج ٥ ص ٣٠٥ .

(٣٧٢)

وتبين الآيات أن الله تعالى سيعاقب الكفار بجنس جرمهم فسوف يحشرهم إلى جهنم سيرا على وجوههم فمقامهم سيئ ، وطريقتهم ضلال .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

فهم الواقع والتعامل معه

أساس العلاج معرفة المرض ، لأن الطبيب إذا علم المرض حدد له الدواء المناسب ، وهذا حكم عام يشمل أمراض البدن والقلوب .
والدعاة هم أطباء العقول ، وبناء العقيدة ، ورسل الخير والاصلاح بين الناس ، وعليهم أن يحددوا أسباب انصراف الناس عن التطبيق الصحيح للإسلام ...

وتشير الآيات إلى الأسباب التي تصرف عن اتباع الإسلام ... وهي :

(أ) **الجهل** : ذلك أن الإسلام قائم على العلم الذي يكشف الحقائق ، ويبين أحكامه ، وقد نزل القرآن الكريم لهذا البيان ، ولذلك كانت دعوته إلى العلم والتعليم ... إلا أن المشركين هجروا القرآن الكريم ، ولم يتأملوا معانيه ، ولم يقفوا على براهينه وحججه .

(ب) **ظهور أعداء الحق** : لم يجتمع الناس على أمر واحد أبدا ، وسيستمرون على هذا الخلاف ... وفي كل جماعة ينقسم أصحابها إلى فرق متعددة فإذا علا شأن المجرمين تبعهم ضعفاء الناس ، وأخذوهم إلى الكفر والفساد .

(ج) **الحرمان من هداية الله تعالى** : إذا سيطر الجهل ، وظهر المجرمون جاء الشيطان ونشط معهم ، وهذا يحرمهم من هداية الله وتوفيقه .

هذا هو واقع مشركى مكة ، وقد عرضه رسول الله على ربه ، وهو العليم الخبير ، وأدى هذا الفهم إلى وضع منهج صالح لدعوة المشركين إلى دين الله تعالى ، يقوم على استمرار الدعوة ، ونشر المعرفة الصحيحة ، وتعليم المسلمين أحكام الإسلام الصحيحة ... ومن المهم إظهار الأعداء وحيلهم لتجنبها ، والحذر منها ... وأيضا على الناس أن يتأهلوا لنوال فضل الله تعالى بالذكر والطاعة .

إن الدعوة تعنى التعامل مع الواقع ، وتنشط مع العلم والمعرفة ، وتؤدي إلى اتخاذ رسول الله ﷺ قدوة وأسوة .
ويجب أن يتحرك الجميع بدين الله ، والتوجه إليه سبحانه ، والدعاة هم رواد الطريق .

الركيزة الثانية **ضرورة الدليل البين**

الجدل نوعان ، **جدل عقيم** لا يريد الوصول للصواب ، وكل ما يعمل له هو إضاعة الوقت ، وإظهار الباطل بإشاعة ما لا يفيد .
وجدل آخر يقصد معرفة الحق ، وإظهار صوابه ، ولذلك أمر الله به ووصفه بالحسن ، يقول تعالى : ﴿ وَجَدِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾^(١) ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾^(٢) فالجدل فى الإسلام هو من النوع الثانى الذى يقوم على الصدق ، ويهدف للوصول إلى الصواب .

(١) سورة النحل ، الآية ١٢٥ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٤٦ .

(٣٧٤)

وقدّمت الآية صورة عملية للجدل الحسن حين طلب المشركون نزول القرآن الكريم دفعة واحدة فرد الله عليه مبينا الفوائد المترتبة على نزول القرآن منجما .
وهكذا ...

يجب أن يكون الحوار بينا ، معتمدا على أدلة واقعية ، وبراهين قوية لأن ذلك يقنع العقل ، ويثبت الحق ، ويرسم طريق الهدى للناس أجمعين .

الركيزة الثالثة

العدل فى الحساب والجزاء

جاء الإسلام للناس لتحقيق السعادة ، ونشر الأمان ، ولا يتحقق ذلك إلا بتحقيق العدل والمساواة بين الناس .
إن الله يأمر بالعدل ، ويقيم عليه الخلق كله ، وهو عدل مطلق ممتد فى الدنيا ، وفى الآخرة .

ونرى هذا العدل فى الحساب فمن عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ومن العدل ما نراه فى عقوبة الكفار يوم القيامة لأنهم كما كفروا بالإسلام وهجروا القرآن الكريم ، وطلبوا نزوله دفعة واحدة ، وقلبوا حياتهم من طاعة إلى معصية ، فكان أن عاقبهم الله تعالى بحشرهم سيرا على وجوههم ، وهذا منتهى الخزي والهوان لأنهم لا يستحقون إلا كل سوء وضرر .

معاقبة معارضى الرسل

من خلال قصص الرسل

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٦٥﴾
فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٦٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ
لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٦٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرُّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٦٨﴾
وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي
أَمْطَرْنَا مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ
نُشُورًا ﴿٧٠﴾ ۝ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة موقف المجرمين من رسول الله ﷺ ، ومن القرآن الكريم ، والعقوبة التي استحقوها جاءت هذه الآيات لبيان عاقبة الأمم السابقة فقد أهلكهم الله تعالى بسبب كفرهم بالرسول ، وايدائهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات بعض قصص الرسل السابقين ، وتركز على العقوبات التي أهلك الله بها أقوامهم بعد أن ذهبوا في عدائهم للرسول مذهبا بعيدا .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

(٣٧٦)

تعدد الآيات العقوبات المهلكة التي نزلت بالكافرين في الأمم الماضية فقد كذبوا الرسل ، وكفروا بالله ، واستمروا في السخرية والاستهزاء برسول الله عليهم السلام ، وقد تضمنت الآيات ما يلي :

- أولا -

عاقبة فرعون وقومه بعد تكذيبهم موسى وهارون "عليهما السلام"

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴾

أى قد كلفنا موسى بالرسالة ، ونزلنا عليه التوراة فيها هدى ونور ، وأرسلنا معه أخاه هارون وزيراً يؤازره ، ويقويه ، ويشاركه في التبليغ والدعوة .

﴿ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا ﴾ أى أمرنا موسى

وهارون عليهما السلام بأن يذهبا إلى فرعون وقومه ، ويدعوانهم إلى الدين الحق بعدما كذبوا بآيات الله في كونه الواسع ، وفى أنفسهم .

﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ أى أن موسى وهارون عليهما السلام ذهبا إلى

فرعون وقومه ، ودعوههم إلى الله وإلى دينه القويم فكذبوهما فدمرهم الله بالغرق تدميراً كبيراً ، وفى قوله تعالى : ﴿ أَذْهَبَا ﴾ بيان لمشقة الدعوة ، وضرورة بذل الجهد معها .

فإن قيل : لم تذكر الآية فرعون مع أنه رأس الكفر والطغيان ، وهو الذى ادعى الألوهية ؟

(٣٧٧)

أقول : لم تذكر الآية فرعون ، واكتفت بإدراج واحد من قومه لبيان مسئولية قوم فرعون وحاشيته عن تجبر فرعون وطغيانه ، إذ لولاهم ما طغى فرعون .

- ثانيا -

هلاك قوم نوح ﷺ

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾

أى أن قوم نوح لما كذبوا نوحا واستهزأوا به وبرسالته ، واستمروا في كفرهم أغرقهم الله بالطوفان ، ولم يبق منهم إلا من آمن بنوح ﷺ ، وهم الذين ركبوا السفينة معه ، وقد جعل الله تدميرهم عبرة وعظة لمن بعدهم من الناس .

فإن قيل : إن قوم نوح كذبوا نوحا فقط وهلكوا . فلم ذكرت الآية أنهم كذبوا

الرسل ؟

أقول : إن تكذيب رسول الله واحد يعنى تكذيبا لسائر الرسل ، لأن جميع الرسل يدعون إلى عقيدة واحدة .

﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى أعد الله بقدرته لكل من

كفر وطغى عذابا أليما في الآخرة .

- ثالثا -

هلاك قوم هود وصالح

وأصحاب الرسل وغيرهم

﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ أى

وأهلكنا عادا قوم هود ﷺ ، وثمود قوم صالح ﷺ ، وأصحاب الرسل الذين قتلوا نبيهم باليمامة ، وأما عديدة كفرت برسلهم فدمرهم الله تعالى .

(٣٧٨)

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ أى وضحنا لكل هؤلاء أدلة التوحيد ،
وبينا البراهين الصادقة ، وضربنا لهم الأمثال المؤكدة إلا أنهم تمادوا في كفرهم
وضلالهم ، واستمروا في عنادهم وعداوتهم لرسولهم .
﴿وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا﴾ أى أهلكناهم جميعا بصورة فظيعة شديدة بسبب
عنادهم وكفرهم .

- رابعا -

هلاك قوم لوط عليه السلام

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوَاءً﴾ الواو حرف قسم
دخلت على قسم محذوف لتأكيد أن لوطا عليه السلام جاء لهذه القرية ... والمعنى والله
لقد أتى خير قوم لوط إلى أهل مكة خلال رحلة الصيف إلى قرية "سدوم" وهى
قرية قوم لوط الذين أهلكهم الله بحجارة السجيل التى أنتهم من فوقهم ، مطرا
نازلا من جهة السماء ، بسبب الخبائث التى كانوا يعيشون فيها ، وقد حذرهم
لوط عليه السلام من فعلها ، ودعاهم إلى الله فكذبوه فأهلكهم الله تعالى .
﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ ؟ ... وهذا إنكار على أهل مكة ، والمعنى
أعموا في رحلتهم إلى الشام فلم يروا هذه القرية مع أنها معلومة ، وشاهدة على
ما نزل بقوم لوط عليه السلام .
والاستفهام يعنى أنهم رأوها ، ولم يستفيدوا بما رأوا .
﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أى إن أهل مكة رأوا القرية ، إلا
أنهم لم يؤمنوا بمحمد ودينه ، ولم يصدقوا باليوم الآخر ، ولذلك استمروا على
شركهم ، وبقوا عابدين للأصنام .

(٣٧٩)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات هلاك الأمم التي كذبت الرسل قبل محمد ﷺ ، وذكرت منهم فرعون وقومه ، وقوم نوح وهود وصالح ، ولوط عليهم السلام وأصحاب الرسل وغيرهم ، وتشير إلى ما حصل لهم من دمار وهلاك بعد كفرهم وضلالهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تشير الآيات إلى عدد من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الجريمة لا تفيد

خلق الله الإنسان ، وأرسل له الرسل ، ودعاه للصواب والإيمان فأمّن فريق ، وكفر آخرون ، واستحق كل ما قدمت يداه .
وقد دعا الرسل أقوامهم إلى الإيمان بالله تعالى ، وترك عبادة الأصنام ، وطاعة الرسول فيما يشرعه لهم إلا أنهم كفروا ، وضلوا ، واتهموا الرسول بالسحر والجنون ، وطالبوا أن يكون الرسول ملكا ، أو من أغنيائهم فأهلكهم الله تعالى ، ودمرهم ، وقدر للكافرين أمثالها ، وهذا من العدل في العقاب ، لأنهم استحقوا جزاء ما عملوا ، وتأكد للجميع أن الجريمة لا تفيد .

الركيزة الثانية

ضرورة الاعتبار والعظة

أورد القرآن الكريم قصص الأمم السابقة في القرآن الكريم ، وكررها في صور شتى ، فجاءت قصيرة ومطولة ، وفي كل مرة تركز على قضية جديدة لا

(٣٨٠)

توجد فى غيرها ، وبذلك خلا القصص من التكرار الممل ، ولأنه جاء فى كل مرة بجديد .

وفى هذا الموضع جاء القصص موجزا فى إشارات سريعة إلى العقوبات التى دمر الله بها الكافرين .

وما كان ذكر هذه إلا لتكون آية للناس يعتبرون بها ، ويرون مثلها ، ويتدبرون فى فسقها وفجورها حتى لا يفعلوا فعلهم ، ويكفروا مثل كفرهم .

لقد ضل المشركون عن الصراط المستقيم لأنهم لم يربطوا الأسباب بمسبباتها ، ولم ينظروا فى حركة الكون والحياة ، وأدى ذلك إلى عدم إيمانهم بالله ، وأدى ذلك إلى كفرهم باليوم الآخرة فتمادوا فى الإجرام لأنه لا حساب ، ولا عقاب كما يؤمنون .

وان غفل هؤلاء فعلى العقلاء أن لا يغفلوا مثلهم ، ويوجهوا العقل للتدبر والتفكير ليكون الإيمان بالله تعالى .

ويمكن للدعاة أن يستفيدوا ويعتبروا ، ويوجهوا الناس مستفيدين بما فى القصص من عظات وعبر .

استهزاء المشركين برسول الله ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذًا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿١﴾
إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۖ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

(٣٨١)

حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ
أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿١٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ
يَعْقِلُونَ ۚ إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ ۚ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١٤﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة هلاك الأمم السابقة بعد تكذيبها للرسول جاءت
هذه الآيات لبيان موقف مشركي مكة من رسول الله واستهزائهم به ، وعبادتهم
للأصنام ، وتسليية رسول الله ﷺ في مواجهة فساد الضالين .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المشركين استهزأوا برسول الله ، واستبعدوا أن يختاره الله
لِلرَّسَالَةِ ، وتوضح أن الكفار اتهموا رسول الله ﷺ بأنه كاذب أن يضلهم عن عبادة
الأصنام .

وتبين الآيات أن المشركين سوف ينالون عقوبة كفرهم وضلالهم ، فقد
اتخذوا آلهة من الجماد ، لا تسمع ، ولا تعقل ، فصاروا أضل من الأنعام .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ
رَسُولًا ﴾ ؟ ... يخبر الله رسوله ﷺ بما يفعله المشركون معه لأنهم حين يرونه
يسخرون منه ، ويتخذونه مادة لهزئهم ، ويتساعلون منكبين ومتعجبين ويقولون

: أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ ... فيشيرون إلى رسول الله بدون أن يذكروا اسمه استعلاء منهم واستكبارا ... وكأن هناك من هو أفضل ، وأحق بالرسالة منه .
 ويزداد ضلالهم ، ويكذبون على رسول الله ، ويزعمون أن دعوته إضلال لهم فيقولون : ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾
 أى أن محمدا بأقواله وأفعاله كاد أن يصدنا عن عبادة الأصنام ، وأوشك على أن نكفر بها لولا أننا صبرنا على عبادتها ، وثبتنا على ما نحن فيه وتمسكنا بما كان عليه آبائنا .

وهذا القول من المشركين يفيد عدة أمور :

الأمر الأول : إن رسول الله ﷺ بذل أقصى الجهد في دعوة المشركين ، وبين لهم الحجج والبراهين ، وناقشهم في شأن أصنامهم ، وعبادتهم حتى شاربوا على ترك أصنامهم ، والدخول في الإسلام ...

وهذا الأمر يبين طريق الدعاة ، ووجوب قيامهم بالدعوة ، وضرورة بذل الجهد في تبليغ الإسلام ، وإيصال الإسلام بوجهه الصحيح إلى المدعوين .

الأمر الثانى : أن المشركين رضوا بالشرك ، وعبادة الأصنام ، وأنهم عطلوا عقولهم ، ورضوا بالتقليد، واستقاموا على الضلال رغم تهافته ، وفساده.

الأمر الثالث : أن المشركين كانوا حيارى مضطرين فهم يستهزئون برسول الله ﷺ ويتهمونه بالجنون ، وفى نفس الوقت يقولون : إنه كاد أن يصرفهم إلى دينه ، ويقنعهم بحججه لولا صبرهم على أصنامهم .

وقد رد الله على القوم إفكهم واستكبارهم فقال سبحانه :

(١) ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

أى سيتأكد هؤلاء المشركون حين ينزل العذاب بهم يوم القيامة ، وحين

يشاهدونه بحواسهم ، وسيعلمون من الضال ؟ ومن الذى بعد عن الصراط المستقيم ؟

(٢) ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ ؟ ...

الاستفهام إنكارى لرد ما عليه القوم . والمعنى أنظر يا محمد في حال هؤلاء المشركين فقد جعلوا هواهم إلههم ، واتبعوا سنتهم ، وعبدوا الأصنام التى لا تهدى لشيء ، ولا تحدد طريقا .
واعلم يا محمد أنك لست مسئولا عن هؤلاء الضالين ، ولست وكيلا لهم وكل ما عليك هو البلاغ المبين .

(٣) ﴿ أَمْ نَحْسِبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ ؟ ...

الاستفهام إنكارى . والمعنى أتحسب يا محمد أن أكثرهم يسمع ما يقال ويفهمه حتى تستمر في حوارهم وجدلهم ؟ ... إن أكثرهم لا يعي ما يسمع ، ولا يفهم ما يقال .

وانما تحدثت الآية عن أكثرهم لعلم الله أن بعضهم سيدخل في دين الله تعالى ، وأنه سيخرج من أصلابهم من سيؤمن بالله تعالى .

﴿ إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ ۚ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أى إن حالهم في ترك

الفهم والتدبر ، والنظر في آيات الله تعالى كحال البهائم ، بل إن حالتهم أسوأ من حال البهائم ، لأن البهائم تنقاد لصاحبها الذي يتعهد لها ، وتعرف من يحسن إليها ومن يسيئ ، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرها ، وتهتدى لمراعيتها ومشاريتها ، وتأوى إلى معاطنها ومرابضها ، لكن هؤلاء لا ينقادون لخالقهم ورازقهم ، ولا يعرفون إحسانه إليهم ، ويجهلون إساءة الشيطان لهم ، وهو الذى زين لهم اتباع الشهوات .

(٣٨٤)

إن جهالة الأنعام مقصورة عليها ، وجهالة هؤلاء تؤدي إلى وقوع الفتنة والفساد ، وصد الناس عن سنن السداد ، ووقوع الهرج والمرج بين العباد .
والبهائم لم تعقل صحة التوحيد والنبوة ولم تعتقد بطلان ذلك ، بخلاف هؤلاء فإنهم اعتقدوا البطلان عنادا ، ومكابرة ، وتعصبا وغمطا للحق .
والبهائم لم تعطل قوة من القوى المودعة فيها ، فلا تقصير من قبلها عن الكمال ، أما هؤلاء فهم مبطلون لقواهم العقلية ، مضيعون للفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وقد قالوا : الملائكة روح وعقل ، والبهائم نفس وهوى ، والبشر مجمع الكل للابتلاء والاختبار ، فإن غلبته النفس والهوى فضلته الأنعام ، وإن غلبته الروح والعقل فضل الملائكة الكرام^(١) .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المشركين كانوا يستهزئون برسول الله ، ويتعجبون من اختياره للرسالة ، ويقولون أنه ﷺ كاد أن يقنعهم بحججه ، ويصرفهم عن عبادة الأصنام ... ويعرف الله رسوله بهؤلاء القوم ، ويبين له أنهم على ضلال وفساد ، وأنهم جعلوا الهوى إلههم ، ولم يسمعوا قولا ، ولم يفهموا قضية فأكثرهم كالأنعام بل هم أسوأ حالا منها .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

استعلاء أهل الضلال

(١) تفسير المراغى ج ١٩ ص ٢١ .

من مشاهدات الواقع أن أهل الضلال والكفر يدعون لأنفسهم احتكار الفهم ، ويرون أن من حثهم الاستعلاء والتكبر ... وحتى يثبت ذلك في عقول الآخرين ، وعواطفهم يحيطون أنفسهم بالمركب الوثير ، والمظهر الأثير ، والصوت العالى ، والتكثير من الاتباع ، وادعاء السلطان والسيطرة والتحكم من شئون الناس ... وإذا ظهر ناقد يعيبهم ، ويظهر فسادهم ، يسارعون بإخفائه والقضاء عليه .

ولقد كان لمشركى مكة هذه الصفات ، فلما ظهر رسول الله ﷺ يبين فساد أصنامهم ، وضلال شركهم استهزأوا به ، واستصغروا شأنه في استعلاء وكبرياء وقالوا : أهذا الذى بعث الله رسولا .

وقد دل موقفهم على فساد عقولهم فهم يعبدون الأصنام ، ويكفرون بالله ومع ذلك يتعجبون ، وينكرون أن يختار الله محمدا للرسالة ، إنهم كفروا بكل شئ فما لهم يتعجبون !!؟

الركيزة الثانية **إهمال سفاهة الصغار**

يسير القافلة نحو غايتها وتستمر في طريقها غير متأثرة بنباح الكلاب ومعارضة الضالين، لأنها لو توقفت للجدل وطرد المهاجمين سيتوقف سيرها وتقدمها .

ولذلك يخاطب الله رسوله ويأمره أن يستمر في الدعوة إلى الله تعالى ، ولا يتوقف كثيرا عند من عبد صنما ، وكفر بالله تعالى ، فقد اتخذ هواه إلها ... وعرفه بأنه ليس وكيلا عن هؤلاء الناس ، ولن يتأثر بضلالهم وكفرهم فهم كالأنعام لا يعقلون ، بل هم أضل منها .

(٣٨٦)

وهذا منهج للدعاة حتى يتجاوزوا عن سفاهة الصغار ، وضلال المبطلين
لأن نباح الكلاب لا ينبغي أن يوقف سعى الرجال .

الركيزة الثالثة **مقاومة الضلال قبل تمكنه** **من قلب صاحبه**

يبدأ الشيطان في إغواء الإنسان ، واضلاله شيئاً فشيئاً ، ويتعامل معه من
حيث موقفه من الفساد ، وكلما أطاعه زاد في إضلاله ، وقد صور الرسول ﷺ
هذا الحال بنزع الأمانة من القلوب حيث تبدأ بنقطة صغيرة على القلب تتبعها
نقاط معها حتى يسود القلب كله .
وهؤلاء المشركون يبدأون بالتقليد ، وينتهون إلى تمسكهم بالضلال ،
ومهاجه دعوات الحق والاصلاح .

وهنا ...

ننبه إلى ضرورة مقاومة الفساد عند بدايته ، والتخلص من كافة صورته
وحركاته قبل أن يستشرى وينتشر ... إن معالجة فساد قليل أيسر من علاج
ضلال كبير .

وعلى الدعاة :

أن لا يسمحوا بأفراد وأفكار السوء أن توجد بين الناس ، ويجتهدوا في
القضاء عليها .

من آيات الله المحيطة بالإنسان

يقول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٩﴾ لِنُخْضِيَ بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسِي كَثِيرًا ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥١﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥٢﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهْدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٤﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٥﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة سفاهة المشركين وسوء مصيرهم جاءت هذه الآيات لتوضيح بعض الآيات الكونية المحيطة بالإنسان الدالة على وجود الله ووحدانيته ليسرع الإنسان إلى الإيمان بدل أن يكون من المشركين والعصاة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات بعض الآيات الكونية المحيطة بالإنسان الدالة على وجود الله ووحدانية ، وقدرته .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

(٣٨٨)

تذكر الآيات عددا من الدلائل الدالة على وجود الصانع ... وهذه الآيات

هى :

الآية الأولى

حال الظل زيادة ونقصا

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ الظل المكان الذى لا توجد فيه

الشمس سواء كانت موجودة أو غائبة ، والمراد منه وقت غيابها من ظهور
الفجر إلى شروق الشمس .

ومد الظل معناه سحبه وجره ، فإن انبلاج الفجر يؤدى إلى تدرج الإسفار
شيئا فشيئا حتى تطلع الشمس ، وينحسر الظل شيئا فشيئا حتى ينتهى بطلوع
الشمس .

والظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة ،
وهو ما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس ، وكذا الكيفيات الحاصلة داخل
السقف وأفنية الجدران ، وهذه الحالة أطيب الأحوال لأن الظلمة الخالصة يكرهها
الطبع وينفر عنها الحس ، وأما الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من
الشمس فهى لقوتها تبهر الحس البصرى وتقيد السخونة القوية وهى مؤذية ،
فإذن أطيب الأحوال هو الظل ولذلك وصف الجنة به فقال : ﴿ وَظِلٌّ مَّمْدُودٌ

﴿(١)(٢) .

(١) سورة الواقعة ، الآية ٣٠ .

(٢) تفسير الرازى ج ٢٤ ص ٨٨ .

في هذا الوقت تشعر النفوس بالراحة ، وتعيش بعث حياة يوم جديد ليتنفس النهار عن عمل ونشاط . يقول الله تعالى : ﴿ وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ^(١) .
والخطاب لرسول الله ﷺ إلا أنه عام لكل إنسان لأن جميع المكلفين مشتركون في أنه يجب تنبهم لهذه النعمة ليستدلوا بها إلى وجود المنعم .
وقد استفاد الإنسان من فضل الظل في صناعة مظلات وبيوت تحمي الإنسان من الضحى وحر الشمس .

﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ أى ولو أراد الله أن يسكن الظل ويثبت على حالته ولا يتغير إلا أن الله لم يرد ذلك حتى يعلم الناس قيمة الظل فلو لا الشمس ما عرف الظل ، ولو بقى الظل مستمرا دائما لحرم الإنسان من الضوء الذى يحتاج إليه للحركة والعمل .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ أى جعلنا الشمس دليلا على وجود الظل ، وبياننا للفوائد المترتبة على كل من الشمس والظل .
﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أى إن الظل مهما امتد فإن الله ينقصه شيئا فشيئا بهدوء ، ولين حتى ينتهى ، وينتشر النور والضوء .

الآية الثانية

وجود الليل والنهار

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ أى ومن رحمة الله بعباده ، ولطفه بهم أن جعل الليل لهم بمنزلة اللباس الذى يستريحون ، ويغشاهم حتى يستقروا فيه ، ويهدأوا بالنوم ، ويستريحوا

(١) سورة التكوين ، الآية ١٨ .

(٣٩٠)

من تعب النهار . فقد جعل الله النهار للعمل حيث ينتشر الخلق فى الأرض للسعى ، وللمعاش ، ودلالة الليل والنهار على قدرة الله ووجوده ظاهرة لأن تعاقب الليل والنهار يسير وفق نظام محكم دقيق لا يتخلف ، ولا يجور بعضه على بعض ، وهذا فضل من الله تعالى لأن الزمن لو استمر ليلا دائما لحرم الإنسان من نعم النهار ... ولو استمر نهارا دائما لحرم الإنسان من نعم الليل ، إلا أن الله تفضل على الناس بخلق الليل والنهار .

الآية الثالثة

إرسال الرياح وإنزال المطر

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى أنه

سبحانه وتعالى أرسل الرياح تبشر بقدوم المطر الذى يرحم الله به عباده ويحقق لهم ما يريدون ، وغالبا ما يسبق الريح نزول المطر .

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ أى وأنزلنا من السماء ماء تتطهرون

وتتنفعون به فى الشراب ، والرى ، وغسل الملابس ، والوضوء ، والاغتسال .

﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا ﴾ أى نحى به الأرض التى كانت مواتا

فأحياها الماء ، وأنبت الزرع ، واهتزت وريت بنزول الماء عليها .

﴿ وَنُسْقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِيًّا ﴾ أى وليشرب منه

الحيوان والإنسان ، وقدم فى الذكر ما به حياة الإنسان من نبات وحيوان لحاجته إليها ، ولأن وجود الماء لسقيا الأرض دليل على وجوده لسقيا الناس .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ ﴾ أى ولقد صرفنا المطر بين الناس ، وأجربناه

إليهم فى صور كثيرة ، حيث ينزل عليهم مطرا مباشرا ، أو ينزل على مرتفعات

(٣٩١)

بعيدة ويسير إليها فى أنهار طويلة ، أو يخترق الأرض فيسكن فى باطنها ، ويجرى خلالها ليصنع آبارا فى أماكن أخرى بعيدة .
وكما صرفنا الماء فى حركته صرفناه فى صورته فيكون فى صورة الحجر أحيانا ، أو سائلا فى صور أخرى ، أو بخارا فى الهواء .
وجعلنا منه كل شئ حى ، فتمتلئ به أجسام الأحياء من النبات ، والطيور والهوام ، والإنسان .

﴿ لِيَذْكُرُوا فَأَيُّ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أى صرفنا الماء على صور شتى ليعتبروا ، ويعرفوا نعمة الماء ، فيشكروها ... إلا أن أكثر الناس أبوا إلا جحودا للنعمة ، وكفرانا بخالقها .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ أى ولو أردنا أن نرسل رسولا إلى أهل كل قرية لفعلنا ، ولخفت أعباء الرسالة عنك ... ولكن بعثناك رسولا إلى كل القرى ، وختمنا برسالتك الرسالات لتصبر وتحسب ، فقد أعددنا لك من الكرامة والمنزلة الرفيعة ... وأنزلنا عليك القرآن الكريم يتلى إلى يوم القيامة .

﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِمْ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ أى قد اختارك الله يا محمد رسولا للعالم كله ، فامض لما أرسلت به ، ولا تطع الكافرين فيما يدعونك إليه لتوافقهم فى آرائهم ومذاهبهم ، وأبذل أقصى الجهد فى دعوتهم ، وعظهم بمنهج القرآن الكريم القائم على الحكمة والموعظة الحسنة .
وقص عليهم قصص القرآن الكريم عن الأمم السابقة ، وحذرهم من عاقبة الكفر والاستمرار فى الشرك .

الآية الرابعة

عزل الماء المالح عن الماء العذب

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾

أى ومن نعم الله عليكم أن جعل البحرين متجاورين متلاصقين أحدهما عذب فرات ، أى شديد العذوبة يميل طعمه إلى الحلاوة ، والآخر شهد الملوحة يميل طعمه إلى المرارة ، وجعلهما لا يمتزجان حتى لا يفسد أحدهما الآخر . فمنع الماء المالح من تغيير عذوبة الماء العذب ، وحجزه عنه بقدرته .
وتلك نعمة كبرى ، وآية عظيمة لأن الماء العذب حياة الإنسان ، وحياة كل الكائنات التى يحتاجها الإنسان ، فلو مزج الله البحرين لانعدم الماء العذب وحينئذ لا توجد حياة .

فإن قيل : لم سمت الآية النهر العذب بحرا ؟

أقول : سمت الآية النهر بحرا من باب الغلبة اللغوية ، ولأن النهر لسعته وطوله يشبه البحر .

﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أى جعل بين البحرين

حاجزا يمنعهما من التمازج ، ويحجز كل منهما عن الآخر .
وفى الآية إشارة إلى أماكن التقاء المائين عند مصب ماء النهر فى البحر فإن كلا من المائين يبقى منعزلا عن الآخر .

الآية الخامسة

خلق البشر من الماء

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى قدر

وأوجد البشر جميعا من الماء ... ويراد بالماء أحد معنيين :

المعنى الأول : الماء الذى خلق الله به أصول الحيوانات جميعا ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ﴾^(١) .

والمعنى الثانى : نطفة الرجل التى يوجد منها الولد بقدره الله ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ ﴾^(٢) .

وقد جعل الله من هذا الماء إنسانا بعناصره ، وخصائصه ، وعقله ، وتلك آية كبرى ، لأن تحول ذرة من نطفة إلى إنسان عاقل رشيد ، يتمكن من ملكية الأرض وقيادة الدنيا ، وخلافة الله يشهد كل ذلك على قدرة الخالق العظيم فقد جعل من هذا الماء بشرا .

﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ أى وجعل من هذا البشر نسبا وصهرا ... نسبا من الذكور ينتسب إليهم وهم الأصول والفروع التى ينتسب إليها الإنسان ... وصهرا أى إناثا يصاهرهم الرجل .

وآية القدرة العجيبة فى هذه الآية أن الله خلق من مادة واحدة بشرا عجيب الصنع ، بديع الخلق ، كبير العقل ، عظيم التفكير ، متعدد الصور والألوان ، والأشكال ، وقسمه رجالا ونساء ، وهىأه للانتساب والمصاهرة ، ووزعه إلى قبائل وشعوب وأمم ، وسخر له كل ما خلق ، وجعل المخلوقات تعمل بذاتها لخدمته ...!! ألا يدل ذلك على قدرة الله الخالق العظيم !!

﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ أى كان الله ولا يزال فى قدرته الأزلية الأبدية ، وهو ربك يا محمد فلا تحزن لكفر من كفر ، وعصيان من عصى .

(١) سورة النور ، الآية ٤٥ .

(٢) سورة الطارق ، الآية ٥ ، ٦ .

(٣٩٤)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات نعم الله وأفضاله على الناس ، وتفصلها لهم ليعلموا قدرة الله تعالى ويؤمنوا به ، ويخلصوا في العبادة له سبحانه وتعالى .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

إظهار آيات الله تعالى

نعم الله كثيرة لا تعد ولا تحصى ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾^(١) وقد بث سبحانه وتعالى في كونه الآيات الدالة عليه :

وفي كل شئ له آية .: تدل على أنه الواحد

وصدق من قال :

تأمل في رياض الأرض وانظر .: إلى آثار ما صنع الملوك

عيون من لجين شاخصات .: على أهدابها ذهب سبيك

على قضب الزبرجد شهادات .: بأن الله ليس له شريك

وتشير الآيات في جملتها إلى عدة حقائق تدل على وجود الله وقدرته ...

هذه الحقائق هي :

أولا : الدقة المتناهية فكل مخلوق أوجده الله تعالى جاء دقيقا في مكوناته

لأداء الهدف الذي خلق له .

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٤ .

(٣٩٥)

ثانيا : جمال كل المخلوقات وهى تقوم بدورها على تنسيق منظم ، وجمال حسن . فما من مخلوق إلا ركبه الله فى صورة جميلة .

ثالثا : لكل مخلوق غاية وجد لها ، ولكل المخلوقات وظيفة تؤديها ، وقد أوجد الله الخلق على نحو خاص لنقوم بوظائفها حيث كل مخلوق بدوره الذى هياه الله له ، وتسير المخلوقات كلها فى اتساق ، وتوازن ، وتكامل بلا تعارض أو تناقص .

هذه الحقائق تدل على أن الكون خلق الله ، وأن الله رب العالمين .

وعلى الدعاة :

أن يقدموا هذه الحقائق للناس بينه واضحة ميسرة ، ويمكنهم أن يتخيروا الآيات آية آية ، وتوجيه المدعوين إلى النظر فيها ، والتدبر فيها فهى تدل على قدرة الله تعالى .

ومن المهم إيقاظ العقول من غفلتها ، ورد الشبه التى يثيرها الأفاكون وسط الناس .

بيان ضلال الكافرين وتعنتهم

يقول الله تعالى :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۚ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ۝ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ۝ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَنُ فَسْأَلُ بِهِ خَبِيرًا ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۝ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ۝ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات نعم الله وآلاءه الدالة على كمال قدرته ، ووحدانيته ، وكافة صفات الجلال والكمال . جاءت هذه الآيات لبيان ضلال الكافرين ، وتسلي رسول الله فقد بلغ الرسالة ، وبلغ ما وجب ، وعرف الناس بالآيات والبراهين التي تشهد بصدقه ، وصدق دعوته .

- ٢ -

موضوع الآيات

(٣٩٧)

تبين الآيات جحود الكافرين وكفرهم فقد أتاهم رسول لا يأخذ منهم أجرا وعرفهم بالخالق الذى أوجد لهم كل ما هم فيه من فضل ، إلا أنهم أصروا على الكفر ، ونفروا نفورا شديدا .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ أى ويعبد هؤلاء المشركون الضالون آلهة لا تنفعهم إذا عبدوها ، ولا تضرهم إذا تركوها ، ولا غاية لهم فى عبادتها إلا العنت والكبرياء ، وادعاء الفهم والاختيار ... كما يفعل الضالون فى كثير من شئون الدنيا .

﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ وهذا شأن آخر من شئون الكافر الجاحد ، وهو أنه يظاهر الشيطان ، ويتعاون معه فى الفجور والكفر ... وذلك دأب أهل الضلال والمعاصى ، فهم يعاونون الشيطان ، ويتقمصون دوره ، ويقومون بدور المثبط المعادى ، ويحاربون الحق ما أمكنهم فهم والشيطان سواء .
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى كيف يعاديك يا محمد هؤلاء الكفار ، وينتظرون أن يغلبوا ... وأنى لهم ذلك !! فقد اختارك الله ، وأرسلك إليهم ، تبشر وتندر ... ومن ضلالهم أنهم أفرغوا جهدهم فى إيذاء رسول الله ورد دعوته مع أنه ﷺ بذل جهده فى هدايتهم ، وانقاذهم من آلام الدنيا وعذاب الآخرة .

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى قل لهم يا محمد إنى أدعوك للإيمان ، وأبذل جهدى فى الإرشاد والنصح بلا أجر آخذه منكم ، حتى

لا يدعى أحدكم أنى أدعوكم لغرض شخصى ، أو نفع مادى ، وانما ادعوكم لتؤمنوا بالله ربكم لأنقذكم من مآهات الشرك ، وظلمات الضلال والبوار .

﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أى أما من أراد دفع المال للجهاد أو إعانة للناس ، وخدمتهم قاصدا بذلك وجه الله فليفعل .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ وهذه

تسليية أخرى لرسول الله ﷺ أى وتوكل على ربك الدائم الباقي رب كل شئ ومليكه ، واجعله ملجأك وذخرك ، وفوض إليه أمرك ، واستسلم له ، واصبر على ما نابك فيه ، فإنه كافيك وناصرك ومبلغك ما تريد ، ونزّهه عما يقوله هؤلاء المشركون من صاحبة الولد ، فهو الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد كما تنزهه عن الأنداد والشركاء من الأصنام والأوثان فهو واحد لا كفاء له ولا ند : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾^(١) .

﴿ وَكَفَىٰ بِهِ بُذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ أى ويكفيك ربك فهو العليم

الخبير ، المحيط بكل خلقه ، وهو سبحانه عليم بكافة ذنوب عباده ، وسيحاسبهم عليها ، فاترك الأمر لله ، ولا تبتئس .

﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ أى إن ربك العليم الخبير هو الذى خلق السموات

والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، وحقه أن يعبد وحده ويترك ما عداه من أصنام وأوثان .

(١) سورة الإخلاص ، الآية ٤ .

﴿الرَّحْمَنُ فَسَّكَلْ بِهِ خَيْرًا﴾ أى هو عظيم الرحمة ، والشفقة فاسأله

عن آياته ، فهو خالقها وخير من يعلمها ، وخير من يخبر عنها .

وفى هذا إشارة إلى ضرورة التخير عند البحث والتحرى ، لأن الرجوع إلى قاصر العقل ، فاسد السلوك لا يوصل لحق ... أما العودة إلى العالم صاحب العقل المدقق ، فإنه يوصل للصواب ... وكل إناء ينضح بما فيه ، ولن ينتج الحنظل حلاوة وعسلا .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ؟ ... السؤال

إنكار من الكفار حين دعوتهم للسجود ، أى وإذا قال رسول الله ﷺ لهم : اسجدوا لله رب العالمين فهو الرحمن ... ردوا مستهزئين : وما الرحمن ؟ نحن لا نعرف رحمانا نسجد له ... ولا نعرف إلا رحمن اليمامة يقصدون به مسيلمة الكذاب .

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ؟ ... ينكرون بسؤالهم أن يسجدوا لله الذى

يدعوهم إليه محمد ﷺ بدعوى أنهم لا يعرفون عنه شيئا ، وكل معرفتهم هو غرابة أمر محمد الذى يدعوهم إلى الله الرحمن الرحيم .

﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أى زادتهم دعوة محمد ﷺ كفرا ونفورا عن الحق

واصرارا على ما هم فيه من ضلال وكفر .

ونزه الله ذاته عن جهلهم ، وضلالهم ، ونفورهم . فقال تعالى .

﴿تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا

مُنِيرًا﴾ أى تجلت عظمة الله تعالى ، وثبتت نعمه ورحمته فى خلقه فقد جعل

فى السماء بروجاً كباراً فى قصور عالية ، وجعل فيها الشمس سراجاً ، والقمر نورا ليتمتع الإنسان بها ، ويهتدى منها الله رب العالمين .

(٤٠٠)

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أى ومن آيات الله تعالى أن خلق الليل والنهار متعاقبين يخلف أحدهما الآخر ، وجعل كلا منهما مخالفا للآخر فالليل مظلم للسكون ، والنهار منير للسعى والعمل .
جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له : فانتنى الصلاة الليلة ... ؟
قال له : أدرك ما فاتك من ليلتك فى نهارك ، فقد جعل الله الليل والنهار خليفة^(١) .

﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أى جعل الليل والنهار خلقة لم أراد أن يتعظ ، ويقف على نعم الله وفضله ، أو فكر فى شكر المنعم المتفضل .
والآية بيان واضح فى أن الإيمان أو الكفر موكلان لاختيار الإنسان ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المشركين يعبدون أصناما لا تضر ولا تنفع ، ويعيشون معاونين للشيطان الضال ، فلا تحزن يا محمد وقل لهم : إني لن أخذ منكم مالا ولا أطلب منكم نفعا ، وكل ما ادعوكم إليه هو الله ربكم الذى يملك الوجود كله ، ويتحكم فيه ، وهو الخبير بخلقه ، فاسأله إن أردت علما حقيقيا .
إن هؤلاء المشركين قد ضلوا ضلالا بعيدا ، وحين يدعوه إلى الرحمن يدعون الجهل به ، ويتساءلون : من هو الرحمن ؟!

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ١٠٧ .

(٤٠١)

إنه الله رب العالمين الذى خلق السموات العلا ، وخلق فيها بروجاً ثابتة
وشمساً للضوء ، وقمرًا للنور ، وجعل الليل والنهار خلفه لمن يريد الاتعاض
والتذكير .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عدداً من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

تحديد معالم النجاح أمام الدعوة

تضع الآيات معالم النجاح للدعاة ... وهى :

أولاً : معرفة المدعو ، وهذا أمر أساسى للدعاة ، وعليهم أن يعرفوا كل
شئ عن المدعويين ليتمكنوا من تخير الموضوع ، وأساليب الخطاب ، ويجمعوا
توضيح المواقف ، ورد الشبهات ، ومناقشة الضلال حين وجوده ، ولذلك عرف
الله رسوله لمشركى مكة وبين له أنهم يعبدون أصناماً لا تضر ولا تنفع ،
ويتعاونون فى الكفر بالله ، ومعارضة رسول الله ﷺ .

ثانياً : تحديد المسئولية التى يكلف بها الدعاة : وهذه مسألة لها أهميتها
تجعل الدعاة يقومون عملهم فى إطار مسئولياتهم ، ولا يتأثرون بمواقف الآخرين
، ماداموا أدوا دورهم ، ولذلك عرف الله رسوله أنه أرسل مبشراً ونذيراً ، بلا
أجر يأخذه منهم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . مادام البلاغ قد تم .

ثالثاً : التوكل الدائم على الله ، فهو الله الواحد ، القادر ، العليم ، الخبير
الذى يملك ما خلق ، ويهذى من يشاء إلى صراط مستقيم .

(٤٠٢)

رابعاً : التعالى عن سفاهة المشركين ، وهذا يعنى إهمال المشركين فى سفههم ، وعدم الرد عليهم فى استهزائهم ، وكبريائهم ... لأن ذلك يصرف الدعاة عن علمهم وعملهم وغاياتهم .

خامساً : الذكر الدائم لله تعالى ، فهو خالق كل شئ ، والدعاة يعملون له ووجب عليهم أن يذكروه دائماً لينالوا معونته وتوفيقه ، ويتمتعون بنعمه وأفضاله فى الدنيا ، وفى الآخرة .

هذه أهم عوامل النجاح المستفادة من الآيات ، وعلى الدعاة أن يستفيدوا منها ، ويعينهم الله بسببها .

الركيزة الثانية

ضرورة العبودية القانتة

لله رب العالمين

خلق الله الإنسان والجن لعبادته ، وحبب إليهم الإيمان ، ودعاهم إلى طاعته سبحانه وتعالى ... وعرفهم بصفاته العلى ، وكلماته البادية فى كونه الواسع العجيب .

خلق الله الإنسان مكوناً من جسد وعقل وروح ، وخاطب القرآن الكريم هذه العناصر فى الإنسان ، وبين أن الله أنزل المطر ، وأنبت الزرع والثمر ، وخلق الأنعام ، والحيوان ، والطير ، والسمك ، والجراد ، ليعيش الإنسان ويقوى جسده ... وعرف الله الإنسان بمخلوقاته ليعقل ويؤمن ... وأظهر صفات القدرة والقهر ، والرحمة لتترقى عواطفه .

إن الإنسان من بين مخلوقات الله مسئول أمام ربه الخالق العظيم ، فليُنظر إلى كون الله ، وصلتها به ، وتسخيرها له ليشكر الله ، ويبقى عبداً قانتاً لله رب العالمين .

صفات عباد الرحمن

يقول الله تعالى :

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ۝
وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۚ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا
۝ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا
وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۝ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا
يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ
أَثَامًا ۝ يَضَعُ لَهُ الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَذُ فِيهِ مِهَانًا ۝ إِلَّا مَنْ تَابَ
وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۚ وَكَانَ
اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا
۝ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝
وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَحْزِنُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝ وَالَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُتَّقِينَ
إِمَامًا ۝ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا
۝ خَلَائِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا
دُعَاؤُكُمْ ۚ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۝﴾ .

(٤٠٤)

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة صفات الكفار ، وتعنّتهم جاءت هذه الآيات لبيان
صفة عباد الرحمن الذين آمنوا بربهم ، واستقاموا على هديه .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات صفات عباد الرحمن الذى آمنوا واصلحوا واهتدوا .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تناولت الآيات صفات عباد الرحمن الرئيسية ... وهى :

(١) ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أى

وعباد الله الذين حق لهم الجزاء والثوبة من ربهم ، هم الذين يمشون فى سكينة
ووقار ، لا يضربون بأقدامهم الأرض كبرا ، ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا .
وقد أضاف الله العباد إليه مذكرا بصفة الرحمن لبيان فضلهم بصفاتهم لأن
الخلق كلهم عباد الله .

روى أن عمر رضي الله عنه رأى غلاما يتبختر فى مشيته فقال : إن البختر مشية
تكره إلا فى سبيل الله ، وقد مدح الله أقواما فقال : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ
يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ فاقصد فى مشيتك^(١) .

وقال ابن عباس : هم المؤمنون الذين يمشون علماء حلماء ذوى وقار
وعفة^(١) .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ١٠٨ .

وفى الحديث إن النبي ﷺ قال : "أيها الناس عليكم بالسكينة ، فإن البر ليس بالإيضاع" . (السير السريع)^(١) .

وفى صفته ﷺ : إنه كان إذا زال زال ثقلاً ، ويخطو تكفوفاً ، ويمشى هونا ، ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبيب ، أى إنه كان يرفع رجله بسرعة فى مشيه ، ويمد خطوه خلاف مشية المختال ، وكل ذلك برفق وتثبت دون عجلة ، ومن ثم قيل كأنما ينحط من صبيب^(٣) .

(٢) ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا ﴾ أى وإذا سفه عليهم السفهاء بالقول السيئ لم يقابلوهم بمثله ، بل يعفون ، ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيراً ، وكان رسول الله ﷺ لا تزيد شدة الجاهل عليه إلا حلماً .
وعن الحسن البصرى : هم حلما لا يجهلون ، وان جهل عليهم حلموا ولم يسفهاوا ، هذا نهارهم فكيف ليلهم ؟ خير ليل ، صفوا أقدامهم ، وأجروا دموعهم ، يطلبون إلى الله جل ثناؤه فكاك رقابهم^(٤) .

قال ابن العربى : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين ولا نهوا عن ذلك بل أمروا بالصفح والهجر الجميل ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقف على أندية المشركين ، ويحييهم ، ويدانيهم ، ولا يداهنهم .

(٣) ولما ذكر تعالى ما بينهم وبين الخلق ذكر ما بينهم وبينه فقال : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴾ أى والذين يبيتون ساجدين قائمين لربهم أى يحيون الليل كله أو بعضه بالصلاة ، وخص العبادة بالبيتوتة ، لأن العبادة بالليل أخلص وأبعد عن الرياء .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ١٠٧ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب الحج . باب أمر النبي ﷺ بالسكينة ج ٢ ص ١٦٤ .

(٣) الشريعة للأجرى . كتاب الإيمان . باب صفة رسول الله ﷺ ج ٣ ص ٥١٦ .

(٤) تفسير الخازن ج ٥ ص ١٠٧ .

يقول النبي ﷺ : "من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الفجر فى جماعة فكأنما قام الليل كله"^(١) .

(٤) ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أى والذين

يدعون ربهم أن يصرف عنهم عذاب جهنم ، وشديد آلامها ، وغرم شقائها . وفى هذا مدح لهم ببيان أنهم مع حسن معاملتهم للخلق ، واجتهادهم فى عبادة الخالق وحده لا شريك له ، يخافون عذابه ويبتهلون إليه أن يصرفه عنهم ثم بينت الآيات أن سبب سؤالهم ذلك وجهان :

(أ) ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أى إن عذابها كان هلاكاً دائماً ، وخسرانا ملازماً ، وغرماً مستمراً .

(ب) ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أى إنها بئس المنزل مستقراً ، وبئس الإقامة مقاما : أى إنهم يقولون ذلك عن علم ، فهم أعرف بعظم قدر ما يطلبون ، فيكون ذلك أقرب إلى النجح . قال الحسن : قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم ، وقال محمد بن كعب : طالبهم الله تعالى بثمن النعيم فى الدنيا فلم يأتوا به فأخذ ثمنه بإدخالهم النار^(٢) .

(٥) ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ

ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ أى والذين هم ليسوا بالمبذرين فى إنفاقهم ، فلا ينفقون فوق الحاجة ، ولا ييخلون على أنفسهم ، وأهلبيهم فيقصرون فيما يجب نحوهم بل ينفقون عدلاً وسطاً ، وخير الأمور أوسطها .

(١) صحيح مسلم . كتاب المساجد . باب فضل صلاة العشاء والصبح ج ١ ص ٤٥٤ .

(٢) تفسير الخازن ج ٥ ص ١٠٨ .

(٤٠٧)

وقيل : إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتتهت ... ولم ينهاها تأقت إلى كل باطل ، وسأقت إليه الإثم والعار .

قال يزيد بن أبي حبيب : أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثيابا للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ، ويقويهم على عبادة ربهم ، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ، ويكفهم من الحر والبرد^(١) .

وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوجه ابنته فاطمة :
ما نفقتك ؟

قال عمر : الحسنة بين سيئتين ، ثم تلا هذه الآية .
وقال لابنه عاصم : يا بنى كل فى نصف بطنك ، ولا تطرح ثوبا حتى تستخلقه ، ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله فى بطونهم وعلى ظهورهم^(٢) .

(٦) ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ أى والذين لا يعبدون مع الله إلها آخر فيشركون فى عبادتهم إياه ، بل يخلصون له العبادة ويفردونه بالطاعة .

﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى ولا يقتلونها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها ، وعصمتها ، كالكفر بعد الإيمان ، والزنا بعد الإحصان ، وقتل النفس بغير حق .
﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ فيأتون ما حرم الله عليهم إتيانه من الفروج .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ١٠٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٤٠٨)

روى البخارى بسنده ابن مسعود أنه قال : "سألت رسول الله ﷺ : أى الذنب أكبر ؟

قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك .

قلت ثم أى ؟

قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك .

قلت ثم أى ؟

قال : أن تزانى حليلة جارك" (١) .

وقد نفى الله عنهم هذه القبائح مع أنه وصفهم بالصفات السالفة من حسن معاملتهم للناس ، ومزيد خوفهم من الله ، واحياء الليل يقتضى نفيها عنهم ، تعريضا بما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم ، وتنبيها إلى الفرق بين سيرة المؤمنين ، وسيرة المشركين .

ثم توعده سبحانه من يفعل مثل هذه الأفعال بشديد العقاب فقال : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَذْ فِيهِ مِهْنًا ۖ ﴾ أى ومن يفعل خصلة من خصال الفجور المذكورة ، يلق فى الآخرة جزاء إثمه ، وذنبه الذي ارتكبه ، بل سيضاعف له ربه العذاب يوم القيامة ، ويجعله خالدا أبدا فى النار مع المهانة والاحتقار ، فيجتمع له العذاب الجسمى والعذاب الروحى .

(١) صحيح البخارى . كتاب تفسير القرآن . باب قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ ج ٦

وبعد أن أتم تهديد الفجار على هذه الأوزار أتبعه بترغيب الأبرار فى التوبة ، والرجوع إلى حظيرة المتقين ، فيفوزون بجنت النعيم فقال : ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أى ولكن من رجع عن هذه الآثام مع إيمانه وعمله الصالحات فأولئك يمحو الله سوابق معاصيه بالتوبة ويثبت له لواحق طاعته ، ويغفر له ويرحمه .

روى معاذ رضي الله عنه أنه عليه السلام قال : "أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس خلقا حسنا" (١) .

﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ هذه توبة غير التوبة السابقة أى ومن تاب عن المعاصى التي فعلها ، وندم على ما فرط منه ، وزكى نفسه بصالح الأعمال ، فإنه يتوب إلى الله توبة نصوحا مقبولة لديه ، ماحية للعقاب ، محصلة لجزيل الثواب ، وينير قلبه بنور من عنده يهديه إلى سواء السبيل ، ويوفقه للخير ، ويبعده عن الضير .

وفى هذا تعميم لقبول التوبة من جميع المعاصي بعد أن ذكر قبولها من أمهاتها .

(٧) ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾

أى والذين لا يؤدون الشهادات الكاذبة ، ولا يساعدون أهل الباطل

(١) مصنف ابن أبى شيبة . كتاب الأدب . باب ما ذكر فيه حسن الخلق ج ٥ ص ٢١١ .

على باطلهم ، ويكرمون أنفسهم عن سماع اللغو ، وما لا خير فيه ، كاللغو فى القرآن ، وشتم الرسول ، والخوض فيما لا ينبغي .
عن أبي بكر قال : قال رسول الله ﷺ : "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا : بلى يا رسول الله .

قال : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس .
فقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا لا يسكت" (١) .

(٨) ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُؤْا عَلَيْهَا ضُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أى والذين إذا ذكروا بآيات الله أكبوا عليها سامعين بآذان واعية ، مبصرين بعيون مفتوحة .

(٩) ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أى والذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من يطيعه ، ويعبده وحده لا شريك له .

وصادق الإيمان إذا رأى أهله قد شاركوه فى الطاعة قرت بهم عينه ، وسر قلبه ، وتوقع نفعهم له فى الدنيا حيا وميتا ، وكانوا من اللاحقين به فى الآخرة ويسألون أيضا أن يجعلهم أئمة يقتدى بهم فى إقامة مراسم الدين بما يفيض عليهم من واسع العلم ، وبما يوفقهم إليه من صالح العمل .

روى مسلم بسنده عن أبى هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، وعلم ينتفع به من بعده ، وصدقة جارية" (٢) .

(١) صحيح البخارى . كتاب الأدب . باب عقوق الوالدين من الكبائر ج ٨ ص ٤ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الهبات . باب ما يلحق الإنسان من الثواب ج ٣ ص ١٢٥٥ .

ولما بين سبحانه صفات المتقين المخلصين ذكر إحسانه إليهم فى الآخرة بقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ أى أولئك المتصفون بصفات الكمال ، الموسومون بفضائل الأخلاق والآداب ، يجزون المنازل الرفيعة ، والدرجات العالية ، بصبرهم على فعل الطاعات ، واجتنابهم للمنكرات ، ويبتدرهم من فيها بالتحية والإكرام ، ويلقون التوفير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام .

ثم بين أن هذا النعيم دائم لهم لا ينقطع فقال : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أى مقيمين فيها لا يظعنون ولا يموتون ، حسنت منظرا ، وطابت مقبلا ومنزلا .

ولما شرح صفات المتقين وأثنى عليهم أمر رسوله أن يقول لهم : ﴿ قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء الذين أرسلت إليهم : إن الفائزين بتلك النعم الجليلة التي يتنافس فيها المتنافسون ، إنما نالوها بما ذكر من تلك المحاسن ، ولولاها لم يعتد بهم ربهم ، ومن ثم لا يعبأ بكم إن لم تعبدوه ، فما خلق الإنسان إلا ليعبد ربه ويطيعه وحده لا شريك له كما قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ^(١) .

﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أى أما وقد خالفتكم حكمى ، وعصيتكم أمرى ، ولم تعملوا عمل أولئك الذين ذكروا من قبل ، وكذبتكم رسولى

(١) سورة الذاريات ، الآية ٥٦ .

(٤١٢)

فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم ، وهو العقاب الذى لا مناص منه وسوف يلزمكم ويستمر فيكم ، فاستعدوا له ، وتهيأوا لذلك اليوم ، فكل آت قريب .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أهم صفات عباد الرحمن المؤمنين .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

توضيح صفات عباد الرحمن

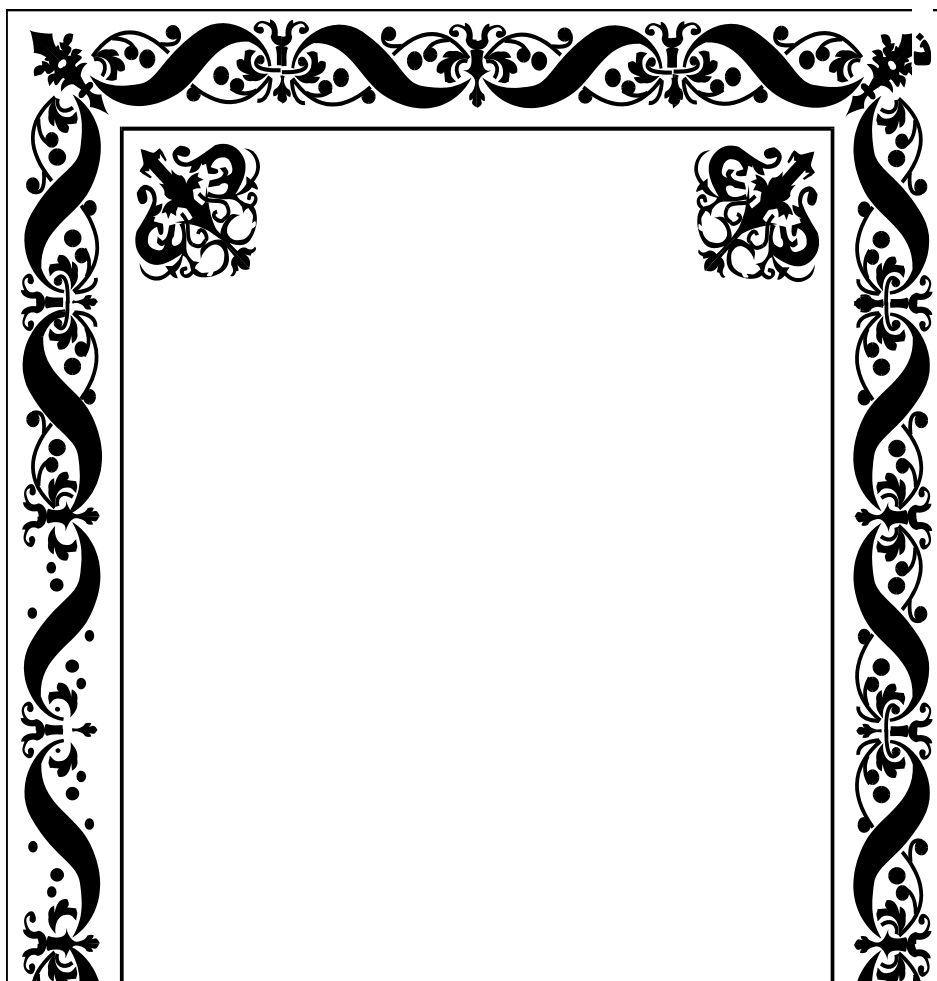
تقدم الآيات صورة أخلاقية لعباد الله تعالى ، وحسن تعاملهم مع الناس ، واجتنابهم لكل ما يسيئ إلى احد من الناس فهم فى قولهم ينشرون الأمن والسلام ، ولا يشهدون الزور ، وهم فى إنفاقهم وسط لا يسرفون ولا يقترون وفى أعمالهم يلتزمون بالصالحات ، ويتعدون عن كل ما حرم الله تعالى ، وهم فى بيوتهم يكونون الأسرة الفاضلة المؤمنة ، وأولئك يجزيهم الله بالجنة ، ويدخلهم عنده مدخلا كريما .

والآيات واضحة الدلالة فى صفات عباد الرحمن التى يستحقون بها سعادة الدنيا والآخرة .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "الفرقان" بتوفيق الله تعالى .

(٤١٣)



(٤١٥)

التعريف

بِسُورَةِ "الشُّعْرَاءِ"

التعريف بسورة "الشعراء"

يحتاج التعريف بسورة "الشعراء" إلى دراسة المباحث التالية :

- أولا -

تنزيلات السورة

سورة "الشعراء" سورة مكية ، روى ذلك عن ابن الزبير ونسبه ابن عطية إلى الجمهور كما جاءت رواية عن مكيتها عن ابن عباس رضى الله عنهما في رواية ابن مردويه^(١) .

(١) تفسير الألوسى ج ١٩ ص ٥٨ .

وقد تتبع ابن عاشور في كتابه "التحرير والتنوير" الأقوال التي ذكرت أن بعض الآيات مدنية ، ورجح أن تكون السورة مكية مؤيدا بذلك الروايات المذكورة .

يقول ابن عاشور : روى عن ابن عباس أن قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾^(١) إلى آخر السورة نزل بالمدينة لذكر شعراء رسول الله ﷺ حسان بن ثابت وابن رواحة وكعب بن مالك عليهم السلام وهم المعنيون بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾^(٢) . ولعل هذه الآية هي التي جعلت هؤلاء العلماء يقولون : إن تلك الآيات مدنية .

يقول عن الداني : نزلت ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ في شاعرين تهاجيا في الجاهلية .

يقول ابن عاشور : كان شعراء بمكة يهجون النبي ﷺ منهم النضر بن الحارث ، والعوراء بنت حرب ، زوج أبي لهب ونحوهما ، وهم المراد بآيات ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ . وكان شعراء المدينة قد أسلموا قبل الهجرة ، وكان في مكة شعراء مسلمون من الذين هاجروا إلى الحبشة .

(١) سورة الشعراء ، الآية ٢٢٤ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٢٢٧ .

وعن مقاتل : أن قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُؤُا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾^(١) نزل بالمدينة . وكان الذى دعاه إلى ذلك أن مخالطة علماء بنى إسرائيل كانت بعد الهجرة .

ولا يخفى أن الحجة لا تتوقف على وقوع مخالطة علماء بنى إسرائيل ، فقد ذكر القرآن مثل هذه الحجة فى آيات نزلت بمكة ، من ذلك قوله : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾^(٢) وهى مكة .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾^(٣) وهى مكة وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۖ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾^(٤) وهى مكة .

وشأن علماء بنى إسرائيل مشهور بمكة ، وكان لأهل مكة صلوات مع اليهود بالمدينة ، ومراجعة بينهم فى شأن بعثة محمد ﷺ كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلُونَا عَنْ الرُّوحِ ﴾^(٥) ، ولذا فالذى نوقن به أن السورة كلها مكة^(٦) .

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٩٧ .

(٢) سورة الرعد ، الآية ١٣ .

(٣) سورة القصص ، الآية ٥٢ .

(٤) سورة العنكبوت ، الآية ٤٧ .

(٥) سورة الإسراء ، الآية ٨٥ .

(٦) التحرير والتتوير ج ١٩ ص ٨٩ .

(٤١٩)

وذكر النحاس في أحد روايته عن ابن عباس رضى الله عنهما أن سورة "الشعراء" مكية ما عدا آخر خمس آيات في آخرها من قوله : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾^(١) ... وقال مقاتل : أن قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَنْ يَعَازَهُمْ عُلَمَتُهُمْ بَنَىٰ إِسْرَءِيلَ ﴾^(٢) آية مدنية^(٣) .

ونزلت سورة "الشعراء" بعد سورة "الواقعة" ، وعدد آياتها مائتان وست وعشرون آية عند أهل مكة ، وأهل المدينة ، وأهل البصرة ... وعند أهل الشام ، وأهل الكوفة مائتان وسبع وعشرون آية^(٤) .

- ثانيا -

أسماء السورة

عرفت السورة بالأسماء التالية هي :

- (١) سورة "الشعراء" لأنها السورة الوحيدة التي ذكرت اسم الشعراء ، وقد جاء هذا الاسم في جميع كتب التفسير ، وكتب السنة .
- (٢) وتسمى السورة بـ "الجامعة" كما ذكره السيوطي وابن كثير .
- (٣) وتسمى السورة بسورة "طسم الشعراء" تمييزا لها عن سورة القصص .

- ثالثا -

صلة سورة "الشعراء" بسورة "الفرقان"

تتصل سورة "الشعراء" بسورة "الفرقان" بأوجه متعددة ... أهمها :
الوجه الأول :

(١) سورة الشعراء ، الآية ٢٢٤ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ١٩٧ .

(٣) تفسير الألوسي ج ١٩ ص ٥٨ .

(٤) التحرير والتنوير ج ١٩ ص ٨٩ .

(٤٢٠)

سورة "الشعراء" تفصل ، وتبسط ما جاء في سورة "الفرقان" مجملا .

الوجه الثانى :

إن السورتين بدأتا بمدح القرآن الكريم ، وبيان قيمته وقدره ، ففي سورة "الفرقان" يقول الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾^(١) ، وفي سورة "الشعراء" يقول الله تعالى : ﴿ طَسَمَ ﷻ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﷻ ﴾^(٢) .

الوجه الثالث :

إن السورتين ختمتا بما أوعده الله به المكذبين الضالين . ففي سورة "الفرقان" يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبُؤُنَا بِكُمُ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾^(٣) ، وفي سورة "الشعراء" يقول الله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾^(٤) .

- رابعا -

موضوعات سورة "الشعراء"

سورة "الشعراء" سورة مكية ، ولذلك يدور حديثها حول القضايا التي تهتم بها السور المكية ... وهى :

-
- (١) سورة الفرقان ، الآية ١ .
 - (٢) سورة الشعراء ، الآية ١ ، ٢ .
 - (٣) سورة الفرقان ، الآية ٧٧ .
 - (٤) سورة الشعراء ، الآية ٢٢٧ .

(١) **توحيد الله تعالى** : تدعو السورة إلى توحيد الله تعالى ، وتحذر من يخالف ذلك . يقول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴾^(١) وتقدم السورة الدلائل والبراهين التي تثبت وحدانية الله تعالى .

(٢) تثبت السورة حقيقة اليوم الآخر ، وتجعل الإيمان به ركنا من أركان الإسلام ، يقول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾^(٢) ﴿ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾^(٣) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ^(٤) .

(٣) تثبت السورة وحى الله لرسوله من خلال إيرادها لقصصهم ، ومن خلال ما جاء فى السورة عن رسول الله ﷺ حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَكَنَزِيرٌ رَبِّ الْأَعْلَمِينَ ﴾^(٥) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ^(٦) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ^(٧) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ^(٨) .^(٩) فقد نزل الوحي على رسول الله مصورا لنزول الملائكة بالقرآن الكريم .
ولا تتضمن سورة "الشعراء" تشريعا ما لنزولها فى مكة قبل الهجرة .

ـ خامسا ـ

أسلوب السورة

تقوم السورة على الآيات القصيرة المناسبة للقرآن المكي لأن القوم كانوا منصرفين عن القرآن الكريم فناسب أن يخاطبهم الله بآيات قصيرة .

(١) سورة الشعراء ، الآية ٢١٣ .

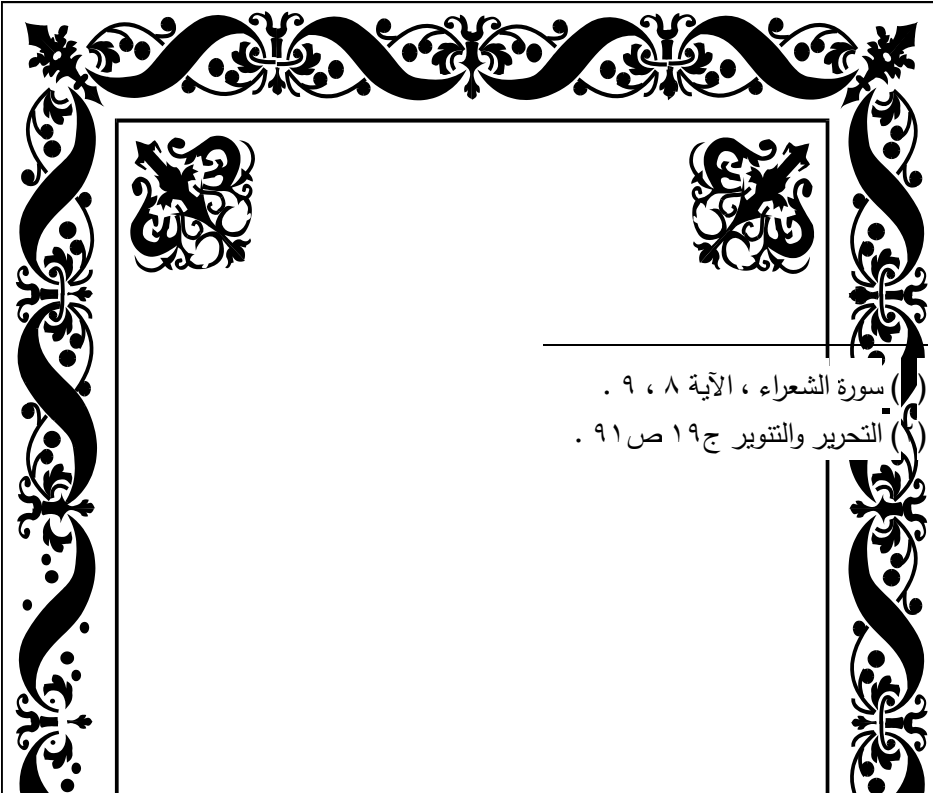
(٢) سورة الشعراء ، الآيات ٨٧ . ٨٩ .

(٣) سورة الشعراء ، الآيات ١٩٢ . ١٩٥ .

واعتمدت السورة القصص القرآنى وسيلة تقدم به قضاياها ، والسورة فى مجملها تقدم قصصها مسبقا بمقدمة ، ومتبوعا بخاتمة ، وجاءت المقدمة لبيان غاية السورة من قصصها ، وتسليية النبى ﷺ وتثبيته ، وتعريفه بما أصاب الأمم السابقة ليكون عبرة وعظة له ولأمته ، ولذلك ختمت السورة كل قصصها بتذييل واحد هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ط وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ .

يقول الزمخشري : كل قصة من القصص المذكورة فى هذه السورة كتنزيل برأسه . وفيها من الاعتبار ما فى غيرها ، فكانت كل واحدة منها تدلى بحق فى أن تختم بما اختتمت به صاحبها ، ولأن فى التكرير تقريراً للمعانى فى الأنفس ، وكلما زاد ترديده كان أمكن له فى القلب ، وأرسخ فى الفهم ، وأبعد من النسيان ، ولأن هذه القصص طرقت بها آذان وقرت عن الإنصات للحق فكوثررت بالوعظ والتذكير ، وروجعت بالترديد والتكرير ، لعل ذلك يفتح أذنا أو يفتق ذهننا (٢) .

وجو السورة تعبير عن جرائم السابقين ، وتكذيبهم لرسول الله إليهم ، وإنذارهم وهلاكهم ، وذلك لتناسب الجو الذى نزلت فيه بمكة قبل الهجرة .



(٤٢٣)

سورة "الشعراء"

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بيان عظمة القرآن الكريم

يقول الله تعالى :

﴿ طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ ۝ ﴾ .

(٤٢٥)

موضوع الآيتين

تبين الآيتان عظمة القرآن الكريم فهو كلام الله المعجز المتحدى بأقصر سورة منه وهو الكتاب الذى لا ريب فيه ، الذى يسره الله للناس ، وحدد به طريق سعادة الدنيا والآخرة .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ طَسَمَ ﴾ هذه حروف مقطعة يقال فيها ما قبل فى بداية السور السابقة التى بدأت بالحروف المقطعة ، وأشهرها أنها تفيد الإعجاز ، وتتبه الغافلين ليسمعوا ما بعدها ، ويدركوا شيئاً من الأسرار التى وضعها الله فى خلقه ليفهم الإنسان نفسه ، ويقدر ربه حق التقدير .

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ الإشارة لآيات القرآن التى نزلت قبل نزول السورة أو المقصود بها آيات سورة "الشعراء" لإثبات التحدى بأجزاء القرآن تفصيلاً كما ثبت الإعجاز بجميعه إجمالاً .
والمعنى : هذه آيات القرآن الكريم تقرأ عليكم ، وهى بلغتكم ، وحروف هجائكم ، فأتوا بآيات مثلها أو دونها .

والكاف فى قوله ﴿ تِلْكَ ﴾ تفيد الخطاب الموجه لكل متأهل لهذا التحدى من غير تعيين .

والإشارة تفيد علو الآيات ، وبيان ما فيها من بلاغة الأسلوب ، ودقة المعانى ، وحسن التوجيه .

والألف واللام فى ﴿ الْكِتَابِ ﴾ للعهد تفيد أنه القرآن الكريم المعهود لكم هو الكتاب المتميز بخصائصه ، ومعانيه .

(٤٢٦)

﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى الواضح المعنى الذى يبين المعنى المراد ، ويدل على قضاياه ببسر وسهولة .

- ٣ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الله أنزل القرآن الكريم ليبين الله دينهم ، وقد يسر لهم فهمه ، وإدراك معانيه ، وهو الكتاب المعجز ، مع أنه مكون من نفس حروف كلام العرب .

- ٤ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

توضح الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

خير الكلام ما قل ودل

ذهب العلماء فى تفسير حكمة ورود الحروف المقطعة مذاهب شتى ، إلا أنهم جميعا اتفقوا على مجئ أغلبها فى أوائل السور المكية ، وأنها جاءت من خلال القرآن الكريم الذى نزل يخاطب أهل مكة .
وقد تميزت هذه الحروف بما يلى :

- (١) خفاء المقصود منها على وجه الدقة حتى ذهب فيها العلماء مذاهب شتى .
 - (٢) أنها تأتى صدرا لآيات تمجد القرآن الكريم ، وتظهر خصائصه العامة .
 - (٣) أن العلماء ذكروا أنها أدلة هامة تثبت ما ذكروه فى تفسيرهم وآرائهم .
- وهنا نستفيد من الحروف المقطعة ركيزة كبرى ، هى أن خير الكلام ما قل ودل ... فإنه مهما قيل فى معناها فإن العلماء بينوا أنها تدل على ما رأوه فيها دلالة واضحة .

ومن هنا ...

ننادى الدعاة بضرورة التركيز فى خطاب المدعوين ، وصياغة رسائلهم الدعوية فى كلمات قليلة ، ومن المعلوم أن البلاغة هى الإيجاز ... وقد أوتى النبى ﷺ جوامع الكلم ، فكان يوضح المعانى الكثيرة فى كلمات قليلة .
إن الإيجاز غير المخل يوفر الوقت والجهد ، ويبين المعنى ، ولذلك عدت الحروف أدوات تنبيه ، وشاهد إعجاز ، ودلالات على أسماء الله وصفاته .
لا يصح من الدعاة الاستطراد فيما لا يفيد ، أو الخروج عن موضوع الخطاب ، أو التقصير فى إثبات الأدلة والبراهين .
ولا يصح للدعاة مخاطبة الناس بما لا يفهمون ، وفى موضوع لا يدرون عنه شيئاً .

الركيزة الثانية

ثبوت بيان القرآن الكريم

البيان أحد خصائص القرآن الكريم ، وقد أكد الله عليه بأساليب عديدة فهو الكتاب المبين المنزل بلسان عربى مفهوم ، وقد تجلّى الإعجاز الإلهى فى كتابه الكريم فجعل كلامه فصيحاً فى كلماته ، بليغاً فى عباراته ، بديعاً فى محاسنه ، وتتجلّى أوجه بيان القرآن الكريم فيما يلى :

(١) يبين القرآن للناس حقائق الأمم الماضية ، فيذكر كفرهم ، وعبادتهم للأصنام ، وجدلهم مع الرسل ، والدمار الذى حل بهم ، ويشير إلى مواطن العبرة والاتعاظ بهم ، وأماكن وجودهم على الأرض التى كانوا فيها ، ولعل ذلك البيان هو الذى جعل أغلب القصص فى السور المكية ، وجعل وصف القرآن بالبيان فى أوائل السور المكية أيضاً .

(٢) يبين القرآن الكريم للناس قضايا العقيدة الإلهية فهي واحدة على لسان

جميع الرسل ، ولذلك وجدنا كل رسول يقول : ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ

إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾^(١) ورأيناه يدلل على صدق ما يدعوهم إليه ، ويبشرهم إن

أطاعوه ، وينذرهم إن عصوه ورفضوه ، وسمعنا من لسان الرسل جميعا

تكامل العقيدة الواحدة المشتملة على كافة الأركان وهي الإيمان بالله ،

وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .

(٣) يبين القرآن الكريم طبائع البشر ، ونفوسهم ، ويظهر أخلاق الملائكة ،

والمؤمنين ، والأغنياء ، والفقراء ، والضالين من الناس ، ويبين طرق

وأساليب الخطاب والجدل مع هؤلاء الناس .

(٤) يبين القرآن الكريم للناس واقع الحياة ، وضرورة التعامل معها بوعي ،

وايمان وعدم الوقوع فى حبالها ، ومغرياتها المادية والمعنوية ... وقد

فصل الله للناس بشرعه طرق التعامل فى هذه الحياة الدنيا ليستقيم

المؤمنون على منهج الله رب العالمين .

(٥) يبين القرآن الكريم المستقبل القريب والبعيد للناس ليستقيموا على منهجه

سبحانه وتعالى ، فمن استقام فى الدنيا مكنه الله منها ، واستخلفه فيها ،

ونصره على أعدائه الذين هم أعداء الله تعالى .

وفى المستقبل البعيد يأتى اليوم الآخر حيث الحساب والجزاء ، وقد بينه

القرآن الكريم بيانا واضحا ، قريبا من عقل الإنسان وقدراته ... فإن يوم القيامة

وما فيه غيب لا يعلمه الله ، وكل ما فيه يغاير ما تتصوره العين ، أو تسمعه

الأذن ، أو يخطر على العقل ... ومع ذلك بينت الآيات عظمة ما يحدث فى

(١) سورة الأعراف ، الآية ٥٩ .

الآخرة بأسلوب يؤكد حسن ما فى الجنة ، وسوء ما فى النار ، وضخامة وصعوبة ما يحدث فى الحشر والحساب .

يبين المرحوم سيد قطب هذا البيان المعجز فى القرآن الكريم ، ويوضح جوانبه ، فيقول : إنه فى بنائه التعبيرى وتنسيقه الفنى ، باستقامته على خصائص واحدة ، فى مستوى واحد ، لا يختلف ولا يتفاوت ، ولا تتخلف خصائصه كما هى الحال فى أعمال البشر . إذ يبدو الارتفاع والانخفاض والقوة والضعف فى عمل الفرد الواحد ، المتغير الحالات . بينما تستقيم خصائص هذا القرآن التعبيرية على نسق واحد ، ومستوى واحد ، ثابت لا يتخلف ، يدل على مصدره الذى لا تختلف عليه الأحوال .

إنه عجز فى بنائه الفكرى ، وتناسق أجزائه وتكاملها ، فلا فلتة فيه ولا مصادفة . كل توجيهاته وتشريعاته تلقى ، وتناسق ، وتتكامل ، وتحيط بالحياة البشرية ، وتستوعبها ، وتليها وتدفعها ، دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك المنهاج الشامل الضخم مع جزئية أخرى ، ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانية أو تقصر عن تليبيتها ... وكلها مشدودة إلى محور واحد ، وإلى عروة واحدة ، فى اتساق لا يمكن أن تفتن إليه خبرة الإنسان المحدودة . ولابد أن تكون هناك خبرة مطلقة ، غير مقيدة بقيود الزمان والمكان . هي التي أحاطت به هذه الإحاطة ، ونظمتها هذا التنظيم .

إنه معجز فى يسر مداخله إلى القلوب والنفوس ، ولمس مفاتيحها ، وفتح مغاليقها ، واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها ، وعلاجه لعقدتها

(٤٣٠)

ومشكلاتها في بساطة وبسر عجيبين وفي تربيتها وتصريفها وفق منهجه بأيسر اللمسات ، دون تعقيد ولا التواء ولا مغالطة^(١) .

وماذا عن هذا البيان بالنسبة للدعاة ؟

على الدعاة :

أن يأخذوا من بيان القرآن الكريم نموذجا لبيانهم ، لأنهم يقدمون الإسلام للناس ، ويبرهنون لهم على صدقه ، ويردون الشبه عنه ، ويحتاج ذلك منهم إلى علم يقوم على الفهم الدقيق ، والتفصيل المتقن ، والأسلوب الواضح البين مع الاختصار في كل رسالة على موضوع واحد ، وبيانها في كافة جوانب هذا الموضوع الواحد .

وعلى الدعاة :

أن يعدوا لكل موضوع عدته ، ويجهزوا لكل حدث حديثا يناسبه بلا إطناب ممل ، أو قصور مخل .

وعلى الدعاة :

أن يحيطوا الموضوع الذي يتناولونه بكافة الدراسات التاريخية والإنسانية والموضوعية، لأن القصور في عرض الإسلام لا يجوز، ولا يصح أن يقوم بالدعوة من لا يحسن البيان والعرض، فقد يضر الجاهل نفسه، ويضر غيره معه

وعلى الدعاة :

أن يعتبروا أنفسهم مجاهدين بالكلمة ، يقصدون وجه الله وحده ، ويعملون له ، ويسألون له العون والتوفيق .

تسليمة رسول الله ﷺ

وبيان منهج الإسلام في الحرية والاختيار

(١) في ظلال القرآن الكريم ج ٦ ص ١٩١ .

يقول الله تعالى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاسِخٌ نَّفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٤٣١﴾ إِنَّ كُشًّا نُنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤٣٢﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٤٣٣﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَتُهُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٣٤﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٤٣٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٣٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٣٧﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة نزول القرآن معجزا مبينا جاءت هذه الآيات لتسلية رسول الله ، وضرورة أن يتعامل مع الناس برفق ولين ، وليعلم أن منهج الحرية والاختيار الذى رضىه الإسلام بعيدا عن القهر والغلبة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله سبحانه وتعالى أقام دينه فى الناس على حرية اختيارهم ، ورضاهم ، ولم يلزمهم بأمر لا يريدونه ، وعلى رسول الله أن لا يحزن لموقفهم ، وعليه أن يستمر فى دعوتهم ، وتوجيههم للتدبر فى آيات خلق الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ

يخبره الله بحالته ، ويهون عليه ما هو فيه ، لأنه ﷺ لشدة حزنه على عدم إيمان قومه كاد أن يقتل نفسه ألما ، وشفقة .

ويبين الله سبب دعوته لرسوله حتى لا يجزع على كفر القوم فيقول سبحانه : ﴿ إِنْ كُنَّا نُنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ هَا

خَاضِعِينَ ﴾ أى إن شأن الخلق جميعا بإرادتنا ، فلو شاء سبحانه وتعالى أن ينزل على المشركين آية من السماء تلجئهم إلى الإيمان ، وتجبرهم على الطاعة لفعلنا وحينئذ تبقى أعناقهم خاضعة ، وتستمر عقولهم ذليلة مستسلمة كما حصل مع بنى إسرائيل فقد ﴿ تَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾^(١) فأمنوا بالله مجبرين مكرهين ... ولو أراد الله إجبار أهل مكة على الإيمان لفعل ، لكنه سبحانه وتعالى لم يشأ ذلك ، ولذلك أرسل رسوله ، وأنزل القرآن الكريم ، وخاطب العقول والأرواح ، وعرفهم بدينه وشريعته ، وبين لهم أن الكل راجع إليه للحساب والجزاء حيث الجنة والنار .

إن القرآن الكريم هو دستور الإسلام ومنهجه ، ولذلك كان هو معجزة الإسلام الدائمة ، ولم يكن القهر وسيلة الإسلام لإيمان الناس ... إن الإسلام رسالة الله الخيرة للأمم كلها .

وليست رسالة الإسلام مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان . فناسب أن تكون آيات القرآن الكريم مفتوحة كذلك للبعيد ، والقريب ، مناسبة للعقول والأفهام لكل أمة ولكل جيل . والخوارق القاهرة لا تلوى إلا أعناق من يشاهدونها ثم تبقى بعد ذلك قصة تروى ، لا واقعا يشاهد ... فأما القرآن فما هو ذا بعد

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٧١ .

أكثر من أربعة عشر قرنا كتاب مفتوح ، ومنهج مرسوم ، يستمد منه أهل هذا الزمان ما يقوم حياتهم ، ويلبى حاجاتهم كاملة ، ويقودهم بعدها إلى عالم أفضل ، وأفق أعلى ، ومصير أمثل . وسيجد فيه من بعدنا كثيرا مما لم نجده نحن فيه ، ذلك أنه يعطي كل طالب بقدر حاجته ، ويبقى رصيده لا ينفد ، بل يتجدد . ولكن أهل مكة لم يفتنوا إلى هذه الحكمة الكبرى فأعرضوا عما ينتزل عليهم من هذا القرآن العظيم حيناً بعد حين .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾

أى أن أحوال مشركى مكة أنهم كلما جاءهم بيان جديد من الله يدعوهم لدينه ، ويذكرهم بآيات ربهم إلا أعرضوا عن استماع رسول الله ، ولم يفكروا فيما يقال لهم ، ولم يتدبروا ما فيه من خير .

وفى قوله : ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ إفادة إلى أن الإعراض صفة راسخة فيهم ، وأن الإعراض هو سمتهم الذى جعلهم لا يسمعون ، ولا يعقلون ولا يهتدون حتى صار مسمى لهم .

وذكر ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ هنا دون وصف آخر لأن السياق هنا لتسليية النبي ﷺ على إعراض قومه .

وفيه أيضا بيان لغباوة المعرضين ، وتشنيع عليهم ، وتسليية لرسول الله ﷺ لأنهم أعرضوا عما هو رحمة لهم ، فإذا كانوا لا يدركون صلاحهم ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات . فقد ضيعوا مصالحهم ، وابتعدوا عن الخير الذى دعوتهم إليه ، وذكرتهم به .

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ الفاء فاء
الفصيحة دالة على أنهم استمعوا ، وجادلوا ، وناقشوا ، وكذبوا ... ولذلك
سيأتيتهم أخبار الذين كذبوا به من رسول ، وقرآن ، ودين ، وبعث ، وحساب .
والأنباء جمع نبأ ، وهو الخبر العجيب الهام القديم ، وستأتى هذه الأنباء
لأصحابها عند الحساب ليروا آثارها فى حسابهم وعقوبتهم . فقد انتقلوا من
التكذيب إلى الاستهزاء ، ولذلك سيرون صدق ما كذبوا ، وعظمة ما
استهزأوا به ، وسينالهم آلام فى الدنيا ، وعذاب فى الآخرة .

﴿ أُولَئِكَ يَرْوُونَ إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ ؟ ...
الاستفهام للإنكار ، والمعنى أصيب هؤلاء بالعمى ، ولم يروا ما فى الأرض من
آيات داعية إلى الإيمان بالله ، وطاعته وحده ، وتقواه وحده . فقد أنبت الله فى
الأرض من كل نوع من النبات زوجين اثنين لابد منهما لإخراج الثمر ، وتما
الفاكهة ... وفى هذا خطاب للعقل ليؤمن بالله تعالى لأن كل زرع فى الأرض
على تنوعه ، وتعددده ، يظهر على نحو واحد ، وهذا يدل على أن صانعه واحد
هو الله رب العالمين ...

ويدل كذلك على إمكان البعث لأن الإنبات بعد الجفاف ، وتجدد
المزروعات المستمر يدل على قدرة الله على إحياء الموتى من قبورهم ، وبعثهم
للحساب والجزاء .

وتدل الآية على أن المشركين عطلوا وسائل الفكر ، ودعائم الفهم ، ولم
يستفيدوا بآيات الله فى طعامهم ، وشرابهم ، وحياتهم .

وفى وصف أزواج النبات بالكريم قصد الجمع بين نعمة الله ، والاستدلال
بها لأن الاستدلال على بديع الصنع يحصل بالنظر فى إنبات الكريم وغيره .
ففى الاستدلال بإنبات الكريم من ذلك وفاء بغرض الامتتان مع عدم فوات
الاستدلال . وأيضا فنظر الناس فى الأنواع الكريمة أنفذ وأشهر لأنه يبتدئ

بطلب المنفعة منها والإعجاب بها فإذا تطلبها وقع فى الاستدلال فيكون
الاقتصار على الاستدلال بها فى الآية من قبيل التذكير للمشركين بما هم
ممارسون له وراغبون فيه^(١) .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ "ذلك" اسم إشارة لآية
النبات وما فيها من دلالات على وحدانية الله وقدرته على الخلق والبعث
والحساب إلا أن كثيرا منهم لا يؤمنون بها رغم وضوحها ، وبيانها .
﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى أن ربك يا محمد غالب على أمره
، قادر على كل ما يريد ، وسينال كل إنسان جزاء عمله حيث الرحمة للمؤمنين
، والعذاب للمجرمين .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن رسول الله ﷺ كان يتألم كثيرا من عدم إيمان قومه فسلاه
الله ، وهون عليه ، وأخبره أن الله لو أراد أن يقهرهم على الإيمان لفعل إلا أنه
سبحانه وتعالى لم يشأ الإيمان القهرى فأنزل القرآن الكريم هاديا للحق ، ومبيناً
للصواب ، ومبشرا للطائعين ، ومنذرا للعصاة والضالين ، وقد قضى سبحانه
وتعالى بترك الإيمان لاختيار الناس وحريتهم ... وقد ثبت أنهم يعرضون على
كل دعوة توجه إليهم للإيمان ، ويكذبون بكل ما يسمعون ويرون ، وسوف
يحاسبهم الله على كل ما فعلوا ، وكذبوا .

لقد أنبت الله الزرع فى الأرض ، وجعل لكل نوع منه زوجين ، وفى ذلك
آية كبرى يؤمن بها أصحاب العقول السليمة ، وهم قلة فى الناس ، وإن الله
رحيم بعباده ، غالب على أمره .

(١) التحرير والتتوير ج ١٩ ص ١٠١ .

(٤٣٦)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

حرص الرسول ﷺ على حرص أمته

امتلاً قلب رسول الله ﷺ حبا لربه ، واخلاصا لدينه ، وأملا في أن يدخل الناس في دين الله أفواجا .

وقد كان رسول الله ﷺ شديد الحرص على إيمان الناس ، تحقيقا لسعادتهم في الدنيا والآخرة . يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

لقد تجلّى حرص رسول الله على إيمان قومه أن بلغهم الوحي كما نزل من عند الله تعالى ، وكان يوالى أصحاب بالدعوة ، ويذكرهم بنعم الله وفضله وكان يأمر أصحابه بحفظ القرآن الكريم ، والمحافظة عليه ، والعمل به ، وكان عليه الصلاة والسلام يعلم أصحابه القرآن الكريم ، وكان لا يقرئهم أكثر من عشر آيات إلا بعد حفظها ، والعمل بها .

وكان من حرصه ﷺ أنه كان يلتقى مع الضعفاء يعلمهم في دار الأرقم بن أبي الأرقم خفية ليعلموا ما نزل عليه من وحي الله تعالى .

كان ﷺ شديد الاهتمام بالوحي ، وتبليغ الناس ما ينزل عليه في صدق وأمانة ، ومعاملة حسنة ، وكان يتألم كثيرا لعدم إيمان الناس .

ولذلك ثبتته الله ، وسلّاه ، وعرفه أن الأمر كله لله ، وكل ما عليه هو البلاغ المبين .

(١) سورة التوبة ، الآية ١٢٨ .

(٤٣٧)

الركيزة الثانية

لا إكراه في الدين

يقوم الإسلام على اليقين القلبى ، والتطبيق العملى ، ولا يمكن تصور حدوث ذلك إلا بحرية كاملة للإنسان ، لأن القلب لا يصدق إلا بما رضى به ، واختاره ، ولا يتصور إنسان أن يكره العقل على أمر لا يصدقه ، ولا يرتضيه .

إن الإنسان إذا أظهر الرضا عن أمر يرفضه قلبه ... فإن الإسلام لا يقبله ... وإذا رضى الإنسان بأمر ولم تلتزم به الجوارح ، فإن الإسلام لا يقبل ذلك أيضا ما لم يكن ترك التطبيق بسبب خارجى .

لقد تألم رسول الله ﷺ من عدم إيمان الناس ، وكاد أن يقتل نفسه ، فهون ربه عليه ، وعرفه أن أمر الدين متروك للإنسان ، يختار ما يرضى به في حرية ، ورضى ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين .

ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن ينزل على الكافرين آية تقهرهم على الإيمان ، وترهبهم من الكفر لفعل ، لكنه سبحانه وتعالى ترك إيمان الناس لاختيارهم ، وأنزل القرآن الكريم هاديا للحق ، ومرشدا للصراط المستقيم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

وفى هذا الإخبار تسلية لرسول الله ﷺ ، وتقوية له ليستمر في بيان الدعوة ، وتبليغ الإسلام ، ولا يتأثر بكفر الكافرين ، وضلال الضالين .

إن كل إنسان صائر إلى الموت ، والساعة آتية لا ريب فيه ، وكل أفعاله مسجلة عليه ، وسوف يثيبه الله عند الحساب بكل ما عمل في الدنيا ، وسيعلم الكافرون بأنباء عملهم وضلالهم ، وسيكون مع الإنباء العقوبة والعذاب .

(٤٣٨)

وعلى الدعاة :

أن يتيقنوا بهذه الحقائق ، ويتجردوا للعمل والدعوة ويواصلوا العمل بصدق وإخلاص ... ويتخذوا من الرسول أسوة لهم .

وعلى الدعاة :

أن يحيطوا بأخبار وأحوال من يدعون ... وأن يقيسوا اتجاهات الرأى العام ليتعاملوا معه بما يكافئه من عمل وقول .

وعلى الدعاة :

أن يتيقنوا أن قيامهم بالدعوة شرف يؤدونه الله تعالى ، ولن يتم لهم ذلك الشرف إلا بالإخلاص ، والصدق ، والعمل .

الركيزة الثالثة

أهمية اصطحاب الدليل المناسب

عرضت الآيات حال رسول الله ﷺ مع كفر المشركين ، وبينت تعنت الضالين ومصيرهم ، وأمرت رسول الله بمداومة الدعوة إلى الله تعالى ... ومع ذلك أوردت الآية آية كونية جامعة يحتاجها الإنسان في كل زمان ومكان لو تأملها الإنسان حين يعيش بها ومعها لآمن بالله رب العالمين ... هذه الآية هي خلق نبات الأرض من زرع وشجر ، وفاكهة وأب ، وطعام وفاكهة ، وكل إنسان يحتاج لذلك ... ولو فكر في وجود النبات وتجده لآمن بالله تعالى .

إن النبات بكل أجناسه وأنواعه يوجد في كافة البيئات ، وفي أوقات معينة من السنة ، ويتجدد في العالم على صورته وهيئته بلا تخلف .

– فمن أوجد البذرة الأولى ؟

– ومن جعل الحبة الصغيرة تختار الزمان والمكان التى تنب فيه ؟

(٤٣٩)

- ومن أوجد لكل نوع من النبات ذكرا وأنثى ؟
 - ومن ألهم البذرة أن تتفاعل مع الماء والتراب والهواء ؟
 - ومن أوجد للإنسان طعامه ، وللحيوان غذاءه ، وللطير أكله ، وللهوام عيشتها ؟
 - ومن صنع هذا التكامل العجيب بين الإنسان ، والأرض ، والبذر ، والماء والهواء ؟
- هذه الأسئلة ، لا تجد إلا إجابة واحدة وهى إن صانع ذلك هو الله رب العالمين .

إن آية النبات عامة للناس جميعا فما من إنسان إلا ويأكل من هذا النبات بالإضافة إلى أن التجارة في المنتجات الزراعية ، والقيام بشئونها بيعا وشراء يقوم بها الإنسان أيضا .

وآية النبات تؤكد الإيمان بوجود الصانع القادر بما فيها من وحدة الصنع ودقة الحركة ، والوصول للغاية ، والفناء والانتهاى على هيئة واحدة تدل على وحدة الصانع الحكيم .

وتدل أيضا على البعث ، ووقوع يوم القيامة لأن النبات بعد جفافه يصير هشيما تذروه الرياح ... وبعد ذلك يعيد الله إيجاده ، ويجدده على مثاله السابق ، ويستمر الكون في هذه الحالة إلى أن تقوم الساعة .

ألا يدل ذلك على قدرة العزيز الحكيم !!

﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ...

قصص سورة "الشعراء"

تبدأ سورة "الشعراء" في عرض قصص رسل الله مع أقوامهم ابتداء من الآية رقم (١٠) إلى الآية رقم (١٩١) ، وبذلك تكون السورة كلها عرضا لقصص الأنبياء مع أقوامهم ، ونلاحظ مع قصص سورة "الشعراء" ما يلي :

أولا : تبدأ قصة كل رسول من المواجهة مع من أرسل إليهم وعرضه دين الله عليهم ، وطلبه منهم أن يتقوا الله ، ويطيعوه فهو رسول الله إليهم .

ثانيا : تتضمن كل قصة تفاصيل المواجهة بين الرسول وبين قومه ، وتوضح منهجية عرض الدعوة ، وعجز الكافرين ، في أسلوب بين ، وتتابع للمعانى في تفصيل رائع إلى أن تنتهى القصة بالعقوبة التى أهلك الله بها الكافرين .

ثالثا : تعد كل قصة موضوعا دعويا متكاملا يبدو خلاله موضوع الدعوة ، والبراهين الدالة على صدق الدعوة ، وموقف ومنطق الكافرين ، والمصير النهائى للمؤمنين والكافرين ... ويتكرر القصص في السورة على هذه الصورة الواحدة .

رابعا : لم تعرض السورة قصصها على الترتيب الزمنى الذى جاء في السور الأخرى ، فقد بدأت سورة "الشعراء" بقصة موسى مع فرعون مع أن قصة موسى ﷺ ظهرت للناس متأخرة عن قصص الرسل المذكورين في السورة ، ولعل سبب ذلك أن السورة نزلت لتبين مصارع الجبابرة الذين أكثروا في الأرض الفساد ، وحاربوا الله في أرضه ، وفرعون هو أكبر الطغاة ، وأكثرهم كفرا ، وأقواهم في ادعاء الألوهية ، لعل ذلك هو السبب في البدء بقصة موسى ﷺ مع فرعون .

خامسا : ختمت السورة كل قصة من قصصها بتذييل واحد هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾^(١) لبيان أن كل قصة فى مجملها آية شاهدة ، وبرهان صادق على صدق محمد ﷺ في دعوته ، وحثه على توحيد الله تعالى ، والإيمان بما له من صفات الكمال والجلال . فقضيته عليه الصلاة والسلام هى قضية كل رسول ، ودينهم جميعا واحد ، وان غفل عن ذلك الغافلون .

(١) سورة الشعراء ، الآية ٦٧ ، ٦٨ .

سادسا : تشير آيات نهاية كل قصة إلى أن أكثر الناس لا يؤمنون ، وفى ذلك تسليية لرسول الله حتى لا ييئس من كفر قومه به ، لأن الإنسان هو الإنسان ، وقد جاء كل رسول إلى قومه بآيات بينات تبين فضل الله عليهم خاصة ... ومع ذلك كفروا به ، وفى هذا عبرة لرسول الله ﷺ ليصبر على كفر قومه ، واستهزائهم به ، ولا يحزن ، ولا يتألم فالأمر لله ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾^(١) .

سابعا : فى نهاية كل قصة يحدث التفات فى الأسلوب ، ويخاطب الله محمدا ﷺ ، ويقول له : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ وفى هذا تأكيد له ﷺ ليعلم أنه يعيش فى كنف خالقه ، ومربيه ، وحاميه ، وحافظه ، وهو الحكيم ، الخبير ، القادر ، الغالب ، الودود ، الكريم ... إن الآية تحيط رسول الله ﷺ بعزة الله ورحمته وهو الذى ناجى ربه يوم الطائف : "إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى" !! فلا غضب إذا لك من الله يا محمد وانما الذى معك من الله هو المعونة ، والعزة ، والرحمة .

ثامنا : يركز قصص سورة "الشعراء" على قضايا رئيسية فى كل قضية هى :
 (١) بيان العقيدة الصحيحة ، وهى واحدة فى كل الرسالات ، وكان كل رسول يطلب من قومه أن يتقوا الله تعالى بأسلوب الحث والتنبيه ، والتحريض ، لأن التقوى تقوم على المعرفة والعمل ، وتحرك العواطف مع السلوك ... ولم يغير ذلك إلا موسى وإبراهيم عليهما السلام فإنهما اهتما بإبطال ألوهية فرعون ، وإبطال ألوهية الأصنام والأوثان .

(١) سورة الرعد ، الآية ٤٠ .

(٤٤٣)

(٢) تعريف كل رسول بنفسه فهو رسول الله قد أيده الله بالمعجزة التي ذكرها لهم .

(٣) وضحت كل قصة الحوار والجدل بين كل رسول وقومه في إطار واقع كل أمة .

(٤) بينت كل قصة مصير الضالين الذين استمروا على الكفر والضلال .
تاسعا : لم تبدأ سورة "الشعراء" بالقصص ، ولم ننته به ... وانما بدأت بعشر آيات تبين عظمة القرآن الكريم ، وتسلي رسول الله ، وتخفف عنه ما يرى من المكذبين ، وعدت هذه مقدمة للقصص ليتضح الهدف من إيرادها ... وبعد انتهاء السورة من قصها يكون الختام مع محمد ﷺ بيانا لعظمة القرآن الكريم وموقف المشركين منه ، والرد عليهم ، وتحته على التوكل على الله ، وترك ما يثيره الأفاكون ، والشعراء الجاهلون ، والبصر في النهاية للمؤمنين الصادقين .

وبهذا التقديم والختام تتضح غاية السورة وهي إمداد الدعاة بركائز تفيدهم في دعوتهم إلى الله تعالى .
وبعد ذلك أبدأ في عرض قصص سورة "الشعراء" .

- أولا -

قصة "موسى" ﷺ

تستعرض السورة قصة "موسى" ﷺ في الآيات من الآية رقم (١٠) إلى الآية رقم (٦٨) ، ولذلك سأعرضها في مقاطع متتابعة .

المقطع الأول

(٤٤٤)

تكليف "موسى" ﷺ بالرسالة

يقول الله تعالى :

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ أَنتَ الْغُلَامُ الْظَلِيمُ ۝١ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝٢ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ۝٣ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ۝٤ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ۝٥ قَالَ كَلَّا ۖ فَآذْهَبَا بِعَايَتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ۝٦﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات تكليف موسى ﷺ بدعوة فرعون وقومه ، فطلب موسى ﷺ بعث أخيه هارون ﷺ معه يشد أزره ، ويقويه حين تكذيبهم .
وسبب هذا الطلب أنه يعرف عتو فرعون ، وأنه يخاف من لجلجة لسانه
فأجاب الله طلبه وأرسل معه هارون ، وكلفهما بالرسالة عليهما السلام .

- ٢ -

تفصيلات المقطع الأول من خلال دلالة الآيات

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ أَنتَ الْغُلَامُ الْظَلِيمُ ۝١﴾ "إِذْ" مصدرية أو ظرفية منصوبة بفعل محذوف تقديره "اذكر" والخطاب للنبي ﷺ ... والمعنى اذكر يا محمد مناداة ربك موسى ، أو وقت هذا النداء الذى اختاره الله فيه للرسالة ، وأمره أن يأتى فرعون وقومه الذين عرفوا بالكفر والظلم ، وانما نسبت

الآية الظلم إلى القوم مع أن فرعون هو رئيسهم وقائدهم لأنهم هم الذين مكنوه من الظلم ، وأعانوه عليه باستكانتهم ، وطاعتهم له .

﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ﴾ أى إن هؤلاء الظالمين هم قوم فرعون فقد

طغوا وبغوا ، وكفروا ، وضلوا ضلالا بعيدا ، ومن العجيب أنهم لا يخافون الله ولا يطيعونه ، ويتعجب الله من عدم إيمانهم مع ما أحاطهم الله به من فضل ونعمة !! فأجاب موسى ﷺ ربه .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﷺ داعيا ربه ليعينه في مهمه الرسالة ﴿ رَبِّ إِنِّي

أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٦﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي ﴾ أى قال

موسى ﷺ لربه : إني أخاف تكذيبهم إياي ، وأتوقع ذلك منهم ، وأخاف حينئذ أن يضيق صدري تأثرا بموقفهم ، ويصيبني انفعال يمنع لسانى عن النطق ، وهذا يحدث في الناس لأن مواقف الضيق تلجلج اللسان ، وتقعد الإنسان عن الكلام .

﴿ فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ أى ارجو أن ترسل جبريل إلى أخى هارون ،

وتكلفه أن يكون رسولا معى ، يشد أزرى ، ويقوينى ، ويذهب خوفى .

﴿ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ أى ولفرعون وقومه جرم فعلته

وهو قتل القبطى الذى قتلته بوكزة ، ولذلك أخاف أن يقتلوني إن ذهب لىهم وحدى .

﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَادْهَبَا بِعَايَتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ أى قال الله له :

لا تخف يا موسى فقد استجبت لك ، وأرسلت معك هارون فاذهبا إلى فرعون

(٤٤٦)

وقومه ، وأنا معكم بنصرى وعونى ، وسوف أسمع كل ما يدور بينكما ، ولا تخف .

- ٣ -

معنى المقطع الأول من خلال دلالة الآيات

يتضمن هذا المقطع نداء الله لموسى عليه السلام عند جبل الطور ، وتكليفه بالرسالة ليدعو فرعون وقومه فقد ظلموا ، وكفروا ، وطغوا عسى أن يؤمنوا ويعودوا إلى الله ويتركوا بنى إسرائيل أحرارا يفعلون ما يشاءون ... فرد موسى عليه السلام على ربه سبحانه وتعالى ، وقال له : إني أخاف من تكذيبهم ، وأخاف من ضيق صدرى ، وتلجلج لسانى ، وطلب منه أن يكلف هارون معه بالرسالة يشد أزره ، ويعينه ... فاستجاب الله له ، وكلفهما بالذهاب إلى فرعون مؤيدين بتوفيق الله واعانته لهم، ودعا إلى عدم خوف موسى من قتله عقوبة على قتل المصرى. وقد حدث ما ذكره الله لموسى عليه السلام لأن فرعون لم يطلب عقابا لموسى عليه السلام على قتل المصرى ، وانما أشار إلى الحادثة أملا في أن يتذكر موسى هذه الفعلة ، ويترك الدعوة .

المقطع الثانى

المواجهة بين "موسى" عليه السلام وفرعون

يقول الله تعالى :

﴿ فَأْتِيََا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنَى إِسْرَءِيلَ ﴿٦٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَفَعَلْتَ

فَعَلَّكَ آتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٠﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٦١﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٢﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَى أَنْ عَبَّدتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٦٣﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿١٦٥﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿١٦٨﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ قَالَ لَنْ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿١٧٠﴾ قَالَ أُولَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿١٧١﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ ۖ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٧٢﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٧٣﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٧٤﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات المواجهة التي وقعت بين موسى وهارون عليهما السلام من جهة ، وبين فرعون من جهة أخرى والتي تضمنت بيان موسى ﷺ موضوع رسالته ، وانتهت بإظهار معجزتي العصا واليد .

- ٢ -

تفصيلات المقطع الثاني

من خلال دلالة الآيات

﴿ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي كلف الله

هارون ﷺ مع موسى ﷺ بالرسالة ، وأمرهما أن يأتيا فرعون ، ويخبراه بأن

الله أرسلهما إليه لدعوته إلى الإيمان بالله تعالى ، فهو سبحانه رب العالمين وهم رسل الله إليه .

وانما أفردت الآية الخبر ﴿ رَسُولٌ ﴾ لبيان أن رسالتهما واحدة ، وأن الرسول هنا بمعنى الرسالة ... والمعنى إنا جنناك برسالة واحدة من الله تعالى .

﴿ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ أى أمرهما الله أن يأتيا فرعون ، ويطلبا منه أن يطلق سراح بنى إسرائيل ولا يستعبدهم ، ويتركهم وشأنهم ليذهبوا إلى الأرض المقدسة التى وعدهم الله بها على لسان رسل الله تعالى ، وليعودوا من حيث أتوا فلقد جاءوا إلى مصر في ركب يعقوب عليه السلام حين قدم بهم إلى مصر بعد أن قال يوسف عليه السلام لإخوته : ﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ^(١) .

﴿ قَالَ ﴾ فرعون لموسى عليه السلام ﴿ أَلَمْ تُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ ؟ ... الاستفهام للإنكار ينكر فيه فرعون طلب موسى ، ويذكره بأنه الذى رياه ، ولم يقتله ، وعاش في قصر الملك مدة طويلة حتى عده المصريون ابن فرعون ، ورغب فرعون بهذا أن يرجع موسى عن طلبه ويتذكر ما فعله فرعون معه .

﴿ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى وقتلت المصرى الذى وكزته وكان من خواصى وجددت نعمتى عليك ، ولم تحافظ على جميل تتشنتك وتربيته .

(١) سورة يوسف ، الآية ٩٣ .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﷺ لفرعون ﴿ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ لقد فعلت هذا الأمر على غير قصد منى فقد وكزته للتأديب لا للقتل ، وكنت لا أتصور أن الوكزة تؤدي إلى القتل .

فإن قيل : إن فرعون ذكر لموسى ﷺ أمرين هما التربية والقتل ، فلم رد موسى ﷺ عن فعلة القتل دون التأديب ؟

أقول : فعل موسى ﷺ ذلك لأمر :

أولها : أن التربية والتنشئة معلومة معروفة لا يمكن إنكارها ، وامتنان فرعون بها لا يجوز ، لأن الإنفاق كان من أموال الشعب ، ولا يستحق أن يمتن بمال الشعب على أصحابه ... وأيضا فإن تربية موسى ﷺ في القصر كان إشباعا لرغبة فرعون وزوجته بلا طلب من موسى ﷺ ، وتحقيق الرغبة الشخصية لا يمتن بها على الغير .

وثانيها : إن القتل وقع بلا قصد فهو خطأ ، وقد ضل موسى ﷺ حين تصور أن الوكزة لا تؤدي إلى القتل .

وثالثها : بيان أن تفضل إنسان على إنسان لا يستتبع ترك المهام الكبرى التي يكلف الله الناس بها ، لأنه لو حدث ذلك لوقع في الأرض الفساد ولتعاون الضالون على نشر الكفر والضلال .

﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ أى قال موسى : إنكم أسأتم إلى حين حاولتم قتلى انتقاما لخطاي ففرت منكم حين خفت منكم .

﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى لما فررت من دياركم أعطاني الله خيرا مما كنت فيه فأعطاني علما ومعرفة بالصواب ،

(٤٥٠)

وجعلنى رسولا من رسله الذى يبلغون رسالة الله ، ويدعون الخلق إلى عبادته وحده .

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ أى وتذكرنى يا فرعون بنعمة تربيتى ، ونسيت أنك استعبدت بنى إسرائيل جميعا ، وأذقتهم سوء العذاب واستعملتهم في مشاق الأعمال بلا أجر ولا عطاء . وفى هذا تذكير لموقف فرعون . فقد استعبد الإسرائيليين جميعا ، وأحسن إلى واحد منهم ، ويحاول أن يجعل النعمة لفرد واحد تعادل بل تغلو على الإساءة لبنى إسرائيل جميعا .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لموسى ﷺ ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؟ ... أى لما ناقش فرعون موسى في نشأته ، وذكره بفضلها ، وبعد أن رد موسى عليه عاد يسأله عن ماهية رب العالمين الذى أرسلهما إليه .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﷺ مجيبا لسؤال فرعون ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ أى رب العالمين هو خالق السموات والأرض وما بينهما ، ومدبر شئون من فيهما ، والمتصرف في الكون ، وذلك أمر واضح تعلمونه إن كان لكم قلوب تدرك ، وبصر يرى ، وعقل يفهم لأن أى تصديق للواقع يؤدى إلى الإيمان بالله تعالى .

هنا التفت فرعون إلى حاشيته ، وحرضهم على موسى ﷺ ، وبين لهم ملاحظاته على جواب موسى ﷺ وذلك في قوله تعالى .

﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُ ﴾ من حاشيته ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ ؟ ...
 أى أنه سأل من حوله من قومه متعجبا هل سمعتم ما يقول موسى من أن له
 إلها غيرى ؟ ... وكان فرعون قد جمع حوله أشراف قومه .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﷺ تأكيدا لقوله السابق ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ
 الْأَوَّلِينَ ﴾ أى أن الله الذى ادعوكم إليه هو الله القديم الأزلى الذى خلقكم ،
 وخلق آبائكم السابقين ، وكأنه يقول بمفهوم الخطاب : إن كان فرعون هو ربكم
 والهكم ، فمن إله ورب الآباء الذين وجدوا قبل فرعون ؟ وهو بهذا القول يفسد
 مقالة فرعون من عده أوجه :

الوجه الأول : حدوث ظهور فرعون فهو مولود حادث ، وهذا لا يصح أن
 يكون ربا والها .

الوجه الثانى : الله بصفاته قديم أزلى ، ولا يكون لمرحلة زمنية دون سواها
 ، ومن قال بغير ذلك فهو على ضلال .

الوجه الثالث : فرعون بقوله لمن حوله يستعين بهم ، وهذا يؤكد عدم
 ألوهيته لأن الإله لا يحتاج لغيره أبدا .

﴿ قَالَ ﴾ فرعون معبرا عن عجزه أمام قومه ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي
 أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى إن موسى الذى يدعى أنه الرسول إليكم شخص
 مجنون لا يفهم السؤال ، ولا يحسن الإجابة ، فأنا أسأله عن الماهية وهو يجيبني
 بالفعل ... ولم يدر فرعون أن إجابة موسى تعرف بالله ، لأن التعريف بالأفعال
 يوصل إلى التعريف بمن أوجدها ... وفعلها .

وأيضا فإن التعريف بفعل الله يوضح عجز فرعون الذى لم ولن يخلق شيئا
 ... وكان الأجدر به في هذا المقام أن يوضح ما فعل ... إن كان له فعل !!!
 وفى بيان فعل الله توضيح أن الله هو الخالق منذ البداية إلى النهاية .

وقد سمى فرعون موسى أمام الناس بالرسول استهزاء به ، وتأكيذا منه لاتهامه بالجنون لأن القوم كانوا يتهمون من يخرج عن ألوهية فرعون بالجنون ، ويشيعون ذلك بين العامة حتى لا يؤمنوا بأى رسول يأتى ، ويستمر خضوعهم لفرعون إلههم المزعوم .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﷺ لفرعون ومن معه : الله ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى إن ربكم هو الذى جعل المشرق تشرق الشمس منه ، وجعل المغرب تغرب الشمس فيه ، وجعل الليل والنهار ، ورتب على ذلك العمل والراحة ، والنشاط والسكون ، وأوجد كل ما في الكون من مخلوقات ... فلو كنتم تملكون عقلا ما ، ونظرتم إلى ما أذكره لكم فسوف تعرفون أن الله الذى أدعوكم إليه هو ربكم ورب العالمين .

وقد تدرج موسى ﷺ في دعوته لفرعون ، فإنه لما قال لفرعون : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) سألته فرعون : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٢) ؟ أخذ موسى ﷺ يجيبه ، فبدأ ببيان أن الله هو خالق السموات والأرض وما بينهما مخاطبا فطرتهم ، ثم انتقل إلى مخاطبة عقولهم حين اتهموه بالجنون .

ولم يجد فرعون أمامه بعد ذلك إلا التهديد ف ﴿ قَالَ ﴾ لموسى ﷺ

﴿ لَئِنْ آتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ أى قال فرعون

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٦ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٢٣ .

(٤٥٣)

لئن دمت يا موسى على دعوتك ، واتخذت إلها غيرى لأجعلك من المسجونين الذين ألقاهم فى غياهب السجن ، وأذيقهم سوء العذاب ، وأبقيهم فيه إلى الموت .
هنا لم يجد موسى ﷺ بدا من المناقشة والحوار فلجأ إلى إظهار المعجزة أمام فرعون ليعرف عجزه ، ويعلم صدق موسى وهارون عليهما السلام .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﷺ لفرعون ﴿ أُولَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ أى قال موسى ﷺ لفرعون : أتسجننى ولو جئتكَ ببرهان حسى واضح ، وبمعجزات خارقة للعادة تشهد بصدقى ؟ ويؤيدنى الله بها ؟!

﴿ قَالَ ﴾ فرعون لموسى ﷺ ﴿ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾ أى قال فرعون لموسى احضر هذه الحجة التى تؤيدك إن كنت صادقاً فيما تدعيه .

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أى لما طلب فرعون إحضار المعجزة بادر موسى ﷺ بإلقاء عصاه التى فى يده على الأرض ، فتحوّلت إلى ثعبان واضح الملامح ينتشى ويتلوى ، ويقفز وينزل له جسم ثعبان وله لحمه وجلده ... فطلب فرعون آية أخرى من موسى ﷺ فأجابه موسى ﷺ ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ ﴾ أى وضع موسى يده فى جيبه ثم أخرجها فإذا هى بيضاء منيرة من غير داء ولا برص ، لها شعاع كشعاع الشمس ...
توقف فرعون بعد رؤيته لهاتين المعجزتين ، ورجع إلى سحرته ، وقومه ليساعده فى هذا الموقف الجديد .

(٤٥٤)

- ٣ -

معنى المقطع الثانى من خلال دلالة الآيات

واجه موسى وهارون عليهما السلام فرعون ، وعرفاه أنهما رسول الله أتياه
بأمر الله ليرسل معهما بنى إسرائيل ، ويطلق سراحهم ، فسألهم فرعون عن
ربهم فعرفه موسى بأنه رب العالمين ، الذى خلق السماء والأرض وما بينهما
، وهو الذى خلق كل شئ فى هذا الوجود ، وهو الذى أيده ببعض المعجزات
الحسية مثل معجزتا العصا واليد .

المقطع الثالث تأمر فرعون مع سحرته

يقول الله تعالى :

﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴾ يُرِيدُ أَنْ تُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٥٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٥٧﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

لما تمت المواجهة الأولى بين موسى عليه السلام وبين فرعون رأى فرعون تمكن موسى عليه السلام من دعوته ، ورأى خوارق العادات تؤيده ، وزين له الشيطان أنها سحر يمكن لعلمائه أن يأتوا بمثلها ، فدعاهم وشاورهم فيما يقومون به .

- ٢ -

تفصيلات المقطع الثالث

من خلال دلالة الآيات

بعد أن انتهى فرعون من لقاء موسى عليه السلام دعا العلماء والسحرة وشاورهم ، و ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴾ أى قال لهم إن موسى ، حاذق فى الشعوذة ، وإن ما رآه منه يؤكد أنه ساحر كبير ، وإن علمه بالسحر واضح .

ثم أخذ يحرضهم على موسى عليه السلام ، ويحثهم على الاجتهاد فى مقاومته وقال : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴾ أى أنه يقصد بدعوته وسحره أن يجمع الناس ، ويستعين بهم ليخرجكم من أرضكم ، ويستولى على البلاد ليملكها وقومه .

﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أى فأشيروا على بما ترون فى كيفية مقاومته ، والرد عليه ، وهزيمته أمام الناس ، وبلغ من تواضع فرعون مع حاشيته أن جعل

رأيهم أمرا له ... وكان يدعى الألوهية والقدرة على كل شئ ، وكان يقول : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴾^(١) .
وهو فى ذلك جاهل كاذب .

فقد اتهم فرعون موسى ﷺ بقول لم يقله ، ويعمل لم يعمل . فقد قابله موسى وهارون عليهما السلام منفردين ولم يطلبوا منه أكثر من ضرورة الإيمان بالله ، واطلاق حرية بنى إسرائيل ... إلا أنه كذب ، وادعى أنهما يحاولان الاستيلاء على الدولة ، واخراج أهلها منها ... وهذا كذب .
وأيضا فإنه اعتبر المعجزات التى رآها من موسى ﷺ سحرا قائما على العلم وهذا جهل واضح .

وقد نسى ادعاءه الألوهية فلجأ إلى السحرة يستعين بهم ، ويتودد إليهم ، وجهل أن هذا شأن لا يليق بالإله .

يقول أبو السعود : لقد بهره سلطان المعجزة ، وحيره نور النبوة حتى حطة من ذروة ادعاء الربوبية إلى حضيض الخضوع لعبيده فى زعمه ، والامتنال لأمرهم ، والاستعانة بمؤامراتهم ، ومشاوراتهم بعدما كان مستقلا بالرأى والتدبير ، وأظهر استنشعار الخوف من استيلائه على ملكه ، ونسبه إلى إخراجهم من الأرض لتنفيرهم منه^(٢) .

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾^(٣) يَأْتُولُ

بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿^(٤) أى قال المحيطون بفرعون له : أخر البت فى

(١) سورة القصص ، الآية ٣٨ .

(٢) تفسير أبى السعود ج ٦ ص ٢٤١ .

(٤٥٧)

أمر موسى ، وأخيه هارون ، ولا تعاجلها بالعقوبة ، حتى تجمع لهما من مدائن مملكتك ، وأقاليم دولتك ، كل سحر عليم ، ثم تقابلهم بهما وجها لوجه وسيأتون من ضروب السحر ما يستطيعون به التغلب عليه ، فتكون قد قابلت الحجة بالحجة ، وقرعت الدليل بمثله ، ويكون لك النصر والتأييد ، وتجذب قلوب الشعب إليك .

وقد كان هذا من تسخير الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام ، فاجتمع الناس فى صعيد واحد ورأوا آيات الله وحججه أمام هذا الجمع فى وضوح النهار .

روى أن فرعون أراد قتل موسى فقال له المأ : لا تفعل . فإنك إن قتلتته أدخلت على الناس شبهة فى أمره ، وأشاروا عليه بإرسال مبعوثين إلى المدائن ، واحشروهم إلى أرجاء البلاد يجمعون كل سحر عليم ، وقد أشاروا بذلك ظنا منهم أنهم إذا كثرت السحرة غلبوا موسى على أمره ، وبذلك يتم لفرعون الغلب ، ويرد موسى وهارون ، ويبطل ما نادوا به فأخذ بمشورتهم وأجابهم إلى طلبتهم .

- ٣ -

معنى المقطع الثالث

من خلال دلالة الآيات

تبين الآيات أن فرعون جمع أشراف دولته المحيطين به ليشاورهم ، ويستعين بهم فى مواجهة موسى وهارون بعدما أراه موسى معجزتى العصا واليد ، وأخبرهم فرعون بأن موسى وهارون تميزا بالسحر والعلم ، وانهما يعملان على إسقاط النظام ، والاستيلاء على البلاد ، وإخراج المصريين من ديارهم .

(٤٥٨)

استمع القوم لمقالة فرعون فقالوا له : أجل أى موقف تتخذه ضدهما ،
وأجمع أكبر السحرة والعلماء من كل أنحاء المملكة ليواجهوا السحر بمثله ،
وبذلك تواجه الحجة بالحجة ... والدليل بمثله ... وينهزم موسى بالعلم والسحر
فذلك خير من قتله ، والقضاء عليه ، فوافقهم فرعون ، وأخذ برأيهم .

المقطع الرابع

اللقاء الحاسم بين موسى عليه السلام والسحرة

يقول الله تعالى :

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ
مُجْتَمِعُونَ ﴿ ٦٨ ﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿ ٦٩ ﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ

(٤٥٩)

قَالُوا لِفِرْعَوْنَ إِنْ لَنَا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا خُنُّنَ الْغَلِيلِينَ ﴿٤٥٩﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٤٦٠﴾ قَالَ هُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٦١﴾ فَأَلْقَوْا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٦٢﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٦٣﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

توضح الآيات تفاصيل اللقاء بين موسى والسحرة فقد جمع فرعون الناس فى يوم الزينة ليروا هزيمة موسى ، وعلو شأن فرعون ، ويروا غلبة السحرة ، وقوة علمهم ، وعملهم ... فلما اجتمع القوم بدأ اللقاء بأن ألقى السحرة ما فعلوا حتى خاف موسى ﷺ من انخداع الناس بالسحر ، فأوحى الله إليه أن يلقى العصا فألقاها على الأرض فتحولت إلى ثعبان ابتلع كل ما فعله السحرة ، واستمر الحال حتى آمن السحرة .

- ٢ -

تفصيلات المقطع الرابع

من خلال دلالة الآيات

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أى فجمع فرعون كبار سحرته من أقاليم المملكة فى يوم معلوم ، هو يوم الزينة ، فهو عيد للمصريين يعرفونه ، ويجتمعون فيه ، فاختره فرعون ليشهد الناس كذب موسى وهارون عليهما السلام .

(٤٦٠)

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴾ ؟ ... السؤال للتحريض ، وقد قال

فرعون ذلك للناس حثا لهم على المبادرة إلى الاجتماع ، ومشاهدة ما يكون من الجانبين ، ويروا ما سيكون فى ذلك اليوم ... وقد حث فرعون المصريين على الحضور فى هذا اليوم ثقة منه فى الظهور على موسى ﷺ .

وقد رحب موسى ﷺ بهذا الموعد لأنه كان واثقا من تأييد الله تعالى ، ورغب فى الموافقة أن يوصل دعوة الله إلى أكبر عدد من الناس فى هذا اليوم .

﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴾ هذا من قول فرعون

للناس ، فإنه بعد أن حثهم على الحضور أخذ يستهزئ بموسى وهارون عليهما السلام ، ويقول لعلنا نتبع موسى وهارون إن غلبا بسحرهما ، ولم يتصور فرعون ذلك ، واستهزأ بتصوره !!!

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ

الْغَالِبِينَ ﴾ ؟ ... الاستفهام للتقرير وقد ذكره السحرة ليتأكدوا من حصولهم على المال الكثير من فرعون حين انتصارهم وغلبهم ... وقد جاء الأجر المطلوب نكرة لبيان كثرتة وتنوعه .

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أى قال لهم فرعون : سيكون

لكم أجر وفير وفوق ذلك وعدهم بأنهم سيكونون من جلسائه ، وبطانته الخاصة.

﴿ قَالَ هُمْ مُوسَى الْقَوَا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ أى لما جاء يوم الزينة اجتمع

الناس ، وجاء السحرة مؤمنين فى النصر ، والفوز بما أعده فرعون لهم ... وقال لهم موسى : إبدأوا أنتم بإلقاء ما تريدون إلقاءه ، وافعلوا كل ما تستطيعون

(٤٦١)

وانما قدمهم موسى ﷺ لأنهم رغبوا في ذلك ، فأمره الله بتقديمهم لتسير المواجهة كما يريد الله لها .

﴿ فَأَلْقَوْا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾

أى ألقى السحرة ما معهم من عصى وحبال ، وأملوا فى الفوز ، وقالوا مؤكدين أنهم سيغلبون بجبروت فرعون وسلطانة ... وقد اتقن السحرة سحرهم وجوده ، وملأوا العصى والحبال بالزئبق ، واشعلوا تحت الأرض نارا لا تظهر فتتدد الزئبق ، وتحركت الحبال ، وأخذت العصى تعلو وتهبط حتى خاف موسى انخداع الجمهور .

رأى موسى ﷺ ما فعله السحرة وأمره الله بإلقاء العصا ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى

عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أى أسرع موسى ﷺ فألقى عصاه

بأمر الله تعالى فتحولت إلى حية تتحرك ، وتبتلع كل ما كان على الأرض من حبال وعصى ، ولم تترك لها أثرا ولم تبق فيها شيئا ، ثم أخذها موسى من الأرض فإذا هى عصا عادية لم تزد حجما أو طولا ... تأمل السحرة العصا ، وتساءلوا أين الحبال ؟ وأين العصى ؟ والعصا لم تتغير فعلموا أنها معجزة الله لموسى ﷺ وأن ما فعله موسى ﷺ ليس سحرا ، ولكنه النبوة فآمنوا بموسى ، وكفروا بفرعون وما يزعمه .

- ٣ -

معنى المقطع الرابع

تبين الآيات أن فرعون لما رأى من موسى العصا واليد ظنه سحرا فجمع بطانته ، وشاورهم فى التخلص من موسى وهارون ، فأشاروا عليه بعدم اتخاذ

(٤٦٢)

أى عمل عدوانى ضدهم ، وطلبوا منه تأجيل أى عمل ، والأفضل أن يجمع السحرة من أقاليم المملكة ، ومواجهة سحر موسى بمثله أمام الناس فى يوم يحدده لجمع الناس ، واطهار هزيمة موسى أمامهم .

حدد فرعون يوم الزينة ، وجمع الناس ، وأحضر السحرة ، ولما طلبوا منه الجائزة التى سيحصلون عليها حين النصر أعطاهم فرعون الكثير ، ومناهم بالقرب منه إذا انتصروا على موسى ﷺ .

اجتمع الناس فى يوم الزينة ، وبدأ السحرة بإلقاء عصيهم وحبالهم بكثرتها وحركاتها ، فألقى موسى عصاه فتحولت إلى ثعبان ابتلع العصى والحبال ، وأخذ موسى العصا فصارت كما كانت ... رأى السحرة ذلك وعلموا إنها المعجزة فأمنوا برب موسى وهارون ، وكفروا بدين فرعون .

المقطع الخامس

إيمان السحرة ورفض تهديد فرعون لهم

يقول الله تعالى :

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٥١﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ؕ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى

(٤٦٣)

عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْمُونَ ۚ لَا تُقِطِعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ
وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٦٣﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٤٦٤﴾ إِنَّا نَطْمَعُ
أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٦٥﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن السحرة آمنوا برسالة موسى ، وسجدوا لله رب العالمين
بعدما رأوا معجزة موسى ﷺ ، وعلموا صدقه ، وأعلنوا إيمانهم بالله رب
العالمين الذى يدعو إلى الإيمان به موسى وهارون عليهما السلام ، فهددهم
فرعون ، واتهمهم بالتآمر مع موسى وأنذرهم بعقوبة شديدة هى تقطيع أيديهم
وأرجلهم من خلف ، وصلبهم فى جذوع النخل ... فلم يأبها لهذا التهديد ،
وأعلنوا أنهم راجعون إلى الله حتما اليوم أو غدا ، وكل ما نتمناه ، ونطمع فيه
أن يغفر الله خطايانا ، ويتقبل منا إيماننا ، فنحن أول من يؤمن بموسى من قوم
فرعون .

- ٢ -

تفصيلات المقطع الخامس

من خلال دلالة الآيات

﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴾ أى سجد السحرة جميعا لله لما رأوا صدق
موسى ﷺ فى معجزة العصا لأنهم تأكدوا أنها ليست سحرا ، وأعلنوا إيمانهم
عمليا فسجدوا على الأرض خاشعين ، مخبتين .

وأعلنوا إيمانهم قولا ، و ﴿ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿ ٤٦٤ ﴾ أى أنهم أعلنوا إيمانهم بالقول ، وبينوا إيمانهم بالله رب العالمين ، وهو الله الذى دعاهم إلى الإيمان به موسى وهارون عليهما السلام وبذلك أعلنوا كفرهم بالوهمية فرعون ، وأكدوا أنه بشر كسائر الناس .

﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أى قال فرعون للسحرة أتؤمنون بإله موسى وهارون قبل أن تستأذنوني ؟ ... فأنا ربكم ، ولا يصح لأحد فى مملكتى أن يفعل شيئا إلا بإذنى ، وقد أخطأتم حين آمنتم ، قبل أن تأخذوا إذنى وأخذ يعلل السبب الذى جعلهم يؤمنون فقال لهم .

﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ أى إن موسى ساحر كبير ، وهو الذى علمكم السحر ، وقد خضعتم له لأنه معلمكم .

وهذا اتهام جائر لا حقيقة له ، يفعله الجبابرة مع معارضيههم ، ويلفقون لهم التهم ، ويدعون صدقها .

إن موسى عليه السلام لم يلتق بهؤلاء السحرة قبل ذلك أبداً ... فمتى وكيف علمهم ؟ ... ولماذا لم يظهر هذا الاتهام قبل ذلك ؟

يذكر البعض أن فرعون فى هذا الاتهام يقصد تعليم السحرة لموسى وهو صغير فى بيت فرعون ... لكن هذا لا يجعله أستاذا معلما ... ولا تخرجه عن كونه تلميذا صغيرا يتعلم .

وبعد أن اتهمهم بهذا الاتهام أمام الرأى العام أخذ يتوعدهم بالعذاب والعقوبة المؤلمة ، فقال لهم : ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ

(٤٦٥)

مَنْ خَلَفَ وَلَا صَلَبَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٦٥﴾ أى أكد لهم فرعون ، وأقسم على ما سيفعله بهم وهو أنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلف ، وسيصلبهم فى جذوع النخل أجمعين حتى يعتبر بهم غيرهم .

فأجابوه وعرفوه أنهم غير مكثرئين بعقوبته ، وعرفوه بعدم جدواها ، و ﴿٤٦٦﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٤٦٦﴾ أى لا ضرر فى عقوبتك لأننا بها سنعود إلى الله مكرمين ، وكل مخلوق سيموت اليوم أو غدا ، والمؤمنون يرحبون بالموت لأنه يعيدهم لله تعالى ، ويضعهم فى رحمته رب العالمين ، ويجعلهم مع الشهداء والصالحين .

﴿٤٦٧﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٦٧﴾ أى إنا نأمل ونرجو أن يغفر الله خطانا يوم إن كنا نتخذك ربا ، وأن يتقبل منا الإيمان والعودة إليه فنحن أول المؤمنين من المصريين عسى أن ننال ثواب الإيمان ، وثواب من يتبعنا فيه .

- ٣ -

معنى المقطع الخامس من خلال دلالة الآيات

تبين الآيات أن السحرة لما نظروا إلى عصا موسى بعد أن أخذها ، ورأوا عودتها إلى صورتها الأولى ، أيقنوا صدق موسى ﷺ فأمنوا بالله ، وأعلنوا إيمانهم وسجدوا لله تعالى ، فأنكر فرعون إيمانهم ، وتعجب من هذا الذى تم بلا

(٤٦٦)

إذن منه ، واتهمهم بأنهم اتبعوا موسى كبيرهم الذى علمهم السحر وهددهم بالعذاب الشديد حيث تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ، والتصليب فى جذوع النخل ، فردوا عليه بأنه لا ضرر أن يفعل بهم ما يشاء فهم راجعون إلى الله تعالى ، وهم يأملون أن يغفر الله لهم ، ويجزيهم لأنهم أول من آمن من المصريين .

المقطع السادس

خروج الإسرائيليين من مصر

وهلاك فرعون وجنوده

يقول الله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴾ ٤٦١ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ
 فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ٤٦٢ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ٤٦٣ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ
 ٤٦٤ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاشِرُونَ ٤٦٥ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٤٦٦ وَكُنُوزٍ
 وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ٤٦٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ٤٦٨ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ٤٦٩
 فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ٤٧٠ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ
 رَبِّي سَيَهْدِينِ ٤٧١ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ٤٧٢ فَانْفَلَقَ فَكَانَ
 كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ٤٧٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ٤٧٤ وَأُجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ
 أَجْمَعِينَ ٤٧٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ٤٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ٤٧٧ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ
 ٤٧٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٤٧٩ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات الأحداث التي وقعت بعد إيمان السحرة ، فقد أرسل فرعون
 إلى جميع مدن مملكته يبين فيه أن الإسرائيليين أفراد قليلون معادون للمصريين
 ، ويدعو للحذر منهم ، ويجمع الجنود للقضاء عليهم ... فأوحى الله إلى موسى
 أن فرعون وجنوده يتآمر على بني إسرائيل ، ويجمع لهم الجنود لقتلهم ، وأمره
 أن يخرج بهم من مصر ، ويترك خيرها وثمرها وحسن مقامها وسيعوضهم الله
 مثيلاً لهم في أرض الميعاد التي يسرون إليها ... فهرب موسى بقومه واتبعه
 فرعون وجنوده فلما اقترب الجنود من الإسرائيليين عند البحر الأحمر خاف قوم
 موسى من أن يدركهم فرعون وجنوده فطمأنهم موسى بأن الله معهم ، وسينقذهم
 من فرعون وجنوده .

(٤٦٨)

- ٢ -

تفصيلات المقطع السادس من خلال دلالة الآيات

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴾ أى أوحى الله إلى موسى عليه السلام وأمره أن يسير ببني إسرائيل ليلا حتى إذا أنتبه المصريون هروبهم فى الصباح اتبعوهم يريدون إدراكهم وقتلهم ، وسبق الإسرائيليين جعل المصريين لا يدركونهم إلا عند البحر الأحمر .

وقد خرج الإسرائيليون من مصر ليلا ، وصحبوا معهم غنمهم ، وأنعامهم وعجينهم ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي أَلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ أى أرسل فرعون إلى جميع أقاليم مملكته ليجمعوا له جندا كثيفا يغلبون به الإسرائيليين ... وبين سوء صنع بنى إسرائيل فى سلوكهم مع المصريين ، وحذر الناس منهم ومن كيدهم .

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ أى قال فرعون للمصريين : إن الإسرائيليين عدد قليل ، وهم أفراد متفرقون ضعفاء .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ أى أنهم ينشرون بين المصريين أعمالا لا تليق يتألم لهم المصريون ، ويغتاطون .

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ أى علينا جميعا أن نحذر عاقبة أمرهم فيقضى عليهم اليوم قبل أن يصعب علينا ذلك .

وهكذا ...

حشر لهم فرعون الجنود رغم قلة عددهم ، وبين أن سبب ذلك هو سوء أفعالهم ، وضرورة الحذر منهم .

وقد عاقب الله فرعون وجنوده ، ونجى الإسرائيليين من ظلمه وجبروته .

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿ ٤٦٨ ﴾
 كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿ ٤٦٩ ﴾ أى أخرجنا فرعون وجنده من النعيم
 إلى الجحيم ، ومن الخير إلى الضر ، ومن القصور ، والملك إلى جحيم القبور
 ونار السعير .

ومثل ما كان لفرعون وجنوده فى مصر أعطينا بنى إسرائيل مثلها فى
 الأرض المباركة التى خرجوا إليها .
 وفى هذه المماثلة بيان لما سيكون فيه بنو إسرائيل فى الأرض المقدسة
 حيث البساتين الياضعة ، والخيرات الكثيرة ، والمياه الوفيرة ، والقصور العالية
 والجمال الدائم .

﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ أى سار المصريون خلف الإسرائيليين نحو
 الشرق يريدون اللحاق بهم .

﴿ فَلَمَّا تَرَأَوْا الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ أى لما
 اقترب فرعون وجيشه من الإسرائيليين ، ورأوهم من بعيد ، خاف الإسرائيليين
 وظنوا أن فرعون وجنده سيلحق بهم ، ويدركهم ، وذكروا ذلك لموسى عليه السلام .

فطمأنهم موسى عليه السلام ، و ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾
 أى قال موسى للإسرائيليين لا تخافوا شيئاً ، فإن الله هو الذى أمرنى أن أسير
 معكم إلى هنا ، وقد وعدنى بالنصر ، والله لا يخلف الميعاد ... وهو سبحانه
 معنا بالتأييد والنصر والتوفيق .

(٤٧٠)

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ

فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۚ ﴾ أى أوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ،

فضربه ، فانفلق البحر ، وظهرت فيه طرق يابسة ، وتحول الماء عند شواطئ الطرق إلى جبال من الجليد ، وجفت الطرق ، وعبر الإسرائيليون منها .

﴿ وَأَزَلَفْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ ۚ ﴾ أى وقربنا المصريين من الطرق التى سار

فيها الإسرائيليون ، وعبروا من خلالها البحر إلى الشاطئ الشرقى ، وحاولوا السير فيها ليعبروا البحر إليهم ، فلما كانوا فى وسط الماء انطبق الماء عليهم وغرق فرعون وجنوده وهكذا نجى الله موسى وهارون عليهما السلام ومعهما الإسرائيليون ، وأهلك فرعون وجنوده من حيث لا يشعرون ، وهذا معنى قوله

تعالى: ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى إن ما حدث

للمصريين والإسرائيليين آية دالة على قدرة الله تعالى ، فقد نجى الإسرائيليين بانفلاق البحر ، وأهلك فرعون وجنوده بالبحر نفسه ... ومع وضوح دلالة الآية فإن أكثر بنى إسرائيل لم يتأثروا بها ، ولم يؤمنوا بدعوة موسى إيماناً صحيحاً.

وفى ذلك تسلية لرسوله ﷺ فقد كان يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات على يديه ، فنبهه الله بهذا الذكر إلى أن له أسوة بموسى ﷺ ، فإن ما ظهر على يديه من المعجزات التى تبهر العقول لم يمنع من تكذيب أكثر القبط له ، وكفرهم به ، مع ما شاهدوه فى البحر وغيره ، وقد ضل الإسرائيليون

(٤٧١)

بعد كل هذا فإنهم بعد أن نجوا عبدوا العجل وقالوا : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ
اللَّهَ جَهْرَةً ۖ ﴾^(١) .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى إن ربك يا محمد عزيز قوى ينتقم
من الكافرين ، ويرحم المؤمنين الصالحين .

- ٣ -

معنى المقطع السادس من خلال دلالة الآيات

تبين الآيات أن الله أوحى لموسى بأن يسير بقومه ليلا ويخرجوا من مصر
قبل أن يقتلهم فرعون الذى أخذ يجمع جنوده من أقاليم مصر المختلفة ، ويعرفهم
بقلة عدد الإسرائيليين وسوء معاملاتهم مع المصريين فهم يغيظون المصريين ،
ويتآمرون عليهم .

وقد عاقب الله فرعون وقومه فأخرجهم من النعيم إلى الجحيم ، ومن
بساتين ورياض الدنيا إلى ظلام القبور وعذاب السعير ، وأعطى للإسرائيليين فى
بلاد الشام ما كان لفرعون فى مصر .

وخرج الإسرائيليون من مصر ليلا ، وفى الصباح تبعهم المصريون ، فلما
اقترب الإسرائيليون من البحر رأوا المصريين قادمين ، فذكروا لموسى خوفهم ،
وبينوا أن فرعون وجنوده سيلحق بهم ... فطمأنهم موسى ﷺ وعرفهم بأن الله
هو الذى هداه إلى هذا الطريق ، وأنه سوف ينصره ويعينه .

فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضره ، فانفلق البحر
عن طرق يحفها الماء بصورة جبال من الجليد ، وجف الطريق فعبر منه

(١) سورة البقرة ، الآية ٥٥ .

(٤٧٢)

الإسرائيليون إلى سيناء ، وتبعهم المصريون فلما كانوا وسطه انطبق الماء عليهم فغرقوا جميعا ... وتلك آية كبرى تدل على وحدانية الله وقدرته ، وجميع صفاته ، ومع ذلك فكثير من الناس لا يؤمنون ... فاصبر يا محمد واحتسب ، واعلم أن الله هو العزيز الحكيم .

ملاحظة هامة

تنوع الركائز فى قصص سورة "الشعراء"

تتنوع الركائز فى قصص سورة "الشعراء" ، وقد تأملت فيها فرأيتها تنقسم إلى نوعين :

أولهما : ركائز كلية للدعوة والدعاة ، وهى الركائز التى توجد مع سائر الرسل بلا تغيير فى حقيقتها ، وان اختلفت أدلتها وبراهينها ... وهذه الركائز وجدت منذ وجود الإنسانية على الأرض وستستمر بين الناس ما بقيت الحياة .

ثانيهما : ركائز فرعية توحد فى رسالة ، ولا توجد فى غيرها ، ولذلك آثرت أن أورد عقب كل رسالة ما يفتح الله على به من هذه الركائز الجزئية على أن أذكر عقب انتهاء القصص الركائز الكلية التى كانت من الرسل جميعا واسأل الله العون والتوفيق .

- ٤ -

ركائز الدعوة

فى قصة "موسى" عليه السلام

(٤٧٣)

تتضمن الآيات بمقاطعها الستة عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى **دور الزعماء الفاسدين** **في إفساد المجتمعات**

وجد الإنسان على الأرض في صورة جماعة يقودها واحد منهم ، حيث قاد آدم عليه السلام ذريته التي كونت أول مجتمع بشري على الأرض . وسارت الأمور على هذا النمط في إطار نظام يجمع قائدا يقود الآخرين بمنهج ونظام محدد ، وجماعة تطيع قائدها ، وتتقذ ما يراه لها . وعلى مدار الزمن وجدت أنماط شتى من القيادة ، فوجدت القيادة العادلة ، والقيادة الظالمة ، والقيادة الدينية ، والقيادة الكافرة ... والفرعونية تمثل نموذجا محددا للقيادة الظالمة ، حيث يكون القائد صورة للطغيان ، والظلم ، والجبروت ، وإضاعة حقوق الناس في إطار نظم خالية من القيم الإنسانية العادلة . فليس "فرعون" اسما لشخص ، وإنما هو وصف لحاكم ظالم ضال ، يقرر ما يرى ، ويدعى ما يتمنى بلا رقيب ، ولا حسيب . لقد ادعى فرعون موسى الألوهية ، وقال ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴾^(١) وأصدر أمره بإذلال الإسرائيليين في العمل ، واستعبادهم لسلطانه ، وقتل ذكورهم ، وأحياء إناثهم بلا رادع ، أو مانع .

(١) سورة القصص ، الآية ٣٨ .

(٤٧٤)

واعتمد فرعون فى المصريين ما يعرف اليوم بـ "الدولة العميقة" فاتخذ لنفسه فى كل فروع مصر ، وكل هيئاتها زبانية تهتف له ، وتسبح بحمده ، وتزعم الصواب فى كل أقواله ، وأعماله .

لقد جمع حوله ، ومعه ، وفى كل جماعة على أرض مصر من يخلص له وربطهم به عن طريق سلطان يجعله لهم ، أو مال يعطيه لهم ، أو طغيان ظالم يمدده للمجرمين الآثمين منهم .

لقد صنع فرعون فى دولته العميقة إعلاما يمجّد أفكاره ورؤاه ، وقوة تنفذ له ما يريد .

وللعقل أن يتصور "فرعون" مع دولته التى صنعها ، إنه سيتصور إنسانا يأمر فيطاع ، ويشير فيلهث المنافقون لإشارته .

إن فساد الدولة يأتى من قيادتها ... وعندما تفسد القيادة تمكن لنفسها بنشر المفسدين فى كل جنابات الدولة ليكونوا جنودها ضد أى اصلاح ، ويكونوا قوة تصد من يعاديه .

لقد قامت بروتوكولات حكماء صهيون على إفساد المجتمعات عن طريق نشر الفساد فى قطاعات الدولة ، وأنشطتها المختلفة من إعلام ، ومال وعلم ، وتوجيه .

وفى العصر الحديث رأينا المفسدين فى الأرض يهتمون بإيجاد دعائم دولتهم فى عمق الحياة حتى إذا ما حدثت يقظة شعبية واجهها الفساد المنتشر فى كافة الأنشطة وبين جميع الهيئات ، وكأن الفساد صنع عمقه بين الناس فى أناس يحمونه ، ويدافعون عنه ، ويصورون للناس أنه العدل ، وما يعارضه هو الفساد .

إن القيادة الفاسدة تنتشر هويتها بين الناس ، وتعلو الظلم والفساد فى المجتمع ، وتجعل الاصلاح شاقا مؤلما .

لقد نادى موسى ﷺ بإصلاح المجتمع ، ورفع الظلم عن الناس فما كان من فرعون إلا أن حرك سحرته ، وأطلق إعلامه ، ونادى فى الناس إن موسى ساحر عليم ، ولما علم السحرة الحق وآمنوا بالله تعالى أشاع فرعون إنها المؤامرة ، وقال لهم : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾^(١) .

واليوم يحاول المسلمون أن يعودوا لدينهم إلا أن عمق الفساد يتصدى لهم ويتهمهم بالرجعية ، ومحاربة حرية المرأة ، ونشر الاستبداد الدينى ، وينشط الحقد الاعلامى لتأكيد ما يراه المفسدون .

وعلى الدعاة :

أن يعلموا من التاريخ ، ومن مؤامرات الصهيونيين ، ومن صيحات المفسدين حقيقة أركان هذه الدولة العميقة ، وطرق عملها ، والخطة التى تسير عليها .

وعليهم أن يضعوا الوسائل العلمية لمقاومة أركان هذه الدولة العميقة وتحذير الناس منها ، وتوضيح خطورتها للجمهور .

وعلى الدعاة :

أن يهتموا ببيان الحق فى كل أمر يثيره المفسدون بصورة تكافئ كيدهم ومكرهم .

إن المفسدين لا يهتمهم الصدق ، وكل ما يهتمهم نشر الأكاذيب ، وتشويه صورة المصلحين ، وتخويف الناس من المؤمنين المخلصين .

ومن الواجب أن يسارع الدعاة إلى العمل ، والتوجيه ، والتربية حتى لا يكون عملهم رد فعل لهؤلاء المفسدين .

(١) سورة طه ، الآية ٧١ .

إن نشر الحق ، ومعرفة الدين ، وإيقاظ الأفهام والعقول يكفى فى القضاء على الشائعات .

يجب على الدعاة والمصلحين الانتباه لعناصر الدولة العميقة فى كل مجال ، والعمل لهدمها فى مكنها ، واعداد الناس ليكونوا مع الصادقين .

الركيزة الثانية

أهمية رد الباطل جزءا جزءا

من حسن الحوار أن يتقن الدعاة مناقشة خصومهم ، وقد قدم موسى عليه السلام طريقة للجدال الحسن تقوم على المحاور التالية :

أولا : الاستعداد للحوار ، وذلك أن الله تعالى نادى موسى عليه السلام وكلفه بدعوة فرعون وقومه الذى طغوا ، وظلموا ، وأفسدوا فرأى موسى عليه السلام ضرورة أن يستعد لهذا الموقف الكبير ... فقال لله : إني أتوقع تكذيب فرعون وملاه ، وفى لسانى حبسه ، وفرعون يخاف الكثرة أكثر مما يخاف من الحق ولذلك طلب أن يكلف الله أخاه هارون ليكون معه فى الرسالة يتقوى به ، ويشاركه فى المواجهة .

ولم ينس موسى عليه السلام انه قتل مصريا فبين لله أنه يخاف من عدوان فرعون فطمأنه الله ، وأرسله لفرعون ، وقال له : ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ ^(١) .

ثانيا : تجزئة الحوار ، اتبع موسى عليه السلام طريقة التجزئة فى الحوار ، فكان عليه السلام يناقش كل جزئية ، ويرد عليها ، فناقش فرعون فى تربيته ، وبين له أنه استعبد الإسرائيليين جميعا ... ثم انتقل على تعريف فرعون وملاه برب العالمين

(١) سورة طه ، الآية ٤٦ .

(٤٧٧)

الذى خلق السموات والأرض ، وهو رب المشرق والمغرب ... فلما أصر فرعون على ظلمه وعداوته أظهر المعجزات التى تثبت صدقه أمام فرعون ، ثم كان اللقاء العام فى يوم الزينة ، وإيمان السحرة بعد أن تبينوا صدق موسى عليه السلام .

ثالثا : التذكير الدائم بالله تعالى ، لتبقى الدعوة فى وهجها ، وحركتها ، وهذا المنهج يرسم طريق النجاح أمام الدعاة ، وتبليغ الإسلام إلى الناس .

الركيزة الثالثة

مراعاة حال المدعوين

قامت دعوة الله للناس معتمدة على ما هم فيه من حال ، ولذلك تباينت الرسالات فى هذا الجانب العملى ، فموسى وأخوه هارون جاءوا لفرعون ، وأمرهم بتقوى الله ، وتوحيده ، ودعواهم إلى إطلاق سراح الإسرائيليين ، وتركهم أحرارا ليذهبوا إلى الأرض المقدسة التى جعلها الله لهم ... ولما أصر فرعون على ضلاله وكفره تحدياه بالمعجزة التى كانت مناسبة لأوضاع المصريين جميعا ، فلقد نشر فرعون السحر فى كل مدائن مصر ، وأعد السحرة للسحر علوما وأبحاثا ، حتى انتشر ، وصار السحر دعامة ألوهية لفرعون الكاذبة ، وصار السحرة هم علماء الأمة ، وأصحاب القربى والسلطة بين الناس ... ولذلك جاءت معجزة موسى عليه السلام هادمة لسحرهم وشعوذتهم ... إنها تشبه السحر فى الغرابة ، والدهشة ، ومغايرة عادات الناس ، إلا أنها ليست سحرا لأنها خوارق حقيقة لعادات الناس لا صلة لها بالخيال ، أو التدليس ، أو استرهاب الناس .

ومن هنا ...

(٤٧٨)

نقول للدعاة لابد من معرفة أحوال المدعويين ، والوقوف على القضايا التي تحتاج لإصلاح ، وبذل الجهد لإصلاحها ، ومخاطبة الناس بما يفهمون ، وربط النتائج بالأعمال ليعود الناس إلى الله تعالى .

ولابد عند تناول قضايا الناس من التركيز على قضية واحدة ، واشباعها بالتوضيح ، وبيان آثارها ، وتحديد منهج الإسلام معها .

ولابد من ظهور الأحكام الإسلامية في إطار إصلاحى مشروع .

إن الإسلام نزل لإصلاح الحياة ، ويجب أن تبقى هذه السمة في كافة تشريعاته ونظمه .

- ثانيا -

(٤٧٩)

قصة "إبراهيم" عليه السلام

تتناول الآيات من رقم (٦٩) إلى الآية (١٠٤) قصة "إبراهيم" عليه السلام ،
وسوف أورها في عدد من المقاطع بإذن الله تعالى فيما يلي :

المقطع الأول

دعوة "إبراهيم" عليه السلام لأبيه

يقول الله تعالى :

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ ۝٦٩
قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِيَةً ۚ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۖ ۝٧٠
أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۚ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۖ ۝٧١
أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۚ ۝٧٢ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ۖ ۝٧٣ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي
إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۚ ۝٧٤ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۖ ۝٧٥ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ
ۖ ۝٧٦ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۖ ۝٧٧ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۖ ۝٧٨ وَالَّذِي
أُطْمِعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۖ ۝٧٩ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي
بِالصَّالِحِينَ ۖ ۝٨٠ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۖ ۝٨١ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ
جَنَّةِ النَّعِيمِ ۖ ۝٨٢ وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ۖ ۝٨٣ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ
ۖ ۝٨٤ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۖ ۝٨٥ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۖ ۝٨٦ ﴾

- ١ -

موضوع المقطع الأول

(٤٨٠)

يبين المقطع الأول من قصة "إبراهيم" ﷺ موقفه من أبيه وقومه لأنه ﷺ سألهم أولاً عن الآلهة التي يعبدونها ، فلما عرفوه أنهم يعبدون الأصنام ليلاً ونهاراً ، ويرجون نفعها ، ويخافون ضررها ناقشهم في فساد هذه العبادة ، لأن الأصنام لا تسمع دعاء ، ولا تملك نفعاً ولا ضرراً ، فلما قالوا له : إننا نقلد آبائنا في عبادة الأصنام رد عليهم ، وعرفهم أن ذلك ضلال مبين فليس للأصنام نفع أو ضرر ، وهى جماد لا تسمع ، ولا تعقل ، ولا ترى ، وإن كانت تقدر على شئ فلتسئ إلي فأنا عدو لها ، وإيماني التام ، وبيني المطلق هو الله رب العالمين ، الخالق ، الهادي ، الرزاق ، المحيي ، المميت ، له الأمر كله ، واليه ترجعون .

- ٢ -

تفاصيل المقطع الأول من خلال دلالات الآيات

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى اقرأ يا محمد على قومك وأمتك ما نزل عليك من نبأ إبراهيم ﷺ مع أبيه وقومه ، فهى أنباء هامة ، موعظة فى القدم ، لها تأثيرها ، وفيها العظة والعبرة .

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ؟ ... أى اذكر لقومك يا محمد مقالة إبراهيم لأبيه وقومه حين سألهم عن آلهتهم التى يعبدونها من دون الله تعالى ، وقال لهم : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ؟

فلما سألهم إبراهيم عليه السلام عن آلهتهم أجابوه ، و ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ هَا عَكْفِينَ ﴾ أى أنهم عرفوه بآلهتهم ، وبطريقة عبادتهم معلنين تمسكهم بذلك .

أما آلهتهم فهي الأصنام التى يصنعونها بأيديهم من الحجر أو الخشب على صور وأحجام شتى ، وقد عبروا عنها بنكرة ﴿ أَصْنَامًا ﴾ إشارة إلى كثرتها وتنوعها .

أما كيفية عبادتهم لأصنامهم ، فهم يجلسون أمامها خاشعين مدة طويلة ليلا ونهارا ويستمترون فى اعتكافهم وقتا مديدا .
وقد يسروا لأنفسهم هذه العبادة بأن صنعوا أصناما صغيرة ، سهلة الحمل يصطحبونها فى سفرهم ، وفى بيوتهم ، وفى راحتهم ، ويضعونها أمامهم ، وينظرون إليها جاعلين ذلك عبادة لها ، وعكفا أمامها .

﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام لقومه ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ ۖ أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ ۖ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى ، ينكر به إبراهيم عليه السلام عليهم عبادة الأصنام ، ويقول لهم :

هل هذه الأصنام تسمع دعاءكم ؟ ...

أو تجلب لكم نفعا ؟ ...

أو تدفع عنكم ضرا ؟ ...

وهذا إنكار من إبراهيم عليه السلام عليهم لأنه يعلم يقينا ، وهم يعلمون مثله أنها لا تضر ، ولا تنفع ، ولا تعقل ، ولا تسمع ، ولا تغنى عن نفسها ، ولا عن غيرها شيئا .

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَالِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ أى قال قوم إبراهيم

الذين يعبدون الأصنام لإبراهيم عليه السلام إنا نقلد آبائنا فيما كانوا يعبدون ، ونفعل كما كانوا يفعلون ، ونصنع ونعبد مثل ما كانوا يصنعون ويعبدون .

﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام لهم ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ أَنْتُمْ

وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾

أى انظروا فى الأصنام التى كنتم تعبدونها أنتم وأباؤكم الأقدمون ، واعلموا أنها عدو لى ، وأنا أكرهها ، واعلموا أيضا أنها لا تضر ولا تنفع ، فإن كانت تستطيع ضرا فلتضرنى ، ولتظهر قدرتها فى معاقبتى فإنى كافر بها ، ولا أومن إلا بالله الواحد الأحد ، فهو رب العالمين .

وأباؤهم المحدثون والأقدمون كانوا يعبدون الأصنام ، إلا أن الآية ذكرت الأقدمين وحدهم لبيان تأصل الكفر فيهم ، وفى آبائهم منذ القدم .

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أى ربى هو الذى خلقنى وصورنى ،

وأكرمى ، وأنعم علي ، وهدانى فى أمور معاشى وآخرتى ، فأنا عبده ، وهو ربى .

﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ أى وهو الذى ييسر الأسباب

الأرضية والسماوية والكونية لأحصل على طعامى وشرابى ، فهو سبحانه منزل المطر ، ومجرى السحاب ، ومحيى موات الأرض ، وهو الذى يرزقنى بالحبوب والفواكه ، والصحة ، والجمال .

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أى وهو الذى ينعم على بالشفاء إذا

حصل لى مرض ، ولن يقدر سواه على شفائى ، ومن أدب إبراهيم عليه السلام مع الله أن أسند إليه الشفاء ، وأسند إلى نفسه المرض مع أن الله خالق كل شئ .

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ وهو الذى يحيينى فى الدنيا ، ويميتنى عند انقضاء الأجل ، ويحيينى عند البعث ، وهو الذى يميتنى عند النوم ويحيينى عند اليقظة ، وتلك كلها حالات يعيشها الإنسان ، ويقدرها الله تعالى .

﴿وَالَّذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ أى هو الذى أطمع أن يغفر لى خطاياى يوم الحساب والجزاء .

وأخبر عن الله تعالى بجملة الصلة والموصول فى الجمل السابقة لبيان وضوح هذه الأمور وثبوتها لله تعالى خاصة وأنه لا يقدر عليها سواه .
وبعد أن أقر إبراهيم عليه السلام لقومه بهذه الحقائق ، وذكرهم بها ، وهو يدعوهم إلى الله اتجه إلى الله تعالى ، وذكر مسأله ، راجيا أن يتقبل الله دعاءه .
واعلان الداعية الدعاء على الملأ إرشاد لهم على ضرورة الإيمان ، لأنه يوصلهم بالقوى القادر الذى يجيب المضطر إذا دعاه .
اتجه إبراهيم عليه السلام بعد ذلك إلى الله وطلب عدة أمور هى :

(١) ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ أى انتنى معرفة بك وبصفاتك ، ومعرفة للحق لأعمل به .

(٢) ﴿وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أى ووفقنى للعمل فى طاعتك ، لأنتظم فى سلك المقربين إليك ، المطيعين لك ، وقد أجاب الله دعاءه كما قال :
﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(١) .

روى أن النبى ﷺ قال فى دعائه : "اللهم توفنا مسلمين ، وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مفتونين"^(٢) .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٣٠ .

(٢) مسند أحمد . حديث عبد الله الزرقى ج ٢٤ ص ٢٤٧ .

(٣) ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أى وخذ ذكرى الجميل فى الدنيا بتوفيقى لصالح العمل ، فأكون قدوة لمن بعدى إلى يوم القيامة ، وقد أجاب الله دعاءه كما قال : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٣٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٣٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٠﴾﴾^(١) .

ومن ثم لا نرى أمة إلا محبة لإبراهيم عليه السلام وتدعى أنها على ملته ، وقد جاء من ذريته كملة الأنبياء ، وأولو العزم منهم ، وختم الله النبوة بمجدد دينه ، وداعية الناس إلى التوحيد ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

(٤) وبعد أن طلب سعادة الدنيا طلب ثواب الآخرة فقال : ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ

وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ أى واجعلنى ممن يدخلون الجنة ويتمتعون بنعيمها كما يتمتع المالك بما يملكه ميراثا ، ويأول إليه أمره فى شئون الدنيا .
وبعد أن طلب السعادة الدنيوية والأخروية لنفسه طلبها لأقرب الناس إليه وهو أبوه فقال : ﴿وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أى واغفر له ذنوبه ، إنه كان ضالا عن طريق الهدى ، وهذه الدعوة وفاء بما وعده من قبل كما جاء فى آية أخرى : ﴿وَمَا كَانَ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾^(٢) .

(٥) ثم طلب من ربه عدم خزيه وهوانه يوم القيامة فقال : ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أى ولا تخزنى بمعائيتى على ما فرطت ، أو بنقص مرتبتى

عن بعض الوارثين .

(١) سورة الصافات ، الآيات ١٠٨ . ١١٠ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١١٤ .

ثم بين حال هذا اليوم وما فيه من شديد الأهوال فقال : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ

مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿١﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٢﴾ ﴾ أى هو يوم لا يقى

المال المرء من عذاب الله ، ولو افتدى نفسه بملء الأرض ذهباً ، ولا البنون ولو افتدى بهم جميعاً ، ولكن ينفعه أن يجئ خالصاً من الذنوب وأدرانها ، وحب الدنيا وشهواتها .

وخص الابن بالذكر لأنه أولى القرابة بالدفع والنفع ، فإذا لم ينفع فغيره من القرابة أكثر منه فى عدم النفع .

قال النسفى : وما أحسن ما رتب ﷺ من كلامه مع المشركين ، حيث سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ، ثم أقبل على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ، وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً عن أن يكون حجة ، ثم صور المسألة فى نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله تعالى ، فعظم شأنه ، وعدد نعمه من حين إنشائه إلى وقت وفاته ، مع ما يرجى فى الآخرة من رحمته ، ثم أتبع ذلك أن دعا بدعوات المخلصين ، وابتهل إليه ابتهاًل الأدب ، ثم وصله بذكر يوم القيامة ، وثواب الله ، وعذابه وما يفعل المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا^(١) .

إن إبراهيم ﷺ بدأ قومه بالسؤال عن عبادتهم ، وهو عارف بواقعهم ، ليقرؤا بما هم فيه ، ويدلل لهم على فساده ، ويدعوهم إلى الله رب العالمين .

(١) تفسير النسفى ج ٢ ص ٥٧٠ .

(٤٨٦)

- ٣ -

معنى المقطع الأول من خلال دلالات الآيات

تبين آيات هذا المقطع أن الله أمر رسوله أن يقرأ على قومه قصة إبراهيم عليه السلام الذين يدعون نسبتهم إليه ، وبين لهم ما دار بينه وبين قومه حول عبادتهم للأصنام .

ويبدأ المقطع بسؤال إبراهيم عليه السلام قومه عن ما يعبدون ؟ ...
فعرفوه أنهم يعبدون أصناما ، ويستمترون عاكفين في عبادتها ، فأخذ يبين لهم بطلان عبادة الأصنام لأنها لا تسمع ، ولا ترى ، ولا يعقل .
وبين لهم أن تقليد الآباء في الكفر ضلال كبير ، لأن اعتقادهم في وجود قدرة للأصنام اعتقاد غير صحيح ، وأعلن لهم عليه السلام أنه عدو الأصنام فليسيئوا إليه لو كانوا يقدرون على شئ .

ووضح لهم أنه يعبد الله الواحد الأحد الخالق الهادي المهدي ، الرازق ، المحيي ، المميت ، ملك الدنيا والآخرة ... وأخذ إبراهيم عليه السلام يدعو ربه أن يهبه علما وحكمة ، وأن يحشره مع الصالحين ، وأن يخلد ذكره في الدنيا ، ويوفقه للعمل الصالح ، وأن يهبه الجنة ، وأن يغفر لأبيه ، وأن يكرمه بالجنة في يوم لا ينفخ فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

إن هذا المقطع من خلال كلمات إبراهيم عليه السلام الجامعة يبين بتفصيل وحدانية الله تعالى ، وفساد الشرك ، ويعلم قومه طريقة الاتصال بالله ، ومنهج عبادته وحده .

المقطع الثانى

حسرة المشركين من قوم إبراهيم عليه السلام يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩١﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩٢﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ
مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٩٤﴾ فَكُفُّوا
فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٥﴾ وَجُنُودُ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ

﴿ تَأْتِيهِمْ فِي الْيَوْمِ الْمُنِيرِ ﴾ إِذْ تُسَوِّدُكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَضَلُّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٨﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٩﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أنه في يوم القيامة تقرب الجنة للمؤمنين يوم القيامة ، وتظهر الجحيم لأصحابها ، ويحاسب الجميع على أعمالهم في الدنيا ، ويسأل الله الكافرين عن آلهتهم التي كانوا يعبدونها ويجمعهم مع آلهتهم في مآلهم الأخير ، ويظهر ندمهم ، وحسرتهم ، وتمنيهم أن يعودوا إلى الدنيا ليكونوا من المؤمنين ، وقد بين الله حال قوم إبراهيم في الدنيا ، وأخبر عن مصيرهم في الآخرة ليجعل من قصتهم آية يعتبر بها العقلاء فلقد أقام إبراهيم عليه السلام الحجة أمامهم إلا أنهم ظلوا على الكفر ، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ ليعلم أن النصر في النهاية بيد الله ، وأن عقاب الكفار أليم .

- ٢ -

تفاصيل المقطع الثاني

من خلال دلالات الآيات

يبدأ المقطع الثاني بتصوير المشهد العام عند الحساب ، وفيه تظهر الجنة والنار يقول الله تعالى .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٣﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ أى

يقرب الله الجنة يوم القيامة من أحابها فيسعدون بها ، ويتنعمون وهم في ظل الله تعالى ، وأعظم النعم أن يؤكد الله للإنسان حسن مقامه ، وحسن مستقبله ، وهذا ما يراه المتقون في الآخرة فقد أزلفت الجنة ، وقربت لهم لأنهم في الدنيا عرفوا

ريهم ، واستقاموا على تعاليمه ، وعملوا لهذا اليوم العظيم ... إنهم فى يوم القيامة يظلمهم الله فى ظله ، يوم لا ظل إلا ظله ، ويحاسبهم حسابا يسيرا ، ويريههم مقامهم وجنتهم ، ويسوقهم إليها جماعات حتى إذا ما أتوها رحب بهم خزنتها قائلين : ﴿ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ ^(١) .

وأسوأ السوء أن تتجمع المصائب على صاحبها فى وقت واحد ، ويعلم أن هذه النوائب هى حياته فى الجحيم ، ومستقره فى الآخرة ، فهؤلاء الذين عبدوا الأصنام ، وكفروا بالله تعالى يعيشون الويل والثبور فى المحشر ، ويأخذ كل منهم كتابه بشماله ، ويحاسب حسابا عسيرا ، ويظهر الجحيم أمامه بلهيبه وناره ، ويعلم سوء الموقف وسوء المنقلب بسبب ضلاله وغوايته فى الدنيا .

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ ^(٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ

أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ ^(٣) ؟ ... والاستفهام للتوبيخ يوجهه الله بواسطة ملائكته إلى هؤلاء الذين أغواهم الشيطان فى الدنيا ، والذين رضوا أن يعبدوا الأصنام من دون الله تعالى ، ويسألهم الله وهم فى المحشر والحساب ، وجهنم ظاهرة أمامهم ، ويقول لهم : أين الأصنام التى كنتم تعبدونها من دون الله تعالى ؟ ... وهل أعانت عنكم شيئا ؟ ... هل نصرتكم ؟ ... أم انتصرت لنفسها ؟ ... وهى أسئلة تؤكد ندامة المشركين وحسرتهم فى وقت يرون أن الأصنام لم تغن عنهم شيئا .

وبعد انتهاء الحساب يساق المشركون إلى جهنم زمرا فيجدون فيها جماعات تعيش معهم فى جهنم ، وهذا معنى قوله تعالى .

(١) سورة الزمر ، الآية ٧٣ .

﴿ فَكُذِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ ﴿٤٩﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ أى

يلقى الله أصحاب النار على وجوههم فيها ويجمعهم على تنوعهم ، وبذلك يلتقى الأصنام ، والغاوون الذين عبدوها ، والشياطين الذين دعوا إلى عبادتها تتلظى بهم نار جهنم ، ويظهرون على حقيقتهم التى كانوا عليها ... ويتهم كل منهم الآخر بأنه سبب هذا البلاء ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا تَحْتَصِمُونَ ﴾ ﴿٥١﴾ تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا

لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٢﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴿٥٤﴾ ۞ أى قال أصحاب الجحيم بعضهم لبعض ، وهم يتخاصمون فى

جهنم بعد دخولها ، ويتهم كل منهم غيره بأنه سبب الوقوع فى هذا المصير .
ويقسم الغاوون بالله أنهم كانوا فى ضلال بين حين جعلوا الأصنام آلهة
وحين عبدوها من دون الله تعالى ، ويتعجبون اليوم من سوء ما كانوا يفعلون ...
وكيف أنهم ساووا الأصنام برب العالمين ، وخصوها بالعبادة من دونه .

ويتهم الغاوون الرؤساء والكبار بأنهم سبب هذا المصير ، ولذلك فهم
الذين أجرموا وظلموا ، ولسان حالهم يقول : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا
فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴾ (١) .

ويزداد ندمهم حين لا يجدون نصيرا ، ولا معينا ، ولا شفيعا ، ويقولون :
﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾ ﴿٥٥﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿٥٦﴾ ۞ أى أننا لا نجد يوم القيامة
شفيعا يشفع لنا أو نصيرا ينصرنا .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٦٧ .

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى ليت لنا رجعة إلى الدنيا لنعمل صالحا غير الذى كنا نعمل حتى إذا جئنا للآخرة كنا مؤمنين نتمتع برضوان الله تعالى وجنته ، وتلك كلها أمانى لا تتحقق فقد جاءهم البشير والنذير فى الدنيا ، وحثهم على الإيمان فعارضوه وكفروا برسالته ، فاليوم يجزون ما كانوا يعملون .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى أن فى قصة إبراهيم مع قومه آية عظيمة فقد جادلهم ، وحاججهم ، وعرفهم بربهم ، وأظهر لهم نعم الله فيهم ، ومع ذلك أصرروا على الكفر وعبادة الأصنام ، فكان أن أخزاهم الله ، وجعل مأواهم جهنم وبئس المصير ...

إن هذه الآية تنفع أصحاب العقول ، وتقيد رسول الله ﷺ ليصبر ويحتسب كما صبر إبراهيم عليه السلام فى دعوته لقومه وأبيه .
إن الكثير من الناس لا يرى الحق الموجود أمامه لعمى بصره وبصيرته فلا تبتئس يا محمد بما يفعله الناس معك .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى واعلم يا محمد أن ربك هو القوى القادر ، العزيز ، الغالب ، الرحيم بك وبأوليائه الصالحين ، المحسن لعباده المتقين .

(٤٩٢)

تدل آيات هذا المقطع على أن الجنة تقترب من أصحابها عند الحساب ،
وتظهر جهنم لأهلها كذلك ، ويسأل الله أهل الجحيم عن آلهتهم التي عبدوها من
دون الله ، أين هي اليوم ؟

وهل نصرورهم ؟ ... أو انتصروا بهم ؟ ...

وفى جهنم يجتمع المشركون والأصنام ، وجنود إبليس ، ويتخاصمون
فيمن تسبب فى هذا الجحيم ويتبرأ كل فريق من مسئوليته ، ويعترف المشركون
بضلالهم حين ساووا الأصنام بالله رب العالمين ، ويجعلون سبب هذا الضلال
الملاّ المستكبرين ، وتزداد حسرة المشركين حيث لا يجدون شفيعا ، ولا يرون
نصيرا ، ويتمنون أن يعودوا إلى الدنيا ليستقيموا على الإيمان ، ولا يعودوا لمثل
ما هم فيه ... إلا أن ذلك أمل فات وقته ، ولن يتحقق .

أن فى قصة إبراهيم عليه السلام وقومه آيات للعقلاء إلا أن أكثر الناس لا
يعتبرون ولا يؤمنون ، والله عزيز رحيم بعباده المؤمنين الصالحين يحيطهم
برضوانه ، ويكرمهم بجنات النعيم .

- ٤ -

ركائز الدعوة

فى قصة "إبراهيم" عليه السلام

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

مثالية المنهج الدعوى لإبراهيم عليه السلام

(٤٩٣)

تدل الآيات على أن إبراهيم عليه السلام سلك منهاجاً حسناً في الدعوة إلى الله تعالى يجمل بالدعاة أن يستفيدوا به ، لأنه يوضح الملامح التالية :

أولاً : بدأ إبراهيم عليه السلام بأقرب الناس إليه فبدأ بدعوة أبيه وحاشيته إلى الإيمان بالله ، وترك عبادة الأصنام .

ثانياً : بدأ دعوته بسؤال قومه ليعرف حقيقة ما هم فيه ليناقشهم في القضايا التي يذكرونها لأنفسهم في القضايا التي هم بها مؤمنون ... وفائدة هذا حصر الدعوة في قضية سلم بها المدعون ، ولذلك لا يدعون عدم مصداقيتها .

ثالثاً : أبرز نعم الله عليهم كما هي في نفسه عليه السلام ليبين إنها نعم الله عليه وعليهم وهو يقر بذلك لاتصالها بقدرة الله التي لا تساويها قدرة أخرى ، ولذلك يسلم المستمع بها كما سلم القائل بها .

رابعاً : أظهر إبراهيم عليه السلام سلوكه المستقيم أمام الناس تعليماً لهم ، وذلك حين اتجه إلى ربه طالبا منه التوفيق في الدنيا ، وتحقيق السعادة في الآخرة ، وبهذا علم الناس من دعائه قدرة الله الشاملة للدنيا والآخرة معا .

خامساً : وضح إبراهيم عليه السلام خزي الكافرين يوم القيامة حين الحساب والجزاء حيث لا ينفع إلا العمل الصالح ، والاستقامة على دين إبراهيم عليه السلام .

وهكذا بلغ إبراهيم عليه السلام دعوته للناس عن طريق التمثيل الذاتي ، فجعل نفسه مجالا مستجيبا للدعوة ، عارفا بالواقع ، مؤمنا بالله رب العالمين .

وللدعاة في المنهج دروس حسنة ، فليجعلوا من نعم الله عليهم حركة للدعوة ويسألون الناس عن المنعم المتفضل ؟

ويبادرون إلى الإجابة وهم يسألون ... ولا يبتعدون بأسئلتهم عن حياة الناس .

الركيزة الثانية

أهمية المنهج الحركي

في الدعوة إلى الله تعالى

(٤٩٤)

نلمس من دعوة إبراهيم عليه السلام انه جعل القضايا التي دعا الناس إليها حركة عملية أمام المدعو كأنه يراها ، ويعيش معها .
ومشاهد يوم القيامة غيب كلها ، ومع ذلك نراها صورة كاملة في قصة إبراهيم عليه السلام ففي يوم القيامة تتحرك الجنة والنار بكينونتهما اللتين خلقتا عليها لتكون بجوار أصحابهما ... ويجرى الحساب ، ويوضع كل إنسان في المأوى الذي يستحقه ، وقد رآه .

وبعد ذلك نأتى لمشهد "جهنم" وفيها يلتقى المشركون ، وآلهتهم ، وشياطينهم ، وتدور بينهم خصومة ، وتسمع منهم أصواتهم ، وحسرتهم ، وأمانيتهم ... ويعيش المسلم في معاني الآيات متمثلة في صور عملية واضحة .
إن هذا التصوير القرآني للمشاهد الغيبية تعليم للناس ليفهموا ، ويتأملوا وهو درس للدعاة ليقربوا دعوتهم للناس ، ويبرزوا المعاني بوضوحها وبيانها ويمكن للدعاة أن يأخذوا الصورة كما هي في قصة إبراهيم عليه السلام ويبينوا للناس ما فيها من دروس وعبر ، وكيف تتحول العبرة إلى عمل ؟ ... وكيف تصير المعرفة سلوكا واستقامة ؟

لا يصح في الدعوة غموض ، وخفاء ، ولا يصح للدعاة عدم الإبانة والبلاغ .
إن إبراهيم عليه السلام كان أمة يستفاد بها في كل مجال ، والدعاة إلى الله أولى الناس بإبراهيم عليه السلام .

- ثالثا -

قصة "نوح" عليه السلام مع قومه

تقدم الآيات من الآية رقم (١٠٥) إلى الآية رقم (١٢٢) قصة "نوح" مع قومه ، وإننا هنا أعرضها في عدد من المقاطع ... هي :

المقطع الأول

عرض "نوح" الدعوة على قومه

يقول الله تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٥٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٥٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٥٥﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات تكذيب قوم نوح له حين عرض عليهم دعوته ، وحين حثهم على طاعته ، وعبادة الله وحده ، والإخلاص فى تقوى الله تعالى .

- ٢ -

تفاصيل المقطع الأول من خلال دلالات الآيات

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ ۝ ﴾ ... بدأت الآية بذكر ما فعله قوم نوح عليه السلام وهو تكذيبهم له وعدم إيمانهم بدعوته لبيان الغاية التى نزلت الآيات من أجلها . فقد كان شأنهم التكذيب ، وفى هذا تسليية لرسول الله ، وحث له على عدم الحزن على تكذيب المكذبين كما فعل السابقون ، ووضحت الآية أن دعوة نوح عليه السلام كانت لقومه خاصة لأن من كذب هم قومه ، وكان نوح عليه السلام فيهم أخا لهم فى النسب والقبيلة .

و ﴿ أَلَا ﴾ للتحضيض ، وقد صدر نوح مقالته لقومه حاضا لهم بـ ﴿ أَلَا ﴾ ليعلموا أهمية ما يدعوهم إليه ، فهم كانوا مقلدين ، والمقلد لا يملك حجة غالبا ، ولذلك جاء الحض لتخويفهم إذا استمروا على الشرك .
وقد كذب قوم نوح به ، وهو واحد منهم إلا أن الآية ذكرت أن القوم كذبوا ﴿ أَلَمْ رَسَلِينَ ﴾ وذلك لأن دين الرسل واحد ، وأن كل رسول جاء بما جاء به غيره في العقيدة فمن كذب بواحد من الرسل فقد كذب جميعهم .
﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أى إني معروف لديكم بالصدق والأمانة ، وقد أرسلنى الله إليكم فاسمعوا قولى فإنى مرسل من الله ، وأنا صادق في قولى أمين في دعوتى .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ أى فاعبدوا الله وحده ، واطيعوا أمره ، وخافوا عذابه ، واسمعوا نصحى ، وأطيعونى فيما أقوله لكم ، وفيما ادعوكم إليه ، فأنا أمين لا أزيد ولا انقص من رسالة ربى شيئا .
﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنَّا أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى لا أطلب منكم أجرا جزاء نصحى لكم ، ودعوتى إياكم ، فأجرى على الله الذى أدعوكم إليه ، فهو رب العالمين .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ كرر نوح ﷺ الأمر بالتقوى والطاعة لأهميتهما وضرورتهما ، وكأنه يقول لهم اتقوا الله وأطيعون فأنا صادق أمين ، واتقوا الله وأطيعونى فإنى لا أسألكم أجرا ، كما يقول الوالد لولده : اطعننى فقد رببتك صغيرا ، واطعننى فقد علمتك كبيرا .

(٤٩٧)

من خلال دلالة الآيات

تبين الآيات أن نوحا عليه السلام دعا قومه إلى الإيمان ، وحثهم على تقوى الله وطاعته فهو رسول الله إليهم ، تميز بالصدق والأمانة ، ولم يطلب منهم أجرا ولا عطاء جزاء نصحه وارشاده ، وكرر عليهم الدعوة ، وحثهم على تقوى الله وطاعته .

المقطع الثانى

الجدل بين "نوح" عليه السلام وقومه

يقول الله تعالى :

﴿ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ قَالَ وَمَا عَلِمَىٰ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّىَّ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣٩﴾ قَالُوا لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١٤٠﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات الجدل الذى حدث بين نوح عليه السلام وبين قومه حين حثهم على الإيمان بالله تعالى ، ونصحهم بالإيمان ، وعرفهم أنه لن يأخذ منهم أجرا ، وفى هذا الجدل يظهر تعنت الكافرين وسفاهتهم ، وكبرياؤهم .

- ٢ -

تفاصيل المقطع الثانى من خلال دلالة الآيات

بعد أن أقام نوح عليه السلام الدليل على صدق ما يدعوهم إليه ، وعلى أن الله واحد لا شريك له أخذ قومه يجادلونه فى أمور جانبية بعيدة عن الدعوة والنصح .

﴿ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ ﴾ أى قالوا كيف نتبعك ونصدقك ، ونؤمن بك ، وننأسى بهؤلاء الأراذل الذين اتبعوك ؟ ومرادهم أن هذا لن يكون أبدا .

وهذه شبهة لا ينبغي لعاقل أن يركن إليها ، لأن نوحا عليه السلام بعث إلى قومه كافة ، بلا فرق بين غنى وفقير ، وصلوك وأمير ، ولا بين ذوى البيوتات والحسب ، وذوى الوضاعة والخسة فى النسب ، فليس له إلا اعتبار الظواهر ، دون التفتيش والبحث عن البواطن ، ومن ثم أجابهم : ﴿ قَالَ وَمَا عَلِمَى بِمَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ؟ أى وأى شئ يعلمنى ما كان يعمل أتباعى ؟

إن لى منهم ظاهر أمرهم دون باطنه ، فمن أظهر الحسن ظننت به حسنا ومن أظهر السوء ظننت به ذلك ، ولم أكلف العلم بأعمالهم ، وإنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان والاعتبار به لا بالحرف والصناعات والفقر والغنى .
واعراض المشركين يشير إلى أن إيمان هؤلاء لم يكن عن نظر صحيح . بل لتوقع مال ورفعة .

ثم أبان أن أمر جزائهم وحسابهم على ربهم لا عليه ، فلا يعنيه استقصاء أحوالهم فقال : ﴿ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ أى ما حسابهم على ما تحويه سرائرهم إلا على ربهم المطلع عليها لو كنتم من ذوى الشعور والعقل .

(٤٩٩)

ولما جعلوا من موانع إيمانهم اتباع هؤلاء الأراذل كانوا كأنهم طلبوا طردهم فقال لهم نوح عليه السلام : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى وما أنا بطارد من آمن بالله واتبعنى وصدق بما جئت به من عند الله .

ثم بين وظيفة الرسول فقال : ﴿ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أى إنما بعثت منذرا ومخوفا بأس الله وشديد عذابه ، فمن أطاعنى كان منى وأنا منه ، شريفا كان أو وضيعا ، جليلا كان أو حقيرا .
ولما أجابهم بهذا الجواب وأيسوا مما راموا لجأوا إلى التهديد .

ف ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ أى قال قوم نوح له : لنن لم تنته عما تدعو إليه من الطعن فى آلهتنا لنرجمنك بالحجارة ولنقتلنك بها ، وأقسموا على ذلك .

ولما طال مقامه بين ظهرائهم ، يدعوهم إلى الله ليلا ونهارا ، سرا وعلانا ، وكلما كرر عليهم الدعوة صموا آذانهم ، وصمموا على تكذيبه وتمادوا فى عتوهم واستكبارهم استغاث بربه ، وطلب منه أن يحكم بينه وبينهم وأن يهلكهم كما أهلك المكذبين من قبلهم لرسلمهم وينجيه والمؤمنين به .

- ٣ -

معنى المقطع الثانى من خلال دلالة الآيات

تبين الآيات أن قوم نوح عللوا عدم إيمانهم بأن اتباعه من الضعفاء الفقراء ، فعرفهم نوح عليه السلام أنه يدعو الجميع إلى الله تعالى ، ويتعامل مع ظاهريهم ، ولا يفرق بين غنى وفقير ، وشريف وصيلوك .
أن الله يحاسب الجميع وهو عالم بهم ، وبين لهم أنه لن يطرد فقيرا من مجلسه بعدما يؤمن ، فهو نذير وبشير للجميع .

(٥٠٠)

لم يكتف المشركون بطلبهم فهددوا نوحا برجمه إن استمر على دعوته ،
وسب ألهمهم ، وحثهم على الإيمان بالله تعالى .

المقطع الثالث **لجوء "نوح" ﷺ إلى الله** **وهلاك الكاذبين**

يقول الله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوِّى كَذَّبُونَ ﴾ ١٧٧ ﴿ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَجَّيًّا وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١٧٨ ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾ ١٧٩ ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ ١٨٠ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ١٨١ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ١٨٢ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن نوحا ﷺ لجأ إلى الله تعالى ، وطلب منه أن ينجيه منهم وأن يفتح بينهم وبينه بالحق بعدما تبادوا فى كذبهم واستهزائهم فأمره الله بصنع السفينة وركوبها ، ونجى الله كل من ركبها من المؤمنين ، ومن كل زوجين اثنين وأغرق الله غيرهم ، ولم يبق فى الأرض بعد الغرق إلا المؤمنون .
أن فى قصة نوح ﷺ مع قومه آية يعتبر بها العقلاء وان قل عددهم ، وينصرف عنها اللاهون وان كثر عددهم ، والله هو العزيز الذى لا يغلب الرحيم المحسن بعباده المؤمنين .

(٥٠١)

- ٢ -

تفاصيل المقطع الثالث من خلال دلالة الآيات

﴿ قَالَ ﴾ نوح عليه السلام داعيا ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ أى إن قومى الذين ارسلتني إليهم أصروا على الشرك وعبادة الأصنام ، وكذبوني فى دعوتى لهم .

﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾
أى فضع يارب بينى وبينهم حكما عادلا تهلك فيه الكافر ، وتتجى به المؤمن ، وأنت يارب تعلم أنى والمؤمنين معى نستقيم على أمرك ، ولنلتزم بطاعتك فنجنا من هؤلاء الكافرين ، وانصرنا عليهم .

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ
الْبَاقِينَ ﴿ ١٢١ ﴾ أى انجبنا نوحا ومن آمن معه بعد أن ركبوا السفينة التى أمر الله نوحا بصنعها ، وأغرق الآخرين الباقين الذين لم يركبوها .

وكان عدد المؤمنين الذين ركبوا السفينة كبيرا لأن السفينة امتلأت وشحنت ، وقد حملت المؤمنين ، ومن كل زوجين اثنين ... وبذلك عمرت الأرض بعد نوح عليه السلام .

وعد نوح عليه السلام أب البشرية الثانى بعد آدم عليه السلام فلئن كان آدم عليه السلام أبا لذريته ، فنوح عليه السلام رسول لجميع من بقى حيا على ظهر الأرض .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى فى قصة نوح عليه السلام ونجاة المؤمنين وهلاك الكافرين عبرة وآية لقوم يؤمنون وان كانوا قلة .

(٥٠٢)

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى وإن ربك يا محمد قوى ينصر

جنده ، رحيم يحسن إلى المؤمنين ، فلا تبتئس ولا تحزن .

- ٣ -

معنى المقطع الثالث

من خلال دلالة الآيات

تبين الآيات أن نوحا عليه السلام دعا ربه ليحكم بينه وبين قومه فقد كذبوه ، وكفروا بدعوته وهددوه بالقتل والرجم ، وطلب من ربه أن ينجيه والمؤمنين معه فأمره الله بصنع السفينة فلما أتمها أمره الله أن يركب فيها وكل من آمن به ، ومن كل زوجين اثنين ، وامتألت الأرض بالماء فطافت السفينة ، ونجى الله من فيها ، وأغرق الله من لم يركبها وهم الكافرون وعبداء الأصنام .

وقد جعل الله نجاة المؤمنين واهلاك الكافرين فى قصة نوح عليه السلام آية وبرهانا لأصحاب العقول ، وحتى يأتنس بها رسول الله ﷺ ويتأكد من نصر الله تعالى فهو العزيز الرحيم .

- ٤ -

ركائز الدعوة

فى قصة "نوح" عليه السلام

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

(٥٠٣)

الركيزة الأولى **فروق واضحة بين دعاة الحق** **وأنصار الباطل**

خلق الله الناس ، وجعل سعيهم شتى ، فتحزبوا ، وصاروا فرقا متنازعة ومجموعات فكرية متباعدة ... وفى قصة نوح عليه السلام تظهر الفروق واضحة بين خلق المؤمنين وخلق المشركين .

فها هو نوح عليه السلام يدعو قومه بالحسنى ، ويحببهم فى الإيمان ، ويزين لهم طاعة الله تعالى ، ويبين لهم أن الخير فى الإيمان ، وأنه لن يأخذ على نصحه أجرة فيرد عليه عبدة الأصنام . كيف نؤمن بك ؟ ... ونتساوى مع الفقراء وهمل الناس ، وتجلس معنا كما تجلس معهم ؟ ...

فيرد عليهم نوح بأن الناس سواسية أمام الله تعالى ، وأنه يدعوهم إلى الله تعالى بعيدا عن حسبيهم وفقرهم ، وأنه يتعامل مع الظاهر ، والله يتولى السرائر ، ويبين لهم عليه السلام أنهم لن يطردوهم من مجلسه ، ولن يفضل إنسانا على غيره ... فيرد عليه المشركون ويهددونه بشر أنواع القتل وهو الرجم . استمر نوح فى دعوته ، ولم يلتفت إلى تهديدهم ، متوكلا على ربه معتمدا عليه .

إن هذا الجانب من قصة نوح يبين أخلاق المؤمنين فهم لا يشتمون ، ولا يلعنون ، ولا يقابلون السفاهة بمثلا ... أما أهل الباطل فأخلاقهم قائمة على الكبر والتعالى ، يهددون من يعارضهم ، ويعملون على إسكات صوت الحق بين الناس .

وهذا أمور يحتاج إليها الدعاة ، وهو التمسك بالحق ، والبعد عن صغائر الأمور ، وسوء الأخلاق .

الركيزة الثانية

أهمية الاعتماد على الله تعالى

الإنسان فى الدنيا عبد مخلوق ، يعيش فى مسار مقدر يصل بعده إلى الآخرة ... خلقه الله ، وأكرمه ، وجعله وديعته فى الدنيا يأخذها إليه ليرى ما قدره الله عليه فى الآخرة .

والإنسان بهذا يعيش بين يدى الله تعالى ، وخير له أن يستقيم على منهج الله تعالى .

إن الله مالك الملك ، وعنده مفاتيح الغيب ، وهو المتصرف فى كل خلقه كما يشاء ، وكان من تكريم الله للناس أن أرسل رسله لهم ليعرفوهم الصراط المستقيم ، ويهدوهم إلى الخير والصواب .

وقد رأينا الرسل يلجأون إلى الله تعالى فى كل أمورهم ، لينصرهم وينجيهم ، والمؤمن عليه أن يمتثل بأخلاق الرسل ، ويعيش متوكلا على الله ، مستقيما على دينه وشرعه ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

- رابعا -

قصة "هود" عليه السلام

تتناول الآيات من الآية رقم (١٢٣) إلى الآية رقم (١٤٠) قصة "هود" عليه السلام مع قومه عاد ... وسأعرض القصة فى المقاطع الآتية :

(٥٠٥)

المقطع الأول

عرض "هود" عليه السلام للدعوة على قومه وهم يرتعون فى نعم الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٢﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴿١٧٣﴾ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴿١٧٧﴾ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٨﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴿١٧٩﴾ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٨٠﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٨١﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٨٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدُّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ أَمَدُّكُمْ بِأَنْعَمِ رَبِّينَ ﴿١٨٥﴾ وَجَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٨٦﴾ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٧﴾ ۝ ﴾

- ١ -

موضوع الآيات

يعرض هود عليه السلام فى هذه الآيات دعوة الله التى جاء بها لقومه ، وهى عبادة الله وحده وتقواه وحده ، فهو الله الذى خلقهم ، وأمدهم بالسلطان ، والقوة والنعيم ، وبكافة خيرات الدنيا ، وعرفهم أنه لن يأخذ أجرا منهم فهو ناصح أمين ، يخاف عليهم من عذاب الله يوم القيامة .

- ٢ -

تفاصيل المقطع الأول

من خلال دلالة الآيات

﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٢﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴿١٧٣﴾ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٥﴾ ۝ قامت دعوة هود عليه السلام على دعوة قومه إلى

(٥٠٦)

عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأصنام ، والعمل بما يأمرهم الله به ، والاستعداد ليوم القيامة مثل دعوة سائر الرسل قبل هود وبعدة .
وقد جاء هود لقومه خاصة ، فهو أخوهم فى النسب ، فدعاهم ، وعرفهم بالصفات التى اشتهر بها بينهم وهى الصدق والأمانة ، وعليهم أن يعلموا أنه رسول الله بحق ، وأنه أمين فيما يدعوهم به ، ومع ذلك كذبوا به وبكل رسالات الله للناس .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنِ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ﴾ أى خافوا الله ، واستقيموا على أمره فإنى أنصحكم بلا أجر آخذه منكم ، فأجرى على الله ، وأنا لكم ناصح أمين .
ولما أنكر هود على قومه عبادتهم للأصنام أخذ ينكر عليهم ما هم فيه من كبر واستعلاء ، ويذكرهم بنعم الله عليهم .
أما كبرياؤهم واستعلاؤهم فقد ظهر فى أعمالهم ... وهى :

(١) ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ ؟ الاستفهام لإنكار ما يقومون به ، فهم يشيدون قصورا عالية فوق المرتفعات للتفاخر والتباهى من غير حاجة إليها ، وهم بها يلعبون ، ويسخرون ، ويتكبرون .

(٢) ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أى وتقيمون القلاع والحصون كأنكم مخلصون فى الدنيا ، وأنه لن يلحقكم البلى والفناء .

(٣) ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ أى أنكم إذا عاقبتم غيركم عاقبتم بقسوة وغلظة لقسوة قلوبكم ، فإنكم لا تعرفون شفقة ولا رأفة .

(٥٠٧)

وهذه الأفعال تدل على سوء خلقهم ، وتعاليلهم ، وغرورهم ، ولا يصح منهم ذلك .

وبعد أن بينت الآيات سوء فعالهم أخذ هود عليه السلام يذكرهم بنعم الله عليهم فقال لهم : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ أى فاحذروا عقوبة الله ، وخافوا عقابه وأطيعوني فيما أدعوكم إليه فإن ذلك أجدى لكم وأنفع ... وتذكروا نعم الله عليكم ولا تغتروا بهذه النعم .

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ ١٢٢ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ ١٢٣ وَجَنَّتِ وَعُيُونٍ ﴾ أى واتقوا عقاب الله بطاعتكم إياه فيما أكرمكم به ونهاكم عنه ، وابتعدوا عن اللعب واللهو ، وظلم الناس والفساد فى الأرض ، واحذروا سخط الله الذى أعطاكم ما تعلمون من الأنعام ، والبنين ، والبساتين والأنهار ، تتمتعون بها كما شئتم ، حتى صرتم مضرب الأمثال فى الغنى والثروة ، والزخرف ، والزينة ، فاجعلوا كفاء هذا عبادة من أنعم بها وعظموه وحده سبحانه وتعالى .

ثم بين السبب فى أمرهم بالتقوى فقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أى إني أخاف عليكم إن أصررتم على الكفر ولم تشكروا هذه النعم عذاب يوم شديد الهول ، تذهل فيه المرضعة عما أرضعت ، وترى الناس فيه سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد .

- ٣ -

معنى المقطع الأول
من خلال دلالة الآيات

(٥٠٨)

تبين الآيات أن قوم هود كذبوه ، وكفروا بالله تعالى ، وقد دعاهم هود إلى تقوى الله ، وعبادته وحده ، وعرفهم بسوء سلوكهم ، وتعاليمهم على الناس فهم يبنون قصورا عالية في كل مرتفع وفج ، ويتخذون قلاعا وحصونا كأنهم خالدون في الدنيا ، وإذا اختلفوا مع غيرهم بطشوا بهم بكل قسوة وغلظة ، وهذا فعل لا يصح منهم فقد رزقهم الله تعالى بالولد والأنعام ، والبساتين حتى صاروا مضرب المثل في الغنى والثروة والزخرف ، والزينة وعليهم أن يضعوا نعم الله في موضعها ، ويشكروه عليها فهو المنعم المتفضل وعلى الإنسان أن يخاف من ربه إذا جدد نعمه ، ولم يشكره على عطائه وفضله ، وفي يوم القيامة توفى كل نفس ما كسبت .

المقطع الثانى

إصرار قوم هود على الكفر

والحاق الهلاك بهم

يقول الله تعالى :

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوْعِظَتْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ ١٣٦ إِنَّ هَذَا
إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿ ١٣٧ ﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿ ١٣٨ ﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ ١٣٩ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ ١٤٠ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات إصرار عاد على الشرك ، وتقليد الآباء ، ولذلك طلبوا من
هود عليه السلام أن يدع دعوتهم ، لأن الأمر لن يتغير سواء وعظهم هود أو لم يعظهم
لأنهم على دين آبائهم الذين لا يؤمنون بالله ، ولا يصدقون باليوم الآخر فأهلكهم
الله تعالى .

- ٢ -

تفاصيل المقطع الثانى
من خلال دلالة الآيات

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوْعِظَتْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ أى
هون عليك يا هود ، وأرح نفسك ، فكل ما تفعله معنا تعب ضائع ، وعمل لا
يفيد ، وسواء عندنا أن تعظ أو لا تعظ ، ومع أن الوعظ كلام مؤثر ، يحقق
الانفعال ، ويؤدى إلى الاقتناع إلا أنه لا فائدة فيه معنا .

﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ١٣٧ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿ ١٣٨ ﴾ أى
ما نحن فيه هو خلق آبائنا وأجدادنا ، وأن الدين الذى نتبعه هو دينهم ، فنحن
نعيش كما عاشوا ، ونموت كما ماتوا ، وأنه لا بعث ولا حساب ، ولا جنة ولا
عذاب .

(٥١٠)

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ أى كذب عاد هودا ﷺ فأهلكهم الله تعالى

بريح صرصر عاتية .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ^ط وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى جعلنا فى قصة

هود مع قومه عاد آية شاهدة على العظاى والعبر لا يفهمها كثير من الناس .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى وان الله شديد العقاب للظالمين

رحيم محسن للمؤمنين .

- ٣ -

معنى المقطع الثانى
من خلال دلالة الآيات

تدل الآيات على أن عادا قوم هود طلبوا منه أن يقلع عن دعوتهم ،
ويتركهم وشأنهم ، لأنهم لن يؤمنوا بدعوته سواء وعظهم أو لم يعظهم ، فليرح
نفسه ، وبينوا له أنهم يقلدون أباءهم السابقين ، ويتبعون دينهم ويعلمون منه أنه
لا بعث ، ولا حساب ، ولا جزاء ، فلما أصرروا على التكذيب والكفر أهلكهم الله
بريح صرصر عاتية ، وقد جعل الله قصة هود ﷺ مع قومه عبرة للعقلاء ،
وان ضل أكثرهم ، والله عزيز غالب رحيم بعباده الصالحين .

- ٤ -

ركائز الدعوة

فى قصة "هود" ﷺ

تتضمن قصة "هود" ﷺ مع قومه على ركيزة هامة ... هى :

الجحود أساس الكفر

(٥١١)

نعم الله عديدة على الإنسان ، فقد خلقه ، وأحسن صورته ، ورزقه ، وجعله سيد هذا الكون .

وتمكن الإنسان من الاستفادة بما خلق الله تعالى فبنى البيوت ، وشيد الحصون ، وزين الأرض بالزراع والثمار .

ويسر الله للإنسان سبل الحياة ، وأسباب البقاء فيها ، فسخر له الهواء ، وأجرى الماء ، وأطعمه الثمر والحب ، وأحاطه بالحسن والجمال .

لو نظر الإنسان إلى نفسه ، وطعامه ، وحياته ، ومصيره لعلم من ذلك فضل الله عليه ، ولصار مؤمناً بربه مستقيماً على منهجه .

إلا أن الجحود يصرف الكافر عن نعم الله تعالى ، وبدل أن يؤمن بها يتخذها سبب للكفر والتعالى .

فها هم عاد يقيمون البنايات ، ويستندون القصور ، ويتمتعون بالنعم والخيرات ، ومع ذلك يكفرون بالله تعالى ، ويصرون على تقليد الآباء في الكفر والضلال ، ولذلك أهلكهم الله تعالى .

والعاقل من عقل هذا واتعظ به ، وعرف الله قدره ، وأمن به ، ومسئولية الدعاة في هذا الجانب هامة ليعلم الناس أن المنعم هو الله ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غنى كريم .

- خامسا -

قصة "صالح" عليه السلام

أوردت الآيات من الآية رقم (١٤١) إلى الآية رقم (١٥٩) قصة صالح عليه السلام مع قومه واني أوردتها هنا في المقاطع التالية :

(٥١٢)

المقطع الأول

عرض "صالح" ﷺ للدعوة

يقول الله تعالى :

﴿ كَذَبَتْ ثُمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٥٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٥٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَنَاهَا ءَامِنِينَ ﴿٥٦﴾ فِي
جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَزُرُوعٍ وَخُلِيٍّ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَتَنَحُّتُونَ مِنْ آلِ جِبَالٍ
بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٦٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٦١﴾
الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٦٢﴾ ۝

- ١ -

موضوع الآيات

تبين آيات هذا المقطع أن قوم صالح ﷺ كذبوه بعد أن دعاهم إلى تقوى الله تعالى ، واتباع نصائحه ، ودعوته ، فهو رسول الله إليهم ، المعروف بالصدق والأمانة ، ولن يطلب منهم أجرا ، وقد بين لهم صالح أنهم لن يخلدوا في الدنيا ، ولن يستمر تمتعهم فيها ، فهي ستنتهي عند أجلها وأجلهم ، فاتقوا الله تعالى ولا تطيعوا أمر رؤسائكم الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، فقد كفروا بالله تعالى ، وليس في أمرهم إصلاح مأمول .

- ٢ -

تفاصيل المقطع الأول

من خلال دلالة الآيات

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٥٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٥٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ أى كذبت ثمود أخاهم ، وكفروا برسالات الله تعالى ، ولم يسمعوا صالحا حين حثهم على تقوى الله تعالى ، وعرفهم أنه رسول منهم ، يعلمون صدقه وأمانته ، وخير لهم أن يتقوا الله تعالى ، ويسارعوا إلى الطاعة والاستقامة التى يدعوهم إليها بإخلاص وصدق ، فهو لا يأخذ منهم أجرا على إرشاده ونصحه وأجره ثواب يدره عند الله تعالى .

ثم أخذ صالح عليه السلام يبين لهم ضرورة العمل للآخرة ، لأن الدنيا إلى زوال ، ولا يصح تصور خلودها فقال لهم .

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا ههْنَأْ ءَامِنِينَ ﴿٥٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَزُرُوعٍ وَخَلِّ طَلْعَهَا هَٰضِمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى ينكر فيه صالح على قومه تصور أن يخلدوا فى الدنيا يتمتعون بما فيها بلا نهاية لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ... والمعنى لا تظنوا أنكم تتركون فى دياركم آمنين متمتعين بالجنات ، والعيون ، والزروع ، والثمار اليانعة ، وأنه لا دار بعد الدنيا ، بل عليكم أن تتذكروا أن ما أنتم فيه من نعيم ، وأمن لن يدوم ، وأنكم عائدون إلى الله ، وأنه ليس بعد الدنيا إلا الجنة أو النار .

﴿ وَتَنَحُّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٦٠﴾ ﴾ أى أنكم تتخذون تلك البيوت الضخمة المنحوتة فى الجبل

(٥١٤)

أشرا ويطرا من غير حاجة إليها ، فلا تستمروا على ذلك ، وعودوا إلى الله ،
وانقوه ، واستقيموا على أمره ، واطيعوني فيما أدعوكم إليه .

﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا

يُصْلِحُونَ ﴿٥١٢﴾ أى ولا تتبعوا أوامر رؤسائكم فقد أسرفوا فى معصية الله
وكفروا به ، ولم يؤمنوا باليوم الآخر ، فهم يفسدون الناس ، وينشرون الكفر
والفجور ، ولا يعرفون اصلاحا وخيرا .

- ٣ -

معنى المقطع الأول من دلالة الآيات

يدل المقطع الأول على أن صالحا عليه السلام دعا قومه إلى عبادة الله تعالى ،
والإخلاص فى تقوى الله ، وطاعة رسول الله فكذبوه مع أنه لا يأخذ منهم أجرا
ولم يدعهم إلى فساد ... وقد حثهم عليه السلام على عدم الاغترار بالدنيا ، وتصور
الخلود فيها ، وتصور أنه لا حساب بعدها ، وحذرهم من تصور بقائهم فى الدنيا
آمنين بين الرياض ، والزروع ، والثمار ، ومع البيوت التى نحتوها فى الجبال
أشرا ويطرا ، وتصوروا أنه لا آخرة ، وأنه لا حساب ولا جزاء .
إن هذا وهم كاذب ولذلك حثهم صالح عليه السلام على عدم طاعة قادتهم
ورؤسائهم الذين يضلونهم ، وينشرون الكفر والفساد بينهم .

المقطع الثانى

الحوار بين "صالح" عليه السلام وبين قومه

يقول الله تعالى :

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ
 إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ ۖ هَٰهَا شَرِبَ ۖ وَلَكُمْ شَرِبُ يَوْمٍ
 مَّعْلُومٍ ﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن القوم لما عجزوا عن مناقشة صالح عليه السلام أخذوا يتهمونه
 بما ليس فيه ، ويكذبونه في دعوى الرسالة ، وأنه ساحر ، وطالبوه بآية تثبت
 نبوته ، وصدقه ، فأخبرهم بخروج ناقة من الجبل تشرب الماء يوما ، وتتركه لهم
 يوما ، وأمرهم أن لا يمسوها بسوء أو أذى ، فعصوه وعقروها فأنذرهم الله ثلاثة
 أيام دمرهم بعدها ، وترك منهم آية لقوم يتذكرون .

- ٢ -

تفاصيل المقطع الثانى من خلال دلالة الآيات

لما عجز قوم صالح عليه السلام عن مناقشته اتهموه بثلاثة أمور هى :

(١) إنه شخص مسحور :

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ أى أنت قد سحرت كثيرا حتى غلب
 السحر عليك ، ولا يصح أن نسمع قول مسحور ونصحه فهو لا يدري ما يقول .
 (٢) إنه بشر مثل غيره :

﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ أى أنت يا صالح بشر مثلنا ، فما سر اختيارك

دوننا ؟ ... ولو صحت الرسالة لبشر لاختاره الله منا .

(٣) ليس معه آية تصدقه :

﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴾ أى أنك يا صالح لم تأتنا بمعجزة تصدقك ، وتؤيدك فإن كنت صادقا فأت بآية تصدقك وتشهد لك .

فرد عليهم صالح عليه السلام ، وعرفهم بآية الله تأتيتهم و ﴿ قَالَ هٰذِهِ نَاقَةُ هَآءَا شَرِبْتُ وَلَكُمْ شَرِبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أى أن أيتى أن يخرج الله لكم من الجبل ناقة تقسم الماء معكم تشربه يوما ، وتتركه لكم يوما آخر لكم ، على أن تعرفوا يومكم ، وتحافظوا عليه ، وتتركوا لها يومها لا تأخذون منه شيئا .

﴿ وَلَا تَمْسُوْهَا بِسُوْءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيْمٍ ﴾ أى ولا تمسوها الناقة بسوء أو أذى كضرب أو قتل فيصيبكم بسبب ذلك عذاب أليم .

واستقر الأمر على هذا الوضع فكانت الناقة فى يومها تشرب الماء كله ولا تشرب فى اليوم التالى .

- ٣ -

معنى المقطع الثانى من دلالة الآيات

تدل الآيات على أن قوم صالح اتهموه بأنه مسحور بكثرة ، وأنه بشر عادى ، وأنه لم يأتهم بآية ، وطلبوا ظهور آية لو كان صادقا ، فعرفهم أن الله أخرج لهم ناقة من الجبل ، وجعلها لهم آية فهى تشرب الماء كله يوما ، وتتركه لهم يوما آخر ، وأمرهم أن لا يمسوها بسوء وأذى حتى لا يهلكهم الله تعالى ، وسارت الأمور على هذا الحال مدة حتى عقروا الناقة ، وقتلوا فأنذرهم الله ثلاثة أيام أهلكهم بعدها .

المقطع الثالث

العبرة من نهاية قوم "صالح" عليه السلام

يقول الله تعالى :

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ط
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥٩﴾ ۞ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن قوم صالح عقروا الناقة وقتلوا فأخذهم الله بذنوبهم ،
وجعل قصتهم آية للناس ، آمن بها القليل ، وكفر بها الكثير ، وتركها عبرة
وعظة لرسول الله والمؤمنين معه .

- ٢ -

تفاصيل المقطع الثالث

من خلال دلالة الآيات

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ ۞ ﴾ أى فقتلوا الناقة ، ورموها برمح فأتوا
عليها بعد أن عاشت بينهم ردحا من الزمان ، إلا أنهم فى الصباح ندموا على
ما فعلوا بالناقة حين علموا أن العذاب نازل بهم لا محالة كوعد الله لهم .
﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۞ ﴾ أى جاءهم العذاب الذى دمرهم ، وذلك أن الله
أنظرهم ثلاثة أيام ، وأظهر لهم فى كل يوم مقدمات تؤكد نزول العذاب ، فندموا
على ما فعلوا حيث لا ينفع الندم ، فزلزلت الأرض زلزالا شديدا ، ووقعت صيحة
طاغية اقتلعت منها قلوبهم ، ونزل عليهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ،
فاصبحوا فى ديارهم جاثمين .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى إن فى

قصة قوم صالح آية قوية ، ومع ذلك لا يؤمن بها كثير من الناس .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى وان ربك يا محمد غالب لا يقهر

أبدا محسن للصالحين المؤمنين فلا تبتئس يا محمد ولا تحزن وكن كما أمرك الله رب العالمين .

- ٣ -

معنى المقطع الثالث من دلالة الآيات

تبين الآيات أن قوم صالح عليه السلام لم يستمروا فى تعاملهم مع شرب الناقة حيث رموها بسهم ، وقتلوا وأصبحوا نادمين فأنظرهم الله ثلاثة أيام دمرهم جميعا بعدها ، وترك منهم آية للناظرين ، والله هو العزيز الرحيم .

- ٤ -

ركائز الدعوة

فى قصة "صالح" عليه السلام

تضمنت قصة "صالح" عليه السلام مع قومه ركيزة هامة ... هى :

التذكير بنعم الله تعالى

دعا صالح عليه السلام قومه إلى الإيمان بالله تعالى ، وحضهم على تقواه ، وطاعته ، وبين لهم أن الله أعطاهم من النعم والفضائل ما بها يعرفون الله تعالى ، وعليهم أن يتأملوا فى حياتهم ، وينظروا إلى عدة أمور توصلهم للحق .
من هذه الأمور أن الله أوجدهم بعد عدم ، وأوجد لهم العديد من النخيل والزروع ، والبيوت ، وهذه الحقائق تؤكد أن الحادث ينتهى ، والخيرات ستنتهى ،

(٥١٩)

ولكل إنسان أجل يموت عنده ... ومعرفة ذلك يؤدي إلى الإيمان بوجود إله قديم
أزلى أبدى ، بيده الأمر كله .

على الإنسان أن يستفيد بعقله الذى خلقه الله به ، وليتأمل فى الوجود كله
ليعلم الموجد .

إن الله أيد رسله بالمعجزات ليرى الإنسان قدرة الله تعالى ، ويستسلم له
سبحانه وتعالى .

والعاقل هو من يعيش الحقيقة ، ويرى الواقع ، ويؤمن بالله تعالى .

- سادسا -

قصة "لوط" عليه السلام مع قومه

(٥٢٠)

وردت قصة "لوط" عليه السلام فى سورة "الشعراء" من الآية رقم (١٦٠) إلى الآية رقم (١٧٥) ، وسأبحث معانيها فى مقاطع متعددة هى :

المقطع الأول

"لوط" عليه السلام يعرض عليهم الدعوة العامة

يقول الله تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ ۝

- ١ -

موضوع الآيات

الآيات تبين الدعوة العامة التى دعا بها جميع الرسل ، وهى ضرورة الإيمان بالله تعالى ، وأهمية تقواه ، وخشيته مع إظهار دور الرسول ووظيفته .

- ٢ -

تفاصيل المقطع الأول

من خلال دلالة الآيات

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ ۝ أى كذب قوم لوط رسالة الله التى أتاها بها لوط عليه السلام فلقد عرفهم دعوة الله تعالى ، وحضهم على الطاعة ، وضرورة الخوف من الله تعالى فبادروا بالتكذيب ، ولم يطيعوه فيما وجههم إليه .

وأخوة لوط لقومه ليست أخوة النسب ، وإنما هي أخوة المصاحبة والولاء
لأن لوطا عليه السلام آمن برسالة ابن خالته إبراهيم عليه السلام وهو بالعراق بقريتهما "كوئى"
وهاجرا سويا إلى الشام واستقر الأمر بلوط عليه السلام فسكن "سدوم" التى تقع شرق
النهر فصار أهلها قومه بالمجاورة والمصاحبة ... وقد حثهم لوط عليه السلام على
تقوى الله ، وطاعته ، وصارت رسالته لهم فقال لهم : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾
﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ أى إنكم تعرفون تميزى بالصدق والأمانة ،
فاسمعوا نصحى ، وثقوا فى أمانتى ، واتقوا الله تعالى ، واطيعونى فى دعوتى
وعظتى فقد أرسلنى الله لكم خاصة .
﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنَّا نَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾
أى إنى لأخذ منكم مالا على نصحى ، فأجرى على الله ، يثيبنى عليه فوزا ،
وجنة يوم القيامة .

- ٣ -

معنى المقطع الأول من خلال دلالة الآيات

تدل آيات المقطع الأول أن قوم لوط عليه السلام كذبوه حين دعاهم إلى التوحيد
، وأمرهم بالتقوى ، فعرفهم لوط عليه السلام أنه رسول الله لهم خاصة ، وأنهم يعرفونه ،
ويعلمون أنه صادق أمين ، وأنه مخلص فى نصحه ، ولن يأخذ منهم على هذا
النصح أجرا فأجره على الله رب العالمين ، يناله فى الدنيا معونة وتوفيقا ، وفى
الآخرة جنة ونعيما .

المقطع الثانى

الجدل حول دعوة "لوط" عليه السلام الخاصة لقومه

يقول الله تعالى :

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ
أَزْوَاجِكُمْ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَه يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ
الْمُخْرَجِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٨﴾ ۝

- ١ -

موضوع الآيات

ينكر لوط عليه السلام على قومه معاداتهم للفطرة ، ورفضهم الزواج من النساء ،
ورغبتهم في الذكور ، وهذا عدوان وظلم ، وتبين أن قوم لوط هددوه بالطرد من
البلد إن لم ينته عن دعوته ، وانكار ما هم فيه .

- ٢ -

تفاصيل المقطع الثاني من خلال دلالة الآيات

قال لوط عليه السلام لقومه ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَلَمِينَ ﴾ ؟ ... الاستفهام
إنكارى ينكر فيه لوط عليه السلام ما عليه قومه من أفعال اخترعوها وعاشوا بها دون
الناس جميعا ، وهو ارتكابهم للفعلة القبيحة الشنيعة ، وهى غشيان الذكور ،
والتمتع بهم ، وترك النساء ، وعدم الزواج بهن .
﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ أى تغشون الرجال ،
وتتركون النساء ، وقد خلقهم الله زوجات لكم ، تستمتعون بهن ، ويستمتعون بكم .

(٥٢٣)

﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ أى أنكم فى هذا السلوك المشين تعتدون على الحدود ، وتتركون الفطرة ، والعقل ، والسلوك القويم ، وتسيئون إلى أنفسكم بهذا الفعل القبيح .

لم يعجب القوم كلام لوط ، وردوا عليه و ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ أى قالوا للوط ﷺ إن لم تنته يا لوط من إنكار ما نحن عليه لنخرجك من قريتنا ، ونبعدك عن بلدنا .

وقد هدد القوم لوطا ﷺ بكل قوتهم ، فحددوا مرادهم منه ، وأكدوا العقوبة التى رأوها بالقسم وما يستتبعه من مؤكدات بيانية ، وبينوا أنهم سيطردونه من "سدم" ولا غرابة فى هذه العقوبة لأنهم يقيمونها عقوبة لمن يخالفهم ، وسيكون لوط حين طرده واحدا من المخرجين المطرودين .

فأجابهم لوط ﷺ و ﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِّنَ الْفَالِغِينَ ﴾ أى إنى برئ من عملكم ، كاره له ، ولا أحبه ، ولا يضيرنى تهديدكم ، ووعيدكم ، وسأقول عنه ما فيه من فحش وسوء .

- ٣ -

معنى المقطع الثانى من دلالة الآيات

تبين الآيات أن لوطا ﷺ أنكر على قومه فعلتهم الشنيعة ، وعابهم فى إتيان الرجال وترك النساء ، لأن ذلك مخالف للفطرة ، ومعاد للعقل والشرع ، وبين لهم أن ذلك عدوان وظلم ، فحذروه من قوله ، وهددوه إن استمر فى إنكاره بالإخراج والطرده من القرية ، فتركهم وبين لهم أنه يكره ما يفعلون ، وأنه سيستمر فى دعوة الناس لتركه .

(٥٢٤)

المقطع الثالث العاقبة فى النهاية

يقول الله تعالى :

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ ١٧٦ فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ١٧٧ إِلَّا
عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ١٧٨ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ١٧٩ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ
الْمُنذَرِينَ ١٨٠ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ١٨١ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٨٢ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٨٣ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن لوطا عليه السلام اتجه لله ، وطلب منه أن ينجيه وأهله من سوء
أفعالهم ، فنجاه الله وأهله ألا زوجته فدمرها مع المدمرين ، ونزل عليهم مطر فيه
حجارة من سجيل ، أصاب رؤوسهم فهلكوا جميعا به ، وهم فى أماكنهم جاثمين
على ركبهم ... فبئس هذا العذاب ، وبئس هذا المطر الذى أصاب قوم لوط ،
وقد جعل الله من قصة قوم لوط آية يستفيد بها العقلاء وهم قليل ... وجعلها
أيضا تسلية وعظة لرسول الله ﷺ ولسائر الدعاة .

- ٢ -

تفاصيل المقطع الثالث من خلال دلالة الآيات

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أى نادى لوط ربه ، ودعاه أن ينجيه
ومن آمن معه من عمل هؤلاء القوم .

﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٧٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ أى

نجيناها وجميع أهله ، والذين آمنوا معه إلا عجوزا من أهله لم تؤمن ، وكانت مع القوم الفاسقين هى زوجته ، وقد أمر الله المؤمنين مع لوط أن يخرجوا من القرية ليلا ولا يلتفتوا خلفهم حتى لا يصيبهم ما يصيب أهل القرية .

﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿٧٦﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ

الْمُنذَرِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ أى دمرنا قوم لوط الذين تمسكوا بكفرهم ، واستمروا فى

أفعالهم المنكرة بأن أرسلنا عليهم مطرا فيه حجارة من سجيل أتت عليهم جميعا .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ

هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٧٩﴾ ﴾ أى فى هلاك قوم لوط آية وموعظة لمن يفعل

المنكر ، ولا يخاف الله ، وليعلم الناس أن الله غالب على أمره رحيم مع المؤمنين الصالحين ، ولتستمر الدعوة فى حركتها ومسارها حتى لا تتأثر بعمق وكثرة أعمال الفاسقين .

- ٣ -

معنى المقطع الثالث من دلالة الآيات

تبين الآيات أن لوطا عليه السلام طلب من الله تعالى أن ينجيه وأهله الذين آمنوا معه ... فاستجاب الله له ، ونجاه ومن آمن به ، وجميع أهله إلا امرأته فقد هلكت مع الهالكين الذين دمرهم الله بحجارة من سجيل نزلت عليهم كالمطر من السماء فماتوا جميعا ، وبقي أثرهم فى قريتهم .

إن فى قصة لوط عليه السلام مع قومه آية عجيبة تدعو إلى الإيمان والعظة لأولى الأبواب ، ومع دلالتها القوية لم يؤمن بها كثير من الناس .

(٥٢٦)

وليتأسى بالآية رسول الله ﷺ وليصبر فإله غالب على أمره رحيم بعباده المؤمنين .

- ٤ -

ركائز الدعوة

فى قصة "لوط" عليه السلام

تتضمن قصة "لوط" عليه السلام مع قومه على ركيزة هامة ... هى :

ارتباط الكفر بسوء الخلق

أساس الدين تحديد المسؤولية ، وتوضيح الواجبات ... فالإنسان مسئول عن عمله لأن الإنسان إذا أسلم بالغاً عاقلاً صار مسئولاً عن قوله وعمله ، وخلقته وسلوكه .

وقد حددت المسؤولية الواجبات المكلف بها ... فهو مكلف بعبادة الله وحده ونبذ الشرك والشركاء ... وهو مكلف بتطبيق شرع الله تعالى على نفسه وعلى غيره ... وهو مكلف بالالتزام بحسن الخلق والتمسك بالماكارم والفضائل .

ولذلك كان من العدوان أن يحارب الإنسان الفطرة ، ويعتدى على شرع الله تعالى .

لقد اعتدى قوم لوط على الفطرة ، ورغبوا فى الرجال دون النساء ، وكفروا بالله تعالى ، فلما طلب منهم لوط أن يعودوا إلى الحق ، ويدعوا ما هم فيه من شذوذ ، ويتمتعون بما شرع لهم هددوه بالطرد والإيذاء فبينوا بذلك أن الكفر ملازم لسوء الخلق .

إن من يعتدى على حق الله يسهل عليه أن يعتدى على حقوق العباد ، ومن لا يخاف من الله لا يخاف من شئ بعده .

(٥٢٧)

إن القادة الظالمين يتميزون بالعدوان ، وحب التسلط ، ويضيعون حقوق البلاد والعباد ، ولا يخافون من شئ .
إن الظلم عاقبته وخيمة ، والكفر مآله إلى الجحيم ، ولن يعرف كافر ما الخلق الحسن .

- سابعاً -

قصة "شعيب" ﷺ

وردت قصة شعيب ﷺ مع أصحاب الأيكة في عدد من الآيات بدءاً من الآية رقم (١٧٦) إلى الآية رقم (١٩١) وسأتناول هذه الآيات بالتفسير في عدد من المقاطع بإذن الله تعالى فيما يلي :

المقطع الأول

"شعيب" ﷺ يعرض دعوته العامة

يقول الله تعالى :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۝ ﴾

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات الدعوة العامة التي بدأ بها جميع الرسل دعوتهم للناس حين طلبوا منهم أن يتقوا الله ، ويؤمنوا به ، ويعلموا أن طاعة الرسول واجبة فهو أمين صادق لا يأخذ منهم أجراً .

(٥٢٨)

- ٢ -

تفاصيل المقطع الأول
من خلال دلالة الآيات

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [١٧٦] إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا

تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ أى كذب أصحاب الأيكة ، والأيكة هى البستان ، ذو الشجر الكثيف العالى المتداخل ، وقد سميت البلدة باسم ما فيها من بساتين ، وسمى أهلها بأصحاب الأيكة .

وتسمية القوم بالأيكة بيان لجحودهم نعمة الله فيهم ، فقد خلقهم ، ووضعهم فى خضرة يانعة ، وأنهار جارئة ، وأشجار ضخمة متداخلة ، وثمار عديدة ، وحثهم على الخوف من الله ، والاستقامة على دينه فهو خالقهم وخالق كل ما هم من نعيم ... ومع ذلك لم يؤمنوا .

فإن قيل : لم تذكر الآية أن شعيبا أخوهم كما ذكرت الآيات مع الرسل السابقين . فما سبب ذلك ؟

أقول : إن شعيبا عليه السلام من مدين ، وليس من أصحاب الأيكة ، فهو أخ لمدين ، وليس أبا لأصحاب الأيكة .

وارسال شعيب عليه السلام إلى أصحاب الأيكة والى مدين إشارة لتطور العقل البشرى كما حدث مع موسى عليه السلام فقد أرسل إلى المصريين ، والى قومه بنى إسرائيل ، تمهيدا لكمال التطور البشرى ليخاطبهم جميعا رسول واحد يختم الله به الرسالات ، وهو محمد ﷺ .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [١٧٨] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [١٧٩] هذه هى

الدعوة العامة التى ذكرها الرسل جميعا لأقوامهم ، وقد ذكرها القرآن الكريم واحدة فى مبناها ومعناها .

(٥٢٩)

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنَّا نَجْزِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى

أخبرهم شعيب عليه السلام أنه لن يأخذ منهم أجرا ، فأجره على الله ... ودعوة شعيب العامة تشير إلى عدد من الأمور هي :

(١) الدين عند الله واحد نزل به الرسل جميعا ، ولم يختلفوا فى أركان العقيدة التى تقوم عليها الدعوة .

(٢) الدعوة إلى الله تعالى ملتزمون بهذه العقيدة الواحدة ، وعليهم أن يأخذوها بصفائها ، ووضوحها من بيان القرآن الكريم ، ومن دعوات سائر الرسل لأن الدعوة سيجدون مع هذه السعة البراهين العديدة ، والأمم المتنوعة ، والخطابات الكثيرة ، وهذا يثرى عندهم فهم العقيدة ، وحسن عرضها ، وحسن الدفاع عنها .

(٣) أن يوطن الدعوة أنفسهم على مواصلة الدعوة ، وعدم التأثر بالمكذبيين والمعارضين ، ولعل سر بدء آيات كل قصة بتكذيب القوم بيان للدعاة ليعلموا أن رسل الله عليهم صلوات الله وسلامته كذبهم أقوامهم ابتداء ومع ذلك عرضوا عليهم الدعوة .

(٤) ضرورة البدء بالأهم فالمهم لأن الرسل بدأوا بالدعوة إلى العقيدة قبل النظم .

(٥) ضرورة اتصاف الدعاة بأخلاق الصدق والأمانة ، والتجرد التام من الأنانية وحب الذات ، فلقد قام الرسل بالدعوة بلا أجر يأخذونه من الناس وهم متصفون بصفات القيادة الناجحة وأهمها الصدق والأمانة .

(٦) ضرورة مراعاة التطور العقلى عند الناس ، وانتقال الفكرة من مرحلة التصور المحسوس إلى فهم المعقول المجرد حتى لا تتخلف الدعوة عن الناس .

(٥٣٠)

- (٧) أهمية الإخلاص التام لله رب العالمين في كافة مراحل الدعوة ، ودعوة الناس إلى تقوى الله ، والالتزام بدينه .
- (٨) تكرار الدعوة له فوائده ، ولذلك كرر الرسل في دعوتهم الأمر بتقوى الله تعالى .

- ٣ -

معنى المقطع الأول من دلالة الآيات

تبين الآيات أن شعيبا عليه السلام دعا أصحاب الأيكة ، وهو ليس منهم فحثهم على تقوى الله وطاعته ، وبين لهم صفاته التي عرف بها بينهم ، وأكد لهم أنه لن يأخذ منهم أجرا ، ومع ذلك كذبوه ، ولم يؤمنوا بدعوته .

المقطع الثانى

”شعيب“ عليه السلام يعرض دعوته الخاصة

(٥٣١)

على أصحاب الأيكة

يقول الله تعالى :

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٧١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ
الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٧٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
﴿١٧٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّ الْأُولِينَ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات الدعوة الخاصة التي دعا شعيب عليه السلام أصحاب الأيكة إلى العمل بها ، وكانت لهم خاصة ، وهي الجانب التشريعي في دعوة شعيب عليه السلام .

- ٢ -

تفاصيل المقطع الثاني من خلال دلالة الآيات

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ أي حافظوا على حقوق الآخرين في كل ما يكال ، واعطوه لهم كاملا ، ولا تكونوا من المخسرين للكيل بالزيادة أو بالنقص فخذوا كما تعطون ، واعطوا كما تأخذون ليحصل كل متعامل على حقه وافيا .

﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ وأوفوا الوزن كما وفيتم الكيل ، وزنوا أخذا وعطاء بميزان عادل سوى .

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أي ولا تنتقصوا الناس حقهم في كيل أو في وزن ، أو في غيرها كالمزروعات ، والمعدودات ، والأحجام .

(٥٣٢)

﴿ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ ولا تكثرُوا الإفساد فى الأرض بالتطفيف ، والعدوان ، لأن العدل أساس الملك ، والاصلاح عماد النجاح .
﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ ﴾ أى استقيموا على أمر الله وخافوا عقابه فهو الذى أوجدكم ، ورزقكم ، وأكرمكم ، وخلق أباءكم ، وسائر الخلق ، فلا تكفروا به ، وآمنوا بى وصدقونى .
وهكذا تدرج شعيب عليه السلام فى تنظيم أعمالهم ، فدعاهم إلى إيفاء الكيل والوزن ، ثم انتقل إلى دعوتهم لترك الفساد بكل صوره ، وختم دعوته بضرورة تقوى الله تعالى ، والاستقامة على منهجه .
ويبدو أن مدين قوم شعيب تشابهت مع أصحاب الأيكة لأن أخاهم شعيبا عليه السلام دعاهم بمثل ما دعا أصحاب الأيكة إليه ... كما توضحه آيات سورة "الأعراف" وسورة "هود" عن شعيب عليه السلام .

- ٣ -

معنى المقطع الثانى

من دلالة الآيات

يدعو شعيب عليه السلام أصحاب الأيكة إلى المعاملة الحسنة التى بها يحافظون على حقوق الآخرين من كيل ووزن وغير ذلك وعدم إنقاص هذه الحقوق ، والبعد عن الفساد ، والالتزام بتقوى الله تعالى .

المقطع الثالث

اتهام أصحاب الأيكة لشعيب عليه السلام

يقول الله تعالى :

(٥٣٣)

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿ ٥٣١ ﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ ٥٣٢ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات رد أصحاب الأيكة على شعيب عليه السلام واتهامهم له بصفات لا يصلح معها أن يكون رسولاً فقد وصفوه بالمسحور الذى تكاثر عليه السحرة ، وأثروا فيه ، وأنه بشر عادى ، وأنه كاذب فى دعوى الرسالة ، واستعجلوا نزول العذاب بهم .

- ٢ -

تفاصيل المقطع الثالث من خلال دلالة الآيات

أصر أصحاب الأيكة على تكذيب شعيب واتهموه بما ليس فيه و ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ أى إنك يا شعيب قد كثر عليك السحر حتى صرت تتكلم بكلام غير مفيد ، وتدعونا لأمر باطل .
﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أى إنك يا شعيب بشر مثلنا . فما وجه تفضيلك علينا ، واختيارك للرسالة ؟
﴿ وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى إننا نعتقد أنك أحد الكاذبين الذين يكثرون كلاماً لا حقيقة له ، فدعواك إنك رسول الله لا نصدقه .

(٥٣٤)

﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أى إن كنت صادقاً فأرنا آية نعلم بها صدقك ، واسقط علينا قطعا من السماء يكون فيها هلاكنا وعذابنا .

فأجابهم شعيب عليه السلام و ﴿ قَالَ رَبِّيَّ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى إن الله ربي وربكم ، وهو عليم بكل أقوالكم وأعمالكم ، يفعل ما يشاء ، وهو الحكيم الخبير .

- ٣ -

معنى المقطع الثالث من دلالة الآيات

تبين الآيات أن أصحاب الأيكة رفضوا دعوة شعيب عليه السلام واتهموه بالسحر والكذب ، وعدم استحقاقه للرسالة ، وطلبوا منه آية تهلكهم ، وتنزل عليهم إن كان صادقاً ، فعرفهم أن الأمر بيد الله ، وهو الحكيم الخبير .

المقطع الرابع نزول العذاب بأصحاب الأيكة وأهمية الاعتبار بقصتهم

يقول الله تعالى :

(٥٣٥)

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ ۝ ﴾

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن أصحاب الأيكة كذبوا شعيباً فأخذهم عذاب يوم الظلة ،
وقد جعل قصتهم عبرة للناس لا يعقلها إلا قليل من الناس ، وجعل الله في
قصتهم أسوة لرسول الله ليتأسى بها ، ويصبر على أذى قومه وكفرهم .

- ٢ -

تفاصيل المقطع الرابع من خلال دلالة الآيات

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴾ أى استمر أصحاب الأيكة فى تكذيب شعيب عليه السلام فجازاهم الله بجنس
ما طلبوا من سقوط الكسف على رعوسهم ... وذلك أن الحر الشديد أصابهم
فخرجوا إلى البرية ، وتمنوا ظلاً يظلهم ، فرأوا سحابة فاجتمعوا تحتها فأمطرتهم
شواظاً من نار أحرقتهم جميعاً .

وقد نسب الله اليوم والعذاب الذى نزل بأصحاب الأيكة إلى هذه الظلة .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى فى قصة

أصحاب الأيكة وما حل بهم آية تدعو إلى الإيمان إلا أن أكثر الناس لا يؤمنون
والقصة لرسول تسلية وتوجيه حتى لا يحزن على استمرار قومه فى الكفر فهم
ليسوا بدعا فى الناس .

(٥٣٦)

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْغَزِيرُ الرَّحِيمُ ﴾ أى وإن ربك يا محمد هو القوى

الغالب المحسن لعباده ، المعين للمخلصين الصادقين ، فلا تبتئس بما يفعل
المشركون الظالمون ، واعلم أن الله معك فى كل وقت وحين .

- ٣ -

معنى المقطع الرابع من دلالة الآيات

تبين الآيات أن أصحاب الأيكة كذبوا شعبيا فأخذهم عذاب يوم الظلة
وبيان ذلك أن أصحاب الأيكة أصابهم حر شديد فخرجوا إلى البرية يطلبون بردا
وظلا فجاءت سحابة فاجتمعوا جميعا تحت ظلها فامطرتهم بشواظ من نار حتى
ماتوا جميعا ... وفى كل ذلك درس لمن يعتبر وهم قليل ، وفيه عبرة لرسول
حتى يصبر ويحتسب ، ويتيقن من عزة الله ورحمته .

- ٤ -

ركائز الدعوة فى قصة أصحاب الأيكة

تتضمن القصة ركيزة هامة ... هى :

الكبر بظن الحق ، وغمط الناس

استولى الكبر على أصحاب الأيكة فأنكروا الحق ، وظلموا الناس ، أما إنكارهم
للحق فهو أنهم لم يؤمنوا بالله ، وكذبوا شعبيا ، وأنكروا البعث والحساب .
وقد أدى إنكارهم لحق الله أن أنكروا حقوق العباد ، فطففوا الكيل والوزن
وضيعوا حقوق الناس ، ونشروا فى الأرض الفساد .
لقد أعطاهم الله المال ، والولد ، والحسن ، والجمال ، وبذل أن يتواضعوا
لله ، ويكونوا عبيدا له ، تكبروا على الناس ، وجعلوا لأنفسهم سلطانا وعظمة .

(٥٣٧)

ولقد أدى بهم الكبر إلى الاستهزاء بـ "شعيب" واتهموه بأنه مسحور قد أكثر السحرة عليه من سحرهم ، حتى صار لا يفهم ما يسمع ، ويقول ما لا يعقل لقد أدى بهم الكبر أنه لن يتميز أحد عليهم فأنكروا رسالة شعيب لأنه واحد مثلهم وهم أولى منه كبشر .

وأدى بهم الكبر إلى الاستهزاء بوعد الله لهم فطلبوا شعيب عليه السلام أن ينزل العذاب الذى خوفهم منه ، ووصل بهم الاستهزاء إلى اقتراح صورة العذاب الذى ارتضوا أن ينزل بهم لأنهم لم يتوقعوا نزوله لعدم إيمانهم .

لقد عذبهم الله بما اقترحوا ، وثبت كذبهم ، وتحقق هلاكهم وتدميرهم . إن الكبر خلق سئ لا يليق بالإنسان الكريم أن يتصف به ... وعلى المؤمنين أن يطيعوا الله ، ويبتعدوا عن الكبر ، ويكونوا من عباد الله الصالحين الذين يستقيمون على منهج الله تعالى .

وعلى الدعاة أن يحذروا غضب الله تعالى ، لأن عذابه شديد ، ولن يخلف الله وعده .



الركائز الكلية للدعوة والدعاة المستفادة من قصص رسل الله تعالى

فى رسالة الرسل جميعا ركائز أساسية وجدت مع كل رسول ، وهى ركائز مستمرة مع الدعوة إلى الله تعالى ... وأهم هذه الركائز ما يلى :

الركيزة الأولى

الوحدة الدينية

يتضمن دين الله مع كل رسول على جانبين أساسيين :

أولاهما : وحدة أركان العقيدة ، وهى الأركان التى يكلف الإنسان بالتصديق بها ، واليقين التام فى تحققها ، وهذه الأركان ثابتة منذ الأزل لا تتغير ولا تتبدل ، وقد جاء بها الرسل جميعا . يقول الله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقْبِلُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۗ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى ۚ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾^(٢) .

وحين يكون الحديث عن الوحدة الدينية عند الرسل فإن المقصود هو هذا الجانب العقدى الخالص .

ثانيهما : التعاليم الدينية المتصلة بالنظم ، والأعمال اليومية التى يقوم بها الأفراد والجماعات ، وهى المعروفة بالشريعة ... هذا الجانب يتغير من أمة لأمة ، ومن عصر لعصر ، والدين يقبل هذا التغير ليبقى صلاحه لكل زمان ومكان يقول الله تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾^(٣) ولذلك حينما

(١) سورة الشورى ، الآية ١٣ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١٦٣ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ٤٨ .

(٥٣٩)

يكون الحديث عن تغاير الأديان يكون المقصود هو الجانب الشرعى المتصل بأعمال المكلفين ، ونظام الحياة .

والصلة بين الجانبين وثيقة لأن من آمن بالجانب الأول يعتمد المبادئ الكلية للجانب الثانى ، ويجعلها أساس التكليف طاعة لله تعالى .

وحين ننظر فى قصص الرسل فى سورة "الشعراء" نجد أنهم جميعا دعوا إلى دين واحد يعتمد على الإيمان بالأركان الثابتة ... وهى :

(١) توحيد الله تعالى ، وتقواه .

(٢) الإيمان بالرسول فهو الصادق الأمين ، المكلف بالدعوة بلا أجر يأخذه .

(٣) الوحي المنزل الذى يبلغه الرسول بكل صدق وأمانة .

(٤) الإيمان بالملائكة وعلى رأسهم جبريل عليه السلام .

(٥) الإيمان باليوم الآخر الذى خوفهم من عذابه رسل الله تعالى .

هذه الوحدة الدينية تجلت على ألسنة الرسل جميعا ، كما بينت الآيات ، **ومع هذه الوحدة** يجب أن تتكامل الرسالات ، وتتعاون لتقديم دين الله صافيا للناس ... ولا يصح قبول دين ينكر غيره ، ودين الله الحق هو الدين الذى يجمع الأديان كلها ، ويعترف بها ، ويكملها .

وجاء الإسلام للناس جميعا خاتما للأديان ، فصدق بها ، وكملها ، وأزال عنها غبار التحريف والتبديل .

اعترف الإسلام بسائر الرسل ، وجعل الإيمان بهم جزءا من العقيدة وأقر بنزول الكتب السابقة ، وأنزل القرآن الكريم مهيمنا عليها .

إن الإسلام دعوة للوحدة الإنسانية الشاملة ليصنع الناس من هذه الوحدة كيانا واحدا جميلا يصوره لنا رسول الله ﷺ ، ويقول : "إنما مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها

(٥٤٠)

، ويتعجبون منها ، ويقولون : لولا موضع اللبنة ... فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين^(١) .

هذه الوحدة الدينية توجب على الدعاة والعلماء عدة أمور :

أولاً : الإحاطة بسائر الأديان ، وبخاصة الأديان المنسوبة إلى أحد رسل الله تعالى ، ومعرفة مواطن الاتفاق ، ومواطن الاختلاف فيها .

ثانياً : الوقوف على القضايا المختلفة في العقيدة ، ومعرفة مناقشتها ، والرد عليها من خلال النصوص الدينية ، وموقف العلماء .

ثالثاً : اكتشاف أى تحريف دخل في الأديان ، وتتبعه تاريخياً ، وعلمياً لأن ذلك أيسر طريق للقضاء عليه .

رابعاً : تأكيد أن الرسائل السابقة بشرت بالإسلام ، وصرف نصوصها عن هذا التأكيد قول مردود .

على المسلمين أن يعتزوا بدينهم ، ويتمسكوا به ، ويتعاملوا بالحسن مع أصحاب الأديان السابقة .

الركيزة الثانية

تشابه معارضى الدعوات الإلهية

لم تسلم دعوة إلهية من المعارضين ، وهذا شأن الناس في حياتهم . يقول الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾^(٢) ... وتلك إرادة الله في الناس ليظهر الخبيث من الطيب ، ويتضح الصادق من الكاذب .

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب الأمثال . باب ما جاء في مثل النبي ﷺ ج ٥ ص ١٤٧ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١١٢ .

وهؤلاء المعارضون يكونون غالبا من أولى الرأى فى مجتمعاتهم ، وهم المأ الذين يملأون المجالس ، ويظهرون على الناس ... وسر معارضة المأ للدعوات الإلهية أنهم يرونها تقضى على وضعيتهم الظالمة بين الناس ، وتحولهم إلى أفراد عاديين كسائر الناس ، ولذلك يقفون من الدعوات الإلهية معارضين ، وصادين ... يعبر عن هؤلاء قوم نوح عليه السلام حين قالوا ما حكا الله عنهم : ﴿ وَمَا نُرِيكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ ﴾ ^(١) أى إن أتباعك من الفقراء ، والضعاف ، الذين لا يفكرون فى الأمور ، ولن نكون معك لأننا متميزون عنهم .

إن هؤلاء المعارضين يرون أن الدعوة الدينية تحرمهم من المتع المادية واللذائذ الشهوانية ، وهم يرفضون ذلك ويريدون أن يستمروا فى شهواتهم وفسقهم الذى يوصل المجتمع فى النهاية إلى الدمار . يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدْمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ ^(٢) . إن الفسق داء شديد الضرر والأذى يضيع المجتمعات ، وينشر الفساد ويفرق بين الناس .

وأىضا فإن معارضى الدعوات الإلهية يألفون الجريمة ، ويتعودون التآمر والكيد ، ولا نشاط لهم فى المجتمع إلا صناعة الأكاذيب ، والتفريق بين الناس ليسودوا بينهم . يقول الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ ^(٣) .

(١) سورة هود ، الآية ٢٧ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ١٦ .

(٣) سورة هود ، الآية ٢٧ .

ومن المعلوم أن المعارضين يحبون أن لا يغيروا سلوكهم ، ويتمسكوا بتقليد آبائهم ، ويتخذونهم أسوة لهم من غير نظر وتدبر ، ويقولون : ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾^(١) .

لقد سار كفار مكة ومعارضو الإسلام على نمط أسلافهم ، فكانوا حريا على الإسلام وعلى رسول الله ، واستمر الصراع حتى نصر الله الإسلام .
ويجب على الدعاة أن يعوا هذه الحقيقة ، ويركزوا عملهم على البسطاء من الناس فهم الأقوى سمعا ، والأسرع إجابة ... وهم المخلصون الصادقون ومن الأفضل أن لا يضيع الدعاة جهدهم في مناقشة أناس أضمو آذانهم ، وأعموا أبصارهم ، وأغلقوا قلوبهم ، لأن إطالة الجهد مع هؤلاء لا يفيد .
إن الإنسان الفقير الضعيف هو من يقدر النعم التي هو فيها ، ويتمنى من ربه المزيد ، ويرجو العدل والمساواة مع سائر الناس .
ولذلك كان منهم حماة الدعوة ، ورجال الإسلام .

الركيزة الثالثة

تنظيم الحركة بالدعوة إلى الله تعالى

حين ننظر ونتأمل في حركة الرسل بالدعوة إلى الناس نرى أن الرسل اتبعوا منهاجا منسقا ، وخطة منظمة في اتصالهم بالناس .
فهم . أولا . لم يباشروا الدعوة إلى الله تعالى إلا بعد اكتمال صفاتهم الذاتية ، ولذلك اختارهم الله تعالى حين بلوغهم سن الأربعين بعد أن يصنعهم صناعة خاصة حتى لا يترك ثغرة ينفذ منها أعداؤهم للطعن فيهم ، وقد اشتهروا جميعا بين أقوامهم بالصدق ، والشجاعة ، والإخلاص .

(١) سورة الشعراء ، الآية ٧٤ .

وهم . ثانيا . متجددون للدعوة ، وأملهم إبلاغها للناس ، وانتشار الإيمان بها ، ولذلك بين كل رسول لقومه : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنِ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١) ومن شدة إخلاصهم ، وتجردهم أنهم جميعا تحملوا المصاعب والمشاق ، ولم يتوقفوا عن الدعوة ، وكانوا يتحملون الآلام حتى اقتربوا من الموت ، ولسان حالهم يصوره الله تعالى فى قوله لمحمد ﷺ ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ﴾^(٢) ، وفى قوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَمِغْصِكَ نَفْسًا عَلَىٰ شَايِرِهِمْ ۖ إِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾^(٣) .

وهم . ثالثا . يحددون القضية التى يدعون إليها ، وهى واحدة فى سائر الرسالات ، وكانوا يقولون : ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾^(٤) ، وقالوا جميعا لأقوامهم : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾^(٥) .

وهم . رابعا . يناقشون الناس فى قضية التوحيد ، وفى سبب عبادتهم للأصنام ، ويسألونهم عن أمور تبين فساد اتخاذ الأصنام آلهة ، وعبادتها من دون الله تعالى .

وهم . خامسا . يتعاملون بالرفق واللين أملا فى إيمان المعارضين ولسان حالهم يصوره قول الله لموسى ﷺ وأخيه هارون ﷺ : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾

(١) سورة الشعراء ، الآية ٧٤ .

(٢) سورة فاطر ، الآية ٨ .

(٣) سورة الكهف ، الآية ٦ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية ٥٩ .

(٥) سورة الشعراء ، الآيات ١٢٤ . ١٢٦ .

لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿١﴾ وتظهر قيمة القول اللين حين نعلم أن هذا أمر لموسى وهارون حين يدعون "فرعون" مدعى الألوهية بظلمه ، وقسوته ، وجبروته .

وهم . سادسا . يتبعون المنهج العقلى فى المناقشة ، فيبدؤون بإبطال ما عليه المشركون ، ويثبتون بإثبات أن الله هو الإله الحق المبين .

وهم . سابعا . يأخذون أدلتهم من واقع المدعويين وحياتهم ، ويظهرون نعم

الله عليهم ، فيذكر موسى ﷺ لفرعون ما هو فيه : ﴿ مِّنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾

وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ ويذكر إبراهيم ﷺ أن ربه هو ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى

فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٦١﴾

﴿ ٦٢﴾ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٦٣﴾ وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ

الدِّينِ ﴿٦٤﴾ ﴾ ، وهود ﷺ بقول لقومه : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٥﴾

وَاتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿٦٧﴾ وَجَنَّتٍ وَعُيُونٍ

﴿ ٦٨﴾ ﴾ ، وصالح ﷺ بقول لقومه : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَنُوءًا ءَامِنِينَ ﴿٦٩﴾

فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿٧٠﴾ وَزُرُوعٍ وَخَلِّ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿٧١﴾ وَتَنَجِّتُونَ مِنْ

(١) سورة طه ، الآية ٤٤ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات ٥٧ ، ٥٨ .

(٣) سورة الشعراء ، الآيات ٧٨ . ٨٢ .

(٤) سورة الشعراء ، الآيات ١٣١ . ١٣٤ .

(٥٤٥)

أَلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلْعَزِيزَ ﴿١٧﴾ ، وعلى هذا النمط كان سائر الرسل .

وهم . ثامنا . كانوا يظهرون للناس المعجزات الخارقة للعادة ليروا عجزهم ، ويروا قدرة الله تعالى .
وأخيرا كان الجزاء الإلهي الذي قدره الله لهم .
إن الدعوة إلى الله تعالى نظام كامل يراعى قدرات الدعاة ، والمدعويين
ولذلك تتم الدعوة خطوة خطوة بحيث تسلم كل خطوة لما بعدها ، وبحيث لا يمل المستمع ولا يتعب القائل .
ومن المعلوم أن النظام أساس الوصول للحقيقة ، ويكفيه أنه يحدد الهدف والغاية ، ويوضح الوسيلة والأسلوب .

وعلى الدعاة :

أن يهتموا بهذا الجانب التنظيمي في دعوتهم الناس ، لأنهم يخاطبون عقولا ، وأفهاما وهذا يحتاج الدقة ، والتخطيط ، والاستعداد ولابد لذلك من علم واسع ، وفهم دقيق ، وحب تام للدعوة ، وتجرد مطلق لله ورسوله .

الركيزة الرابعة

الثقة في نصر الله تعالى

الدعاة إلى الله تعالى يعيشون قضية كبرى مع الناس ، فهم يعملون على نشر دين الله بين الناس ، ويبذلون في ذلك كل ما يمكنهم من وقت ومال

(١) سورة الشعراء ، الآيات ١٣١ . ١٣٤ .

وعلم ... وخصومهم يعملون على إفساد المجتمعات ، ونشر الفسق والبغى فى أرض الله .

المعركة شديدة ، وقد زادها العصر الحديث بعلموه ومخترعاته ضراوة وقوة ، فكثر الصحف والمؤلفات والنشرات ، وتعددت الاذاعات ، والفضائيات ، وكثرت وسائل الاتصال ، وصارت سهلة ومباحة لما أرادها ، ورغب فيها . ولذلك وجب على المسلمين أن يقوموا بواجبهم فى هذا المعترك الشرى وقد حمى وطيه .

يجب على المسلمين أن يضعوا دعوتهم إلى الله فى وسائل مكافئه لوسائل العصر ، وهى وسائل الخصوم .

يجب أن تظهر الصحف والمجلات التى تتبنى القضية الإسلامية ، وتظهر صوابها ، وترد الشائعات والأكاذيب التى يشيعها خصومها ، ومنهم مع الأسف مسلمون .

– وأن توجد المؤلفات التى تثبت الحقيقة وترد الزيف .

– وأن تكون الإذاعات والفضائيات الصادقة التى تلتزم بالقيم الحسنة ، والأخلاق الفاضلة .

– يجب أن ينشط الدعاة فى مجال التواصل الاجتماعى لحماية عقول الناس من مكائد المفسدين .

وكان من الممكن القول بعدم الاهتمام بكل هذا الهجوم مادامت القافلة تسير إلا أن الهجوم منظم ، ويلبس ثوب الحق ، ويدخل للناس من مداخل خبيثة لئيمة ، والجمهور المستمع من العامة يتأثر به ، لأن تكرار الكذب ، والاصرار عليه يجعله حقيقة عند البسطاء .

(٥٤٧)

نعم المعركة قوية ونحتاج إلى المخلصين الذين يعملون لله تعالى ،
مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

إن حماية الإسلام مسئولية الجميع من أجل إيجاد الجماعة المؤمنة التي
تستطيع الدعوة إلى الله تعالى بوسائل العصر ، وبالطرق المكافئة لما يقوم به
الخصوم .

دور القرآن الكريم في صنع الحياة

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٨﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢١﴾ أَوْلَمَ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُنَا مِنْ إِبْرَاهِيمَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿٢٣﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٦﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٧﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٨﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٩﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٣١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٣٣﴾ ذَكَرْنَاهُ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣٤﴾ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٣٧﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما انتهت الآيات السابقة من عرض أهم قصص الأنبياء السابقين مع أممهم جاءت هذه الآيات لبيان أن القرآن الكريم كلام الله تعالى أنزله على محمد ﷺ لينذر ويبشر به ، وأنه قائم على الحق والصدق ... وأنه كتاب يبين الدين ، ويوضح طرق الدعوة والبلاغ .

(٥٤٩)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات نزول القرآن الكريم من الله تعالى ليتخذ الرسول للتبشير والإنذار ، وأن الكتب السابقة بشرت به ، وتوضح صور تفاعل الناس مع نزوله على اختلاف طبائعهم وتوجهاتهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تتحدث الآيات عن أهم صفات القرآن الكريم ، وتتبعها بأخبار عنه ، وأهم صفاته هي :

(١) تنزيل رب العالمين :

يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى إن القرآن الكريم تنزيل رب العالمين ، فهو المراد من الضمير "إنه" لتعلق القلوب به ، ومتابعتهم لأخباره ، وهو يقص عليهم ما سبق من قصص ، وهذه الصفة تعنى أنه كلام الله تعالى الذى نزل على محمد ﷺ ليكون مصدر الهداية ، والاصلاح ، وعماد الإيمان والتقوى ... وفى هذا التنزيل إشارة إلى أن القرآن الكريم نزل للعالمين جميعا ، لأن ربهم أراد لهم الخير فأنزله إليهم هداية للحق ، ودعوة للإيمان .

(٢) نزول القرآن الكريم بواسطة جبريل :

يقول الله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ أى نزل به الروح الأمين من عند الله عليك يا محمد ، والروح الأمين هو جبريل عليه السلام ، وسمى روحا لأنه خلق من الروح ، ومجيئه إلى رسول الله بصورة روحية غير مادية ... وسمى آمينا لأنه صادق في كل ما يوصله إليك ، فهو يقرئك القرآن الكريم كما سمعه من الله تعالى .

(٣) ضرورة حفظ القرآن وفهمه :

يقول الله تعالى : ﴿ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ أى أن القرآن الكريم ينزل عليك يا محمد لتقرأه وتفهمه ، وتبلغ الناس به ، وخصت الآية القلب بالذكر ، وجعلته تعبيرا عن الإنسان كله ، لأن القلب هو المخاطب في الحقيقة ، وأنه موضع التميز والتميز ، والفهم ، والاختيار ، وسائر الأعضاء تابعة له .
يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾^(١) .

ويقول النبي ﷺ : "إلا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب"^(٢) .

ومن المعلوم الدال على أهمية القلب وضوح أنه موضع الفرح والسرور والهم والغم ... فإذا فرح القلب أو اغتم تبعه الجسد كله .

وحين نسلم أن القلب هو العقل ندرك أنه الأمير القائد ، وهو أساس التكليف والمسئولية ، ولذلك كان الفوز منوطا بفوز القلب ، وكانت الحياة قائمة على حياته ، فإذا انتهت انتهت الحياة .

ونزول القرآن على القلب يعنى ضرورة الاهتمام بالقرآن الكريم ، ومن المهم تصفية القلب لحفظه وفهمه ، وتهية الجوارح للعمل به ، وتربية الروح لتسمو به ، وتتصل بواسطته بالله تعالى .

(٤) إنه نزل للتبشير والإنذار :

يقول الله تعالى : ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ أى إن القرآن الكريم نزل لرسول الله ﷺ ليكون منذرا للعصاة ، ومبشرا للمؤمنين ، وأسلوبا للدعوة إلى الله تعالى ، ويجب أن يوضع القصص القرآنى فى هذا المسار الدعوى ليبقى بين الناس آية للدعوة والتبليغ .

(١) سورة ق ، الآية ٣٧ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب الإيمان . باب من استبرأ لدينه ج ١ ص ٢٠ .

(٥) لسان القرآن عربى مبين :

يقول الله تعالى : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ أى إن القرآن نزل من عند الله بلغة العرب ، وبلهجة قريش ليحفظه العرب ، ويؤمنوا به ، ويبلغوه إلى العالم كله .

فهم أقدر البشر على أداء الرسالة العالمية ، وايصال القرآن الكريم للناس كافة ، و ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ ^(١) ... وفى هذا تبكيت لمشركى مكة ، فبرغم أن القرآن الكريم نزل بلغتهم إلا أنه كفروا به عن تعنت وجهل وكبرياء .

(٦) تبشير الكتب السابقة به :

يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى إن القرآن الكريم مذكور فى الكتب الإلهية السابقة ، ففيها قصصه ، وفيها توحيد الله تعالى ، وفيها أوصاف محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين .

(٧) شهادة علماء بنى إسرائيل له :

يقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَنْ يَأْتِيَهِمْ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ أولم يكف أهل مكة برهاناً أنهم سألوا علماء بنى إسرائيل عن القرآن ومحمد فعرفوهم بصدقهما ، وكان أهل مكة يثقون فى معرفة اليهود لأنهم أهل كتاب ، وقد بينوا لأهل مكة قرب ظهور نبي فقد جاء زمانه .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢٤ .

يقول ابن عباس : بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ وعن القرآن الكريم فقالوا لهم : إن هذا زمان ظهور نبي ، وأنا نجد صفته ونعته في التوراة^(١) . فكان هذا دليل صدقه عندهم .

وبعد ذلك أخذت الآيات تبين تعنت المشركين وجحودهم للحق ، وعدم استفادتهم بالآيات والبراهين . فقال تعالى .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ۖ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا

بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي أن هذا القرآن الكريم لو نزل على أحد لا يعرف اللغة العربية ، وقراه على العرب بلغة لا يفهمون معناها ما آمنوا ، ولصار لهم عذر في الكفر لأنهم لم يفهموا ما قرئ عليهم ... أما وقد نزل القرآن الكريم بلغة العرب على رسول من العرب ، وسمعه العرب ، وفهموا معناه ، وشاهدوا فصاحته وبلاغته ، ورأوا إعجازه وآياته فلا عذر لهم في عدم الإيمان به . وفي هذا تسليية لرسول الله ﷺ ليعلم أن عدم إيمان مشركي مكة سببه العنت ، والعنت لا يصلح معه إلا الصبر ، والتحمل ، والجلد .

﴿ كَذَلِكَ سَلَكَنَا فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي أن التكذيب الذي فعله

مشركو مكة صار خاصية ملازمة لقلوبهم فهم به متمسكون ، سواء بلغهم رسول من العرب ، أو من العجم فقلوبهم لا تعي ، وأعينهم لا ترى إلا الفساد .

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ أي أن المجرمين

لن يصدقوا بالقرآن الكريم ، وبمحمد ﷺ حتى ينزل عذاب الله الشديد بهم ، وهو نازل في وقت لا تنفع فيه توبة ، ولا يقبل أثناءه إيمان .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ١٢٦ .

﴿ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى أن العذاب الأليم سينزل بالمشركين فى وقت لا يتوقعونه ، وسيقع مفاجئاً لهم .

وبعد مجئ العذاب ونزوله يتمنون العودة إلى الدنيا ليتوبوا ﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴾ أى هل يمكن أن يمهلنا الله وقتاً آخر نتوب فيه ونؤمن ، وهو أمل مستحيل ، فلقد علموا استحالة ذلك .

﴿ أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أى أنهم كانوا يتعجلون مجئ العذاب استهزاء به ، وكانوا يقولون : ﴿ أَتُنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾^(١) وكانوا يقولون : ﴿ وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴾^(٢) فلما نزل العذاب بهم ندموا وتحسروا .

إن المشركين قوم غافلون ، أعموا أبصارهم ، وسدوا قلوبهم ، وضلوا ضلالاً بعيداً ، ولو امتد عمرهم فى الدنيا ما امنوا ... وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ أى إن أهل مكة إن طال تمتعهم فى الدنيا ، ثم جاءهم الوعد الذى خوفوا به ما أغنت تمتعهم من وعد الله شيئاً ، وكانهم لم يكونوا فى نعيم قط .

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا هَا مُنْذِرُونَ ﴾ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرٌ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ أى أن الله قضى فى عبادة أن يرسل لجميع القرى منذرين ومبشرين من رسل الله ليذكروهم بالحق ، ويدعونهم إلى الإيمان لإقامة الحجة

(١) سورة الأعراف ، الآية ٧٧ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ١٨٦ .

عليهم إن لم يؤمنوا ، ومنعنا لأى ظلم يقع على الناس ... يقول الله تعالى :
﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا ﴾^(١) .

﴿ وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾^(٢) وَمَا يُنْبِغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ
﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾^(٣) أى تأتى هذه الآيات ترد مزاعم
المشركين عن القرآن الكريم بتأكيد بعض الحقائق ... وهى :

(أ) ﴿ وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ أى أن الشياطين لا تنزل بالقرآن الكريم
لأن الله حرم عليها اختراق السماء ، وإن اقتربت منها احترقت . يقول
الله تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ ۖ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ سِحْدٌ
لَّهُمْ شَهَابًا رَّصَدًا ﴾^(٤) .

وكيف تتمكن الشياطين من حمل القرآن الكريم ، وبينهما تعارض
وتضارب فالقرآن دعوة للهداية والنور والعدل والحق ، والشياطين جنود
الفساد والإفساد . يقول الله تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ
بِالْفَحْشَاءِ ۗ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾^(٥) .

(ب) ﴿ وَمَا يُنْبِغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أى لا يصح للشياطين حمل
القرآن الكريم لأنهم أمامه ضعاف أذلاء ، والله تعالى يقول : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا
هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾^(٦) .

(١) سورة الإسراء ، الآية ١٥ .

(٢) سورة الجن ، الآية ٩ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٦٨ .

(٤) سورة الحشر ، الآية ٢١ .

(٥٥٥)

(ج) ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ أى إن الله عزلهم عن سماع الخير ،
وأبعدهم عن السماء ، ولن يتمكنوا من سماع الملائكة .
وهكذا ...

تحدثت الآيات عن صفات القرآن الكريم ، وموقف مشركى مكة منه ،
وحالة الحسرة والندامة يوم القيامة لمن كذب به أو ادعى أنه من تعاليم
الشياطين .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أهم صفات القرآن الكريم وأنه وحى من الله ، أنزله على عبده
ورسوله جبريل عليه السلام بلسان عربى مبين ، لينذر به العصاة ، ويبشر به عباده
المتقين ، وأن ذكره فى الكتب المتقدمة ثابت فقد قال عيسى عليه السلام لأهل ملته
يبشر به : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنَى إِسْرَءِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ
إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى أَسْمُهُ
أَحْمَدُ﴾^(١) .

إن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكره فى كتبهم كما قال : ﴿الَّذِينَ
يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ﴾^(٢) وكما أن الأعجمين إذا قرئ عليهم القرآن لم يدروا منه شيئا ، ولم
يؤمنوا به ، كذلك هؤلاء المجرمون من قريش لا يؤمنون به كفرا وعنادا حتى

(١) سورة الصف ، الآية ٦ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧ .

(٥٥٦)

يأتيهم عذاب الله بغتة وهم لا يشعرون ، فيتمنون إذ ذاك العودة إلى الدنيا ليطيعوا الله ويتبعوا أوامره ، وأنى لهم ذلك ؟ وهل يجديهم التمنى ساعتئذ ؟ ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا ﴾^(١) .

وقد جرت سنتنا ألا نهلك قوما إلا بعد أن نبعث إليهم الرسل مبشرين ومنذرين .

ثم رد الله على مشركى قريش الذين قالوا : إن لمحمد ﷺ تابعا من الجن يخبره كما تخبر الكهنة .

وبيان فساد قول المشركين أن من سجايا الشياطين الفساد ، واضلال العباد ، والقرآن فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبأنهم ممنوعون عن سماع ما تتكلم به الملائكة فى السماء ، لأن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا مدة إنزال القرآن على رسوله ﷺ فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استراق السمع

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تبين الآيات ركيزة هامة ... هى :

ضرورة الاهتمام بالقرآن الكريم

القرآن الكريم كتاب الإسلام ، أنزله الله دستورا لدينه ، وهداية وبشرى لقوم يؤمنون .

وتتميز القرآن الكريم بأنه المعجزة الباقية مع الناس يتلى عليهم ، وفيه الحكم والأحكام ، والعمل والإعجاز ، ولذلك كان الاهتمام به اهتماما بالإسلام

(١) سورة غافر ، الآية ٨٥ .

كله لأن التطابق بين الإسلام والقرآن تام ، فمن أسلم فقد تقرأن ، ومن تمسك بالقرآن فقد اسلم .

ولذلك شن أعداء الإسلام قديما ، وحديثا هجوما كثيرا متعدد الصور والإشكال على القرآن الكريم فى صورة خداع علمى ، أو هجوم عنصرى ، أو عداوة دينية بغيضة ... يقصدون من وراء هذا الهجوم الإساءة إلى الإسلام .
إن الخصوم لا يأملون فى صرف المسلمين عن دينهم ، وإنما يأملون فى تحويل الإسلام إلى فلسفة كلامية ثقافية لا صلة له بالعمل والسلوك .

والواجب :

الاهتمام بالقرآن الكريم فهو كلام الله المنزل على محمد ﷺ ، ليبقى بين الناس محفوظا كما نزل ، وهذا أمر موجود إلا أن الواجب يحتم على المسلمين أن يحفظوا القرآن الكريم ، ويحافظوا عليه ، ويعملوا بما جاء فيه .
إن القرآن يحدد العقيدة ، ويرشد إلى الشريعة ، ويدعو إلى مكارم الأخلاق
لقد اهتم المسلمون بالقرآن الكريم فأنشأوا الإذاعات لتلاوته والكتليات والمعاهد لفهمه ومدارسته ، والأمر يحتاج إلى تطبيقه والعمل به .
ولا يصح مطلقا أن نكون كأهل مكة المشركين الذين لم يعرفوا فضل القرآن الكريم إلا بعد فوات أوانه .
ولا يصح أبدا أن يترك المسلمون الساحة لأعداء الله يعبثون فى الأرض بغير الحق .

والله يتولى الصادقين .

تحديد مجالات الدعوة لرسول الله ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴾ ١
عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ٢ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٣
فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِئَءِ مِمَّا تَعْمَلُونَ ٤ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥
الَّذِي يَرْنَكَ حِينَ تَقُومُ ٦ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ٧ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ٨ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة موقف المشركين من القرآن الكريم جاءت هذه الآيات تبين لرسول الله ما يجب عليه بالنسبة للإسلام .

- ٢ -

موضوع الآيات

توجه الآيات رسول الله ﷺ إلى الأمور الواجبة عليه في الدعوة إلى الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

أمر سبحانه نبيه بأربعة أوامر هي :

(١) ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴾

أى أخلص العبادة لله وحده ، ولا تشرك به سواه ، لأن من أشرك به فقد عصاه ، ومن عصاه فقد استحق عقابه ، وهذا الأمر موجه للأمة فى شخص رسول الله ﷺ لأن الأمر الموجه للجنود يوجه لقائدهم .

وفى هذا حث لرسوله على ازدياد الإخلاص ، وبيان أن الإشراك قبيح بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره منه ، فيكون الوعيد لغيره أجزر ، وله أقبل وبعد أن بدأ بالرسول وتوعده إن دعا مع الله إلها آخر مع الله أمره بدعوة الأقرب فالأقرب ، لأنه إذا تشدد على نفسه أولا ، ثم تنى بالأقرب فالأقرب كان قوله لسواهم أنفع ، وتأثيره أنجع فقال .

(٢) ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ أى وخوف الأقربين من عشيرتك

بأس الله ، وشديد عقابه لمن كفر به ، وأشرك به سواه .

وهذه النذارة الخاصة جزء من النذارة العامة التي بعث بها ﷺ يقول الله تعالى : ﴿ لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾^(١) ، ويقول سبحانه : ﴿ لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَلَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾^(٢) وهى تشير إلى قضية دعوية هامة وهى ضرورة نشر الإسلام شيئا فشيئا تبدأ بالأقرب فالقريب فالبعيد ثم الأبعد حتى تشمل العالم كله .

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : "لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ قريشا وعم وخص ، فقال : "يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا .

يا معشر بنى كعب ابن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا .

يا معشر بنى قصي أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا .
يا معشر بنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا

(١) سورة الشورى ، الآية ٧ .

(٢) سورة مريم ، الآية ٩٧ .

يا معشر بنى عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا .

يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار ، فإنى لا أملك لك ضرا ولا نفعا .
ألا إن لك رحما سألها ببلالها" (١) .

روى مسلم بسنده قوله ﷺ : "والذى نفسى بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ، ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار" (٢) .

وبعد أن أمره بإنذار المشركين من قومه أمره بالرفق بالمؤمنين فقال .

(٣) ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى ألن

جانبك ، وترفق بمن اتبعك من المؤمنين ، فإن ذلك أجدى لك ، وأجلب لقلوبهم وأكسب لمحبتهم ، وأفضى إلى معونتك ، والإخلاص لك .

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّى بَرِئٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى فإن عصاك من

أنذرتهم من العشيرة فلا ضير عليك ، فقد أديت ما أمرت به ، ولا عليك إثم عملهم ، وقل لهم : إنى برئ منكم ومن دعائكم مع الله إلها آخر ، وانكم ستجزون بجرمكم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

(٤) ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ الَّذِى يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٣٨﴾

وَتَقْلُبُكَ فِى السَّجْدَيْنِ ﴿٣٩﴾ أى وفوض جميع أمورك إلى القادر على دفع

(١) صحيح الترمذى . كتاب أبواب التفسير . باب من سورة الشعراء ج ٥ ص ٣٣٨ . ومعنى سألها ببلالها أى سأودى لها حقها فى الدنيا وأمرها الآخرة لله .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الإيمان . باب وجوب الإيمان برسالة النبى ﷺ ج ١ ص ١٣٤ .

(٥٦١)

الضر عنك ، والانتقام من أعدائك الذين يريدون السوء بك ، الرحيم بك إذ نصرك عليهم برحمته ، وهو الذي يراك حين تقوم للصلاة بالناس ، ويرى تغيرك من حال إلى حال فى الصلاة كالقيام والركوع ، والسجود ، والقعود .
وعبر عن المصلين بالساجدين ، لأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد .

وذهب البعض إلى أن معنى ﴿ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴾^(١) انتقالك فى أصلاب آبائك العابدين المصلين المؤمنين .
ثم أكد ما سلف بقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى إنه هو السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ، وسرهم ونجواهم .

- ٤ -

معانى الآيات

تحدد الآيات الأمور التى يجب عليه ﷺ أتباعها فى تعامله مع الله ، ومع الدعوة ، ومع الناس .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

أساسيات النجاح

فى الحركة بالدعوة إلى الله تعالى

نجاح الدعوة وتبليغها هى رسالة رسول الله ﷺ ، وهى الأمانة التى تحملها المسلمون بعد رسول الله ﷺ .

(١) سورة الشعراء ، الآية ٢١٩ .

وقد تضمنت الآيات أهم سبل نجاح الدعوة إلى الله تعالى ... وهى :

أولاً : وضوح الغاية ، من المهم أن يوضح الدعاة الغاية من قيامهم بالدعوة ، وهى تطهير الأرض من الشرك ، وعبادة الأصنام لأن ذلك يفسد الدنيا ويضيع الآخرة .

ثانياً : البدء بالأقرب فالأقرب ، وتلك عملية تنظيمية لا يتحقق النجاح إلا بها .

ثالثاً : التواضع مع المؤمنين ، لأن ذلك التواضع ينشر الحب ، ويصير عنواناً للمؤمنين ، ودعوة لغيرهم من الناس .

رابعاً : التوكل الدائم على الله ، فهو سبب النصر ، وبيده الأمر كله ، وهو سبحانه ينصر من نصره ، ويوفق من اتبع هديه وقرآنه ، وهو سبحانه عليم بكل شئ .

تلك هى الدرر الغوالى التى تؤدى إلى نجاح الدعوة ، ونشر الإسلام .

الشعراء بين الذم والمدح

يقول الله تعالى :

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٧﴾ ﴾ .

(٥٦٣)

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن محمدا ليس بشاعر ولا بكاهن ، وأن الشياطين لا تحمل القرآن ولا تنتزل به جاءت هذه الآيات لبيان تنزل الشياطين على كل أفاك أثيم ، وعلى الشعراء الذين يتبعهم الغاؤون ، والذين لا يسيرون مع الحقيقة ، ويتكلمون في الهوى والفساد .
ويستثنى من هؤلاء الشعراء شعراء آخرين يؤمنون بالله ، ويعملون الصالحات ، ويذكرون الله ، ولا يجعلون شعرهم لهوا ولعبا ، وعدوانا .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات الأصناف التي تنزل عليها الشياطين ... فهي تنزل على كل كاذب آثم ، وعلى الشعراء الذين يتبعون الغاوين الذي يجعلون شعرهم لهوا ولعبا ... وتستثنى الآية من عموم الشعراء هؤلاء الشعراء الذين يقولون الحق ، ولا يخوضون في الباطل ، ويذكرون الله كثيرا ... وتبين الآيات أن الذين ظلموا في الدنيا سيعاقبون في الآخرة ، وأن المؤمنين هم أصحاب النعيم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ ؟ ... السؤال حقيقى ردا

على من كان يقول : إن الشيطان ينزل بالقرآن على محمد ﷺ ، وتبين الجواب الأصناف التي تنزل الشياطين عليها ... وهى :

- ﴿ تَنْزَلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أى تنزل الملائكة على كل كذوب شديد

الكذب وهو الأفاك الذى يقع فى الآثام والمعاصى والمفاسد ، ومحمد ﷺ ليس هكذا فهو الصادق الأمين .

- ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ ﴾ أى يلقي الأفاكون سمعهم

للشياطين ليأخذوا منهم ، وأكثر الشياطين كاذبون .

- ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ أى أن الشعراء وهم الذين يقرضون

الشعر ، ويلقونه فى قصائد منظومة ، يتبعهم الضالون الحائدون عن السنن القويم ، المحبون للفساد ، والمائلون للظلم والعدوان ، والصحابة ليسوا كذلك ومحمد ﷺ ليس شاعرا .

وعلة تنزل الشياطين على الشعراء أن الشعراء يتصفون بأمرين :

أولاهما : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ أى أن الشعراء

يسلكون طرقا مختلفة ، ويتكلمون فى كل شئ ، وأن تناقض بعضه مع بعضه فقد يمدحون أمرا ويذمونه بعد ذلك .

وثانيهما : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ أى أنهم يقولون

كلاما لا يلتزمون به . فقد يمدحون الكرم وهم البخلاء ، وقد يمدحون الشجاعة وهم الجبناء .

وقد ذم رسول الله هذا اللون من الشعر لقيامه على الكذب ، وبعده عن

الحق والصواب . يروى عن أبى هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعرا" (١) .

(١) صحيح البخارى . كتاب الأدب . باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان ج ٨ ص ٣٦ .

إلا أن من الشعراء من يلتزم بالحق ، ويبتعد عن الكذب والعدوان ، ولذلك استثنى الله شعرهم من الشعر المذموم ، واستثناهم من الغاوين فقال تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴾ فقد بين هذا الاستثناء الشعر المباح ، والشعراء الصادقين وهم الذين يتصفون بأمر أربعة هي :

- (١) الإيمان التام الذى يشمل الباطن ، ويظهر فى الأقوال والأفعال .
- (٢) العمل الصالح بصورة دائمة .
- (٣) ذكر الله تعالى فى كل حال وأن .
- (٤) الانتصار للحق ودفع الظلم .

وقد ورد فى الشعر المباح أحاديث كثيرة نذكر منها :

روي أن كعب بن مالك رضي الله عنه قال للنبي ﷺ : إن الله أنزل فى الشعر ما أنزل .

فقال رسول الله ﷺ : "إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسى بيده لكان ما ترمونهم به أقوى من نضح النبل" ^(١) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : "أن النبي ﷺ دخل مكة فى عمرة القضاء وابن راحة يمشي بين يديه ، وهو يقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله .: اليوم نضربكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله .: ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر : يا ابن راحة بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله نقول الشعر ؟

فقال رسول الله ﷺ : "خل عنه يا عمر فلهى أسرع فيهم من نضح النبل" ^(٢) .

(١) شرح السنة للبخارى . كتاب الاستئذان . باب الشعر ج ١٢ ص ٣٧٨ .

(٢) سنن الترمذى . كتاب أبواب . باب ما جاء فى إنشاد الشعر ج ٥ ص ١٣٩ .

وعن البراء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم قريظة لحسان : "أهج المشركين فإن جبريل معك" ^(١) .

وعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبرا في المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله ﷺ ، وينافح ، ويقول رسول الله ﷺ : "إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله" ^(٢) .

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : "اهجوا قريشا فإنه أشد عليها من رشق النبل فأرسل إلى ابن رواحة فقال : اهجهم فهجاهم فلم يرض رسول الله ﷺ فأرسل ﷺ إلى كعب بن مالك رضي الله عنه ، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت رضي الله عنه . فلما دخل عليه حسان قال ﷺ : قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ، ثم أدلع لسانه فجعل يحركه فقال : والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم .

فقال النبي ﷺ لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها ، وإن لي فيهم نسبا حتى يلخص لك نسبي ، فأتاه حسان ، ثم رجع فقال : يا رسول الله قد لخص لي نسبك والذي بعثك بالحق نبيا لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين .

قالت عائشة رضى الله عنها : فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان : إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله ، وسمعت رسول الله ﷺ يقول : هجاهم حسان رضي الله عنه فشفى واشتفى . فقال حسان رضي الله عنه :

هجوت محمدا فأجبت عنه .: وعند الله في ذاك الجزاء

هجوت محمدا برا تقيا .: رسول الله شيمته الوفاء

(١) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب مرجع النبي ﷺ ج ٥ ص ١١٣ .

(٢) المستدرک على الصحيحين للحاكم . كتاب معرفة الصحابة رضى الله عنهم ج ٣ ص ٥٥٤ .

فإن أبي ووالدتي وعرضي .: لعرض محمد منكم وقاء
 ثكلت بنيتي إن لم تروها .: تثير النقع موعدها كداء
 يبارين الأعنة مصعدات .: على أكنافها الأسل الظماء
 تظل جيادها متمطرات .: تلطمهن بالخمير النساء
 فإن أعرضتم عنا اعتمرنا .: وكان الفتح وانكشف الغطاء
 والا فاصبروا لضراب يوم .: يعز الله فيه من يشاء
 وقال الله : قد أرسلت عبدا .: يقول الحق ليس به خفاء
 وقال الله قد سيرت جندا .: هم الأنصار عرضتها اللقاء
 لنا في كل يوم من معد .: سباب أو قتال أو هجاء
 فمن يهجو رسول الله منكم .: ويمدحه وينصره سواء
 وجبريل رسول الله فينا .: وروح القدس ليس له كفاء^(١)

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ أى وسيعلم الذين
 ظلموا أنفسهم ، واعرضوا عن الآيات ، وخاضوا فى الشعر الكاذب المصير
 المؤلم الذى سيجدون أنفسهم فيه ، وستقلب أحوالهم ، ويلقون سوء المصير .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الشياطين تنتزل على الأفاكين ، وأصحاب الآثام ،
 والشعراء الضالين الذين يكذبون ، ويقولون ولا يفعلون ... أما شعراء الحق فهم
 المسلمون الذين يلتزمون بالصدق ، ويعملون الصالحات ، ويذكرون الله كثيرا ،
 وينتصرون للمظلوم طاعة الله ورضوانه ، وفى يوم القيامة سيعلم كل إنسان
 مصيره .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ١٣١ ، ١٣٢ .

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

اهتمام الإسلام بالقيم والجمال

شاع فى العرب قبل الإسلام قول الشعر سجية وعادة ، حتى جعلوا لكل شاعر رواية يحفظ ما يقول ، ويعيده على مسامع الناس ، وكان العرب يكتبون جميل أشعارهم بماء الذهب ، ويعلقونه فى جوف الكعبة ، فلما جاء الإسلام انكب المسلمون على حفظ القرآن الكريم ، والسنة النبوية فقل اهتمامهم بالشعر ، وظن الناس أن صناعة الشعر لا تجوز .

وليس الأمر كذلك لأن الشعر فى جملة جمال فى التراكيب اللفظية يحسن للنفس أن تسمعه ، ولذلك فجوازه ، وعدم جوازه منوط بموضوع الشعر وألفاظه ، فهو جائز كلما كان موضوعه شريفاً ، وألفاظه نبيلة ، وهو لا يجوز إن اتخذ موضوعاً دنيئاً ، أو كانت ألفاظه فاحشة .

إن الإسلام يحب الجمال فى المأكل ، والمشرب ، والملبس ، والمركب والمسكن ، لأنه تحدث بنعمة الله ، ولا يرتضى إقامة شئ من هذا الجمال للكبرياء والتعالى .

وليس من الجائز الاهتمام بالمحاسن على حساب ترك الواجب ، فمن اهتم بالشعر ، وأهمل ذكر الله تعالى نقول له توقف فذكر الله أولى وأفضل .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "الشعراء" بتوفيق الله تعالى .

التعريف
بِسُورَةِ "النمل"

(५४०)

(٥٧١)

التعريف بسورة "النمل"

يحتاج التعريف بسورة "النمل" إلى دراسة المباحث التالية :

- أولا -

تنزيلات السورة

سورة "النمل" سورة مكية بالاتفاق^(١) ، وما ورد أن بعض آياتها مدنى لا دليل عليه^(٢) .

وعدد آياتها خمس تسعون آية عند الحجازيين ، وأربع وتسعون آية عند البصريين والشاميين ، وثلاث وتسعون آية عند الكوفيين^(٣) .

وقد نزلت سورة "النمل" بعد سورة "الشعراء" .

والبسمة جزء من بناء السورة ، فقد جاءت منها ، وهذا لم يأت فى سور

أخرى .

- ثانيا -

أسماء السورة

تسمى السورة بعدة أسماء هى :

(١) سورة "النمل" وهو أشهر أسمائها ، وسميت بهذا الاسم لورود قصة النمل

مع سليمان عليه السلام فيها ، وأجمع المفسرون على هذا الاسم .

(٢) سورة "سليمان" لأن قصة سليمان لم تأت مفصلة إلا فى هذه السورة .

(٣) سورة "الهدد" لأنها هى السورة الوحيدة التى تحدثت عن الهدد .

(١) تفسير الألوسى ج ١٩ ص ١٥٤ .

(٢) التحرير والتتوير ج ١٩ ص ٢١٥ .

(٣) تفسير الألوسى ج ١٩ ص ١٥٤ .

(٥٧٢)

- ثالـثا -

صلة سورة "النمل" بسورة "الشعراء"

تتصل سورة "النمل" بسورة "الشعراء" من عدة أوجه :

الوجه الأول :

أن السورتين بدأتا بالحروف المقطعة ، وبيان عظمة القرآن الكريم .

الوجه الثانى :

جاءت سورة "النمل" مكملة لقصص سورة "الشعراء" ، وذلك بإيراد قصتى سليمان وداود عليهما السلام ، والبسط فى قصة لوط عليه السلام .

الوجه الثالث :

جاءت سورة "النمل" تفصيلا لسورة "الشعراء" ، حيث جاء دعاء إبراهيم عليه السلام فى سورة "الشعراء" ، وهو يقول : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ^(١) ، وقد جاءت سورة "النمل" وفيها من المعارف والمعلومات الكثيرة .

الوجه الرابع :

تقوم السورتان بتسليية رسول الله ﷺ من خلال بيان قدرة الله الخارقة للعادة فى تأييد رسله وتدمير خصومهم ومعارضيتهم .

الوجه الخامس :

تتشابه السورتان فى نظم الآيات فمعظم السورتين قصص قرآنى سبق بمقدمة ، وختم بخاتمة تتصل بالقصص ، وتمهد وتعلق عليها .

(١) سورة الشعراء ، الآية ٨٣ .

(٥٧٣)

- رابعا -

موضوعات سورة "النمل"

سورة "النمل" سورة مكية ، ولذلك فهي تهتم بإثبات العقيدة الدينية ، وتبرهن عليها ، وتورد من القصص ما يشهد لها ، ويكون حجة عليها .

تبدأ السورة بمقدمة توضح عظمة القرآن الكريم ودوره في سعادة المؤمنين الصادقين الذين يؤمنون بالغيب ، ويطيعون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ويؤمنون باليوم الآخر ، وتبين ضلال الكافرين الذين لا يؤمنون باليوم الآخر ، ويعيشون حياة الغرور والضلال ، وينالون في الآخرة عذاب السعير .

وبعد المقدمة يأتي موضوع السورة مشتملا على قصص موسى وداود وسليمان وصالح ولوط عليهم السلام ، حيث تظهر أصول العقيدة ، وموقف اتباع الرسل من الدعوة ، وظهور المؤمنين والكافرين ، وتسخير الطير والحشرات لسليمان عليه السلام .

ويركز القصص على جوانب التكذيب والمعارضة التي تكررت من أهل مكة بعدما كانت في الأمم السابقة عبرة لرسول الله ﷺ وتثبيتا لقلبه ، وركيزة له في الصبر والتحمل .

وينتهي القصص بقصة لوط عليه السلام ليعقب عليها بالدعوة إلى الأمر بحمد الله تعالى ، وبيان قدرته وعظمته وألائه في جنات الكون والحياة مع الأمر باتباع ما نزل في القرآن الكريم .

إن سورة "النمل" في مقدمتها ، وقصصها ، وخاتمها تركز على علم الله المطلق ، وتأخذ الإنسان إلى عجائب الخلق ، وتسمعه حديث النملة في جحرها ، وجدال الهدد عن نفسه ، وتقدم من خلال الطير والنملة صورة من الشجاعة الأدبية التي يجب أن يتحلى بها الإنسان ، وصور تعامل الرسل مع مخلوقات الله تعالى .

(٥٧٤)

وان المرء لتملكه الدهشة وهو يرى هذا الاتساع فى الحديث عن أنبياء بنى إسرائيل فى سور القرآن الكريم ... ومصدر الدهشة حين ندرك من هذا القصص خلق بنى إسرائيل ونعرف طباعهم ، الأمر الذى يحتاجه المسلمون فى صراعهم المستمر مع بنى إسرائيل .

لم تخل فترة من التاريخ من الصراع بين العرب واسرائيل وهى فى العصر الحديث أشد ضراوة وقوة ، فلقد علا شأن الإسرائيليين ، وقوى ساعدتهم ، وتمكنوا من توجيه قوى العالم لخدمتهم ... فى وقت تخاذل فيه المسلمون والعرب ، وأزيلوا عن صدر التوجيه والريادة ، وصاروا عالة على غيرهم .
وهنا ...

وجب التنبيه إلى ضرورة عودة العرب والمسلمين إلى منزلتهم العالية ليملكوا مقدرات أنفسهم ، ويمنعوا العدوان عن دينهم ، وبلادهم ، وأمتهم .
ويا ليت قومى يعلمون .

سورة "النمل"

التفسير

(٥٧٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٧٧)

إعجاز القرآن الكريم

يقول الله تعالى :

﴿ طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

بدأت الآية بكلمة مكونة من حرفين هما الطاء والسين ، وينطقان مقطعين حرفا حرفا ، ثم بينت اشتمال القرآن على آيات مكتوبة وواضحة .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ طَسَّ ﴾ هذه حروف مقطعة سبق بيان ذكر المراد بها ، وقد ذهب العلماء في المراد بها مذاهب شتى أهمها أنها للتنبيه ، واثبات إعجاز القرآن الكريم .

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى السورة ، أو الآيات التي نزلت ، أو إلى آيات القرآن الكريم كلها ، وأفاد اسم الإشارة بعد المنزلة في الفضل والشرف .

﴿ ءَايَتُ الْقُرْآنِ ﴾ الآيات جمع آية وهذا قدر محدد من كلمات القرآن الكريم ، وسمى هذا القدر بآية لدلالته على حجة وبرهان نزل لتحقيقه ... و "ال" في القرآن للعهد تعظيما للقرآن الكريم فهو الكتاب المنزل على محمد ﷺ الموصوف بالكمالات التي لا نهاية لها ، ويراد به القرآن الكريم كله أو بعضه ففي كله أو بعضه المزايا التي يراد إثباتها بالإشارة والتعريف .

﴿ وَكِتَابٍ ﴾ المراد به القرآن نفسه ، وانما جاز العطف هنا لدلالة كل اسم على صفة معينة ، فالقرآن يدل على المقروء ، والكتاب يدل على المكتوب

(٥٧٨)

، وقدمت الآية القرآن على الكتاب مراعاة للواقع لأن العرب أمة أمية ، تقدم حفظ القرآن وقراءته على المكتوب المدون عندهم .

وقد اتبع المسلمون من صحابة رسول الله هذا المنهج مع القرآن الكريم وهم يسمعونهم مثلوا من رسول الله ، فكانوا يقرأونه على رسول الله عند حفظه وقبل كتابته ، وأذن رسول الله لمن يجيد الكتابة أن يكتبه بعد ذلك .

وقد تلقى الرسول الله ﷺ القرآن مقروءا من جبريل عليه السلام .

وقد أوردت الآية "القرآن" معرفا ، و "الكتاب" نكرة منونة ، وذلك لاستيعاب الفخامة كلها لأن في التعريف نوع من الفخامة ، وفي التكرار نوع آخر فجمعت الآية بينهما لذلك .

وجاز أن يكون المراد بـ "كتاب" في الآية اللوح المحفوظ ، وفيه القرآن الكريم .

﴿ مُبِينٌ ﴾ أى أن عد وصفا للقرآن الكريم أفاد أنه مظهر لما فيه من الحكم والأحكام ، وأحوال القرون الأولى ، وأحوال الآخرة ، وتوضيح الطريق المستقيم للناس أجمعين .
وان أريد بالكتاب اللوح المحفوظ كان معنى مبين اشتماله على كل ما هو كائن إلى يوم القيامة .

- ٣ -

معنى الآية

تبين الآية أن القرآن الكريم كتاب الله المنزل المتصف بكل كمال ، وهو الكتاب الواجب حفظه وقراءته وكتابته ، والاستفادة ببيانه في مسار الحياة .

(٥٧٩)

- ٤ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

إيقاظ العقل قبل مخاطبته

يتميز الإنسان بالعقل ، فبه يتصور ، ويفهم ، ويقرر ، إلا أن كثيرا من الناس أهملوا عقولهم بالغوص في الشهوات ، أو في تغييبه عن الحقيقة ، فهم لا يفكرون في أمر ، ولا يعقلون ما هم فيه يعيشون .

إن الإنسان مسئول عن عقله ، وعليه أن يهيئ له أسباب التفكير السليم مثل التخلص من حالات الانفعال ، أو الغفلة ، أو حالة اللامبالاة ، لأن العقل في هذه الحالات يعد نائما ، مغيبا .

وقد اهتم علماء التربية والتنمية البشرية بعمليات إيقاظ العقل ، وتنشيطه ودفعه إلى التدبر والنظر ليعرف الصواب ، ويحرك جهد صاحبه للعمل البناء المفيد .

إن من طرق التربية تنشيط الذهن بالحركة ، وتغيير المواقف ، وبدء الخطاب بالسؤال ليتحرك العقل بحثا عن الإجابة ، وبإظهار بعض الغرائب المدهشة ليصحو الغافل من غفلته ، وينتبه المشاهد لما يرى ويسمع .

وقد اهتمت الدعوة الإسلامية بالعقل فجعلته شرطا للتكليف ، وخاطبه القرآن الكريم وحثه على التفكير والتدبر . يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا

الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾^(١) ... وأقر الإسلام بتهيئة جو التفكير الحر

عند مخاطبته فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ تَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ

(١) سورة القمر ، الآية ١٧ .

عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴿١﴾ ... وأمر بعدم مصادمته منعا لإثارته وعداوته . يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (٢) .

والحروف المقطعة فى أوائل السور برهان على أهمية إيقاظ العقل فقد شدت أذهان من يسمعونها من المشركين ، بعدما ظنوها سقطعة بلاغية وقع فيها محمد ﷺ فأسرعوا إليها فإذا بالآيات تأتى بعدها تبين عظمة القرآن الكريم ، ودوره فى إرشاد الناس ، وتوجيههم إلى صراط الله المستقيم . وهذه ركيزة نأخذها من الحروف المقطعة لتقدير العقل ، وضرورة قيامه بدوره ، لأن الإنسان إذا أغفل عقله فقد أشبه الحيوانات التى لا عقل لها . وعلى الدعاة :

أن يخاطبوا العقول بالحسنى ، ويناقشوا الناس بما يليق بهم مع التوقف عن مخاطبة أى إنسان يضيع عقله ، ويفسده بالشهوات ، أو بالعصبية ، أو بالتقليد .

الركيزة الثانية

قوة الدليل إثبات للمدلول عليه

تثبت الحقيقة بدليلها ، وتضيع إذا لم يؤيدها الدليل والبرهان ، ولذلك استصحب الرسل جميعا براهين وحجج ما يدعون إليه ، فتحدثوا عن آيات الليل والنهار ، والمشرق والمغرب ، والموت والحياة ، والطعام والشراب ، والحسن والجمال ، وطوفوا بآيات الله فى الأرض والسماء ، وفى كل خلق الله تعالى ،

(١) سورة الأنعام ، الآية ٦٨ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٠٨ .

ومن أدلة الدعوة نزول الآيات المقطعة فهي تدل على صدق القرآن الكريم من جانبين :

الجانب الأول : أنها حروف هجائية يتكلم بها العرب ، ونزل القرآن مركبا منها ومع ذلك لا يستطيع العرب أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ، وفي هذا دلالة على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى ، وأنه ﴿ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١) .

الجانب الثانى : أورد العلماء فى أن المراد بالحروف المقطعة معانى عديدة ، ولا يمكنهم أن يقطعوا بواحد منها ، أو ينفوا واحدا منها ، وهذا دليل على ما فى القرآن الكريم من الأسرار التى أودعها الله فيه ، وعلى عظيم علم الله تعالى ، وتعالى سبحانه وتعالى ، وعلى قلة علم العلماء بجانب علم الله تعالى المحيط الخبير .

إن الدليل برهان ساطع على المدلول عليه ، والحروف المقطعة شاهدة على صدق القرآن الكريم ، وعلى أنه كلام الله تعالى .

ومن هذه الركيزة ندرك مسئولية الدعاة فى ضبط كلامهم ، وأحاديثهم مع الناس ، وعليهم أن يعدوا البراهين لكل ما يقولون ، ولهم فى القرآن الكريم آيات ، وفى النفس والكون حجج وبراهين .

الركيزة الثالثة

دور القرآن الكريم مع الناس

القرآن الكريم كتاب الإسلام ، ودستوره ، ومنهجه المستقيم ، ودوره فى حياة المسلمين أساس وضرورى .

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٩٢ ، ١٩٣ .

فهو القرآن الذى أنزله الله على محمد ﷺ بلفظه ومعناه ، يقرأه الناس فى صلواتهم ، ويرجعون إليه فى قضاياهم وأعمالهم ، وقد جعله الله كلاما مقروءا ليقرأه الناس بعد حفظه فى صدورهم .

وهو الكتاب العالى الشأن الجامع لكل كمالات يرفع الله بها شأن الإنسان ويقدم له منهج الفوز والفلاح .

وهو البين الذى ييسر المعنى فى صور بليغة بديعة ، ويجعل فهمه سهلا ميسرا .

لقد نزل القرآن الكريم بلغة العرب ، ففهموه وعاشوا معه ، فلما وجدت العجمة بين الناس ظهرت علوم العربية لتيسير المعنى وسط بعد العرب عن لغتهم ... وقد تفاعل المسلمون مع القرآن الكريم فظهرت المؤلفات العديدة حول العلوم الكثيرة المتصلة بالقرآن الكريم ليستمر فى الناس وضوحه وبيانه .

وعلى الدعاة :

أن يهتموا بالقرآن الكريم من ناحية :

- قراءته مرتلا مجودا كما نزل من عند الله تعالى .
- إبراز معانيه ليستفيد به الناس فى حياتهم .
- توجيه المدعوين إلى أهم القضايا التى يدعو إليها القرآن الكريم .

المؤمنون والكافرون فى القرآن الكريم

يقول الله تعالى :

﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۖ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۖ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا هُمْ أَعْمَلُوهُمْ
فَهُمْ يَعمَهُونَ ۖ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ
الْأَخْسَرُونَ ۖ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآية السابقة ما فى القرآن من إعجاز وبيان جاءت هذه الآيات
لبيان دور القرآن الكريم فى حياة المؤمنين ، وحياة المشركين .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن القرآن الكريم هداية وبشرى للمؤمنين الذين يطيعون الله
ويستقيمون على منهجه قولاً وعملاً ، وتبين أن الكافرين الذين لا يؤمنون باليوم
الآخر قد غرتهم أنفسهم ، ورضوا بشركهم ، وتوضح أن الله سيعذب الكافرين فى
الدنيا وفى الآخرة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۖ ﴾ أى أن القرآن الكريم يحمل الهداية
والبشرى للمؤمنين حيث يوفقهم الله للطاعة ، ويعطيهم عوناً فوق عون ، ونصراً
بعد نصر . يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ

تَقْوَاهُمْ ﴿١﴾ ودائماً يبشر القرآن الكريم المؤمنين بجنت النعيم ، وفى الحياة الدنيا .

والهدى والبشرى معان نفسية يسعد بها المؤمنون فى الدنيا حين يوفقههم الله لطاعته وعبادته بدنيا ، وماليا ويعدهم لجنت أعدت لهم فى الآخرة كما يقول الله عنهم : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ أى إن المؤمنين حق الإيمان هم الذين يعملون الصالحات على أكمل وجوهها ، ويؤتون الزكاة كما شرعها الله تعالى ، وهم الذين يؤمنون باليوم الآخر وما فيه .

لقد جمع المؤمنون بين طهارة القلب ، وطهارة السلوك ، وبين طاعة الله فى الدنيا ، وفى الآخرة .

أما غير المؤمنين فهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى هم الذين لا يصدقون باليوم الآخر ، وفى هذا بيان أنهم لا يؤمنون بأى ركن من أركان الإيمان ، لأن الكفر بركن يعد كفرا بسائر الأركان .

﴿ زَيْنًا هُمْ أَعْمَلُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أى إن هؤلاء الكافرين يعيشون فى الدنيا راضين عن عملهم وكفرهم لتصورهم حسن وجمال ما يفعلون ، ويعيشون متحيرين مترددين لا يرون هدى ، ولا يقرون بصواب .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴾ أى أن هؤلاء الكافرين بعدوا كبيرا عن الخير ، وقد قضى الله عليهم بسوء العذاب فى الدنيا حيث الضنك ، والهزيمة ، والقتل ، وقضى عليهم بنار جهنم فهم أخسر الناس عذابا وإيلاما .

(٥٨٥)

﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أى إن الله سبحانه

وتعالى يأتيك بالقرآن فتتلقاه منه سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه الحكيم فى فعله
الخبير بأحوال عباده ... حيث تتجلى حكمه الله تعالى فى منهج القرآن ،
وتوجيهاته ، وطريقته ، وتنزيل آياته ، والغايات التى يدعو الناس إليها .
ومن حكمة الله تعالى أن بين مصير المؤمنين ، ومصير الكافرين ليعلم
كل إنسان ما هو مقدم عليه ، ويسلك الطريق الذى يختار به نتيجه وأثاره .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن القرآن الكريم هداية المؤمنين ، وتبشير لهم فهم يطيعون
الله تعالى بقلوبهم وأعمالهم وإيمانهم ... وأما غير المؤمنين فهم لا يؤمنون باليوم
الآخر فقد رضوا بأعمالهم ، وتصوروها حسنا وجمالا ، ولذلك عاشوا فى حيرة
واضطراب ولهم فى الدنيا ألام وعذاب ، ولهم فى الآخرة عذاب السعير ، وهم
أخسر الناس وأضلهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... وهى :

بيان أثر القرآن الكريم فى الناس

أنزل الله القرآن الكريم للناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور بتعاليمه
وارشاداته ، فمن اهتدى بهديه هداه الله تعالى ، واستقام على الصراط المستقيم
ومن زاغ عنه ضل وغوى .

ويجب أن يضع المؤمنون القرآن الكريم فى موضعه الذى نزل له ، ويهتمون به اهتماما كبيرا فيحفظونه ، ويعملون به ، ويرفعون تعاليمه فى حياتهم العامة والخاصة .

إن القرآن منهل وافر ، وبحر زاخر ، وهداية عميقة ، وبشرى رفيقة لا ريب فيه ولا عوج ، ومن أخذ به فقد سار على الصراط المستقيم .
والقرآن الكريم كلام الله تعالى ، وخير من نذكر الله به ، ومن وضعه فى قلبه نور بصيرته ، ومن جعله عمله وخلقه وسلوكه فقد اختار العلا والاستقامة ، وسار فى أيسر الطرق إلى الله تعالى .

وعلى الدعاة :

أن يهتموا بالقرآن الكريم ، وأن يركزوا على توجيه الناس إليه ، وأن يربطوهم به فهو أساس الدين ، ومصدر الخير والسعادة .
إن الأمم المعاصرة وصلت بعقلها إلى دستور وضعته بتفكيرها ليكون هو المرجع وأساس القانون ، وهذا يؤكد أن القرآن الكريم هو الدستور الأسمى الذى أنزله الله للمسلمين ، ويجب أن يكون هو مرجعهم ، ومصدر حياتهم .
ويجب أن تكون الدساتير الوضعية والقوانين المؤلفة تفسيرا تشريعا للقرآن الكريم لا تخرج عنه ، حتى تستمر هيمنة القرآن الكريم ، ويبقى وحى الله تعالى دستورا لله للناس إلى يوم القيامة .

(٥٨٧)

قصص سورة "النمل"

أوردت سورة "النمل" قصصها فى آيات كثيرة فمن آية رقم (٧) إلى الآية رقم (٥٨) جاءت قصة موسى ، وسليمان ، وصالح ، ولوط عليهم السلام وبعدها كان ختام السورة بذكر الله تعالى ، وتفصيل مشاهد قدرة الله فى الكون والحياة . وهنا سأورد كل قصة فى عدد من المواقف المتتابعة على أن أورد الركائز المستفادة من القصص كله فى نهاية تفسيرها .

- أولا -

قصة "موسى" ﷺ

وردت قصة "موسى" ﷺ فى الآيات من الآية رقم (٧) حتى الآية رقم (١٤) ، وانى سأفسرها فى عدد من المواقف المتتابعة التالية :

الموقف الأول

تكليف "موسى" ﷺ بالرسالة

يقول الله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَعَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ قَبْسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ۝ ﴾ .

تفصيل الموقف

من خلال دلالة الآيات

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَعَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ قَبْسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ ۝ أى اذكر يا محمد لقومك ما حدث

لموسى ﷺ حين ضل الطريق وهو راجع من مدين إلى مصر ، وحين جاء المخاض إلى زوجته ، وأصبح محتاجا إلى معرفة الطريق إلى مصر التى يسير إليها فقد ضله ولا يعرفه ، كما يحتاج إلى دفء لزوجته ووليدها ...

فى هذا الوقت قال موسى ﷺ لأهله : إني أبصرت نارا تتأجج وتضطرب ، وسأذهب إليها لأسأل عن الطريق إلى مصر ، وأتيكم بشعلة من النار تستدفئون بها من برودة الصحراء .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أى ذهب

موسى إلى النار التى أبصرها من بعد ، فلما وصل إليها سمع من يناديه أن بورك من فى النار وبورك من حولها .

ومكان النار هو البقعة المباركة ، ومن حولها الأماكن الممتدة المحيطة بالمكان فى دوائر متتالية حتى يشمل أرض الشام التى امتلأت بالخيرات والبركات .

وكان النداء بحلول البركة فى النار ومن حولها ، ولذلك حاول العلماء بيان المبارك الذى يقصده النداء ، وذكروا فى ذلك آراء عدة ، ونكتفى هنا بالعلم أنه صوت الوحي ، وأنه كلف موسى ﷺ بالرسالة .

﴿ وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى تنزه الله وتقديسه عما لا يليق به فى

ذاته وحكمته ، فهو رب العالمين ، مدبر الأمر كله .

وسمع موسى من يناديه ﴿ يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى

اعلم يا موسى أن الذى يكلمك هو الله العزيز الحكيم ، وأنت الرسول لبنى إسرائيل ، ووقر فى عقل موسى ﷺ أن هذا الصوت هو كلام الله تعالى ، وشعر بجلال الألوهية فى نفسه ، وفى الكون من حوله ، فسبح ربه وعظمه ، وقدسسه .

الموقف الثانى

تدريب "موسى" ﷺ

على مواجهة فرعون

يقول الله تعالى :

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا سَخَفُ لَدَىٰ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ بَيْضَاءَ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ ۚ فِي تِسْعِ ءَايَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ ۝ ﴾ .

تفصيل الموقف

من خلال دلالة الآيات

وجد موسى ﷺ نفسه فى موقف لم يألّفه ، وعلم أن الله اختاره رسولا وكلفه بالذهاب إلى فرعون ، وحتى يطمئن خاطره ويشدّد جانبه أراه الله تعالى بعض ماذا سيفعل مع فرعون وقومه ليعلم معونة الله وقدرته .

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ ﴾ أى قال الله لموسى ﷺ إرم يا موسى عصاك

الموجودة معك على الأرض .

فألقي موسى ﷺ عصاه ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ أى لما ألقى

موسى العصا انقلبت حية سريعة الحركة كأنها جان شديد الحركة ، يريد أن يخنقى ، ويتوارى .

﴿ وَلَّى مُدْبِرًا ﴾ أى لما رأى موسى العصا وقد تحولت إلى حية خاف منها

وأسرع هاربا وفر بعيدا عن المكان .

(٥٩٠)

﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أى ولم يلتفت وراءه من شدة خوفه .

فقال الله له : ﴿ يَمُوسَى لَا تَخَفْ ﴾ مما ترى فإن الرسل لا يخافون

بعدها أصطفاهم للنبوّة ، وأكلفهم بالرسالة .

﴿ إِنِّي لَا سَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴾ أى أن المرسلين لا يخافون أمرا من

أمر الدنيا ، فأنا معهم أسمع وأرى ، وانصرهم بمعونتي ، وأهلك عدوهم بقدرتي ، فلا تخف .

﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أما من

أخطأ قبل الرسالة ثم تاب وعمل صالحا واستبدل الحسن بالسوء ، فإن الله يغفر الخطأ ، ويقبل التوب ، ويرحم عباده المحسنين .

وفى هذه الآية إشارة إلى الذنب الذى فر موسى عليه السلام بسببه من مصر ، حين وكز المصرى وقتله ، وكان دائم التفكير فيه ، والخوف منه فعرفه الله أنه قد غفر له هذا الخطأ ، وأمره أن لا يخاف منه .

وأرى الله موسى عليه السلام معجزة أخرى فقال له : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي

جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ أى أدخل يدك فى جيبك ، والجيب هو

فتحة مدخل الرأس فى الثوب المتسعة حتى الصدر ... والمعنى أخرج يا موسى يدك من جيبك تجدها بيضاء لامعة ، لها شعاع كشعاع الشمس من غير علة ، ولا برص ، ولا مرض .

وقد أرى الله موسى عليه السلام هاتين المعجزتين حتى يذهب من قلبه الخوف

ليأتى فرعون وقومه ثابتا ، شجاعا .

وكان لهذا التعليم لموسى ﷺ ضرورة تظهر حين نتصور موسى ﷺ عاش هذا الموقف لأول مرة أمام السحرة وفرعون .

ومن الحكمة البالغة أن أظهر الله لموسى ﷺ وهو فى الطور هاتين المعجزتين ليطمئن إلى قدرة الله تعالى الشاملة ، فقد حول معه الجماد الصامت إلى حيوان حى متحرك ... وجعل النور والضوء تصدر بعيدا عن مصادرها العادية ليطمئن قلبه ، وثبتت نفسه ، وقد أراه الله هذه الآيات حتى لا يفاجأ بها أمام فرعون والملا ... ولذلك أظهر الله هاتين المعجزتين مع موسى وهارون مرتين بعد ذلك مرة أمام فرعون وحاشيته ، ومرة ثانية أمام السحرة والجمهور فى يوم الزينة ، وهو ثابت مطمئن .

﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ أى اذهب إلى فرعون وقومه فى تسع آيات نؤيدك بها عندهم ، وهى الفلق ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمسة ، والجذب فى نواديهم ، والنقص فى مزارعهم بالإضافة إلى آيتى اليد والعصا .

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾ أى جعل الله هذه الآيات لفرعون وقومه ليعلموا أن الله على كل شئ قدير ، ويؤمنوا بالله تعالى ، ويدخلوا فى دين الله الذى يدعوهم إليه موسى ﷺ .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أى إن فرعون وقومه خرجوا عن مقتضيات الفطرة ، وظلموا أنفسهم ، وبالغوا فى المعصية والفساد .

الموقف الثالث

كفر فرعون وقومه وهلاكهم

يقول الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٣﴾ ۝ ﴾

تفصيل الموقف
من خلال دلالة الآيات

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى أن فرعون وقومه لما جاءتهم الحجج والبراهين ساطعة بيّنة ، بادروا إلى اتهام موسى عليه السلام بالسحر ، وزعموا أن ظهور سحره بين واضح ... وهذا كذب من فرعون لأن آيات موسى عليه السلام لا سحر فيها البتة .
والآية تشير إلى أن فرعون وقومه قد أبصروا الآيات ، وأدركوا بها صدق موسى عليه السلام لجأوا إلى تكذيب موسى باتهامات مرسلّة بعيدة عن الآيات التي رأوها .

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ أى أن فرعون وقومه لما رأوا الآيات تيقنوا صدقها إلا أنهم جحدوها وأنكروها علوا واستكبارا فحل ما حل بهم من الهلاك بالغرق ، واخراجهم من النعيم إلى الجحيم ، والخروج من أنوار القصور إلى ظلمات القبور .

﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى انظر يا محمد ببصرك وبصيرتك إلى عاقبة فرعون وقومه فقد أهلكهم الله بالغرق بسبب فسادهم ، وجعلهم الله عبرة لأولى الألباب .

(٥٩٣)

- ثانيا -

قصة داود وسليمان "عليهما السلام"

تستغرق قصة سليمان وداود عليهما السلام الآيات من آية رقم (١٥) إلى الآية رقم (٤٤) ، واني بإذن الله سأورد تفسيرها في مواقف متعددة ، ومتابعة ... هي :

الموقف الأول

بيان تفضيل الله لداود وسليمان "عليهما السلام"

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ
كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ .

تفصيل الموقف

من خلال دلالة الآيات

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ ﴾ أى وقد أعطينا داود عليه السلام

وولده سليمان عليه السلام طائفة عظيمة من العلم ، فعلمنا داود عليه السلام صنعة الدروع
وللبوس الحرب ، وعلمنا سليمان عليه السلام منطق الطير والدواب ، وتسبيح الجبال
مما لم يعلمه أحد قبلهما .

﴿ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾

أى وقال داود وسليمان عليهما السلام الحمد لله تعالى الذى فضلنا بما آتانا من

(٥٩٤)

النبوة والكتاب ، وتسخير الشياطين والجن على كثير من عباده المؤمنين الذين من الله عليهم مثلنا بالعلم والفضل .
وفى الآية إشارة إلى فضل العلم والعلماء فقد شكر داود وسليمان عليهما السلام الله على ما أعطاهما وفضلهما بالعلم والمعرفة .

الموقف الثانى

تفصيل عطاء الله لداود وسليمان

”عليهما السلام“

يقول الله تعالى :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ ۖ وَقَالَ يَتَآئِبُهَا آلُنَّاسِ غُلْمًا مَّنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۚ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ .

تفصيل الموقف

من خلال دلالة الآيات

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ ﴾ أى أن سليمان عليه السلام ورث أباه داود عليه السلام فى العلم والملك والنبوة ، فلقد أعطى الله داود عليه السلام ما كان لسليمان ، وزاده تسخير الرياح ، وتذليل الشياطين للعمل .

﴿ وَقَالَ ﴾ سليمان عليه السلام مقرا بنعمة الله عليه ﴿ يَتَآئِبُهَا آلُنَّاسِ غُلْمًا مَّنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ أى علمنا الله تعالى ، ويسر لنا فهم ما يريد الطير إذا صوت ومكننى من فهم مقاصده ، ونادى سليمان عليه السلام قومه ليعلموا مقامه عن الله تعالى .

﴿ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى أتنا الله كل ما نحتاج إليه من تدبر الملك
 وشئون الحياة ، والكلية تشير إلى الكثرة كعادة الناس فى القول ، ولا تقصد
 الكلية الشاملة .

﴿ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ أى إن الذى أعطاه الله لنا نعمة كبرى
 وفضل عظيم بين لا يخفى على أحد .
 وانك لترى اليوم عظم هذه الآية حيث نرى الجهود العلمية التى تبذل
 لمعرفة لغات الطيور ، والحيوان ، والحشرات ، وقد وصلوا إلى كشف منها ،
 وفسروه من خلال توقعاتهم الظنية .

إن ما يحاوله العلماء برهان على عظمة تعليم داود وسليمان عليهما السلام
 منطق الطير ، والحشرات ، والحيوان ... ومع هذا يجب توضيح أن تعليم داود
 وسليمان منطق الطير معجزة خارقة لعادة البشر ، ولا يمكن لبشر أن يصل
 لمثلها ، وأيضا فإن المعجزة مع الطير كان تسخيرها لتكون تحت إمرة سليمان
 عليه السلام جنودا تؤمر فتطاع ... ولن يصل العلماء لمثل ذلك أبدا .

الموقف الثالث

قصة "سليمان" ﷺ مع النمل

يقول الله تعالى :

﴿ وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٤﴾
 حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا
 تَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا
 وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِيَّ وَأَنْ
 أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿٦﴾ ۝ .

تفصيل الموقف

من خلال دلالة الآيات

﴿ وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾
 أى وجمع سليمان ﷺ جنوده الذى ضمهم لجيشه لتأكيد سلطانه ، ومحاربة
 عدوه ، وكان جنود سليمان ﷺ مكونين من الجن ، والانس ، والطير الذين
 تجمعوا تحت إمرته ، وكان سليمان ﷺ يحبس جنوده كل فريق فى موقعه حتى
 لا يتقدم أوله على آخره ، وحتى يستمر انضباط الجيش ، وطاعته لقائده .
 وسار الجيش تحت إمرة سليمان ﷺ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ
 قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا تَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ
 وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى سار الجيش بقيادة سليمان حتى أشرفوا على
 وادى النمل ، وهو المكان الذى يسكنه النمل ويكثر ، ويقيم فيه مملكته ، هنا

صاحت نملة ، ونادت على باقى النمل تأمره بدخول المساكن خوفا من تحطيم سليمان وجنوده لهم ، وهم لا يشعرون .
والآية تؤكد عدة أمور :

الأمر الأول : وجود مملكة للنمل منظمة لها قيادتها التى تعمل على حماية النمل ، ولذلك فهى تأمر بالاحتماء بالبيوت ، وتحذره من خطورة البقاء تحت ارجل سليمان وجنوده .

الأمر الثانى : إدراك النمل أن الذى يمر فى واديهما هو سليمان وجنوده .
الأمر الثالث : معرفة سليمان ﷺ لحديث النملة لجماعتها ، ومعرفتها به ويجنده وتقديرها للخطر الذى يتعرضون له .

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ التبسم هو الضحك بلا صوت ، وقد تبسم سليمان من مقالة النملة متعجبا بها ، شاكرا لربه أن علمه كلامها .

﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى وقال سليمان ﷺ رب ألهمنى أن اشكر نعمتك علي ، وعلى والدى ، ووفقنى لأن اعمل عملا تحبه وترضاه ، وتوفنى مسلما ، وألحقنى بعبادك الصالحين .
لم يفاخر سليمان ، ولم يتكبر ، وانما تضرع إلى الله ليدفعه إلى الشكر ، ويوفقه للخير ، وأن يدخله مع الصالحين من عباده ، وهذا خلق المؤمنين الصادقين .

وفى هذه الآية تنبيه للعقول لتعرف ما خلق الله النملة عليه من الدقة وحسن النظم ، والسياسة ، فإن نداءها لمن تحت أمرها ، وجمعها لهم يشير إلى كيفية سياستها ، وحكمتها وتبديرها لأمرها ، وأنها تفعل ما يفعل الملوك وتدبر وتسوس النمل كما يسوس الحكام المحكومين .

ولم يذكر الكتاب الكريم هذه الدقة إلا لتكون أمثالا تضرب للعقلاء ،
 فيفهمون حال هذه الكائنات ، وكيف أن النمل أجمعت أمرها على الفرار خوفا
 من الهلاك كما تجتمع على طلب المنافع ، وإن أمة لا تصل في تدبيرها إلى
 مثل ما يفعل هذا الحيوان الأعجم تكون أمة حمقاء تائهة في أودية الضلال !!

الموقف الرابع

قصة "سليمان" ﷺ مع الهمد

يقول الله تعالى :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ
 ١٠٠ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْخَمَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ ١٠١ فَمَكَثَ
 غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ١٠٢ إِنِّي
 وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ١٠٣
 وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ
 فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ١٠٤ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَرَجَ
 الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ١٠٥ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
 هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ١٠٦ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ١٠٧ ﴾ .

تفصيل الموقف

من خلال دلالة الآيات

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾ أى ومر سليمان ﷺ على جنده ليعرف أحوالهم ،

ويقف على من غاب ومن حضر منهم .

﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّهْدَ ﴾ أى نظر سليمان فى جيشه ، ولم ير

الهدهد ، فسأل عنه ، وعن سبب تخلفه ، وعدم ظهوره مع الجنود .

﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ وسأل عن مدة غيابه إن كان غائبا ،

ومنذ متى هو غائب ... وهل هو غائب لسبب أم لا ؟

﴿ لَا عَذِيبَتُهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَذْنَحْتُهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ ﴾

أقسم سليمان ﷺ بأنه سيعذب الهدهد على غيابه بسجنه مع ضده فى قفص واحد إن كان مستهترا ، أو بذبحه ليعتبر غيره به إن كان متمردا ، وسينال إحدى هاتين العقوبتين ما لم يأت بحجة تبين سبب غيابه .

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ

سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾ أى أن الهدهد لم يغيب طويلا ، وانما جاء بعد وقت يسير فلقد كان قريبا منه ، وقال لسليمان : لقد كنت عند قوم علمت عنهم ما لم تعلم أنت به ، فلقد جئت من مملكة سبأ بأنباء خطيرة ، مؤكدة تهمة ، وذكر ذلك فى كلمات قليلة حددت المسافة التى ذهب إليها ، والخبر الهام الصادق .

﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهَآ عَرْشٌ

عَظِيمٌ ﴾ أى إني جئت من مملكة سبأ ، ورأيت فيها ما يلى :

(١) إن امرأة تملكهم هى "بلقيس" وتتميز بالذكاء وحسن التصرف .

(٢) إن هذه الملكة تتمتع بالثراء ، والقوة ، وحسن التصرف ، وقد ملكت كل

ما تحتاجه المملكة الغنية القوية .

(٣) إن هذه الملكة تجلس على كرسى الملك ، المعد لها ، وهو مكون من

أعظم المعادن ، والجواهر ، الموجود فى قصر فخم عظيم .

﴿ وَجَدْنَاهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى إنى وجدت

هذه الملكة وشعبها يسجدون للشمس ، ويتخذونها إلها يعبدونه من دون الله تعالى .

﴿ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى غرهم

الشیطان فحسن له عبادة الشمس ، وصددهم عن سبيل الحق والصواب .

﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ أى أنهم بسبب إغواء الشيطان ، وبسبب تجمعهم

على هذا الشرك لا يؤمنون فقد ضلوا ضلالا كبيرا .

﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَرَجَ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أى أن الشيطان يصددهم عن سبيل الله ،

ويمنعهم من السجود لله الذى يظهر الخفي المخبوء فى السموات والأرض ، ويعلم سائر ما يخفيه العباد ، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال .

إن الشيطان يزين أعمال السوء للفاعل ، ويحسنها له حتى يظن أنها الخير وحدها ، وأن ما عداها باطل ، وفرق بين المهتدى وغير المهتدى .

إن من هداه الله يميز الخبيث من الطيب ، فلا يتردى فى باطل ، وإن

تردى فيه سرعان ما يعود إلى الحق ، ولا يقبل وسوسة الشيطان بالشر والسوء ،

وليس قلبه موضعا لتزيينه .

أما غير المهتدى فإنه يتحول إلى محب لشهواته ، معجب لشیطانه ،

راض بما هو فيه من ضلال لأن الشيطان سيطر عليهم ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ

السَّبِيلِ ﴾ أى أنهم بسبب تزيين الشيطان لهم قد مكنوه من أنفسهم ، فصددهم

عن السبيل ، وأبعدهم عن الطريق المستقيم فى ابتدائه ، ومن ضل فى أول

(٦٠١)

الطريق سار فيه إلى آخره ، ولذا قال مرتبا على ذلك : ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾
أى فهم لا يصلون للصواب أبدا .

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ يختم الهدهد قوله
لسليمان بهذه اللفتة الحسنة التى تهز قلب سليمان ، وعواطفه ، ونجد أنفسنا أمام
هدهد عجيب . صاحب إدراك ، وذكاء ، وإيمان ، وبراعة فى عرض النبأ
ويقظة إلى طبيعة موقفه ، وتلميح وإيماء أريب ...
فهو يدرك أن هذه ملكة وأن هؤلاء رعية .

ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله منذ وقت طويل فقد سيطر
الشیطان عليهم ، وأغواهم ، وزين لهم الضلال حتى صاروا يرون السوء حسنا
والكفر إيمانا وصدقا .

ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله الذى يخرج الخبء فى السموات
والأرض ، وأنه هو رب العرش العظيم ...

وما هكذا تدرك الهداهد . إنما هو هدهد خاص أتاه الله هذا الإدراك ،
والعقل ، والمناقشة ليتعلم الناس من مخلوق ضعيف ، وليعرف الناس أن الكون
كله بيد الله تعالى ، على سبيل الخارقة التى تخالف المألوف .

يرد سليمان على الهدهد ، ويذكر له أنه سيبحث هذا الأمر ليعرف حقيقة
صدقه أو كذبه ليتخذ قراره معه بعد ذلك .

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى قال سليمان ﷺ

للهدهد فى إجابته له : سأنظر فى الأمر ، وأبحث عن سبب غيابك الحقيقى ،
وهل أنت صادق فيما ذكرت لى ، أم أنك كاذب فى قولك .

(٦٠٢)

إن سليمان عليه السلام يعلم أن الهدهد آية الله له مثل النمل تماما ، ومع ذلك يعلم اتباعه منهج تلقى الخبر ، وضرورة تفحصه ، ومعرفة حقيقته حتى لا يصدق الإنسان كل ما يقال له .

إن العصمة لله ورسوله ، وكلام من عداهما يحتاج للتدبر ، والتحليل والنظر .

الموقف الخامس

”سليمان” عليه السلام يرسل ملكة سبأ

يعرض عليها الإيمان

يقول الله تعالى :

﴿ أَذْهَبَ بِكُنْيَىٰ هَٰذَا فَاَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّىٰ عَنْهُمْ فَانْظَرَ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾
قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِيَّتْ إِلَىٰ كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُوْا عَلَىٰ وَاتُونِيْ مُّسْلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

تفصيل الموقف

من خلال دلالة الآيات

نظر سليمان عليه السلام في كلام الهدهد وعلم صدقه ، ورأى سليمان عليه السلام أن يرسل لبلقيس كتابا يدعوها فيه إلى الله تعالى ، ويعرض عليها اتباعه ، فأعد رسالة ، وقال للهدهد :

﴿ أَذْهَبَ بِكُنْيَىٰ هَٰذَا فَاَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّىٰ عَنْهُمْ فَانْظَرَ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى كتب سليمان عليه السلام كتابا ، وأعطاه للهدهد ، وقال له : اذهب بكتابتى هذا فألقه إليهم ، ثم ابتعد عنهم قليلا ، وتأمل صنيعهم ، وأقوالهم ، واعرف نقاشهم ومراجعة بعضهم لبعض فيه ، وهذا من أدب حامل الرسالة

(٦٠٣)

للعظماء فإنه يسلم الرسالة ، ويتنحى عن المرسل إليه احتراماً له ، ويحاول معرفة أثر الرسالة على من أخذها ليعود بخبرها إلى المرسل .

إن ملكة سبأ لم تعلم من حمل لها الرسالة ، ولذلك بنت الفاعل للمجهول . وقالت "ألقى" أى أنه نزل عليها من جهة العلو ، ولم تدر حامله إلا أن محتويات الكتاب توضح موضوعه ، ومرسله ، وليس لمسمى الكتاب أن يكون مؤلفاً ضخماً فلقد كان كتاب سليمان مكوناً من كلمات قليلة .

وبعد أن ألقى الهدهد الكتاب جمعت الملكة حاشتها ، وكبار رجال دولتها و ﴿ قَالَتْ ﴾ لهم ﴿ يَتَأَيُّهَا أَمَلُّوا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴾ أى أنه ألقى إلى كتاب كريم أى حسن المبنى ، والمعنى ، والمصدر .

﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ ١ ﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَى

وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿ ٢ ﴾ أى إن مصدره سليمان ﷺ ، وقد بلغت شهرته الآفاق فهو يدعو إلى التوحيد ، ويتكلم بالوحي ، ومعه آيات عديدة ، وأن مبناه قائم على توحيد الله المتصف بصفات الكمال ، وأنه مصدر بسم الله الرحمن الرحيم وأن محتواه أخلاقي إنساني فهو يدعو إلى ترك الكبر ، وعبادة الأصنام ، واتباع سليمان ، والدخول فى دينه ، ويدعوا إلى الذهاب إليه مؤمنين بالله وحده مستسلمين لشرعه .

وهذا الكتاب دعوة صريحة للدخول فى دين الله تعالى ، فقد بدأه سليمان ﷺ بذكر الله ، وذكر صفاته ، وأمرهم بالمجئ إليه فى تواضع وخشوع لله ، مؤمنين مسلمين ، ودعاهم إلى ترك ما هم فيه من هوى وغرور وذلك فى كلام موجز وبيان مفصل .

وقد اختار سليمان ﷺ الهدهد فى مهمة دعوية لسبق علمه ببليقيس وقومها ، وسرعة وصوله إليهم ، وأنه كان من جنود سليمان المخلصين .

(٦٠٤)

وكتاب سليمان وحامله ملئ بالدروس فى منهجية الدعوة إلى الله تعالى ، وفيه :

(١) أهمية معرفة المدعويين لاختيار الموضوع والأسلوب والبرهان الذى يتم مخاطبتهم به .

(٢) الإيجاز فى الدعوة مع الإحاطة والشمول .

(٣) اختيار الدعاة المتميزين بالإخلاص ، والصدق ، والفهم ، وحب الدعوة .

الموقف السادس

مناقشة بلقيس لرجال دولتها

يقول الله تعالى :

﴿ قَالَتْ يَتَأْتِيَ الْأَمْلُؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ۚ ﴾ ١٦
قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ۚ ١٧
قَالَتْ إِنَّ أَلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۚ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۚ ١٨
وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ أَلْمُرْسَلُونَ ۚ ١٩

تفصيل الموقف

من خلال دلالة الآيات

﴿ قَالَتْ يَتَأْتِيَ الْأَمْلُؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴾ أى قالت بلقيس لرجال دولتها :

يا أيها الرجال الكبار فكروا معي ، واذكروا لى ما ترون فى هذا الشأن فإنه أمر هام .

﴿ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ أى أنكم تعرفون موقعكم منى

فإنى لا أقطع أمرا حتى تشهدون عليه ، وأشاركم فيه .

وفى قولها هذا دلالة ذكائها ، وحسن سياستها ، وعلى إجلالهم وتكريمهم ليمحضوها النصح ، ويشيروا عليها بالصواب ، ولتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وحزمهم فيما يقيم أمرهم ، وامضاءهم على الطاعة لها علما منها أنهم إن لم يبذلوا أنفسهم ، وأموالهم ، ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها ، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجدهم معها كان ذلك عوناً لعدوهم عليهم ، وإن لم تختبر ما عندهم ، وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة من أمرهم ، وربما كان فى استبدادها برأيها وهن فى طاعتها ، وتعمية فى تقدير أمرهم ، وكان فى مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريد من قوة شوكتهم وشدة مدافعتهم .

وباليت حكام العصر يأخذون من بلقيس حسن السياسة ، ويستعينون بالعقلاء ، ويشاورون الناس فى مستقبل البلاد والعباد ، فإن الطغيان والاستبداد قد أضاع القيم ، وأفسد الناس ، وأضعف البلاد حتى صارت هوانا وصغارا وسط الآخرين .

﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي

مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ أى رد الملاء على بلقيس ، وقالوا لها : نحن أصحاب بأس شديد وقوة فى القتال ، وأمر الحرب مفوض إلينا ، أما أمر السياسة وطرق التعامل مع هذا فهو مفوض إليك ، وهو عملك ، فانظري فيه ، وقررى ما تريدين ، ونحن مستعدون لإطاعة ما تأمرين به ولو كان هو الحرب والقتال .

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا

أَذِلَّةً ۖ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ أى قالت بلقيس لرجالها إن الملوك يفسدون أى قرية يدخلونها ، ويستذلون أهلها ، وهم كذلك يفعلون .

﴿ وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ أى قالت بلقيس لقادتها إني سأرسل لسليمان هدية من نفائس الأموال لأعرف هويته ، وهل هو ملك أو رسول ؟ لأنه إن كان ملكا سيقبل الهدية ، وإن كان رسولا فلن يقبلها ، وبعد ذلك أقرر قرارى بشأنه ، وسأخبركم به .

الموقف السابع

موقف "سليمان" ﷺ من هدية بلقيس

يقول الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أُوْمِدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا ءَاتَنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٦٨﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٦٩﴾ قَالَ يَأْتِيَنَّهَا أَلْمَلُؤُاُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ عَفَرْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٧١﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۚ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٧٢﴾ ۝ ﴾ .

تفصيل الموقف

من خلال دلالة الآيات

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أُوْمِدُونَنِي بِمَالٍ ﴾ أى لما جاء رسول الملكة بهديتها تألم سليمان ﷺ لذلك ، ورد الهدية ، وقال لرسول الملكة :

(٦٠٧)

أتصانعوننى بالمال والهدايا لأترككم على شرككم وكفركم !! إن ذلك لن يكون منى أبدا .

﴿ فَمَا ءَاتَيْنَا اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَيْنَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾

أى فما أتانى الله من النبوة والملك والسلطان خير مما أنتم فيه ... فلا حاجة لى بهداياكم ، فارجع بما جئت به ، فأنتم تفرحون بهذا المال دونى ...

﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً

وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أى قال سليمان عليه السلام لحامل الهدية : عد إلى قومك بهديتك وعرفهم أنى سأتيكم بجند كثيف لا قبل لكم فى عدده وعدته ، لأخرجكم من أرضكم إن لم تؤمنوا بالله ، وتؤتونى مسلمين فإن آمنتم واسلمتم فليس عليهم جهاد ، وحرب .

لما رجع الرسول إلى بلقيس بهديتها وأخبرها الخبر علمت أن سليمان ليس ملكا ، وأنه نبى مرسل فقالت لرجالها : عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به طاقة ، وما نصنع بمكائرتة شيئا ، وقد بعثت إليه ، وعرفته أنى قادمة إليه بأشراف قومى ، لأنظر أمره وما يدعو إليه ، ثم شخصت إليه ، فجعل سليمان عليه السلام يبعث الجن يأتونه بأخبارها ، ويعلمونه غاية سيرها كل يوم حتى إذا دنت منه جمع جنده من الجن والإنس وتكلم فيهم .

﴿ قَالَ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَيْكُمُ يَأْتِيَنِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾

أى قال سليمان لجنوده من الجن والإنس أيها الأعوان من منكم يمكنه أن يأتينى بسرير ملكها قبل أن تصل إلينا لترى بعض نعم الله علينا ، وتعلم أن ملكها كله لا يساوى شيئا أمام عجائب قدرة الله تعالى ؟

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ ^ط

وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ أى قال شيطان قوى شديد : أنا أحضره إليك قبل أن تقوم من مجلسك هذا ، وكان فى منتصف النهار ، وأكد له قدرته على تنفيذ ما ذكره ، وبين أنه أمين لن يمس العرش بأى سوء .

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ

إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أى رد سليمان عليه السلام على الجن وقد آتاه الله العلم والنبوة ، وقال له : آتيك بالعرش فى أقصر مدة ، واحضره قبل ارتداد طرفك إليك ... وارتداد الطرف ترك النظر إلى شئ ما بعد التوجه إليه .

والذى عنده علم من الكتاب هو سليمان عليه السلام ، وأراد سليمان عليه السلام بحديثه إظهار معجزة إلهية أخبره الله بها فتحداهم أولا ، ثم بين للعفريت أنه يأتى بالعرش بسرعة لا تنهيا للعفريت ، وهناك أقوال أخرى عن شخصية الذى عنده علم من الكتاب ، وقد أوردها الرازى فى تفسيره ، ورجح أن يكون هو سليمان عليه السلام وهو ما أراه معه لوجوه عدة :

أحدها : أن لفظة ﴿ الَّذِي ﴾ موضوعة فى اللغة للإشارة إلى شخص معين

عند محاولة تعريفه بقصة معلومة ، والشخص المعروف بأن عنده علم الكتاب هو سليمان عليه السلام دون غيره من الحاضرين ، لأنه هو الرسول الموحى إليه ، وغيره أقل منه علما وحكمة ، ولا يمكن أن يقال : إن شخصا لم يوح إليه يتساوى علمه مع علم من يوحى إليه ، وهذا يجعل سليمان عليه السلام هو الذى عنده علم من الكتاب .

الثانى : أن إحضار العرش فى تلك الساعة اللطيفة درجة عالية ومعجزة قدرية على غير عادة الناس ، فلو حصلت لشخص آخر غير سليمان لاقتضى ذلك تفضيل هذا الشخص على سليمان عليه السلام ، وانه غير جائز .

الثالث : أن سليمان عليه السلام ، لو افتقر فى ذلك إلى غيره لاقتضى ذلك قصور حال سليمان فى أعين الخلق .

الرابع : أن سليمان قال : هذا من فضل ربى ليبلونى أشكر أم أكفر وظاهره يقتضى أن تكون تلك المعجزة قد أظهرها الله تعالى بدعاء سليمان^(١) .

﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ فلما رأى سليمان استقرار العرش عنده فى لمحة البصر اتجه إلى الله شاكرًا له ، مقرا بفضلله ، معترفا بأنه اختبار له ، مؤكدا أنها معجزة من الله تؤيده وتتنصره .

﴿ لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۚ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ أى أن الإتيان بالعرش فى لمح البصر اختبار من الله تعالى ، لتظهر شكره أو جحوده ، ومن شكر فقد أفاد نفسه ، ومن كفر فإنه لا يضر إلا نفسه ، والله غنى عن الناس ، كريم عليهم بنعمه وفضله .

(١) انظر تفسير الرازى ج ٢٠ ص ١٩٧ ، ١٩٨ بتصرف يسير .

الموقف الثامن

مجيئ "بلقيس" إلى "سليمان" عليه السلام
 وإيمانها بدينه

يقول الله تعالى :

﴿ قَالَ نِكْرُوا هَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾
 فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۖ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا
 مُسْلِمِينَ ۖ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ
 ﴿٤٧﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ۖ قَالَ
 إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ۖ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ
 سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٨﴾ ۝

تفصيل الموقف
 من خلال دلالة الآيات

﴿ قَالَ ﴾ سليمان لجنوده بعد إتيان العرش ﴿ نِكْرُوا هَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ
 أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ أى قال سليمان عليه السلام لجنوده
 غيروا هيئة العرش وشكله ، بحيث لا يعرف بسهولة ، لنختبر حالها وذكاءها
 حين ننظر إليها ، ونرى هل تهتدى إليه ، وتعرفه أم إنها لا تستبين عرشها إلا
 وهو على حالته المعروفة فى قصرها ؟
 ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ ﴾ إلى سليمان ، ورأت العرش سألوها و ﴿ قِيلَ ﴾ لها :
 ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ﴾ ؟ أى أعرشك يشبه هذا العرش ، ولم يجعلوا السؤال أهذا
 هو أم لا ؟

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أى أجابت بما يدل على رجاجة عقلها حيث قالت :

كأنه هو فلم تجزم بأنه هو ، أو بأنه ليس هو .

﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ أى وقالت بلقيس : لقد أوتينا

العلم قبل هذه المعجزة بقدرة الله تعالى ، وصدقت بنبوة سليمان بما شاهدته من أمر الكتاب ، ورد الهدية ، فلقد رغبت فى الإسلام قبل مجيئى هذا .

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾

أى ومنعها من الدخول فى دين سليمان عليه السلام أنها كانت تعيش مع قوم كافرين ، وعبدت ما كانوا يعبدون ، وأنها لم تستطع مخالفتهم ، وبذلك اعتذرت عن تأخر إعلان إيمانها وعن عدم إعلان إيمانها فى مملكتها .

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ

سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى

وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَنِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ روى أن سليمان أمر قبل مقدم

بلقيس ببناء قصر عظيم ، جعل صحنه من زجاج أبيض شفاف ، يجرى من تحته الماء ، وألقى فيه دواب البحر من سمك وغيره ، فلما قدمت إليه استقبلها فيه ، وجلس فى صدره ، فحين أرادت الوصول إليه حسبته ماء فكشفت عن ساقياها ، لئلا تبتل أذيالها كما هى عادة من يخوض الماء .

فقال لها سليمان : إن ما تظنينه ماء ليس بالماء ، بل هو صرح قد صنع من الزجاج فسترت ساقياها ، وعجبت من ذلك ، وعلمت أن هذا ملك أعز من ملكها ، وسلطان أعز من سلطانها ، ودعاها سليمان إلى عبادة الله وترك عبادة الشمس ، فأجابته إلى ما طلب وقالت : رب إنى ظلمت نفسى بالثبات على ما

(٦١٢)

كنت عليه من الكفر ، وأسلمت مع سليمان الله رب كل شئ وأخلصت الله العبادات والتقوى .

وقصة سليمان عليه السلام مع قومه ومع بلقيس قائمة على خوارق العادات ليأنس النبي ﷺ بها ، ويعلم أهل مكة أن مآلهم إلى الهزيمة ، وأن الله متم دينه ولو كره الضالون المشركون .

- ثالثا -

قصة "صالح" عليه السلام

نتناول الآيات من الآية رقم (٤٥) إلى الآية رقم (٥٣) قصة "صالح" عليه السلام وسوف أوردتها هنا في مواقف متتابعة :

الموقف الأول

عرض "صالح" عليه السلام الدعوة على قومه

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ تَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْقُومِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۗ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ۚ قَالَ طَاعْتُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ۗ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ۝ ﴾ .

تفصيل الموقف

من خلال دلالة الآيات

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۝ أَيْ أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودِ

أَخَاهُمْ صَالِحًا يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى الْهُدَى .

﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أى أمرناه أن يدعوهم لعبادة الله وحده ، وترك عبادة غيره ، وأن يؤمنوا به وحده سبحانه وتعالى .

﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ تَخْتَصِمُونَ ﴾ أى فإذا القوم ينقسمون إلى فريقين : فريق آمن بصالح واتبعه وهم قلة ، وفريق تمسك بالشرك ، وعبادة غير الله تعالى وهم كثرة ، وبدأ الفريقان فى مخاصمة وجدل ليثبت كل فريق ما آمن به .

واستعجل المشركون مجئ العذاب الذى خوفهم منه صالح عليه السلام فسألهم متعجبا .

و ﴿ قَالَ ﴾ صالح عليه السلام لقومه المتمسكين بالكفر ﴿ يَنْقَوْمِرْ لَمْ تَسْتَعِجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أى لم تستعجلون العقوبة والعذاب الذى خوفتكم منه إن لم تؤمنوا ، ولم لا تقصدون الخيرات التى بشرتكم بها لو آمنتم ؟!

﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أى هلا تتوبون إلى الله ، وترجعون إليه ، وتؤمنون به ، وتتركون الشرك لتتالوا عفو الله ورحمته ، وتفوزوا برضوانه ورضاه .

﴿ قَالُوا أَطِيرَنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ أى إنا نتشاءم بك ، وبمن آمن معك إذ زجرنا الطير فعلمنا من سيره أنه سيصيبنا بك ، وبهم من المكاره ما لا قبل لنا به ، وقد وقع بيننا الاختلاف والافتراق بسببك ، وأصابنا القحط والجذب منذ دعوتك لنا .

وكان من عادة القوم أن يتشاءموا أو يتفاعلوا بالطير ، فكانوا إذا خرجوا لأمر فمر بهم طائر زجروه فإن مر سانحا عن يمينهم تفاعلوا به ... وإن مر بارحا عن يسارهم تشاءموا بذلك .

فقال لهم صالح ﴿ طَبِّرْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى إن لقاء لكم أو تشاءمكم عند الله تعالى متصل بعملكم وسعيكم ، ومرتب على الإيمان والطاعة ، فإن آمنتم فزتم ، وإن أشركتم خسرتم وضعتم ، وعبر عليه السلام عن قدر الله بالطائر لسرعة نزوله ووقوعه .

﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ أى أن ما حدث لكم هو اختيار من الله ليظهر الصادق من الكاذب ، فاحذروا هذا الاختبار ، واتقوا الله واطيعون .

الموقف الثانى

مؤامرة الرهط من قوم صالح وهلاكهم

يقول الله تعالى :

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾
 ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾
 ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾
 ﴿ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

تفصيل الموقف

من خلال دلالة الآيات

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ المدينة هي مدينة "الحجر" وهي مدينة قوم صالح ، وكان فيها تسعة رجال هم رهط تآلفوا على الفساد والمكر والكيد ... فهم دائما يفسدون ولا يصلحون ... وهم الذين عقروا الناقة وقتلوا ، فلما أنذرهم الله بالدمار بعد ثلاثة

أيام عزموا على قتل صالح عليه السلام ومن معه قبل هذه الثلاثة ، ووضعوا خطتهم لذلك ، وتحالفوا على التمسك بها وتنفيذها .

﴿ قَالُوا ﴾ أى قال بعضهم لبعض ، وتحالفوا على خطتهم و ﴿ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ ﴾ أى تحالفوا ، وأكدوا تحالفهم بالقسم ، وحددوا المؤامرة ، وهى ﴿ لَنَبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ وملخص المؤامرة أنهم يعدون عدتهم ، ويقتلون صالحا وأهله ، واتباعه ليلا عند البيات ، ويقولون فى الصباح : إنهم لم يروا من قتل أهل صالح وأتباعه وبالتالي فهم لم يقتلوا ، ولم يشاهدوا ، ومن باب أولى أنهم لم يروا من قتل صالحا ، ولا يعرفون من قتله ، ويؤكدون لأولياء صالح أنهم صادقون لا يكذبون أبدا بكافة الوسائل حتى يصدقوهم وهذا مكر خبيث منهم .

﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى وضعوا خطتهم الأليمة لقتل صالح وأهله ، فمكر الله بهم ، وقضى عليهم قبل تنفيذ خطتهم وهم لا يشعرون بمكر الله تعالى .

﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى تأمل يا محمد كيف عاقبهم الله على مكْرهم ، فأهلك الرهط وقومهم قبل أن ينالوا من صالح وأهله .

روى أنه كان لصالح فى الحجر مسجد فى شعب يصلى فيه . فقالوا لبعضهم : زعم صالح أنه يفرغ منا بعد ثلاث ، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث .

فذهبوا إلى الشعب ليقتلوه ، فوقعت عليهم صخرة من جبالهم طبقت عليهم الشعب ، فهلكوا وهلك الباقون فى أماكنهم بالصيحة ، ونجى الله صالحا ومن آمن معه .

الموقف الثالث

المصير النهائي للكافرين والمؤمنين

يقول الله تعالى :

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا^١ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَأُخْرِجْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٢٩﴾ ۝ ﴾ .

تفصيل الموقف
من خلال دلالة الآيات

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ الإشارة لبيوت قوم صالح الباقية حتى الآن ليراها الناس ، ويأخذون منها العبرة والعظة ، فقد خربت بعد هلاكهم بسبب ظلمهم وشركهم بالله تعالى وهى موجودة حتى الآن عند "تبوك" بالملكة العربية السعودية .

لقد شق قوم صالح لأنفسهم بيوتا فى الجبل ، وشيدوا الحصون والأبراج وظنوا أن ذلك يمنعهم من الله تعالى ، فأهلكهم الله ، وأبقى بيوتهم تدل على عجزهم وسوء تقديرهم ، وتبين أن الله غالب على أمره .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أى قدرنا للمؤمنين المتقين النجاة والفوز فى الدنيا وفى الآخرة لأنهم كانوا يعلمون صفات ربهم فعبدوه ، واتقوه ، وعاشوا فى إطار عبوديتهم له سبحانه وتعالى .
إن العلم طريق الهداية لأنه يعرف صاحبه بما لله من حقوق . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(١) .

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

(٦١٧)

- رابعا -

قصة قوم لوط عليه السلام

تناولت الآيات من الآية رقم (٥٤) إلى الآية رقم (٥٨) قصة قوم لوط عليه السلام مع قومه ، وسأوردها فى مواقف متتابعة :

الموقف الأول

دعوة "لوط" عليه السلام لقومه

يقول الله تعالى :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۚ ۝٥٦﴾ .

تفصيل الموقف

من خلال دلالة الآيات

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۚ ﴾ أى اذكر يا محمد لقومك قصة قوم لوط عليه السلام

مع قومه حين دعاهم إلى عبادة الله تعالى ، وترك المفاصد التى هم فيها .

﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى

ينكر به لوط عليه السلام على قومه ما يفعلون من فاحشة تستقبحها العقول ، وتأبأها الفطرة ، التى لم يسبقكم أحد إليها ، وبين لهم عليه السلام أنهم يعلمون سوءها وقبحها ، ومع ذلك يرغبونها ويحرصون عليها .

﴿ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ

مُجْهَلُونَ ﴾ ؟ ... أى أصبح منكم ، وينبغى لكم أن تأتوا الرجال ، وتقودكم

الشهوة إليهم ، وتتركوا النساء اللاتى جعلهن الله لكم مناصب الحسن ، ومباهج

(٦١٨)

الرجال ، وأحل لكم الزواج بهن ... إن ما تفعلونه جهل تام ، وعدوان آثم على الفطرة ، والصراط المستقيم ، وخزى وهوان يعارض الخلق وطبائع الحياة .
فإن قيل : لم لم يصدر لوط عليه السلام دعوته لقومه بعبادة الله وحده ، ودعاهم مباشرة إلى ترك الفعلة القبيحة ؟

أقول : إن هذه حالة من حالات دعوة لوط لقومه ، وفي مواقف أخرى دعا عليه السلام قومه إلى عبادة الله كما بينته آيات أخرى ، وفي هذا إشارة إلى تعمق هذه الفاحشة في قوم لوط وكان جل حياتهم معها ، ولذلك ركز لوط عليه السلام دعوته لقومه على هذه الفعلة القبيحة .

الموقف الثانى

جحد قوم لوط وردهم عليه

يقول الله تعالى :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾ .

تفصيل الموقف
من خلال دلالة الآيات

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾ أى أن قوم لوط كما قلبوا الفطرة قلبوا الجواب ، فبدل أن يطيعوا لوطا عليه السلام أو يناقشوه هددوه بالطرد والإخراج من البلاد ، وتواصوا بذلك ، وقال بعضهم لبعض : أخرجوا لوطا ومن آمن به من قريبتكم فهو غريب عنا ويسئ إلينا والى رغباتنا .

وسبب هذه العقوبة التى رأوها ﴿ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أى إن لوطا ومن آمن معه ينزهون أنفسهم عن فعل ما نفعل ، ويتطهرون من فعلنا وهذا جرم منهم .

الموقف الثالث

هلاك قوم لوط ، ونجاته ومن معه

يقول الله تعالى :

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾ .

تفصيل الموقف

من خلال دلالة الآيات

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أى نجينا لوطا وأهله ، ومن آمن به بأن أمرناهم بترك القرية ليلا وعدم الالتفات إليها حتى لا يصيبهم ما سينزل بهم .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ أى أمطرت السماء عليها حجارة من سجيل ، وأتى كل سجيل لصاحبه المعين له فماتوا جميعا ، وهم جلوس جاثمين على ركبهم ، فبئس هذا المطر ، وبئس هذا المصير .



(٦٢٠)

ركائز الدعوة

فى قصص سورة "النمل"

فى قصص الأنبياء الواردة فى القرآن الكريم ركائز عديدة ، وقد أوردت كثيرا منها عند تفسير القصص الوارد فى السور السابقة ، وقد استعنت بالله ، وحاولت أن تكون الركائز فى كل موضوع مغايرة لغيرها فى الموضوعات الأخرى .

وفى قصص سورة "النمل" استتبط الركائز التالية :

الركيزة الأولى

المؤمنون المخلصون فى رعاية الله تعالى

بالنسبة للعبودية لله تعالى ينقسم الناس إلى قسمين :

القسم الأول يشمل المؤمنين ، وهم الذين استجابوا لدعوة الله تعالى ، وأطاعوا رسوله ، واستقاموا على تعاليم الله التى أتتهم .

والقسم الثانى يشمل غير المؤمنين بدين الله تعالى ، وهم أصناف متعددون فمنهم الوثنى الذى لا يؤمن بالله ... ومنهم المشرك الذى يتخذ مع الله آلهة أخرى يعبدها كالشمس ، والأصنام ، والإنسان ...!

ومنهم المنافقون الذين يتخذون من الإيمان بالله لعبا ولهوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون .

وعباد الله هم القسم الأول ، وهم الذين ينصرون الله فى الأرض ، ويعيشون عبادا لله مخلصين ، وهم جند الله ، وحققهم على الله أن ينصرهم ، ويعينهم ، ويسدد قولهم ، وعملهم . يقول الله عنهم :

- ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾^(١) .

- ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ^٢ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾^(٢) .

وحين ننظر فى قصص سورة "النمل" نجد عون الله لرسله جميعا ، واهلاك من عارضهم ، وانجاء المؤمنين الذين اتبعوا الرسل وآمنوا بالله تعالى .
إن التأمل فى قصص سورة "النمل" يرى قدرة الله البالغة ، ومعجزاته المؤيدة لرسله وعباده المؤمنين .

فعصا موسى عليه السلام تلقف ما صنعوا ، وداود وسليمان عليهما السلام يأتينهما عرش بلقيس قبل غمضة عين ، وكل تلك أمور خارقة للعادة تبين مدى نصر الله لأنبيائه ، ولعباده المؤمنين .

وعلى هذا :

فعلى المؤمنين أن يتمسكوا بهداية الله ، ويخلصوا فى طاعته ، ويعلموا أنهم يعملون للآخرة بالاستقامة فى الدنيا ، ويسيروا على المنهج الذى وضعه الله لهم ، وليؤمنوا بقضية الإيمان الأساسية ، وهى أنه لا خيار مع أمر الله . يقول الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ^٣ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾^(٣) .

إن الإيمان استقامة على طريق الله بمنهج الله ، وأمام المؤمنين أسوة محددة ، وسلف سابق ، وقد خلت من قبلهم أمة قدمت عوامل الخيرية ، وقامت عليها ، وهى الإيمان بالله ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

(١) سورة محمد ، الآية ١٧ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١٥٢ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٣٦ .

الركيزة الثانية

الخبث والطيب لا يستويان

وإن كثر الخبيث

تشير آيات القصص في سورة "النمل" إلى أن الباطل قد كثر وعلا في الأرض بصورة واضحة ، بينما جماعة الإيمان قد قل عددها في هذه المجتمعات ... وبمراجعة التاريخ نجد أن فترات الكفر والإلحاد أكثر من فترات الإيمان والتدين ... وهذا أمر مؤسف يؤكد ضرورة مضاعفة الجهود لإظهار الحق وسط ظلمات الضلال والشهوة .

والركيزة المستفادة في هذه القضية ضرورة معرفة الحق في حد ذاته ، ومعرفة أن الأمر الطيب يقدر بكيفيته لا بكميته ، وقد يكثر الخبث لكن الطيب وإن قل فهو الأفضل والأحسن ... والمؤمنون وإن قل عددهم أفضل وأحسن من الكافرين ولو كانوا ملء الأرض عددا ، فالشمس الساطعة ترسل أشعتها ، وإن أنكر العميان رؤيتها .

لقد ملأ فرعون أرض مصر بسلطانه ، وأمواله ، وجبروته ، وبث أعوانه في كل ربوع مصر ، وأسس لسلطانه زبانية في كل نشاط للناس ، وسيطر على الرأي العام ، وخضع له المصريون ، وادعى الألوهية ، وكان يقول ما حكاه الله عنه : ﴿ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾^(١) .

ومع كل هذا السلطان ، وهذه الهيمنة أهلكه الله في لحظة خاطفة ، وأغرقه وجنده ، ولم يبق من شركه شيء .
والأمم الكافرة التي جاءها رسل الله بلغت من القوة شأوا بعيدا إلا أنهم بسبب كفرهم هلكوا وبادوا ، ودمرهم الله تعالى .

(١) سورة القصص ، الآية ٣٨ .

وتلك سنة الله فى عباده ، وهى سنة مكررة فى القديم والحديث وأقرب أمثلتها ما حدث فى بلاد العرب ، فلقد سقطت عروش ، وأنظمة ظنت الخلود والبقاء ، وصنعت أعمدة بقائها على رقاب العباد ...

صانعت القوى الخارجية ، ووضعت البلاد فى خدمتهم وهم أعداؤها ... وشكلت فى الداخل أنظمة فى كل أركان الدولة ، يقودها المنافقون الذين أطلقوا أيديهم فى مصير البلاد .

أوجدت هذه النظم الفاسدة دولة منظمة تهتف باسمهم ، وترى بقاءها فى بقائهم ، وأخذ المصلحون ينادون ويهتفون ، ويقولون : ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ (١) ؟ وجاء نصر الله فسقطت هذه الأنظمة ، وتركوا العرش إلى السجن ، وتهاوى العملاء والمرجفون ، وأصبحوا عبرة للعقلاء ... ولم ينفعهم ما جمعوا من سلطان وجاه .

ولم يستفيدوا بما جمعوا من مال ... ولم يقدر العملاء على الصمود .

والواجب :

على المؤمنين أن يأخذوا من سقوط المفسدين درسا حتى لا يكونوا مثلهم ... وان يحذروا الأعياب وأشاعات هؤلاء المفسدين فلهم قواعد كامنة بين الناس تنتظر فرصة للظهور ، وهى تعمل فى صمت خفى بين البسطاء ، وتفسر النجاح بالفشل ، وتشكك فى أى عمل ولو كان إيجابيا .

وعلى الدعاة :

أن يحيطوا علما بكافة المحركات الاجتماعية ، ويستفيدوا بالعلم فى التعامل معها .

وأساس عمل الدعاة هو زرع الإيمان فى القلوب ، وإظهار مزايا الشريعة ومكارم الأخلاق .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢١٤ .

والاهتمام الأكبر يكون بالحق مهما قل شأنه ، ومحاربة الباطل وان انتسح مداه .

ولا يصح أن يضعف المؤمن أمام زخارف الحياة الدنيا ، ويستخدمه الشيطان ، فما عند الله خير وأبقى ، ومتاع الدنيا مهما كثير قليل ، ملئ بالمتاعب ، مصاحب للكوارث والابتلاءات .

الركيزة الثالثة الاستفادة بمنهجية الرسل فى الدعوة إلى الله تعالى

أنزل الله القرآن الكريم لهداية الناس للطريق القويم ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وكان للقصص القرآنى دور رئيسى فى تحقيق رعاية القرآن الكريم . يقول الله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ أَلْرُسُلِ مَا نُنْثِيَتْ بِهِمْ فُوَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ ^(٢) ،
ويقول سبحانه : ﴿ فَأَقْصِصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ^(٣) .

وحين ننظر فى قصص سورة "النمل" نجد فائدته للدعوة والدعاة من عدة جوانب :

– فمن جانب توضح الآيات طبيعة النفوس البشرية ، وتنوع النظم ، واختلاف التعامل بين الناس .

(١) سورة هود ، الآية ١٢٠ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ١١١ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٧٦ .

- ومن جانب نلمس قوة الحق حينما يؤمن به صاحبه .
- ومن جانب نعلم ضرورة تمتع الدعاة بالعلم ، والشجاعة ، وحسن عرض الفكرة ، والقدرة على الحوار والمناقشة .
- ومن جانب ترى القدرة الإلهية فى كل شئون الحياة ، وتقديمها للآيات والحجج فى كل مخلوقات الله تعالى .

وحيثما نستفيد من هذا القصص فى منهجية الدعوة نوضح ما يلى :

أولاً : وضوح قضية الدعوة الأساسية ، وهى الإيمان بالله أساس الدعوة وقد دارت عليها دعوات الرسل جميعا ، لأنها القضية التى بصلاحتها يصلح المجتمع كله .

ثانياً : التمسك بمكارم الأخلاق ، والدعاة إلى الله تعالى ملتزمون بمكارم الأخلاق فى عملهم وأقوالهم ، وعليهم أن لا يقابلوا الإساءة بمثلها ، وعليهم أن يكونوا قوة جذب لقلوب الناس وعقولهم .

ثالثاً : حسن التواصل مع المدعوين ، من المهم سلوك سياسة رشيدة فى الدعوة حتى لا يصطدم الدعاة مع المدعوين ، فموسى عليه السلام يدعو فرعون برفق ولين ، وسليمان عليه السلام يرسل خطابه لـ "بلقيس" ويأمر الهدهد بحسن السلوك ليلقى الخطاب ، ويتركهم ، ويعلم خبرهم وهو بعيد عنهم .

رابعاً : الشجاعة الأدبية للدعاة ، وهذه الصفة واجبة للدعاة لأنهم بها يعلنون دعوة الله فى قوة غير خائفين ، ولذلك قال الله لموسى عليه السلام : ﴿ إِنِّي لَا تَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ^(١) ... وأوردت الآيات شجاعة النملة فى توجيهها

(١) سورة النمل ، الآية ١٠ .

لأخواتها ، وهى تعلم أن سليمان يعلم حديثها لقد قالت فى شجاعة : ﴿ أَدْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا تَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ ﴾^(١) ... كما ذكرت الآية شجاعة الهدد ، وهو يقول لسليمان : ﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ يَنْبَغِي لِقَائِي ﴾^(٢) .

ما أحوج الدعاة إلى هذه الشجاعة ليعلموا كلمة الله فى كل مكان متمسكين بالخلق الكريم ، والسعى القويم ، بلا غاية شخصية أو مجد ذاتى ، وأن تكون غايتهم إرضاء الله فقط .

خامسا : التعامل مع الواقع بما يناسبه ، من قصص سورة "النمل" ندرك ضرورة ملاحظة الناس حين مخاطبتهم بالدعوة ، فموسى عليه السلام يتعامل مع سحر السحرة ، وسليمان يتعامل مع النهضة والرقى بمثله ، وصالح ولوط عليهما السلام يناقشون القوم فى حياتهم ، ومعاشهم ويدعونهم إلى الصواب فيه **سادسا : الإخلاص الدائم فى العمل لله تعالى ، وهذا أساس نجاح الدعوة** ولابد من هذا الإخلاص لأنه الوقود المحرك للدعاة : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾^(٣) .

سابعا : الاستفادة من تجارب الآخرين ، إن النظر والتأمل فى تجارب الآخرين استفادة عملية ، لأن الإنسان هو الإنسان ، وما جاز على واحد جاز على الآخر ، ويدل على ذلك التشابه الكبير بين معارضى الرسل ، وخصوم الدين هذه أهم النقاط المنهجية التى أعاننى الله على استنباطها .

(١) سورة النمل ، الآية ١٨ .

(٢) سورة النمل ، الآية ٢٢ .

(٣) سورة البينة ، الآية ٥ .

(٦٢٧)

الركيزة الرابعة **أهمية البطانة الصالحة** **لذوى الرأى فى الناس**

الإنسان مدنى بطبعه يحتاج لغيره ، وغيره يحتاج إليه ، وكلما زادت همته زادت حاجته ... ولذلك كانت ضرورة البطانة والصحبة .
وأصحاب المهام الكبرى والمسئوليات الكثيرة يتخذون لأنفسهم بطانة تسندهم بالرأى ، وتشاركهم فى القرار ، وتتوب عنهم فى عديد من المواقف .
ومن هنا ...

حسن اختيار البطانة الصالحة ليستقيم النصح والعمل ... وقد رأينا أهمية ذلك فى قصص سورة "النمل" ، فموسى عليه السلام يتخذ هارون رداء له يتقوى به ، ويشاركه ، ويشد أزره ، وسليمان عليه السلام يتخذ الهدد جنديا معه يكلفه المهام والدعوة ، وبلقيس تتخذ لها فى مملكتها رجالا تشاورهم ، وتستعين بأرائهم .
إن البطانة لذوى السلطة والقيادة تمثل المساعدين ، والمستشارين ، ولذلك كانت ضرورة تمتعهم بالمعرفة ، والإخلاص ، والصدق .
وقد اتخذ رسول الله ﷺ من أصحابه بطانة وجندا ، فعاشوا أشداء على الكفار رحماء بينهم ، وتركوا للأمة دروسا وعبرا .

(१२४)

الجزء العشرون

وأوله قوله تعالى :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ... ﴾ .

سورة "النمل" آية [٥٦]

(٦٣٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٣١)

ضرورة حمد الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^(١) .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضلال الكافرين ، والحاق عقوبة الله لهم جاءت هذه الآية تأمر رسول الله بحمد الله والصلاة والسلام على عباده المخلصين إقرار لفضلهم واستمرار لعطاء الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآيات ضرورة البدء بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى عباده الأخيار مع تذكيت المشركين على شركهم بإعلامهم أن عبادة الله خير مما يعبدون .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾ هذا أمر لرسول الله ﷺ يأمره فيه أن يحمد ربه شكرا على نعمه ، وآلائه التي لا تعد ولا

(١) بدأ الجزء العشرون من الآية رقم [٥٦] من سورة "النمل" ، وقد آثرت تفسير الآيات [٥٦] .
[٥٨] في نهاية الجزء التاسع عشر لأن هذه الآيات تنتم قصة لوط عليه السلام فأحببت أن أورد آيات القصة معا في مكان واحد ليتضح المعنى .

(٦٣٢)

تحصى ، وأن يسلم على عباد الله الذين اصطفاهم لرسالته ، وهم أنبيأؤهم الكرام ، ورسله الأخيار .

وفى هذا الأمر تعليم للبدء الحسن في كل أمر بذكر الله وذكر رسله ، والاستظهار بهذا الذكر على حسن الاستماع ، وحسن الطاعة .

وقد ساروا العلماء والدعاة على هذا الأدب ، ففى سائر المؤلفات يبدأون كتبهم بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ، وفى كل كلمات الدعاة يكون البدء الحسن كذلك ، حتى اشترط العلماء فى خطبة الجمعة أن تبدأ بهذا الذكر حتى لا تكون شوهاء أو جذماء .

وبعد أن أمر الله رسوله بهذا الأدب الرفيع ، وجهه إلى تبكيت المشركين وتوبيخهم ، وإبراز ضلالهم وكفرهم ، وذلك بسؤالهم عن آلهتهم وقيمتها أمام الله الواحد الأحد فقال تعالى .

﴿ ۞ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ ﴾ ؟ ... الاستفهام للإنكار لإنكار ما عليه

المشركون ، وفيه يسألهم عن الله المتصف بالوحدانية ، وبكل الكمالات الواجبة ... وهل هو خير أم الآلهة الكثيرة التى يعبدونها ... وفى هذا السؤال تسفيه لآرائهم ، وتقبيح لمعتقداتهم ، والزامهم الحجة ، إذ من الظاهر أنه ليس فى الآلهة الأخرى خير ما .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله أمر رسوله أن يحمده ، ويسلم على رسله الذين اصطفاهم واختارهم للرسالة ، وأن ييكت المشركين على شركهم بأن يسألهم منكرا عليهم هل توحيد الله خير أم ما هم فيه من شرك ؟

(٦٣٣)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

تكريم الله ورحمته بعباده

خلق الله الإنسان ، وأكرمه ، وأعاناه فى مسار حياته المديد . يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾^(١) .

ومن مظاهر هذا التكريم أن رزقه العقل يفكر به ، ويهتدى ، وأمره بالاستقامة فى القول والعمل ، وعاملة بالعدل والإحسان ، وأمر عامة الناس بما أمر به رسوله الأمين ﷺ ليصل الجميع إليه بالعمل الصالح المستقيم .
إن منهج الله هو الصراط المستقيم ، ولذلك أمر الله به ، وعرفه للناس ، ومن هذا المنهج أن يمتلئ لسان المؤمن بذكر الله تعالى ، وحمده والثناء عليه وأن يسلم على رسول الله ، وعلى عباد الله الذين اصطفاهم الله واختارهم .
إن هذا الحمد ، وهذا السلام يحيى فى الإنسان إنسانيته ، ويعلى فى ضميره القيم النبيلة ، وفى جوارحه السلوك القويم .
إن المجتمعات فى حاجة إلى قادة صالحين ، ولابد لهم من التقدير والاحترام ، وحسن المكافأة ... وكان من مكافئتهم تذكيرهم ، وتذكر ما قاموا به من عمل .

والله هو صاحب الفضل على الناس ، وجدير بالخلق أن يذكروا الله ، ويسلموا على رسوله الذين عرفوهم ببرهم ، ويدعوا للصالحين الذين مهدوا طريق الخير للناس .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٧٠ .

إن قوة المسلمين فى تماسكهم ، وإقرارهم لحق الآخرين ، وتقديرهم لأصحاب الفضل ، واستقامتهم على منهج الله تعالى .

أدلة التوحيد الموجهة إلى المشركين فى أسلوب استفهام إنكارى

تورد الآيات التالية أدلة توحيد الله تعالى ، وتثبت صفات الكمال الواجبة له سبحانه وتعالى بأسلوب الاستفهام الإنكارى الموجه للمشركين الذين يتخذون الأصنام آلهة من دون الله تعالى .

والآيات بهذا الأسلوب تحقق ما يلى :

أولاً : تثبت بطلان الشرك ، وتبين أن الأصنام لا يصح أن تكون لأنها صماء جامدة لا تسمع ، ولا ترى ، ولا تعقل ، وهى جزء من كون فسيح ملئ بالعمل والحركة .

ثانياً : توجه الآيات العقول إلى براهين وجود الله فى الكون ، الناطقة بضرورة وجود صانع حكيم قادر عليم .

ثالثاً : تفصل الآيات براهينها ، وتتضمن كل آية حجة كبرى وتفصلها وتبين حاجة الإنسان إليها ، ويأتى ختام الآية إنكاراً لاتخاذ الأصنام آلهة مع عجزها عن فعل شئ مما تضمنته الآية .

رابعاً : يحرك الاستفهام المسئول إلى النظر والتفكير ، وحينما يرى أن الاستفهام ينكر ما يؤمن به فإنه يفكر ليعرف الحق ، ويقف على صحة أو بطلان ما هو فيه .

خامساً : تتميز كل آية بأنها تقدم حجة كبرى تتصل بالإنسان من حيث ارتباطها به وحاجته إليها ، وتفاعله معها ... وهى بذلك تأخذه إلى المنعم المتفضل القادر الحكيم ، وليس هو الصنم أو الوثن بحال .

(٦٣٥)

سادسا : يعتبر الاستفهام الإنكارى توبيخا صريحا لمن يوجه إليه لأنه يبطل ما هو فيه ، ويثبت نقضيه ، وينتظر معارضة من المخاطب ، وحين يعجز المسئول عن الجواب . وهو بلا شك عاجز . يثبت ما جاءت الآية لإثباته . وسأورد الآيات فى أدلة متتابعة بعد أن أوضح صلة الآيات بما قبلها .

- ١ -

صلة آيات إثبات التوحيد بما قبلها

لما أمر الله رسوله ﷺ بالحمد والسلام على رسل الله ، وعرضت بالمشركين بسؤالهم عن الله ، وعن الشركاء أيهما خير جاءت هذه الآيات لتثبت حجج التوحيد وبراهينه مع التصريح ببطلان الشرك والشركاء .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات عددا من أدلة وجود الله ، ووحدانيته ، واتصافه بكل كمال يليق به سبحانه وتعالى ، وسأورد هذه الآيات فى أدلة متتابعة .

(٦٣٦)

الدليل الأول دليل خلق السموات والأرض وانزال المطر وإنبات الشجر

يقول الله تعالى :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ۚ ﴾ .

توضيح هذا الدليل
من خلال الدلالات اللغوية للآية

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ ﴾ ؟ ...
الاستفهام إنكارى ، وفيه ينكر الله على المشركين سوء اتخاذهم آلهة مع الله تعالى . والمعنى أعبادة الأصنام والأوثان التى لا تضر ولا تنفع خير وأولى من عبادة الله تعالى الذى تفضل عليكم بخلق السموات بغير عمد مع ارتفاعها وصفائها ، وجعل فيها الكواكب والنجوم ، وخلق الأرض ، وقدر فيها أمور المعاش ، وربطها بالسماء حيث يصعد الماء بخارا من الأرض ، ويجمعه السحاب فى ماء كثيف ، ثم ينزل مطرا على الأرض ، حيث يشاء الله ويوجد سبحانه من المطر بعد اختلاطه بالأرض زروعا خضراء ، وبساتين يانعة ، وشجرا عاليا ، ونباتات شتى .

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا ۚ ﴾ ؟ ... أصبح منكم أيها المشركون بعد معرفتكم بهذا

(٦٣٧)

أنتخذون إلها آخر مع الله ، وتخصونه بالعبادة ؟ ... وهل تسوى عقولكم بين قادر وعاجز ، وقديم وحادث ، وصانع ومصنوع ؟

﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ أى إن شأن هؤلاء المشركين هو العدول عن طريق الحق ، والانحراف عن جادة الاستقامة ، ولذلك يتركون عبادة الله القادر ويعلمون عنها وهم يعلمون قدرته ... ويعبدون الأصنام وهو يرون عجزها وهوانها ويجوز أن يكون معنى ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ يساوون أى أن المشركين يسوون بين الله وبين الأصنام فى اتخاذها آلهة .

والفرق بين المعنيين أن الترك يعنى الانتقال من الحق إلى الباطل ، وأما التساوى فإنه يعنى التسوية بينهما ، وهذا لا يجوز .

الدليل الثانى

دليل تهيئة الأرض وما فيها

لخدمة الإنسان

يقول الله تعالى :

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

توضيح هذا الدليل
من خلال الدلالات اللغوية للآية

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ ؟ ... أى أعبادة الأصنام خير لكم من عبادة الله الذى جعل الأرض مستقرا لحياتكم ، وهياها للسعى والحركة ، ودحاها ووسعها مع أنها كروية ، ومستديرة .

(٦٣٨)

﴿ وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ﴾ أى وأوجد فى الأرض أنهارا تأتي من منبعها

وتسير مسافات طويلة إلى مصبها للرى والسقى ، وامداد الكون بالحياة .

﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ أى وجعل فى الأرض جبالا لتثبيت الأرض

حتى لا تميد وتقع .

﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ أى وجعل بين الماء العذب ،

والماء المالح حاجزا يمنعهما من الاختلاط حتى يقوم كل من الماعين بوظيفته .

﴿ أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ﴾ ؟ ... الاستفهام لإنكار ضلال المشركين الذين يجعلون

من الله الخالق هذا إلها آخر من الأصنام يعبدونه ... وكيف يسلم العقل بذلك ؟

وكيف تستقيم الموجودات بوجود إله آخر مع الله ؟

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى بل أكثر هؤلاء المشركين لا

يعلمون قدر الله تعالى ، وجهلوا أنه هو الذى هيا لهم ما فى الأرض من

مساكن ، وأنهار ، وجبال ، ومياه عذبة ، وأخرى مالحة ... مع أنهم لا

يستغنون عن شئ من هذه النعم .

ولو علم هؤلاء الضالون هذه النعم ، وتأملوا فى ضرورتها لهم ، وتفكروا

فى صانعها لآمنوا بالله تعالى ، لأن الكثير منهم لا يعلم ، والقليل الذى يعلم

غارق فى اللهو ، والمنكر ، والفحشاء .

الدليل الثالث

تكریم الإنسان وإغاثة من الكوارث

يقول الله تعالى :

﴿ أَمَّنْ تُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أُولَٰئِكَ مَعَ اللَّهِ ۖ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

توضيح هذا الدليل
من خلال الدلالات اللغوية للآية

﴿ أَمَّنْ تُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ أى هل تتركون عبادة الله الذى أحاطت رحمته بكم ، فهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، والمضطر هو الإنسان المجهود المكروب الذى نزلت به كارثة من غرق ، أو حرق ، أو مرض ، أو نازلة من نوازل الدهر ... ، إذا نزلت بالإنسان يلجأ إلى الله ، ويستغيث به لينقذه مما هو فيه ، ويدل قوله تعالى : ﴿ إِذَا دَعَاهُ ﴾ إلى ضرورة دعاء الله ، ولجوء المضطر إليه ، وطلب الانقاذ منه ، والاستقامة على أمره . يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ ^(١) .

﴿ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ أى وهو الذى يرفع عنكم السوء الذى ينزل بكم من مرض ، وفقر ، لأنه لا يقدر على تغيير الأحوال إلا القادر العزيز الحكيم .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٨٦ .

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ وهو الذى اختاركم أيها الناس من بين سائر خلقه لتكونوا خلفاء الأرض ترثونها ، وتحكمونها ، وتستفيدون بخيراتها بعد أن ذللها وسخرها لكم سبحانه وتعالى .

﴿أَأَلِهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ ؟ ... أيجوز بعد ذلك وجود آلهة أخرى كالأصنام والأوثان تعبدونها من دون الله ، وتتركون من ينحيكم ، ويرفع السوء عنكم ، ومن جعلكم خلفاء فى أرضه .

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أى إنكم أيها المشركون لا تتذكرون نعم الله إلا قليلا .

إن تذكر نعم الله تعالى ، ومعرفة قدرته وحكمته ، واللجوء إليه سبحانه ودعاءه يحقق للإنسان ما يتمنى ، وينقذه من الضلال والشرك .

وكان رسول الله ﷺ يقول : اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، واصلح لى شأنى كله لا إله إلا أنت^(١) .

ويقول ﷺ : دعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين^(٢) .

إن دعاء الله يفتح الأبواب المغلقة ، ويبدل العسر يسرا ، وإذا أراد الله شيئا قال له كن فيكون .

(١) سنن أبى داود . كتاب الأدب . باب من يقول إذا أصبح ج ٤ ص ٣٢٤ .

(٢) سنن الترمذى . باب فى الدعاء ج ٥ ص ٥٧٨ .

الدليل الرابع

هداية الإنسان وسط ظلمات البر والبحر وإرسال الرياح

يقول الله تعالى :

﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

توضيح هذا الدليل
من خلال الدلالات اللغوية للآية

﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ ؟ ... أى أتسون فى التآليه بين الأصنام التى لا تضر ولا تنفع وبين الله الذى يرشدكم إذا ضللتكم الطريق بسبب الظلام فى البر والبحر ليلا أو نهارا ، حيث ترون النجوم والكواكب تحدد لهم الجهة التى تقصدونها ، وتهتدون إلى المكان الذى تريدون الوصول إليه .

﴿ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى وهو الذى يرسل لكم الرياح العاصفة قبل نزول المطر تبشركم بنزول الغيث الذى يحقق الحياة للوجود كله .

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ؟ ... أى هل يوجد إله آخر من الله الذى فعل لكم هذا وهداكم إلى الغاية ، وأمدكم بالماء ، وبشركم به .

﴿ تَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى تقدر سبحانه وتعالى وتنزه عن شرك هؤلاء الكفار وعن أقوالهم ، فله سبحانه وحده صفات الكمال والجلال ، وقد خضعت له الكائنات ، وهو الكبير المتعال .

الدليل الخامس

دليل الخلق والإعادة والرزق

يقول الله تعالى :

﴿ أَمَّنْ يَبْدُوْا أَلَخَلَقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَعْلَهُ ۚ
مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

توضيح هذا الدليل
من خلال الدلالات اللغوية للآية

﴿ أَمَّنْ يَبْدُوْا أَلَخَلَقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ ﴾ ؟ ... أى هل تسوون أصنامكم بالله
الذى خلقكم ابتداء ، وأخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم
السمع والأبصار والقلوب .

وهو الله الذى يميّتكم ، ويحييكم مرة أخرى للبعث والنشور والحساب
والجزاء أتسوون الأصنام به سبحانه وتعالى ؟

﴿ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى وهو الذى يرزقكم من
السماء بإنزال المطر ، وإرسال النور والضوء ، ويرزقكم من الأرض بإنبات
الزراع ، وإخراج المعادن ، وتيسير الغدو والرواح حولها .

﴿ أَعْلَهُ ۚ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى أوجد إله آخر مع الله المحيى المميت الرازق ؟

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى قل لهم يا محمد

إيتوا بحججكم التى تؤيد شرككم إن كنتم صادقين فيما تزعمون .

وهكذا يعرض القرآن الكريم هذه الآيات الكونية ، ويستخدم مشاهد الكون ،
وحقائق النفس ، فيجعل الكون كله إطارا للمنطق الذى يأخذ به القلوب ويوقظ

(٦٤٣)

به الفطرة ، ويجلوها لتحكم منطقها الواضح الواصل البسيط ويستجيش به المشاعر ، والوجدانات بما هو مركز فيهما من الحقائق التي تغشيتها الغفلة والنسيان ، ويحجبها الجحود والكفران ... ويصل بهذا المنطق إلى تقرير الحقائق العميقة الثابتة في تصميم الكون ، وأغوار النفس التي لا تقبل المراء

ركائز الدعوة

في آيات الأدلة الخمس

القرآن المكي ملئ بالآيات التي تبين أدلة وجود الله واستحقاقه للعبادة وحده ، واتصافه بكل كمال يليق به سبحانه وتعالى .

وقد تكرر ذكر الخلق ، والسماء ، والأرض ، والماء ، والهواء ، والزرع ، والحيوان ، والسهل ، والجبل ، وربط المخلوقات بمن أوجدها ، وخلقها ، وقد بينت العديد من الركائز الموجودة في الآيات التكوينية والتنزيلية والإنسانية ، وقد اشتملت الآيات المذكورة هنا على آيات عدة ، وإن اختار بعض الركائز العامة المتصلة بالآيات فيما يلي :

الركيزة الأولى

مناسبة الآيات والبراهين

للتكوين الإنساني

الإنسان مركب من جسد ، وعقل ، وروح ... ولكل عنصر حاجته ، وغذاؤه ، وغايته ، وأحسن السبل للتواصل مع الإنسان هي السبل التي تعيش مع عناصره ، وترضيها ، وتهذبها ، وتسموا بها .

(٦٤٤)

ومن هنا كانت روعة الآيات وهى تسمو بالإنسان وتنميه ، فتعرفه أن الله أنزل المطر ، وأنبت الزرع ، وهياً الأرض لتمد الإنسان بالطعام والشراب لينمو جسد ، وتستمر له الحياة .

وعرفه بالله الخالق الذى نظم الكون وأوجده ، وحقق له الحسن ، والجمال ليهتدى بها إلى الله رب العالمين .

وبين صفات القدرة ، والقهر ، والغلبة لتربية الروح ، وايصالها للعزيز القدير .

وهكذا نرى فى الآيات توافقاً مع طبيعة الإنسان وعناصره .

وعلى الدعاة :

أن يأخذوا من منهج القرآن دروساً وعبراً ، ويبينوا للمدعوين عناية الله بهم فقد أمدهم بالرزق ، وخاطبهم بالدليل ، وارضاهم بالعواطف ... وهذا يحتاج من الدعاة إلى إتقان طريقة مخاطبة العقل ، وارضاء الوجدان ، وأفضل الطرق فى الدعوة التركيز على فضائل الله تعالى ، وإبرازها أمام العقل لتشهد بما لله من حقوق .

إن الدعوة فن دقيق ، قائم على وسائل اتصالية عديدة ، ولذلك كانت حاجتها إلى العلم والاتقان ، والإخلاص ، والصدق .

إن من الناس من يحتاج إلى الدليل الحسى ، ولهذا الفريق نجد آيات الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والماء والزرع ، والسهل والجبل .

ومن الناس من يفكر بعقله وهذا يهمه ربط السبب بالمسبب ، والمخلوقات بالخالق ، والمنقذ فى لحظات الكروب والبلايا .

ومن الناس من يتأثر بعواطفه ، وهذا يرى جمال الزرع البهيج ، وألوان الثمر اليناع ، وسريان الأنهار فى مسافات بعيدة .

وهكذا ...

تلتقى الآيات مع مكونات الإنسان ، وتنوعه ، ولا عجب فى هذا فمَنْزَل
الآيات وخالفها هو الذى خلق الإنسان ، وكونه . يقول الله تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ
مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾^(١) .

الركيزة الثانية

منهجية الاستفهام فى الدعوة إلى الله

حين ننظر فى الآيات نجد أنها تقدم للدعاة منهجا حسنا فى عرض الدعوة
وقد تجلّى هذا المنهج فى الأسلوب الذى قام عليه نظم الآيات . فقد بنيت
الآيات على أسلوب الاستفهام القائم على سؤال الناس عن الله الصانع ، الموجد
الحكيم ... وهل يمكن أن تتساوى به الأصنام والأوثان بعجزها ، وعدم قدرتها
على شئ أبدا .

إن الاستفهام يقصد تحريك العقول من غفلتها ، ويعرفها بالحقيقة التى
تتساها ، أو تتجاهلها ... والتى لا يمكن لها أن تتكرها .
والاستفهام بخاصيته يحتاج للإقرار إن كان حقيقيا ، ويبرز العيوب
والزيف إن اتصل بأمر ثابت مقرر لا يحتاج إلى البحث بقدر ما يحتاج إلى
النظر والتدبر .

لو سرت فى الطريق ساهيا بلا قصد ، وسألك إنسان : أين أنت ذاهب ؟
فإنك سوف تصحوا ، وتحاول أن تعرف الطريق والغاية .
ولذلك كان سؤال الآيات المكرر واضح الدلالة فى إنكار ما عليه
المشركون ، واطهار ما هم فيه من خطأ .

(١) سورة الملك ، الآية ١٤ .

إن الأسئلة كلها تعنى عدم تساوى الله الخالق المدبر ، المنظم ، المجيب
دعوة الداعى ، والهادى إلى سواء السبيل ، المحيى المميت مع أصنام جامدة
صنعوها بأيديهم ، وفى ختام كل آية يأتى السؤال المفزع ﴿ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ﴾ ؟
ويكون الختام فى كل آية بيانا لجهل الناس وقصورهم ، وبعدهم عن الحق .

- ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ .

- ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

- ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

- ﴿ تَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

- ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

إن الاستفهام فى الآيات ينكر أباطيل المشركين ، ويضعهم أمام البراهين
الداعية إلى الإيمان المبينة لأسباب الكفر والضلال .
وماذا للدعاة فى هذا الآيات ؟

للدعاة فى هذه الآيات عديد من الموضوعات التى إن علمها الناس
وتأملوا فيها لآمنوا بالله الذى أوجدها ، وخلقها .

وللدعاة فى هذه الآيات منهجية العرض والاستفهام ليتحدثوا وقد تنبه لهم
المستمعون .

وللدعاة أن يبينوا واجب المكلفين بسؤالهم عن النعم التى يتمتعون بها ،
وعلى الدعاة شرح الآيات وتبسيطها أمام العقول والأفهام .

(٦٤٧)

الركيزة الثالثة

تقرير الدليل المفيد

عرض الدعوة يحتاج إلى البراهين والآيات التي تؤيدها ، ولذلك حسن اختيار الأدلة المناسبة ذات الأثر فى الناس .

وحين ننظر فى الآيات نرى تميز أدلتها بما يلى :

(١) **شدة القرب من حاجات الإنسان** : الإنسان يحتاج ليعيش ويعمل إلى الطعام والشراب ، والراحة والعمل ، ولذلك وضحت الآيات خلق الله لما يحتاج إليه كل إنسان فقد أنبت الزرع فى الأرض ، وأنزل المطر من السماء وأوجد الحيوان ، والطير ، والسمك ، وكل ما يحتاج إليه الإنسان .

(٢) **بيان أكثر المخلوقات أثرا** : يتأثر الإنسان بمخلوقات الله ، وكلما اشتدت حاجته لشيء زاد اهتمامه به ، وقد وضحت الآيات هذه الحاجات شديدة الأثر ، وأوله استقرار الأرض ، وثباتها مع أنها كروية ، ومتحركة ... ومنه إيصال الماء للإنسان يروى ظمأه ، ويطهر حاجاته ، ويسقى هذه المخلوقات تحقيق التوازن فى الأرض بإيجاد الجبال حتى لا تسقط الأرض وتنهار .

ومن هذه المخلوقات حجز الماء العذب عن الماء العذب ليستمر الانتفاع بهما .

(٣) **إظهار أقوى المخلوقات تأثيرا** : توضح الآيات أقوى المؤثرات فى الروح والوجدان ، وهى إجابة المضطر لما يريد ، والاستجابة لدعاء المحتاجين وهادى الحيران إلى الحق ، والمنقذ للإنسان من الضلال الحسى والمعنوى .

(٤) **إيراد أقوى الآيات إنذارا وتخويفا** : تركز الآيات على الآيات ذات التخويف والإنذار ، وأكبرها التذكير بالموت والبعث والحساب والجزاء .

وعلى الدعاة :

أن يعدوا للدعوة عدتها ، ويهتموا بالدليل الذى يقدمونه للناس .

علم الله بالغيب كله

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (١٠) بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلٌ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿ ١١ ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّءَابَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿ ١٢ ﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَّءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿ ١٣ ﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿ ١٤ ﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿ ١٥ ﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ ١٦ ﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿ ١٧ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿ ١٨ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿ ١٩ ﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿ ٢٠ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة الأدلة الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى ، وقصر العبادة له وحده جاءت هذه الآيات ببيان لوازم الألوهية ، وهى العلم بالغيب كله فى كونه الواسع ، وعلى الزمن الممتد ، وفى الدنيا وفى الآخرة .

(٦٤٩)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله هو العليم بغيب السموات والأرض دون الناس فهم لا يعلمون متى البعث ؟ ... وماذا فى يوم القيامة ، ولذلك ينكرون البعث ، ويعتبرونه من أساطير الأولين .

وتأمر الآيات بالنظر فى الأمم السابقة للاعتبار بما وقع لها ، وتأمر رسول الله بعدم الألم والحزن على عصيان المشركين ، واعراضهم ، وسيأتىهم الله بما يستعجلون ، وهو العليم بكل الغيب .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ يأمر الله

رسوله ﷺ بأن يخبر الناس بأن غيب السموات والأرض ، وما فيها ماضيا ، وحاضرا ، ومستقبلا لا يعلمه إلا الله وحده ، وكل من فى السموات والأرض لا يعلم شيئا عن الغيب الذى يحيط به ، وهذا من دليل قدرته سبحانه تعالى .

﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أى وما يدى من فى السموات ومن

فى الأرض بعد موتهم ، ومتى يبعثون من قبورهم للحشر والحساب والجزاء لأن البعث يأتى فجأة .

﴿ بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أى بل انتهى علم من فى السموات

ومن فى الأرض من معرفة وقت البعث ، وبالتالي لا يعرفون ما سيكون فيه .
وسبب قصور علم هؤلاء القوم ضعف عوامل الإدراك فيهم ، واكتفاؤهم بالتقليد وعدم التدبر والتفكير .

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ أى بل هم فى حيرة وريب من الحياة فى الآخرة ، ولذلك فهم ينكرونها ، ولا يتصورون وقوعها .

﴿ بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ بل إنهم فى جهل وعماية من وقوع البعث ، ومن كل ما يوصلهم إلى العلم بها ، والوقوف على ما يقع فيها .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِذْآ كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَاْ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ أى أنكر الذين كفروا البعث ، واستبعدوا حدوثه وقالوا : انبعث ونحيا فى قبورنا بعد أن أصبحنا وآباءنا ترابا ؟ ... وكيف نخرج من القبور بأجسادنا وصورنا بعد أن صرنا ترابا بليت أجسامنا ورمت ؟ ... وبعدها تحولت إلى تراب تذروه الرياح . وقد بين المشركون سبب إنكارهم للبعث وحصره فى أمرين :

الأمر الأول : أنه كلام متجدد لا صلة له بالحقيقة ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ أى إن القول بالبعث كلام سمعه آباؤنا ، وأجدادنا ، ونسمعه اليوم مثلهم ، ولن يزيد عن كونه كلاما ولذلك لا نصدقه .

الأمر الثانى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى أن البعث الذى تخوفوننا منه ، وتدعوننا إلى ضرورة الإيمان به ... ما هو إلا أسطورة كتبها الأولون فى كتبهم ، وصارت أقصوصة يرويها الرواة ، ولا حقيقة لها . لقد كفر المشركون باليوم الآخر ، وكذبوا القول به ، ولذلك أمر الله رسوله أن يبلغهم حقيقة البعث ، ويوضح لهم أدلته . فقال تعالى .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء المكذبين : سيروا فى الأرض بأرجلكم وعقولكم لتروا الماضى والحاضر ، وتقفوا على ما حصل للمجرمين فى الأمم السابقة فقد أهلكهم الله

تعالى بعد أن كذبوا الرسل ، وأنكروا ما دعوا إليه ، وخذوا العبرة منهم لتعلموا عاقبة المجرمين الذين يكذبون الرسل ، ويكفرون بالله تعالى .

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أى ولا تحزن

يا محمد على عدم إيمان المشركين ، ولا يضق صدرك بهم ، ولا تتألم لمكرهم وكيدهم لأن الله سينصرك عليهم ، ولن يجعل الله لهم سبيلا عليك .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى ويقول

مشركو مكة بعد أن أنذرتهم وخوفتهم من عذاب الله : متى يقع هذا العذاب الذى تخوفنا به فإن كنت صادقاً فيما تخوفنا به فعرفنا مواعده ؟ ...

﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾

أى قل لهم يا محمد ، وبين لهم أن العذاب الذى يستعجلونه قد قرب منهم ، وسوف يقع لأن عسى فى وعد الله تدل على تحقق الوقوع .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَسْأَلْتَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

أى إن الله قد تفضل على الناس جميعاً بآلائه ونعمه ، فقد بين الله لهم الصراط المستقيم ، وأرسل رسله ، وقص عليهم أخبار الأمم ، ومع ذلك فأكثر الناس لا يشكرون نعم الله ، ولا يعرف فضل الله منهم إلا القليل .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى أن الله عليم

بكل شئ ، ظهر أو خفى ، عظم أو دق ، ما فى القلب والضمير ، أو ما ظهر فى الجوارح والسلوك ، وهذا سر إحصائه الدقيق ، وجزائه العادل .

﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ أى أن كل

غيب وجد فى السماء أو فى الأرض ، أو فى أى مكان فى كون الله تعالى

(٦٥٢)

يتصل بالإنسان أو بغيره مسجل في اللوح المحفوظ ، وهو ظاهر بين لمن يقرأه
ويطلع عليه .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله عليم خبير بالظاهر والباطن في أى مكان أو زمان ،
أو كائن مخلوق ، وتبين أن منكرى البعث لا يعلمون الحقيقة ، ويبينون رأيهم
على التقليد والظن ، ويوردون حججا مردودة .
ويسلى الله رسوله ﷺ أمام إنكار الناس حتى لا يحزن ويتألم ، ويبين له
أن فضل الله عظيم ، وعلمه محيط ، وحسابه دقيق ، وعجلة أهل مكة العذاب
لا قيمة لها .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان جهود الضالين

خلق الله هذ الكون بعجائبه ، وتنوع مخلوقاته ، وجعلها آيات شاهدة على
حق الله في أن يعبد وحده .
ومع تمتع المشركين بنعم الله فهم ينكرون قدرة الله ، ولا يؤمنون به ،
وقصروا علمهم وادراكهم على الاستفادة بآيات الله دون البحث عن خالقها .
لقد عتوا ، وبغوا ، وظلموا ، ولذلك امر الله رسوله ﷺ أن يدعهم وشركهم
بعدها بلغ وأنذر ، وسوف يحاسبهم الله تعالى ، فهو العليم بكل خلقه واليه
يرجع الأمر كله ، وما ربك بغافل عما يفعل الظالمون .

الركيزة الثانية

البعث حق وإن كفر به المبطلون

أنكر المشركون البعث ، ولم يسلموا بحقيقته ، وحينما خوفهم رسول الله منه أنكروه ، وتصوروا أنهم على صواب مستدلين بأمور لا تثبت شيئاً .

قالوا : لقد سمعنا كلاماً كثيراً مكرراً وسمعه آباؤنا من قبلنا ، ولم نر من هذا البعث شيئاً .

وكذبوا لأن الرسول خوفهم من البعث والحساب فى الآخرة بعد موت الناس جميعاً ، وانتقالهم إلى الله ، وبعثهم للحساب والجزاء ، ولم يخبرهم أحد على أن البعث سيقع اليوم أو غدا .

وقالوا : البعث قصة خيالية ، منقولة من أخبار الأولين ، وأساطيرهم .
وكذبوا لأنهم أقدر على نقل الأساطير ، والأسرع فى معرفة أخبار السابقين ، فهم يشاهدون آثارهم ، ويعلمون أخبارهم ، ومن الممكن تحديد مصدر الأسطورة وسببها ، ولكنهم لا يفعلون ، مع أن كل الرسل ذكروا البعث ، وخوفوا من الحساب .

وقالوا : إن إعادة الأجسام بعدما صارت تراباً ، طيره الهواء ، وبعدما اختلطت جزئيات الأجسام أمر مستحيل .

وكذبوا لأن الله قد أوجد الأجسام من عدم محض ، واعادتها أيسر من إيجادها الأول ، وأيضاً فإن من أوجد فى الأجساد أرواحاً تحيىها ، وتمكنها من الفهم ، والإدراك ، والعمل قادر على البعث الجسدى والروحى .

ولو عقل هؤلاء المجرمون ، ونظروا إلى منامهم وصحوهم لآمنوا بالبعث ولو عقلوا وتأملوا فى مصير الأمم السابقة ، وما حل بها من دمار وهلاك لعلموا قدرة الله على البعث .

إن الله على كل شئ قدير ، والبعث حق لا ريب فيه إلا فى أذهان الغافلين .

(٦٥٤)

موقف القرآن الكريم من بنى إسرائيل

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴾ ^(٦٥) وَإِنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ^(٦٦) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم
بِحُكْمِهِ ^(٦٧) وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ^(٦٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ^(٦٩) إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ
^(٧٠) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ^(٧١) وَمَا
أَنْتَ بِهَادِيَ الْعَمَى ^(٧٢) عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ^(٧٣) إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ
مُسْلِمُونَ ^(٧٤) .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

بعد أن بنيت الآيات السابقة علم الله بالغيب ، وحال المجرمين فى الآخرة
جاءت هذه الآيات لبيان أن القرآن الكريم يقص على بنى إسرائيل اختلافاتهم ،
ويبين الحق ، ويهدى المؤمنين إلى صراط مستقيم ، وتبين أن على الرسول
البلاغ المبين .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن القرآن الكريم يبين لبنى إسرائيل كثيرا من القضايا التى
يختلفون فيها ، فهو هداية ورحمة للمؤمنين ، وتدعو النبى ﷺ إلى التوكل على
الله ، وأن يؤدى ما عليه من البلاغ ، ولا يخزن لكفر الكافرين ، وضلال
المنافقين فالله ناصرهم ومعينهم .

(٦٥٥)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ

مُخْتَلِفُونَ ﴾ أى أن القرآن الكريم الذى أنزله الله عليك يا محمد يقص على

بنى إسرائيل الحق فى أغلب القضايا التى اختلفوا فيها ، وكان عليهم لو كانوا منصفين أن يتبعوا القرآن ، ويصدقوا ما جاء فيه بشأنهم ، لكنهم كابروا ، وتركوا الحق مع ظهور سبيله ، وسنوح دليله .

لقد اختلف الإسرائيليون فى عيسى عليه السلام فقال بعضهم : إنه أحد الأقانيم الثلاثة ، وقال آخرون إنه طبيعة واحدة أو طبيعتان ، وعقدوا المجامع العديدة وانقسمت النصرانية حول الأب والابن والروح القدس ، ولو انصفوا لصدقوا القرآن الكريم وهو يقول لهم عن المسيح : ﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾^(١) .

واختلفوا فى صلبه ، ورفع ، ومدة وفاته ، ولو انصفوا لأطاعوا القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ هُمْ ﴾^(٢) .

واختلفوا فى الكتاب المنزل ، وعدد أسفاره ، وكاتبه ، ولو انصفوا لأطاعوا الله فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾^(٣) ، وفى قوله : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ

(١) سورة الزخرف ، الآية ٥٩ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١٥٧ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ٤٤ .

وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى
وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ^(١) .

إن اختلاف بنى إسرائيل فى كتبهم صور الأنبياء فى صورة لا تليق ،
فجاء القرآن وحدثهم حديث الصدق عن تاريخهم وأنبيائهم ، مجردا من الأساطير
الكثيرة التي اختلفت فيها رواياتهم ، مطهرا من الأقدار التي ألصقتها هذه
الروايات بالأنبياء، والتي لم يكد نبي من أنبياء بنى إسرائيل يخرج منها
نظيفا!...

فإبراهيم عليه السلام . بزعمهم . قدم امرأته لأبى مالك ملك الفلسطينيين ، والى
فرعون ملك مصر باسم أنها أخته لعله ينال بسببها نعمة فى أعينهما !
ويعقوب عليه السلام هو إسرائيل أخذ بركة جده إبراهيم من والده إسحاق بطريق
السرقة والحيلة والكذب وكانت بزعمهم هذه البركة لأخيه الأكبر عيسو !
ولوط عليه السلام . بزعمهم . أسكرته بنتاه كل منهما ليلة ليضطجع معها لتجنب
منه كى لا يذهب مال أبيها إذ لم يكن له وارث ذكر . وكان ما أردتا !
وداود عليه السلام رأى من سطوح قصره امرأة جميلة عرف أنها زوجة أحد
جنده ، فأرسل هذا الجندي إلى المهالك ليفوز . بزعمهم . بامرأته !
وسليمان عليه السلام مال إلى عبادة (بغل) بزعمهم . مجارة لإحدى نسائه التي
كان يعشقها ولا يملك معارضتها!....

وقد جاء القرآن فطهر صفحات هؤلاء الرسل الكرام مما لوثتهم به
الأساطير الإسرائيلية التي أضافوها إلى التوراة المنزلة ، كما صحح تلك
الأساطير التي ذكروها عن عيسى ابن مريم عليهم السلام .

(١) سورة المائدة ، الآية ٤٦ .

وهذا القرآن المهيم على الكتب قبله هو الذي يفصل في خلافت القوم ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ، وهو الذي يجادل المشركين ، وهو الحكم الفصل بين المتجادلين !

﴿ وَإِنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى إن القرآن الكريم هو الذى يهدى المؤمنين إلى سبيل الله تعالى ، ويعينهم ، ويساعدهم فى مسار الحياة .

﴿ إِنَّ رَّبِّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ أى إن الله يقضى بين المتخالفين من بنى إسرائيل بحكمه العادل فى القرآن الكريم ، ويجازيهم فى الآخرة بما يستحقون ، وهو سبحانه الغالب العليم بكل شئ .

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ أى فوض يا محمد أمرك إلى الله ، ولا تتأثر بأكاذيب المبطلين فهو كافيك ، واعلم أنك على الطريق الصحيح البين الواضح .

﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ أَلْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ أَلدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ أى إنك يا محمد لن تسمع من أصم الله سمعه ، ولا تخاطب إنسانا قضى الله يموت قلبه لأن هؤلاء كتبت عليهم الشقاوة ، وولوا على أدبارهم معرضين .

﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنَّ تَسْمَعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِغَايَتِنَا فَهُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ أى إنك يا محمد لن تهدي الضال ، أو ترشد الأعمى إلى الصواب ، وأن من تسمعه هو الذى قدر الله إيمانه وإسلامه .

وفى هذا تثبيت لقلب النبى ﷺ إزاء إشراك أهل مكة وكفرهم .

(٦٥٨)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن القرآن الكريم يقص على بنى إسرائيل الحق فى كثير مما اختلفوا فيه وهو الهادى إلى الخير ، والقاضى بالحق والعدل ، وتأمّر الآيات رسول الله ﷺ أن يتوكل على الله ، ويتمسك بما هو عليه ، فهو على الحق الواضح ، وليستمر فى الدعوة فكل ما عليه هو البلاغ ، ولن يهدى الله إلا من يحب الهدى ، وسيبقى العمى على عماهم ، والضالون على ضلالهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

القرآن الكريم والأديان السابقة

القرآن الكريم كلام الله تعالى المنزل على محمد ﷺ المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه المنقول إلى الأمة نقلا متواترا .

اشتمل القرآن الكريم على دين الله الذى ارتضاه للعالمين ببعثه محمد ﷺ وقد جعل الله القرآن الكريم آخر كتبه المنزلة ، ولذلك تحدث عن الماضى والحاضر والمستقبل .

تكلم عن الماضى فعرف برسالات الله فى الأمم السابقة ، وبين أنها رسالات خاصة لقوم مخصوصين .

واشتمل القرآن الكريم على سائر النظم التى يحتاج لها الإنسان ، وختم الله به الكتب السابقة . يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا

بَيَّنَ يَدِيهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهِمَّنَا عَلَيْهِ ﴿١﴾ وبذلك تحققت الهيمنة للقرآن

الكريم على سائر الكتب ، وهذا يعنى تصديقه لما بقى صدقه منها ، نافيا أى تغيير حدث لها ، مكملًا بما يحتاجه الناس دون من سبقوهم ، واضعًا مبادئ وأسس أحكام الحوادث التى يمكن وقوعها إلى قيام الساعة .

إن القرآن الكريم بهذه الهيمنة لا ينكر الأديان السابقة ، وانما يقر بوجودها ، ويعرف برسولها ، ويقدر دعوتها للأخلاق الكريمة ، والمزايا العالية ، ويؤكد أن العقيدة عند الرسل جميعا واحدة ولا اختلاف بين الأديان إلا فى بعض الشرائع والأحكام الجديدة .

وفصل القرآن الكريم تميز الإسلام بتقدير الرسل ، واحترام سائر الأديان ، وبهذا التميز توجه بدعوته للناس أجمعين .

وأعلن أن الإيمان بالإسلام إيمان بالأديان كلها ... وهذا ادعى للإجابة ، وأسرع فى التصديق والإيمان .

والدعاة مسئولون عن تعليم الناس ما فى القرآن الكريم من دعوة للجميع ومن تقدير شامل لرسل الله أجمعين .

وعليهم بيان أن على الإنسان أن يؤمن بما يصدق بسائر الأديان ، ويوسع دائرة التصديق بالله تعالى .

ولن يسلم الإسلام بأى تحريف حدث فى الكتب السابقة فهى بادية البطلان لتناقضها مع جلال الله تعالى ، وتعارضها مع عصمة المصطفون الأخيار الذين اختارهم الله لدينه .

(٦٦٠)

الركيزة الثانية **مسئولية الرسول والدعاة** **عن إيمان الناس**

الدعوة إلى الإسلام تعتمد الاقناع العقلى ، والحرية فى الاختيار ، ولذلك كلفت الرسول بالبلاغ ، وأمرت الدعاة بدعوة الناس ، وليس على النبى والدعاة شئ آخر غير البلاغ .

يقول الله تعالى :

- ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ ^(١) .

- ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ ^(٢) .

- ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ أَلْمُبِينِ ﴾ ^(٣) .

ومادام الأمر كذلك فإن عددا من الأمور يجب أن تكون واضحة ... وهى :

(١) الرسول مبلغ لوحى الله للناس بصورة بيّنة واضحة ، وليس عليه غير ذلك .

(٢) لا سلطان على العقل إلا الله وليس من السهل ، ولا من المتصور إكراه العقل والضمير على أمر لا يقتنع به .

(٣) وضوح الخطاب الدينى من ناحية الموضوع ، والأدلة والغاية ، واتفاقه مع أساسيات الدين ، ومبادئه .

(١) سورة الأعلى ، الآية ٩ .

(٢) سورة الغاشية ، الآية ٢١ .

(٣) سورة النور ، الآية ٥٤ .

من علامات يوم القيامة وأهوالها

يقول الله تعالى :

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ
كَانُوا بِعَاقِبَتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ
بِعَاقِبَتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٤٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهُ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِعَاقِبَتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا
عِلْمًا أَمْ آذًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٩﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ
﴿٥٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلًا لِّيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ
مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنَّعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٥٣﴾
مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّمَّا وَهُمْ مِّنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٥٤﴾ وَمَنْ جَاءَ
بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

بعدما بينت الآيات السابقة الأدلة المثبتة لوحداية الله ، وقدرته جاءت هذه
الآيات بذكر مقدمات القيامة وعلاماتها ، وبعض مشاهداتها ، وأحوال الناس فيها .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات بعض علامات الساعة الكبرى كخروج الدابة ، وتقديم بعض
مشاهد القيامة .

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ

النَّاسَ كَانُوا بِعَآيَتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ أى إذا حان موعد العذاب الذى خوف الرسول ﷺ المشركين منه ، وقربت القيامة خرجت للناس دابة من الأرض تكلمهم ، وتحدث معهم ، وتخبرهم بأن أكثرهم ليس مؤمنا ، ويكون قيام الدابة قرب يوم القيامة .

فى هذا الوقت تخرج الدابة ، وتكلم الناس ، وتبين لهم أنهم لم يكونوا مؤمنين بالله تعالى .

وقد عبرت الآية عن المخاطبين الذين تكلمهم الدابة بالناس إشارة إلى كثرتهم وكثرة فسادهم قرب قيام الساعة .

وخروج الدابة إحدى علامات الساعة الكبرى وتقع بين يدى الساعة عند طلوع الشمس من مغربها .

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "بادروا بالأعمال قبل ست : طلوع الشمس من مغربها ، أو الدخان ، أو الدجال ، أو الدابة ، أو خاصة أحدكم وأمر العامة" (١) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما كانت قبل صاحببتها فالأخرى على أثرها قريبا" (٢) .

وبعد ان تظهر الدابة ، وتطلع الشمس من مغربها ينفخ الصور نفخة أولى فيموت كل من على ظهر الأرض ، ثم تأتى النفخة الثانية فيكون البعث وتكون

(١) صحيح مسلم . كتاب الفتن وأشراط الساعة . باب في أحاديث الدجال ج ٤ ص ٢٢٦٧ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الفتن . باب طلوع الشمس من مغربها ج ٤ ص ٢٢٦٠ .

النفخة الثالثة للحشر . يقول الله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ ^(١) وبعدها يكون الحشر بأهواله يقول الله عنه : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ ^(٢) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ^(٣)

أى اذكر لهم يا محمد يوم الحشر حيث يجمع الله في أرض المحشر جماعة من كل أمة ، من الذين كذبوا بآيات الله ، ويحبسهم ، ويجمع أولهم وآخرهم ، ويسألهم سؤال توبيخ وتهكم ليقروا بظلمهم ، ويروا جحودهم ، ويقول : لم كذبتُم بآياتي التي خلقتها في الكون أو أنزلتها في كتبي ، وعرفتكم بقدرى ، ودعوتكم إلى الإيمان باليوم الآخر ؟ ... ولم انصرفتم عن العلم بها ، والنظر الجاد لتصلوا إلى الصواب ، وتعلموا عملكم بالنسبة لخبر يوم القيامة هل صدقتم وعلمتم أم كذبتُم وكفرتُم ؟ ...

﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أى ووجب العذاب عليهم ﴿ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ أى بسبب جحودهم وكفرهم ﴿ فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ أى فهم بسبب خزيهم ، وظهور ظلمهم لا ينطقون بحجة ، ولا يظهرون برهانا على ما ذهبوا إليه من إنكار البعث ، وعدم الإيمان باليوم الآخر مع كثرة البراهين والآيات الدالة على وقوعه ، وصدق الإيمان به ومنها ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أى ألم ينظروا في حياتهم ومعاشهم ويومهم ، ويروا آية الليل والنهار حيث جعل الله الليل للسكون والراحة والنوم فخلقه مظلمًا ، ساكنًا ، وجعل

(١) سورة الزمر ، الآية ٦٨ .

النهار للسعى والعمل وملاؤه بالضوء والنور ، يبصرون خلاله الأشياء ، ويتمكنون من الحركة والعمل .

﴿ إِنِّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى إن في اختلاف الليل

والنهار آيات عديدة لمن له عقل يفهم ، ويعقل ، ويؤمن ، ومن هذه الآيات :
(١) العلم بأن من خلق الليل والنهار ، وجعلهما متناقضين متتابعين يولج كل منهما من الآخر ، قادر على أن إيجاد مخلوقاته على كثرتها ، وتنوعها واختلافها ، ولا يقدر على ذلك إلا الله تعالى .

(٢) اليقين بأن الله قادر على أن يبعث من في القبور فقد جعل الله الليل للنوم وهو شبيه بالموت ، وجعل النهار للمعاش حيث يستيقظ الإنسان ويصحو من نومه ، وهذا يشبه البعث ، وقد عم هذا الدليل كل إنسان حيث النوم واليقظة ، والراحة والعمل ، والسكون والحركة ليتأكد كل إنسان بصدق هذا الدليل عمليا .

(٣) تؤكد الآيات سائر نعم الله تعالى فهي تقع في ليل أو في نهار حيث الجميع في قبضته ، وطوع إرادته ، وكل شئ بيد الله تعالى .

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ أى واذكر يا محمد للناس يوم يأمر الله تعالى

بنفخ الصور ﴿ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى يضطربون من الهول والرعب ينتابهم بعد النفخة الأولى فيموتوا جميعا ، وتأتى النفخة الثانية فيقوموا ، ويبعثوا ، ويقوموا الله رب العالم للحشر والسؤال والحساب والجزاء .

﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ بعدم موتهم مثل الشهداء والملائكة فقد ثبت الله

قلوبهم ، ولن يفزعوا من النفخ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى ، فأكون أول

من رفع رأسه فإذا موسى أخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أكان ممن استثنى الله عز وجل أم رفع رأسه قبلي" (١) .

﴿ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ ﴾ أى يأتى الخلق كله خاشعا ، خاضعا لله رب العالمين .

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ أى وتخضع الخلائق كلها لباريها حتى أن الجبال مع ضخامتها تخضع وتنتهى ، وحين ننظر إليها يوم القيامة نظنها جامدة ثابتة . بينما هى تتحرك مسرعة ليتبدل بها غيرها . يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ (٢) .

﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أى هذا الكون المخلوق بنظامه ودقته ، ودوره ، وحركته صنع الله تعالى الذى أوجد كل شئ متقنا دقيقا و ﴿ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ (٣) ، وهو سبحانه وتعالى : ﴿ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (٤) .

﴿ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ أى إنه سبحانه وتعالى عليم محيط بعباده وعملهم ، وسيجازيهم عليها إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .
ومن حكمه ، وكرمه أنه ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ أى إن من عمل عملا حسنا يجازيه الله بأفضل منه ، والعمل الحسن يشمل الأقوال والأفعال ، والأحوال .

(١) صحيح البخارى . كتاب أحاديث الأنبياء . باب ﴿ وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ج ٤ ص ١٥٩ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٤٨ .

(٣) سورة الحجر ، الآية ١٩ .

(٤) سورة النمل ، الآية ٨٨ .

﴿ وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ أى أن المؤمنين الذين يعملون الصالحات لا يفزعون عند الصيحة ، فمعهم رحمة الله ، ومعهم ملائكته . يقول الله تعالى : ﴿ لَا تَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾^(١) .

﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ أى أن من جاء بالأعمال السيئة يلقيهم الله على وجوههم فى النار ، ويرميهم فى جهنم .
ويقال لهم ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ؟ ... الاستفهام للتبكيك والسخرية أى تجزون اليوم بعملكم السوء ، فإنكم بعملكم تستحقون هذا المصير .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أنه قرب قيام الساعة تخرج الدابة من الأرض ، وتكلم الناس وتعرفهم بأنهم لا يؤمنون بالله حقا ، ثم توضح بعض صور الناس فى الحشر حيث يحبس الله فريقا من الجاحدين من الأمم كلهم ، ويخزيهم الله بالسؤال ، ويوقع عليهم العذاب الذى يستحقونه ... فى يوم القيامة يكثر الهول ، وينتشر الفزع ، ويصيب الناس الخوف إلا من ثبتهم الله بالإيمان ، وتبطل الأرض غير الأرض والسموات .

وفى يوم القيامة يقيم الله الموازين العادلة فمن جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسئنة فجزاؤه جهنم ، وبئس المصير .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٣ .

(٦٦٧)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان أهوال يوم القيامة

يوم القيامة حق لا ريب فيه وقد جعل الله له علامات صغرى تظهر فى زمن طويل قبل وقوعه ، وعلامات كبرى تظهر عند وقوعه ، ومن هذه العلامات شروق الشمس من مغربها ، وخروج الدابة من الأرض للناس تكلمهم وتعرفهم بعد إيمانهم ... فى هذا الوقت لا ينفع نفس إيمانها لم تكن من قبل ، وتقوم القيامة ، ويساق الناس للحشر ، وتتجمع الخلائق فى المحشر حفاة ، عراة ، غرلا كما ولدتهم أمهاتهم ، وتدنون الشمس فوق رؤوسهم ، ويلجمهم العرق إلجاما ، ويطول بهم المقام فى هذا الموقف العصيب الذى يكون اليوم فيه كآلف سنة مما يعدون .

إن هول الموقف يفرغ المشركين والمنافقين ، وتبدل الأحوال يخيفهم ... فى هذا اليوم تطوى السماء ، ويحتويها السجل الذى يضمها ، وتبدل الأرض غير الأرض ... فى هذا اليوم يسيطر الندم على الضالين ، ويقولون : ﴿ يَلْبِثُنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَّةً ﴾ ﴿ ٢٥ ﴾ وَلَمْ أُدْرِ مَا حِسَابِيَّةً ﴿ ٢٦ ﴾ يَلْبِثُهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿ ٢٧ ﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ ﴿ ٢٨ ﴾ هَلَكْتُ عَنِّي سُلْطَانِيَّةً ﴿ ٢٩ ﴾ ^(١) وللنجاة فى هذا اليوم فليعمل العاملون .

(١) سورة الحاقة ، الآيات ٢٥ . ٢٩ .

الركيزة الثانية

العاقل من عمل لما بعد الموت

تؤكد حقيقة الدنيا أنها منتهية ، وأن الآخرة هي دار الجزاء والحياة ، وقد جعل الله الدنيا للعمل والسعى ، والابتلاء والاختبار ، ولذلك وجب على العاقل أن يدرك هذه الحقيقة ويعمل لها .

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾^(١) ، ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾^(٢) ... ويقول النبي ﷺ : "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت"^(٣) .

إن الإنسان بالموت يبدأ رحلة الآخرة ، فيرى مقامه وهو في قبره ، ويشعر بآثار عمله من سعة قبره وضيقه ، ومن تحوله إلى روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار .

إن مرحلة القبر هي مرحلة التهيئة للدار الآخرة ، فمن استقام على الحق وكان مؤمناً في دنياه ، بدأ في قبره طريق الصالحين الاتقياء ، ومن عاش ضلالاً في الدنيا بدأ في قبره حياة الحرمان والعذاب .

إن العاقل يؤمن بهذه الحقائق ، ويعمل لآخرته ، ويستقيم في الدنيا على منهج الله تعالى .

(١) سورة الإسراء ، الآية ١٩ .

(٢) سورة الكهف ، الآية ٣٠ .

(٣) كنز العمال ج ٣ ص ٣٧٩ .

منهج النجاح في الدعوة إلى الله

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أُعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۚ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ١ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ ۚ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ۚ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ۚ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ٢ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة بعض أهوال يوم القيامة ، وأن كل إنسان سينال جزاء عمله جاءت هذه الآيات لبيان منهج رسول الله في الدعوة وطاعة الله تعالى ليتأسى به عباد الله الصالحين .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات المنهج الذي أمر الله رسوله باتباعه في عمله ، وعبادته ، ودعوته ومداومة ذكر الله تعالى وقراءة القرآن الكريم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أُعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ تبين الآية على لسان رسول الله ﷺ ما أمر الله به ، وأول ما أمر به هو أن يعبد وحده ، ويداوم المكلف على عبادته .

(٦٧٠)

الله هو رب العالمين ، وانما خص ﷺ حديثه بأن الله هو رب هذه البلدة
التي حرمها لعدة أمور :

الأمر الأول : بيان قدر مكة فهي أم القرى ، وفيها أول بيت وضع للناس
فى الأرض وقد أضافها الله إليه .

الأمر الثانى : بيان أن مكة حرم آمن ، ومن دخله كان آمنا ، ومع ذلك
جعلها أهل مكة مكانا للإذلال والظلم .

الأمر الثالث : بيان ضلال أهل مكة وفسادهم فبرغم أنهم يعلمون قدر
مكة منذ نشأتها إلا أنهم يكفرون بالله الذى مكنهم فيها ، ويكذبون محمدا ﷺ مع
إنه يدعوهم لدين إبراهيم ﷺ .

الأمر الرابع : إظهار جهالة أهل مكة لأنهم بدل أن يعبدوا رب البيت
أخذوا يعبدون الأصنام التى نصبوها حول الكعبة المشرفة ... وبدل أن يؤمنوا
طاعة لله واقارارا بفضلله عبدوا الأصنام جهلا ، وكبرياء .

﴿ **وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ** ﴾ أى وأن الله سبحانه وتعالى المالك لكل شئ فليس
له شريك ولا إله سواه .

﴿ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ أى وأمرنى ربى أن أسلم الأمر له
واستسلم لقضائه وقدره ، وأكون عبدا موحدا مؤمنا من عباده الصالحين .

﴿ **وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ** ﴾ أى وأمرنى الله أن استمر فى تلاوة القرآن الكريم
حتى تنكشف لى بعض أسرارہ ، واهتدى بهديه .

﴿ **فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِىٰ لِنَفْسِهِ** ﴾ أى فمن وفقه الله للطاعة
والاستقامة فقد نفع نفسه .

(٦٧١)

﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ ومن ضل عن الصراط المستقيم ، وترك الهداية ، فلا عليك منه شئ بعدما بلغته وأنذرتة ، فأنت منذر مبين .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى الحمد لله فى كل نعمه ، وسائر فضائله .

﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أى سيطلعكم على آياته ومعجزاته ، وستعرفون أنها الله والأمر لكم بعد ذلك .

﴿ وَمَا رُبُّكَ بَغْفِلٌ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى ليس الله غافلا عن عملكم ، وعمل عباده جميعا ، وسيجازى كل إنسان بما قدمت يداه .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات ما أمر الله به رسوله ﷺ ليدأوم عليه ، وهى أن يعبد الله وحده ، فهو رب مكة ، ورب العالمين ، وأمر الله رسوله ﷺ بأن يستمر مستسلما لربه ، وأن يداوم على قراءة القرآن الكريم ، والكون كله لله ، وله وحده الأمر ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإن ربه بكل شئ عليم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

عوامل النجاح والفوز

يأمر الله رسوله فى نهاية سورة "النمل" بخلاصة واضحة تحدد طريق النجاح والفوز فى الآخرة ، وأهم هذه الملامح ما يلى :

أولاً : العبادة الدائمة لله التي تستغرق الجسد والعقل ، والروح والوجدان وتربط العبد الخاشع بسيده العزيز الرحيم .
 ثانياً : التلاوة الدائمة لكتاب الله تعالى ليفهما التالى للمعانى ، ويسارع إلى التطبيق .

ثالثاً : تسليم الأمر لله فبيده كل أمر ، وهو على كل شئ قدير .
 رابعاً : تحمل المسؤولية ، والعلم بأن كل إنسان سينال ما قدمت يداه .
 خامساً : التأمل فى الآيات ، فهى ظاهرة بينة لكل عاقل .
 سادساً : اليقين بعلم الله المحيط ، فهو سبحانه الخبير المحيط ، لا يغفل ولا ينسى ، وعلمه شامل محيط . يقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ^ط مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا^ط ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ^ع إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^(١) .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "النمل" بتوفيق الله تعالى .

(١) سورة المجادلة ، الآية ٧ .

التعريف
بسورة "القصص"

(٦٧٤)

التعريف بسورة "القصص"

يحتاج التعريف بسورة "القصص" إلى دراسة المباحث التالية :

- أولا -

تنزيلات السورة

ذهب جمهور المفسرين من التابعين إلى أن سورة "القصص" كلها مكية نزلت قبل الهجرة ، ويرون أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ^(١) نزلت أثناء الهجرة ورسول الله ﷺ في الجحفة في طريقه إلى المدينة ... فعن يحيى بن سلام رحمته الله أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ بالجحفة وهو متوجه من مكة إلى المدينة .

وقال لرسول الله : أتشتاق يا محمد إلى بلدك التي ولدت فيها ؟ قال ﷺ : نعم ... فنزلت الآية ^(٢) .

وعن ابن عباس ومقاتل رضى الله عنهما أن آيات أربعة من السورة مدنية وهى : ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٣) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنََّّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ ^(٤) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ^(٥) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ

(١) سورة القصص ، الآية ٨٥ .

(٢) تفسير الألوسى ج ٢٠ ص ٤١ .

(٦٧٦)

سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿١﴾ ويبينون أن هذه الآيات تكلمت عن من أسلم من أهل الكتاب ، وهؤلاء لم يكونوا إلا في المدينة^(٢) .
ويمكن تفسير ما ذهبوا إليه بأن حديث القرآن المكي عن أهل الكتاب هو حديث متصل ببعض من وجد في مكة قبل الهجرة ، وقد أسلم بعضهم قبل الهجرة أيضا ... ويمكن فهم هذه الأخبار على أنها أخبار عن المستقبل وهذا لا يمنع نزولها في مكة قبل الهجرة .
وقد نزلت سورة "القصص" بعد سورة "النمل" ، وعدد آياتها ثمان وثمانون آية بالاتفاق .

- ثانيا -

اسم السورة

تسمى السورة باسم واحد هو سورة "القصص" وهو اللفظ الوارد في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾^(٣) .

فلقد قص موسى ﷺ قصصه كله على شعيب حين وصل إليه فطمأنه وبهذا الاسم سميت السورة .

فإن قيل : ورد اسم "القصص" في سورة "يوسف" فلم لم تسم سورة "يوسف" باسم "القصص" ؟

(١) سورة القصص ، الآيات ٥٢ . ٥٥ .

(٢) التحرير والتتوير ج ٢٠ ص ٦٠ .

(٣) سورة القصص ، الآية ٢٥ .

(٦٧٧)

أقول : أسماء السور توقيفى ، وقد نزلت سورة "القصص" قبل سورة "يوسف" فسميت باسمها ، وصار من الضرورى تسمية سورة "يوسف" باسم آخر

- ثالثا -

صلة سورة "القصص" بسورة "النمل"

تتصل سورة "القصص" بسورة "النمل" بأوجه عديدة ... أهمها :

الوجه الأول :

قال الله تعالى فى آخر سورة "النمل" : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ^(١) فأمر الله رسوله بحمده ، وعرف أنه سبحانه وتعالى سيريه وأصحابه آياته وسيعرفونها ، ويقرون بها ، وجاءت سورة "القصص" تفسر هذه الآيات بمعجزات الله المنزلة على رسول الله ﷺ من خلال كتابه الكريم المشتمل على آيات الله البينة ، وهو أعظم المعجزات إلى رسول الله باستمرار حفظه ، وتجدد إعجازه ، وبقائه مع الناس يتلى عليهم .

الوجه الثانى :

تعد سورة "القصص" تفصيلا لما ورد مجملا فى سورة "النمل" و "الشعراء" ، فلقد أشارت سورة "الشعراء" إلى قول فرعون : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ^(٢) وأشارت سورة "النمل" إلى حاجته إلى النار مع زوجته حين عودته إلى مصر ، وهى قوله تعالى : ﴿ إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا خَيْرٌ أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ

(١) سورة النمل ، الآية ٩٣ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٢١ .

تَصْطَلُونَ ﴿١﴾ ... فلما ذكرت السورتان هذا الإجمال جاءت سورة "القصص" بتفصيل هذا الإجمال .

فبدأ عز وجل بشرح تربية فرعون له ، مبينا سببه من قيام فرعون بذبح أبناء بنى إسرائيل الموجب لإلقاء موسى عليه السلام عند ولادته في اليم ، خوفا عليه من الذبح .

وبسطت سورة "القصص" في تربية موسى وما وقع فيها ، إلى كبره ، إلى السبب الذي من أجله قتل القبطي التي فر بعدها إلى مدين ، إلى ما وقع له مع شعيب عليه السلام وتزوجه بابنته ، إلى أن سار بأهله وأنس من جانب الطور نارا ، فقال : ﴿ لِأَهْلِهِ أَمْكُثُوا إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا ﴾ (٢) إلى ما وقع له فيها من المناجاة لربه جل جلاله وما استتبع ذلك إلى آخر القصة فكانت هذه السورة شارحة لما أجمل في السورتين معا على الترتيب .

الوجه الثالث :

إن بعض آيات سورة القصص جاء تأكيدا لبعض ما جاء في سورة "النمل" . ففي سورة "النمل" جاء قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

(١) سورة النمل ، الآية ٧ .

(٢) سورة القصص ، الآية ٢٩ .

(٣) سورة النمل ، الآية ٨٩ ، ٩٠ .

وفى سورة "القصص" جاء قوله تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ^ط وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(١) .

الوجه الرابع :

أن سورة "النمل" فصلت فى هلاك قوم صالح ، وقوم لوط ، وجاءت سورة "القصص" بإجمال هلاك الأمم السابقة فى قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ^ط فَتِلْكَ مَسَكِنُهُمْ لَمَّا تُوَسَّكِنَ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ^ط وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ ^(٢) .

الوجه الخامس :

أن سورة "النمل" تحدثت عن يوم القيامة فى آيتين هما قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ^ع وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ^ع صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ ^ع إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ ^(٣) وجاء الحديث فى سورة "القصص" عن يوم القيامة متصلا فى الآيات من رقم (٦٢) حتى الآية (٧٠) .

(١) سورة القصص ، الآية ٨٤ .

(٢) سورة القصص ، الآية ٥٨ .

(٣) سورة القصص ، الآية ٥٨ .

(٦٨٠)

- رابعا -

موضوعات السورة

سورة "القصص" سورة مكية تدور موضوعاتها حول موضوعات السور المكية حيث تقدم العقيدة ، وتوضح أركانها ، وأدلتها بطرق شتى .
وقد تميزت سورة "القصص" بعدد من المزايا دون سائر السور المكية ،
وأهم هذه المزايا ما يلي :

أولا :

البدء والانتهاؤ بقصة تفصيلية تشرح جانبا من جوانب العقيدة ، وهذا لم يحدث فى سورة أخرى ، ففي سورتي "الشعراء" و "النمل" وهما سورتان مكيّتان نجدهما بدأتا بمقدمة قبل القصص ، وختمتا بحديث عن العقيدة بعد انتهاء القصص ... بخلاف سورة "القصص" ، فقد جعلت أحاديثها عن العقيدة بين القصتين الواردتين فى البداية والختام .

ثانيا :

وردت أحداث قصة موسى عليه السلام مغايرة فى أحداثها لكل قصص القرآن عن موسى عليه السلام ، لأنها تحدثت عن البيئة التى ولد فيها موسى ، حيث قوة فرعون وجبروته ، وتحدثت عن ولادة موسى ، ونشأته فى بيت فرعون ، وقراره إلى مدين ، وقصة زواجه وعودته إلى مصر ... وهذا القدر من قصة موسى عليه السلام لم يأت فى سورة أخرى .

ثالثا :

توضح القصة التى جاءت فى ختام السورة قصة قارون الذى غرته الدنيا بما لها فطغى وبغى ، وخرج على موسى عليه السلام وهو قريبه معتمدا على قوة العلم والمال .

(٦٨١)

المال الذي يستخف القوم وقد خرج عليهم قارون في زينته ، وهم يعلمون أنه أوتي من المال ما إن مفاتحه لتعبي العصابة من الرجال الأقوياء . والعلم الذي يعتز به قارون ، ويحسب أنه بسببه وعن طريقه أوتي ذلك المال ولكن الذين أوتوا العلم الصحيح من قومه لا تستخفهم خزائنه ، ولا تغرهم زينته بل يتطلعون إلى ثواب الله ، ويعلمون أنه خير وأبقى . ثم تتدخل يد الله فتخسف به وبداره الأرض ، لا يغنى عنه ماله ولا يغني عنه علمه .

رابعا :

تبين قصتنا البدء والختام في سورة "القصص" أن عداوة الإيمان كفر وضلال لا يفرق بين القريب والغريب ففرعون كان عدوا لبنى إسرائيل ، وقارون كان من قوم موسى ، ومع ذلك تلاقيا في عداوة الحق ، والاعتزاز بالدنيا فحسف الله بقارون الأرض ، وأغرق فرعون وجنوده في اليم .

خامسا :

إن سبب الكفر هو الغرور والكبرياء ، وحب اللهو والعبث إلا أن ذلك لا يدوم لصاحبه فقد قضى الله بفجر ينتهي عنده ظلام الليل ، وقدر أن لا يستمر الظلم بين الناس بصورة دائمة ، وعرف الناس أن الأمن يكمن في جوار الله ، والخير يكون في اتباع دين الله تعالى .

== خامسا ==

منهجية الدعوة إلى الله تعالى

في سورة "القصص"

تقدم السورة في جملتها قضية محورية ظهرت في كل محاور السورة هذه القضية هي (الدين أساس الحياة) .

إن الدين بصورة عامة ، والإسلام بصورة خاصة هو دين الله تعالى ، أنزله على المرسلين لتسير الدنيا كلها على منهج الله تعالى ، وليعلم الإنسان فى كل عصر ، وفى كل مصر ، وفى كل حالة أنه عبد لله تعالى ، أمره بيد سيده العظيم ، وواجبه تحقيق العبودية فى ذاته ، وعقله ، وسلوكه .

إن الله هو الخالق ، وهو المتصرف ، وكل شئ بيده ، خلق الموت والحياة ، قدر ، وهدى ، وجعل لكل مخلوق طاقته ، وحدد دوره لتسير الحياة متوازنة إلى مثواها ومستقرها .

وتبدأ السورة من أولها فى بيان قدرة الله تعالى المتحكمة فى الوجود كله فتبين علو فرعون ، وكبريائه الذى لم يجد شيئاً أمام قدر الله الذى قضى بأن يقوم فرعون نفسه بتربية من سيقضى عليه ، ويجعل فى سبب الموت النجاة ، ويعيد موسى الهارب من مصر رسولا إليها ، ويحول سحرة فرعون إلى مؤمنين بالله تعالى فى لحظة فارقة ، فبعد أن كانوا يحلفون بعزة فرعون صاروا يقولون ما حكاه الله عنهم : ﴿ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَبَقِي ۝ ^(١) .

وتمضى السورة فى تقديم هذه الحقيقة إلى أن تنتهى إلى ما كان من قارون من غرور ، وكبرياء ، وكفر حتى أهلكه الله ودمره لقول الله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ۝ ^(٢) .

إن قدرة الله تحكم كونه ، وتصرفه ... والأمر هو هو على الزمن كله .

(١) سورة طه ، الآية ٧٣ .

(٢) سورة القصص ، الآية ٨١ .

سورة "القصص"

التفسير

(٦٨٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٨٥)

بيان القرآن الكريم

يقول الله تعالى :

﴿ طَسَمَ ۖ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان ما فى القرآن الكريم من إعجاز ، وإرشاد ، وتوضح ما فيه من البيان المنزل فى كتاب الله الكريم .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ طَسَمَ ﴾ هذه حروف مقطعة ، تقرأ حرفا حرفا (ط ، س ، م) ، وبها يثبت إعجاز القرآن الكريم ، وتتيقظ العقول والافئدة لسماع القرآن الكريم وفيها من الأسرار ما لا يعلمه إلا الله تعالى .

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ الإشارة إلى آيات القرآن الكريم التى

نزلت أو إلى آيات القرآن الكريم كله لبيان رفعتها ، وعلوها ، وبيانها المفصل لكل ما تحدثت عنه حتى صار القرآن الكريم بهذه المزايا هو الكتاب المنزل الجدير باسمه فقد فاق كل الكتب غيره .

- ٣ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن القرآن الكريم كتاب الله المنزل المعجز المشتمل على البيان العظيم فى مبناه ومعناه ، وهو الجدير بالحفظ والاتباع .

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هي :

جوانب العظمة في القرآن الكريم

تؤكد السور المكية في بدايتها أهمية القرآن الكريم ، وبيان ما فيه من عظمة وبراهين ، وهداية ، وتعريف بطريق الفلاح والسعادة في الدنيا والاخرة ... وفي كلمات قليلة جامعة تبين الآيتان جوانب العظمة في القرآن الكريم ... وأهمها :

أولاً : إنه كتاب معجز بلفظه ومعناه ، فبرغم أنه مؤلف من حروف هي نفس الحروف الهجائية التي يتكلم بها العرب فإن الإنس والجن ، والعرب والعجم لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ما استطاعوا ، يقول الله تعالى لتأكيد هذه الحقيقة : ﴿ قُلْ لِّإِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾^(١) وقد ثبت هذا الإعجاز في حياة النبي ﷺ وهو إعجاز خالد إلى يوم القيامة .

ثانياً : إنه الكتاب الذي شهد له أعداؤه بالعلو ، والعظمة ، وأشاروا إلى ما فيه من حلاوة اللفظ ، وجمال النظم ، ودقة التوجيه ، وتناسبه مع طاقات وقدرات المكلفين . قال الناس عنه : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه" ... وقال الجن عنه : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾^(٢) ، وقالوا أيضا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٨ .

(٢) سورة الجنة ، الآية ١ ، ٢ .

كِتَبًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ^(١) .

ثالثا : إن كتاب مؤلف من آيات عدة ، كل آية فيه تمثل برهانا ، وحجة على صدق مضمونها ، وتمكنها من قلوب سامعيها وتاليها ، ولذلك جازت الإشارة إليها آية آية بما يفيد علوها ورفعتها ، ولو كانت كلمة واحدة مثل قوله تعالى : ﴿ مُدْهَامَتَانِ ﴾^(٢) و ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾^(٣) فإنها كلمات مفردة تدل على ما أسند إليها واتصف بها ، ولذلك كانت دلالاتها جامعة لكثير من المعاني وكانت آية من آيات القرآن الكريم .

رابعا : إنه الكتاب الإلهي الجدير بالهيمنة على كل الكتب المنزلة ، فقد ختم الله به الكتب ، وأودع فيه من أخبار السابقين ما يجلى الحقيقة ، وينفى الزيف والدخيل ، ويشمل كل كمال يليق بكتاب الله تعالى :

– فهو يعرف بالله تعالى ، ويفصل في كمال صفاته الواجبة ، وينزهه سبحانه وتعالى عن كل نقص ، حيث لا شريك ، ولا ند ، ولا مثل له ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^(٤) ويؤكد أن العبادة له وحده ، وأن عبادة الأصنام شرك وكفر بالله تعالى .

– وهو يقدم رسل الله تعالى في صورتهم الحقيقية فهم عباد الله ، اصطفاهم الله للرسالة ، ونزههم عن الخصال الرديئة ، وأكرمهم بالخلق النبيل ، ورفعهم عن السوءات التي ألصقها المشركون بهم .

(١) سورة الأحقاف ، الآية ٣٠ .

(٢) سورة الرحمن ، الآية ٦٤ .

(٣) سورة الرحمن ، الآية ٤٨ .

(٤) سورة الشورى ، الآية ١١ .

- وهو الصدق المطابق للواقع ، خلا من الخيال الكاذب ، والأساطير المزعومة ، وقد حفظه الله على نحو ما أنزله .
- وهو الدستور الأساسى لدين الله ، وهو المرجع الأوفى ، وهو الهادى المرشد إلى سواء السبيل .
- وهو الكتاب المحافظ على القيم ، المقدر لدور الرسل ، الموضح لدين الله تعالى عقيدة ، وشريعة ، وخلقا .
- خامسا :** إنه الكتاب المبين الموضع لكل ما تكلم عنه ، فهو مبين لأحداث الماضى ، وأخبار الرسل ، وأنباء الأمم ، مركزا على مناط الأسوة ، وأساسيات الاعتبار والعظة .
- وهو المبين لطبيعة الناس ، ومناهج التأثير فيهم ، والخطاب الحسن لسائر طوائف الناس ، وهو المبين لدين الله تعالى بكافة عناصره .
- وهو المبين للمستقبل فى الدنيا وفى الآخرة .
- وهو المبين لمشاهد يوم القيامة بأهواله ، وجنته ، وناره .
- والحمد له فهو الكتاب المنزل على محمد ﷺ وفيه ما فيه من الآيات ، والذكر الحكيم .
- وكل هذه القضايا بعض من مزايا القرآن الكريم التى توجه بمجموعها الدعاة ليحولوا هذه المزايا إلى أبحاث ودراسات ينشرونها بين الناس .

(٦٨٩)

قصة "موسى" ﷺ فى سورة "القصص"

عرضت سورة "القصص" قصة موسى ﷺ بصورة مطولة استغرقت الآيات من الآية رقم (٣) إلى الآية رقم (٤٣) ، وقد تناولت السورة قصة موسى من بدايتها فوضحت الحالة العامة التى كان عليها الإسرائيليون فى مصر قبل ولادة موسى ، وتكلمت عن ولادته ، ونجاته ، وتربيته فى قصر فرعون ، وفراره من مصر إلى أن يعود إليها ﷺ رسولا إلى فرعون وقومه وإلى الإسرائيليين . ونظرا لطول القصة فإنى سأوردها فى مواقف متتابعة كما تحدثت عنها السورة ، مكثفيا بالجوانب التى وضحتها السورة ، تاركا بعض الجوانب التى سكنت السورة عنها .

إن آيات السورة لم تتحدث عن المدة التى مكثها عند أمه رضيعا بعد ولادته ، ولم تتحدث عن صلة أمه بفرعون بعد أن أعادت إليه موسى ... ولم تتحدث الآيات عن كيفية تربية وحماية موسى وهو عند فرعون . ولما ذهب إلى مدين لم تتحدث السورة عن المدة التى مكثها عند شعيب وعن ماهية زوجته أهى الكبرى أم الصغرى ؟ ... وطوت السورة الحديث عن رحلة العودة من طور سيناء إلى مصر . وهذا هو طريق القرآن الكريم فى قصصه ، ورواية أحداث الأمم السابقة حيث يتخير منها ما له فائدة فى الدعوة إلى الله تعالى ، ويوضحه ، ويسكت عما سوى ذلك .

وقد استغرق الحديث عن قصة موسى ﷺ عددا من المراحل بينت كل مرحلة من خلال دلالة آياتها ، وأوردت كل مرحلة فى مواقف متعددة متتابعة ... وهى :

(٦٩٠)

الموقف الأول ، وفيه بينت الحالة العامة قبل ولادة موسى عليه السلام حيث وضع فرعون سياسة اضطهاد الإسرائيليين ، وذبح الذكور ، واستحياء الإناث . وتوضح هذا الموقف الحالة العامة قبيل أحداث القصة .

الموقف الثانى ، وقد تضمن ولادة موسى عليه السلام وسط حذر وخوف أمه عليه ، وقد ألهمها الله ما تفعله حين تخاف عليه ، وقد أطاعت أم موسى ما ألهمها الله به برغم أن ظاهر الأمر يؤدي إلى موته ، وهلاكه .

الموقف الثالث ، وفيه بيان كيفية استقبال فرعون وزوجته لهذا الرضيع الملتقط ، وقد حبب الله قلوبهم فيه ، فاهتموا به ، وبتربيته حتى صار شابا رشيدا .

الموقف الرابع ، وهو يتضمن تفاصيل رجوعه إلى أمه ، وقيامها بإرضاعه ، واهتمام فرعون بنفقتها مع نفقة رضيعها .

الموقف الخامس ، وفيه تفاصيل قتل موسى عليه السلام للمصرى بعد أن استغاث به الإسرائيلى ، وقد وحدث هذا القتل بوكزة من موسى عليه السلام ما كان لمثلها أن يقتل ، وقد استغفر موسى ربه من هذا فغفر الله له .

الموقف السادس ، وفيه بيان هروب موسى من مصر ، وخروجه منها خائفا يترقب ، داعيا الله أن يلهمه الخشوع ، ويهديه سواء السبيل ، وقد استجاب الله فوصل إلى مدين ، وأمن مخاوف الطريق .

الموقف السابع ، وفيه يظهر خلق موسى عليه السلام ، ويظهر تميزه بالقوة والأمانة ، وحب الخير للآخرين بعدما ساعد بنات شعيب فى سقى الغنم .

الموقف الثامن ، وفيه بيان زواج موسى عليه السلام بابنة شعيب ، وعودته إلى مصر بأهله .

الموقف التاسع ، ويتضمن تكليف موسى عليه السلام بالرسالة ، وعودته بأهله إلى مصر ، وتدريبه على معجزات الرسالة ، وإرسال هارون عليه السلام معه كطبله .

الموقف العاشر ، ويتضمن إيمان السحرة ، وازدياد عتو فرعون إلى أن أهلكه الله وجنوده غرقا في اليم .

الموقف الحادي عشر ، ويتضمن قيام موسى بدعوة بنى إسرائيل ، وإنزال التوراة عليه ليكون هداية ورحمة لقوم يذكرون .

وتعاود السورة أنباءها في ختامها فتعرض لونا آخر من الشرك والظلم البادى فى قصة "قارون" وكبريائه ، وغروره ، وكفره بالله ، وفصلت السورة قصة "قارون" عن قصة "فرعون" لأن قارون كان من قوم موسى عليه السلام ، ولم تنتفعه قرابته ، ولم ينتفع بها ، وأيضا فإن قارون أصابه غرور المال والعلم ، فنسى ربه ، وتصور أن قدرته هى التى حققت له ما هو فيه ، وتفصيل قصة قارون لم تأت فى سورة أخرى غير سورة القصص .

وتقدم سورة "القصص" نموذجا واضحا لانتصار الحق ، وإن ضعف صاحبه ، وقهر الظلم ، والطغيان والجبروت مهما علا شأن من قام به .

لقد ولد موسى عليه السلام وسط ضعف منع أمه من الإعلان عنه ، وألقتة فى اليوم بعيدا عن أعين الطغيان ، وإذا بهذا الوليد يقضى على سلطان فرعون ، ويقهر طغيانه الكبير .

وسوف أقوم بعون الله تعالى بتفسير قصة موسى عليه السلام وفق مواقف ورودها فى السورة ، وذلك فيما يلى :

الموقف الأول

اضطهاد فرعون للإسرائيليين

قبل ولادة "موسى" عليه السلام

يقول الله تعالى :

﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾
 إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ
 أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ
 عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَوْيَةً وَيَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ ﴿٢﴾
 وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَحْذَرُونَ ﴿٣﴾ .

تفصيل الموقف الأول
من خلال دلالة الآيات

﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾
 الخطاب في الآية لرسول الله ﷺ وفيه يبين الله له أن جبريل عليه السلام سيقراً عليك
 الآيات كما سمعها من الله تعالى ، حيث يقص جبريل عليك الأنباء الهامة
 الخطيرة ، من أخبار موسى عليه السلام وفرعون كما حدثت ليستفيد بها المؤمنون ،
 فهم الذين يصدقون كل ما يأتيهم من الله تعالى ، وهم القدوة لغيرهم من الناس .
 والتلاوة تفيد أن جبريل سيقري محمداً كلاماً مكتوباً ، ومحفوظاً ومنزلاً
 من اللوح المحفوظ ، وأن جبريل سيقراه عليك يا محمد كما سمعه من الله تعالى .

و ﴿ مِنْ ﴾ للتبغيض لإفادة أن الأنباء المتلوة هي بعض أنباء موسى وفرعون لأن القرآن الكريم فى قصه يأتى بالأحداث المفيدة ويترك ما لا فائدة فى ذكره .

و ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ جار ومجرور متعلق بالحق أى محقين فى تلاوته لأهمية نزولها فى القرآن الكريم ... أو هى متعلقة بمحذوف فى موضع الحال أى أن النبأ متلبسا بالحق والصدق بعيدا عن أى تأليف أو خيال .

وقوله تعالى : ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يفيد غاية تلاوة الأنباء ، ونزولها فى القرآن الكريم بصورة عامة ، وهى أن يستفيد بها المؤمنون ابتداء لأنها تزيدهم علما ، وتعرفهم بعظمة ربهم ، وتهديهم لمحاسن العمل والخلق ، وتبعدهم عن أى سوء دمر الأمم الماضية ، وتفتح طريق الهداية لغير المؤمنين ليقتدوا بالمؤمنين ويكونوا مثلهم .

وهذه الأنباء نزلت للناس جميعا إلا أن الذين يستفيدون بها هم المؤمنون المصدقون كلام ربهم ، ولذلك خصهم بالذكر ليققاد بهم غيرهم من الناس ، وربط الآيات بالتلاوة على رسول الله ﷺ بيان لمنهج انتقال القرآن الكريم من مصدره إلى متلقيه ، فلقد تلقاه جبريل عليه السلام من الله ، وألقاه على رسوله مرتلا مجودا ، وتلقاه الصحابة من رسول الله وهكذا يستمر انتقال القرآن الكريم من جيل إلى جيل إلى قيام الساعة يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾^(١) .

وبعد هذه المقدمة الموجزة ، السريعة تأخذ الآيات فى تفصيل فساد فرعون ، وظلمه للإسرائيليين .

(١) سورة النمل ، الآية ٦ .

وأهم مظاهر فساد فرعون هي:

(١) علو فرعون في الأرض :

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى إن فرعون تجبر واستكبر في مصر ، وقهر أهلها ، وجاوز الغاية في الظلم والعدوان ، والمقصود بالأرض أرض مصر .
والعلو نوعان . نوع مذموم وهو الكبر الذى يشعر فيه صاحبه بالتفوق بغير حق ، ويتصور نفسه على غير ما هو عليه ، فلقد كان فرعون يتصور نفسه إلها .

ونوع ممدوح وهو الشعور بالتفوق والريادة ، ولا يستقيم نظام الجماعة إلا به كإمامة العالم ، وقيادة الجند .

(٢) التفريق بين الناس :

يقول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أى إن فرعون حول المصريين والإسرائيليين إلى شيع وأحزاب متعددة ومختلفة ، وأغرى بينهم العداوة والبغضاء حتى لا يجتمعوا على أمر واحد ، وبذلك تسارعوا إليه منافقين كل يتمنى رضاه وماله .

وتلك هى سياسة الطغاة دائما لأنهم لن يسودوا الناس إلا إذا فرقوا بينهم لعلمهم أن التقاء الناس وتجمعهم سيظهر الخبث ، ويجمع بين أصحاب القيم والمبادئ الطيبة .

(٣) اضطهاد الضعفاء :

يقول الله تعالى : ﴿ يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ أى إنه جعل جماعة من رعيته أذلاء ، وسخرهم في أعمال حقيرة شاقة بلا أجر ، أو حقوق .

وهذه الطائفة هي بنو إسرائيل ، وكان فرعون قد سخرهم فى أعمال شاقة فكلف جماعة فى الحفر ، وجماعة أخرى فى البناء ، وثالثة فى حمل الأثقال وغير ذلك من الحرف الممتنة ... ومن لم يستخدمه ضرب عليه الجزية .
وذكر استضعاف الطائفة يبين أن الاستضعاف كان موجها لفريق كامل وليس على أشخاص معينين .

(٤) قتل ذكور الإسرائيليين واستحياء بناتهم :

يقول الله تعالى : ﴿ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ ﴾ روى السدى أن فرعون رأى فى منامه أن نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتغلت على بيوت مصر ، فأحرقت القبط ، وتركت بنى إسرائيل ، فسأل علماء قومه ، فأخبره الكهنة أنه سيخرج من هذا البلد رجل يكون هلاك مصر على يديه ، فأخذ يفعل ما قص علينا الكتاب الكريم^(١) .
لما سمع فرعون تعبير رؤياه أمر بذبح أبناء الإسرائيليين عند الولادة ، وترك النساء أحياء ، وبث العيون والجواسيس ، فكان كلما ولدت إسرائيلية مولودا ذكرا ذبحوه ، وإذا ولدت أنثى تركوها .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى إن أفعال فرعون المذكورة تدل على شدة ظلمه ، وعمق إفساده ، وعظم ضرره وخطورته .
جاء فى "التحرير والتنوير" أن أفعال فرعون اشتملت على مفاصد كبيرة أشاعت بين الناس الخوف والفزع ، ونشرت النفاق والكذب ، وسوء الأفعال وبين عددا من هذه المفاصد المترتبة على أعمال فرعون التى أقام عليها سلطانه ، ودولته .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ١٦٥ .

وأهم هذه المفاصد ما يلي :

المفسدة الأولى : ظهر فرعون بالتكبر والتجبر وتلك مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفاصد جمة ، من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم ، وسوء معاشرتهم ، وبث عداوته فيهم ، وسوء ظنه بهم ، فإذا انضم إلى ذلك أنه ولى أمرهم ، وراعيهم كانت صفة الكبر مقتضية سوء رعايته لهم ، والاجترأ على دحض حقوقهم ، وأن يرمقهم بعين الاحتقار ، وأن يبتز منافعهم لنفسه ، ويسخر من استطاع منهم لخدمة أغراضه ، وأن لا يلين لهم فى سياسة فيعاملهم بالغلظة وفى ذلك بث الرعب فى نفوسهم من بطشه وجبروته .

المفسدة الثانية : جعل فرعون أهل المملكة شيعا ، وفرقهم أقساما ، وجعل بعضهم بصد ذلك ، وذلك فساد فى الأمة لأنه يثير بينها التحاسد والتباغض ، ويجعل بعضها يترىص الدوائر ببعض ، فتكون الفرق المحظوظة عنده متطاوله على الفرق الأخرى ، وتكدح الفرق الأخرى لتزحزح المحظوظين عن حظوتهم ، بإلقاء النميمة ، والوشايات الكاذبة ليحلوا محل الآخرين . وهكذا يذهب الزمان فى مكائد بعضهم لبعض فيكون بعضهم لبعض فتنة .

المفسدة الثالثة : أنه يستضعف طائفة من أهل مملكته فيجعلها محقرة مهضومة الجانب ، لا مساواة بينها وبين فرق أخرى ، ولا عدل فى معاملتها بما يعامل به الفرق الأخرى ، فى حين أن لها من الحق فى الأرض ما غيرها لأن الأرض لأهلها وسكانها الذين استوطنوها ونشأوا فيها .

من أجل ذلك الاستضعاف المنوط بالعنصرية أجرى شدته على أفراد تلك الطائفة دون تمييز بين مستحق وغيره ولم يراع غير النوعية من ذكورة وأنوثة .

المفسدة الرابعة : إن فرعون كان يأمر جنوده بذبح أبناء الإسرائيليين ، والمراد بالأبناء الذكور من الأطفال ، وقصده من ذلك أن لا تكون لبنى إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم حتى يكون النفوذ فى الأرض لقومه خاصة .

المفسدة الخامسة : أنه يستحيى النساء ، أى يستبقى حياة الإناث من الأطفال ، فأطلق عليهم اسم النساء باعتبار المآل إيماء إلى أنه يستحييهن ليصرن نساء ، يصلحن لما تصلح له النساء ، وهو أن يصرن بغايا إذ ليس لهن أزواج . واذ كان احتقارهن بصد قومه عن التزوج بهن فلم يبق لهن حظ من رجال القوم إلا قضاء الشهوة ، وباعتبار هذا المقصد انقلب الاستحياء مفسدة بمنزلة تذبيح الأبناء إذ كل ذلك اعتداء على الحق^(١) .

﴿ وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى ويريد

الله أن يتفضل على هؤلاء المستضعفين الذين استذلهم فرعون فى أرض مصر ، وينجيهم من بأسه ... واردة الله نافذة ، لأنه . سبحانه . إذا أراد شيئا قال له كن فيكون ، وبذلك يتحول الإسرائيليون بإرادة الله من ضعف إلى قوة ، ومن ذل إلى انتصار وعلو .

﴿ وَنَجْعَلُهُمْ أُيُمَةً ﴾ أى ونجعل من هؤلاء المستذلين أئمة يقتدى بهم فى

الدين والدنيا .

﴿ وَنَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ أى نجعلهم الذين يرثون أرض بيت المقدس

كما وعدهم الله .

﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى ونجعلهم قادة وملوكا على الناس فى

أرض الشام بعد خروجهم إليها ، وهو ما حدث لهم ، ولا يصح القول بتمكنهم فى أرض مصر ، لأنهم خرجوا منها فارين ليلا مع موسى عليه السلام .

(١) التحرير التتوير ج ٢٠ ص ٦٨ بتصرف .

﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا

تَحْذَرُونَ ﴾ ويريد الله أن يرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون من

ذهاب ملكهم ، وضياح سلطانهم على يد غلام يولد في بني إسرائيل .

وهذه المقدمة للقصة توضح الجو الذي دارت فيه القصة ، وما حدث خلالها من صراع ، وتسابق ، وتشير إلى أحداثها الكبرى في إيجاز سريع شامل ...

إنها مقدمة تعلن واقع الحال ، وما هو مقدر في المآل . لعرض القوتين وجها لوجه :

قوة فرعون المنتفشة المنتفخة التي تبدو للناس قادرة على الكثير .

وقوة الله الحقيقة الهائلة التي تتهاوى دونها القوى الظاهرية الهزيلة التي

ترهب الناس !

وترسم الآيات بهذه المقدمة مسرح القصة قبل أن يبدأ في ذكرها . والقلوب

معلقة بأحداثها ومجرياتها ، وما ستنتهي إليه ، وكيف تصل إلى تلك النهاية التي أعلنتها قبل البدء في عرضها .

الموقف الثانى

ولادة "موسى" ﷺ وتبشير أمه بنجاته

يقول الله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَاهُ فِي الْقِيَمِ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِ ۗ إِنَّا رَأَيْنَاهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

تفصيل الموقف الثانى

من خلال دلالة الآية

ولد موسى ﷺ فى جو ملئ بالخوف والفرع بين الإسرائيليين ، وتكتم أمه خبر ولادته ، وتسعى الجواسيس للكشف عن هذا الوليد من بنى إسرائيل ، ويحاول جيرانها المصريون الوصول إلى خبر هذا المولود الجديد . تعيش أم موسى حائرة ، مضطربة تخشى أن يصل نبؤه إلى الجلادين ، وترجف أن تتناول عنقه السكين . وها هى ذى بطفلها الصغير فى قلب المخافة عاجزة عن حمايته ، عاجزة عن إخفائه ، عاجزة عن حجز صوته الفطرى أن ينم عليه ، عاجزة عن تلقينه حيلة أو وسيلة ... ها هى ذى وحدها ضعيفة عاجزة مسكينة .

فى هذا الجو المشحون ينزل القدر الحاسم الذى يعرفنا الله به ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ أى وألهمنا أم موسى لتقوم بإرضاعه وهى مطمئنة عليه ، فهو فى رعاية ربه ، وحفظه ، وبذلك يهدأ خاطرها ، وترضى بما يقدره الله لها ولولدها ، وليكون لبنها شافيا نافعا لرضيعها ، وتستمر فى إرضاعه ما أمكنها .

(٧٠٠)

﴿ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ ﴾ أى أوحى الله إلى أم موسى أن ترضعه ، وقال لها : إن خفت وأنت ترضعيه ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ أى ارميه فى البحر وهو نهر النيل المحاور لبيتها ، والممتد مجراه إلى قصر فرعون .

﴿ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِ ﴾ أى لا تخافى من إلقاءه فى الماء لأنه سيكون فى رعاية الله الذى لا أمن إلا فى جواره ... ولا تقترب مخاوف الدنيا كلها إلى من حماه . فقد حمى الله إبراهيم عليه السلام من النار ، وحمى نوحا عليه السلام من الغرق ، وها هى تحمى موسى من فرعون وملاؤه .
وقد أمرها الوحي بعدم الخوف على حياة موسى فهو فى رعاية الله ...
وعدم الحزن على فراقه لأنه لن يطول .

﴿ إِنَّا رَأَدُّوهُ إِلَيْكَ ﴾ أى لا تحزنى على فراقه لأننا سنرده إليك لتعيشى معه ، ويعيش معك .

﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى إن موسى عليه السلام سيكونه الله بالرسالة ، ويبعثه إلى المصريين ، وإلى بنى إسرائيل .
وهذه بشرى لأم موسى ، ووعد الله لا يتخلف .

(٧٠١)

الموقف الثالث

وصول "موسى" ﷺ إلى بيت فرعون

يقول الله تعالى :

﴿ فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَمْنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ ١
لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ .

تفصيل الموقف الثالث

من خلال دلالة الآيتين

وسارت المياه بالصندوق الذى وضع فيه موسى ، واتجهت إلى قصر فرعون ، واشتد خوف أم موسى على ولدها ... وتساءلت :
- أتسلمه بنفسها إلى فرعون بلا واسطة ؟
- وهل كانت تخاف على موسى من غير فرعون وآله ؟
ولكنها تماسكت ، وأملت فى وعد الله لها (١) .

(١) يحكى الألوسى في تفسيره قصة نجاه موسى ﷺ من فرعون فيقول : روى أن أم موسى لما ضربها الطلق دعت قابلة من الموكلات بحبالى بني إسرائيل ، فعالجتها ، فلما وقع موسى ﷺ على الأرض هالها نور بين عينيه ، وارتعش كل مفصل منها ، ودخل حبه قلبها بحيث منعها من السعاية فقالت لأمه : احفظيه ، فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته في خرقة وألفته في تتور مسجور لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها ، فطلبوا فلم يجدوا شيئاً فخرجوا وهي لا تدري مكانه ، فسمعت بكاءه من التتور فانطلقت إليه ، وقد جعل الله تعالى النار عليه بردا وسلاما فأخذته ، فلما ألح فرعون في طلب الولدان واجتهدت العيون في تفحصها أوحى الله تعالى إليها ما أوحى ، وأرضعته مدة ، فلما خافت عليه عمدت إلى بردي فصنعت منه تابوتا أى صندوقاً فطلته بالقار من داخله . ==

﴿ فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾ الفاء فاء الفصيحة لأنها تنبئ عن كلام

محذوف تقديره فألقته أمه في النهر ، وتحرك به الماء إلى قصر فرعون ، وعلق الصندوق بالأحجار المرصوفة ، وراه فرعون ، فأمر بإحضاره ، فاللتقطه آل فرعون ، وحملوه إلى فرعون وزوجته وظنوا أن فيه مالا ، فلما فتحوه وجدوا فيه غلاما .

وأراد فرعون ذبحه ، واذا قال : إني أخاف أن يكون هذا من بنى إسرائيل وأن يكون هلاكنا على يديه ، فلم تنزل آسية زوجته تكلمه حتى تركه لها .

﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ أى إن فرعون التقطه ، ورباه لتكون

عاقبة أمره القضاء عليه به ، لأن قدرة الله توجه نحو تحقيق مراده سبحانه وتعالى . فقد أمل فرعون من تربية موسى أمرا وقضى الله بغيره ، وجرت عادة العرب أن يعبروا عن الحال بالمآل بعد ظهوره ، كما يقول الوالد لولده الذى أفسده : لقد أنجبناك لإفسادى ... مع أنه كان يرجو صلاحه .

وكانت عداوة موسى لفرعون بسبب كفره وطغيانه ، وكان حزنهم بسبب ضياع ملكهم ، وقد فعل الله ذلك وقدره بسبب ما قاموا به .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَمَنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ أى

إن انتقام الله من فرعون وهامان وجنودهما أمر ضرورى ، فلقد كان دأبهم العدوان ، والظلم ، وقد قتلوا الكثير من الذكور بلا ذنب ولا جريرة .

== ووضعت موسى عليه السلام فيه وألقته في النيل بيت فرعون ، فخرج جوارى آسية امرأة فرعون يغتسلن فوجدنه فأدخلنه إليها ، وظنن أن فيه مالا ، فلما فتحته رأته آسية ووقعت عليه رحمتها فأحبته ، وأراد فرعون قتله فلم تنزل تكلمه حتى تركه لها .

وانى اذكر هذه الرواية من باب (حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج) فإن مثل هذه الرواية لا تضر عقيدة ، ولا تسيئ لخلق ، ولا تدعو لرديلة (تفسير الألوسى ج ٢٠ ص ٤٦) .

فإن قيل : خطأ فرعون وقارون ظاهر لأنهم الذين أمروا بالقتل والعدوان ... فما ذنب الجنود الذين ينفذون أوامر القادة ؟

أقول : إن طاعة الجنود لفرعون وهامان هي التي مكنتهما من تنفيذ مآربهما ، ولو رفض الجنود الظلم والقتل ما وقع ، ولذلك عدت طاعتهم خطأ جعلهم متساوين مع فرعون وهامان في الخطأ .

وتشير الآية إلى أن لكل من فرعون وهامان جندا خاصا به ، تعاونوا جميعا في ارتكاب الخطأ ، فعاقبهم الله جميعا به .

إن طاعة القائد واجبة ما لم يأمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

ومن خطبة أبي بكر الصديق بعدما تم اختياره للخلافة قوله : "إني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأطيعوني ، وإن أسأت فقوموني ، واعلموا أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" (١) .

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ أى

أخذت امرأة فرعون تدافع عن هذا الغلام بعدما أحبته ، ورأت فيه جمال الصورة ، وتوقعت منزلة له عندها وعند فرعون ، وبخاصة أنها لم تتجب .

﴿ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أى وعللت امرأة فرعون سبب

دفاعها ، فبينت أملها في أن ينفع الغلام فرعون وزوجته بعد أن يتخذه ولدا ويكلا إليه أمورهما .

﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى وهم لا يعلمون ما يخبئه القدر لكل منهما

فعلم الغيب عند رب العالمين .

(١) البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٤٠ .

الموقف الرابع

رجوع "موسى" ﷺ إلى أمه بعد نجاته

يقول الله تعالى :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِحًا ۖ إِنَّ كَادَتْ لِتُبَدِيَ بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ ۝ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ .

تفصيل الموقف الرابع من خلال دلالة الآيات

استقر الأمر فى بيت فرعون ، وقرروا المحافظة على الغلام ، ورعايته وتنشئته فى القصر بكل ما فيه من قيم ، وخلق ، وعادات ، وتقاليد ... إلا أن الحال عند أم موسى وأخته كان مختلفا ... فلقد اشتد خوف أم موسى عليه بعد وقوعه فى يد فرعون كما أخبرتها ابنتها التى كانت تراقب حركة الصندوق .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِحًا ۖ ﴾ أى صار قلب أم موسى وعقلها فارغا لا يستقر لها فكر ، ولم تتمكن من تدبر الأمر ، وسيطر عليها الخوف على ابنها ، وأخذت تتساءل :

- أين هو الآن يا ترى ؟
- ومن التى سترضعه ؟
- وكيف أراه مرة أخرى ؟

(٧٠٥)

لقد استمعت لأمر الوحي ، والقت موسى فى البحر ، والتقطه آل فرعون ، ودخل فى غياهب القصر ، وما تدرى بعد ذلك شيئاً .

﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ ﴾ أى كادت تظهر للناس أنه ولدها ، بكثرة سؤالها ، وتعجبها من كل ما حصل ... ولو شك آل فرعون فى أم موسى لعرفوها ، لأنها كانت كثيرة الكلام ، كثيرة السؤال عن مصير ولدها .

﴿ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى لولا أن الله ثبتها ، وشد على قلبها من الهياج ، والانفعال ، والشروع حتى تسلم أمرها لله ، وتصديق وعده لها ، وتكون مؤمنة صادقة مخلصة .

وهدأت أم موسى قليلاً ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أى قالت لأخته : اتبعى أثره ، وتسمى خبره .

﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى رآته أخته عن بعد ، وعلمت خبره ، وهم لا يعلمون عنها شيئاً .

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى حرم الله على موسى عليه السلام أن يرضع من غير أمه ، فلما أتوه بعدد منهن لم يرضع منهن ، وعلمت أخته بذلك فعرضت عليهم أهل بيت معروفين بالرعاية والعناية ، واشتهرت بإقبال الصغار على الرضاعة من نسائهن ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ أى قالت أخته لمن فى القصر : هل أدلكم على أهل بيت يأخذونه ، ويتولون أمره ، ويقومون بجميع شئونه ؟

﴿ وَهُمْ لَهُ نَصِیحُونَ ﴾ أى وأهل هذا البيت مخلصون فى اهتمامهم بالأطفال ، معروفون بحسن الرعاية والعناية .

(٧٠٦)

روى عن ابن عباس أنها لما قالت ذلك أخذوها وشكوا فى أمرها ، وقالوا لها : ما يدريك بنصحهم له ، وشفقتهم عليه ؟

فقالت : هم يفعلون ذلك رغبة منهم فى سرور الملك ، ورجاء عطائه ، وبذا خلصت من أذاهم ، وذهبوا معها إلى منزلهم ، ودخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحا شديدا ، وذهب البشير إلى امرأة الملك فاستدعت أم موسى ، وأحسنّت إليها وأعطتها العطاء الجزيل ، ثم سألتها أن تقيم عندها ، وترضعه فأبت ذلك عليها ، وقالت : إن لى بعلا وأولادا ولا أستطيع المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتي فعلت فأجابتها إلى ما طلبت ، وأجرت عليها النفقة ، والصلات ، والكساء ، ورجعت بولدها إلى بيتها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا ، وهى موفورة العز والجاه والرزق الواسع .

﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ ﴾ أى أعدها إلى أمه سليما معافى ، وهى مكرمة من آل فرعون .

﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى ارجعنا موسى عليه السلام إلى أمه لترضعه فى بيتها ، وبذلك هدأت نفسها ، واطمأن خاطرها ، وعلمت صدق الله فى وعده لها .

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى أن كثيرا من الناس لا يعلمون حقائق الأمور ، ولا يقدرّون الله حق قدره ، ولا يصدقون أن الله يقرب الأمر كله ، وهو كل شئ قدير .

الموقف الخامس

قتل "موسى" عليه السلام المصرى خطأ

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغْنَتْهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوُّ مُّضِلٌ مُّبِينٌ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ قَالَ رَبِّ بِمَا أَتَعَمَّتْ عَلَىٰ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ۝ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ۝ فَلَمَّا أَنِ ارَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أُتْرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ۝ ﴾ .

تفصيل الموقف الخامس

من خلال دلالة الآيات

وتعتبر الأحداث السنين والأيام ، ولا نتحدث عن المدة التى مكثها موسى مع أمه ، وكيف عاملها فرعون ، وعن صلة أم موسى به بعد إعادته للقصر إلا أن من المسلم فطريا أنها عرفت به وبأبيه ، وبوعده الله لها ، وتمنت له حياة

طيبة ... وتضعنا الآيات أمام فترة زمنية طويلة تجرى أحداثها بلا تحديد وبصمت عن قضايا لا فائدة منها فى الاقتصاص مثل تحديد عمر موسى حين قتل المصرى ، وحين فر إلى مدين ، وكل ما تحدده أنه كلف بالرسالة بعد مكثه فى مدين مدة لا تقل عن ثمانى سنوات أى أنه كان فى سن الأربعين .

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

أى أن موسى ﷺ لما قوى جسمه ، واعتدل عقله ، آتيناه علما بالأحكام ، وقدرة على الحكم الصائب ، والقول الرشيد .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى ومثل ذلك نجزى من أحسن من

عبادنا ، ومن اخترناه لنا ، وأطاع أمرنا ، وانتهى عما نهيناه عنه ، وتهياً بذلك لأن يكون نبيا .

وتشير الآية إلى أن موسى ﷺ بهذا العطاء الإلهى اعتزل ولو نفسيا ما كان عليه المصريون ، وعلم ما فى المجتمع من تمايز عنصري ، واضطهاد طبقي ، وكان يبدى العدل ، وهو يسير وسط الناس ، ويسوى فى الحكم بين المصرى والإسرائيلى حتى اشتهر بذلك .

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ أى دخل المدينة فى

وقت يغفل الناس فيه ويرتاحون وهو وقت القيلولة ، والمدينة هى العاصمة المصرية "منف" ، وقد أتاها موسى من "عين شمس" حيث يوجد قصر فرعون .

﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾

أى وجد موسى أمامه رجلين يختصمان ويتضاربان أحدهما من بنى إسرائيل جماعته التى يتشيع لها ، ويتألم لألمها ، والآخر من الأقباط المصريين الذين يعاديهم ، ويخالفهم فى عقيدتهم ، ودينهم . وكان العدوان واضحا من المصرى .

﴿ فَاسْتَعْنَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أى استتجد
الإسرائيلي بموسى لينقذه من خصمه المصرى ، الذى طلب منه أن يستخدمه
فى جمع الحطب قسرا فأبى ، فلما تخاصما استغاث الإسرائيلي بموسى لما
عرف عنه من العدل فى الحكم ، والإصابة فى رأى ... إلا أن المصرى تعالى
على الإسرائيلي ، ولم يرض بحكم موسى ﷺ .

﴿ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ أى فوكر موسى القبطى انتصارا للحق
ومنعا للظلم ، لأن الاستغاثة كانت للتخلص من شدة ، والمعونة فى مشقة .
والوكزة هو الضرب باليد كلها بعد ضم الأصابع وهى لا تقتل غالبا إلا
أن الوكزة فى هذه المرة أدت إلى قتل المصرى .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﷺ ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ أى هذا العمل
الذى قام به المصرى من تزيين الشيطان واغوائه .
﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ أى أن الشيطان عدو يعمل على إضلال
الإنسان ، وينبغى الحذر منه دائما .

وندم موسى ﷺ على قتل المصرى ، و ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي
فَاغْفِرْ لِي ﴾ أى إنى ظلمت نفسى بقتل نفس لا يحل قتلها ، ودافعت عن كافر
، فاغفر لى يارب هذا الذنب واستره لى ، ولا تؤاخذنى بما فعلت .
﴿ فَغَفَرَ لَهُ ﴾ أى استجاب الله لموسى ﷺ وغفر له ذنبه .

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أى أن الله عليم بكل شئ ، وهو الغفور
لذنوب عباده ، المحسن لهم ، الرءوف بهم .

(٧١٠)

ثم لم يزل عليه السلام يعدد على نفسه قتل المصرى حتى بعد أن علم أنه غفر له فقد ثبت أنه يقول يوم القيامة : إنى قتلت نفسا لم أوامر بقتلها ، ويطلب لنفسه الشفاعة مع إنه قد غفر له^(١) .

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام بعد أن غفر الله له ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ أى عاهد موسى ربه مؤكدا أنه بعد أن أكرمه الله بالمغفرة عن قتل المصرى فلن يعود لمثلها أبدا ، ولن يكون عوناً لمشرك ولن يساعد ظالماً ... وأيضاً فلن يقوم بعمل يؤدي إلى قتل مرة أخرى ، وفى هذا دليل على أن الإسرائيلى كان كافراً مجرماً .
والظهير المعين ، وأراد موسى بقوله أنه لن يعاون مجرماً ، ولن يقوم بعمل قد يؤدي إلى القتل .

واستولى الخوف على موسى عليه السلام ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أى صار موسى خائفاً من جنائته التى جناها بقتل المصرى ، وصار يتحسس الأخبار ، ويسأل عما يتحدث به الناس ، ويحاول معرفة انتشار الخبر ، وأثره على المصريين والقادة .
﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ أى فإذا به يجد الإسرائيلى الذى استغاث به فى الأمس يناديه ، ويصرخ فيه ، ويطلب عونه ونجده .

فتذكر موسى ندمه على فعلة الأمس و ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى ﴾ أى قال موسى للرجل الذى استنصر به ﴿ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ أى إنك لذو غواية

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ١٧٠ .

(٧١١)

وضلال لا شك فيه ، وحب للخلاف والخصومة فقد استغثت بى بالأمس ،
وقتلتم المصرى ، وتستغيث بى اليوم مرة أخرى .

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا ﴾ أى فلما حاول

موسى عليه السلام أن يناقش المصرى بهدوء ليصلح بينه وبين الإسرائيلى ، وأراد أن
يعيد المصرى إلى الصواب ، ويبعده عن العدوان .

﴿ قَالَ ﴾ المصرى ﴿ يَمْوَسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا

بِالْأَمْسِ ﴾ أى أتريد يا موسى أن تنصر الإسرائيلى ، وتقتلنى كما قتلت مصرياً
آخر غيرى بالأمس من أجل هذا الإسرائيلى .

﴿ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ

الْمُصْلِحِينَ ﴾ أى أتريد يا موسى أن تكون قهاراً ظالماً ، يخافك الناس فى
الدنيا ، ولا تريد مصححاً عادلاً ، تنتشر السلام ، وتترك العدوان .

وتفرق المتخاصمان ، ورجع المصرى إلى قومه ليخبرهم بأن موسى هو
الذى قتل المصرى ، وتوقع موسى عليه السلام من الرجل سوءاً ، ومن المصريين شراً .

وبذلك ينتهى هذا الموقف .

الموقف السادس

ذهاب "موسى" ﷺ إلى مدين

يقول الله تعالى :

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ١
يَتَرَقَّبُ ٢ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٣ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ٤ .

تفصيل الموقف السادس من خلال دلالة الآيات

وينتقل موسى ﷺ إلى موقف جديد لأنه فوجئ بأن الأمر تغير ﴿ وَجَاءَ

رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾ أى فوجئ موسى ﷺ بمجئ رجل تحمل مشاق المجئ ، وبعد المسافة فقد جاء من أقصى المدينة يسعى مسرعا ، لإنقاذ موسى مما يدبر له ، فسبق جند فرعون ، وأخبر موسى بالمؤامرة .

﴿ قَالَ ﴾ الرجل بعد وصوله لموسى ﴿ يَمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ أى إن قوم موسى علموا خبرك ، وخطورتك ، وميلك للإسرائيليين دونهم ، وعلموا أنك الذى قتلت المصرى بالأمس ، ولذلك فهم يتآمرون لقتلك ، والتخلص منك ، وقد وضعوا لقتلك خطتهم ، ومكروا مكرهم ويقال أن الرجل هو الذى آمن بموسى بعد ذلك وكنتم إيمانه عن فرعون .

﴿ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ فاخرج من المدينة ، واترك مصر كلها ، واعلم أنى لك ناصح مخلص ، أرجوا عونك ومساعدتك .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أى فخرج موسى عليه السلام من المدينة خائفا يريد البعد عن الملأ ، وقد بث المصريون عيونهم فى كل مكان للإتيان بموسى .

و ﴿ قَالَ ﴾ موسى داعيا ربه وهو خائف ﴿ رَبِّ لِحِجَّتِي مِنْ أَقْصَمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى نجنى ربه من هؤلاء الظالمين الذين يضعون الأمور فى غير موضعها ، فيقتلون من لا يستحق القتل ، ويتركون من يستحق القتل ، ويحكمون فى الناس بهواهم وعنصريتهم ، فيستجيب الله له ويخرجه من أرض مصر ، ويفلت موسى من العيون ، والرصد التى وضعها المصريون فى كل الطرق ، والله غالب على أمره .

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أى أن موسى عليه السلام توجه إلى وادى مدين شرقا وسأل الله أن يهديه إلى طريق النجاة ، ويبعده عن خصومه المصريين .
وتوجه موسى إلى مدين شرقا لعلمه أن بينه وبين أهل مدين قرابة ، فكلاهما من ولد إبراهيم عليه السلام ، وأيضا فإن الإسرائيليين وهم فى مصر أملوا نجاتهم فى الرجوع إلى الموطن الذى جاء منها أبائهم زمن يوسف عليه السلام .

الموقف السابع

ظهور الخلق الكريم لموسى عليه السلام

فى مدين

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتَيْتُ آسْتَجِرُهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ۝ ﴾ .

تفصيل الموقف السابع

من خلال دلالة الآيات

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ أى استمر موسى عليه السلام فى سيره جهة الشرق

يقصد الوصول إلى وادى مدين ، فلما وصل إلى بئر ماء يرده أهل مدين استراح فى ظل شجرة عنده من عناء الطريق ، فلقد خرج من مصر بلا زاد ولا راحلة ، وكان يأكل من ورق الشجر ، ويشرب من ماء البرك ، وقطع الطريق سيرا على قدمه حتى قد خفه .

فإن قيل : لم اتجه موسى شرقا نحو مدين ، ولم يتجه إلى الجنوب ، أو إلى الغرب ، أو إلى الشمال ؟

أقول : لم يتجه موسى شمالا ، أو غربا ، أو جنوبا لأن الطريق فى هذه الجهات لا يوصل إلى قوم صالحين .

أما الاتجاه نحو الشرق ، فهو طريق مفتوح لا عوائق فيه ، والإسرائيليون مرتبطون بأرض الشام منذ أن جاء بهم يوسف عليه السلام من باديته ، وقد علم موسى عليه السلام ان بينه وبين آل مدين قرابة فكلاهما من ولد إبراهيم عليه السلام . ولما وصل موسى عليه السلام إلى البئر الذى يستقى منه أهل مدين علم أنه نجا من المصريين ، وبعد عن بلادهم وسلطانهم .

و ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ أى وجد عند البئر جماعة من الناس يسقون مواشيهم وغنمهم ، ويملاؤن دلاهم .

﴿ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أى ووجد فى أسفل البئر بعيدا عن الرعاة امرأتين تمنعان غنمهما من الماء حتى يفرغ الناس ، وتخلو لهما البئر ، ويسقيان غنمهما بعد ذلك .

فسألها موسى عليه السلام و ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أى قال موسى عليه السلام للمرأتين : ما لكما لا تسقيان مواشيكما ، وتبعدانها عن الناس ؟

أجابته و ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ أى إننا نمنع غنمنا ومواشيها عن السقى حتى يفرغ الرعاة من سقى غنمهم ، وسبب ذلك أننا نساء لا نقدر على مزاحمة الرجال ، وليس لنا أخ يقوم بذلك .

﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ أى وأبونا رجل كبير ، بلغ مبلغ الشيخوخة ، ولا يستطيع رعى الغنم وسقيها .

﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ أى علم موسى حاجتهما إلى المساعدة فأسرع بسقى مواشيهما مع

غنم الآخرين ، وعاد إلى الظل ، وشكر الله أن نجاه من فرعون والمصريين ،
وسأل الله حاجته فهو فقير محتاج إلى فضل الله تعالى .

استجاب الله دعاء موسى عليه السلام ، ولم يتأخر فضل الله عليه **﴿ فَجَاءَتْهُ
إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا
سَقَيْتَ لَنَا ﴾** أى حضرت إليه إحدى الفتاتين سريعا ، ولم تتأخر فقالت له فى
حياء وأدب : إن أبى يدعوك إليه ، ليكافئك عن مساعدتك لنا فى سقى الغنم .
ومن عقل الفتاة وحسن أدبها أنها عرفت موسى إن هذا طلب أبيها ، وأن
الطلب لمكافأته على مساعدتهما فى سقى الغنم حتى لا يتوهم أحد من كلامها
شيئا غير الحقيقة .

وأبو البنات ليس هو شعيب عليه السلام لأن شعيبا كان قبل موسى عليه السلام
بمدة طويلة ، وكان قريبا من عصر لوط عليه السلام ، وهو الذى قال لقومه : **﴿ وَمَا
قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾** ^(١) وكان بين لوط وموسى عليهما السلام ما يقرب
من أربعمائه سنة ، وقد ذكر علماء الأديان للرحل أسماء عدة منها مسمى
"شعيب" وليس هو رسول الله .

**﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنْ
الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾** أى فلما جاء موسى إلى أب الفتاتين حكى له كافة الأحداث
التي مر بها فطمأنه الرجل ، وقال له : لا تخف فقد نجاك الله من ظلم فرعون
وأبعدك عن سلطان القوم الظالمين .

(١) سورة هود ، الآية ٨٩ .

الموقف الثامن

اتفاق "موسى" عليه السلام مع "شعيب" وزواجه بابنته

يقول الله تعالى :

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيَنَّكَ اسْتَعْجِرُهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَعْجَرْتَ الْقَوِيُّ
الْأَمِينُ ۝ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي
ثَمَنِي حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ
سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا
الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۝ ﴾

تفصيل الموقف الثامن من خلال دلالة الآيات

وبعد أن اطمأن موسى عليه السلام ، وعرف الرجل قصص موسى ، واستمعت
البنات حديث موسى لأبويهما ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيَنَّكَ اسْتَعْجِرُهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ
مَنِ اسْتَعْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ أى قالت إحدى بنات الرجل لأبيها : يا أبت
استأجر موسى لرعى الغنم ، وسقيها ، فإنه خير من تستأجره لتمييزه بالقوة
والأمانة ، وهاتان الصفتان أساس النجاح ، وأعلى ما فى الإنسان من فضائل .
يقول ابن مسعود رضي الله عنه : أفرس الناس ثلاثة . رأى بنت شعيب فى موسى
وصاحب يوسف فى قوله : ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ ^(١) ، ورأى
عمر فى أبى بكر رضى الله عنهما ^(٢) .

(١) سورة القصص ، الآية ٩ .

(٢) تفسير الخازن ج ٥ ص ١٧١ .

﴿ قَالَ ﴾ الرجل الأب لموسى ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٌ ^ط فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ^ط وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ^ع سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

أى قال أبو المرأتين اللتين سقى لهما موسى : إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتي الحاضرتين أمامك ، فانظر من يقع اختيارك عليها منهما ، على أن تكون أجيرا لى ثمانى سنوات ، ترعى لى فيها غنمى ، فإن أتممت الثمانى السنين التي شرطتها عليك وزدتها فجعلتها عشرا فأحسن من عندك ، وما أحب أن أشاق عليك بمناقشة ، أو مراعاة أوقات ، ولا إتمام عشر ، ولا غير ذلك ، وانك ستجدنى إن شاء الله ممن تحسن صحبتهم ، ويوفون بما اتفقوا عليه .

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ أى ما شرطت على فأنا موافق عليه ، وما اشترطت من مدة فلك ، وأما اختيار أحدهما فلى والأمر على ذلك بيننا لا يخرج كلانا عنه .

﴿ أَيُّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ أى قال موسى للرجل أى الأجلين الثمانى أو العشر فكلاهما باختيارى ، وليس لك أن تطالبنى بأكثر منهما .

﴿ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أى والله شاهد على ما اتفقنا عليه ، وما التزمنا به .

الموقف التاسع

عودة "موسى" عليه السلام بزوجه إلى مصر رسولا مبعوثا من الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ ١ ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمْوِسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ٢ ﴿ وَأَن أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ ٣ ﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ٤ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ ٥ ﴿ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلَّكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ٦ إِنَّهُمْ كَانُوا فَوْسِقِينَ ﴾ ٧ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ ٨ ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ٩ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ ١٠ ﴿ قَالَ سَنُنْشِدُ عُصْدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعُلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِمَا يَتَنَنَّىٰ ١١ أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴾ ١٢ ﴿ .

تفصيل الموقف التاسع
من خلال دلالة الآيات

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ أى فلما عاش موسى عليه السلام أجيرا عند

شعيب مدة عشر سنين دخل بزوجه ، وأخذ يتهيا للعودة إلى مصر .

﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ أَنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ أى وأخذ طريق العودة إلى مصر ، ومعه زوجته وعند جبل الطور فى سيناء جاء زوجته المخاض ، فاحتاج موسى إلى نار للتدفئة ، كما احتاج إلى معرفة الطريق إلى مصر فقد أضله .

فى هذه الحال رأى موسى ﷺ نارا عند جبل الطور فأنس إليها .

و ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أى امكثوا فى هذا المكان فإنى سأذهب إلى موضع رأيت فيه نارا لآتيكم بخبر الطريق ، أو أحضر لكم بعض الحطب الموقد نتدفأ بها من البرد وكان الوقت شتاء .

﴿ فَلَمَّا أَتَتْهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ أى جاء إلى مكان النار التى أنس إليها فرأى شجرة خضراء يتوهج منها نور وضياء ، فوقف موسى يسارها ، فسمع من الشجرة المباركة التى كانت عن يمينه صوتا يناديه .

﴿ أَنْ يَمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى سمع موسى صوتا يناديه ويقول : يا موسى إنى أنا ربك رب العالمين ، وقد اخترتك للرسالة لتبلغ ما أخبرك به إلى قومك ، وإلى فرعون وقومه .

وتيقن موسى ﷺ أن هذا كلام الله ، وانعكس بصره فى بصيرته من خلال الموقف وعظم المفاجأة ، فلقد جاء يطلب نارا فوجد ربه ، وأراد معرفة الطريق إلى مصر فعرف طريق الهداية للمصريين والإسرائيليين إلى جنات النعيم .

وأخذ قدر الله يهيبى موسى ﷺ للرسالة ، ويعده للتعامل مع المعجزات فأراه معجزتين سيكونان معه فى مواجهة فرعون وقومه ... وهما :

الأولى : العصا ... يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ^ط فَلَمَّا رَآهَا

تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدَبِّرًا وَلَمْ يُعِقِّبْ ﴾ أى إلق عصاك على الأرض ، فلما ألقاها تحولت إلى حية تجرى ، وتتحرك ، وتعلو ، وتسقط كالجان فى سرعتها ، وقوة حركتها فخاف منها موسى ، وفر هاربا ، ولم يرجع إليها .

فقال الله له : ﴿ يَمُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ^ط إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾

أى قلنا له يا موسى أقبل على الحية ، ولا تخف منها فإنك من الآمنين الذين لا يأتئهم منها أذى فهى عصاتك جعلناها معجزة لك تصدقك فى رسالتك عند فرعون وقومه فاعلم ذلك ، ولا تعد للخوف منها بعد ذلك .

الثانية : اليد ... يقول الله تعالى : ﴿ أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ

بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ أى ضع يدك فى فتحة ثوبك عند صدرك ، وأخرجها تراها بيضاء منيرة ، ولها شعاع من غير برص ، ولا مرض ، ولا أذى ... ففعل موسى ذلك فلما رأى الشعاع والبياض فى يده خاف واندesh فقال الله له :

﴿ وَأَضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ أى ضع يدك على

صدرك يذهب خوفك وهلعك .

﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ أى فهاتان

معجزتان واضحتا الدلالة على صدق دعوتك نسوقها إلى فرعون وقومه فإنهم مكذبوك إلا أنهم أمام هاتين المعجزتين سيعجزون ، ويثبت فسادهم فاعرف ذلك واطمئن لمعجزات الله .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِقِينَ﴾ أى إن فرعون وقومه خرجوا عن طاعة الله ، وتجاوزوا حدودهم ، وأنكروا دين الله تعالى فكان أن أعجزهم الله وقضى بهلاكهم وتدميرهم .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﷺ لربه بعد أن كلفه الله بالرسالة ﴿ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ

مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ أى قال موسى لله تعالى : إني قتلنا من المصريين نفسا قبل أن أتركهم ، وأخاف أن يقتلوني قبل أن أبين لهم رسالتي .

﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي

﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ أى قال موسى لربه : وأخي هارون هو أوضح مني بيانا لعقدة في لساني فأرسله معي عونا يلخص بلسانه الفصيح حتى ، ويرد عني مزاعمهم ، وشبهاتهم ، فإنني أخاف أن يكذبوني ، ولساني لا يطاوعني في الرد عليهم .

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى لموسى ﷺ ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ

لَكَمَا سُلْطَانًا ﴾ أى قال الله لموسى ﷺ : أجببت دعوتك ، وسنقويك ، وسنعينك بأخيك ، ونجعل لكما تسلطا ، وغلبة ، وقوة حتى يعجز فرعون وقومه من النيل منكما في أمر من الأمور .

﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِغَايَتِنَا ﴾ أى سيعجزون ، ولن يصلوا إليكما

أبدا ، وسنحميكما بقدرتنا .

﴿ أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ أى أن قضى الله وقدر لكما ومن

اتبعكما النصر والغلب بالحجة البينة ، والمعجزة الغالبة ، والسلطان الكبير .

(٧٢٣)

الموقف العاشر

انهزام فرعون في مواجهة "موسى" عليه السلام وهلاكه وقومه

يقول الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ ٧٢٣ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عِقَبَةُ الدَّارِ ٧٢٤ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ٧٢٥ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقَدَ لِي يَهْـمَنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ٧٢٦ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ٧٢٧ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ٧٢٨ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الظَّالِمِينَ ٧٢٩ وَجَعَلْنَاهُمْ أُيْمَةً يُدْعَوْنَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٧٣٠ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ٧٣١ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ٧٣٢ .

تفاصيل الموقف العاشر

من خلال دلالة الآيات

وصل موسى عليه السلام إلى مصر ، والتقى بقومه ، وبأخيه هارون ، الذي

أرسله الله إلى فرعون مع موسى عليه السلام .

ذهب موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون ، ودعواه للإيمان بالله تعالى ، واعطاء الإسرائيليين حقوقهم ، واحضرا له أدلة الصدق ، ومنها معجزتا العصا واليد ، فلم يؤمن فرعون ... يقول الله تعالى .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيَّنَّتْ قُلُوبُهُمْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ

مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ أى أن فرعون وملأه أسرعوا إلى تكذيب موسى بعد أن أظهر لهم معجزتى العصا واليد ، واتهموه بالكذب ، والسحر ، ولم يعترفوا بالبراهين رغم وضوحها ، وقوة بيانها ، وقالوا أن الدعوة إلى وحدانية الله أمر محدث ، وأن آباءهم وأسلافهم لم يسمعوا مثل هذه الدعوى .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾ مجيبا فرعون وملأه ﴿ رَبِّیَّ أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ

مِّنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَنقَبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى إن الله سبحانه وتعالى هو الحكم بينى وبينكم ، فهو العليم بمن هو على الحق ، ومن هو على الضلال ، ومن الحقائق الثابتة أن الذى يضع الشئ فى غير موضعه سيئو بالخسارة والوبار .

واجابة موسى عليه السلام على تكذيب فرعون وملأه من حسن الخطاب والدعوة فقد ترك الله الحكم ، وخصه وحده بالعلم ، وجعله مصدر الهداية ، وبين أنه العليم بالجزاء فى الآخرة ، فهو يعلم أصحاب الجنة ، وأصحاب النار ، وكل تلك من أهم القضايا التى دعا إليها موسى عليه السلام وقد صاغها فى قالب من حسن الخلق والأدب ... وفى نفس الوقت عارض فرعون فى ادعائه الألوهية ، وبين أنه لا يعلم الغيب ، ولا يحيط بشئون الآخرة ، ولا يعرف حدود الهداية ، وأشار إلى أنه ظالم فيما يدعيه ، وأنه لا يفلح الظالمون .

إن موسى ﷺ حدد المعالم الواجبة للربوبية ، وأكد أنها لربه الذى يدعو
فرعون وقومه إليه .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لقومه وهو يرد على موسى ﷺ ﴿ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا
عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴾ أى يا اتباعى المقربين لا تصدقوا دعوة
موسى ، فلا علم لى بإله غيرى ، ولا علم عندى عن الإله الذى يدعو إليه
موسى ، ولو علمته لبينته لكم .

ثم اتجه إلى وزيره هامان وقال له : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَمُنْ عَلَى الطِّينِ
فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ أى أوقد النار على الطين
لتصنع آجرا ، وابن لى منه قصرا عاليا ، وبناء شامخا أصدع فيه لأرى إله
موسى الذى يدعوننا إلى عبادته .

وهذا لعب بعقول البسطاء ، لأن موسى ﷺ لم يحدد الله فى مكان ،
وانما عرفه بقدرته وآثاره ، وقال ما حكاه الله عنه :

- ﴿ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ ^(١) .

- ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ^(٢) .

- ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ^(٣) .

وقد زعم أنه سيصعد على الصرح ، ويعرف الحقيقة ، وهو فى ذلك
كاذب ، وأمامه الصحراء المرتفعة ليصعد فوقها ، ويرى ما يرى ... وهو يعلم

(١) سورة طه ، الآية ٥٠ .

(٢) سورة مريم ، الآية ٦٥ .

(٣) سورة الشعراء ، الآية ٢٦ .

أن الذى ينظر إلى السماء ، وهو واقف فى السهل المنخفض يساوى ما يراه
الواقف فى أعلى الجبل .

﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴾ أى إنه يتوقع أن إله موسى لا
وجود له ، وأن موسى يكذب فى ادعائه وجود الإله الواحد الأحد .

﴿ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا
لَا يُرْجَعُونَ ﴾ أى تكبر فرعون وجنوده على الناس الذين وجدوا فى أرض
مصر ، واغترتوا بنعم الله التى عاشوا فيها ، وأحاطت بهم من كل جانب ...
وحسبوا بذلك أنهم نعموا ، وسعدوا لأنهم كفروا باليوم الآخر ، ولم يؤمنوا ببعث
أو حساب ، أو جزاء ، وكان هذا سبب غرورهم فركبوا الشطط ، وعاثوا فى
الأرض الفساد .

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ ﴾ أى ألقينا فرعون وجنوده فى
البحر فغرقوا جميعا ، وهذا من عظيم قدرة الله تعالى .

﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى تأمل يا محمد ،
ومن معك ، ومن له عقل فى مصير فرعون وجنوده . فقد أهلكهم الله بالغرق
ودمر عدتهم وعددهم ، وصاروا عبرة وعظة لم يتعظ ويعتبر .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ أى وجعلنا فرعون وقومه أئمة
فى الدنيا يقتدى بهم فى الكفر والضلال ، ولم يكفهم أن يكونوا ضالين فى
أنفسهم بل أضلوا غيرهم ، وحسنوا المعصية أمام الآخرين ... فأهلكهم الله ،
وأبقى منهم رسوما ، وتمائيل شاهدة على ما حل بهم ليعتبر العقلاء الفاهمون .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ أى أن فرعون وجنوده ، ومن اتبع
هداه لن يجدوا فى الآخرة من ينصرهم ، أو يتولاهم ، أو يشفع لهم .

﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أى ألزمتنا فرعون وقومه وجنوده اللعنة والهوان فى الدنيا ، وفى يوم القيامة يلزمهم الخزى والقبح ، وسوء المنقلب ، وسوء المصير .

الموقف الحادى عشر ”موسى“ ﷺ رسول الهداية والرحمة

يقول الله تعالى :

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ .

تفصيل الموقف الحادى عشر
من خلال دلالة الآية

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ أى كلفنا موسى بالرسالة ، وأنزلنا عليه كتابا سماويا هو التوراة ، يدعو الناس إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ، ويفصل الأحكام ، ويعرف بطريق السعادة فى الدنيا والآخرة ، وينادى بضرورة النظر فى مصير الأمم السابقة كقوم نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وإبراهيم عليهم صلوات الله وسلامه ، فلقد أهلكناهم لكفرهم ، وطغيانهم ، وعدم إيمانهم .

﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أى جعلنا التوراة مصباحا يبين الطريق المستقيم ، وتعرف الحق وتدعو إليه ، وتبين الباطل وتنفر منه ، فهى مصدر المعرفة بالدين ، وهى الوضوح أمام العقلاء والمؤمنين .

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمٍ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى كما جعلنا التوراة مصباحا

يوضح الطريق جعلناها هدى من الضلال ، ورحمة للناس فقد منع الله عذاب الاستئصال بعد نزول التوراة ... يقول النبي ﷺ : "ما أهلك الله قوما ، ولا قرنا ، ولا أمة ، ولا أهل قرية منذ أن أنزل التوراة على وجه الأرض بعذاب من السماء غير أهل القرية التي مسخت قرده" (١) .



ركائز الدعوة

فى قصة "موسى" ﷺ

تتضمن قصة موسى ﷺ عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الله غالب على أمره

عاش الإسرائيليون تحت سلطان فرعون ، وطغيانه فى مصر ... وقد أحكم فرعون قبضته على المصريين والإسرائيليين ، فأوجد لنفسه اتباعا وأشياعا فى كل مدن مصر ، ولما توقع زوال ملكه على يد مولود إسرائيلى حان زمن ولادته أمر بقتل ذكور الإسرائيليين ، وترك إناثهم ... وأحكم فرعون خطته ... إلا أن قضاء الله نافذ ، وهو العزيز الحكيم ، ففضى سبحانه وتعالى ، بأن يربى فرعون فى بيته ذلك الغلام الذى سيقضى عليه ، ويصون القدر موسى ﷺ فى قصر فرعون ، ومع الناس ، وعند مدين ، ويعود موسى ﷺ رسولا إلى فرعون

(١) المستدرك على الصحيحين . كتاب التفسير . باب تفسير سورة القصص ج ٢ ص ٤٤٢ .

(٧٢٩)

، يدعو إلى الله ويغلبه بالمعجزات ، ويفر بقومه في حماية الله تعالى ، وينتهي الأمر بغرق فرعون وجنوده ، ونجاة موسى عليه السلام وقومه .
إن الله مالك الملك ، المتصرف في الوجود ، وكل شيء بيده .

وعلى الدعاة :

أن يتيقنوا بهذه الحقيقة ، ويعرفوا قدر خالقهم ، ويستسلموا لأمر الله تعالى ويدعو إلى أن التدبير والحكم لله تعالى ... ويؤمنوا بأن الأمر له سبحانه وتعالى من قبل ، ومن بعد ، ويعبدوه حق العبادة مخلصين له الدين .

الركيزة الثانية

الظالم لا يفلت من العقاب

يعيش الإنسان في الدنيا ، يجد نفسه أمام طريقين :

أحدهما : طريق الإيمان الذي يقوم على طاعة الله تعالى ، والالتزام بما جاء به الدين في كافة جوانبه عقيدة ، وشريعة ، وخلقاً ، وهذا الطريق يقوم على العدل والحق ، ويحافظ على الحقوق ، ويصون الواجبات ، وأثر هذا الطريق هو تحقيق المصلحة في الدنيا ، والسعادة في الآخرة .

ثانيهما : الطريق البعيد عن الإيمان ، وهو الطريق الذي يعتمد على تصور عقلي محض ، يأخذ من العقل نظامه ، ويبتعد عن تعاليم الوحي ، وعدم الالتزام بدين الله تعالى ، وهذا الطريق يؤدي إلى الظلم ، ويضيع الحقوق ، ويساعد على إيجاد نظام ديكتاتوري يضيع الحقوق ، وينشر الفساد .

وقد سلك فرعون وقومه الطريق الثاني ، فاستبد برأيه ، وطغى وبغى على الناس ، ونشر الظلم في مصر كلها .

وتصور فرعون أنه لن يسأل عن عمله ، وأنه لن يعاقب على سوء يرتكبه ، وظلم يفعله .

ظن فرعون ذلك ، وتمادى فى غيه وعدوانه ... إلا أن القدر لم يحقق ما تمنى فكان أن عاقبه الله تعالى ، وأخذه أخذ عزيز مقتدر ، وأغرقه وجنوده فى اليم وهو مليم .

والواجب على الإنسان العاقل أن يلتزم بالحق ، ويبتعد عن الظلم ، ويعلم أن النجاح فى طاعة الله ، وتطبيق تعاليمه ، وأن يخضع لحكم الله تعالى أخذا وعطاء ، ويفرق بين الخير ويسارع إليه ، وبين الشر ويتركه ... ويتأكد أن الظالم لا يفلت من العقاب ، وأن الله يحق الحق بكلماته ، ولو كره المجرمون .

الركيزة الثالثة

الأخذ بالأسباب ضرورة إيمانية

نقرأ فى بداية قصة موسى عليه السلام أن الله أوحى إلى أم موسى عقب ولادته أن تطمئن ولا تخاف عليه ، وقال لها : ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنْكَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ^(١) ... وقد يتصور البعض أن لا تأخذ أم موسى بالأسباب العادية ثقة منها فى وعد الله لها ... إلا أنها لم تفعل ذلك ، واستمرت فى العمل والسعى فى إطار طاقتها فأرضعته ، ولما ألقته فى اليم أرسلت أختها لتعرف خبره ، ولتبذل جهدها ما استطاعت لإرجاعه لأمه .

ومن هذا الباب فرار موسى من مصر بعد أن علم أن ملأ فرعون بأمرهم به ليقتلوه .

وهكذا عاش موسى عليه السلام مع فرعون ، ومع قومه بأسلوب الحياة العادية يبذل فيها جهده ، وفكره ، وعمله ، متوكلا على الله سبحانه وتعالى .

(١) سورة القصص ، الآية ٧ .

إن خوارق العادات تأتي بعدما يصدق المؤمنون ، ويخلصون في أقوالهم ، وأفعالهم ، ويبذلون جهدهم مطيعين لله تعالى ... حين يؤدي المؤمن واجبه ينصره الله تعالى بقدرة خارقة يظن كثير من الناس إنها نتائج عادية تناسب مقدماتها ، ولولا ما فيها من إعجاز لصدق هذا الظن !!

لقد فر موسى ليلا ، فلما وصل إلى البحر ألقى عصاه بأمر الله فانشق البحر ، ووجد موسى نفسه أمام طريق يابس صلب فعبّر منه وجنوده إلى الضفة الشرقية ... وحاول فرعون وجنوده العبور من نفس الطريق فانطبق البحر عليهم وغرقوا جميعا في لحظة فارقة ، ونصر الله موسى ﷺ ومن معه ... وعلم الجميع أن الأخذ بالأسباب ضرورة ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾^(١) ، ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ^٢ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ^٣ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا^(٢) .

إن الأخذ بالأسباب ، والطاعة الصادقة هي التي توصل للنصر ، وتحقيق رضوان الله تعالى . يقول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(٣) .

ويقول ﷺ : "لو أنكم كنتم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماسا ، وتروح بطانا"^(٤) .

(١) سورة إبراهيم ، الآية ١٢ .

(٢) سورة الطلاق ، الآية ٣ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ٢٠٠ .

(٤) سنن الترمذى . كتاب الزهد . باب التوكل على الله ج ٤ ص ٥٧٣ .

الركيزة الرابعة

الحياة حق وواجب والدين مسئولية وجزاء

الإنسان مخلوق عاقل مكلف أرسل الله له الرسل ليبينوا له الطريق الصحيح ، ويحذروه من طريق الشيطان الرجيم .

ويشب الإنسان ، ويجد نفسه أمام طريقى الخير والشر ليختار لنفسه ، ويفعل ما يريد ، لينال جزاء ما قدمت يداه . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۖ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝ ﴾^(١) .

إن على الإنسان واجبا لابد عليه من القيام به ، وله حق لابد من إيصاله إليه .

وقد توصل علماء الدراسات الإنسانية الحديثة إلى ضرورة ربط الحق بالواجب لتستقيم أمور الحياة ، ويقوم الإنسان بدوره ، ويضمن إلى حقوقه فى الحرية بصورها المختلفة .

ولم يبتعد الدين عن الفطرة البشرية ، فعرف الإنسان بمسئوليته الدينية وربطها بما أعد الله من جزاء .

لقد جعل الله الدنيا دار السعى والعمل ، وجعل الآخرة دار الجزاء ، وتحقيق الأمل ، فمن شاء فليؤمن ... ومن شاء فليكفر .

إن الربط بين المسئولية والجزاء دين يحمى الحياة ، ويصون الدين ، ويقوى الحق ... ولولا النصيح لساد الظلم ... ولو الجهاد لا تنتشر الفساد ، والضلال ، وعم الشر والأذى .

(١) سورة الإنسان ، الآية ٢ ، ٣ .

(٧٣٣)

الركيزة الخامسة

ضرورة الاعتبار بقصص السابقين

يقف العقل مشدوداً أمام قصص الأمم الماضية فيرى موقفهم من دعوات الله تعالى ، فمنهم من آمن ... ومنهم من كفر ... ويرى ما حل بالكافرين ، وما أصاب المؤمنين ، ويخرج المسلم من نظره في قصص السابقين بما يلي :

أولاً : التثقيف العقلي ، وذلك أن معرفة قصص السابقين ينمي الثقافة العقلية ، ويطلع الإنسان على هذا الماضي السحيق منذ نشأة الإنسان الأولى على الأرض ، وتعرف بطبائعه ، وسلوكه ، وخلقه .

ثانياً : القدرة على التصور والحكم ، وذلك أن الإنسان يأخذ من أحداث الماضي صوراً لنتائجها في الحياة العملية ، وهذا يساعده على تصور الأفعال والحكم عليها ، وهذا الأمر يعينه على تقدير المواقف ، واتخاذ قرار معها .

ثالثاً : البعد عن الأعمال السيئة ، وذلك أن القصص القديم يقدم منهاجاً متكاملًا في الترغيب والترهيب ، وهو أحد طرق الدعوة إلى الله تعالى ، لأن فطرة الإنسان تدفعه إلى عمل ما ينفعه ، والبعد عن ما يضره .

وأولى الناس حاجة بأسلوب الترغيب والترهيب هم الدعاة إلى الله تعالى لأنه يساعدهم في القيام بالدعوة إلى الله تعالى .

(٧٣٤)

دلائل صدق "محمد" ﷺ في أخبار السابقين

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿١١﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحِمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة قصة موسى ﷺ بجوانبها المختلفة جاءت هذه الآيات لبيان صدق محمد ﷺ ، فلقد قص ﷺ أخبار موسى ﷺ كما حدثت من غير أن يشاهدها فقد أوحى الله إليه بها ، وذلك من معجزات القرآن الكريم الدالة على صدق محمد ﷺ .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات صدق رسول الله ﷺ في كل ما أخبر به عن حياة موسى ﷺ منذ نشأته الأولى إلى وفاته ، وهذا دليل صدقه ، وصدق القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

(٧٣٥)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ

الشَّاهِدِينَ ﴾ الخطاب فى الآية لرسول الله ﷺ لبيان أنه لم يكن حاضرا بالجانب الغربى للجبل الذى جاءه موسى لميقات ربه ، وقد أخذ عنده الألواح ونال شرف النبوة ، وأنه لم يكن من السبعين الذين اختارهم موسى ﷺ لحضور هذا الميقات ... ما كنت يا محمد واحدا من هؤلاء ، ولم تكن موجودا فى عصر موسى ﷺ ومع ذلك تخبر الناس بقرآن يتحدث عن قصص موسى ﷺ حديث مشاهد لها ، راء لأحداثها .

إن إخبارك يا محمد بهذه الغيوب الماضية ، وأنت أُمى لا تقرأ ، ولا تكتب ، وقد نشأت بين قوم أميين لا يعرفون شيئا من هذه الأخبار لهو من أعظم البراهين على نبوتك ، وإن إخبارك بذلك إنما هو بوحى إليك ، وهذا دليل صدقك ، وصدق دعوتك ، وصدق الذى تدعو إليه ... وصار من حقك على مشركى مكة أن يصدقوك لهذه الأخبار القديمة الصادقة ... يقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾ ^(١) .

﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ والقرون جمع قرن ،

والمراد به الأمة ، وفيه إخبار من الله تعالى لرسول الله ﷺ بأنه سبحانه وتعالى أنشأ عددا من الأمم استغرقت زمتا مديدا ، من عهد موسى ﷺ إلى ظهور الإسلام ، وهى فترة زمنية طويلة ، درست علومها ، وغاب الرسل فيها وأصبحوا فى حاجة لدين يذهب الغشاوة ، ويجلى الحق ، ويظهر الصراط المستقيم للناس ، فاصطفيناك يا محمد ، وأرسلناك للناس مبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه ،

(١) سورة طه ، الآية ١٣٣ .

(٧٣٦)

وسراجا منيرا ، وأنزلنا عليك خبر هذه القرون لتحج أمتك بها ... فهم يعرفونك ، ويعرفون أميتك ، فمتى أخبرتهم بخبر هذه الأزمان سيعلمون صدقك ، وسيؤمنون بدعوتك .

فإن قيل : كيف سيعلمون صدق الرسول من هذا القصص ؟

أقول : إنهم يسمعون عن هذا القصص من أهل الكتاب ، ويرونه في الأرض ، وهم يرحلون صيفا وشتاء ، فإن جاءهم أمى يعرفون أميته ، ويعرفون أنه لم يخالط أحدا يخبرهم بهذه الأخبار سيعلمون صدقه ، ويسارعون إلى تصديقه .

وان قيل : إن الآية تحدثت عن موسى عليه السلام ، ولم تتحدث عن الأنبياء من بعده وهم كثيرون . فلم هذا ؟

أقول : الأنبياء من بعد موسى عليه السلام هم أنبياء بنى إسرائيل ، والحديث عن أخبار موسى يعد إخبارا عنهم جميعا بما فيهم عيسى عليه السلام . ثم ذكرت الآيات حدثين هامين نزل القرآن بهما إثباتا لصدق محمد صلى الله عليه وسلم :

أولاهما : ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ

ءَايَاتِنَا ﴾ أى ما كنت مقيما فى أهل مدين حين جاءهم موسى عليه السلام ، وعمل عندهم ، وتزوج منهم حتى تحكى عنهم حكاية مشاهد لها .

﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أى ولكننا أرسلناك بالحق ، وقصصنا

عليك قصص السابقين كما وقعت لتخبر بها قومك كما أخبرك الوحى ... ولولا ذلك ما علمت عنها شيئا .

ثانيهما : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أى وما كنت يا محمد

موجودا بجانب الطور ساعة أن كلمنا موسى ، ووقت أن قربناه منا ، وناجانا حتى تفصل الأمر لأمتك تفصيل المشاهد الخبير .

(٧٣٧)

﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أى أنزلنا عليك أخبار موسى عليه السلام وهو

فى مدين ، وهو بجانب الطور الأيمن لتخبر به أمتك رحمة منا حتى يصدقوك ويؤمنوا بدعوتك .

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

أى أنزلنا عليك أخبار الأمم السابقة لتتذير بها قومك الذين لم يأتهم نذير من قبلك ، وتحذرهم بأس الله من أن ينزل بهم عسى أن يتذكروا ويعلموا أنك على الحق فيؤمنوا بك .

والأمة التى لم يأتها نذير قبل محمد ﷺ هى أمة العرب ، فلم يأتها رسول من عند الله منذ إسماعيل عليه السلام أب العرب ، ورسول الله إليهم .

وليس معنى ذلك أن رسالة محمد ﷺ خاصة بالعرب لأنهم من المنذرين لا جميعهم ، كما تقول : بلغ فلانا وفلانا ، فإن ذلك القول لا يمنع من تبليغ غيرهم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أخبر رسول الله بأمور غيبية عديدة منها أخبار موسى عليه السلام التى قصها على أمته ليعلموا أن محمدا رسول الله ، وما يخبرهم به هو الوحي لإثبات صدقه ، وصدق دعوته .

(٧٣٨)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

محمد ﷺ رسوله وحبيبه

أرسل الله محمد ﷺ رسولا للعالم كله ، خاتما لرسالات الله تعالى ، وقد أعانه الله ، ونصره ، وأيده بكثير من الحجج والآيات ... وأهمها :

(١) أنزل عليه القرآن الكريم ، وجعله دستورا لدينه ، وخلده في الدنيا بين الناس يتلى عليهم إلى يوم القيامة .

(٢) أخبره بالغيب الممتد في الماضي السحيق ، وأخبره به كأنه شاهد له ، وكلفه بإخبار الناس به ، وكأنه جزء من المشهد عاش مع موسى عند أهل مدين ، وكان مع موسى وهو يناجي الله عند جانب الطور الأيمن .

(٣) الحديث عن غرائب الكون والحياة في البر والبحر والسماء ، وكأنه ﷺ جزء من أهلها .

(٤) الإخبار عن المستقبل في الدنيا والآخرة ليهتدى الناس إلى صراط الله المستقيم .

وفي هذا دلالة واضحة على أن محمدا ﷺ رسول الله ، وأنه عبد الله وحبيبه . يقول الله له : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ^ط وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ ^(١) .

(١) سورة طه ، الآية ١٣٣ .

(٧٣٩)

الركيزة الثانية الإسلام دعوة عامة

فهم بعض المستشرق من قوله : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾^(١) .

إن دعوة الإسلام خاصة بهؤلاء القوم ، وهم العرب أما بنو إسرائيل فقد كثر فيهم المنذرون .

وهذا فهم للآية غير صحيح لأن الإخبار بأن محمدا سيدعو العرب لا يعنى عدم دعوة غيرهم ، لأن الأمر قد يأتى بدعوة هؤلاء مرة ، وهؤلاء مرة أخرى ، فلا خصوصية فى الآية لقوم معينين .

وان احتج قوم بالآية ، وصدقوا بها فإننا نقول لهم إن القرآن الكريم الذى صدقوا به يبين أن الإسلام دعوة للعالم كله ، وخاتما للدين كله ، والآيات يكمل بعضها بعضا .

يقول الله تعالى :

- ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾^(٢) .

- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(٣) .

ويقول النبى ﷺ : "وبعثت إلى الناس كافة"^(٤) .

(١) سورة القصص ، الآية ٤٦ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية ١ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧ .

(٤) صحيح البخارى . كتاب الصلاة . باب قول النبى ﷺ : "جعلت فى الأرض مسجدا ج ١

(٧٤٠)

إن الإسلام دعوة للعالم كله ، وقد ختم الله به الرسالات كلها ، ولذلك جعل القرآن الكريم مفصلاً لقصاص السابقين معرفاً بأمر الرسل ليعلم الجميع أن الإسلام يقر بأديان الله أجمعين .

عناد المشركين وجدلهم قبل مجئ الآيات وبعدها

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٧٤١ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٧٤٢﴾ قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٤٣﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧٤٤﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات دلالة إخبار القرآن الكريم عن غيب الماضي على صدق محمد ﷺ جاءت هذه الآيات لبيان عنت المشركين قبل مجئ الآيات وبعدها ، وضرورة رد مزاعمهم بالدليل والبرهان .

(٧٤١)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المشركين والعصاة إذا حلت بهم مصيبة قبل تبليغهم يقولون : لو جاءتنا رسالة الله لآمنا وصدقنا ، واتخذوا لأنفسهم عذرا ... وان نزلت بهم المصيبة بعد وصول الرسالة يقولون : لو جاءتنا رسالة مادية معينة كالعصا واليد التى كانت لموسى ، وهكذا يستمر جدلهم ، والمهم إفحامهم ورد أباطيلهم كما تبين الآيات .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى أن هؤلاء الذين أرسلناك إليهم يا محمد إذا نزلت عليهم نازلة ، أو أصابهم عذابنا بسبب سوء أعمالهم وأقوالهم قبل أن نرسلك إليهم فإنهم يقولون : ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا قبل أن يحل بنا سخطك ، ويتخذون ذلك حجة لهم ، ويزعمون أن الرسالة لو بلغتهم لآمنوا بها ، واتبعوك ... ولذلك لم ينزل الله عليهم عذابه قبل أن تبلغهم رسالة الله حتى لا تبقى لهم حجة .

و "لولا" حرف امتناع لامتناع أى أنهم لم يقولوا ذلك لأن المصيبة لم تنزل بهم ، إلا أن المقصود تصوير أحوالهم من العنت والجدل .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى فلما جاءهم رسول الله وبلغهم دعوة الله ، وسمعهم معجزة القرآن الكريم تعنتوا ، وطلبوا معجزات مادية

(٧٤٢)

معينة ، وطلبوا أن تكون هذه المعجزات مثل العصا واليد التي جعلها الله معجزات موسى عليه السلام .

وهذا ضلال منهم لأن معجزات الله تأتي من جنس ما تفوق فيه المدعوون ، لأن التفوق يعلم الناس أن المعجزة فوق قدراتهم ، وأنها خارقة للعادة التي يرونها في حياتهم .

ومنذ متى ينتظر القدر اقتراح المشركين ليحقق لهم ما طلبوا !!؟
لقد طلب مشركون مكة آيات حسية من رسول الله ﷺ فأمره الله تعالى وقال له : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ ^(١) .

وسبب هذا الضلال هو عنادهم وفسادهم ، وشأنهم في ذلك شأن المصريين الذين دعاهم موسى عليه السلام فقد كفروا بهذه الآيات حينما جاء بها موسى ، وكفار مكة كهؤلاء سيكفرون أيضا ، ولو رأوا معجزات موسى مرة ثانية لكفروا بها والكفر ملة واحدة ، وقوم موسى وكفار مكة في العنت سواء .

﴿ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ أى أن كفار مكة ، والمصريين قبلهم كفروا بموسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم ، واتهموهما بالتعاون على السحر والشعوذة .

﴿ وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴾ أى أعلنوا كفرهم بموسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم .

فإن قيل : الزمن بين موسى عليه السلام وبين محمد ﷺ طويل ، والفاصل بين الأمتين كبير . فكيف يتفقان في الكفر ، ويتظاهران على اتهام محمد وموسى عليهما السلام ؟

(١) سورة الإسراء ، الآية ٩٣ .

(٧٤٣)

أقول : أن الكفر برسول من الرسل يعنى الكفر بسائر الرسل ، ولسان حال الكفار متشابه ، وما قاله كفار مكة هو ما قاله المصريون عن موسى ، فكأنهما تلاقيا على الكفر ، وتعاونوا عليه .

ومن باب حسن الدعوة والخطاب مجازة مشركى مكة ، والتسليم لهم بمدعاهم ، وطلب شئ منهم بعد ذلك ، وهو ما فى قوله تعالى .

﴿ قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِثْلُ مَا تُتَّبِعُونَ ﴾ أى قل لهم

يا محمد : مادمت لا تصدقون بالتوراة ، وتكذبون بالقرآن الكريم فأتوا بكتاب آخر غيرهما يحمل كلام الله ، ويبلغ دينه ، ويعرفنا بالحكم والأحكام التى يحتاجها الناس ، والتى تحقق لنا السعادة فى الدنيا والآخرة .

وهذا غاية الإنصاف لقيامه على أمر ضرورى وهو الإيمان بوجود الله ووحدانيته ، وضرورة الإيمان به سبحانه وتعالى ، وضرورة أن ينزل كتاب من الله يهدى للحق ، والى صراط مستقيم .

ومادام الأمر كذلك فأتونى بكتاب الله مغاير للتوراة وللقرآن الكريم يكون أفضل منهما ، وأكثر هداية وارشاد لأتبعه ، وأؤمن به معكم .

﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى ائتونى بهذا الكتاب إن كنتم صادقين

فيما تقولون ، وجادين فيما تزعمون .

﴿ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى اعلم

يا محمد أنهم إن لم يستجيبوا لك ، ويأتوك بكتاب آخر فتأكد من أن كلامهم وهم لا حقيقة له ، وأنهم يتبعون الهوى ، ويتركون الحق ، وحديثهم معك جهل وعناد .

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ ؟ ...

الاستفهام إنكارى ، وفيه ينكر الله على المشركين أنهم لا يعلمون أنه لا يوجد

(٧٤٤)

من هو أضل ممن أتبع الهوى ، وسلك سبيل الكافرين ، وحرّم من هداية الله تعالى .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى إن من سنن الله فى

عباده أنه لا يوقف الذين خالفوا أمره ، وتركوا طاعته ، واتبعوا الهوى وأثاروا طاعة الشيطان الرجيم على طاعة الله تعالى ، فوضعوا الطاعة فى غير طاعة الله تعالى .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات تعنت مشركى مكة ، ورفضهم الإيمان ، وطاعة رسول الله ﷺ لأنهم يعتذرون بعدم مجئ الرسول إن نزلت بهم نازلة ، وإن جاءهم رسول أخذوا يطلبون منه آيات كآيات موسى عليه السلام ولا يصدقون بآياته ، وهذا تعنت وعناد سبقهم إليه المصريون حينما كذبوا بموسى وآياته .

وتبين الآيات أن الكفر يجمع المشركين والكافرين ، فالمصريون وأهل مكة كفروا بموسى ومحمد عليهما السلام ، واتهموهما بالسحر والشعوذة والكذب ، وعليهما إن استطاعا أن يأتيا بكتاب آخر غير التوراة والقرآن أهدى منهما فليأتيا به إن كانوا صادقين فى زعمهم واتهامهم .

وتتوعدهم الآيات بأنهم إذا لم يأتوا بكتاب آخر فاعلم أنهم يتبعون هواهم ، والذى يتبع هواه هو أضل العباد ، فقد ابتعد عن هدى الله ، ولن يوفق الله القوم الظالمين الذين عبدوا غيره ، وعصوا ربهم ، وصاروا من جنود الشيطان .

(٧٤٥)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

مواجهة تعنت الجاحدين

أصعب ما يصيب الإنسان من آفة هو الجحود لأنه يعمى البصر ،
ويصم الآذان ، ويفسد القلوب والعقول .

إن الجاحد لا يرى الشمس الساطعة ، ولا يسمع صوت الآذان العالية ،
ولا يرى الصراط المستقيم .

إن الجاحد يحاول تغيير الحقيقة ، ويعمل على أن تتحول الأكذوبة
الصغيرة إلى إشاعة طويلة .

أن الجاحد يصنع جبلا من الأكاذيب ، ويحيط الأكاذيب بغشاوة ، تعمى
أبصار العباد حتى يضلوا سواء السبيل .

إن صناع أكاذيب اليوم هم منافقو الأمس القريب ، هم مشركو مكة الذين
حاولوا وجود عذر لهم بعدم مجئ رسول إليهم، فلما عرفهم الله بأنه لن يحاسبهم
قبل بعث الرسول فيهم طلبوا معزات خاصة ، ورفضوا سواها مع أنها خارقة
للعادة لا يمكنهم الإتيان بمثلا .

إن غايتهم هى الكفر ، ومحاولاتهم هى الهرب من الإيمان ، وتلمس
المعاذير ... وقد عرف الله رسوله بهؤلاء الجاحدين ليحذرهم ، ولا يحزن عليهم ،
ولا يك فى ضيق مما يمكرون .

إن أى معجزة يختارها الله للناس هى الدليل الشاهد على صدق الرسول
والله حكيم فى اختيار معجزات الرسول ، عليم بعباده أجمعين .

ولو جئنا للواقع الذى جاء فيه رسول الله ﷺ لعلمنا أن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان ، الباقية فى كل الزمن بين الناس وهى التى تواجه الظلم والفساد فى كل صوره ، وأزمانه وحيله ... ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾^(١) .

الركيزة الثانية

ضرورة الحكم بعد ثبوت عجز الخصم

تشتد معارك الحياة ، ويحاول كل فريق أن ينتصر لمذهبه ، واتجاهه ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾^(٢) إلا أن الحقيقة الثابتة هى الباقية مع الناس يقول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَنْزَعُ عَنْهُ أَطْعَمًا وَاَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾^(٣) .

ولا بد للحقيقة من الظهور ، وخاب قوم ضاع الحق بينهم ... إن الأمة المسلمة هى الأمة الخيرية التى تنتشر الصواب ، وتعيش بالصلاح والاصلاح وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر . يقول الله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(٤) .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٥١ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية ٥٣ .

(٣) سورة الرعد ، الآية ١٧ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية ١١٠ .

(٧٤٧)

ويجب على المسلم أن يساهم فى إظهار الخير ، ويعمل على تقوية الصواب بين الناس ، ويرد كيد المعتدى ، ومعه حجج دينه ، وبراهين القرآن الكريم .

لقد تحداهم القرآن عن أن يأتوا بكتاب أهدى من القرآن الكريم إن استطاعوا فعجزوا ، ولذلك بين الله ضلالهم ، وبين أنهم أضل الناس لأنهم يتبعون الهوى ، وأن الله لن يوفقهم لخير أبدا .

مضاعفة جزاء من دخل فى الإسلام من أهل الكتاب

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الذِّينَ ٥١] الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الذِّينَ ٥٢] وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ [الذِّينَ ٥٣] أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا
صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الذِّينَ ٥٤] وَإِذَا سَمِعُوا
الَّلْغَوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي
الْجَنَّةَ ۖ ﴾ [الذِّينَ ٥٥] .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة تعنت مشركى مكة ، وعدم إيمانهم بالإسلام جاءت هذه الآيات تبين أن بعض أهل الكتاب آمنوا بالإسلام بعدما رأوا براهينه وأدلته ، فاستحقوا الأجر مرتين ، مرة لإيمانهم بدينهم السابق ، ومرة لإيمانهم بالإسلام .

(٧٤٨)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل القرآن الكريم منجما فى مجموعات من الآيات متواصلة ليسهل حفظها والعمل بها ، وتذكرها ... وتبين أن اليهود والنصارى الذين يدخلون فى الإسلام لهم أجران ، أجر لإيمانهم بدينهم الأول ، وأجر آخر لدخولهم فى الإسلام ، وهؤلاء يجزيهم الله الجزاء الحسن لصبرهم ، وحسن خلقهم ، وكثرة إنفاقهم ، واعراضهم عن اللغو والسفاهة ، وترك الجاهلين .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى ولقد أنزلنا

القرآن الكريم منجما لتتواصل جزئياته ، وينزل بعضه إثر بعض وفق ما تقتضيه حكمة الله تعالى ، وترشد إليه المصلحة ... وذلك أقرب ما يحقق التذكر ، لأن القراء فى كل يوم يطلعون فيه على حكمة جديدة ، وفائدة زائدة وبذلك يتحرك عقولهم ، وتهتدى نفوسهم ، ويثبت الإيمان فى حياتهم ، ويعيشون نوره ، وهو يتجدد فى حياتهم .

﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى أن اليهود

والنصارى الذين أنزل لهم التوراة والإنجيل قبل نزول القرآن الكريم يعرفون صدق القرآن الكريم ، ومحمد ﷺ لأن كتبهم عرفتهم بأوصاف محمد ﷺ ، وبشرتهم به ، كما أنهم يعرفون خاصية كلام الله تعالى ، وما فيها من إعجاز وهذا يجعلهم يسارعون إلى الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن الكريم .

والضمير فى ﴿ قَبْلِهِ ﴾ و ﴿ بِهِ ﴾ يعود إلى القول المذكور فى الآية

السابقة وهو القرآن الكريم ، والإيمان بصدق القرآن الكريم إيمان بمحمد ﷺ

وبالإسلام كله . يقول الله عنهم : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾^(١) .

﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ أى إذا قرئ عليهم القرآن الكريم أعلنوا إيمانهم به ، وبينوا أنه كلام الله حقا ، وأنهم يصدقون به قبل نزوله لأن كتبهم بشرت به ، ووصفته لهم .
﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى إن الله يجازى الكتابيين الذين يدخلون فى الإسلام خيرا ، ويجازيهم أجرهم مرتين بسبب إيمانهم ، وصبرهم فى طاعة الله تعالى ، وتحملهم لأذى المتعصبين من أقوامهم ومن المشركين ، والحديث فى الآية يؤكد مضاعفة ثواب هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب ... يقول النبى ﷺ : "ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ، وأدرك النبى محمدا ﷺ فأمن به ، واتبعه وصدقه فله أجران .

وعبد مملوك أدى حق الله ، وحق سيده فله أجران .
ورجل كانت له أمة فغذاها ، فأحسن غذائها ، ثم أدبها فأحسن أدبها ، ثم اعتقها وتزوجها فله أجران"^(٢) .

إن الله واسع العطاء ، كثير الفضل يحب لعباده أن يكونوا على دين الله الحق ، والمحافظة على الحقوق والآداب ، والأخلاق الكريمة .

(١) سورة المائدة ، الآية ٨٣ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الإيمان . باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ ج ١ ص ١٣٤ .

﴿ وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أى ويدفعون أى سوء أو أذى يوجهه إليهم بالصفح والعفو ، والخلق الكريم .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أى وينفقون مما أعطاهم الله تعالى ، ويؤدون ما وجب عليهم ، ويساعدون المحتاجين .

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أى إذا سمعوا كلاما لغوا لا فائدة فيه ، ولا نفع من ورائه مثل السب ، والمخاصمة ، والتمسك بالباطل ، وتكذيب الرسول ، والمراء والجدل أعرضوا عنه وعن قائله ، وتركوا مجالستهم ، وبعدوا عن مجادلاتهم ، وقالوا : لكل منا جزء عمله ، ثوبا وعقابا ، فنحن لا نشغل أنفسنا بالرد لأنه لا يفيد ، ويبتعدون عنهم مسالمين ، مؤكدين أنهم لا يقصدون طريق الجاهلين المفسدين ، ويبتعدون عنه بعدا تاما .

وهكذا حددت الآيات أهم صفات المؤمنين من أهل الكتاب ... وهى :

- (١) يؤمنون بالإسلام عن يقين فلقد علموه من كتبهم التى بشرت به .
- (٢) يتميزون بحسن الخلق فلا يقابلون السيئة بمثلها ، بل يردون على السفاهة بالخلق الحسن .
- (٣) يعطون المحتاجين من أموالهم ، وعلمهم ، وعملهم ، ويؤدون الواجب عليهم للآخرين .
- (٤) يتركون مجالس اللهو ، ويعرضون عن المراءاة ، والسفاهة .
- (٥) يختارون من يجلسون معه ، ويأبون مجالسة السفهاء الجاهلين .

روى محمد بن إسحق : أنه قدم على رسول الله ﷺ . وهو بمكة . عشرون رجلا ، أو يزيدون من نصارى الحبشة حين بلغهم خبره ، فوجدوه فى المسجد ، فجلسوا إليه ، وكلموه ، وسألوه ، ورجال من قريش فى أدينتهم حول الكعبة . فلما فرغوا من مساءلته عما أرادوا دعاهم إلى الله ، وتلا عليهم القرآن الكريم ، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ، واستجابوا لله ، وآمنوا به وصدقوا رسول الله ﷺ ، وعرفوا فيه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش فقالوا لهم : خبيكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم ، وصدقتموه فيما قال ، ما رأينا ركبا أحق منكم . فقالوا لهم : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله نزل القرآن الكريم منجما ليسهل حفظه وتذكره ... وتوضح أن من أهل الكتاب من يؤمن بدينه ، ويؤمن بالإسلام حين يسمع القرآن الكريم فقد بشرت به رسلهم وكتبهم ... إن هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب يتصفون بصفات رفيعة عالية ، فهم يسارعون إلى الإيمان ، ويقابلون السيئة بالحسنة ، وينفقون من أموالهم ، ويهجرون مجالس اللهو ، والرياء .

(٧٥٢)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان فائدة تنجيم القرآن الكريم للناس

أنزل الله القرآن الكريم لهداية الناس ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور وقد أنزله الله منسقا مع طبيعة الإنسان ليأخذ به إلى الخير ، ويهديه إلى الحق والصواب .

إن الإنسان ذو نفس تتطلع لكل جديد يحدث ، ولذلك أخذ القرآن الكريم ينزل منجما لتتواصل معلوماته مع آمال الإنسان وأحلامه .

والإنسان يصاب بالملل إن عاش قضية واحدة ، ولذلك جاء القرآن الكريم مجزءا متجددا ، وكلما حفظ الإنسان أمرا نزل غيره ، وكلما احتاج لحكم أنزل الله ما شرعه له .

إن الموضوع الطويل ، المتضمن لموضوعات كثيرة ، يحتاج إلى حافظة قوية ، وإلى تكرار قراءته وتفهمه ، وإذا عاشه الإنسان ينسى بعضه بعضا أحيانا ، ويعجز الإنسان عن تدبره كله ، ولذلك نزل القرآن الكريم مجزءا ليبقى محفوظا فى عقول وقلوب الرجال ، وتستمر سهولته فى الفهم ، والحفظ ، والتطبيق .

إن الإنسان ضعيف يحتاج إلى من يعينه ، ويقويه ، ويثبتته ، ولذلك نزل القرآن منجما ليرد غائلة المعتدين ، وأكاذيب المفسدين يقول الله مبينا حكمة نزول القرآن الكريم منجما ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً

(٧٥٣)

وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٣﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٤﴾^(١) .

وعلى الدعاة أن يستفيدوا من نزول القرآن الكريم دروسا وعبرا .
عليهم أن يتواصلوا مع القرآن الكريم على مهل ، لأن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهر أبقي ، ويستفيدوا في هذا من تعليم رسول الله ﷺ القرآن الكريم لأصحابه ... لأنه ﷺ كان يعلمهم الآيات القليلة ، ولا يغادرها حتى يتموه حفظا ، وفهما ، وعملا ... وكان ﷺ يتخول أصحابه بالموعظة مخافة السامة عليهم ، وعلى الدعاة أن يستفيدوا بهذه التجزئة مع عرض الدعوة على الناس ، وذلك بأن يتخيروا الموضوعات التي يدعون إليها ، ولا يتقلون على الناس بها وأن يتعاملوا مع الناس مراعين طاقاتهم ، وامكانياتهم ليصلوا إلى قلوبهم ، وسلوكهم .
وعليهم مراعاة حال الناس في الخطاب ، فمنهم من يحتاج إلى الإطناب والتكرار واثارة الوجدان ... ومنهم من تكفيه الإشارة ، ويعجبه الإيجاز ، ومنهم من يميل إلى البحث بذاته بعيدا عن أى خطاب .

الركيزة الثانية

زيادة عطاء الله تعالى كلما زاد الإيمان

الله مطلع على قلوب عباده ، وأعمالهم ، وهو سبحانه وتعالى وعد ، وقال : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾^(٢) ولذلك عطاء الله الجزيل لكل من

(١) سورة الفرقان ، الآية ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) سورة الكهف ، الآية ٣٠ .

(٧٥٤)

آمن به واصلح عمله ، فمن آمن بدينه من أهل الكتاب ، وآمن بالإسلام
يضاعف الله له العطاء ، ويجزل له المثوبة .

إن الإسلام ينادى فى الناس ليعلموا صوابا ، ويعملوا صالحا ، ويتخلقوا
بالخلق الكريم ، ويتعاونوا على البر والتقوى ، ويحافظوا على وحدة الأمة ،
ويبتعدوا عن سفاهة العمل والسلوك .

إن الإسلام دين القيم الرفيعة ، والعمل المستقيم ، ولذلك دعا إلى طاعة
الله ، وبشر المؤمنين بحسن الثواب .

تسليّة النبي ﷺ فى عدم إيمان مشركى مكة وتذكيرهم بنعم الله

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تُخْطِفُ مِنْ أََرْضِنَا أَوْ لَمْ
نُكِن لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا تَجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ .

- ١ -

أسباب النزول

نزلت الآية الأولى فى أبى طالب عم النبي ﷺ .

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال : نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ

أَحْبَبْتَ ﴾ فى رسول الله ﷺ حين راود عمه أبا طالب على الإسلام وقال له :

"يا عم قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة .

(٧٥٥)

قال أبو طالب : لولا أن تعيرني قريش ، ويقولون إنما حملة على ذلك
الجزع لأقررت بها معك" ، ثم أنشد :

ولقد علمت بأن دين محمد .: من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة .: لوجدتني سمحا بذاك مبينا

وبقى أبو طالب على ملة آبائه عبد المطلب وعبد مناف حتى مات ،
فأنزل الله هذه الآية .

ونزلت الآية الثانية في الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف وذلك
أنه قال للنبي ﷺ : إنا لنعلم أن الذي تقول حق ، ولكن إن اتبعناك على دينك
خفنا أن تخرجنا العرب من أرض مكة ، فنزل قول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُمْكِّنْ
لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ وذلك أن العرب كانت في الجاهلية يغير بعضهم على بعض
ويقتل بعضهم بعضا ، وأهل مكة آمنون حيث كانوا يؤمنون بحرمة الحرم . ومن
المعروف أن الأطباء كانت تأمن من الذئاب ، والحمام من الحداة^(١) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن أهل الكتاب يسارعون إلى الإسلام جاءت هذه
الآيات لتسلية رسول الله أمام إعراض المشركين عن الإيمان بدعوته .

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن أمر الهداية والتوفيق بيد الله وحده ، وعلى الرسول البلاغ
وحده ، وعليه ﷺ أن لا يجزع من كفر أهل مكة به ، ولا يأبه بأعذارهم فهي
واهية مردودة ، والله معه ناصر ، ومعين .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ١٧٨ .

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أى إنك يا محمد لا تستطيع هداية إنسان ما ، ولو كنت تحبه من قومك ، أو من غيرهم فلا تحزن على شرك أحد وما عليك إلا البلاغ المبين .

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى إن الله يعلم ميول عباده ، ويهدي من يستحق الهداية ، ويضل من مال إلى الضلال ، والأمر كله بيد الله تعالى .
﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أى وهو سبحانه العليم بمن يستحق الهداية فيهديه ، ويوفقه لسعادة الدنيا والآخرة .

﴿ وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ أَهْدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ أى قال المشركون لرسول الله ﷺ : إننا نخشى إن اتبعناك ، وآمنا برسالتك ، وخالفنا ما حولنا من المشركين والعرب أن يقصدونا بالأذى ، ويخرجونا من ديارنا ، ويحولوا استقرارنا إلى رعب وارهاب .

وقد رد الله على المشركين هذا التعليل فقال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا ﴾ ؟ ... الاستفهام لإنكار ما يقولون أى أعجزنا عن حمايتهم فيما سبق ؟ ... وقد مكناهم فى مكة ، وجعلناها لهم مستقرا ، وحرمنا فيها القتال ، وجلبنا إليها كافة ثمار الأرض ، وكان الناس من حولهم يتخطفون ، ويخافون ، ويحتاجون ...

إن الله قد استجاب دعوة إبراهيم لأهل مكة حينما قال لربه ما حكاه الله عنه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مِّنْ ءَامِنٍ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا

ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١﴾ ، وقد حقق الله دعاء إبراهيم عليه السلام لأهل مكة قبل وجودها ، فلقد ترك إبراهيم عليه السلام ولده إسماعيل وأمه هاجر عليهما السلام في مكان البيت الحرام ، وهى يومذاك أرض صحراوية قاحلة ، وكان دعاؤه عليه السلام ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (٢) وقد جعل الله مكة حرما آمنا ، ورزق أهلها الثمرات وأحاطها بحب الناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، وجعل الكعبة قبلة المسلمين أجمعين .

ومن الضرورى التيقن بأن من فعل ذلك قادر على حماية عباده المؤمنين فى مكة وتحقيق السلامة والأمن لهم واستجاب دعاء إبراهيم فأمن المشركين والكافرين ... أفلا يحقق الله سبحانه وتعالى للمؤمنين الأمن والحماية !!! وقد وعدهم بها ... ؟

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى ولكن أكثر المشركين يجهلون حقيقة الألوهية ، ولا يعلمون وعد الله لمكة ، ولذلك يقولون ما يقولون .

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الهداية بيد الله تعالى ، وما على الرسول إلا البلاغ وعلى الرسول أن لا يلتفت إلى الأباطيل التى يدعيها مشركو مكة ، فالله عليم خبير ، ولو أخذ العبرة من تقدير الله لهم ما قالوا ما قالوا فقد جعل الله مكة حرما آمنا ، وسط إرهاب وخوف يعيشه الناس حول مكة .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٢٦ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٣٧ .

(٧٥٨)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

المسئولية في الإسلام فردية

أنزل الله دينه للناس بينا واضحا ، وحدد لكل إنسان حقه وواجبه ، وعرفه بأن الآخرة هي دار الحساب والجزاء . وقد بين الإسلام أن المسئولية فردية ف ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾^(١) ، ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۚ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾^(٢) .

إن الله سيسأل كل إنسان يوم القيامة وحده ، ولن يدفع عنه شريك أضله أو رائد وجهه إلى عبادة الأصنام .
وقد بينت الآيات إن الهداية بيد الله تعالى ، وكل ما على الرسول هو البلاغ ، وهذا الحال تؤدي به ﷺ إلى أمور :

الأمر الأول : إن البلاغ المبين هو مسئولية الرسول وحده .

الأمر الثاني : عدم التأثير بدعايات المرجفين الذين ينشرون المعوقات بين الناس .

الأمر الثالث : الإيمان المطلق بقدرة الله تعالى ، وتسليم الأمر له والتوكل عليه ، فهو على كل شئ قدير ، وإذا أراد الله شيئا قال له كن فيكون .
وتلك دروس أساسية يحتاج الدعاة إليها .

(١) سورة الطور ، الآية ٢١ .

(٢) سورة القيامة ، الآية ١٤ ، ١٥ .

الركيزة الثانية

ثقة المؤمنين في الله تعالى

يوجد بين الناس مثبطون ، يعملون على إبعاد غيرهم عن منهج الله تعالى وإشاعة أن الإيمان الصحيح الجاد سبب لعداوة غير المؤمنين ، وعدوانهم ، ولسان حالهم يقول : ﴿ إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ تُتَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا ﴾^(١) .
وهم بهذه المقالة ينسون قدرة الله ، ولا يستفيدون بتجارب الماضي ، ويعارضون مسار الوجود .

أما نسيانهم قدرة الله تعالى فقد أعلنوا خوفهم من البشر ، ولم يخافوا من غضب الله تعالى .

وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تتخطفهم وهم في حمى الله ، وتملك أن تنصرهم إذا خذلهم الله . ذلك أن الإيمان لم يخالط قلوبهم ، ولو خالطها لتبدلت نظرتهم للقوى ، ولأختلف تقديرهم للأمور ، ولعلموا أن الأمن لا يكون إلا في جوار الله ، وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عن هداه .

إن هذا الهدى موصول بالقوة ، موصول بالعزة ، وأن هذا ليس وهما وليس قولاً يقال لطمأنه القلوب ، إنما هو حقيقة عميقة منشؤها أن اتباع هدى الله معناه الاصطلاح مع ناموس الكون وقواه ، والاستعانة بها وتسخيرها في الحياة . فالله خالق هذا الكون ومدبره وفق الناموس الذي ارتضاه له . والذي يتبع هدى الله يستمد مما في هذا الكون من قوى غير محدودة ، ويأوى إلى ركن شديد ، في واقع الحياة .

وأما عدم استفادتهم بتجارب الماضي ، وقصص الأنبياء فخوفهم من عدوان المشركين وعدوانهم فقد رد الله عليهم بما قدره لهم حيث سكنوا مكة التي

(١) سورة القصص ، الآية ٥٧ .

(٧٦٠)

جعلها الله حرماً آمناً خالياً من العدوان ، كثير الثمر ، مبارك الرزق فى وقت رأوا الخوف والإرهاب يحيط ببلدهم من كل جانب .

وأما تناقضهم مع الكون المخلوق الذى أوجد الله تعالى فهم يرون الوجود كله يتكامل فى حركة واحدة متناسقة مترابطة ، وهذا يؤكد إن هدى الله منهج حياة صحيحة . حياة واقعة فى هذه الأرض . وحين يتحقق هذا المنهج تكون له السيادة الأرضية إلى جانب السعادة الأخروية . وميزته أنه لا انفصال فيه بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ، ولا يقتضى إلغاء هذه الحياة الدنيا أو تعطيلها ليحقق أهداف الحياة الآخرة . إنما هو يربطهما معا برباط واحد : صلاح القلب ، وصلاح المجتمع ، وصلاح الحياة فى هذه الأرض . ومن ثم يكون الطريق إلى الآخرة . فالدنيا مزرعة الآخرة ، وعمارة جنة هذه الأرض وسيادتها وسيلة إلى عمارة جنة الآخرة والخلود فيها بشرط اتباع هدى الله .
والتوجه إليه بالعمل والتطلع إلى رضاه .

وما حدث قط فى تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها الله القوة والمنعة والسيادة فى نهاية المطاف بعد إعدادها لحمل هذه الأمانة . أمانة الخلافة فى الأرض وتصريف الحياة .

إن العاصى لأوامر الله يشبه السابح عكس تيار الماء ، ويشبه الطائف بالكعبة عكس مسار الطائفين ، وبذلك لن يصل لما يريد .

فضل الله على أهل مكة

يقول الله تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ^ط فَتِلْكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ^ط وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا ^ع وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ^ع وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ^ع أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة فضل الله على أهل مكة بتحقيق الأمن التام والرزق الواسع جاءت هذه الآيات بفضائل أخرى حققها الله لأهله مكة ، ومنها عدم استئصالهم واهلاكهم بالعذاب كما أهلك الأمم السابقة ... ومنها تمكينهم من متع الحياة الدنيا ، رغم أنهم لم يهتدوا إلى الحق والصواب .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أهلك أمما سابقة ، واستأصلهم لكفرهم ، وظلمهم ، وبطرتهم وفسادهم ، واغترارهم بمتع الحياة الدنيا ، وتركهم لمتع الآخرة وهى خير وأبقى حتى يتعظ مشركو مكة ، ولا يكونوا مثلهم .

(٧٦٢)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أى أهلكنا كثيرا من القرى التى أثرى أهلها ففسقوا ، وأفسدوا ، ولم يشكروا نعمة الله فيهم فحل بهم الهلاك والدمار .

﴿ فَتِلْكَ مَسْجِدُهُمْ لَمْ تُمْسِكْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وها هى بيوت الهالكين أمامكم يا أهل مكة قد خربت ، ولم يبق منها عامر إلا القليل .

﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ أى أن أهل القرى قد هلكوا جميعا ، وتركوا ديارهم وأموالهم ، ولم يأخذوا منها شيئا فورثهم الله تعالى ، وقدرها لغيرهم من الناس ، وفى هذا بيان لأهل مكة ليقدرُوا نعمة الله فى عدم إهلاكهم مثل القرى المذكورة ، وتوضيح لهم ليعلموا أن رسول الله بينهم يدعوهم ، ورغم استمرارهم على الكفر فإن الهلاك التام لن يلحق بهم لما سبق من علم الله أنه لن يستأصل أمة بعذاب الله منذ نزول التوراة .

وهذه نعمة أخرى قدرها الله لأهل مكة فمع تمكينهم من الحرم الآمن ، والرزق الوفير أعطاهم الوقت الكافى ليؤمنوا ، وليخرج من أبنائهم من يعبد الله تعالى ، وقد حدث ، فقد أخرج الله من أبناء مكة والمدينة والسابقين جندا نشروا الإسلام فى العالم كله .

ثم بين الله رحمته بعباده فى إرسال الرسل فقال تعالى .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا

عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ﴾ ولقد قضى الله فى الناس بسنته التى قضت بعدم إهلاك أهل أى قرية إلا بعد أن يبعث فى أكبرها ، وأعظمها رسولا يصطفيه من عباده ،

وينزل عليه الوحي ، ويؤيده بالمعجزات ، ويكلفه بتلاوة الوحي المنزل لهم حتى يكون حسابهم على أساس علمهم ، ويكون هلاكهم وعذابهم على قدر عدلهم أو ظلمهم .

و "القرية الأم" هي القرية الكبيرة التي يتم فيها الحكم والقضاء ، ودور العلم والرئاسة ، وأهلها أهل فطنة وكياسة ، وأصحاب عقل وتفكير ، ولذلك يتقبلون الدعوة ، ويفكرون فيها ، ويتدبرون صوابها ، ويعلمون غيرهم ... أما القرى الصغيرة التي تحيط بالقرية الأم ، فأهل هذه القرى يتبعون ذوى الرأى فى القرية الكبرى .

وأیضا فإنه لابد من تبليغ الدعوة بواسطة الرسول ، والدعاة ، والعلماء حتى لا يكون للناس عذر فى عدم إيمانهم ، ويقولون : ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾^(١) وقد قضى الله تعالى بضرورة الدعاة للدعوة فى قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(٢) .

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ أى ولن يهلك الله قرية إلا بعد أن يظلم أهلها ، ويثبت عليهم هذا الظلم ، وذلك بمعصية الرسول والشرك بالله ، وعبادة من لا يستحق العبادة .

وقوله تعالى : ﴿وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ يفيد أن حالتهم استقرت على الظلم فاستحقوا ما حل بهم من هلاك ودمار .

وقد يغتر الظالمون بما أوتوا من متاع الحياة الدنيا مع كفرهم وفسادهم ، وهذا وهم كاذب لا قيمة له ... يقول الله تعالى : ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ

(١) سورة طه ، الآية ١٣٤ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ١٥ .

فَمَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١﴾ أى وما أعطاكم

الله أيها الناس من الشهوات التى تحبونها من النساء ، والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيول المسومة ، والأنعام ، والحرث فذلك متاع الحياة الدنيا ... وما عند الله فى الآخرة خير وأبقى .

وذكر متاع الحياة الدنيا ، وما عند الله يشير إلى عدة أمور هامة :

الأمر الأول : بيان أن المعطى والمقدر لمتع الدنيا ، ومتع الآخرة هو الله تعالى .

الأمر الثانى : إن متع الحياة قليلة النفع ، قصيرة الأجل ، كثيرة النكد يصاحبها الشيطان ، وتنشط معها النفس الإمارة بالسوء ... بينما متع الآخرة هى الأفضل ، والأعظم ، والأبقى ... فكل ما فى الدنيا محدد بزمانها ، متأثر بأهلها ، وأما ما فى الآخرة فهو خالد بخلودها ، صالح بصلاح أهلها الذين سيدخلونها .

الأمر الثالث : إن متع الدنيا لا تخلوا من صراع وتسابق ، وحقد وكراهية ، أما متع الآخرة فهى مصانة محفوظة لأنها عند الله ، يعيش أصحابها فى نعيم دائم مقيم : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾^(١) .

الأمر الرابع : المؤمنون وحدهم هم الذين يوازنون بين متع الدنيا ، ومتع الآخرة فيضعون متع الدنيا فى موضعها المشروع ، ويقصدون بها طاعة الله تعالى لتكون عوناً لهم فى نوال متع الآخرة .

إنهم فى الدنيا يحصلون على المال بالطرق المشروعة ، وينفقونه فى الطرق المشروعة ، والمرأة يتزوجونها بشرع الله ، ويعاملونها بالحسنى . ويتمتعون بعباء الله بلا كبر ، ولا خيلاء ، وبلا نسيان لفضل الله العظيم .

(١) سورة طه ، الآية ١٣٤ .

إنهم أولو الألباب ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾^(١) .

وليس من اللازم أن تأخذ متع الدنيا طريقا لا يوصل لمتع الآخرة ،
والعاقل من فهم ذلك فيتمتع بالدنيا فى إطار شرع الله ويتخذها طريقا للحصول
على سعادة الآخرة . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴾^(٢) .

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى أنسيتم أيها الكافرون هذه الأمور فلم تعقلوها ، ولم
تتمكنوا من اختيار الطريق الذى يحقق لكم سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .
ثم يسأل الله الناس عن صورة رجلين أحدهما مؤمن ، والآخرة مشرك
ليختاروا لأنفسهم واحدا منهما .

الرجل الأول : يقول الله عنه : ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ
لَٰئِقِيهِ ﴾ هذه الصورة تعنى إنسانا دعاه الله إلى طاعته ، وأمره بالاستقامة على
دينه ، ووعده على ذلك وعدا حسنا فى الآخرة حيث الفوز بالجنة ، ورضوان الله
... فأمن واستقام وصلح عمله فى الدنيا ، ولهذا سينال ما وعده الله به الآخرة .

والرجل الثانى : يقول الله عنه : ﴿ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ أى هذا الرجل رزقه الله رزقا حسنا فى
الدنيا فصرفه فى المعاصى ، وعاش به فى الفحشاء والمنكر ، وأضاع حظه فى

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩١ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ١٩ .

(٧٦٦)

الآخرة لأنه مذموم بسبب عمله فى الدنيا ، ومحاط بنار جهنم ، يحضره الله
معذبا مهانا إلى جهنم .
فهل يستوى هذان الرجلان ؟
وهل يشبه هذا ذاك ؟

إنهما لا يستويان أبدا ... وقد ساقنا الآيات سؤالها ، ودليلها بأسلوب
الاستفهام عن تساويهما فى الإيمان والفهم ، والعمل ، والطاعة ، والاستحقاق
الأخرى ، لأن أسلوب الاستفهام أبلغ فى الفهم ، وأقرب إلى الإدراك العقلى ،
وحين يشتمل الاستفهام على الإنكار فإنه يكون أبلغ فى الدلالة ، وأقوى فى
الإقناع .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أهلك كثيرا من القرى التى كفرت بأنعم الله فخرت
ببيوتهم ، وهلك أصحابها جميعا ، وورثها الله لغيرهم .
لقد قضى الله بأن لا تهلك قرية إلا بعد أن يرسل إليها رسولا قطعا لعذرها
، وإقامة للحجة عليها ، ولذلك لا يهلكها إلا بعد ظلمها .
وعلى الإنسان أن يعلم أن متاع الدنيا قليل ، والعاقل من استفاد وفاز
بالآخرة لأن المطيع لله سيفوز بالجنة ، ومن عصى ربه يكون من الخاسرين .

(٧٦٧)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

شواهد وعبر فى التاريخ

يسمى ابن خلدون علم التاريخ بـ "علم العمران البشرى" لأنه يراه بحق منهجا عمليا للنجاح أو الفشل ، ففيه قامت أمم ، وآمنت ، وفازت ... وفيه فسدت أمم أخرى ، وكفرت ، وهلكت ... وهذه وتلك يقدمها التاريخ للحاضر والمستقبل ليختار الإنسان طريقه ، وتحدد الأمة مسارها .

ولقد أبقى الله من أحداث الماضى آثارا من القرى ، والأحجار ، والنباتات لتشهد على ما حدث ... وفى هذا الآثار نقوش ، ورسوم ، وكتابات تعرف الناس بما كان .

أن التاريخ مدرسة تحتاج إلى دعاة يأخذون منها الدروس والعبر لإيصالها لطلاب يبحثون عن الطريق ليعلموا أن التاريخ تتكرر حوادثه ، وتتشابه وقائعه ، وأن كثيرا من الأمم هلكت بسبب بطرها وكفرها ، وفسقت كما فسق من سبقهم فأهلكهم الله كما أهلك السابقين .

إن قصص القرآن الكريم دعوة للاستفادة من التاريخ ، وهو فى حاجة إلى دعاة يفهمون ، ومدعوين يستجيبون ، ويؤمنون حتى لا يكونوا مثل هؤلاء الغابرين .

الركيزة الثانية

ضرورة الدعوة والبلاغ

يقيم الله الحجة على عباده ، ولا يعاقبهم إلا بعد أن تنقطع حججهم وأعدائهم ، وتحدد بذلك جانب من جوانب الدعوة إلى الله تعالى التى لا بد منها

(٧٦٨)

لابد من تبليغ الدعوة إلى الناس بينة واضحة على وجهها الصحيح ليراها الناس بحقيقتها ، ويدركون مزاياها وفوائدها ... ولذلك لا يهلك أمة من الناس إلا بعد وصول الدعوة إليهم بواسطة رسول يبلغهم الإسلام ، ويترك معهم كتاب الله يقرأونه ، ويأخذون منه الحكم والأحكام .

والدعاة بعد رسول الله هم حملة الدعوة ، ورثة النبوة .

ولا يعد من البلاغ إيصال الإسلام للناس بصورة مشوهة كما يفعل بعض العنصريين الكارهين للإسلام حين يقدمونه للناس بأنه دين التخلف والقرون الوسطى ، والعبودية ، وعدو المرأة .

ولا يعد من البلاغ سفاهة بعض المسلمين الذين يدعون الإسلام ، ويقومون بعكسه جهلا وعصبية .

إن الله رحيم بعباده ، ولن يعذب أحدا وهو جاهل ، ولن يعذب جماعة إلا بعد ثبوت ظلمهم وعدوانهم .

إن الدعوة في العصر الحديث تحتاج إلى أناس يفهمون الإسلام ، ويعملون به ، ويحملونه إلى الناس بما فيه من هداية ، ورحمة ، وخلق .

الركيزة الثالثة

المساواة بين الحق والباطل لا تجوز

تبين الآيات مسألة جوهرية ، وهى إن الدنيا بكل ما فيها من زينة ، ومال ، وولد وجاه سلطان لا تساوى شيئا من متع الآخرة ، ولذلك فأى مقارنة بين متع الدنيا وبين متع الآخرة لا تجوز .

إن الدنيا هى ما ترونها فهى قليلة لا تشبع ، قصيرة العمر فهى تنتهى ، يصاحبها المرض ، والنكد ، والصراع ، والحسد . أما الآخرة ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

والعاقل من استفاد بذلك ، واستقام على دين الله تعالى .

خزى المشركين فى الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۚ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿١٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمَعُونَ ﴿١٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿١٧﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

بعد أن بينت الآيات سوء من تمتع بالدنيا فى معصية الله ، وكفر به ، ولم يطع الرسول ﷺ جاءت هذه الآيات لبيان حسرة المشركين ، وندمهم فى الآخرة وعجزهم عن الإجابة ، وتقبيحهم على سوء ما كانوا فيه فى الدنيا .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات سوء ما عليه المشركون فى الآخرة من الحسرة ، والخزى والندامة ، والعذاب الأليم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أى

اذكر لهم يا محمد يوم القيامة حين يسألهم الله عن الشركاء الذين اتخذوهم آلهة وعبدوهم من دونه ، وزعموا ألوهيتهم ، سواء كانوا من الملائكة ، أو من

(٧٧٠)

الأصنام ، أو من الناس ... أو غير هؤلاء ... فى يوم القيامة يسألهم الله عنهم ليحضروهم شفعاء لهم ، أو نصراء ينصرونهم ، أو أولياء يتولون عنهم شيئاً . وهذا سؤال تبكيت وتقريع لأن هذه الآلهة تتبرأ منهم ، وتتفى رضاها عما فعلوا .

ويجيب الله عن سؤاله بقوله : ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ أى ينطق الله الآلهة المزعومة والشياطين الموسوسة ، وهى التى حق عليها القول ، فترد على السؤال وتقول : يا ربنا إن هؤلاء الذين أضللناهم وأغويناهم لم نجبرهم على أى فعل ، وانما هم الذين اختاروا بأنفسهم الغواية كما اخترناها لأنفسنا ... ولم يكن منا لهم إلا الوسوسة ، والتزيين ، فهم ضلوا باختيارهم .

﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى إنا نتبرأ إليك منهم ، ومن كفرهم ومعاصيهم ، فلا لوم علينا بسببهم .

﴿ مَا كَانُوا إِلَّا نَارًا يَعْبدُونَ ﴾ أى أنهم ما كانوا يعبدوننا ، وانما كانوا يعبدون الأصنام والأوثان ، والأجسام التى صنعوها ، وظنوا لها روحا وادراكا كما زيننت لهم نفوسهم .

﴿ وَقِيلَ ﴾ أى وقيل للمشركين ﴿ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أى نادوا واحضروا الآلهة التى عبدتموها من دون الله لتدافع عنكم ، وتتصركم ، وتشفع لكم . ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ أى لم يجيبوهم لأنها أصنام جامدة ، وأجساد هامة انتهت بنهاية الدنيا ... فيصابون بالخيبة والخسران على رعوس الأشهاد .

﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهِتَدُونَ﴾ أى ونزل العذاب بهم ، وعاینوه وهم فيه یعذبون ، وحينئذ یتمنون أن لو كانوا مؤمنين فى الدنيا حتى لا ينزل بهم ما هم فيه الآن ، فيزدادون حسرة وندامة .

ويسألهم الله وهم فى هذا الموقف البئس . يقول الله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ أى اذكر يا محمد يوم القيامة والمشركون يعذبون ، والله يسألهم تقریعا لهم : ماذا أجبتكم المرسلين ؟ وماذا قلتم وفعلتم فيما طلب منكم ؟ وهل تركتم عبادة الأصنام والأوثان بعد أن تبين لكم فسادها ؟

ومع هذا السؤال لا یملكون جوابا ، وتصيبهم الحيرة فلا يتكلمون ، يقول الله تعالى : ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أى فى هذا اليوم تختفى عنهم الأخبار ، وتخرس الألسنة فلا يستطيعون ردا ، ولا يبحثون عن جواب فقد أصابتهم الحسرة ، وعمهم العذاب الأليم .

فى هذا الجو اللئيم يشير الله إلى الناجين فى هذا اليوم ، فيقول سبحانه : ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ أى أن من عاد إلى الحق وهو فى الدنيا ، وتاب عن الشرك وآمن بالله وعمل صالحا فإن الله سيغفر له ، ويرزقه الفلاح والفوز .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المشركين يوم القيامة يعيشون الحسرة والندامة ، ويسألهم الله عن الشركاء فيبرأون منهم ، ويصابون بالحسرة والعذاب الأليم إلا من تاب

منهم فى الدنيا ، وعمل صالحا فإن الله يقبل التوبة ، ويعفو عن السيئات ، والله غفور رحيم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

توضح الآيات ركيزة هامة ... هى :

إحاطة الحسرة بالمشركون يوم القيامة

الخلق كله راجع إلى الله للحساب والجزاء ليرى ما قدمت يداه ، فأما المؤمنون فيأخذون كتابهم بأيمانهم ، ويتمتعون بظل عرش الله تعالى ، وينادون ، وهم يرفعون كتابهم ﴿ هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةَ ﴾ ^(١) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَّةَ ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ ^(٢) وأما المشركون فلا يجدون إلا الهوان والعنت ... يسألهم الله عن آلهتهم التى عبدوها ... وعن موقفهم من الرسل ... فلا يجيبون لأن الحقيقة أجلى وأبين ... وتأتى الآلهة لتبين أنها لم تضلهم ، وانما هم الذين ضلوا أنفسهم ، ويتبرأون منهم ... فيعيشون الحسرة والخزى فقد سقطت عنهم الأفتنة ، وضاعت الزیوف ، ولم يبق إلا الحق المبين .

فى هذا اليوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ ^(٣) ...

ولن ينجو فى هذا اليوم إلا من استقام ، وتاب ، وعمل صالحا .

(١) سورة الحاقة ، الآيات ١٩ . ٢١ .

(٢) سورة النور ، الآية ٢٥ .

(٧٧٣)

الله رءوف بعباده

يقول الله تعالى :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۚ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ
وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾
وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ۚ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٧٨﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة حسرة المشركين وخيبتهم في الآخرة جاءت هذه
الآيات لبيان فضل الله على المؤمنين من عباده ، وبيان اتصافه سبحانه وتعالى
بالتوحيد التام ، والعلم الشامل .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله خالق كل شيء ، وهو سبحانه يختار ما كان لهم الخيرة
، وهو العليم بما في الصدور ، وبما هو ظاهر ، وهو المستحق للحمد وحده في
الحياة الأولى وفي الآخرة ، واليه ترجع الخلائق أجمعون .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ أى اعلم يا محمد أن إرادة الله نافذة
وكل شيء بيده ولن يقع في ملكه إلا ما أراد ، فهو سبحانه يخلق ما يشاء ،
ويهدى سائر الخلق لما يشاء له ... فمن اختاره للرسالة أرسله ، ومن اختاره

للإصلاح هياً له السبيل ، ومن أراد إضلاله أضله ، وتركه لشركه وضلاله وأصنامهم .

والعاقل من آمن بذلك ، وأسلم أمره لله تعالى ، وأطاعه في كل ما دعاه إليه .
ولذلك يلجأ المؤمنون دائماً إلى الله ليختار لهم ، وكان النبي ﷺ إذا أراد أمراً قال : "اللهم خر لي واختر لي" (١) .

يقول النبي ﷺ لأُنس رضي الله عنه : "يا أنس إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات ، ثم انظر إلى ما يسبق إليه قلبك ، فإن الخير فيه" (٢) .
ويستحسن للمسلم ألا يقدم على أمر من الأمور حتى يسأل الله الخيرة فيه وذلك بأن يصلي "صلاة الاستخارة" وهي ركعتان في غير الفريضة ، يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ﴾ (٣) ، وفي الركعة الثانية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٤) .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها ، كما يعلمنا السورة من القرآن .
ويقول ﷺ : "إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين في غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدر بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب .
اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ، ومعاشي ، وعاقبة أمري ، فاقدره لي ، ويسره لي ، ثم بارك لي فيه .

(١) سنن الترمذي . أبواب الدعوات . باب ج ٥ ص ٥٣٥ .

(٢) عمل اليوم والليلة لابن السني . باب كم مرة يستخير الله ج ١ ص ٥٥٠ .

(٣) سورة الكافرون ، الآية ١ .

(٤) سورة الإخلاص ، الآية ١ .

اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ، ودنياى ، ومعاشى وعاقبة أمرى ، فاصرفه عنى ، واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم رضنى به ... ويسمى حاجته^(١) .

﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْحَيَرةُ ﴾ أى ما صح من مؤمن أن يختار لنفسه ، ولكن الله هو الذى يختار له ، ولذلك لزمه الاستسلام لله ، والتمسك بشعره ، والرضا بقضائه وقدره .

﴿ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى تنزه وتقدس الله سبحانه وتعالى عن شركهم وضلالهم .

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى إن الله تعالى عليم بعباده جميعا علم إحاطة وشمول فيعلم ظاهريهم ، وباطنيهم ، ويعلم ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم فى الدنيا وفى الآخرة .

﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ۖ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى أن الله إله واحد لا شريك له ، والحمد والشكر له فى كل حالة وشأن ، وله الحكم فى الدنيا ، واليه يرجع الخلق أجمعون .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله يفعل ما يريد ، يخلق ما يشاء ، ويختار من خلقه ما يشاء ، وهو سبحانه الإله الواحد الأحد ، العليم بكل شئ ، وهو المتصرف فى خلقه ، المحاسب لهم فى الآخرة ، المنزه من كل صفة لا تليق به سبحانه وتعالى .

(١) صحيح البخارى . كتاب الجمعة . باب ما جاء فى التطوع مثنى مثنى ج ٢ ص ٥٧ .

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

الخير كله في الإيمان بالله تعالى

الله سبحانه وتعالى هو رب الوجود وخالقه ، والخير كله في الإيمان به سبحانه وتعالى لأمر عديدة ... فيها :

- (١) الله خالق كل شيء ، وله الحكم في خلقه فهو سيده ومالكه .
- (٢) الله هو المتصرف في خلقه يصرفه كما يشاء ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾^(١) .
- (٣) الله هو العليم بكل مخلوقاته علما يشمل ما كان ، وما هو كائن وما سيكون إلى يوم القيامة ﴿ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾^(٢) .
- (٤) الله هو مالك الدنيا ، ومالك الآخرة جعل لكل مخلوق أجلا وأخفى أجل يوم القيامة لتأتى الناس فجأة حيث يبعثون ويحشرون ، ويحاسبون .
- (٥) يحاسب الله الناس جميعا يوم القيامة ، ويثبت الحق بأدلته ، وشواهدہ ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾^(٣) ، ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٤) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِعَآيَتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾^(٥) . هذه الحقائق الثابتة تؤكد أن الخير كله في الإيمان بالله تعالى واتباع شرعه ، والاهتداء بهديه سبحانه وتعالى .

(١) سورة الرعد ، الآية ٨ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٥ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية ٤٧ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية ٨ ، ٩ .

آيات الله فى الليل والنهار

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ ﴿٧٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿٧٧﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة استحقاق الله للحمد وحده جاءت هذه الآيات لبيان بعض الآيات التى توجب لله سبحانه وتعالى الحمد والشكر والثناء .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن من فضل الله على الناس أن جعل الليل والنهار متتابعين مستمرين على الزمن كله حيث لا تستقيم للناس حياة إذا كان الزمن ليلا كله ، أو نهارا كله ، ولذلك رحم الله عباده يخلق الليل والنهار .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾ ؟ ... أى سل يا محمد هؤلاء المشركين ،

(٧٧٨)

وقل لهم : أخبروني عن إله غير الله يجعل لكم الليل والنهار ... إذا جعل الله لكم الزمن كله ليلاً ، لا نهار معه ، ولا ضوء فيه .
وهذا السؤال يوضح عدة أمور :

الأمر الأول : إن الله سبحانه وتعالى هو صاحب الفضل في خلق الليل والنهار ، وإيجاد الشمس لإرسال الضوء ، وإيجاد القمر لإيجاد النور والهدوء .
الأمر الثاني : إن الله سبحانه وتعالى هو الذى قدر للإنسان حاجته في الليل والنهار ، وهدهد للتوافق معهما ، فجعل الليل لباساً ، وسكوناً ، وراحة ...
وجعل النهار حركة ، وعملاً ، ومعاشاً .

الأمر الثالث : إثبات العجز لآلهتهم وأصنامهم فهى مصنوعات جامدة ، لا تقدر على شئ ما ... ولو كانت تقدر على شئ فلتظهر قدرتها في خلق جديد مغاير للواقع .

الأمر الرابع : إظهار آية من آيات الله يعيشها كل الناس ، ويراهم جميع الخلق ويتمتعون بآثارها ، ويجهلون حقيقتها وأسرارها ، ويتعجبون وعلماءهم من دقة مسارها ، وعظيم دلالتها على قدرة الله تعالى . يقول سبحانه :

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝ ﴾^(١) .

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ۝ ﴾^(٢) .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦٢ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٤٧ .

- ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ أَلِيلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (٧) وَالشَّمْسُ
تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٧٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ
مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٧٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ
الْقَمَرَ وَلَا أَلِيلٌ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٨٠) .

إن السؤال في الآية إنكارى ينكر الله فيه على المشركين ما هم فيه من
جحد لواقع يروونه ، ولا يستفيدون بدلالته على الإيمان بالله تعالى .

ولذلك يسألهم الله مبكتا ويقول : ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ؟ ... أى أصمتم

أذانكم فلا تسمعون شيئا مما يقال سماع تدبر ، وفهم ، وعقل ؟ ... لأنهم
لو تدبروا فيما يسمعون لعلموا أن الله هو رب العالمين ، وهو الذى جعل الليل
والنهار ، وخلق الشمس والقمر ، ولسلموا بعجز سائر المخلوقات عن خلق شئ
من هذا ... لقد تحدى إبراهيم عليه السلام النمرود . وهو من عتاة الكفر . لأنه لما
زعم الألوهية دعاه إبراهيم عليه السلام إلى الإيمان بالله وقال له : ﴿رَبِّىَ الَّذِى
يُحْيِى وَيُمِيتُ﴾ (١) أى ربى الذى يوجد سائر الخلق من عدم ، ويرجعها إليه
بعد الموت .

قال النمرود : ﴿أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ﴾ أى أنا أقرر حياة من أريد له الحياة
فلا أقتله ، ومن أردت إماتته قتلته ، وليس هذا إحياء واماته فى الحقيقة .

(١) سورة يس ، الآيات ٣٧ . ٤٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥٨ .

فترك إبراهيم مجادلته وقال له : ﴿ **اللَّهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ** ﴾ بصورة منتظمة لا تتخلف فافعل معها أمرا جديدا إن كنت إليها ﴿ **فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ** ﴾ وهذا من حسن الدعوة فإن إبراهيم عليه السلام لم يستمر في المراءاة والجدل ، وترك مسألة الموت والحياة لذلك ... وأتى بأمر لا يمكن للنمرود أن يدعى قدرة معه ، وهو مشرق الشمس ، وكانت النتيجة ظهور ضلال النمرود ﴿ **فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ** ﴾ .

ويكرر الله السؤال مرة أخرى عن النهار فيقول سبحانه : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ** **إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ** **يَأْتِيَكُمُ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ** ﴾ ؟ ... أى أخبرونى ماذا أنتم فاعلون لو جعل الله عليكم الزمن نهارا دائما لا يأتى معه ليل أبدا ؟ ... وهل آهتكم المزعومة تستطيع أن تفعل لكم ليلا تسكنون فيه ؟

﴿ **أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾ أى أعميتم فلا تبصرون هذه الدلائل التى ترونها وتتمتعون بها ؟ ... ، وكلها تؤكد لكم وجود الله تعالى ، وقدرته ، ووحدانيته لنؤمنوا به ، وتعبده وحده .

﴿ **وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ** ﴾ أى ومن رحمة الله بكم أيها الناس أن خلق الليل لتسكنوا فيه ، وتستريحوا خلاله ، وجعل النهار لتسعدوا فيه ، وتعملوا ، وهذا من فضل الله تعالى .

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى عسى أن تدركوا رحمة الله تعالى بكم ، وتشكروه عليها ، وتحمدوه فقد خلقكم فى كون مهيا ، وزمن منظم ، ومخلوقات مسخرة ... لتتمتعوا بهذا الخلق عبادا مخلصين لله رب العالمين .

إن الليل والنهار نعمتان خلقهما الله تعالى ، وقدر لهما فلكا ثابتا لإمداد الحياة بالنور والضوء ، بمقادير ثابتة ، لحفظ الحياة الدنيا ... ولن يستغنى الإنسان ، ولن تستغنى كل الكائنات عن هذا التنظيم المحكم لليل والنهار ، وللشمس والقمر ، والمأمول أن يعرف الناس ذلك ، ويؤمنوا بالله رب العالمين .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله هو الذى خلق الليل والنهار ، وجعل الشمس والقمر وتنبه الإنسان إلى ما فى هذا الخلق من رحمة وتكريم ... وتسألهم عن آلهتهم التى يزعمونها ليفعلوا ليلا أو نهارا كما خلق الله تعالى .

ولن يدعى مشرك قدرة لصنم أو وثن ، ولذا وجب عليه وعلى سائر الناس الإيمان بالله رب العالمين .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

تدبر الإنسان

فى يومه يوصله بخالقه

الزمن هو حياة الأرض ، وعمر الإنسان ... وهو على امتداده يسير على نمط واحد ، وصورة لا تغيير ، فهو الليل والنهار بتتابعهما ، واتصالهما على

نحو ثابت مع الشمس والقمر . يقول الله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ
 النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ ٣٧ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
 الْعَلِيمِ ٣٨ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ٣٩ لَا
 الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ٤٠ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ
 يَسْبَحُونَ ﴾ ٤١ (١) .

هذا النمط الثابت على الزمن كله هو قدر الله العظيم ، صنعه لتستفيد
 الحياة فالليل راحة وسكون ، ونور وهدوء ليستفيد منه الإنسان والحيوان والنبات
 والنهار ضوء وضياء ، وحركة وعمل ، ونشاط يسرى فى الكون كله ليستفيد به
 من يعقل ، ومن لا يعقل .

إن آية الليل والنهار آية كبرى ، يراها كل إنسان ، ويستفيد بها كل مخلوق
 ، وهى هى فى ثباتها لا يدعى إيجادها مخلوق ... فالله وحده هو خالقها وهو
 الذى هداها لوظيفتها ، ودورها .

(٧٨٣)

تبكيث المشركين وتقرئهم

يقول الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٨٣﴾
وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ
عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٨٤﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة فضل الله على عباده بخلقه الليل والنهار ،
والشمس والقمر جاءت هاتان الآيتان لتقرئ المشركين وتبكيهم فى الحساب ،
والحشر ، والجزاء بسبب شركهم وكفرهم بالله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أحد مشاهد الخزى التى سيلقاها المشركون فى الآخرة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٨٣﴾

أى اذكر لهم يا محمد يوم الحشر حين ينادى الله المشركين . ويقول لهم : أين
الأصنام التى جعلتموها شركاء معى ، واتخذتموها آلهة لكم ، وعبدتموها دونى ؟
أين هى اليوم لتتصركم وتدفع عنكم ؟

وهذا السؤال للتوبيخ والتقريع على رعوس الخلائق لأن إجابته معلومة والمشركون لا يجدون يوم القيامة آلهة غير الله ... ولذلك لا تذكر الآية إجابة للمشركين ، لأن لسان الحال يومئذ أبلغ وأسرع ...

فإن قيل : للمشركين أعمال سيئة كثيرة ... فلم خصت الآية الشرك بالذكر دون غيره ؟

أقول : خصت الآية الشرك بالذكر لأنه أكبر الكبائر ، ولبيان أنه لا شئ أوجب لغضب الله منه ، ولا عمل أَرْضَى الله من توحيده سبحانه وتعالى ، وأيضا فقد بينت آيات كثيرة أنهم سيؤاخذون بكل أعمالهم السيئة ومنها قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ ﴾^(١) .

﴿ وَتَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أى وأحضرنا من كل أمة شهيدا عليها يوم القيامة ، وهو نبيها الذى يشهد بأنه بلغ الرسالة ، ونصح قومه ، وقال لهم ما أمره الله به .

﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أى يقول الله للمشركين بعد شهادة الرسل وفى حضورهم : هاتوا أدلتكم التى جعلتكم تؤلهون الأصنام إن كان لكم دليل . فيعجزون عن الإجابة ، ويرون الحساب والعقاب .

﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى يتيقن المشركون يوم القيامة من فساد عبادتهم لغير الله ، ويعلمون أن دين الله هو الحق ، ويغيب عنهم ما اتخذوا من آلهة ، وشركاء .

(١) سورة الزلزلة ، الآية ٨ .

(٧٨٥)

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الله يبيكت المشركين يوم القيامة ويدعوهم لإحضار الشركاء ليساعدوهم فلا يجيبون ... ويأتى الله بالأنبياء ليشهدوا على تبليغ الرسالة ، ودعوة الناس ، ويقول الله للمشركين أمام الرسل : هاتوا حججكم وبراهينكم على الشرك فلا يجيبون ، وحينئذ يعلمون أن دين الله هو الحق ، وأن الشرك ضلال مبين .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هى :

إقرار المشركين بضلالهم يوم القيامة

فى يوم القيامة يتم الحساب على مرأى من الناس جميعا ، وبصورة محاكمة عادية يلتقى أطرافها ، ويظهر كل ما لديه من حجج .
فى يوم الحساب يلتقى المشركون وآلهتهم ، ويسألهم الله وهو العليم بكل شئ .

يسأل أولا المشركين عن قدرة آلهتهم التى عبدوها فى الدنيا ، وأين هى اليوم لتتصركم وتدافع عنكم ؟

ويجمع الله الرسل ليشهدوا على أممهم ، ويأتى بالأصنام وبالآلهة المزعومة فى هذا المشهد الرهيب يعجز المشركون عن الإجابة فهى أمامهم مشهوده ، وتنتبرا الأصنام فمن عبدوها ، واتخذوها آلهة وتؤكد أنها لم تدعهم إلى ذلك وأن ميولهم الخبيثة هى التى أضلتهم .

وينتهى المشهد بظهور الحق ، وغياب الآلهة ، وخلود المشركين فى النار .

(٧٨٦)

قصة "قارون"

تقترب سورة "القصص" من نهايتها ، وتأتى بقصة قارون لتؤكد أن الله هو صاحب الطول والحول ، وأن كبرياء الإنسان ، وتعاليه لا يفيد شيئا أمام قدرة الله تعالى .

وأكرر ما قلته قبل ذلك من أن آيات القرآن الكريم تورد من أحداث القصة ما له فائدة ، وعبرة لأمة محمد ﷺ .

وسوف أعرض قصة قارون كما جاءت فى سورة "القصص" فى مواقف متتابعة .

وقد دارت قصة قارون فى المواقف التالية :

الموقف الأول

التعريف بـ "قارون"

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ قَرُونًا كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاحَهُ لَتَتَوَّأَ بِالْعُصْبَةِ ۖ أُولَىٰ الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۖ ﴾

تفصيل الموقف الأول

من خلال دلالة الآية

﴿ إِنَّ قَرُونًا كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ ۖ ﴾ أى إن قارون كان إسرائيليا

قريبا لموسى عليه السلام فهو ابن عمه ، فموسى عليه السلام هو ابن عمران بن فاهث ، وقارون هو ابن يصهر بن فاهث ، وقد تميز قارون بجمال الصورة ، وقوة الفهم ، وسرعة البديهة والتذكر ، إلا أنه كان يرى نفسه أعلى وأسبق من موسى

وهارون عليهما السلام ، فلما أتاهما الله الرسالة والنبوة حقد عليهما ، وكره تفضلهما عليه^(١) .

﴿ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ أى تجاوز الحد فى العدوان على موسى واتباعه ، واشتد حقه وكراهيته لهم ... واغتر بنعم الله التى أفاضها الله عليه ، فلقد جاءتة نعم وفيرة ، وأموال كثيرة . يقول الله عنها :

﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ ﴾

أى أن الله أعطاه من الأموال ، والكنوز الكثير حتى إن مفاتيح خزائنه ، يصعب على العدد الكثيف من الرجال حملها .
وكان قارون يعيش مع قومه ، يكلمهم ، ويكلمونه ، وقد نصحوه وأجابهم .

(١) وقد أورد المفسرون قصة قارون فقالوا : كان قارون أعلم بني إسرائيل بعد موسى وهارون عليهما السلام وأقرأهم للتوراة ، وأجملهم ، وأغناهم ، وكان حسن الصوت فبغى وطغى ، وكان أول طغيانه وعصيانه أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن يأمر قومه بعبادة الله ، وطاعته .

فدعاهم موسى ﷺ ففعل بنو إسرائيل ما أمرهم به موسى ، واستكبر قارون فلم يطعه وقال : إنما يفعل هذا الأرياب بعبيدهم لكي يتميزوا عن غيرهم ، فكان هذا بدء عصيانه وبغيه ، فلما قطع موسى ببني إسرائيل البحر جعل الله لهارون رئاسة المذبح ، فكان بنو إسرائيل يأتون بقربانهم إلى هارون فيضعها على المذبح فتتزل نار من السماء فتأكله .
فوجد قارون من ذلك في نفسه فأتى إلى موسى فقال له : يا موسى لك الرسالة ، ولهارون الحبورة "المذبح" ، وليس لى شئ من ذلك ، وأنا أقرأ التوراة ، لا صبر لى على هذا !!
فقال موسى ﷺ : أما أنا ما جعلتها لهارون بل الله جعلها له .

فقال قارون : والله لا أصدقك ، واعتزل قارون موسى باتباعه ، وجعل موسى يداريه للقرابة التى بينهما ، وهو يؤذيه كل وقت ، ولا يزيد قارون بذلك إلا عتوا وتجبرا ومعاداة لموسى (تفسير الألوسى ج ٢٠ ص ١١٠) بتصرف يسير .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ﴾ أى أن قومه أتوا إليه ، ونصحوه بعدم
البطر ، وترك الكبرياء ، والبعد عن الغرور ، لأن ذلك سبب التكالب على الدنيا
، وطريق التلهى عن الآخرة ، ومعصية الله تعالى .
وبين قومه له : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ أى إن الله لا يكرم الفرحين
الذين يهتمون بزخارف الحياة الدنيا ، وينسون ذكر الله تعالى .

الموقف الثانى

نصيحة قوم قارون له

يقول الله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۖ وَابْتَغِ فِيمَا
ءَاتَاكَ اللَّهُ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ
اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۖ ﴾

تفصيل الموقف الثانى من خلال دلالة الآيات

أخلص قوم قارون فى نصحتهم له ، ودعوه إلى الله تعالى ، وقد تضمن
نصحتهم ما يلى :

(١) ترك التفاخر والتباهى :

يقول الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْفَرِحِينَ ﴾ أى جاء قوم قارون وقالوا له : اترك التفاخر والتباهى ، وأطع
موسى فهو يدعوك إلى طاعة الله ، واعلم أن الله هو الذى أعطاك ما أنت فيه
وأنه سبحانه لا يحب ما أنت فيه من كبر ، ومباهاة ، وغرور ، ونسيان لذكر
الله تعالى ، وطلبوا منه الاستقامة على ما دعا إليه موسى عليه السلام .

(٧٨٩)

ويبدو أن القوم نصحوا قارون بعد أن أيس موسى وهارون عليهما السلام من دعوته ، وظهر لهما حقه وكبراه ، وتعالیه .

(٢) العمل للآخرة ونعيمها :

يقول الله تعالى : ﴿ وَأَتَّبِعْ فِي مَآءَاتِنِكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾ أى ضع نعم الله عليك فى طاعته ، واعمل بما أمر به ، فهو المعطى المالك ، ومن حقه تحديد مواطن العمل ، وقد جعل الدنيا معبرا للآخرة فاعمل يا قارون للآخرة ونعيمها واعلم أن الطاعة توصل لغيرها ، وتوصلك بنعيم الآخرة .

(٣) المحافظة على متع الدنيا المشروعة :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ أى لا تترك حظك ، ومتعك الدنيوية من طعام ، وشراب ، وملبس ، ومركب ، وقصور ، وزوجات ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ، واعمل لدنيا كأنك تعيش أبدا .

(٤) الإحسان إلى الناس :

يقول الله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أى وأحسن إلى غيرك من الناس فقد أعطاك الله وأكرمك ، فلا تبخل على الناس ، وكن كريما معهم .

(٥) ترك الفساد فى الأرض :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى أترك الفساد فى الأرض ، وابتنع عن كل ما يغضب الله تعالى ، لأن الله لا يحب المفسدين ، ويكره ويغضب من أعمال السوء والفساد .
أخلص الإسرائيليون النصح لقارون ، إلا أنه لم يستفد بنصحهم ، واستمر فى فسادة وضلاله .

الموقف الثالث

رفض قارون لنصح قومه

يقول الله تعالى :

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

تفصيل الموقف الثالث

رفض قارون لنصح قومه

﴿ قَالَ ﴾ قارون لقومه مغرورا ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ أى قد حصلت على الأموال والكنوز بسبب علم عندى ، وعمل قمت به ، فعلم الله ذلك عنى فأتانى ما أنا فيه ، فتصور قارون لنفسه علما وعملا مع علم الله وفضله ، وظن أن ما هو فيه من مال وثراء لن يبيد أبدا ، ولم يتعظ من نصح قومه ، ولم ينظر فى قصص السابقين ، فعميت عيناه عن الصواب .

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ ؟ ... الاستفهام للإنكار ، ومعناه أنسى ولم يعلم حين قال ما قال ، وزعم ما زعم من أن الله هو الذى يعطى ، وهو الذى يأخذ ... وأن الله سبحانه وتعالى قد أهلك أمما لبغيها وجودها كانت أشد منه قوة ، وأكثر غنى ، وأعلى جمعا ؟

﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى أن الله تعالى حين يقدر عقاب المجرمين لا يسألهم ، ولا يأخذ إ ذنبهم لأنه لا حول لهم ، ولا قوة أمام حول الله وقوته ، وأنه سبحانه سيربيهم جرمهم مصورا مشهودا .

الموقف الرابع الافتتان بقارون

يقول الله تعالى :

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ۝ ﴾

تفصيل الموقف الرابع من خلال دلالة الآيات

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ أى خرج قارون ذات يوم على قومه فى زينة عظيمة ، وتجميل باهر ، يحيط به الخدم والحشم ، وتلفه مظاهر الغنى والرفاهية ... يريد بذلك التباهى ، والتفاخر ، والتعالى على الناس . وهذا شأن الضالين والمنافقين فإنهم يبذلون لزخرف الحياة الدنيا أقصى ما يقدرون عليه فى كبر يظهرون به على البسطاء ... ويجعلون ذلك وسيلة للسلطان ، والاستعلاء ، وقهر الضعفاء .

وحين تغيب قيم الإسلام من الناس تسود المظاهر المادية ، وتعلو قيم الفساد والضللال .

وقد افتنن الناس بالمظاهر المادية التى ظهر بها قارون ، وانقسموا إلى فريقين :

الفريق الأول : فريق الماديين ، وهم الذين يميلون للعالمية وشهواتها ، ويجعلون المال ، والسلطة ، والمرأة ، والشهوات أساس التقدير . يقول الله عنهم : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى تمنى المحبون للعالمية ، الراغبون فى شهواتها ، المریدون لمظاهرها المادية ، المؤمنون فى أن تكون لهم زينة مثل زينة قارون ، ولذلك قالوا : إن حظه عظيم ، وسعاده غامرة .

لقد غرتهم المظاهر المخادعة ، وظنوا أن السعادة الواسعة تكمن فى العلم المادى ، والثراء الواسع ، والزخارف المبهجة ، ونسوا الله رب العالمين ... وقد يكون من هذا الفريق قوم مؤمنون ظنوا زينة قارون حديثا بنعمة الله ، واقرارا بفضلله سبحانه وتعالى .

الفريق الثانى : فريق العلماء المؤمنين ، وهم الذين علموا أن الآخرة خير من الأولى يقول الله تعالى عنهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ أى قال الذين آتاهم الله العلم بما أعده الله لعباده فى الدنيا والآخرة ، وصدقوا برسالة الله ، واستقاموا على طاعة الله تعالى ... قالوا ردا على الماديين المحبين لزخرف الحياة الدنيا : تبا لكم وخسرا إن غاليتم فى طلب الدنيا ، ونسيتم الآخرة ، ونسيتم أن ما عند الله من ثواب حسن ، وجزاء كريم خير من الدنيا وما فيها ، لأن من يعمل للآخرة سيرى النعيم المقيم الدائم ويكرمه الله بمنزلة عالية فى الجنة .

﴿ وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ أى ولا يتلقى هذه النصيحة إلا

الصابرون على الطاعة ، المتحملون للمشاق والمكاره ، ولن ينال المنزلة العالية فى الجنة إلا هؤلاء الصابرون المتقون .

الموقف الخامس

هلاك قارون وظهور الحق

يقول الله تعالى :

﴿ خَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَافُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيَكَافُ لَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

تفصيل الموقف الخامس

من خلال دلالة الآيات

﴿ خَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ انقسم الناس إلى فريقين أمام زينة

قارون ومظهره إلا أن الأمر لم يدم طويلا فقد خسف الله الأرض بقارون ، وبقصره ، وأمواله ، وزينته فتشقق الأرض بزلزال شديد ، وابتعلت قارون ، وما كان معه من مال وزينة .

﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ أى ما أغنى عنه ماله ، وما قامت جماعة بنصره ، وقضى الله بهزيمته ، والقضاء على كل ما كان معه من مظاهر مادية ، وكبرياء شديد .

﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَافُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ أى وأصبح الذين كانوا معجبين بقارون ، الذين تمنوا أن يكون لهم مثل ماله أصبحوا يقولون : إن كثرة المال ، والتمتع بزخرف الحياة الدنيا لا تدل على رضا الله ، ولا تدل على رحمته ... والأولى تسليم الأمر لله فهو يعطى ويمنع ، ويوسع ويضيق ، لا معقب لحكمه ، وهو السميع البصير .

﴿ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ أى لولا فضل الله ورحمته بنا لخسف بنا الأرض كما خسف بقارون .

﴿ وَيَكَافُ اللَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ أى أن الكافر بنعم الله تعالى التارك لدينه لا ينال فلاحا ، ونصرا فى الدنيا ، وفى الآخرة .

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ أى تلك الدار التي سمعت خبرها ، وبلغك وصفها نجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبرا عن الحق ، واعراضا عنه ، وظلما لعباد الله .
يقول النبي ﷺ : "إنه أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد" (١) .

(١) صحيح مسلم . كتاب صفة الجنة والنار . باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا ج ٤ ص ٢١٩٨ .

ويقول ﷺ : "لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر .
 فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة .
 فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس" (١) .
 وروى أبو هريرة : "أنه جاء رجل إلى النبى ﷺ ، وكان جميلا ، فقال : يا
 رسول الله إنى رجل حبيب إلى الجمال ، وأعطيت منه ما ترى حتى ما أحب أن
 يفوقنى أحد بشراك نعل ... أفمن الكبر ذلك ؟
 قال : لا . ولكن المتكبر من بطر الحق ، وغمط الناس" (٢) .

﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أى والعاقبة المحمودة ، وهى الجنة لمن اتقى
 عذاب الله بعمل الطاعات ، وترك المحرمات ، ولم يكن كفرعون فى الاستكبار
 على الله ، بعد امتثال أوامره ، والارتداد عن زواجه ، ولا كقارون فى إرادة
 الفساد فى الأرض .

ثم بين ما يكون فى تلك الدار من جزاء على الأعمال فقال : ﴿ مَنْ جَاءَ
 بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ أى من جاء الله يوم القيامة بحسنة فله خير منها ،
 لأن الله يضاعفها لصاحبها أضعافا مضاعفة تفضلا منه ورحمة .
 ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا تُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى ومن أتى بسيئة فلا يجزى عليها إلا مثلها ، وهذا منه
 سبحانه رحمة وعدل .



(١) صحيح مسلم . كتاب الإيمان . باب تحريم الكبر وبيان ج ١ ص ٩٣ .

(٢) سنن أبى داود . كتاب اللباس . باب ما جاء فى الكبر ج ٤ ص ٥٩ .

(٧٩٦)

ركائز الدعوة

فى قصة "قارون"

تتضمن قصة قارون فى سورة "القصص" عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

طهارة الباطن أساس الإيمان

الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاق ، يطهر الباطن ، وينظم العمل ، ويحسن الضمير والسلوك .

وتكوين الإنسان المسلم يبدأ بطهارة الباطن ، فهى أساس البناء وهى كالجذور لا ينمو البناء إلا بما تمده من غذاء .

وقد اهتم الإسلام بطهارة الباطن من كل أمراضه مثل العجب ، والكبر والبطر ، والحقد ، والحسد ، وملئه بالحق ، والحب ، والمودة ، وتنميته بالإيمان بالله تعالى ، وحب دينه ، والإخلاص فى الإيمان والحب ، والعطاء .

إن الإيمان يبدأ من القلب ، ويظهر فى الجوارح ، ويظهر مع كل أمر جميل .

وعلى الدعاة :

أن يهتموا بتقوية الإيمان ، وزيادته بعرض ما فى القرآن الكريم من أدلة وبراهين ... وأن يخاطبوا الناس بما يفهمون ... وأن يردوا شبه المكذبيين الضالين .

الركيزة الثانية

خطورة الغرور المادى على الإنسان

الإنسان عبد مكلف عليه أن يعبد ربه فى خشوع وخضوع ... وأخطر ما يصيب الإنسان غروره بمظاهر الدنيا الزائلة .

(٧٩٧)

إن الله مالك الملك ، وواهب النعم والفضل ، وعلى الإنسان أن يتمتع بعطاء الله وفق منهج الله ، وفى إطار شرعه الكريم ... ويترك نزغات الشيطان لأنها تلهيه عن ذكر الله ، وتغره بما يتمتع فيه من نعم .

إن شكر النعم يزيد لها ، وينميها ، والجحود معها يزيلها ، ويلغيها ، ولقد جحد قارون نعم الله ، فكفر بالله ، وادعى لنفسه قدرة وعلما فكان أن خسف الله به وبكل ما كان معه الأرض ، ودمره تدميرا كاملا ... فدل ذلك على أن الفضل بيد الله ، وعلى الواجب الذى يحتم الاعتراف بفضل الله ، والاستقامة على شرعة ، وطاعة رسول الله .

إن الغرور مهلك يقول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾^(١) .

الركيزة الثالثة

تأثير القادة فى اتباعهم

دلت حوادث الزمان عن المدى الكبير فى تأثير الاتباع بقادتهم ... فلما ظهر قارون بزينته تمنى الكثير أن يكونوا مثله ، ولولا أن الله عاجله بالخسف لا تنتشر أثره السئ بين المحبين للدنيا ، المعجبين بزخارفها .
والدرس المستفاد من ذلك هو ضرورة اختيار قادة الناس من المؤمنين بالله تعالى ، ليكونوا دعاة بعملهم ، مصلحين بخلقهم ، وسلوكهم .

(١) سورة لقمان ، الآية ٣٣ .

(٧٩٨)

الركيزة الرابعة **إعلان الحق يزيل الباطل**

يهتم العالم المعاصر بالإعلام والاتصال بالناس لإمدادهم بالمعلومات والأخبار .

وقد دلت الوقائع على خطورة الإعلام ، واستطاعته الكبرى فى التأثير ، وتكوين رأى العام .

ومن هنا يلجأ القادة إلى الإعلام لنشر ما يريدون ، وإشاعة الأخبار التى تحقق لهم ما يرجون .

ومن هنا ...

وجب على المسلمين نشر الحقيقة ، لأنها تقضى على الإشاعة ، وتزيل الباطل .

إن خصوم الحق ينشرون الإشاعات الباطلة ، ويكررونها لإثبات باطلهم وينشرون بين الناس السلوك ... ولولا إعلان الحقيقة لتمكنوا من نشر أباطيلهم وإقناع الناس بما يريدون .

(٧٩٩)

تكریم الله ل محمد ﷺ وصحبه

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ
مَنْ جَاءَ بِإِهْدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩٩﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ
الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٠٠﴾ وَلَا يَصُدُّكَ
عَنِ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُتِرْتَ إِلَيْكَ ۖ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٠١﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ
إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٠٢﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة قصة قارون ، ونهايته ، جاءت هذه الآيات
ليبين ما أعد الله لمحمد ﷺ وأصحابه المؤمنين الذين يتصفون بالصفات
الفاضلة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله سيرد محمدا ﷺ إلى مكة في موعد يقدره الله تعالى
فهو العليم بمن هو على هدى ، ومن هو على ضلال ، وتبين الآيات أن الله أيد
رسوله بالقرآن الكريم معجزة من الله تعالى ، ويأمره الاستقامة كما أمره أن لا
يظهر كافرا ، ولا يهتم بسفاهة الكافرين ، وليستمر في الدعوة إلى الله الإله واحد
، وهو الباقي ، وله الحكم في ملكه ، والرجوع إليه سبحانه وتعالى .

(٨٠٠)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أى تيقن

يا محمد أن الذى أوجب عليك العمل بأحكام القرآن الكريم وأمرك بالهجرة من مكة سيردك إليها ظافرا منتصرا .

روى مقاتل : "أنه عليه الصلاة والسلام خرج من الغار (حين الهجرة) وسار فى غير الطريق مخافة الطلب ، فلما أمن رجع إلى الطريق ، ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة ، وعرف الطريق إلى مكة ، واشتاق إليها ، وذكر مولده ومولد أبيه .

فنزل جبريل عليه السلام وقال له : أنشتاق إلى بلدك ومولدك ؟

فقال عليه الصلاة والسلام : نعم .

فقال جبريل : فإن الله يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ ^{(١)(٢)} .

﴿ قُلْ رَبِّىَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِأَهْدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى ولا

تهتم يا محمد بما يقوله المشركون ، فربك سبحانه وتعالى يعلم من هو المهتدى ، ومن هو فى ضلال ، وسيعاقب كلا بما يستحق .

﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ﴾

أى ما كنت يا محمد تنتظر كتابا ينزل عليك من الله تعالى يخبرك بقصص السابقين ، ويعرفك بأحكام الدين ، ويرشدك إلى الصراط المستقيم ... وقد رحمك

(١) سورة القصص ، الآية ٨٥ .

(٢) تفسير الألوسى ج ٢٠ ص ٤١ .

(٨٠١)

الله تعالى فأنزل عليك القرآن الكريم بكل ما فيه من أنباء وأحكام ، وهداية ونور

﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى فاحمد ربك على نعمه ، وفضله ،

واشكره على قرآنه ورحمته ... ولا تكن عوناً للكافرين والظالمين .

﴿ وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ أى لا تبال

بالكافرين الذين يعملون على صد الناس عن الاستماع إليك ، وصرفهم عن دين الله تعالى ، والنظر فى آياته التى أنزلها الله تعالى عليك .

﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أى واستمر فى الدعوة إلى دين الله تعالى .

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى ولا تترك الدعوة ، وتبليغ الإسلام

لأن هجر الدعوة من صفات المشركين .

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ ﴾ أى ووجد الله فى دعوتك وعبادتك

فإنه إله واحد ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى لا معبود بحق إلا هو .

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ أى أن الله هو الحى الباقي ، وكل

شئ ما خلا الله باطل وزائل .

﴿ لَهُ الْحُكْمُ ﴾ أى لله الملك ، والتصرف ، والتدبير والقضاء .

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى واليه تعودون للحساب والجزاء حيث النار

والسعير ، أو الجنة والنعيم .

(٨٠٢)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله سيرد محمدا إلى مكة ، وتوضح فضل القرآن الكريم وفضل إنزاله على رسول الله ﷺ ، وضرورة الالتزام به ، والدعوة إليه وتوحيد الله الواحد الأحد ، المحيى المميت الباقي المتصرف فى خلقه له الحكم واليه ترجعون .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

تعدد معالم الفوز فى الدنيا والآخرة

تختتم سورة "القصص" آياتها ببيان معالم الفوز فى الدنيا والآخرة ... وأهمها :

- (١) بيان فضل الله على رسوله ﷺ برجوعه إلى مكة وفتحها كما حدث .
- (٢) إنزال القرآن الكريم للهداية ، والإصلاح ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور .
- (٣) التوحيد المطلق لله تعالى والاستمرار على ذلك .
- (٤) مواصلة الدعوة إلى الله تعالى لربط الخلق بالخالق فهو الواحد القهار ، له الحكم ، واليه ترجعون .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "القصص" بتوفيق الله تعالى .

التعريف
بِسُورَةِ "العنكبوت"

$$(\lambda \cdot \xi)$$

التعريف بسورة "العنكبوت"

يقتضى التعريف بسورة "العنكبوت" بيان المباحث التالية :

- أولا -

تنزيلات السورة

سورة "العنكبوت" سورة مكية ، إلا آيتين في أولها ، نزلتا في مهجع مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، فقد خرج في جيش المسلمين إلى بدر فرماه عامر بن الحضرمي من المشركين بسهم ، فقتله ، فجزع عليه أبوه وامرأته ، فأنزل الله هاتين الآيتين بعد بدر ليطمئنا على مكانته عند الله تعالى .
وقد نزلت السورة بعد سورة "الروم" ، ولم ينزل بعدها في مكة إلا سورة "المطففين" .

وللسورة اسم واحد هو سورة "العنكبوت" لأن العنكبوت لم يرد ذكره إلا في هذه السورة في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبُيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾^(١) وقد كان المشركون إذا سمعوا تسمية السورة بـ "العنكبوت" يستهزئون بالسورة ، ویرسول الله ﷺ فنزل قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۖ ﴾^(٢) ومثل هذا الاستهزاء كانوا يفعلونه عند ذكر النحل والنمل والذباب في سورة "النحل" و "النمل" و "الحج" .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤١ .

(٢) سورة الحجر ، الآية ٩٥ .

(٨٠٦)

وقد شغب اليهود والمشركون على القرآن الكريم لحديثه عن هذه الحشرات الحقيرة فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾^(١) لأن العبرة بما دلت عليه من معان ، ... وقد ذكرت هذه الحشرات في موضعها لأنها أقوى في الاستدلال ، وأبين للمعنى .

وعدد آيات السورة تسع وستون آية .

وسورة "العنكبوت" بدأت بالحروف المقطعة مثل كثير من السور المكية إلا أنها لم تتحدث عن القرآن الكريم بعدها مباشرة ، فأشبهت بذلك سورتي "مريم" و "الروم" ، وهذا يدل على أن ما جاء بعد الحروف المقطعة في هذه السور الثلاث من القضايا الهامة التي تشبه في أهميتها نزول القرآن الكريم .

- ثانيا -

صلة سورة "العنكبوت" بسورة "القصص"

ترتبط سورة "العنكبوت" بسورة "القصص" بعدة أوجه ... منها :

الوجه الأول :

سورة "القصص" ذكرت استعلاء فرعون وجبروته ، وجعله أهلها شيعة وجاءت سورة "العنكبوت" بذكر المؤمنين الذين فتنهم المشركون ، وعذبوهم على الإيمان ، دون ما عذب به فرعون بنى إسرائيل تسليّة لهم بما وقع لمن قبلهم ، وحثا لهم على الصبر ، كما قال : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾^(٢) .

الوجه الثاني :

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٣ .

(٨٠٧)

ذكر الله في سورة "القصص" نجاة موسى عليه السلام من فرعون ، وهربه منه ثم عوده إلى مصر ، رسولا نبيا ، ثم غرق فرعون وقومه ، ونصر الله موسى عليهم نصرا مؤزرا ، وذكر في سورة "العنكبوت" نجاة نوح عليه السلام وأصحاب السفينة واغراق من كذبه من قومه .

الوجه الثالث :

نعت سورة القصص على عبدة الأصنام والأوثان ، وذكر في سورة "العنكبوت" فضيحتهم يوم القيامة على رعوس الأشهاد وبيان أنهم في ضعفهم كضعف بيت العنكبوت .

الوجه الرابع :

في سورة "القصص" قص الله قصص قارون وفرعون ، وفي سورة "العنكبوت" ذكرهما أيضا ، وبين عاقبة أعمالهما .

الوجه الخامس :

أشار الله في خاتمة سورة "القصص" إلى هجرة النبي ﷺ وعودته إلى مكة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ۖ ﴾^(١) ، وفي خاتمة سورة "العنكبوت" أشار إلى هجرة المؤمنين بقوله : ﴿ يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ۖ ﴾^(٢) .

ـ ثالـثا ـ

موضوعات سورة "العنكبوت"

موضوعات سورة "العنكبوت" هي موضوعات السور المكية ، حيث دورانها حول أركان العقيدة من خلال صور بيانية عديدة .

(١) سورة القصص ، الآية ٨٥ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٥٦ .

تبين السورة ضرورة ابتلاء الناس ليظهر المؤمن من المنافق في الدنيا ويتضح المصير الذى ينتظر سائر الخلق يوم القيامة .

وتورد السورة ألوانا عديدة من قصص السابقين لتظهر جوانب الإيمان ، ولألوان الكفر ، وما دار من حوار وجدل بين المؤمنين والكافرين ، وتستمر السورة في ضرورة المناقشة بالحسنى ، والتعريف بأن الآخرة خير من الأولى ... وأن مجاهدة المعاصى ، والتمسك بدين الله هو الفوز الكبير .

لقد تميز قصص سورة "العنكبوت" بما يلى :

أولا : لم يستغرق القصص السورة كلها أو أكثر آياتها .

ثانيا : أن السورة بدأت بذكر ضرورة الابتلاء ليظهر المؤمن الصادق من المنافق الكاذب تسلياً لرسول الله حين يرى ابتلاء الرسل بأممهم .

ثالثا : جاء قصص السورة مكتفيا ببعض الأحداث التى تركز على كيفية نجاة الرسل والمؤمنين .

رابعا : تقدم السورة قصصها وفق الترتيب التاريخى للرسل ، وبعد القصص تقدم السورة بعض آيات الله تعالى ، وتدعو إلى الدعوة للإسلام بالحسنى ، وتبين قيمة الآخرة ، وضرورة العمل لها .

سورة "العنكبوت"

التفسير

(٨١٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ضرورة الابتلاء وأهميته

يقول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيات

نزلت هذه الآية في أناس كانوا بمكة قد أقرروا بالإسلام ، فكتب إليهم أصحاب النبي ﷺ أنه لا يقبل منكم الإقرار بالإسلام حتى تهاجروا فخرجوا عامدين إلى المدينة ، فأتبعهم المشركون فقاتلهم الكفار ، فمنهم من قتل ، ومنهم من نجا فأنزل الله هاتين الآيتين .

وقال ابن عباس : أراد بالناس الذين آمنوا بمكة سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر رضي الله عنهم وغيرهم .
وقيل : في عمار بن ياسر رضي الله عنهما كان يعذب في الله تعالى .
وقيل : في مهجع بن عبد الله مولى عمر رضي الله عنهما وكان أول من قتل من المسلمين يوم "بدر" فقال النبي ﷺ : "سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة" فجزع أبواه وامرأته فأنزل الله هذه الآية^(١) .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ١٨٧ .

(٨١٢)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات إعجاز القرآن ، وتبين ضرورة الابتلاء والفتنة ليظهر المؤمن ، ويتميز المنافق ، وتؤكد أن ظن عدم وقوع البلاء خطأ . فقد ابتلى الله الأمم السابقة ، وأقسم الله مؤكدا ضرورة الابتلاء ليظهر الخبيث والطيب .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ آلم ﴾ هذه حروف مقطعة في أول السورة نزلت لإثبات الإعجاز ، وإيقاظ عوامل الإدراك ، وتنبيه الغافلين ، وفيها من الأسرار ما لا يعلمه إلا الله تعالى .

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ ؟ ...
الهمزة للاستفهام الإنكارى جئ بها لإنكار ما يظنه الناس من أن يتركهم الله في الدنيا بلا امتحان وابتلاء يظهر المؤمن من المنافق ، والصادق من الكاذب .
والفتنة فساد يلحق بالإنسان فى ماله ، أو ولده ، أو أهله ، أو فى أى شأن يهمه ... بسبب عدوان ، أو كارثة ، أو بقدر لا يعلمه إلا الله تعالى .
والحسبان هو الظن القريب من العلم .

والناس هم القوم المعهودون للذهن ، وهم الذين قالوا آمنا ، وقد ظن قوم عدم اختبارهم ، وابتلائهم لقولهم بلسانهم آمنا ... فعرفهم الله بأن هذا الظن غير صحيح ... والمعنى : أظن الذين أعلنوا الإسلام بالسنتهم أن لا يفتتهم الله ولا يختبرهم بعد قولهم آمنا ؟ ... وعليهم أن لا يظنوا هذا الظن ، فإن الابتلاء والاختبار ضرورة حتمية مع الناس أجمعين .

وبدل قوله تعالى : ﴿ يَقُولُوا ءَامَنَّا ﴾ على أن الإيمان الحق لا يقف عند حد القول ، ولا بد له من العمل والتطبيق ، ولذلك كان الابتلاء للكشف والتمحيص .

وفى ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ بيان أن تصديق قولهم متوقف على فتنتهم ، فإن فتنوا فالعبرة بالعمل وتحمل الفتنة لأن العمل يؤكد القول أو يرده .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى ومما يؤكد ضرورة الابتلاء أن الله فتن جميع الأمم السابقة ، وما وقع لهم سيكون مع أمة محمد ﷺ وأسند الله الفتنة إلى "نا" الدالة على عظمته سبحانه وتعالى لتأكيد ما أخبر به .

﴿ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ وهذا قسم بيانى يبين بمؤكداته اللفظية أن الله سيظهر للناس من صدق فى قوله أمنا ، وسيظهر الكاذبين فى ادعاء الإيمان ، لأن الصادق يحافظ على إيمانه ، ويتحمل ما يلاقيه من أجل الإيمان متمسكا بالحق ... وأما الكاذب فسرعان ما ينكص على عقبه ويعارض قوله ، لأن طبع المنافقين أنهم يعيشون فى الدنيا بألوان كثيرة لا يستقرون على واحد منها . يقول الله عنهم : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴾^(١) .

وقد جعل الله ظهور أحوال الناس من مواقفهم وهو العليم الخبير ، لأن المشاهدات الواقعية أقوى أدلة الإثبات ، ومنعا لادعاء عذر يبيده المنافقون .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤ .

وعبرت الآية عن الصادقين بالصلة والموصول لبيان أن دين المؤمنين الصدق حتى صار صفة ثابتة فيهم ، فأعمالهم كلها مطابقة لأقوالهم ، وقد كان ابتلاء الأمم الماضية دليلاً على استمرارية البلاء وضرورته .

عن خباب بن الأرت قال : "شكونا إلى رسول الله ﷺ وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟

فقال ﷺ : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعله نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد لحمه وعظمه ، فما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون" (١) .

عن مصعب بن سعد عن أبيه رضى الله عنهما قال : قلت : يا رسول الله أى الناس أشد بلاء ؟

قال ﷺ : "الأنبياء ثم الأئمة فالأئمة ، فيبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلى على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ما عليه خطيئة" (٢) .

والخلاصة بيان ضرورة الاختبار والابتلاء ليستعد الصادقون لتحمله وقبوله ، وليعلم الكاذبون أنهم لن ينالوا من ضجرهم ونفاقهم إلا الخزي والحسرة ، وكل ما يظهر حقيقة الناس يعلمه الله منذ الأزل ، وسيحاسب ويجازى عليه .

- ٤ -

(١) صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب علامات النبوة في الإسلام ج ٤ ص ٢٠١ .

(٢) سنن الترمذى . أبواب الزهد . باب ما جاء في الصبر على البلاء ج ٤ ص ٦٠١ .

(٨١٥)

معنى الآيات

تبين الآيات أهمية تنبيه المخاطبين ليهتموا بما يلقي إليهم ، ويعلموا أن الابتلاء والاختبار للناس ضرورة حتمية ليظهر الصادق من الكاذب فى ادعاء الإيمان ، ولن يتركهم الله بلا اختبار لتظهر حقيقتهم أمام أنفسهم ، وأمام الناس ويقسم الله تعالى أنه بهذا الاختبار سيظهر واقع الناس أمام عيونهم قطعاً لحججهم ، وبيانا للواقع ، ويكفى المؤمنون ظهور صدقهم ، وينكسر المنافق بخذلانته وظهور كذبه .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عدداً من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

حاجة الإنسان الدائمة لمن ينبهه

النسيان فطرة بشرية ، وكثيراً ما نرى شدة اهتمام الإنسان بأمر ما ، وبعد مدة ينساه ويتركه ، وينشغل بأمر جديد .

ومن فطرة الإنسان محدودية طاقاته وقدراته فقد تكثر أمامه القضايا حتى لا يتمكن بالتركيز الذاتى فى واحدة منها ... ومن هنا كانت حاجة الإنسان إلى التنبيه ليحضر ذهنه فى القضايا المثارة ، ويتخذ منها موقفاً ، ولذلك كثر تنبيه الإنسان فى القرآن الكريم بمنبهات عديدة مثل النداء والاستفهام ، والتخصيص ، وأساليب البيان المختلفة .

وأهم طرق التنبيه ما دلت عليه الحروف المقطعة لأنها تؤدى إلى إصغاء السامعين إليها ، لأن الحكيم إذا خاطب من يكون مشغول البال قدم على المقصود شيئاً غيره ليلفت المخاطب بسببه إليه .

فحينما يكون كلاماً مفهوماً كقول القائل اسمع أو ألق بالك إلى .

وحينا يكون فى معنى الكلام المفهوم كقولك يا على ، وحينا يكون صوتا غير مفهوم المعنى كمن يصفر خلف إنسان ليلتفت إليه .

فالنبي ﷺ وان كان يقظ الجنان ، فهو يحتاج إلى التنبيه ، والإنسان بصورة عامة يشغله شأن عن شأن ، فحسن من الحكيم الخبير أن يقدم على المقصود حروفا هى كالمنبهات لا يفهم منها معنى ، لتكون أتم فى إفادة التنبيه لأنه إذا كان المقدم قولا مفهوما فربما ظن السامع أنه هو المقصود ، ولا كلام للمتكلم بعد ذلك ليصغى إليه ، أما إذا سمع صوتا لا معنى له جزم بأن هناك كلاما آخر سيرد بعده ، فيقبل إليه تمام الإقبال ، ويرهف السمع إلى ما سيأتى .

ولذلك كانت الحروف المقطعة من أقوى المنبهات لكل من يقرأها أو يسمعها .

الركيزة الثانية

قوة الهمّة توصل للقيمة

الإيمان طريق إلى العلا ، والمؤمنون يستحقون كل ما أعد الله لهم من تمكين فى الأرض ، ونعيم فى الآخرة .

إن النجاح لا يتحقق إلا بالجهد والتعب ، والنصر لن يأتى إلا بالجهاد ، والنضال ، وتحمل الأذى .

لا تحسبن المجد تمرا أنت آكله .: لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

ولننظر فى قصص الرسل ، وسير العظماء والمصلحين لنرى البذل الذى بذلوه ، والتعب الذى تحملوه ، والجهد والعمل الذى قاموا به .

لن تنتصر الحقيقة إلا على أكتاف أناس يخلصون لها ، ويحيون بها ، ويعملون من أجلها ولن يصل للقيمة إلا من بذل لها المهر والثلث .

لو قعد الناس عن نصر الحقيقة لسقطت ، ولو لم يتحمل المسلمون الصعاب فى جهاد أعدائهم ما قوى الدين ، ولا استمر البغى والفساد .

إن الله ينصر رسوله ، ودينه بالمؤمنين المخلصين والنصر كله بيده إلا أنه أجرى الأمور على عادة الناس . يقول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أُيِّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١) فجعل جهاد المسلمين عاملاً أساسياً في النصر مع أن قدرته سبحانه وتعالى كافية .

إن الابتلاء ضرورة ، والاختبار حتمى ، وقد قضى الله بذلك يقول سبحانه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾^(٢) .

الركيزة الثالثة

أهمية إقامة الحجة والبرهان

نلمس فى الآيات أمراً له أهميته يحتاجه الناس ، وهو إقامة الحق بثبوت حجته وبرهانه أمام معارضيه الذين يرفضونه . فقد أظهر الله بالبلاء صدق المؤمنين ، وكذب المنافقين ، وهو سبحانه العليم بكل خلقه منذ الأزل .
إن إظهار حجج الحق خطاب للعقول السوية ، وتوضيح للناس ليعلموا أن الله أجرى حكمه على عادة الناس ، فجعلهم يرون البرهان بأنفسهم ويسقطون سائر حججهم ، ويعلمون أن تكريم الإنسان يقتضى احترام عقله ومخاطبته بالحسنى .

وحيثما يرى الناس منهج هذه الحقيقة يعلمون أن الله خلقهم ليرتقى بهم ، ولذلك دعاهم إلى الهداية والعلا ، وحثهم على الاستقامة ، وطلب منهم أن يؤمنوا ويستقيموا على الصراط المستقيم ، ويعلموا أن الدنيا دار ابتلاء واختبار ، وأن الآخرة خير وأبقى .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦٢ .

(٢) سورة المجادلة ، الآية ٢١ .

العقوبة شاملة للمجرمين

يقول الله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الاختبار والابتلاء ضرورة لازمة ، وأن الله ابتلى الأمم السابقة جاءت هذه الآيات لتأكيد أن المجرم مهما كثرت سيئاته فلن يفلت من العقاب .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن المجرم العاتى المكثّر من عمل السوء لن يفلت من عذاب الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ؟ ... أم للإضراب الانتقالي والاستفهام إنكارى لإفادة إنكار ظن آخر عند بعض الناس ، وهم المتصفون بعمل السوء بصورة دائمة وكثيرة . فقد دلت جملة الصلة على أنهم أوصافهم ، وجاءت بصيغة المضارع ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ للدلالة على استمرارهم فى هذا العمل وجاءت الآية بالمعمول جمعا وهو ﴿ السَّيِّئَاتِ ﴾ إشارة إلى كثرة هذا السوء وتنوعه فهو أقوالهم ، وأعمالهم ، وأحوالهم .

﴿ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ أى أحسب الذين يصرون على المعاصى ، ويكثرون منها أن يسبقوا الله تعالى حتى لا يلحقهم عذابه ، ولا تأتيهم عقوبته ؟ ... وهذا حسابان ينكره الله عليهم بإدراجهم فى صيغة الاستفهام الإنكارى ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ وتصور هذا السبق يكون بالهرب ، أو بالغلب ، أو بنسيان العقوبة ، وكل ذلك غير صحيح ، لأن هرب المجرم من عقوبة الله لا يصح ، فالكون كله ملك الله ، والقدر يصرفه كما يشاء سبحانه وتعالى ... فلا مفر إذا و ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾^(١) .

وأما الغلب فهو تصور كاذب ، فله جنود السموات والأرض ، وأمره فى خلقه بـ "كن" فكيف يغلب العاجز الضعيف قدرة القاهر العظيم ؟
وأما نسيان العقوبة فهو أمر بعيد ، لأن كتاب الإنسان لا يترك شيئا إلا وأحصاه ، وشواهد الإثبات كثيرة ... منها الأرض ، والجوارح ، والملائكة ، والرسول ...

ولذلك قال الله تعالى : ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى ببئس تصور السبق تصورهم ، وبئس هذا الحكم يحكمون به لأنه أمر مستحيل حدوثه .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن ظن المجرمين سبق القدر والإفلات من العقوبة أمر بعيد ، فلن يتمكنوا من الهرب ، أو غلبة القدر ، والحقائق يوم القيامة لا تغيب ، فبئس هذا التصور ، وبئس هذا الحكم .

(١) سورة القيامة ، الآية ١٢ .

(٨٢٠)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

توضح الآية ركيزة هامة ... هى :

الجزاء حق لا شك فيه

حدد الله للإنسان طريق الخير والشر ، ليعمل ، ويسعى ... وفى يوم القيامة يقيم الله موازين العدل ، فلا تظلم نفس شيئاً .
وأما العصاة والمجرمون الذين أغراهم الشيطان ، وزين لهم الهوى ، وأملهم فى آخرة يستمر فيها زخرفهم ، وجعلهم يصرون على الضلال والكفر يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾^(١) .

إن الله بين دينه ، ووضح شريعته ، وحدد طريق الجنة ، وسبل النار ، وأنزل البراهين ، وأظهر الحجج ، وبشر بالخير ، وأنذر بالشر ... وأثبت بذلك أمام العقلاء أن الحساب حق ، والجزاء العادل حق .
وعلى الدعاة :

أن يبينوا للمدعويين هذه الحقائق حتى لا يغرهم الشيطان ، ويبعدهم عن صراط الله المستقيم .

لن يفلت إنسان من الحساب ودقته ، وسينال كل ما قدمت يداه . يقول الله تعالى : ﴿ أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ۚ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۚ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۚ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۚ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۚ ﴾^(٢) .

(١) سورة مريم ، الآية ٧٣ .

(٢) سورة التكاثر .

عمل الإنسان عائد إليه

يقول الله تعالى :

﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾
وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٣﴾ ۝ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن المجرمين سينالون العقوبة التي يستحقونها
حتما جاءت هذه الآيات لبيان أن المؤمنين سيجزون خيرا على عملهم في الدنيا
وفي الآخرة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المؤمنين سينالون خيرا على عملهم ، ويحقق الله رجاءهم
فمن عمل للجنة فاز بها ، ومن أخلص للجهاد فقد نجاه الله بجهاده وعمله ،
وسيحسن له العطاء والجزاء .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ ﴾ أى من استقام في الدنيا ، وتمسك بدين
الله ، وعمل صالحا راجيا رؤية أثر عمله في الآخرة بعد الموت عند الحساب
والجزاء .

﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾ أى فليعلم أن موعد هذا اللقاء قريب ، وهو آت حتما ، وليتأكد أن عمله الصالح لن يضيع أبدا ، فهو آت معه يوم القيامة فى صورة نعيم مقيم ، وجنة واسعة الأركان ، كثيرة الشجر ، والمياه ، كثيفة الخير والظلال .

يقول النبى ﷺ : "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له" (١) .
إن العمل الصالح فى الدنيا خير لصاحبه فيها ، فهو طاعة لله ، وتعاون مع عباده ، وإظهار لمكارم الأخلاق ... وهو خير لصاحبه بعد موته فهو يسوقه إلى رضى الله ورضوانه ، وإلى جنات النعيم .

﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى وهو الله السميع لكل قول ، العليم بكل فعل وحال فانتبهوا لذلك واعملوا له .

﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ أى ومن بذل طاقته ، وجهده ، وحياته فى طاعة الله فهو يعمل لنفسه ابتداء ، لينال الخير فى الدنيا ، والثواب فى الآخرة ، فإن كان جهاده بالقول فهو خلق كريم ، وإن كان بالعمل فهو نشر للصالح ، وإن كان بالقتال فهو صيانة للحقوق ، وحفظ لدين الله تعالى ، وكل ذلك نافع للإنسان فى الدنيا ، فعليه أن يجاهد لنفسه لينثيه الله على الطاعة فى الآخرة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى ليعلم الإنسان حين يطيع الله أن الله غنى عن عباده جميعا لا ينتفع بعملهم الصالح ، ولن يضار بكفرهم ومعاصيهم ، وإنما بنفع الإنسان نفسه أو يضرها بعلمه .

(١) صحيح مسلم . كتاب الهبات . باب ما يلحق الإنسان من الثواب ج ٣ ص ١٢٥٥ .

يقول الله تعالى : ﴿ إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ ^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ ^(٢) .

وفى هذا ترغيب للعاملين لأنهم يتعاملون مع الله الغنى ، ولن يؤخر لهم الغنى مثوبة ... وهو ترهيب للعصاة لأن الله لن يحتاج شيئا منهم ، وسيحاسبهم على معصيتهم ، ولن يعجزه أن يعذبهم .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أى إن من استقام على طريق الله تعالى ، وجمع بين الإيمان ، والعمل الصالح ، وتحمل البلاء ، وصدق فى طاعة الله ورسوله سيتحقق لهم أمان :

أولاهما : ﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أى نقبل توبتهم ، ونزيل عنهم أثر سيئاتهم التى ندموا عليها ، وتركوها ، فإن هذه السيئات تمحى محو تاما .

ثانيهما : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى نكافئهم بأحسن أعمالهم التى قاموا بها ، ولا ننقص منها شيئا ، وذلك بأن نرفع جميع أعمالهم إلى مستوى أحسنها ، ونجزئهم بهذا الحسن جزاء كبيرا .

وهذا الفهم فى الجزاء أولى من قصر الجزاء على أحسن الأعمال دون أدناها حتى لا يضيع لهم عمل ، وحتى يشعروا برحمة الله ، وكرمه ، واعتناؤه بهم .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٧ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٤٦ .

(٨٢٤)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن على الإنسان أن يعمل وهو الدنيا للقاء الله بعد الموت لأن الموت آت لا ريب فيه ، وسيجزى كل إنسان بعمله ... ولتعلم الإنسان أن عمله وجهاده لنفسه فهو إذ يطيع الله يعمل لنفسه فيرتقى في الدنيا ، ويثبات في الآخرة ، والله غنى عن الناس .

وقد قضى الله سبحانه بإثابة المؤمنين الذين عملوا الصالحات ، واستقاموا على دين الله تعالى بأحسن أعمالهم ، واکرامهم ، وزيادة الخير لهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

توضح الآيات ركيزة هامة ... هي :

الإيمان إصلاح للدنيا ، ونعيم في الآخرة

الحياة الدنيا لا تعرف الخلود أبداً ، فكل شئ فيها هالك ، وكل حى فى الدنيا إلى زوال .

وقد جاء الرسل عليهم السلام لإرشاد الناس إلى الإيمان ، والعمل الصالح ليقوموا بالواجب الذى كلفهم الله به ، وليبتعدوا عن وساوس الشياطين من الجنة والناس .

إن الدين بصورة عامة يبين للناس قيمة الدنيا ، ويوضح لهم حاجتهم للإيمان والعمل الصالح ليستفيدوا بدنياهم وآخرتهم .

إن الدنيا ستنتهى ، وسيخرج الإنسان منها ومعه إيمانه وعمله ، وكل ما أداه فى الدنيا ، وبرغم أن الله غنى عن عباده ، وأن من جاهد فإنما يجاهد لنفسه فإن الله سيحاسب الإنسان على ما كلفه به ، وسيجزى الصالحين بأحسن ما قاموا به .

إن فوائد الإيمان والعمل الصالح تعود للإنسان أولاً وأخيراً لأنها في مجملها تعنى استقامة الخلق ، واعتدال السلوك ، والمحافظة على كافة الحقوق وكافة الواجبات ، ولا تنتج إلا الحب ، والتعاون ، والاستقامة ، ومع هذه الفوائد الذاتية ينال المؤمن ثواب الآخرة ، ويفوز بجنات النعيم .

إن هذه الحقائق بينة واضحة ، والعاقل من يسارع إليها ، ويلتزم بها اصلاحاً لنفسه ، وفوزاً في الآخرة بجنات النعيم .

وصية الإنسان بأبويه

يقول الله تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية الأولى

نزلت هذه الآية والتي في سورة "لقمان" و "الأحقاف" في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

يقول ابن إسحاق : إن سعد بن مالك الزهري وأمه حمنة بنت أبي سفيان ابن أمية بن عبد شمس لما أسلم وكان من السابقين الأولين وكان باراً بأبيه .

قالت له أمه : ما هذا الذي أحدثت ، والله ما آكل ، ولا أشرب ، حتى ترجع إلى ما كنت عليه ، أو أموت فتعير بذلك أجد الدهر ، ويقال لك : يا قاتل أمه ، ثم إنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ، ولم تشرب ، ولم تستظل ، فأصبحت وقد جهدت .

(٨٢٦)

ثم مكثت كذلك يوما آخر وليلة فجاءها فقال : يا أماء لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني ، فكلي إن شئت ، وإن شئت فلا تأكلي فلما أيست منه أكلت وشربت فأنزل الله هذه الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة دعوة المؤمنين للإيمان والعمل الصالح جاءت هاتان الآيتان لتوضيح عمل من أهم الأعمال الصالحة ، وهو بر الوالدين لأن من آمن وبر والديه فله الجنة .

- ٣ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان وصية الله للأبناء ليربوا آباءهم ، ويطيعوا أمرهم ما لم يكن شركا أو معصية ، وعليهم أن لا يغلظوا القول معهم ليجزئهم الله خيرا فى الآخرة ، ويدخلهم فى الصالحين فهو عليم بكل شئ .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾ أى أمرنا الإنسان ، وقضينا عليه أن يتعهد أبويه بالبر ، ويحسن إليهما فى القول والسلوك ، ويتجنب أى أمر يؤذيها ، ويكون رحيما بهما .

﴿ حُسْنًا ﴾ هذه صفة معمول محذوف ليشمل الحسن كله فى الأقوال والأفعال والأحوال .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ١٨٨ .

واسناد الوصية لله لبيان قدرها وأهميتها ، فهذه وصية الله للأبناء للمحافظة على حقوق الآباء الذين بذلوا ويبدلون من أجل أولادهم كل ما استطاعوا ، حتى إن الأبوين يتمنيان لولدها أن يسعد أكثر من سعادتهما . ولولا حنو الآباء ما تحملت أم المشاق التي عاشتها فى حمل ولدها وارضاعه ، وتنشئته ... ولولا رحمة الوالد بولده ما شقى ، وما تعب لإسعاده وتهئية الحياة الكريمة له .

لقد بخل الوالد ليكفى ولده ، ورحل وارتحل من أجل تهئية غد أفضل لولده .

إن الوصية كانت للأبناء دون الآباء لأن اعتناء الآباء بأبنائهم جبلة فطر الإنسان عليها لا يحتاج إلى وصية فيها ، أما الأبناء فإنهم ينسون آباءهم ، ويقبلون على زوجاتهم وأبنائهم ، ولذلك خصهم الله بالوصية .

﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾

أى كن رحيما بأبويك حتى وإن بذلا أقصى الجهد لتترك الإسلام ، فلا تطعهما مع إحسان معاملتهما ... فبرغم أنهم ينصرون الشيطان ، ويجاهدون للكفر لا تسئ إليهما ، وأحسن معاملتهما ، ولا تطعهما ، واعلم أنه لا طاعة لمخلوق فى طاعة الخالق .

وجاء قوله تعالى : ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ليؤكد عدم طاعتهما فى

الشرك بالله مطلقا ، فإنهما لو دعوا إلى ألوهية شركية غير ظاهرة البطلان فلا يصح طاعتهما ... ومن باب أولى لا تكون لهم طاعة ، وهم يدعون لآلهة ظاهرة البطلان مثل الأصنام والأوثان .

جاءت أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما إلى رسول الله ﷺ وقالت له : يا رسول الله إن أمى قدمت علي . وهى مشركه وهى راغبة أى فى الصلة . أفأصل أمى ؟
قال لها ﷺ : نعم صلى أمك^(١) .

﴿إِلَىٰ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى إلى مرجعكم جميعا للحساب والجزاء ، وسأجازى الأبناء على برهم بآبائهم ، وسأجازى الآباء عن مواقفهم من دين الله تعالى ، وعلى الأبناء أن يتمسكوا بالإحسان إلى الآباء .
﴿فَأَنْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى أخبركم بعملكم أيها الآباء والأبناء وهذا الإنشاء يكون بصورة عملية يصحبها الحساب والجزاء .

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ أى يبشر الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالجزاء الحسن ، ويقسم لهم ويؤكد لهم أنه سيدخلهم الجنة ، ويضعهم فى زمرة الصالحين ، ومقامهم بسبب ما عملوا فى الدنيا من طاعات الله ، ومن بين هذه الطاعات بر الوالدين ، والإحسان إليهما .

- ٥ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الله وصى الإنسان بالإحسان لأبويه بصور الإحسان كلها ولو كانا مشركين ، وعرف الولد بأنهما لو بذلا جهدها لتشارك أيها الولد فلا تطعهما ، وأحسن صحبتها ، واعلم أن الكل راجع إلى الله ، وسيحاسبه على ما

(١) صحيح البخارى . كتاب الهبة . باب الهدية للمشركين ج ٣ ص ١٦٤ .

(٨٢٩)

عمل ، ويخبره بما تصوره قد غاب واختفى ، وينال كل إنسان جزاء ما قدمت يده .

وقد أعد الله للمؤمنين الذين عملوا الصالحات جزاء حسنا ، وسيجعلهم في مقام الصالحين ، وفي زمريهم .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ضرورة مكافأة أصحاب الفضل

يقيم الإسلام المجتمع على الحب ، والتعاون ، والرحمة ، وحدد لذلك الحقوق والواجبات ، ودعا إلى اتباع ما قدر وشرع .

ولو انصف الناس لاستراح القاضي .: وبات كل عن أخيه راضي

وأصحاب الفضل في الناس هم الذين قدموا خيرا لهم ، وأعانواهم في الحياة وكانوا سببا في نجاحهم وصلاحهم .

ولذلك أمر الله بمكافأة من جعله الله سببا لخير يتمتع به الناس . يقول ﷺ : "من صنع إليكم معروفا فكافئوه ، فإن لم تجده ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه" (١) .

إن هذه المكافأة تعني الاعتراف بالجميل ، وترتبط بين الناس ، وتنتشر الحب والتعاون بين أفراد المجتمع .

وأول مالهم من حقوقهم هم الآباء على أبنائهم ، فقد جعلهم الله سبب إيجاد الولد ، وأودع في قلوبهم حبه ، والحرص عليه ، والخوف عليه من كل سوء

(١) سنن أبي داود . كتاب الزكاة . باب عطية من سأل بالله ج ٢ ص ١٢٨ .

(٨٣٠)

يضمنى الوالد عقله ، وينفق ماله ، وهو يبحث عن زوجة لتلد له ابنا حسن الخلق ، والخلق ... ويتعهدا بالعطاء والنفقة وهى تحمل جنينها فى بطنها ، وحين تلده ، وحين ترضعه .

وتحملة أمه وهنا على وهن ، وتعطيه من عمرها ، وصحتها ، وجسدها ما بها تستمر حياته ... وتسهر لراحته ، وتعمل لسعادته ، وتتحمل المتاعب من أجل أن ينشأ معا فى قويا .

لا يصبر الأبوان على أى أذى يصيب ولدهما ولو كان كثيرا ، ولسان حالهما يقول :

إذا ليلة نابتك بالسوء لم أبت .: ليلاى إلا شاكيا أتوجع

إن مكافأة الوالدين هو برهما ، والإحسان إليهما ، والبعد عن أى عقوق معهما ﴿ فَلَا تَقُلْ هُمَا أَفِيٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (٢٤) (١) وبعد البر يستمر الأجر ، ويستمر عطاء الله تعالى .

إن أى تقصير من الأبناء فى البر يعد طعنة فى قلب الآباء لأنهما قدما ما قدما بلا مكافأة ينتظرانها ، ومن الضرورى عدم إيلاهما بتقصير أو عقوق . لو ساد بين الناس خلق مكافأة أصحاب الفضل لزاد فضلهم ، ولأجتهد كل فى العطاء ، ولشرف كل عضو بالإخلاص وهو ينتسب لهذا المجتمع . إن كل إنسان يقدم عملا لغيره ، والواجب تقدير الأعمال ، ونسبة كل عمل لصاحبه من أجل السعى والعمل .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٢٣ ، ٢٤ .

(٨٣١)

الركيزة الثانية

ضرورة طاعة الله وحده

خلق الله الناس ، وأكرمهم بدينه ، وحدد لهم المنهج الذى يحقق لهم الخير فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ... ولم يترك شأنا دينيا لاختراع العقل وإبداعه ... وإنما فصل العقيدة ووضع نظام الشريعة ، وحدد المبادئ الكلية الحاكمة لسائر الأعمال .

ومن هنا وجبت طاعة الله تعالى بصورة دقيقة ، وطاعة الناس فى إطار شرع الله تعالى .

وقد ترك الله للعقل شيئا فى التنظيم والفهم ، وأمر بالنصح والإرشاد والدعوة ، وألزم الجميع بمبدأ كلى لا يتغير وهو "لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق" .

وقد رحم الله الناس فلم يدعهم يجتهدون فى أركان الإيمان ، ولم يعطهم حق تغيير الثوابت الدينية المفصلة أو إهمال المبادئ الكلية العامة وأمر أن لا يطغى حق على واجب ، ولا يهمل واجب حقا .

فللآباء رحمة ، وبر ، وإحسان ، وليس لهم طاعة فى معصية الله تعالى .
وقد رزق الله الإنسان العقل ، وكلفه ليعيش بالإسلام قويا فى الدنيا ، سعيدا فى الآخرة .

(٨٣٢)

ضعف المنافقين

يقول الله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ؕ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿٨٣٢﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿٨٣٣﴾ ۝ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة وصايا الله للمؤمنين جاءت هاتان الآيتان لبيان صفات المنافقين .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن المنافق ضعيف الإيمان ، سئ الفهم ، يجعل ابتلاء الدنيا وعذابها مساويا لعذاب الله في الآخرة ، ويدفعه ذلك إلى الكفر لينجو من عذاب الدنيا ، ويتحمل عذاب الآخرة ، والمنافق ينتهز الفرص فإذا جاء نصر الله للمسلمين ادعى أنه كان مع المؤمنين لينال غنيمة ، أو سلطة إلا أن الله يخبره بعلمه المحيط .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ أى بعض الناس لا جميعهم ، وذلك أن الناس ينقسمون إلى ثلاثة أصناف فمنهم المؤمنون ، ومنهم الكافرون ومنهم المنافقون وكل صنف

بعض الناس بالضرورة .

والحديث الآن عن المنافقين وهم يتصفون بما يلي :

(١) ﴿ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ ﴾ أى أنهم يعلنون الإيمان بألسنتهم ، ويتصورون

ذلك كافيا فى الإيمان ، وهذه صفة لا تليق بالمؤمنين ، لأن الاكتفاء بالقول وحده لا يفيد ، والإيمان تصديق بالقلب ، ونطق باللسان ، وعمل بالجوارح . أما الاكتفاء فى الإيمان بالنطق وحده فهو أمر لا يجوز .

(٢) ﴿ فَإِذَا أُذِىَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ أى أن هؤلاء

المنافقين يساوون بين فتنة الدنيا ، وبلائها وبين عذاب الآخرة وسعيرها ويقتنعون بذلك ، وهذا يجعله يرتد عن الإيمان ، ويرجع إلى الكفر حتى ينجو من عذاب الدنيا ، ويقبل عذاب الآخرة حيث لا بد للإنسان من أحدهما .

وهذا تصور خاطئ ، وفكر منحرف لعدة أسباب ... أهمها :

(أ) عذاب الناس له دافع بأنصاره أو بموت خصمه ، أو بتلحيه

بمصائب الدنيا . أما عذاب الله فليس له دافع .

(ب) عذاب الدنيا يعقبه ثواب الآخرة ونعيمها ... وأما عذاب الآخرة فلا

خير يسبقه فى الدنيا ولا خير يعقبه فى الآخرة .

(ج) عذاب الدنيا جزئى لا يستغرق الوقت والإنسان كله ، وعذاب الآخرة

عام شامل يصيب الإنسان جسدا وروحا ، وفى كل وقت .

(د) عذاب الدنيا يستتبع الأمل فى ثواب الله ، وعذاب الآخرة شقاء لا

أمل معه .

(هـ) عذاب الدنيا يربط صاحبه بقلوب صالحة مؤمنة فى الدنيا ، ويحشره

مع النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، بينما عذاب الآخرة يضع

(٨٣٤)

صاحبه فى الدنيا مع أهل المعاصى والضلال ... وفى الآخرة يحشره مع أصحاب السعير .

(٣) ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أى إن هؤلاء

المنافقين لا يشاركون المسلمين فى الجهاد فإذا حصل المؤمنون على نصر وغنائم فإنهم يسارعون إلى التقرب منهم ، ويقسمون لهم ، ويؤكدون أنهم كانوا معهم ، يؤاخونهم فى الدين ، ويدعون لهم ، ويتمنون انتصارهم ... وهم فى زعمهم هذا كاذبون .

﴿ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى أجهلوا ونسوا أن

الله اعلم بما فى صدور الناس من الناس أنفسهم .

وعبر عن القلوب بالصدور لبيان سعة علم الله تعالى وشموله لكل معلوم وتوضيح أنه سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ يقسم الله

فى الآيتين مرتين ، مرة لتأكيد إظهار إيمان المؤمنين بصبرهم على البلاء ، وتحملهم عذاب ومشاق الدنيا ... ومرة لتأكيد إظهار كذب المنافقين فى تسويتهم عذاب الله بعذاب الناس ، ورضاهم بالعصيان والكفر .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن المنافق بزعم أن عذاب الدنيا مساو لعذاب الآخرة ، ولذلك فهو يختار الكفر راضيا بعذاب الآخرة ، وهذا ضلال كبير ... كما تبين أنه إذا نزل بالمؤمنين نصر وغنيمة ادعى المنافقون أنهم مع المؤمنين لينالوا جزءا من

(٨٣٥)

الغنائم ، وهذا فساد آخر يعاقبهم الله عليه ، فعلمه محيط ، وسيظهر الله حقيقة كل إنسان عند الحساب ، ويجازيه بما يستحق .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هى :

بيان أثر النفاق فى الدنيا والآخرة

المنافقون صنف من الناس غلبت عليهم شهواتهم ، وضعفت إرادتهم وعجزوا عن اتخاذ موقف واضح صريح ، فعاشوا مذبذبين بين الكفر والإيمان ... يحاولون أن يكونوا شيئا مذكورا مع هؤلاء وهؤلاء ، ويعتمدون على الكذب والزيوف ، ويعيشون فى المؤمنين بمزاعم الصدق والإخلاص ، ومع الكافرين بمزاعم الحب لهم ، والاستهزاء بالمؤمنين .

إلا أن الجريمة لا تفيد ، والكذب لا يدوم ... لأنهم لما كذبوا تصوروا أن الجميع صدقوهم ، وتأتى أفعالهم تنبئ عن خباياهم ، ويضطربهم القدر إلى الإفصاح عن هويتهم حين يكفرون ويرضون بعذاب الله فى الآخرة .

إن النفاق خلق يدل على عدم وجود شخصية لصاحبه ، ويؤكد أن المنافقين كاذبون ، غرتهم الشهوات ، ورضوا بالمنكر ... وهم فى حكم الله كافرون يجزيهم ويعذبهم بما يستحقون .

وخطورة المنافقين على المؤمنين كبيرة لأنهم يظهرون الإيمان ، والحقيقة أنهم يعادونه ، وقد ينخدع بهم بعض البسطاء ... ولذلك فهم أخطر على المسلمين من الكافرين .

(٨٣٦)

إن الإنسان يحتاط لعدوه ، ويأمن لصاحبه ، وذلك ممكن خطورة المنافقين ، وعلى المؤمنين أن يعرفوا حقيقة من يتعاملون معه ، ووسائل العصر عديدة في كشف الكذب ومعرفة الحقيقة .

لقد كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ يعرفه بالمنافقين ليحذرهم ، واليوم يحتاج المؤمنون إلى البحث ، والتحري ، والظفر ، والله لهم خير معين .

الأميب الكافرين

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَكَمِيلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١﴾ وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَاهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢﴾ ۖ ﴾

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة إصرار الكافرين على الكفر ، جاءت هاتان الآيتان لبيان طرق الكفار في إضلال المؤمنين ، والرد عليهم .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان طرق الكفار في إضلال المؤمنين وترد عليهم أكاذيبهم .

(٨٣٧)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أى قال الذين كفروا بالله

من أهل مكة للذين آمنوا منهم بالله ورسوله ... وهذا القول يدل على :

(١) أن الكفار يبذلون جهدهم فى الإضلال ، ويأتون إلى المؤمنين الذين يعيشون معه لإضلالهم ، وارجاعهم إلى الكفر .

(٢) إن هذا القول تم بالاتصال المباشر فالكفار يقولون والمؤمنون يسمعون .

(٣) إن كل فريق يتمسك بعقيدته فقد اتصف كل منهم بصفته ، وسمى بها .

﴿ أَتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ ﴾ أى قال الكافرون للمؤمنين

اتركوا دينكم واتبعوا ديننا ، واسلكوا مسلكنا ، فنحن ناصحون لكم ، وما نرضاه لأنفسنا نرضاه لكم ، ولا تتصوروا خطأ فى دخولكم فى ديننا ، وأى خطأ تتصورونه نتحملة عنكم .

وهذه دعوة صريحة إلى الكفر اتبع فيها كفار مكة منهاجا لينا :

- فهم نزلوا من عليانهم وكبريائهم ، وتحدثوا مع العبيد والضعفاء الذين دخلوا فى الإسلام ، وتقربوا إليهم .

- وهم يدعونهم إلى ما هم فيه ، ويزعمون لهم الإخلاص ، ويبينون أنهم يرجون لهم ما يرجونه لأنفسهم .

- وهم يعلنون لهم الاستعداد للدفاع عنهم ، وتحمل المشاق التى يتصورون نزولها ... وهى فى تصورهم لا حقيقة لها .

(٨٣٨)

- يؤكدون سعيهم لخدمة الضعفاء بأن يأمرُوا أنفسهم بحمل الخطايا ، وذلك

فى قولهم : ﴿ وَلَنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ ﴾ .

أليست هذه هى أساليب القوى الكبرى فى صرف الأمم الضعيفة عن غاياتها ، والسيطرة على مقدراتها !!؟

ويرد الله هذا الافتراء المزعوم الذى يدعو إليه الكافرون ببيان الحقائق الثابتة ... وهى :

(أ) ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى أنهم لن يحملوا

أى خطأ لغيرهم مهما كان ضئيلاً ، فتأكيدهم بحمل الخطأ لا قيمة له ، والله عليم حكيم .

فإن قيل : نفت الآية حمل الخطأ ، وعادت فأثبتته . فكيف ذلك ؟

أقول : إن المراد أنهم لا يحملون خطأ غيرهم بذاته ، وإنما يحملون إثماً مثل إثمه مع بقاء الخطأ وإثمه على فاعله .

(ب) ﴿ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴾ أى أنهم كاذبون فى كل وعودهم وأقوالهم .

(ج) ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَاهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَاهُمْ ﴾ أى يقسم الله بما سيحقيق

بهؤلاء الكافرين الذين دعوا غيرهم إلى الكفر ، ويؤكد أن سيحملون أوزار أنفسهم وأوزاراً أخرى لما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً .

يقول الله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ

الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾^(١) ... ويقول النبي ﷺ : " من دعا إلى هدى

كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن

ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلال كان عليه من الإثم مثل

آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً"^(٢) .

(د) ﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى أن الله سيسألهم

يوم القيامة عن أكاذيبهم ، وافسادهم لينالوا عاقبة ما فعلوا فى الدنيا .

ويلاحظ فى الآيتين اشتمالهما على المؤكدات اللفظية العديدة حيث لام الأمر

فى ﴿ وَلَنَحْمِلَنَّ ﴾ والقسم المقدر الظاهر بحرفه ، ولامه ، ونون التوكيد فى

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ ﴾ ، ﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ ﴾ لبيان أن ما اشتملت عليه الآيتان حقيقة

ثابتة مؤكدة .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان محاولات الكفار إضلال المؤمنين ، واخراجهم من الإيمان

إلى الكفر بأسلوب المكر والخداع ، وتبين الآيتان فساد فعل هؤلاء المشركين

وسوء محاولاتهم .

(١) سورة النحل ، الآية ٢٥ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب العلم . باب من سن سنة حسنة ج ٤ ص ٢٠٦٠ .

(٨٤٠)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

خطورة ترك الحرية للكافرين

الكفر بؤرة فاسدة تضر نفسها ، وتؤذى من حولها ، وتنتشر الفساد بلا حياء ، ولا خجل ، ولذلك لزم إبعاده عن صفوف المؤمنين ، وتحذيرهم من ألامه ومكره .

وقد قضى الله بعدم وجود الكفر فى جزيرة العرب بعد أن طهرها منه ، وأخرج اليهود الذين كانوا فيها .

إن معركة الكفر للإسلام قائمة ، والكافرون فى نشاط دائم فهم ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾^(١) .

وفى العصر الحديث نشط أعداء الإسلام ضد المسلمين ، ولما عجزوا عن إخراج المسلمين من دينهم ارتضوا أن يهمل المسلمون تعاليم دينهم ، جزئيا ، فنشروا بين المسلمين الفحشاء والمنكر ، ودعوهم لترك الشريعة ، وإهمال أخلاق الإسلام ، والبعد عن شعائره ... حتى أصبحنا نرى المرأة العارية السافرة المسلمة فى الطريق ، ورأينا مظاهر المجون ، وألوان الفسق بلا رادع خلقى دينى .

إن حصون الإسلام مهددة من داخلها ... ولذلك لا يصح ترك المرض ينخر فى العظام ، وعدم تقييد الفساد ، وإبعاده عن الناس .

(١) سورة الصف ، الآية ٨ .

(٨٤١)

لقد قرر العلم عزل المرض المعدى فى مستشفيات خاصة ، وابعاده مريضه عن الناس منعا لانتشار المرض .

والدين فى الحياة هو الغاية الكبرى للإنسان ، ولذلك وجب حمايته ، والدعوة إليه ، ومنع الصادين من التمدادى فى نشر الفساد ومحاربة دين الله تعالى تحت مسميات كاذبة ، وأباطيل يرونها الحق وهم فيها كاذبون .

الركيزة الثانية

أهمية الحسم فى رد الأكاذيب

تشير الآية إلى ركيزة هامة وهى ضرورة الحسم فى رد المزاعم الكاذبة لأن الكذب سم يسرى فى الجسد بسرعة ، ولذلك كان القضاء على المرض أساس للمحافظة على الصحة .

إن الأكاذيب مثل الإشاعة يؤثر فى تكوين الرأى العام ، ويسئ إلى ماضى الأمة وحاضرها .

إن الكفر وهم لا حقيقة له ، والكافرون يعملون لوهمهم ، وينشرونه بين الناس ... ولذلك وجب التصدى لهم بحسم ، ورد مزاعمهم بالحق والصدق .

قصص سورة "العنكبوت"

بينت سورة "العنكبوت" في أولها ضرورة الابتلاء لإظهار المؤمنين من المنافقين ، وضربت نموذجا للإيمان والنفاق والكفر ... وبعد ذلك عرضت قصصها مركزة على بيان نجاح الرسل واتباعهم ، وخزي الكافرين ومصيرهم .

ونلاحظ أن قصص السورة لم يسر على نمط واحد في الطول والقصر فجاء بعضه في بعض آية ، أو في آية ، أو في آيتين ، كقصص نوح عليه السلام ، وشعيب عليه السلام ، وقصة موسى عليه السلام مع قارون وفرعون وهامان ، وقصة عاد وثمود ... وجاءت قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام في عشرين آية .

ونجد في قصة لوط عليه السلام في سورة العنكبوت تفصيل رحلة حركة الملائكة بين مقام إبراهيم عليه السلام وقرية قوم لوط عليه السلام ، وهذا لم يوجد في سور أخرى .

وسأعرض القصص قصة قصة كما وردت في السورة .

قصة "نوح" عليه السلام

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٠٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ .

تفصيل قصة "نوح" عليه السلام من خلال دلالة الآيتين

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ أي وقد اخترنا نوحا من قومه ، واصطفيناه من بينهم ، ولما بلغ أربعين بعثناه إليهم رسولا يبلغهم دين الله تعالى ، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأصنام .

(٨٤٣)

ورسالة نوح عليه السلام كانت خاصة بقومه مع أن الحوادث جعلت الباقيين على الأرض من بعده هم الذين آمنوا به .

﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ ﴾ أى أخذ عليه السلام يدعو قومه

عقب إرساله ، واستمر يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، وتواصل معهم خلالها ليلا ونهارا ، سرا ، وجهرا ، مبشرا ونذيرا ، وقد دامت دعوة نوح عليه السلام مدة طويلة استمرت تسعمائه وخمسين عاما عبر الله عن طولها ببلوغها الالف إلا القليل .

ومع الجهد المبذول فى الدعوة طوال هذه المدة لم يؤمن بنوح عليه السلام إلا القليل ، وكان قضاء الله فيهم هلاك الكافرين ، ونجاة نوح ومن ركب السفينة معه ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ أى امتلأت الأرض بالماء فغرق أهلها جميعا ولم ينج من الغرق إلا من ركب السفينة مع نوح عليه السلام وصاروا أصحابها .

﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ أى جعل الله قصة نوح عليه السلام وقصة

سفينته ، وقصة نجاة المؤمنين ، وهلاك الكافرين آية بالغة للعالمين وهم يرونها بأعينهم على جبل الجودى ، ويسمعونها من رسل الله إليهم .

قصة "إبراهيم" عليه السلام

وردت قصة إبراهيم عليه السلام في عدد من الآيات التي تناولت دعوة إبراهيم عليه السلام قومه إلى الإيمان بالله الواحد ، والتصديق بالرسالة ، والإيمان بالبعث والحساب ، وهذه مبادئ أساسية في كل رسالات الله ، ولذلك عرضتها الآيات عرضاً شاملاً يفيد الأمم كلها حتى تتصور كل أمه أن خطاب إبراهيم عليه السلام موجه لها ... وهنا أورد قصة إبراهيم عليه السلام في عدد من المواقف هي :

الموقف الأول

دعوة "إبراهيم" عليه السلام قومه

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

تفاصيل الموقف
من خلال دلالة الآية

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ نصبت الآية إبراهيم عطفاً على نوح عليه السلام أى وأرسلنا إبراهيم عليه السلام أو نصبت لعامل محذوف تقديره ، واذكر يا محمد لقومك إبراهيم حين دعا قومه ، وقال لهم مقالته .

﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

أى قال لهم نوح عليه السلام : اعبدوا الله وحده وخافوه ، فذلك خير لكم مما أنتم فيه ... فإن كنتم تعلمون أى شئ فستدركون أن عبادة الله هي الخير ، ولا خير في عبادة غير الله تعالى .

الموقف الثانى

تمايز الله الحق عن الأصنام

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْتِنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ أَلْمِثِّ ۚ ﴾ .

تفصيل الموقف
من خلال دلالة الآية

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْتِنًا ﴾ أى أنكم تعبدون الأصنام والأوثان ، وتتخذونها آلهة من دون الله تعالى مع أنكم صانعوها من حجر أو خشب ، لا يسمع ، ولا يبصر ولا يعى شيئا .

﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ وتؤلفون لها الأسماء التى لا دليل لها من الشرع أو من العقل ، وتحيطونها بالكاذيب التى تؤلفونها .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴾ أى أن الأصنام التى تعبدونها من دون الله لا تستطيع أن تأتيكم برزق ما تحتاجون إليه .

وبتوضيح هذه الحقائق المتصلة بالأصنام ينتفى أى حق فى عبادتها ، وتأليها لأنها حادثة ، مصنوعة ، أحاطها الكذب ، والعجز ، وعدم الإدراك .

ثم تبين الآية استحقاق الله أن يؤله وحده ، ويوحد وحده ، ويعبد وحده ، ويطلب منه وحده ، ويشكر على نعمه وأفضاله ، ويستعد الإنسان للرجوع إليه ليحاسبه ، ويجازيه بالجنة أو النار ، وذلك فى وقوله تعالى .

﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ ﴾ أى اعلموا أن الله هو خالقكم ورازقكم فاطلبوا منه العطاء والرزق ، وكونوا له عبادا مخلصين ، واشكروه على نعمه وأفضاله ، واعملوا للقاءه يوم الدين .

ويلحظ أن الأمر موجه للجماعة لبيان أن أداء العبادة فى جماعة خير من أدائها فرادى .

﴿ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ أى وإن تكذبونى فى

دعوتى ، وتستمروا على كفركم بالله فإن تكذيبكم لا يضرنى ، فقد كذبت الأمم التى سبقتكم رسلها ، وما ضروا الرسل بهذا التكذيب . فقد قام الرسل بما أمرهم الله به ، وصار الضرر واقعا على المكذبين .

﴿ وَمَا عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أى وليس على الرسول

إلا أن يبلغ الدعوة إلى مدعويه على وجهها الصحيح بطريقة سهلة ، وأسلوب بين ، ومنهج يتضمن وضوح المطلوب ، وقوة البراهين ، وحسن الخطاب ورد الشبه برفق ولين .

الموقف الثالث

عرض أدلة البعث

يقول الله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۚ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ۝ ﴾ .

تفصيل الموقف

من خلال دلالة الآيات

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ ؟ ... الاستفهام

إنكارى ، والمعنى أعمى هؤلاء المشركون ولم يروا أن كل مخلوق أوجده الله من إنسان وحيوان ونبات ... قد وجد بعد عدم ، وأن الله كونه ، وطوره ، وأكملة حتى صار مكتمل الخلقة ؟ ... ولو عقلوا وتأملوا المخلوقات لرأوا الآيات الدالة على وجود الله ، ووحدانيته ، وقصر العبادة القاننة عليه وحده ، وعظم الآيات يتجلى فى الحقائق التالية :

(أ) لقد بدأ الله خلق الإنسان من طين ، ثم سواه ، ونفخ فيه من روحه فصار إنسانا بأمر الله تعالى .

(ب) يبدأ الجنين فى بطن أمه علقه ، ثم يتحول إلى مضغة ، ثم إلى عظام ، ثم إلى كائن يولد بلا سمع ، وبلا بصر ، وبلا عقل ، ويستمر الله فى عطائه حتى يصير بشرا سويا .

(ج) توضع البذرة فى الأرض ، فتتشق نبتة تنمو شيئا فشيئا حتى تنتج ثمرة .

(د) تضع الطيور بيضها فى مكانها ، ويتعهدا الله حتى يصير كائنا له دوره ، وعمله .

وهكذا الوجود كله فى نشأته ، وتطوره ، وحركته ودقة أدائه لوظيفته التى قدرها الله له .

إن الآيات عديدة تشهد على قدرة الله تعالى من خلال بدء الخلق ، ونمائه ، وتطوره ... ومن خلال إعادة الخلق فى الدنيا ، وفى الآخرة .

أما إعادة الخلق فى الدنيا فهو تكرر الخلق ، وإيجاده مع كل مخلوق فرد فى كل الكائنات المخلوقة .

وأما إعادته فى الآخرة فهو بعث الأموات من قبورهم وحشرهم للحساب والجزاء .

﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ إن بدء الخلق أمر قدره الله تعالى وأوجده ، واعادته بعد فنائه أيسر وأهون لأن خلق المثال الأول وجود من عدم ، وأما الإعادة فهى إعادة وتركيب ، وذلك أيسر .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ

يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى قل يا محمد لأمتك سيروا بأجسادكم أو بعقولكم فى الأرض لتروا ما فيها من جبال ومهاد وبرارى وقفار ، وأشجار وثمار ، وبحار وأنهار ، فهى كلها مخلوقات محدثة تشهد على وجود إله واحد صنعها ، واستحق أن يعبد وحده .

﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ^ط وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أى إن سيركم

فى الأرض سيوضح لكم قدرة الله تعالى على إعادة خلقكم بالبعث ، وحشركم للحساب ، ومجازاتكم بالجنة أو بالنار ، وسترجعون إليه سبحانه وتعالى فيعذب من يشاء وهم المستحقون للعذاب ، ويرحم من يشاء وهم المستحقون للرحمة .

وبدأت الآية الخطاب بذكر العذاب ، وعبرت عن الرجوع بالانقلاب لمراعاة مقام الزجر والتخويف فى الآية .

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ^ط وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ

اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أى ولستم أيها المشركون بقادرين على الإفلات من عذاب الله بالهرب ، أو بالأولياء ، أو بالناصرين ... لأنه لا سبيل إلى الهرب فالأرض والسماء ملك الله ... فإلى أين الهرب ؟ ... وليس لكم عند الله من يتولى أمركم ، أو يدافع عنكم ... فليس لكم نصير ، ولا شفيع ، ولا دافع .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ وَلِقَائِهِمْ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾

أى إن الذين كفروا بالآيات والبراهين التى ساقها الله لهم ليؤمنوا بالبعث ينكرون لقاء الله ، لأن الكفر بالدليل كفر بالمدلول عليه ، ولذلك فهم لا يتصورون وقوع البعث والحساب ، ولا ينتظرون شيئاً مما وعدهم الله بحدوثه ، وهؤلاء لا أمل لهم فى الآخرة بعدما يئسوا من مجيئها فقد أنكروها ، ولم يعملوا لها .

﴿وَأُولَئِكَ هُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ أى أعد الله لمنكرى البعث عذاباً خاصاً

بهم فقد أنكروا الحق ، وتوغلوا فى الضلال فاستحقوا العذاب المؤلم الشديد . وقد اشتملت الآيات على صورة مكررة مع منكرى البعث فى الأمم كلها ولذلك يعد السؤال فى الآيات ، ودلالته توجيهها من رسول الله ﷺ لأمته ، كما يعد إنكاراً من إبراهيم عليه السلام لأمته ، ومن سائر الرسل لأممهم .

(٨٥٠)

الموقف الرابع

المواجهة بين "إبراهيم" عليه السلام وقومه

يقول الله تعالى :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٦) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴾ (٢٧) .

تفصيل الموقف

من خلال دلالة الآيات

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ أى

لم يجب قوم إبراهيم عليه السلام عليه إلا بالسفاهة والعدوان لأنهم بدل أن يواجهوا الحجة بالحجة ، والدليل بالدليل ، واجهوه بالتهديد ، والإعداد لقتله ، واحرقه بالنار لينال شر قتلة ... وهذا لا يفعله إلا السفهاء العاجزون .

﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ أى فأعدوا عدتهم ، وجمعوا حطبهم ، والقوا

إبراهيم فيها ، وأشعلوا النار ، فأنجاه الله منها ، وجعلها عليه بردا وسلاما .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى فى قصة إبراهيم عليه السلام مع

قومه ، وجدله معهم ، ونجاته من النار آيات عظام للمؤمنين المصدقين بكل ما جاء الوحي به ، وبكل ما أخبر الله عنه .

وبعد ذلك بينت الآيات سبب تمسكهم القوى بعبادة الأصنام ، وذكرت ما

قاله إبراهيم عليه السلام لهم مبينا السبب النفسى لتمسكهم بعبادة الأصنام :

﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام لقومه بعد نجاته من النار موضحا سبب كفرهم :

﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى

أن سبب تمسككم بعبادة الأصنام والأوثان أنكم جعلتم الأوثان وسيلة من وسائل المودة فيما بينكم ، تلتقون عندها ، وتتسامرون حولها ، وتجعلونها إحدى طرق القربى بينكم ، فلقد كانوا يضعونها فى أنديتهم ، ويتحالفون باسمها ، ويشهدونها على أعمالهم ، ويستحسنون وجودها معهم فاستقرت فى قلوبهم وعقولهم ، وتوارثوا ذلك الأمر زمنا طويلا .

وهذا شأن نفسى يعيشه الناس دائما ، فمن ألف الفساد الجماعة يحبه ، ويحرص عليه ... ومن صاحب غيره أو تعارف على صاحبه أثناء عمل فيه معصية يحلو له أن يلتقى بصاحبه فى مثل المعصية الأولى .

﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم

بَعْضًا ﴾ أى إن التواد ، والتمسك الذى جمعكم مع الأوثان ، سوف ينتهى يوم القيامة حين يرون العذاب ، وحينئذ ستنبأ منهم أصنامهم وآلهتهم وسينكر كل منهم غيره ، ويلعنه ، وسوف تتحول مودة الدنيا إلى عداوة فى الآخرة .

﴿ وَمَأْوَانُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّصِيرِينَ ﴾ أى ستلقون مصيركم

السىء فى الآخرة ، فالنار مأواكم ، والعزلة نهايتكم ، ولن تجدوا فى الآخرة نصيرا أو وليا .

الموقف الخامس

جزاء الله لإبراهيم عليه السلام

فى الدنيا وفى الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ فَتَمَنَّ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّ مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٧﴾
وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أُجْرَهُ فِي
الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

تفصيل الموقف من خلال دلالة الآيات

استمرت دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه فى العراق ، ولم يؤمن فيها إلا القليل
فأمره الله بالهجرة منها ، والذهاب إلى الشام ، وعرفه بما أعد له من جزاء حسن
فى الدنيا والآخرة ... يقول الله تعالى .

﴿ فَتَمَنَّ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّ مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ أى أمن لوط عليه السلام
بدعوة إبراهيم عليه السلام فى بلدهما كوثى ، وقال إبراهيم عليه السلام : إني مهاجر إلى حيث
أمرنى ربي ، ومعى ابن عمى أو ابن خالتى لوط عليه السلام الذى آمن بى ، ومعنا
"سارة" زوجتى .

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى قال إبراهيم عليه السلام إنه مهاجر حيث أمره
الله تعالى فهو العزيز الغالب ، وهو الحكيم الذى يأمر بما فيه الخير والمصلحة .
وقد أكرم الله إبراهيم عليه السلام وقدر له الجزاء الحسن فى الدنيا والآخرة .

(٨٥٣)

وقد اشتمل الجزاء الدنيوى على ما يلى :

(١) ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أى جعلنا له ذرية طيبة ، فرزقناه

إسحاق بعد أن صار شيخا من زوجته "سارة" وكانت عقيما ، وجعلنا له من إسحاق يعقوب ، ومن يعقوب بنى إسرائيل .

(٢) ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ أى وحصرنا النبوة والكتب

السماوية فى ذريته ، فمن إسحاق جاء يعقوب ويوسف ، وسليمان وداود وموسى وعيسى عليهم السلام ومعهم الكتب المنزلة .

ومن ولده إسماعيل جاء محمد ﷺ ومعه القرآن الكريم .

(٣) ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى أعطاه الله أجرا طيبا فى الدنيا فكثرت

ذريته ، وانتشرت الهداية فى بنيه ، وصارت كل الأمم تنتسب إليه وتدعوا له .

(٤) ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى إن إبراهيم عليه السلام يوم القيامة من

الصالحين حيث مقامهم العالى فى جنات النعيم فهو معهم أفى مقامهم .

وبذلك جمع الله لإبراهيم عليه السلام سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

قصة "لوط" عليه السلام

لوط عليه السلام هو ابن عم إبراهيم أو ابن خالته آمن به في العراق ، وصحبه مهاجرا إلى بلاد الشام ، واستقر به المقام في "سدوم" الواقعة شرق نهر الأردن قريبا من إبراهيم الذي نزل غرب النهر .
وقد أقام لوط عليه السلام مع الناس فصار منهم ، وبعثه الله إليهم ، وكانت قصته معهم التي سأذكرها في المواقف التالية :

الموقف الأول

دعوة "لوط" عليه السلام لقومه

يقول الله تعالى :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَتُنْكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ط مَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٨﴾ ۝ ﴾

تفصيل الموقف

من خلال دلالة الآيات

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ أى انكر يا محمد لوطا الذى اخترناه ، وأرسلناه إلى قومه فى "سدوم" فواجههم بدعوته ، وتحدث معهم ، وقال لهم ما أمره الله به .

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أى أكد لهم لوط عليه السلام أنهم يفعلون الفعل القبيحة المستزلة التى

لم يسبقهم أحد إليها من الجن والإنس فهم مخترعوها والمسئولون عنها ، وعن فعلها إلى يوم القيامة ، وبين لهم لوط عليه السلام خطورة ما يفعلون فيما يلي :

(١) ﴿ أُيْنُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ﴾ أى أنكم تجعلون شهوتكم فى الرجال دون

النساء وهذا شذوذ فى الخلق ، ومعاداة للفترة .

(٢) ﴿ وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ ﴾ أى وتقطعون الطرق لقتل الناس ، والاستيلاء

على الأموال والأنعام وأنكم تقطعون الذرية بترك النساء ، لأن الرجل لا يلد .

(٣) ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ ﴾ أى وتفعلون المنكرات فى ناديكم

الذى تجتمعون فيه مثل حذف الحصى ، والسخرية من الناس ، والاعتداء على الغرباء .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ ﴾ أى

أجاب قوم لوط عليه إجابة واحدة وهى : ائتنا بعذاب الله الذى تخوفنا منه ، وتعدنا به .

﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ أى إن كنت يا لوط صادقاً فى رسالتك

ودعواك فعجل بالعذاب الذى تخوفنا به ، فأمرك لا يهمنا .

﴿ قَالَ ﴾ لوط عليه السلام داعياً ربه ﴿ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ

الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى قال لوط عليه السلام ودعاً ربه أن ينصره على قومه فقد أفسدوا

حياتهم ، وزرعوا الفساد فى الأرض بين الناس .

وقد استجاب الله للوط عليه السلام فنزل بقومه الهلاك والدمار .

الموقف الثانى مرور الملائكة بإبراهيم قبل لوط ”عليهم السلام“

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ ١ قَالَ إِنِّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُرْكَى كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ ٢ .

تفصيل الموقف من خلال دلالة الآيات

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ لما جاءت الملائكة أولا لإبراهيم عليه السلام لتبشّره بإسحاق عرفوه بما سيفعلونه بقوم لوط .

﴿ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ أى قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام إنا سنهلك أهل قرية سدوم .

﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ أى إن سبب إهلاك هذه القرية هو مجاوزتهم الحد ، وعدوانهم على الحقوق . فقد كفروا بالله ، وعبدوا الأصنام ، وأكثروا فى الفساد ، واخترعوا فاحشة عجيبة ما سبقكم أحد إليها ، ولم يستجيبوا لدعوة لوط عليه السلام .

هنا أشفق إبراهيم عليه السلام على لوط عليه السلام و ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم للملائكة

﴿ إِنِّ فِيهَا لُوطًا ﴾ أى أتهلكونها جميعا ، وفيها لوط ومن آمن معه ؟

﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا﴾ أى قالت الملائكة نحن اعلم بمن فيها من المؤمنين والكافرين ، ونعلم أن الهلاك للكافرين وحدهم ... ثم أكدوا نجاة لوط ومن معه بقولهم : ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ وأقسم الملائكة لإبراهيم بأنهم سينجون لوطا ، وأهله ، ومن آمن به إلا امرأته فإنها ستهلك من الهالكين لأنها لم تؤمن بلوط ، وكانت مع الظالمين من أهل القرية ، فاطماً إبراهيم عليه السلام لأن الملائكة تنطق بأمر الله تعالى وهم جند الله مطيعون ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١) .

الموقف الثالث

مجيئ الملائكة للوط وهلاك الظالمين

يقول الله تعالى :

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ .

تفصيل الموقف

من خلال دلالة الآيات

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾
أى ولما جاءت الملائكة الذين أرسلهم الله إلى لوط عليه السلام فى صورة رجال حسان

(١) سورة التحريم ، الآية ٦ .

غرباء تألم لوط ، ورأى عجزه عن حمايتهم من قومه الذين جاءوا إليه يهرعون ، لينالوا منهم ما يشتهون ، فحزن فى نفسه لعجزه عن ردهم ، وخاف على ضيوفه من العدوان عليهم ، فطمأنته الملائكة ، ﴿ وَقَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ على ضيوفك ﴿ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ فى نفسك ، فإننا ملائكة ربك ، وسنهلكهم وندمر قريتهم ، واعلم ﴿ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتِكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أى إن الله أمرنا أن ننجيك وأهلك ومن آمن بك ، وسنهلك من سواهم وستكون امرأتك مع الهالكين .

﴿ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى إنا منزلون على أهل هذه القرية بأمر الله تعالى عذابا من جهة السماء فى صورة حصباء صغيرة من سجيل أعددنا واحدة منها لكل واحد فى القرية ﴿ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ﴾^(١) بسبب فسقهم ومجاوزتهم الحد فى المعصية والعدوان .

وقد وقع ما أنذرهم به لوط عليه السلام فعلت الصيحة ، وتزلزلت الأرض وانقلبت بهم ، فماتوا جميعا آثمين .

﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى ولقد أبقينا من قريتهم علامة ظاهرة تشهد على عذاب الله الذى نزل بهم ، ليستفيد بها العقلاء الفاهمون ومازالت لهم بقية عند البحر الميت فى الأردن .

(١) سورة الذاريات ، الآية ٣٤ .

(٨٥٩)

قصة "شعيب" عليه السلام وهلاك قومه بكفرهم

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ
الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٦٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيمِينَ ﴿١٦٧﴾ ۝ ﴾

تفصيل قصة "شعيب" عليه السلام من خلال دلالة الآيتين

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ أى ولقد أرسلنا إلى مدين أخاهم

شعيبا فهو من قبيلتهم وينتسب إليهم ، ومدين ليسوا هم أصحاب الأيكة .

دعا شعيب عليه السلام مدينا إلى الله تعالى وهم يعلمون صدقه وأمانته ، وقد

دعاهم إلى ثلاثة موضوعات رئيسية هي :

(١) ﴿ فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أى ناداهم مع بدء دعوته وقال لهم :

اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به غيره ، فهو إلهكم الذى خلقكم ، ورزقكم ،
واليه مرجعكم للحساب والجزاء .

(٢) ﴿ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ أى واعلموا أن اليوم الآخر واقع لا محالة

فآمنوا به ، واعملوا للفوز فيه بالجنة .

(٣) ﴿ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ أى لا تستمروا فى الفساد الذى

أنتم فيه من قطع للطريق ، وتطفيف للكيل والميزان ، والتعدى على حقوق
الضعفاء .

(٨٦٠)

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴾

أى كذب مدين شعيبا فأخذتهم الصيحة المزلزلة ، فماتوا من شدة الخوف ، وأصبحوا موتى وهم خاثمون على أرجلهم .

قصة عاد وثمود

يقول الله تعالى :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ^ط وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَوَصَّاهُمُ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٨٦٠﴾ ﴾ .

تفصيل القصة

من خلال دلالة الآية

﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ ﴾ أى أهلكنا

عادا وثمود ، وجعلنا إهلاكهم آية ظاهرة واضحة من بقاء مساكنهم المخربة فى الأحقاف حيث ديار عاد ، وعند تبوك حيث ديار ثمود ... وأنتم أيها المسلمون ترونها صيفا وشتاء لتكون لكم آية .

﴿ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَوَصَّاهُمُ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا

مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ أى إن الشيطان زين لعاد وثمود ما هم فيه ، وغرهم بما هم عليه ومنعهم من طريق الهداية ، وصرفهم عن الإيمان بالله الواحد الأحد فاستمروا على الضلال حتى أهلكهم الله ، وهم يعرفون ماذا سيحل بهم .

(٨٦١)

قصة "موسى" عليه السلام مع قارون وفرعون وهامان

يقول الله تعالى :

﴿ وَقُرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ
فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٨٦١﴾ ۖ .

تفصيل الآية
من خلال دلالاتها

﴿ وَقُرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ ۖ ﴾ أى أهلك الله هؤلاء الطواغيت
بعدما اغتروا بنعم الله ، وكفروا به فقد اغتر فارون بماله ، واغتر فرعون
بسلطانه ، واغتر هامان بتولية وزارة مصر .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا
سَابِقِينَ ﴾ أى ولقد جاء موسى عليه السلام هؤلاء الطغاة بالآيات والحجج الدالة
على صدق ما جاءهم به إلا أنهم استكبروا ، وطغوا ، وبغوا فأهلكهم الله بالغرق
والخسف ، وما كان لهم أن يسبقوا القدر ويفلتوا من عذاب الله تعالى .



(٨٦٢)

ركائز الدعوة

فى قصص سورة "العنكبوت"

يتضمن القصص فى سورة "العنكبوت" عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

المؤمنون فى معية الله

الرسول هو أسوة المؤمنين ، وقدوتهم ، والعلماء والدعاة يرثونهم فى العلم بالدين والقيام بتبليغه للناس ، وتحمل المشاق ، والصبر فى مواجهة الذين لا يؤمنون .

إن رسول الله عليهم الصلاة والسلام وجدوا من أمهم ظلما ، وقسوة ، وعننا ، فلقد اتهموهم بالكذب والسحر ، ونقل الأساطير .

وسارت سنة الناس مع الرسول أن قابلوا الدعوة بالتكذيب ، وردوا الآيات بالعدوان ، ووجهوا حركتهم بصد الناس عن الاستماع إليهم .

أنتهم المعجزات الخارقة للعادة فأبوا قبولها ، وطلبوا غيرها استهزاء وتعنتا ولم يجد الرسول من الناس إلا العداوة ، والتكذيب والعدوان ، ولم يؤمن منهم إلا القليل .

وعاش الرسول فى طاعة الله يبلغون الدعوة ، ويجاهدون فى سبيله ، وكل أملهم إرضاء الله تعالى ، والقيام بالواجب الذى أوكله الله إليهم .

والدعاة والمؤمنون بعد رسول الله ﷺ يسيرون على خطاه ، يحافظون على الدين ، وينشرون تعاليمه غير مكثرين بما يتعرضون له ، متخذين من الرسول أسوة وقدوة ، لقد نجى الله نوحا من الغرق بعد أن استمر يدعو ألف سنة إلا خمسين عاما .

ونجى الله رسله إبراهيم ، ولوطا ، وشعيبا ، وصالحا ، وهودا ، وموسى عليهم السلام ، ومحمدا ﷺ ، وجعل من نجاتهم معلما بارزا أمام المؤمنين والدعاة .

على المؤمنين التأسي بالرسول فى العمل ، والطاعة ، والصدق ، والدعوة والإخلاص ، وعليهم أن يتيقنوا بأن الله سوف ينصرهم فى وقت وحالة يقدرها سبحانه وتعالى ... لقد هزم الله الطغاة وهم فى قمة ظلمهم وطغيانهم قديما وحديثا ليأخذ المؤمنون من ذلك عبرا ودروسا . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾^(١) .

الركيزة الثانية

ضرورة الاستفادة بمنهج الرسل

فى الدعوة إلى الله تعالى

حينما ننظر فى قصص سورة "العنكبوت" وتفصيلاته فى السور الأخرى نجد أن الرسل عليهم السلام اتبعوا منهاجا حسنا فى دعوة الناس نأخذ منه المبادئ التالية :

المبدأ الأول : الوحدة الدينية حيث أن كل الرسل دعوا إلى عقيدة واحدة قائمة على توحيد الله تعالى ، وإخلاص العبادة له وحده ، وتصديقه فى الوحي الذى نزل به الملائكة على رسله المؤيدين بالمعجزات .

المبدأ الثانى : تغاير التشريع مع كل رسول حيث نرى كل رسول يركز على أمر تشريعى خاص بأمرته لأن كل أمة لها ظروفها ، وتقاليدها ، وأوضاعها الخاصة بها .

(١) سورة غافر ، الآية ٥١ .

المبدأ الثالث : الاتحاد فى البراهين بصورة عامة حيث نجد كل رسول يوجه إلى النظر فى الخلق ، والرزق ، والتأمل فى الأمم الغابرة للاتعاظ بهم .

المبدأ الرابع : التناصر والتآخى حيث نرى حب كل رسول لإخوانه وتصديقهم ، وإبراز فضائلهم ، وصدقهم .

المبدأ الخامس : النتيجة الأخيرة لكل دعوات الله هى انهزام الكفر وأهله وانتصار الدين والمؤمنين .

وقد عرض القرآن الكريم أخبار الأمم الماضية لتبقى نماذج رائدة أمام الدعاة يأخذون منها العبر والدروس .

إن دعوة الإسلام تشمل العالم كله ، وهو بالضرورة متنوع ، متعدد ، ولذا كانت أخبار الأمم مفيدة للدعاة لأنهم سيجدون النماذج الدعوية المناسبة للأمم على اختلافها ، وسيعلمون نفسيات الملأ والضعفاء ، وسيقفون على أساليب النفاق والخداع ، وسيتعلمون الخطاب الأمثل لدعوة الناس . يقول الله تعالى :

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١) .

(١) سورة الذاريات ، الآية ٥٥ .

شمول عقوبة الله للأمم المكذبة

يقول الله تعالى :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ۖ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بآيات القصص

بعد أن بينت الآيات السابقة هلاك الأمم المذكورة جاءت هذه الآية لبيان أن الله أخذ كل أمة بذنوبها ، وقد تنوعت طرق هلاكها لتناسب ظلمهم وكفرهم .

- ٢ -

معنى الآية

تبين الآيات أن الله أهلك جميع الأمم السابقة بذنوبهم ، وقد تعددت صور الهلاك لتناسب أعمالهم التي ظلموا بها أنفسهم ، فاستحقوا ما حل بهم ، وتبين قدرة الله البالغة في الأخذ والعقاب .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ۖ ﴾ أى أهلك الله الأمم المكذبة السابقة كلها

بذنوبهم ، ودمرهم بأربعة ألوان من العذاب هي :

(١) ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ كقوم عاد إذ قالوا : ﴿مَنْ أَشَدُّ

مِنَّا قُوَّةً﴾^(١) ؟ ... فجاءتهم ريح ، صرصر ، عاتية ، باردة ، شديدة

الهبوب ، تحمل الحصباء التى ألقتها عليهم فأهلكتهم حيث هم .

(٢) ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كقوم ثمود حين قامت عليهم الحجة

ولم يؤمنوا ، بل استمروا فى طغيانهم ، وكفرهم وهددوا نبي الله صالحا
ومن آمن معه ، فجاءتهم صيحة أخدمت منهم الأصوات والحركات
وأهلكتهم بصوتها ورجفتها .

(٣) ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كفارون الذى طغى وبغى ،

وعصى الرب الأعلى ، ومشى فى الأرض مرحا ، وتاه بنفسه عجبا .
فخسف الله به وبداره الأرض .

(٤) ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح عليه السلام فقد أغرقهم بالطوفان ، وفرعون

وهامان وجنودهما فقد أغرقهم الله فى صبيحة يوم واحد عندما انطبق اليم
عليهم ، وهو يريدون اللحاق بموسى وجنوده .

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

أى أن العقوبة التى حلت بكل منهم عقوبة لهم على ضلالهم وكفرهم ، لأن
الله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

(٨٦٧)

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية عقوبات الله التي أهلكت الأمم السابقة ، وتوضح أنها جزاؤهم العادل ، لأن الله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

على العاقل أن ينظر في مصير الأمم

حين نتأمل في مصير الأمم الغابرة نجد أن الله أهلكتهم جميعا ، ولم يبق منهم أحدا ، وهذا يدفعني في البحث عن سبب إيراد صور هلاكهم عند ذكر شيء من أخبارهم ولو كان قليلا .

وأتصور . والله اعلم . أن الله أنزل صور هلاك القوم ، وكرره في القرآن الكريم لتتذكر أمه محمد ﷺ وهي التي نزل القرآن لها ، وتعرف الواجب ، وتعلم المصير الذي ينتظر من يكفر بالله تعالى ، لأن وحدة الجريمة تؤكد وحدة العقوبة ، وللمكذب جزاء من كذب قبله . يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ

فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾^(١) ، ويقول سبحانه عن عقوبة قوم لوط :

﴿ مُسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾^(٢) .

(١) سورة فاطر ، الآية ٤ .

(٢) سورة هود ، الآية ٨٣ .

ويقول سبحانه : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِهِمْ ؕ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ؕ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴾^(١) ، ويقول سبحانه :
 ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾^(٢) .

لقد أكرم الله تعالى الأمم الكتابية بعدم استئصالها ، وأبقى فيهم الدعوة ،
 وأحيا لهم الدين فى كتبه المنزلة تتلى عليهم فى كل مكان وزمان .
 وأحاط الله القرآن الكريم بكل عوامل الحفظ فبقى مع الناس كما نزل بلفظه
 ومعناه حجة عليهم ، يبين الدين ، ويفصل الآيات ، ويذكر بالماضى ، ويحدد
 الواجب ، وينذر ويبشر بالشر والخير ، والجنة ، والنار .
 والواجب على العاقل أن ينظر ويتدبر ، ويعقل ، ويختار لنفسه بعيدا عن
 التقليد والهوى ... يقول النبى ﷺ : " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت
 ، والعاجز من اتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله " ^(٣) .
 ومن أساسيات التأمل فى العذاب الذى حل بالأمم السابقة وضوح أن
 الرسل دعوهم مدة طويلة ، وبصور عديدة ، وناقشوهم فى شبههم ، ومزاعمهم
 ولم يجدوا منهم إلا الجحود والصد ، والكبرياء ... فنزل عليهم عذاب الله .

(١) سورة محمد ، الآية ١٠ .

(٢) سورة الشورى ، الآية ٤٠ .

(٣) سنن الترمذى . أبواب صفة القيامة . باب ج ٤ ص ٦٣٨ .

هوان آلهة المشركين

يقول الله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ
 اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۚ
 إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۚ
 وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ۚ خَلَقَ اللَّهُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۚ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآية السابقة عقوبات المشركين جاءت هذه الآيات لبيان هوان
 آلهة المشركين التي عبدوها ، وتوضح أنها لا تساوى شيئاً ، وتضرب لهم المثل
 على ضلالهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات هوان آلهة المشركين ، وعدم جدواها ، وتبين أنها لا قيمة لها
 وقد ضربت الآيات مثلاً لذلك فهي تشبه بيت العنكبوت في وهنه وضعفه ،
 ويتصور المشركون أن الله غافل عن ما يعبدون من دونه ... وهذا خيال منهم
 فالله عزيز حكيم ، وتوضح الآيات أنه لن يفهمها إلا العلماء ، ولن يستفيد بها
 إلا أصحاب العقول السليمة .

الدلالات اللغوية

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ
أَتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا

يَعْلَمُونَ ﴾ ضرب الله مثلا مركبا للذين اتخذوا لأنفسهم أصناما ، وعبدوها
من دون الله تعالى ، وانتظروا منها نفعاً وضراً ، وشبههم بالعنكبوت تصنع
لنفسها بيتاً من الخيوط ليحميها من البرد والهواء والحر والفحيح ، إلا أن هذه
البيوت لا تقيدها بشئ أبداً ، فهي تنهدم من لمسة هواء ، ونفخة ريح ، وحركة
مكان .

وقد اختارت الآية العنكبوت وبيتها ، وضربته مثلاً لوجوده في كل مكان ،
في البر وفوق الماء ، وداخل البيوت ، وفوق الشجر ، فهو مثل مشاهد
محسوس ، وكل عناصره مرئية ظاهرة الهوان .

إن العنكبوت لا عقل له يصنع بيته ليسكنه ، والإنسان العاقل يصنع
الصنم ويتخذها إلهاً .

إن العنكبوت يستفيد ببيته قبل هدمه ، والإنسان لا يستفيد بالصنم أبداً
وهل يفكر الإنسان ليعلم قدر الصنم والوثن قبل أن يعبد ، ويتخذها إلهاً ، ويدرك
علة تأليهه ، وجدوى عبادته ؟

إن بيت العنكبوت هو بيت يناسب فاعله . أما الآلهة المتخذة من دون الله
تعالى فليست من الألوهية في شئ ، والعنكبوت يصنع بيوتا عدة ولا يلزم نفسه
ببيت منها ، ولا يجعل فيها هالة تحكمه ، أما المشركون فيجعلون الأصنام آلهة
يعبدونها ، ويتقربون إليها ، ويضعونها في مقام الله المعبود .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴾ أى إن الله يعلم أن الآلهة التى يعبدونها من دون الله تعالى لا

قيمة لها ، وليست بشئ ، والله وحده هو الغالب الذى يضع كل شئ فى موضعه .

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۚ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ أى

يضرب الله مثل العنكبوت وغيره من الأمثال ليفهمها ، ويستفيد بها أصحاب العقل والعلم والفهم .

إن المثل أسلوب بيانى بوقظ العقل ، ويقرب المعنى ، ويحدد ملامح الحق والباطل لأولى الأبواب .

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى خلق الله الأرض والسماوات لحكم وفوائد وغايات عالية ،

وعلى المؤمنين أن يستفيدوا بها ، ويفوزوا بخيرى الدنيا والآخرة .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله ضرب الأمثال للناس ليستفيدوا بخلق الله ، ويعلموا أن

الله إله واحد ، ويتركوا الشرك والشركاء ، ويتخذوا من آيات الخلق براهين

للإيمان والاستقامة ، وتضمنت الآية ضرب بيت العنكبوت مثلاً للأصنام

والأوثان فى الهوان وعدم الفائدة .

(٨٧٢)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الحكمة ضالة المؤمن

يمتلئ كون الله المخلوق بالآيات والبراهين والحجج الدالة على ضرورة الإيمان بالله الواحد الأحد الذى لا إله معه ، ولا ند له ، ولا عبادة لغيره سبحانه وتعالى ، وأيضا وجد الإنسان ، ومتى وجد ، وكيفما يوجد سيجد من الآيات ما يهديه للحق والصواب .

وقد وجه الله الإنسان وضرب له الأمثال ليعرف ويهتدى .

وفى كل شئ له آية .: تدل على أنه الواحد

والسعيد من نظر للكون واستفاد به ، وعرف الله عن طريق خلقه .

لقد أكرم الله الإنسان فعرفه بالآيات ، وأرسل الرسل ، وحدد له الطريق وترك له حرية الرضى والاختيار .

إن المؤمن ينظر بعقله الناصح ، ويتأمل بفهم وتحليل لينقذ نفسه من متاهات الضالين المفسدين ، ودائما يكون كما وصفه رسول الله ﷺ فى قوله :
"الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها"^(١) .

(١) سنن الترمذى . أبواب العلم . باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ج ٥ ص ٥١ .

(٨٧٣)

الركيزة الثانية **ضرب الأمثال أسلوب للدعوة**

أورد القرآن صورا للبيان عديدة . منها ضرب الأمثال ، والأمثال جمع مثل وهو تشبيه مركب من عناصر عديدة متقابلة تتلاقى فى وضع صورة واضحة مأخوذة من كافة العناصر لبيان ما سبق المثل له ... ولكثرة تأثير المثل جعل الله إيراد ضربا لقوة تأثيره ، والتفاعل معه .
إن عناصر المثل مأخوذة من الواقع ، ولذلك سهل فهمها والاستفادة منها ... ويمكن للدعاة أن يستفيدوا بأمثال القرآن الكريم فى مواعظهم ، وارشادهم وأن يأخذوا منها نسقا يصنعون مثله فى دعواتهم .

معالم الفوز والنجاح

يقول الله تعالى :

﴿ أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة هوان الآلهة التى اتخذها المشركون من دون الله تعالى جاءت هذه الآية لبيان طريق الفوز والفلاح ، وتأمّر به رسول الله ﷺ ليتأسى به المؤمنون من بعده .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الله سبحانه وتعالى أمر رسوله بالتمسك بطريق الفوز والفلاح ، ويسليه فى معارضة المشركين الذين بعدوا عن هذا الطريق .

(٨٧٤)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أى أدم يا محمد على قراءة

القرآن الكريم الذى أنزله الله عليك ، وتقرب به إلى الله ، واستفد بما فيه من فوائد وأسرار ، وهداية وارشاد .

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾

أى أد الصلاة كاملة تامة ، واقصد بها الله وحده فإنها تأمر بالمعروف ، وتوصل بالله ، وتبعد عن السيئات ، وتتهى عن الفحشاء والمنكر ... لأن لسان حالها ينادى من يقوم بها ، وتقول له : كيف تعصى إلها ... وأنت تعبدته ؟ وكيف تجمع بين الطاعة والمعصية معا لإله واحد ؟

﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أى واذكر ربك كثيرا فهو أكبر ما تستفيده من

قراءتك وصلاتك وذكر الله فى الصلاة أكبر من ذكره فى غيرها .

وذكر الله لكم أيها الذاكرون وهو يجازيكم على الطاعة أكبر وأفضل .

- ٤ -

معنى الآية

تأمر الآية رسول الله ﷺ ليداوم على قراءة القرآن الكريم ، ويحافظ على

إقامة الصلاة ، وذكر الله تعالى فى كل أحواله ، وهذا المنهج الذى أمر الله به

رسوله ﷺ هو منهج المسلمين لينالوا الفوز والفلاح .

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

أهمية العبودية الخاصة لله تعالى

خلق الله الإنسان ليعبده ، وأمره أن يستقيم على أمره ، ويهتدى بهداه .
يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾^(١) .

وعبودية الإنسان لله تتحقق بعدة أمور :

(١) مداومة تلاوة القرآن الكريم ، فهو كلام الله تعالى الذى لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأثره كبير على الجوارح ، والقلوب ، يهدى
إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

(٢) إقامة الصلاة ، وأداؤها على وجهها كبير الأثر ، يشعر المصلى أنه
بين يدي ربه يناجيهِ ، ويكلمه ، فتشرق روحه ، وتنشط مداركه ، ويسعد بهذه
العبودية فيبتعد عن الفحشاء والمنكر حتى لا يجمع بين المتعارضين .

(٣) مداومة ذكر الله فى أثناء التلاوة ، حيث أن الواجب ذكر الله عند
الصلاة وأثناءها ، وفى كل وقت وحال ، لأن الذكر الدائم هو أكبر عوامل الفوز
، وإذا كان فى الصلاة فهو أعظم ، وإن كان من الله للعباد فهو أعلى وأعظم .
إن الآية تعنى أن يعيش الإنسان فى الدنيا عبداً لمن خلقه وكرمه ، وتشير
إلى لقاء عباد الله لربهم المعبود .

(١) سورة البينة ، الآية ٥ .

(٨٧٦)

إن الإنسان إن فرغ قلبه من العبودية يعيش فى الدنيا لاهيا عابثا
﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى هُمْ﴾^(١) .
إن الله عليم خبير ، والأمر إليه ، وسيجزي كل نفس ما كسبت .

(١) سورة محمد ، الآية ١٢ .

الجزء الحادى والعشرون

وأوله قوله تعالى :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ ... ﴾ .

سورة "العنكبوت" آية [٤٦]

(٨٧٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

منهج دعوة أهل الكتاب

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢١) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۚ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا تَجْحَدُ بِغَايَتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴾ (٢٢) .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلها

بعدما بينت الآيات السابقة هوان آلهة المشركين جاءت هذه الآيات لبيان منهج دعوة أهل الكتاب ، لأنهم موحدون ، ولهم كتاب من الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان منهج دعوة أهل الكتاب ، ومجادلتهم بالحسنى ، وإبراز نقاط الاتفاق والاختلاف بين المسلمين وبينهم ، فقد أنزل الله القرآن الكريم كما أنزل التوراة والإنجيل ، وتبين أن بعض أهل الكتاب يؤمن بالقرآن الكريم ، وما يكفر به إلا الجاحدون .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أهل الكتاب هم اليهود والنصارى الذين لهم كتاب سماوى ، نزل لهم من الله تعالى فقد نزلت "التوراة" لليهود ، ونزلت "الإنجيل" للنصارى ، وفى الكتابين هدى ونور ،

ولذلك حسن دعوتهم بمنهج يناسبهم ... إن معرفتهم بالدين تجعلهم يتمسكون بدينهم ، ويظنون أنه الحق ، وتوحيدهم لله تعالى يجعلهم يتصورون عدم حاجتهم لدين .

إن دعوة أهل الكتاب يقوم على منهج معين يحدد القضايا المشتركة الموجودة بين دينهم وبين الإسلام ، ويظهر الجديد الذى يدعون إليه ، ويبين نقاط الاتفاق ، ونقاط الاختلاف بين ما هم عليه ، وما يدعون إليه .

لو بقى أهل الكتاب على دين الله الذى جاء به موسى وعيسى عليهما السلام لصاروا على دين واحد ، لأن رسالة عيسى عليه السلام كانت متممة لرسالة موسى عليه السلام إلا أنهم مختلفون متعارضون .

ولو بقى دين الله فى اليهود والنصارى كما نزل من عند الله تعالى لأمنوا بالإسلام ، وصدقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد بشر به موسى وعيسى عليهما السلام .

وقد كلف محمد صلى الله عليه وسلم والمسلمون بدعوة أهل الكتاب مراعين ما لديهم من دين ، ومعرفة ، ولذلك وجب محاورتهم بالأسلوب اللين الهادف المنظم ، وعدم التصادم معهم ، ومجادلتهم بالطريقة الهادفة ، والخطاب الجميل .

وقد جاءت الآية بصيغة الحصر التى بدأت بالنفى ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا ﴾ وانتهت بالاستثناء ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ أى أن من اعتدى منهم على الإسلام ، وحاد عن الحق ، واعتدى على الدعاة ، وأبى أن يسمع كلام الله ، فهذا يعامل بما يستحقه .

وتبدأ الآية بعد ذلك بتفصيل منهج دعوة أهل الكتاب ، وأهم ملامحه هى :

– ﴿ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ أى عرفوهم بأننا

نؤمن بنزول التوراة على موسى عليه السلام ، وبنزول الإنجيل على عيسى عليه السلام وبنزول القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم لأن إظهار الإيمان بكتب أهل

الكتاب يدفعهم إلى الإيمان بنزول القرآن الكريم من عند الله تعالى لأنهم لن ينكروا نزول جبريل بوحى ، ولن ينكروا نزول كتاب من عند الله تعالى ... لإيمانهم بنزول جبريل عليه السلام بكتاب من الله على رسول يختاره الله تعالى .

- ﴿وَاللَّهُنَّاءُ وَاللَّهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ أى وعرفوا أهل الكتاب أننا نحن المسلمين ندعو إلى الإيمان بالله الواحد الأحد الذى دعا إليه موسى وعيسى عليهما السلام .

﴿وَحَنُّ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أى ونحن نؤمن بالله الواحد الأحد ، ونعبده وحده ، ونستسلم لكل ما أمرنا به كما هو حقه علينا ... وفى هذا تعريض لليهود والنصارى ليستسلموا لله ، ويدخلوا في الإسلام .

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : "كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ﴿وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُنَّاءُ وَاللَّهُكُمْ وَاحِدٌ وَحَنُّ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾" (١) .

وروى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : "لا تسألوا أهل الكتاب عن شئ ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق ، وإما أن تصدقوا بباطل" (٢) .

(١) صحيح البخارى . كتاب الشهادات . باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها ج ٣ ص ١٨١ .

(٢) مصنف عبد الرزاق . كتاب أهل الكتاب . باب مسألة أهل الكتاب ج ٦ ص ١١١ .

وعن حميد بن عبد الرحمن سمع معاوية رضى الله عنهم يحدث رهطا من قريش بالمدينة ، وذكر كعب الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلوا عليه الكذب^(١) .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ أى وأنزلنا عليك يا محمد القرآن الكريم مثل إنزالنا للكتب السابقة ، فأمر الكتب الإلهية واحد نزل بها جبريل عليه السلام على رسول الله بدين الله تعالى .

﴿ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أى أى الذين آتيناهم الكتاب قبلك وهم اليهود والنصارى يؤمنون بالقرآن الكريم لما يقرأون عنه في كتبهم ، وبما يسمعون عنه من أخبار أهل مكة .

﴿ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ أى ومن أهل الكتاب المعاصرين لك يا محمد من يؤمن بالقرآن الكريم .

و "ال" في ﴿ الْكِتَابَ ﴾ للعهد في المرتين . ففي المرة الأولى يراد به القرآن الكريم المعهود في الذهن والذكر ... وفي المرة الثانية يراد به كتب أهل الكتب فهم أهلها المذكورون في الآية السابقة .

﴿ وَمَا تَجْحَدُ بِغَايَتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴾ أى وما ينكر آياتنا التى أنزلناها وأوجدناها في الكون والحياة إلا أصحاب القلوب الجاحدة ، والعقول الجامدة التى تنكر ضوء الشمس المشرقة ، وترد نبض الحياة وهى متجددة متحركة .

(١) صحيح البخارى . كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة . باب قول النبى ﷺ : " لا تسألوا أهل الكتاب عن شئ " ج ٩ ص ١١٠ .

(٨٨٣)

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان منهجا عمليا لدعوة أهل الكتاب حيث تقرر بدينهم ، وتدعو إلى الحوار وحسن الخطاب ، والإحاطة بما هم فيه من علم بالكتاب ، والإيمان ، ما لم يبدأوا بعدوان وظلم ، لأن معاملة الظالم بظلمه أجدى نفعا ، وأقوم سبيلا .

وتبين الآيات كذلك أن الله أنزل القرآن الكريم مثلما أنزل الكتب السابقة ومن أهل الكتاب من يؤمن بالقرآن الكريم فقد علموا ما في كتبهم عنه ، ولن ينكر القرآن الكريم إلا الجاحدون الجامدون .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هي :

بيان الحق وإظهاره

هو الدعوة إلى الله تعالى

الإسلام دين الله تعالى ، والدعوة إليه وتبليغه واجب الأمة ، ولا يحتاج التبليغ إلا لبيان الإسلام ، وتوضيحه كما نزل من عند الله تعالى .
وخير البيان ما جاء في القرآن الكريم فقد فصل كل شئ ، وحدد أصول الإسلام ، ومبادئه .

ومن هذا البيان نعرف أن الإسلام خاطب الناس بطرق مخاطبة الملاء والمستكبرين ، وطريق دعوة الضعفاء والمساكين ، والصغار ، والكبار ، والرجال ، والنساء ، ومنه دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد قسمهم القرآن الكريم إلى صنفين :

صنف معتدل في خلقه ، وسلوكه ، ومعاملاته ، وهو يدعى بالحسنى وبإظهار القضايا التي يشترك المسلمون معهم فيها مثل الإيمان بالله الواحد ، وبمجئ رسول من الله ، ونزول كتاب ، ليأمنوا للمؤمنين ، ويروا ما في الإسلام من واقعية ، وقرب من الحق ... وهذا يبسر الدعوة ، ويسهل بيان الحق ، واطهار الصواب .

وصنف آخر من أهل الكتاب ظالم معتد ، لا يحب سماع دعوة ، ويصد الناس عن دين الله تعالى ، وهؤلاء يحتاجون إلى دعوة تناسبهم فيها الإنذار والتحذير ، ودفع العدوان بما برده ، ويقضى عليه .

إن الإسلام دين يؤمن بالحرية ، ويكرم الإنسان ، ويتعامل مع الواقع بما يناسبه ويستحقه ، وكل ما يعينه إظهار الدين ، وبيان تعاليمه ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

القرآن الكريم كلام الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُمْ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن القرآن الكريم كلام الله تعالى وأن بعض أهل الكتاب يؤمن به جاءت هاتان الآيتان لرد زعم من يزعم أن القرآن الكريم من وضع محمد ﷺ .

(٨٨٥)

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن القرآن الكريم كلام الله تعالى ، وأن محمدا ﷺ كان أميا لم يكتب ولم يقرأ ، وقد تلقى القرآن الكريم وحيا من الله تعالى ، وهم شهود على ذلك .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُمْ بِيَمِينِكَ ﴾ أى أنك يا محمد كنت أميا لا تقرأ من كتاب ، ولا تكتب خطا بيمينك حتى يقال إنك قرأت شيئا من أخبار الأولين ، وأساطيرهم ، وكتبته وزعمت أنه كلام الله . وربطت الآية الكتابة باليمين جريا على غالب عادة الناس ، فالكتابة باليمين أو بالشمال سواء .

﴿ إِذَا لَازَتْكَ ابْنُ الْمُبِطْلُونَ ﴾ أى لو كنت يا محمد تقرأ وتكتب لشكك الكافرون في الوحي ، واتهموك بالكذب ، فهم يعملون على إبطال الدعوة ، وصد الناس عن دين الله ، واعتماد أى شبهة ظنية للطعن فيك ، وفى رسالتك . وقد نجاك الله من مطاعنهم فخلقك ، وجعلك أميا لا تقرأ ، ولا تكتب ، فلا وجه للشك في أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى .

﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أى بل هذا القرآن آيات واضحة شاهدة على الحق ، يعجز الناس جميعا عن الإتيان بمثل أقصر سورة منها ، وقد مكن الله القلوب المخلصة الصافية من حفظها ، والاهتداء بهديها ، والدعوة بها ، وأخذ الدين منها وهى قلوب النبی ﷺ وصحابته الكرام .

﴿ وَمَا سَجَّحْدُ بِعَايَتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ أى وما ينكر البراهين والحجج التى أنزلها الله تعالى ، ويكذب بالقرآن الكريم إلا الظالمون المجاوزون للحد ، المعاندون المكابرون . فقد جاء بالبراهين الدالة على أنه كلام الله من خلال آياته ومعجزاته .

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : "ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة"^(١) .

لقد بقى طعن الظالمين في القرآن الكريم كلاما عاما بلا دليل أو سند ، وثبت عجزهم أمام جوانب القرآن ، لم يأتوا بمثله بلاغة وبيانا ، ولم يشككوا في أنبائه وأخباره ، ولم يبطلوا شيئا من عناصره الدينية التشريعية ، ولم يكتشفوا فيه اختلافا وتعارضا ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾^(٢) .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الله اختار محمدا ﷺ رسولا أميا لا يقرأ ولا يكتب منعاً لذريعة الكافرين الذين يتهمون فيها رسول الله بتأليف القرآن ، وكتابته من أساطير الأولين ، وتؤكد أن الله جعل القرآن الكريم آيات واضحة في عقول العلماء المخلصين ، حيث لا قيمة لإنكار الجاحدين الظالمين .

(١) معجم ابن عساكر ج ١ ص ٣٧ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٨٢ .

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هي :

تأكيد أن القرآن الكريم كلام الله تعالى

الإسلام دين الله تعالى نزل به القرآن الكريم كلام الله تعالى على رسول الله ﷺ ، ولذلك حاول الجاحدون صد الناس عن الإسلام بإنكار رسالة رسول الله ﷺ ، وبزعم أن القرآن الكريم ليس كلام الله تعالى ، وإنما هو من أساطير الأولين التي نقلها محمد ﷺ .

إن المشركين تيقنوا أن الوسيلة لمعرفة الله تعالى ، وبيان الإسلام هي القرآن الكريم كما يتلوه عليهم رسول الله ﷺ ، فركزوا الطعن في رسالة محمد ﷺ وفي ثبوت مصداقية القرآن الكريم .

وخاب ما تمناه المشركون بإبطال مدعاهم ، وثبوت نبوة محمد ﷺ بالمعجزات التي أظهرها الله على يديه ، وبمعرفتهم بصدقه وأمانته ، وينزول القرآن الكريم فيهم ، وتحديدهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ... وتضمنه لوجوه عديدة من الإعجاز .

لقد ثبتت أمية محمد ﷺ ليعلم الناس أن محمدا ﷺ لم يقرأ القرآن من كتاب آخر ، ولم يمله عليه غيره ، وإنما هو كلام الله تلقاه ﷺ من ربه ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١﴾ .

وخصوم الإسلام يحاولون نقد القرآن الكريم بطرق شتى ليهدموا الإسلام إن استطاعوا .

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٩٣ ، ١٩٤ .

والدعاة إلى الله مسئولون عن مواجهة الباطل بالحق ، وتفنيد مزاعم المبطلين ، والاستفادة بالعلماء المخلصين الذين يرجون الحق ، ولا يخافون في الله لدقة لائمه .

وعليهم أن يهتموا بالقرآن الكريم لتعليمه ، وتفهمه ، والعمل به .

تعنت مشركى مكة

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ؕ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوتِيَكَ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴿٣﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۖ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦﴾ ۖ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة ضلال القوم في اتهامهم محمدا ﷺ بتأليف القرآن الكريم جاءت هذه الآيات لبيان تعنت المشركين في طلبهم آيات حسية غير القرآن ، واستعجالهم نزول العذاب الذى خوفهم منه رسول الله استهزاء وسخرية .

(٨٨٩)

- ٢ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المشركين استمروا في جحودهم ، وظلمهم ، فطلبوا نزول آيات حسية مثل الآيات التي جاءت من سبقهم من الأمم فرد الله عليهم ... ولما استعجلوا العذاب الذي خوفهم الرسول به ، رد الله عليهم أيضا .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ أى وقال المشركون من أهل مكة : هلا أنزل الله على محمد آية حسية مثل الآيات التي نزلت على الرسل السابقين قبله كعصا موسى ، وناقة صالح ... وغيرها لتكون لهم دليلا وحجة يثبت الله بها صدق محمد ، وقد رأوا في المعجزات الحسية أثرا أكبر من تأثير القرآن الكريم ... وهذا من تعنتهم وجحودهم فقد رأوا كثيرا من المعجزات الحسية التي جعلها الله لمحمد ﷺ مثل انشقاق القمر ، وكلام الحجر وادرار الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ ، إلا أنهم تركوا ذلك ، وأنكروا معجزة القرآن المعنوية ، وطلبوا معجزات حسية جديدة غير التي أنتهم ليصدقوا محمدا ، ويؤمنوا بالله تعالى .

﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ﴾ أى قل لهم يا محمد إن أمر المعجزات وأمر إنزالها إلى الله تعالى ... ولو علم سبحانه وتعالى إيمانكم بالمعجزات الحسية لأنزلها لكم ... إلا أنه سبحانه وتعالى يعلم ما في قلوبكم من جحود ، ويعلم أنكم لن تؤمنوا بالآيات التي طلبتموها لو جاءتكم ، ولذلك لن يحقق لكم ما تطلبون .

﴿وَأِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى إني مكلف بتبليغكم دين الله تعالى ، وأبشركم بالخير إن أطعتم ، وأنذركم بالنار إن عصيتم ، وحدود رسالتي هي دعوتكم إلى الله على الوجه البين الواضح الذى أمرنى الله به .

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ ؟ ... والاستفهام للإنكار التعجبى . والمعنى أجهلوا أمرهم وعلموا أن القرآن الكريم لا يكفيهم في الأدلة على الإيمان بالله والدخول في الإسلام ؟ ومصدر العجب والإنكار أن القرآن الكريم أنزله الله على محمد الأُمى الذى تحداهم بأقصر سوره ، وثبت أمامه عجزكم ... ألا يكفى هذا دليلا على صدق محمد ﷺ .

إن نزول القرآن بتراكيبه ومعانيه أقوى في الاستدلال من إنزال مائدة من السماء ، ومن أى معجزة حسية ... لان المعجزة الحسية تظهر وتختفى وتنتهى أما القرآن الكريم فهو باق معهم ، محفوظ بين أيديهم ، يقرأ ويتلى في كل وقت ومكان ، واعجازه مستمر ، واصلاحه لشئون البلاد والعباد مقرر ، وتحديدده للصرط المستقيم مؤكد ثابت .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى إن في القرآن الكريم عون لمن آمن به ، وتيسير لعلمه ، وعمله ، فهو يذكره بأخبار الأولين والآخرين ، ويعرفه بأحوال الدنيا والآخرة ، وسوف يستفيد به المؤمنون الصادقون .

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ شَهِيدًا﴾ أى قل يا محمد لأهل مكة الذين يكذبونك : يكفينى أن الله عليم بى وبكم ، وسيحاسبنى وسيحاسبكم على ما نحن فيه من حق أو ضلال .

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى إن علم الله أمر ثابت لأنه سبحانه وتعالى يعلم ما في السموات والأرض ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾^(١) .

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾
أى والذين آمنوا بالأصنام وعبدوها ، وكفروا بالله الذى خلقهم هم الذين خسروا دنياهم وأخراهم ، وسوف يعذبهم الله بعذابه ، ويلقيهم فى جهنم وبئس المصير .

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أى ويطلب مشركو مكة نزول العذاب الذى تخوفهم به سخرية واستهزاء فلقد خوفهم رسول الله من العذاب الذى نزل بالأمم السابقة فاستهزأوا ، واستعجلوا مجئ هذا العذاب .

﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أى ولولا أن الله قدر عدم استئصالهم ، وحدد لعذابهم وقتا معينا ، وحالة معينة ، لولا ذلك لاستأصلهم ، وجاءهم العذاب الذى استعجلوه .

﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أى سوف يأتيهم العذاب فجأة فى وقت لا يتوقعونه ، ولا يتصورون مجئ عذاب الله فيه .

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أى يطلب المشركون مجئ العذاب بسرعة مع أن جحودهم ، وإنكارهم ، ومعاصيهم تؤكد استحقاتهم لنار جهنم ، التى تحيط بهم يوم القيامة ، كما تحيط بهم أعمال الكفر والسوء فى الدنيا ، ولو كانوا يعقلون لتصوروا هذه الإحاطة المدمرة فى نار السعير ، ولاسرعوا إلى التخلص من أسبابها المحيطة بهم فى الدنيا .

(١) سورة الحاقة ، الآية ١٨ .

﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ

ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى أن جهنم ستحيطهم بنارها من كافة جوانبهم ، من

تحت أرجلهم ، ومن فوق رؤوسهم ، وتوبيخهم الملائكة وهم يسخرون منهم ويقولون لهم ذوقوا جزاء عملكم ، وكفركم ، وجحودهم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات سوء أقوال وأحوال المشركين فى الدنيا ، وفى الآخرة ، فهم فى الدنيا يظهرون التعنت ، والاستهزاء ، ويطلبون آيات حسية تماثل آيات الأنبياء السابقين ، ويستعجلون نزول العذاب الذى خوفهم منه رسول الله ﷺ وتلك أقوال وأحوال الطغاة الظالمين ، فلقد جاءهم رسول الله بآيات حسية عديدة وأنزل الله لهم القرآن الكريم للهداية والاصلاح ، وتبيان الصراط المستقيم ، وأبقاه فيهم ، وحفظه لهم ليتلى عليهم ، وكلما قرأوه تذكروا الله بقراءته ، وأصلحوا به دنياهم وآخرتهم ، وأما استعجالهم للعذاب فهو سفه ، فقد بين الله أنه لن يستأصلهم ، وأن العذاب سيأتيهم فجأة فى وقت لا يتوقعونه ومن سفهم أنهم يستعجلون العذاب ، وكل أعمالهم فى الدنيا تسوقهم إلى جهنم التى ستحيط بهم من كل جانب ، ومن فوقهم ، ومن تحت أرجلهم .

(٨٩٣)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

فروق بين المعجزات الحسية والمعنوية

تتنوع معجزات الله لرسله إلى نوعين :

النوع الأول : معجزات حسية خارقة للعادة تبهر الناظرين ، وتنتهى بعد

مدة .

النوع الثانى : معجزات معنوية تبهر من يراها ويسمعها ، وتستمر مع

الناس بلا انقطاع إلى يوم القيامة .

والعقلاء يفرقون بين النوعين ، ويرون أن المعجزات المعنوية أقوى أثرا

وأدوم زمنا ، وأوسع فائدة للناس .

والمعارضون للحق ، الصادون عن دين الله يعاكسون الحقيقة ، ويدعون

أن الموجود لا يكفى ، ويطلبون غيره ، فإن جاء غيره أنكروه ، وطلبوا ما عداه .

إنهم يتعنتون فى رؤاهم ، وطلباتهم ، وكل ما يأملون فيه هو صرف

الناس عن الإسلام ، واشغالهم يتوافه الأمور .

إن الشئ وضده لا يعجبهم ، ومعارضتهم تتجه للموجود حتى يزول بلا

سبب ولا دليل .

وكان من قدر الله أن اختار محمدا ﷺ أميا قطعاً لاتهامهم ، فتركوا أمر

أمية الرسول وانتقلوا إلى غناه ، وتسلبه على الناس .

إن القرآن معجزة خالدة ، ووجوه الإعجاز فيه متنوعة وكثيرة . يرى فيه

العلماء على اختلافهم ، براهين صدقه فى وجوه الإعجاز فيه .

ففيه الإعجاز البيانى المتضمن لعلوم العربية بقوالها ، وصورها .

وفيه الإعجاز التاريخي حيث أخبار الأمم الماضية وأنباؤهم ، وإبراز عناصر معينة للاستفادة بها .

وفيه الإعجاز العلمي حين يتحدث عن الليل والنهار ، والمطر والسحاب والدواب والهوام .

وفيه الإعجاز الفقهي ، وهو يفصل الأحكام ويضع المبادئ الكلية .
وفيه الإعجاز الطبى ، والأخلاقى ، والاجتماعى ، والاصلاحى ... الخ .
إن أوجه إعجاز القرآن الكريم عديدة ، وكلها تدعو إلى الإيمان بالله تعالى .

وحينما يطلب المتعنتون معجزات حسية تغنيهم عن معجزة القرآن الكريم يبين لهم .

إن المعجزات الحسية لا تدوم ، وقد رأوا منها الكثير ... وعليهم أن يستفيدوا بالقرآن الكريم ، فهو معهم ينلّ عليهم ، واعجازه شاهد على صدقه .

الركيزة الثانية

تعنت المشركين مردود عليهم

ينكر المشركون الآخرة ، ولا يصدقون بالعذاب الذى خوفهم منه رسول الله ﷺ ، وقد استهزأوا بالعذاب ، واستعجلوا مجيئه ، لأنهم لا يصدقون بوقوعه مع أن حياتهم تدل على خداعهم وكذبهم .

إن الحياة تقوم على المسؤولية والجزاء وعلى الحق والواجب ، ويضع الناس لها القانون ، والأخلاق .

لقد أسلم بعض المشركين بالآخرة حينما وجدوا ظالما يموت بلا عقوبة لأن رأوا العقوبة فى الدنيا مناسبة للعمل ... فلما رأوا انعدام العقوبة فى الدنيا انتظروها فى الآخرة .

(٨٩٥)

إن المشركين يعيشون المعاصي ، ولا ينظرون آثارها ، ولا يأملون في نتائجها ، ويستمتعون في تعنتهم وضلالهم .
إن فكر المشركين قاصر ، ولذلك رد الله تعنتهم ، وسهل إفحامهم بالدليل والبرهان .

في الأرض متسع للمؤمنين الضعفاء

يقول الله تعالى :

﴿ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ۝٥١ كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٢ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعَمَ أَجْرٌ ۖ لِّلْعَمَلِينَ ۝٥٣ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٤ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ۗ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥٥ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أحوال المشركين جاءت هذه الآيات تبين أحوال المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن أرض الله واسعة تسمح للمؤمن أن يعبد ربه في الأرض التي تمكنه من العبادة وتسمح له بالهجرة إلى موطن الأمان ، وتبين أن الموت قدر حتمي ينال بعده المؤمنون جزاء أعمالهم الصالحة ، وتوضح الآيات أن قدر الله غالب ، وهو سبحانه يرزق عباده كما يشاء ، وهو السميع العليم .

الدلالات اللغوية

﴿ يَعْبادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴾ أى

ينادى الله عباده المخلصين ، ويقول لهم : يا عبادى الذين وحدونى ، وآمنوا بى وبرسولى محمد ﷺ ، إن أَرْضِي لم تضق عليكم فتقيموا بموضع لا يجوز لكم المقام فيه ، فإذا انتشرت المعاصى فى موضع ، ولم تقدروا على تغييرها ، فهاجروا منه إلى موضع آخر تتمكنون من القيام فيه بشعائر دينكم .

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "الأرض أرض الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما وجد أحدكم خير فليترك الله وليقم"^(١) .

ومن ثم لما ضاق على المستضعفين مقامهم بمكة خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليؤمنوا على دينهم هناك ، فوجدوا خير المنزلين لدى أصحابهم النجاشى ملك الحبشة ، فأواهم ، وأيدهم بنصره ، وأنزلهم ضيوفا مكرمين ببلاده ، ثم هاجر رسول الله ﷺ والصحابة الباقون فى مكة إلى المدينة .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ أى أن البقاء فى أرض الدنيا لن يدوم ،

وكل نفس ستموت وتترك موطنها ، فلا تتمسكوا بأرض ، واحرصوا على العبادة التامة فهى التى ستكون معكم بعد الموت .

﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أى أنكم أيها المؤمنون سترجعون إلى الله بعد

الموت فاعملوا لهذا الرجوع فهو الباقي الدائم لكم .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى

مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ أى إن الله يجازى

(١) المعجم الكبير للطبرانى ج ١ ص ١٢٤ .

الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالجزاء الحسن حيث يسكنهم الجنة التي عرفها لهم وقد جعلها غرفا مبنية فوق الأنهار الجارية ، والخضرة اليانعة ، والفسحة الواسعة ، فقد عملوا لها ، واستحقوا هذا الجزاء بعملهم فنعم هذا الجزاء ، ونعم هذا المصير .

﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أى استحق المؤمنون أجرهم فى

الآخرة جزاء صبرهم البالغ ، وتوكلهم التام على ربهم الحكيم الخبير .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى هاجروا أيها المؤمنون وتوكلوا على الله تعالى ، وجاهدوا أعداءه ، ولا تخافوا عيلة ولا إقتارا ، فكم من دابة ذات حاجة إلى الغذاء والمطعم لا تطيق جمع قوتها ولا حملة ، فترفعه من يومها لغدها عجزا منها عن ذلك ، ومع هذا يرزقها الله وإياكم يوما بيوم ، وساعة بساعة ، وهو السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم فلا تخشوا فراق الأوطان ، فإلى الله يصير أمركم ، وأمر عدوكم ولا تخفى عليه خافية من أمور خلقه .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الأرض لله ، وعلى المؤمنين أن يهاجروا إلى المكان الذى يتمكنون فيه من عبادة الله ، ولا يتألموا لترك الأوطان ، لأن الموت سيبعد الجميع عن أوطانهم ... وتبين الآيات الجزاء الحسن الذى سيناله المؤمنون حيث غرف الجنة فوق الأنهار المحاطة بألوان النعيم ، فقد صبروا وتوكلوا على الله تعالى ، والله يعطى جميع خلقه ما يشاء ، وهو واسع عليم .

(٨٩٨)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

توضح الآيات ركيزة هامة ... هى :

الضعف ليس عذرا للمؤمنين

المؤمن قوى بقوة الله ، عزيز بعزته ، وواجب عليه أن يقيم دينه ، ويعبد ربه ، وأن يتخلق بخلق حسن ، ويتعامل مع غيره فى بر واحسان ، لا يعتدى على غيره ، ولا يظلمه ، ولا يخدعه ، ولا يخونه .

وهو فى هذا المسلك الإيمانى يعيش عزيزا كريما يعمل لآخرته بصالح دنياه ... ولا يستكين أمام ظالم غشوم .

إن سلاطين الظلم والطغيان يعملون على صد الناس عن الدين ، ويخوفونهم من الاستقامة ، ويلجأون إلى وسائل الإرهاب ، والقتل لتخويف عباد الله المستقيمين .

إن المؤمنين يعيشون فى الأرض بمنهج الله ، ويتمسكون بعزة الإيمان وقوة الحق ، ويعبدون الله ، بلا استكانة أو ضعف ، ويخشونه ، ولا يخافون غيره ...

وهم على يقين بأن الظالم مهما بالغ فى عدواته ، فلن ينتصر على مراد الله تعالى ...

وكم من ظالم علا وبغى ، وطغى فسقط من عليائه فى وقت سطوته بصورة غريبة عجيبة لا يفسرها إلا قدر الله تعالى !!

لقد جعل الله الأرض كلها موطنًا للمؤمن ليقيم حيث يتمكن من عبادة الله وليهاجر إلى مكان فيه العدل والأمان .

وشرع الله الجهاد بالكلمة ، والعمل ، والسيف للقضاء على الظلم والظالمين ، ودعا إلى تحمل المشاق من أجل حماية الدين وقال سبحانه للمجاهدين : ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ ^ط وَتَرْجُونَ ^ط مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ^ط وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ^(١) .

والدنيا ليست هي غاية المؤمن ، فهي مقدمة غايته في الآخرة ، ولذلك يعمل لها ، ويموت في سبيل الله من أجلها ، ويكفيه إن مات على جهاد وعمل صالح ما سيناله في الآخرة عند الله . يقول سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ^(٢) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ^(٣) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ^(٤) ﴾ ^(١) إن أى ضعف يعيق المؤمن عن طاعة الله تعالى يعد إثما يحاسبه الله عليه ، فقد ظلم نفسه بضعفه . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفُلُكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ^ط قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ^ط فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ^ط وَسَاءَتْ مَصِيرًا ^(٣) .

(١) سورة النساء ، الآية ١٠٤ .

(٢) سورة آل عمران ، الآيات ١٦٩ . ١٧١ .

(٣) سورة النساء ، الآية ٩٧ .

ولا يصح للمؤمن أن يخاف ظلماً أو قتلاً ، فكل مقدر فى علم الله ، ولا يجوز له أن يخاف على رزق ، فالله هو الرزاق ذو القوة المتين ، وقد خلق الأرض وقدر فيها أقواتها ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾^(١) .
 إن المؤمنين أعزاء فى الدنيا ، مكرمين فى الآخرة ، والله ولى الصالحين .

إقامة الحجة على المشركين

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾^(١) **﴿** اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ^٢ **﴾** إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ **﴿** وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ **﴿** وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ **﴿** فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ **﴿** لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ **﴿** **﴾** .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة الجزاء الحسن الذى أعده الله للمؤمنين جاءت هذه الآيات لبيان أدلة وآيات صحة الإيمان ، وإقامة الحجة على الكافرين .

(١) سورة الذاريات ، الآية ٢٢ .

(٩٠١)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المشركين يعلمون أن الله هو الخالق الرازق ، وهو الرب المتصرف إلا أنهم يشركون فى الألوهية ، ويعبدون غيره ، وهذا دليل كذبهم ، وعدم عقلهم ، إنهم يعيشون الحياة الدنيا لهوا ولعبا ، وينسون الآخرة وإذا أصابهم ضرر لجأوا لله ، فإذا رفع الله الضر عنهم إذا هم يشركون ، وسوف يرون جزاء شركهم فى عذاب أليم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أى ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين عن الخالق ، المتصرف ، الرزاق ليقولن هو الله لأنهم يوحدون الألوهية .

﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ؟ ... أى فلم ينصرفون عن عبادة الله ، ويعبدون الأصنام وهذا يعد منهم كذبا فى السلوك والعمل ، لأن الصدق يقضى بعبادة الخالق ، والاستسلام لمن له الأمر كله .

وفى السؤال تعجب من حال المشركين مع الله لأنهم يجعلونه إلها واحدا ، وربما يشاركه فى الربوبية غيره ، وعبدوا هذه الأرباب ، ولم يعبدوا الله وحده .

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى أن الله هو الذى يرزق عباده جميعا ، فيوسع رزق من يشاء ويضيقه من يشاء بحكمة يقدرها ، وعلم بسائر خلقه .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أى إن سألتهم عن منزل الماء من السحاب إلى الأرض ، وعن من ساقه لمستقره حيث حياة الإنسان والحيوان والنبات سيجيبون ويقولون إن فاعل ذلك هو الله .

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أى أحمد الله واذكره بلسانك وقلبك فقد رفعك الله عنهم وعلمك ، وهداك ، واعلم أن أكثرهم لا يعلمون الحق ، ولا يعملون له .

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى اعلم يا محمد ، وعرف من وراءك أن الحياة الدنيا لهو ، ولعب ، وزخرف ، وزينة لا قيمة لها لأنها سرعان ما تنتهى وتزول ، واعلم أن الدار الآخرة هى الحياة الحقيقية ففيها الخير والسعادة إلا أن المشركين لا يعلمون ذلك ، ولذلك فهم يغترون بالحياة الدنيا ، وينسون الآخرة .

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى أن هؤلاء المشركين إذا ركبوا السفينة فى البحر ، وخافوا الغرق دعوا الله وحده وأفردوا له الطاعة ، وطلبوا منه النجاة ... ولم يستغيثوا بأصنامهم لأنهم يعلمون أنها لا تضر ولا تنفع .

﴿ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أى فلما خلصهم الله مما كانوا فيه من الضيق ، ونجاهم من الهلاك ، وخرجوا إلى البر إذا هم يعبدون الأصنام ، ويشركون بالله تعالى .

(٩٠٣)

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أى أنهم

يفعلون ذلك إثباتا لشركهم وجودا للمنع عليهم ، وسوف يعلمون عاقبة ذلك فى الآخرة .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن مشركى مكة كانوا يقرون بأفعال الله ، ويعترفون بأنه الخالق الرزاق ، المحيى ، المميت ، المتصرف فى الدنيا وفى الآخرة ، ومع ذلك يصرفون عبادتهم لغير الله تعالى ، فلئن سئلوا عن مالك السماء والأرض والليل والنهار ، ومنزل المطر ، ومخرج النبات ليقولن هو الله ومع ذلك يعبدون غيره ، وتغرهم الحياة الدنيا ، وينسون الآخرة ، وإذا وقعوا فى ضرر استغاثوا بالله ، وإذا نجوا عبدوا غيره فهم قوم لا يعقلون .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

جهل المشركين يصرفهم عن الإيمان

خاطب الإسلام العقل وقدم له الدليل والبرهان ، وأمره أن ينظر فى الآيات ليصل بها إلى الله تعالى إلا أن المشركين يجهلون ولا يعقلون ، فنجدهم يعرفون الدليل ، ولا يصلون لما يدل عليه ، ويقرون بأن الله هو الخالق ، والرزاق ، والمحى ، والمميت ، ومع هذا يتخذون الأصنام والأوثان آلهة ، ويعبدونها من دون الله تعالى .

إن المشرك لا يفكر بعقله ، ويترك دينه للتقاليد والخوف من المجهول
فيستمر على الكفر ، والضلال ، وهذا سر استمرار كثير من العلماء على كفرهم
وضلالهم .

ضلال المشركين ، وهداية المجاهدين

يقول الله تعالى :

﴿ أُولَٰئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ
أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨﴾
وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩﴾ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات سوء فهم المشركين للعبادة ، ولألوهية جاءت هذه
الآيات لبيان عدم استفادتهم بالواقع الذي يعيشون فيه ، وظلمهم لأنفسهم بالكذب
على الحق ، وتركهم للجهاد .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن أهل مكة كفروا بالنعمة التي أحاطهم الله بها ، وكذبوا على
الله وعلى الحق ، ولم يخافوا من عذاب جهنم ... وتوضح الآية الأخيرة أن
الذين يجاهدون في سبيل الله هو المستمسكون بالحق ، السائرون على الطريق
المستقيم ، وهم في رحمة الله ، وتحت رعايته وإحسانه .

(٩٠٥)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾

أى أجهل أهل مكة ولم يروا بأبصارهم وعقولهم أنعم الله عليهم ، فقد جعل الله مكة حرما آمنا يأمن فيه الإنسان ، والطير ، والحيوان ، والعالم كله حولهم يخاف الاختطاف والقتل والسلب .

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾

النعم أن يؤمنوا بالباطل ، ويعبدوا الأصنام ، ويكفروا بنعم الله تعالى .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا

جَاءَهُ﴾

أى وليس هناك أشد ظلما من إنسان كذب على الله ، وزعم أن له شريكا ، وأصر على ظلمه مع ظهور الآيات والبراهين وعلى ذلك الحال كان أهل مكة .

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾

أن تكون جهنم مثواهم ومآلهم ؟ ... فقد كذبوا بكل الحقائق ، وافتروا على الله الكذب وهم يعلمون أنهم كاذبون .

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

أى قضى الله بأن الذين جاهدوا فى سبيل الله ، وقاتلوا أعداءه المكذبين أن يوفقهم للنصر ، والصراط المستقيم ، وسيكون معهم موقفا ومعينا .

- ٤ -

(٩٠٦)

معنى الآيات

تبين الآيات أن أهل مكة يستحقون العذاب الأليم فقد رزقهم الله الأمن والثمر ومن حولهم ينتشر الإرهاب والخوف ، ومع ذلك يؤمنون بالأصنام ويكفرون بالله ... وتبين الآيات أن المجاهدين هم المحسنون ، وسينالون رحمة الله تعالى .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

أهمية التذكر الدائم بنعم الله تعالى

المسلم يعيش في الدنيا عبد لله تعالى ، وواجب أن يذكر الله دائما ، ولا يسهو عن نعم الله ، لأن الشيطان ينتهز غفلة الناس ويحاول إضلالهم عن سبيل الله تعالى ، وابعادهم عن الصراط المستقيم .
وخير الذكر شكر الله على نعمه وفضله ، وإخلاص العبادة له سبحانه وتعالى .

وعلى المسلمين أن يبذلوا جهدهم في طاعة الله ومقاومة الشيطان ، ورد غائلة المعتدين .

❖ ❖ ❖

إلى هنا ينتهى تفسير سورة "العنكبوت"
وبه ينتهى تفسير المجلد العاشر

الخاتمة

(٩.٨)

الخاتمة

الحمد لله أولاً وآخراً ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله ،
وصحبه ... ومن والاه .

وبعد ،،

فقد أعاننى الله تعالى على إتمام المجلد العاشر بتمام تفسير سورة
"العنكبوت" ، وهذا فضل كبير من الله تعالى لا أستطيع أن أوفيه شكره
ما حييت ، وربى غفور رحيم .

إن أى جهد بشرى لا يصل إلى الكمال أبداً ، وكل ما أتمناه لهذا التفسير
أن يضيف فائدة ما للدعاة ، وأن يجعله الله تعالى بداية لعديد من المؤلفات حول
الدعوة والدعاة استنباطاً من القرآن الكريم .

وأملأ في مزيد من الفائدة اتجه للعلماء ، وبخاصة الدعاة منهم ليجتهدوا
في هذا الجانب العلمى الهام ، وأن يخصونى بالنصح والتوجيه لأصح قصورا
عندى ، أو أصوب خطأ وقعت فيه ، أو أعلو بفكر يروونه لى .
إن مشاركة العلماء في النصح إثراء للفكرة ، وتجلية للغامض وتصحيح
للمسار ، وهذا ما أتمناه .

لم أتصور مطلقاً استطاعتي على إنجاز مؤلف تفسيرى بهذا الحجم وحدى
، وقد عشت هذا التصور مدة طويلة أحجم فيها عن الإقدام ، وكانت إرادة الله
أن أبدأ مع كبر سنى وكانت معونته سبحانه وتعالى وتوفيقه هى الزاد ، وهى
السداد .

أمل في الله السداد والتوفيق ، وأسأله سبحانه وتعالى أن يرزقنى القوة التى
تبعد الضعف عنى وأن يهينى قوة العزيمة لاستمر فى المسير ... وأن يلمهنى
الثبات ، والرضا ، والطمأنينة ، لأن اليد المرتعشة لا تكتب ، والأرجل المهتزة لا
تمشى والعقل المتقلب لا يتخذ رأياً .

رب :

﴿ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا خُفِيَ وَمَا نُعْلِنُ^٥ وَمَا خَفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

فهرس موضوع الآيات

(٩١٣)

فهرس موضوع الآيات

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٩	المقدمة	.
سورة "المؤمنون"		
١٣	التعريف بسورة "المؤمنون"	.
التفسير		
٢٣	فلاح المؤمنين	[١]
٢٧	صفات المؤمنين	[٩ . ٢]
٣٩	ثواب المؤمنين فى الآخرة	[١١ . ١٠]
٤٣	آيات خلق الإنسان وبعثه	[١٦ . ١٢]
٥٠	آيات الله فى السماء	[١٧]
٥٣	آيات الله فى المطر والنبات	[٢٠ . ١٨]
٥٧	آية الله فى خلق الأنعام	[٢٢ . ٢١]
٦١	مع قصص سورة "المؤمنين"	.
٦٢	قصة نوح عليه السلام مع قومه	[٣٠ . ٢٣]
٦٩	قصة هود عليه السلام مع قومه	[٤١ . ٣١]
٧٣	قصص الرسل بعد هود عليه السلام	[٤٤ . ٤٢]
٧٦	قصة موسى وهارون مع فرعون وقومه	[٤٩ . ٤٥]
٧٨	قصة عيسى وأمه "عليهما السلام"	[٥٠]
٨٥	أمر الله لرسله "عليهم السلام"	[٥٦ . ٥١]
٩٢	من صفات المؤمنين	[٦٢ . ٥٧]
٩٨	من صفات الكافرين	[٧٣ . ٦٣]
١١١	تعنت المشركين وإنكارهم للبعث	[٧٧ . ٧٤]
١١٥	آيات الله فى الإنشاء والإعادة	[٨٣ . ٧٨]

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
١٢٣	جمع المشركين بين الإيمان والكفر	[٨٤ . ٩٠]
١٢٨	إنكار المشركين للحق البين	[٩١ . ٩٢]
١٣٢	الحاجة إلى معونة الله في الإيمان	[٩٣ . ١٠٠]
١٣٨	أحوال الناس يوم القيامة	[١٠١ . ١١١]
١٤٣	إقامة الحجة على الكافرين في الآخرة	[١١٢ . ١١٨]
سورة "النور"		
١٥١	التعريف بسورة "النور"	.
التفسير		
١٥٧	أهمية سورة "النور"	[١]
١٦١	عقوبة الزنى	[٢]
١٧٠	علاقة الزانى بالزانية	[٣]
١٧٤	قذف المحصنات من النساء	[٤ . ٥]
١٧٨	مشروعية اللعان	[٦ . ١٠]
١٨٤	حادثة "الإفك" وما ترتب عليها	[١١ . ٢١]
٢٠٠	أهمية التواصل الاجتماعي	[٢٢]
٢٠٤	عقوبة الذين يرمون المحصنات	[٢٣ . ٢٥]
٢٠٨	براءة السيدة عائشة "رضى الله عنها"	[٢٦]
٢١٣	أدب الإسلام في دخول البيوت	[٢٧ . ٢٩]
٢٢٢	غض البصر وحفظ الفرج	[٣٠ . ٣١]
٢٣٠	الدعوة إلى النكاح	[٣٢ . ٣٤]
٢٣٦	نور الله تعالى	[٣٥]
٢٤٣	عمار بيوت الله	[٣٦ . ٣٨]
٢٤٧	تفاهة أعمال الكافرين	[٣٩ . ٤٠]

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٢٥٢	آيات الله في خلقه	.
٢٥٢	أولاً : آيات تسبيح المخلوقات لله	[٤١]
٢٥٤	ثانياً : الله مالك كل المخلوقات	[٤٢]
٢٥٦	ثالثاً : آيات تكوين المطر وإنزاله	[٤٣]
٢٥٨	رابعاً : آيات تغليب الليل والنهار	[٤٤]
٢٦٠	خامساً : آيات تنوع الخلق	[٤٥]
٢٦٢	الغاية من الآيات المذكورة	[٤٦]
٢٦٥	بعض صفات المنافقين العملية	[٤٧ . ٥٠]
٢٧٠	صفات المؤمنين العملية	[٥١ . ٥٢]
٢٧٣	من صفات المنافقين القولية	[٥٣ . ٥٤]
٢٧٦	تمكين المؤمنين في الأرض	[٥٥ . ٥٧]
٢٨٣	آداب الاستئذان داخل البيوت	[٥٨ . ٦٠]
٢٨٩	ضرورة التعاون الأسرى	[٦١]
٢٩٥	الإيمان الحق	[٦٢ . ٦٤]
سورة "الفرقان"		
٣٠٣	التعريف بسورة "الفرقان"	.
التفسير		
٣١١	عظمة الله تعالى وفضله على عباده	[١]
٣١٦	وحدانية الله المطلقة	[٢]
٣٢٠	بيان ضلال المشركين	[٣]
٣٢٤	رد مزاعم المشركين عن القرآن الكريم	[٤ . ٦]
٣٣٠	رد مزاعم المشركين عن محمد ﷺ	[٧ . ١٤]
٣٣٩	تبكييت المشركين	[١٥ . ٢٠]

الجزء التاسع عشر

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٣٥١	الرد على منكرى البعث	[٢٣ . ٢١]
٣٥٦	علو مقام أهل الجنة	[٢٦ . ٢٤]
٣٦٠	ندامة الكافر يوم القيامة	[٢٩ . ٢٧]
٣٦٦	موقف الضالين من القرآن الكريم	[٣٤ . ٣٠]
٣٧٥	معاينة معارضى الرسل	[٤٠ . ٣٥]
٣٨١	استهزاء المشركين برسول الله ﷺ	[٤٤ . ٤١]
٣٨٧	من آيات الله المحيطة بالإنسان	[٥٤ . ٤٥]
٣٩٦	بيان ضلال الكافرين وتعتهم	[٦٢ . ٥٥]
٤٠٣	صفات عباد الرحمن	[٧٧ . ٦٣]
سورة "الشعراء"		
٤١٥	التعريف بسورة "الشعراء"	.
التفسير		
٤٢٣	بيان عظمة القرآن الكريم	[٢ . ١]
٤٢٩	تسليية رسول الله ﷺ وبيان منهج الإسلام	[٩ . ٣]
٤٣٨	قصص سورة "الشعراء"	.
٤٤١	أولاً : قصة موسى عليه السلام	[٦٨ . ١٠]
٤٧٥	ثانياً : قصة إبراهيم عليه السلام	[١٠٤ . ٦٩]
٤٩٠	ثالثاً : قصة نوح عليه السلام	[١٢٢ . ١٠٥]
٥٠٠	رابعاً : قصة هود عليه السلام	[١٤٠ . ١٢٣]
٥٠٧	خامساً : قصة صالح عليه السلام	[١٥٩ . ١٤١]
٥١٥	سادساً : قصة لوط عليه السلام	[١٧٥ . ١٦٠]
٥٢٢	سابعاً : قصة شعيب عليه السلام	[١٩١ . ١٧٦]
٥٤٢	دور القرآن الكريم في صنع الحياة	[٢١٢ . ١٩٢]

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٥٥٢	تحديد مجالات الدعوة لرسول الله ﷺ	[٢٢٠ . ٢١٣]
٥٥٧	الشعراء بين الذم والمدح	[٢٢٧ . ٢٢١]
سورة "النمل"		
٥٦٧	التعريف بسورة "النمل"	.
التفسير		
٥٧٣	إعجاز القرآن الكريم	[١]
٥٧٩	المؤمنون والكافرون في القرآن الكريم	[٦ . ٢]
٥٨٣	قصص سورة "النمل"	.
٥٨٣	أولاً : قصة موسى عليه السلام	[١٤ . ٧]
٥٨٩	ثانياً : قصة داود وسليمان "عليهما السلام"	[٤٤ . ١٥]
٦٠٨	ثالثاً : قصة صالح عليه السلام	[٥٣ . ٤٥]
٦١٣	رابعاً : قصة لوط عليه السلام	[٥٨ . ٥٤]
الجزء العشرون		
٦٢٧	ضرورة حمد الله تعالى	[٥٩]
٦٣٠	أدلة التوحيد الاستفهامية	.
٦٣٢	الدليل الأول : خلق السموات والأرض وإنزال المطر	[٦٠]
٦٣٣	الدليل الثاني : تهيئة الأرض لما خلقت له	[٦١]
٦٣٥	الدليل الثالث : تكريم الإنسان وإغاثته	[٦٢]
٦٣٧	الدليل الرابع : هداية الإنسان وسط الظلمات	[٦٣]
٦٣٨	الدليل الخامس : دليل الخلق والبعث	[٦٤]
٦٤٤	علم الله بالغيب كله	[٧٥ . ٦٥]
٦٥٠	موقف القرآن من بنى إسرائيل	[٨١ . ٧٦]

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٦٥٧	من علامات يوم القيامة وأهوالها	[٩٠ . ٨٢]
٦٦٥	منهج النجاح فى الدعوة إلى الله	[٩٣ . ٩١]
سورة "القصص"		
٦٧١	التعريف بسورة "القصص"	.
التفسير		
٦٨١	بيان القرآن الكريم	[٢ . ١]
٦٨٥	قصة موسى عليه السلام فى سورة "القصص"	[٤٣ . ٣]
٧٣٠	دلائل صدق محمد عليه السلام فى أخبار السابقين	[٤٦ . ٤٤]
٧٣٦	عناد المشركين وجدلهم قبل الآيات وبعدها	[٥٠ . ٤٧]
٧٤٣	مضاعفة جزاء من دخل فى الإسلام من أهل الكتاب	[٥٥ . ٥١]
٧٥٠	تسليّة النبي عليه السلام	[٥٧ . ٥٦]
٧٥٧	فضل الله على أهل مكة	[٦١ . ٥٨]
٧٦٥	خزى المشركين فى الآخرة	[٦٧ . ٦٢]
٧٦٩	الله رءوف بعباده	[٧٠ . ٦٨]
٧٧٣	آيات الله فى الليل والنهار	[٧٣ . ٧١]
٧٧٩	تبكيّت المشركين وتقريعهم	[٧٥ . ٧٤]
٧٨٢	قصة قارون	[٨٤ . ٧٦]
٧٩٥	تكريم الله لمحمد عليه السلام وأصحابه	[٨٨ . ٨٥]
سورة "العنكبوت"		
٨٠١	التعريف بسورة "العنكبوت"	
التفسير		
٨٠٧	ضرورة الابتلاء وأهميته	[٣ . ١]
٨١٤	العقوبة شاملة للمجرمين	[٤]

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٨١٧	عمل الإنسان عائد إليه	[٧ . ٥]
٨٢١	وصية الإنسان بأبويه	[٩ . ٨]
٨٢٨	ضعف المنافقين	[١١ . ١٠]
٨٣٢	ألاعيب الكافرين	[١٣ . ١٢]
٨٣٨	قصص سورة "العنكبوت"	.
٨٣٨	قصة نوح عليه السلام	[١٥ . ١٤]
٨٤٠	قصة إبراهيم عليه السلام	[٢٧ . ١٦]
٨٥٠	قصة لوط عليه السلام	[٣٥ . ٢٨]
٨٥٥	قصة شعيب عليه السلام	[٣٧ . ٣٦]
٨٥٦	قصة عاد وثمود	[٣٨]
٨٥٧	قصة موسى وهارون "عليهما السلام"	[٣٩]
٨٦١	شمول عقوبة الله للأمم المكذبة	[٤٠]
٨٦٥	هوان آلهة المشركين	[٤٤ . ٤١]
٨٦٩	معالم الفوز والنجاح	[٤٥]
الجزء الحادي والعشرون		
٨٧٥	منهج دعوة أهل الكتاب	[٤٧ . ٤٦]
٨٨٠	القرآن الكريم كلام الله تعالى	[٤٩ . ٤٨]
٨٨٤	تعنت مشركي مكة	[٥٥ . ٥٠]
٨٩١	في الأرض متسع للمؤمنين الضعفاء	[٦٠ . ٥٦]
٨٩٦	إقامة الحجة على المشركين	[٦٦ . ٦١]
٩٠٠	ضلال المشركين وهداية المجاهدين	[٦٩ . ٦٧]
٩٠٥	الخاتمة	.
٩٠٩	فهرس الموضوعات	.

(१२०)

.....

كتب
مطبوعة للمؤلف

(۹۲۲)

.....

الكتب المطبوعة للمؤلف :

- (١) دعوة الرسل إلى الله تعالى .
- (٢) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي .
- (٣) السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني .
- (٤) القول الدقيق في سيرة وعصر الصديق ﷺ .
- (٥) نظم الدرر في سيرة وعصر عمر ﷺ .
- (٦) حسن البيان في سيرة وعصر عثمان ﷺ .
- (٧) القول الجلى في سيرة وعصر علي ﷺ .
- (٨) موسوعة في الأديان والنحل (دراسة موسوعية للأديان والمذاهب) .
- (٩) الدعوة الإسلامية . أصولها . ووسائلها من القرآن الكريم .
- (١٠) الدعوة الإسلامية في العصر الحديث .
- (١١) قواعد الخطابة وفقه الجمعة والعيدين .
- (١٢) الخطابة العملية .
- (١٣) النظام السياسى فى الإسلام .
- (١٤) النظام الاقتصادى فى الإسلام .
- (١٥) النظام الاجتماعى فى الشريعة الإسلامية .
- (١٦) أصول الدعوة الإسلامية .
- (١٧) عوامل النجاح من خلال تجربة حية ، ونماذج رائدة .
- (١٨) الرسالة الغراء فى تربية الأبناء .
- (١٩) خيال الروح فى زمن الصبا (ديوان شعر كتب قبل سنتين عاما) .
- (٢٠) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الأول .
- (٢١) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الثانى .
- (٢٢) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الثالث .

(٩٢٤)

- (٢٣) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الرابع .
- (٢٤) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الخامس .
- (٢٥) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد السادس .
- (٢٦) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد السابع .
- (٢٧) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الثامن .
- (٢٨) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد التاسع .
- (٢٩) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد العاشر .

والله ولى التوفيق ،،،